الحديقةُ الغدامسيَّةُ

وفيها : المتونُ البستانيةُ، والمحاوراتُ الإلهيةُ، والإشاراتُ الغدامسيّةُ.
وبِوَاهِيَتِها : الشّروحُ الليبيةُ. وبآخرِها: الرسالةُ اليمانيةُ، والسيرةُ الرحمانيةُ.



الشيخُ بلخير الغدامسي (1862 - 1954م)

السَّاردُ الشَّارحُ : أبو الحارث موسى إبراهيم

dar ab

الحديقةُ الغدامسيّةُ

وهي سِفْرُ الخلافةِ

الكتابُ: الحديقةُ الغدامسيّة

Title: The Garden of Ghadames

المؤلفُ: موسَى إبراهيم

Author: Moussa Ibrahim

سنواتُ التأليفِ: 1999 – 2020م

ردمك: ISBN 978-1-78871-029-9

الموقعُ التفاعليّ للكتاب: www.facebook.com/The.Garden.of.Ghadames

(وبه قراءات صوتية للنص، وحوارات، ومناقشات)



كل شِعر في الكتاب هو من سردية الكتاب، عدا ما يتم الإشارة إليه في سياقه.

لوحةُ الغلافِ:

نافذة المحبة، من سلسلة أبواب الفرج. زيت على باب الخشب 65x55 سم

الفنان العراقي سعد علي https://saadali.es/saad-ali



Info@dararab.co.uk

www.dararab.co.uk

الطبعةُ الأولَى الكاملةُ 2020

الحديقة الغدامسية

وهي سِفْرُ الخِلافةِ

وهيَ أيضاً كتابُ الحديقةِ الزاهِرة، والرّوضةِ العاطِرَة،
في مُقاماتِ الخلافةِ الباكِرة

إمامُ المناهضةِ، وشَيخُ المكابدةِ، سيِّدُ أهلِ الغِناءِ، ومَوْلَى مجَالسِ
العُشَّاقِ، الشيخُ بِلْخيرْ، عبدُ الرحمنِ بنُ محمّدٍ بنِ عبدِ السلامِ الغدامسيّ
المعروفُ بالخليفةِ (1862–1954م)

سالكُ الطريقةِ، وطالبُ الحقيقةِ
أبو الحارثِ موسَى إبراهيم

نسخة رقمية خاصة

مِعمارُ الكتابِ

***

***

اِهْذِ واهْذُرْ، والثَغْ وتَمْتِمْ،
وارتبكْ وتلعثمْ، فإذا الكتابُ
يخرجُ متفرّقاً من بين شفتيكَ،
منهكاً على بَرَدِ أسنانِكَ،
متعباً فوق لَهَاتِكَ ولسانِكَ،
معقوداً بلُعابِكَ، حتّى يكونَ
هُوَ كِتَابَ الإنسَانِ.

- إلى كارل وجوليا 2011/1867م

نخبَ الخلافةِ الكاملةِ.

عتبةُ الحديقةِ

هذا كتابُ الحديقةِ الغدامسيّةِ من لَدُنِّ الشيخِ الجليلِ بِلخير، عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدٍ بنِ عبدِ السلامِ البستانيّ، المعروفِ عندَ من أَحبّهُ من أهلِ التصوّفِ، وتَبِعَهُ من جماعةِ العارفِينَ، بالخليفةِ. وهو رجلٌ غريبٌ في دهرِه، فريدٌ لم يُسمعْ بمِثلِه في الزمانِ. سكنَ واحةَ غْدامِسَ[1]، وماتَ بها، على أغلبِ القولِ، ليلةَ تمامِ ربيعٍ الآخِرِ من عامِ 1374 لهجرةِ النبيّ العربيّ، الموافقةِ للرابعِ والعشرينَ من شهرِ ديسمبرَ لعامِ 1954 من حسابِ المسيحِ، وهو زوجُ امرأةٍ واحدةٍ وأبو خمسةِ ذكورٍ وأُنثَيَينِ. وأخبرَ بعضُهم أنه ذهبَ بعلّةِ النُّقصَانِ وعمرُه حَاذى المئةَ فقاربَهَا.

وقد وقعَ عندي مخطوطُهُ هذا، بتوفيقٍ من عندِ الله، في خبرٍ عجيبٍ لا بُدَّ مِنْ أنْ أحدِّثَكَ بهِ. فبينما أنا في زيارةٍ لبلدةِ غْدامِسَ الطيّبةِ، شهرَ رمضانَ المباركِ عامَ 1419 هجريّ، الموافقِ للعامِ 1999 مَسيحيّ، استضافني أستاذٌ كريمٌ من أجوادِها، وخيرةِ أهلِها، هو بشيرٌ بنُ ضوءٍ بنِ خيرِ الدينِ. فقامَ بمؤونتي ومَبيتي، وحملَ عنّي عِبءَ الإقامةِ، وجَهْدَ الزّيارةِ. فبينما أنا نازلٌ صدرَ منزلِهِ الغْدامسِيِّ العتيقِ، وقد أعجبَني المُقامُ، وطاب ليَ الطعامُ، وزهَى الحديثُ، إذ بالأستاذِ الذي

---

[1] "غَدَامِسُ" و "غَدَامَسُ" وبلهجةِ أهلِنا "اغْدَامِسْ" هيَ جوهرةُ واحاتِ ليبيا، ودرّةُ بَلْداتِها الصّحراويةِ، كانتْ محطّةً عظيمةً للقوافلِ، ومعْبراً للتجارةِ والمالِ، وداراً للعلمِ والمجاهدةِ. عَجِبَ الناسُ من بهاءِ عُمرانِها، وكمالِ رسمِها، وحكمةِ تخطيطِها، فكتبوا في ذلكَ الآثارَ الجليلةَ والآدابَ العظيمةَ. ضربها برابرةُ الفرنسيسِ عام 1943م بالطيايير، فاستُشهدَ الرجالُ والنساءُ والأولادُ، وصارت شاهداً على الصبرِ والجهادِ. انظرْ رسالةَ الشيخِ بلخير في أوّلِ عمارِها ومعنى اسمِها آخرَ هذا الكتابِ.

كَلَّ بصرُه من غيرِ سوءٍ، وانحنتْ قامتُه لغيرِ ذِلّةٍ، يدنُو مني، ويهمسُ بأُذني سؤالَهُ الذي ذكّرني بالبداياتِ، وشَابهَ في قلبي أوّلَ ما تنزّلَ: تقرأْ؟

فأجبتُ، وبسمةُ زهوٍ على فمي: نعمْ يا عمُّ، أَقرأُ!

فأخذني من يُمنايَ، ونزلَ بي مَدْرجاً ضيّقاً يُفضي إلى حُجرةٍ سُفليّةٍ ذاتِ بابٍ مُحكَمِ الإغلاقِ، على ما رأيتُ. فأخرجَ مفتاحاً حديديَّ القوامِ، عتيقَ الرّسمِ، فتحَ به البابَ ووَلَجْنا. فإذا المكانُ، على غيرِ ما تصوّرتُ، حسنُ الضوءِ، لطيفُ الهواءِ، رَحْبُ المقامِ، وقد وصلَتهُ بالدّنيا وأهلِها نافذةٌ هي أقربُ للكُوّةِ المرتَجلةِ ارتجالاً، سرَى منها النورُ، ومرَّ النسيمُ، وظهرتْ نعالُ العابرينَ. وقد مُلِئَتِ الدارُ بالكتبِ، فعلَى الرفوفِ وفوقَ الأرائكِ. وتزيّنتْ جُدرانُها بآيِ القرآنِ بخطوطٍ مغربيةٍ وتَوشيةٍ أندلسيّةٍ.

تركَ الأستاذُ هذا كلَّهُ ومدَّ يديهِ إلى صندوقٍ أخضرِ اللونِ افترشَ أرضَ الدارِ، وأخذَ حُلَّتَهُ من زخارفَ ونقوشٍ وخطوطٍ وأشكالٍ، فكأنّهُ خزانةُ حسناءَ، أو موضعُ سرٍّ طالَ به الزمنُ فَلَمْ يُسَلِّمْ شِغَافَهُ لسَطْوَةِ البوحِ.

صارَ مُضيفي يَتلمَّسُ الكائنَ المعدنيَّ ينظرُ أين مَوْلجُهُ، وكأنهُ يتحسّسُ وجهَ حبيبٍ ليعرفَ خبرَه. فتحَ الصندوقَ فما صرَّ ولا نحبَ. وإذ بهِ غُفلاً، ليس فيهِ غيرُ مخطوطٍ قديمٍ قاربتْ أوراقُه المائةَ فأكثرَ من ذلكَ قليلاً، تآكلتْ أطرافُه، وبَهُتَتْ

سطورُه، وامّحتْ كلماتُه. ناوَلَنيهُ الأستاذُ فعَصَتْ عليَّ قراءةُ عُنوانِه واسمِ مؤلِّفِه. فتبسَّمَ حينَ رأى حَيرتي، وقِلَّةَ حِيلتي، وقال: هذا كتابُ "الحديقةِ الغدامسيّةِ"[2] وَرِثَهُ أبي ضوءٌ عن أخيهِ رافعٍ عن أخيهِما المختارِ عن أبيهم خيرِ الدينِ عن أخيهِ سالمٍ الطيّبِ عن أختِهما الجليلةِ عنْ أبيهم أحمدَ الرَّضِيّ عن شيخِه بلخير (وهو لغةٌ في "أبو الخيرِ")، عبدِ الرحمنِ بنِ مُحمّدٍ بنِ عبدِ السلامِ البستانيّ الغَدامسيّ، المتوفَّى عامَ ألفٍ وتسعمائةٍ وأربعةٍ وخمسينَ منْ حسابِ النَّصارى.

فارتبكتُ وتلخبطتُ من هذا الخبرِ الذي صادفَ هوًى في نفسي وسعياً حثيثاً وأمنيةً.[3] فسألتُ الأستاذَ وقد أخذَني نسبُهُ الطيّبُ بالرِّضا والسَّكينةِ: فهلْ تعرفُ ما به يا ابنَ الصالحين؟

قال: نعمْ ولا! ولهذا دعوتُكَ واستضفتُكَ. فإن أبا الخيرِ قطبٌ عظيمٌ، وغوثٌ

[2] قالَ شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى: هُوَ كتابُ "الحديقةِ الزاهرةِ، والروضةِ العاطرةِ، في مُقاماتِ الخلافةِ الباكرةِ"، وقالتْ أستاذَتي زُهرةُ حبيبةُ اللهِ بنتُ العالمِيَن: بل هو كتابُ "الحديقةِ البهيّةِ، والروضةِ السنيّةِ، في إقامةِ الخلافةِ العَلِيّةِ". قلتُ أنا موسَى: ووجدتُ عندَ بعضِ الخطاطينَ "هُو كتابُ الحديقةِ الدانيةِ، والروضةِ الغانيةِ، في مدارجِ الخلافةِ الآنيةِ". قالَ إمامي أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ: هوُ كتابُ الحديقةِ، أو كتابُ الخلافةِ، كلاهُما جنةُ الإنسانِ الكاملِ والخليفةِ العاملِ.

[3] في آخرِ هذه الطبعةِ تحقيقٌ لمخطوطةِ "الرسالةِ اليمانيّةِ" وفيها أسردُ سِرَّ معرفتي السابقةِ بالشيخِ بلخير عبدِ الرحمنِ الغدامسيّ، وغايتي من زيارتي هذه لبلدةِ غدامسَ باحثاً عن آثارِه وأخبارِه وتصانيفِه.

كريمٌ، عاملٌ عالمٌ، ساحَ في الأرضَ فعرفَ أقاليمَها، وخبرَ أَحوالَها وعُلومَها. فأقامَ في بلادِ تُمبكْتو العظيمةِ، وحجَّ إلى كانو وديارِ باماكو، وزارَ حواضرَ الشرقِ من شامٍ ويمانٍ، وهندَ وفارسَ. ثم ركبَ البحرَ إلى أرضِ أوروبَّه فساكنَها وقتاً حتّى لفظَهَا كما يلفظُ الطيّبُ الخبيثَ فيرجعُ خالصاً كما هو أوّلَ الأمرِ. فلمّا عادَ جلسَ في مسجدِنا العتيقِ ببلدةِ غْدامس هذهِ، وكتبَ وصنَّفَ، وألَّفَ وترجمَ، حتَّى كثُرَ طُلابُه من الأمصارِ يَجُدُّونَ إليهِ، وصَدّقهُ خلقٌ كثيرٌ صارَ محجّتَهم ومثابةَ قلوبِهم.

فلمّا حضرَهُ الموتُ اجتمعَ عليهِ مُريدوه لمَّا سَمِعُوا من داعي الجهادِ في ديارِ الجزائرِ.[4] فعزمَهُم عليهِ، وجعلَ لهم لواءً أخضرَ كلونِ الفيروزِ لا تنوشُهُ شائبةٌ. وأودعَ عندَ كلِّ مجاهدٍ أنّ "الظلمَ وجعُ الأرضِ". فخرجوا رجالاً ورُكباناً لمغربِ الشّمسِ، فضَربوا الظالمينَ فأَثخنوا فيهم. فاستُشهدَ علماؤُهم وأهلُ السَّبقِ منهم في مُنازلةِ "إيسَيّنَ"[5] الكريمةِ عام 1957م، وما تَلاها، ومَضتْ بقيَّتُهم بما فَضَلَ

---

[4] قلتُ أنا موسَى: هيَ قَوْمَةُ أهلِ الجزائرِ الكرامِ ضدَّ الظالمِ المحتلِّ لشهرِ الحرثِ، نوفمبر، عامَ 1954 لميلادِ المسيحِ عليهِ السلامِ، حتّى وافاهُم اللهُ بالنصرِ الكاملِ في ثماني سنينَ صاروا بها أئمةَ الجهادِ، وأصحابَ اللواءِ، وأهلَ القدوةِ الحسنةِ.

[5] في الفاتحِ من أكتوبرَ عامَ 1957م نفّذَ مجاهدونَ جزائريونَ هجماتٍ فدائيةً مباغِتةً ضدّ برابرةِ الفرنسيسِ ثم تراجعوا إلى بلدةِ إيسَيّن الواقعةِ داخلَ الأراضي الليبيةِ، في أقصَى جنوبِها الغربيّ. فتقدّمتِ القواتُ الفرنسيةُ المدجّجةُ وقصفتِ البلدةَ بالطائراتِ. فهبَّ المجاهدونَ الليبيونَ وعوائلُهم وناصروا إخوانَهم من الجزائرِ ونازلوا البرابرةَ حتى دحَروهم،

مِن علمٍ وخيرٍ فجعلوهُ في ديارِهم البعيدةِ، وبلدانِهم القصيَّةِ.[6]

وهذا كتابُهُ خَطَّهُ في عامِهِ الذي أفاضَ فيه إلى ربِّهِ. صَرفتُ حيناً من الدهرِ أَتَقارَأُهُ، فعصَى عليّ إلا قليلاً. وقد أَصابَتني الحمّى أوّلَ هذا الشهرِ الكريمِ، فخفتُ أن أقضي وليسَ لي ولدٌ، فيقضي معي سرُّ هذا الكتابِ. وقد ملَكَ الدّنيا الجهلُ، وأخذَها الغرورُ بالمالِ. فاستخَرتُ الله فألهمَني أنْ أقذفَ بهِ لأوّلِ إنسيٍّ ألقاهُ صائماً قائماً، عليهِ سيماهُ الهجرةِ وطلبِ العلومِ، فجرَ ليلةِ القدرِ من عامي هذا بالمسجدِ العتيقِ، مسجدِ الصحابةِ والفاتحينَ، فكنتَ أنتَ، فكانَ ما ترَى.

فكانت إيسَيّنُ بذلك معركةً فارقةً خفّفتِ الضغطَ العسكريَّ، والحصارَ، على الثوارِ في شمالِ الجزائرِ، بلدِ الجهادِ والتضحياتِ.

[6] ذكرَ بعضُهم أن الشيخَ بلخيرِ لمّا حضرَ إليه الناسُ يريدونَ الجهادَ في بلادِ الجزائرِ جلسَ ساعةً يفكّرُ في مُساكنَتِهِ لأهلِ باريسَ وقد رأَى من عجائبِ آثارِهم المدنيةِ ما رأَى حتى ظنّ الناسُ أنه لانَ لهُم. ثم استوَى وقال: أيها الناس! هؤلاء قومٌ اختلطَ طينُهم بطينِ الطاغوتِ الأكبرِ حتى صاروا لهُ أولياءَ وصارَ لهم حميماً، فلا يكونُ منهُم خيرٌ، ولا يحصلُ عنهم حقٌّ، ولا يترتّبُ عليهم صلاحٌ. فإن جاؤوكُم بثيابٍ تُعجبكم فانزعوها تَبِيُن جِلدتُهم البهيميّةُ من ورائِها، وإنْ كلّموكُم بلسانٍ صالحٍ فاخلعوهُ تجدونَ مَنْبِتَهُ الذي في الحلقِ خبيثاً غيرَ ذي صلاحٍ، وإن عملوا لكم ما ظهرَ أنه خيرٌ فامضوا به إلى عاقبتِه يأْتِكُم حسيراً من الشرِّ يكادُ أن يخسفَ بكم. قالَ الناسُ: ولِمَ؟ قالَ أبو الخيرِ: هم تركَّبوا في معيشتِهم علَى الظلمِ الذي انتظموهُ في أسواقِهم وحُكمِهم واجتماعِهم فلا يكونُ منهم خيرٌ حتّى يُبدِّلوا حالَ هذهِ المعيشةِ فيفهمونَ فيقعَ منهمُ الخيُر. قالوا: فما نفعلُ معهم وقد أتونا بالحديِد والنارِ؟ قال الشيخُ: اضربوهم يا أوادِم. فخرجَ الناسُ عنه مستبشرينَ.

قلت أنا موسىُ: فعَجبتُ من تصريفِ الأمورِ، وكيفَ حَسَّنَ اللهُ في ظنّي أن أُقيمَ ليلةَ القَدْرِ في العتيقِ لا أَبرحُهُ حتّى الفجرِ، في صحبةٍ من كُتبي وأوراقي ودُروسي.

أخذتُ المخطوطَ من الأستاذِ شاكراً، ولعهدِه حافظاً. وصرتُ بعدها إلى البلادِ البرّانيةِ للعلمِ. فنسختُهُ ورقياً ثمّ مسحتُهُ رقميّاً، وقَعدتُ أدرسُه أعواماً قاربتِ العِقْدَيْنِ عدداً. حتى فتحَ اللهُ عليَّ ما استغلقَ منهُ، ويَسَّرَ لي مَا أَشْكلَ فيهِ، ونوَّرني بِسرِّ مَعناهُ، وأَرْشَدَني لِعلمِ مَبناهُ. فكشَفْتُه فإذا هُوَ سِفرٌ في الخلافةِ الكونيّةِ، والجَهدِ الإنسانيّ، جَعَلَ فيهِ الشيخُ بلخير حاصلَ فكرِه، وجَماعَ قلبِه، وسَمّاهُ كتابَ *الحديقةِ الغدامسيّةِ*، وزادَ تحتَهُ: *وهو سِفْرُ الخلافةِ*. وقَسَّمهُ إلى أزمنةٍ ومواسمَ، وَرَتَّبَهُ علَى رسمِ المحُاورةِ. وحَكَى فيه ضَياعَهُ زَمنَ الغَيْبَةِ فلقاءَهُ الحَبيبَ الأكبرَ، فَأَمْرَ بِناءِ الحديقةِ ورَحيلِه في مواسِمِها حتّى بلوغِه زمنَ الخلافةِ وهُوَ الفلاحُ.

وإني وجدتُ في مخطوطِ الكتابِ الزيادةَ والنقصانَ، والمسحَ والتعديلَ، والخطَّ المتأني والخطَّ الذي ذهبَ على عجلٍ، وإضافاتٍ لاحقةً تعرفُها بتغيّرِ الحبرِ وهيئةِ الحروفِ وموقعِها من الصفحةِ الموسومةِ. غيرَ أنَّ صاحبَ الرُّقعةِ، وهو تلميذُ الشيخِ والقائمُ على خدمتِه آحمدو بن سالم، قرّرَ أنه أتمّه في آخرِ أيامِ أبي الخير، عام 1954م وبعضُ النصارى الزائرينَ بغْدامس يتزيّنونَ لمولدِ السيّدِ المسيحِ على ما أقرّته ديانَتُهم وفرضَه شرعُهم.

وقد نشرتُ من المخطوطِ شيئاً يسيراً للاستئناسِ وطلبِ المراجعةِ عندَ التلاميذِ

وبعضِ العارفينَ سنةَ 2003م. ثم طبعتُ مقداراً زائداً منهُ سنةَ 2006م. وأصلحتُ بعدَها من شأنِ النصِّ، وراكمتُ عليه بعضَ الشروحِ، وطبعَه صديقٌ لي طبعةً جميلةً سنةَ 2010م. وكلُّ هذه طبعاتٌ محدودةٌ غيرُ عموميّةٍ، لا تزيدُ نُسَخُ الواحدةِ منها علَى الثلاثينَ، قصدتُ بها الأساتذةَ والمريدينَ. وفي سنةِ النكبةِ الليبيةِ 2011م اشتدّتْ علينا قَنْبَلَةُ حلفِ الشمالِ حتّى احترقتْ أوراقي، وتهدّمتْ مكتبتي، وضاعَ ما ضاعَ من أجهزةِ الحاسوبِ والحوافظِ الرقميةِ والأقراصِ المدمجةِ. فخرجتُ إلى صحراءِ النيجرِ الإفريقيِّ يومَ الحادي عشرَ، من الشهرِ الحادي عشرَ، في العامِ الحادي عشرَ، من الألفيةِ الثالثةِ مع رفيقي الأخيرِ، وتركتُ عند أهلِ الجهادِ والمصابرةِ في الرّصيفةِ من بني وليدَ بطاقةَ ذاكرةٍ عليها نصُّ المخطوطِ وبعضُ التفاسيرِ والأسئلةِ والمرانِ. ومن هذه النسخةِ الوليديّةِ الرقميةِ طبعتُ الكتابَ طبعتينِ عموميّتينِ شديدتَيْ النقصِ مرةً في القاهرةِ سنةَ 2012م، ومرةً في لبنانَ سنةَ 2015م. فعلتُ ذلك على وجهِ العجلةِ خوفَ الموتِ الذي كان بي متربّصاً، وكنتُ له راضياً مطمئِناً.

ومازلتُ بعدَها في المَهاجرِ، أعيدُ العملَ في النصِّ وأراجعُ ما فاتني منهُ وأزيدُ عليهِ في الشّروحِ، حتى قيّضَ اللهُ لي أن أُخرجَ الحديقةَ الغدامسيةَ في هذا العامِ، (2020م)، في هيئةٍ هي أقربُ الهيئاتِ إلى التمامِ، وأغناها وأحسنُها ترتيباً ومراجعةً، وتزيدُ مقدارَ الضعفِ ونصفِ الضعفِ عن نسخةِ بيروتَ التي عرفَها الناسُ وتداولوها، وهي زيادةٌ عظيمةٌ في النصوصِ والمعاني. فهذه، رعاكَ اللهُ، الطبعةُ الأولى الكاملةُ، وأسميتُها "طبعةَ التّسليمِ" لأني بها أُسَلّمُ هذه الأمانةَ

الفكريةَ، والعُهدةَ التراثيّةَ، إلى حضرةِ القارئِ التاريخيِّ فلا أعودُ أرزحُ تحتَ وطأتها وشدةِ وقعِها، ولا تعودُ هي مرتَهَنةً بحياتي ومماتي.

وتجدُ، حفظكَ الله، في هذا الكتابِ الذي بين يديكَ سِتَّ جهاتٍ للنصِّ تتمايزُ وتتّصلُ ببعضِها البعضَ، وهي:

المتونُ البستانيّةُ: وهي بدنُ الكتابِ وفيها زمنُ الغيبةِ، ومواسمُ الحديقةِ الأربعةُ والعشرونَ، وزمنُ الخلافةِ الذي هو الفلاحُ. وفي هذه الجهةِ رحلةُ الشيخِ في مُقاماتِ الجهادِ الإنساني وأحزانُه وتجلياتُه، وبين سطورِها عالمٌ من الفكرِ المتّقدِ والسردِ الساحرِ والحكيِ الشهيّ.

المحاوراتُ الإلهيّةُ: وهي مَقولاتٌ بآخرِ كلِّ موسمٍ متصلةٌ في هيئتِها بالمتنِ البستانيّ، وتبدأُ كلُّ واحدةٍ منها بالشارحةِ "وقالَ ليْ"، وفيها كلامٌ من لَدُنِّ الحقّ يتلقّاهُ القلبُ حياً عن حيٍّ، ويكونُ علاماتٍ على الطريقِ، وبياناً للمسيرِ، وأنواراً كاشفةً للمعالمِ والتخومِ.

والمتونُ والمحاوراتُ هما أَرومةُ الكتابِ وأصلُه وبدنُه الغالبُ.

الإشاراتُ الغدامسيّةُ: وهي تجلياتٌ مفردةٌ في آخرِ كلِّ موسمٍ، تقاربُ المحاوراتِ في تعبيرِها وقد زِيْدَتْ عليها زيادةً لاحقةً في الوقتِ. ولا شكَّ معَ هذا

أنها من أصلِ المخطوطِ، غيرَ أنها تَغَيّرَ رسمُها وجرَى حِبرُها وبانَ على خطِّها الشغفُ والارتباكُ. قالَ أمينُ الشيخِ، وراقمُ الحديقةِ، الخطاطُ آخمدو بنُ سَالم:

"اشتدّتِ الحُمّى بشيخي آخرَ ليلةٍ يَشهدُها معنا، وكنتُ قد فرغتُ من خطِّ الكتابِ أولَ الليلِ، فطلبَ الدواةَ وفيها ثمالةُ الحِبْرِ، وجعلَ يَهذي ويقولُ: 'اسمعْ واكتبْ هذي في آخرِ موسمِ كذا'. ثم يغيبُ عنا زمناً نحسبُه قد رقدَ، فيعاوِدُنا ويقولُ: 'اسمعْ واكتبْ هذي في آخرِ موسمِ كذا'، حتى أتمَّ المواسمَ جميعاً، فقالَ: 'هذه إشاراتُ القدومِ عليهِ من موقفي هذا بغْدامسْ يا آخمدو'. فبكينا وقد عرفنا أنهُ لا يشهدُ معنا صلاةَ الفجرِ، رحمَهُ اللهُ رحمةً واسعةً."

الشروحُ الليبيّةُ: وهي ليستْ من المخطوطِ في شيءٍ، بل زِيْدَتْ على هامشِ هذهِ الطبعةِ من الكتابِ، في واطئةِ الصفحاتِ. وفيها بعضٌ من المناقشاتِ والمعاني والسرديّاتِ التي فتحَ اللهُ بها عليّ أنا موسَى، مُحَقِّقُ النصِّ، وعلى شيوخي وأصحابي من أهلِ الطريقةِ في برِّ ليبيا، حالَ قراءَتِنا للحديقةِ الغدامسيةِ ومراجعتِها في حلقاتِ الذكرِ والحضرةِ والدروسِ العلميةِ (1999–2011 ميلاديّة، وبعد ذلك قليلاً). وفيها فتوحاتٌ وأسئلةٌ وتجلياتٌ علّها تفيدُ القارئَ وتزيدُ في فهمِه للمخطوطِ.

ثم يَليها **الرسالةُ اليمانيّةُ**، وعنوانها الكاملُ "الرسالةُ اليمانيةُ في أولِ عَمارِ غدامسَ البهيّة"، وهي نصٌّ آخرُ صغيرٌ للشيخِ عبدِ الرحمنِ ليسَ متصلاً بالحديقةِ

أو بمخطوطِها، وكنتُ قد ورثتُه عن أبي الحاجِ عليّ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ ببادية سرتَ التي حلَّ بها الشيخُ الغدامسيُّ زائراً عام 1940 ميلاديّة. وبمناسبةِ هذه الرسالةِ، وفي سياقِها آخرَ الكتابِ، أشرحُ حكايتي مع الشيخِ عبدِ الرحمنِ وكيفَ عرفتُه، وعرفتُ فكرَهُ وأدبَهُ، أولَ مرّةٍ.

وآخرُ جهاتِ النصِّ **السيرةُ الرحمانيةُ**، وهي مَسردٌ زمنيٌّ متسلسلٌ جعلتُه لحياةِ الشيخِ منذُ ولادتِه وحتّى وفاتِه. وفيها أسفارُه، ومجاهداتُه، وكتبُه، ورسائلُه التي خرجتْ من رحمِ كلِّ بلدٍ حلَّ به، أو وقتٍ دخلَ في مُقامِه وحالِه. وسيظهرُ لكَ، رعاكَ اللهُ، اتساعُ أفقِ الشيخِ، وانعقادُه بالعالمِ، واشتباكُه بالخلقِ وهمومِهم، وانخراطُه في سُبُلِ العلومِ، ومقاصدِ الكشوفاتِ الكُبرى. ويتّصلُ بالسيرةِ الرحمانيةِ ترتيبٌ زمنيٌّ لمعرفتي بالشيخِ، وتواترِ مخطوطةِ الحديقةِ الغدامسيّةِ من استشهادِ الخطّاطِ آحمدو وحتّى تحقيقِها، وطبعِها، ونشرِها في البلادِ الليبيّةِ أولاً ثم في ديارِ المنفَى الإفريقيّ فالعربيِّ فالأوروبيّ.

***

وَقَدْ عَصَى عليَّ من الكتابِ شيءٌ كثيرٌ أوّلَ الأمرِ، وشقّتْ قراءةُ بعضِهِ حتَّى كدتُ أزهدَ فيهِ. ولكني رجوتُ أن يكونَ منهُ منفعةٌ للناسِ، فذهبتُ فيهِ بالجهدِ والمصابرةِ حتّى فهمتُه وحفظتُه أحسنَ الحفظِ. وجعلتُ ما لم أقدِرْ على بيانِهِ منهُ عملاً ليومٍ أدعو اللهَ أنْ أَشهدَهُ بصحَّةِ العقلِ والبَدنِ. وعَزمتُ، وعزمي باللهِ، أنْ أَنشُرَ هذا القدْرَ الكثيرَ الذي بينَ يديكَ. وهو أرومةُ الكتابِ على كلِّ حالٍ،

وفيهِ علمُ الشيخِ ورؤاهُ وتجلياتُه العجيبةُ على نحوٍ يقاربُ الكمالَ ويتاخمُ الآمالَ.[7]

وهَمُّ "الحديقةِ"، علَى ما عقَلتُ منها، بيانُ أن الخلافةَ أرضيّةٌ جماعيّةٌ تُؤْتَى بالمباشَرةِ لا بالتفويضِ[8]، وتثبيتُ المحبَّةِ بينَ الخلفاءِ العاملينَ منْ كلِّ مذهبٍ وطريقٍ، ووصْلُهُم بالحقِّ الشاملِ بالمجاهدةِ والمحاورةِ لا بالنصوصِ العتيدةِ والشرائعِ الشديدةِ.

وها هي يا أخي قدْ صارتْ بينَ يديْكَ، مُحقّقةً مَشروحةً. فاقرأها علَى مهلٍ، ولا تَعْجَلْ بها تُريدُ بَيانَها. بَلِ اخفِضْ لهَا، واصبرْ عَليها. عَلّها تكونُ مَبدأَ تحوّلٍ في نفسِكَ، ومَوطِئَ استقبالٍ في عقلِكَ لحقٍّ جديدٍ لمْ تَألفْهُ. فقدْ كانَ هذا حَالي معها،

---

[7] قلتُ أنا موسَى: وقد رأيتُ أن لا أُثقلَ نصَّ هذا الكتابِ المطبوعِ بالشروحِ الليبيةِ التي عَمِلْتُها على متنِ الحديقةِ، فعمدْتُ إلى أهمِّها فَأَثْبَتُّهُ وإلى سَوادِها فحذفتُهُ. ومن أرادَ أن يستزيدَ يُكلِّمُنا بالسؤالِ فنكلِّمُه بالجوابِ الشّافي، والزادِ الكافي، بإذنِ اللهِ. قلتُ: ولا تُرهقْ نفسَكَ، طيَّبَكَ اللهُ، بقراءةِ كلِّ شرحٍ في موضعِهِ، بلِ انْتَهِ إلَى آخِرِ كلِّ موسمٍ أو بابٍ من أبوابِ الكتابِ ثمَّ عَاوِدْهُ وعينُكَ علَى الشروحِ فهو أدنَى إلى الفهمِ السَّليمِ واللذَّةِ الدائمةِ.

[8] قالَ الإمامُ أحمدُ الدرّيُّ: أما أنها أرضيةٌ فهذهِ قسمةُ الجغرافيا التي لا تؤولُ إلى غيبٍ، بلْ كلّها أمكنةٌ وحضورٌ. وأما أنها جماعيةٌ فهيَ قسمةُ العدلِ والكرامةِ التي لا تحيلُ إلى هامشٍ ولا تؤدّي إلى خضوعٍ. وأما كونُها تؤخذُ بالمباشرةِ فلأنها، أيِ الخلافةُ، أجلُّ وأشفُّ من أن يُتَوَسَّطَ لها بالرجالِ والنُظمِ والهيئاتِ الحاكرة. قلتُ: كلُّ امرئٍ حاكمُ أمرِه بأمرِهِ وإلا فسدَ التكليفُ وسقطَ المعنَى واستحالتِ النتائجُ.

وأنا في الخامسةِ والعشرينَ من العمرِ. فجَلستُ إليها أُحَادِثُها دهراً. حتَّى آذَنَتْني بالدُّخولِ، وأَشارتْ إليّ بالرِّضى. فذهبتُ فيها غَوْراً، فتبدَّلْتُ وتغيَّرتُ، وهَجرتُ عقائدَ كنتُ أراها مَنجاتي، وأسلمْتُ قِيادي للزلزالِ الشاملِ يَهزُّني هَزاً، ولم يَثْبُتْ لوقعِ الكشفِ غيرُ المحبَّةِ التي بها دَخلتُ الحديقةَ أَوَّلَ أَمْري، وعليها اتّكلتُ مَبدأَ سَفَري.

***

وإنِّي قَرأتُ الكِتابَ علَى شُيوخي ذَوي العِلمِ والبُرهانِ، وتَدَارَسْتُهُ معَ أَترابي السَّالكينَ من أهلِ الاجتهادِ.[9] فذَهبْنا فيه مذاهبَ شتَّى. فَفرَّقَتْنا معانيهِ، وشَتَّتَتْنَا إشَاراتُهُ، وقالَ كلٌّ بقولٍ غيرِ قَولِ أَخيهِ. غيرَ أنَّ نُفوسَ الأحبَّةِ التقتْ على الأصولِ، وعقولَهُم اجتمَعَتْ على المبَادئ. فآذَنَّا لبعضِنا بالرِّضَى. فدَخلنا البُستانَ كلٌّ منْ بابٍ، وسَلَّمنا علَى من سَبَقَنا إلى طَيِّبَاتِهِ، وَتَفَيَّئْنا ظِلالَهُ، وَشَرِبنا

[9] انظر، رعاكَ الله، آخرَ هذه الطبعةِ مسرداً بأسماءِ الأساتذةِ والشيوخِ والتلاميذِ، في برّ ليبيا وبعضِ بلادِ العربِ، الذين قرأوا الكتابَ عبارةً عبارةً، حالَ تحقيقِه، وتداولوه بينهم شرحاً ونقداً وتأويلاً زادَ في أفقِ النصِّ ومشى برؤيةِ الغدامسيّ إلى منتهاها. وهذا كله تم صدقاً في العملِ ومصابرةً للعلومِ والمعارفِ على مسافةِ عِقدين من السّنين. قلتُ: أتمّهُ للأساتذةِ، وبلغَ به الكمالَ الإنسانيَّ للتلاميذِ، الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيُّ، رفيقُ الكادحينَ، وملجأُ المظلومينَ، إمامُ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمُ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، فهو أستاذي الأكبرُ وشيخي وشيخُ العاملينَ المتربّصين بالعلومِ.

من مَائِهِ. وأَذّنّا فيهِ فصَلّينا صلاةَ الحبِّ جَماعةً واحدةً، إمامُنا الحقُّ، ومنهجُنا العملُ، وقِبلتُنا الخِلافةُ.

فسُبحانَ اللهِ العظيمِ، والحمدُ للهِ الّذي هُو أَصلُ المحبَّةِ الكاملةِ، وروحُ الخلافةِ التامةِ، والصلاةُ والسلامُ على الطيبينَ الأبرارِ من أهلِ الحديقةِ في كلِّ زمان.

أبو الحارثِ مُوسَى إبراهيم
2 الربيع/مارس 2020

زَمَنُ الغَيْبَةِ

ومن أحوالِه صمديّةُ الإنسانِ والحجابُ والأغلالُ والإحالةُ والمآلُ ونسلُ الخلافةِ والصيرورةُ والاسمُ الظاهرُ وتخومُ الرؤيةِ والمسيرُ والحافرُ وجاءَ وقتُكَ

فِيْ الصُبحِ الأوَّلِ منْ زمنِ الغَيْبَةِ[1]، خرجَتِ الشمسُ محُتَجبةً بغبارِ الأشيْاءِ، وقدْ تَشقّقَ أديمُ الأَرضِ من عَطشٍ ، وصافَ نباتُها من جوعٍ. وكانَ وَجهي جليلَ الحُزنِ، بَهِيَّ الضَّياعِ، وقدْ مَشيتُ نهاراتي في الطُّرقِ، وقعدتُ ليالِيَّ في الأماكنِ. وكانَ اسميْ غيرَ ذي معنًى، وإهابي اشْتَملَ على الخواءِ. وكانَ فضاءُ الأرضِ غُفْلاً منَ الحدودِ، والوقتُ عاطلاً عنِ المصابحِ والمماسي. وأنا على ظهرِ بَغْلتي العتيدةِ[2]، سَمْعِيْ مُوهَنٌ وبَصَريْ كلِيلٌ، أحثُّ بِلاِ هُدًى، وأبطي لغيرِ غايةٍ. فأظلُّ على هذا الحالِ حِيناً أحسبُهُ وهْلةً، وتَحْسَبُهُ هيَ دَهراً.

وفي عشيّهِ مررتُ بقريةٍ فَحَطِمْتُها، وبأَعشاشٍ فخَرَّبْتُها، وبِجُحورٍ فهدَّمتُها، ما كشَّرتْ نملةٌ ولا تفزَّعَ طيْرٌ، ولا دريتُ أنا، ولا وَعَتِ البغلةُ، ما وطِئْنا وما لم نطأْ.

---

[1] قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ: "الغَيْبَةُ" عندَ أهلِ المعرفةِ حجابٌ يكونُ بينَ الفرعِ الآدميّ والأصلِ الربانيّ، وظلمةٌ مرسَلةٌ على قدرِ البلاءِ الذي ينوشُ القلبَ، فمنْ كانَ في زمانِها لم يُسمعْ له دعاءٌ حتّى يَنزلَ الغيثُ بلطفِ المُغيثِ. وذهبَ شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى إلى أنها غفلةُ القلبِ عن معنَى خلافتِه واستغراقُهُ في ذلكَ حتّى يُعمَى عن الحقِّ الذي هي منُه، والسرورِ الذي هي إليه. وعلى هاتيِن أخذتُ المعنَى والله أعلمُ.

[2] "البغلةُ"، عندَ أصحابِنا، خَلْقٌ نبيلٌ ومركبٌ جليلٌ، وموضعُ فهمٍ ورحمةٍ، ومقامُ علمٍ وتدبّرٍ. اتّخذَها بعض أسيادِنا، في وقتِ الآلةِ الحديثةِ، يرجونَ بها التبسّطَ للناسِ والتواضعَ لعامّةِ الخلقِ. وكانَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّي يتّخِذُها عندَ صلاةِ الجمعةِ حصراً يقولُ: هيَ أخفُّ وطأً على الأرضِ، وألطفُ للهواءِ الذي نقتاتُ عليهِ من آلاتِنا التي نَكُدُّها سائرَ أيامِنا، فلعلّي أنالُ بها ثوابَ الخِفّةِ واللّطفِ.

وفِي مَساهُ قَعدتُ على صَخرةٍ وبَكيتُ.[3]

***

وفِي الصُبحِ اللاحقِ للصُبحِ الأَّولِ تَهَيَّأْتُ للمَسِيرِ، وطفقتُ أُثَبِّتُ زادي علَى ظهرِ الصَّبُورِ. فما أنْ قَدّمتُ يُمنايَ علَى يُسرايَ حتى رأيتُ ظَلاماً يَظهرُ فيَغمُرُ أُفقَ الشَّمسِ، وبَدا لِي أنّه يَتبعُني حثيثاً، ففزعتُ أيَّما فزعٍ، وطَار لُبِّي واسْتَوحشتُ. فبينما أنا كذلكَ إذْ خَطرَ مَنْ خَطَرَ بقلبِي، ولامَستْ صُورَتُهُ صَفحةَ وعيِي. فانطبعَ عليهَا ما أَشبَهَ الوهمَ الجميلَ[4]، أَنِسْتُ به لوقتٍ. ثمَّ أَنَّ الرّيحَ استيقظتْ منْ

[3] قلتُ: الصخرةُ شدةُ الحالِ، والبكاءُ استدعاءٌ للحضرةِ إزاءَها، فهُما فِي مقامِ المواجهةِ.
وكان الأستاذُ بَابِكرِ بنُ الفاتحِ النّوبِي، غوثُ السودانِ، وعارفُ قرنةَ وأسوان، الفتحُ الباهرُ، والنيلِ الغامرُ، وإمامُ الزمانِ الظاهرِ، يهتزُّ لبكاءِ المظلومينَ يقولُ: هذه إشارةٌ بينه وبينهم فخلّوا بالَكم. ورأيتُه فِي مرةٍ يكلّمُ حجراً ضخماً أغبرَ خشناً، بديارِ دِسُوقَ من طمي النيلِ، يقولُ لهُ: ما يُبقيكَ على حالِ الصلابةِ وفلانٌ أبو عيالٍ يتّكئُ عليكَ كلّ يومٍ وهو يمشي إلى السّوقِ، وهو وهُمْ جائعونَ عُريانونَ فِي رامضةِ النهارِ.
وكان الحجرُ يتحشّمُ أن يَرُدَّ على الأستاذ، فلا يتكلّمُ إلا بالشهقةِ التي يسمعُها العارفونَ من دونِ الخلقِ.

[4] قال شيخي تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: "الوهمُ الجميلُ" وصالُ الحقّ سبحانَه الذي لا تُخشى عليهِ غائلةُ الوقتِ، وهو موهومٌ لغلبةِ الغائلةِ على أكثرِ الدّهرِ. قالت أستاذَتِي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ: غَلَطَ سيّدي، إنما هو العشقُ كلُّه وصلُهُ وهجرُه، أوّلهُ حُلمٌ وأوسطُه مسرّةٌ وآخرُه عتقٌ من الهَمِّ.

سُبَاتٍ، وقامتْ فمَشَتْ في البَرِّيَّةِ، وتكلَّمتْ بلسانِ التُّرابِ، فاستغلقَ فهمُها عليّ. فكأنَّها أرادتْ أنْ تَخرِقَ حِجابَ غفلتي، وتَسْبِرَ ظُلمةَ سَهْوَتي، فأرسَلتْ إليَّ الرّملَ يأتيني منْ كلِّ بُدٍّ، فإذْ كلُّ شَيءٍ من قديمٍ ومُحْدَثٍ قد أَصبَحَ غابراً.[5] ورأيتُ العناصرَ قُدَّامَ عَينيَّ تَنفصلُ عن أُصولِها، والألوانَ تتحلَّلُ إلى أوليّاتِها. فاندهشتُ للبراءةِ المتشكِّلةِ، وتَعجّبتُ لسذاجةِ الأَشياءِ، ورَاوَدَني الكلامُ عنْ نفسي، فنطقتُ بما زادَ عن الإشارةِ، وقَصُرَ عن التَّصريحِ، فكانَ هَذا أوَّلَ عَهدِي بالهَمْهَمَةِ.[6]

وكانَ آخِرُ عَهدي بِوجهِكَ حينَ أَشَحْتَهُ عنّي، وبصوتِكَ حينَ حَددتَهُ عليّ،

---

[5] قلتُ أنا موسَى: "القديمُ"، عندَ أهلِ الكلامِ، الذي لا أوّلَ لهُ في الزمانِ وآخرُه لا يُعقلُ. و"المُحدَثُ" ما وقعَ في حبسِ الوقتِ فهو مرتهَنٌ بأحوالِه وأشراطِه. ولذا قالوا: القديمُ الحقُّ سبحانَهُ حصراً، والمحدَثُ كلُّ ما عداهُ. ويقولُ بعضُ أصحابِنا: جوهرُ ابنِ آدمَ قديمٌ، وفعلُه محدثٌ، ومُقاماتُه بيَن بيَن. وعدَّ أهلُ الشرائعِ هذا شِركاً ونراهُ نحنُ لطيفةً وكرامةً.

قلتُ: وكتبَ أحدُ شيوخي إلى مريدٍ له يحبُّهُ، يشكو ألمَ الفراقِ: فإن رأيتَ أن تأتي إلينا وإلا ضربْنا إليكَ أكبادَ الإبلِ، فوالله إن عِشْقَنا لكَ قديمٌ لا يكادُ يدخلُ في حِسبةِ الوقتِ، ومُحدَثٌ يكادُ يدخلُ في كلّ وقتٍ. فأجابَهُ المريدُ من ساعتِه.

[6] قالَ شيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ، وهو عارفٌ من أهلِ الصُّفّةِ الأولَى: "الهمهمةُ" كلامُ السالكينَ قبلَ الوصولِ، وفيه أسرارٌ جليلةٌ، ومعارفُ عظيمةٌ، لو جُعِلَتْ في العباراتِ لانقطعَ حبلُها، أو في الإشاراتِ لانفصلَ عنها معنَاها. وهيَ من أصلِ الطريقِ الذي أنتَ عليهِ، فإذا جاءَتْكَ فاثبُتْ لها حتّى يكونَ منها علمٌ أو فهمٌ، ولا تعجلْ بها فتعجلَ عنكَ.

وبإشارَتِكَ حينَ أومأتَ إليَّ بأنْ أتيهَ.[7] ما أَفادَني التضرُّعُ ولا شَفَعَ لِيَ الرجاءُ. نفدَ صبرُكَ، وغاضتْ رحمتُكَ، وجفَّ نبعُ محبّتِكَ. فصرتُ ولا ربّانيّةَ تُظِلُّني، وأصبحتَ لا إنسانيّةَ تناشدُكَ.

وفي ضُحاهُ أصابَ بَغلَتي الكدرُ. فَحَمْحَمَتْ، وتبرَّمتْ، ورامتِ الظلَّ، وناشدتْني الكَلأَ. في مَسألتِها كِبْرٌ، ولتبرُّمِها عِزُّ المُنَعَّمِينَ. فنَزلتُ عنها، وأشرتُ إليها أنْ يا راحِلتي تَصَبَّري، عَسَى قُفُولي يكونُ عليكِ، ونجاتي بحَافرَيكِ، فإذا أنتِ الراحلةُ القافلةُ، والغاديةُ الآيبةُ.

وفي عَشيِّهِ نَعَسْتُ تحتَ سِدْرَةٍ جفّتْ عروقُها، ويَبُسَتْ سُوقُها، فظللتُ بها حتّى انحدرتِ الشَّمسُ عن سَمْتِهَا، وَحَبِلَتِ الأشياءُ بظِلالِها، وأطلعتْ غِيلانَهَا. وأَصَابَ المشهدَ الكونيَّ سَواداتٌ عَجبتُ لسَطوتِها وبهاءِ حُضُورِها. فمشيتُ حتى أَمسَيْتُ، فإذا أنا أُقَلِّبُ طرفي في الزَّرقَاءِ أَنشدُ نجمَها، وأدعو جَدْيَها.[8] فَمَا أبانَ

[7] قالتْ شيختي خديجةُ الشنقيطيةُ: "وجهُهُ" عيُن محبّتِهِ، و "صوتُه" عينُ رحمتِه، و "إشارتُه" عينُ دلالِه وأُنسِه، فإن اشتدَّ بهنّ على الإنسانِ زمناً أُذِنَ لهُ بالغيبةِ، وخُلِعَ عليهِ الحجابُ، وسقطَ عنهُ كلُّ فرضٍ – غيرِ فرضِ البكاءِ.

[8] قلتُ: "جَدْيُ السماء"، في الاستعمالِ، نجمٌ في فلكِ الشَّمالِ يهدي إليهِ سَمْتاً لا يحيدُ عنهُ صيفَهُ وشتاءَه، فهو في العلومِ "نجمُ الشمالِ". وعندَ أصحابِنا أنّه في مُقامِ الرّحمةِ اللَّدُنيّةِ الدّالةِ على جهةِ الحقّ. فإن احتجبتْ عنِ الإنسانِ وهوَ على سفرٍ من أسفارِ الروحِ، سقطَ عنهُ فرضُ النظرِ العقليّ وثَبُتَ عليهِ فرضُ الرجاءِ المتصلِ بالظنّ الحسنِ.

لي بُرجاً، ولا فضحتُ لهُ مَداراً. فكأنَّ الأفلاكَ اختلطَ مَفصُولُها، وانْفَكَّ موصُولُها. وكأنَّ المنازِلَ تحوَّلتْ وتبدَّلتْ. فلمَّا يَئِسْتُ من هَدْيِ السماءِ، نزلتُ عنها فتوسَّدْتُ الترابَ الذي جاورَ السّدرةَ فتاخَمَها.[9] ولامستُ وجهَ الأرضِ براحَتي أَنشُدُ الوِجهةَ، وأرحتُ خَدِّي علَى خدِّها، وغرستُ وجهي في طينِها. وأومأتُ لمجرَى الماءِ تحتَ حجابِ الحجارةِ أنْ أَدْرِكْني بالسَّبيلِ، فإذا هُوَ مُبْهَمُ الإشارةِ، حمَّالُ أَوجهٍ.

***

وفي الصُبحِ الثالثِ رأيتُ الأجرامَ تَهوي عنْ مَطالعِها، وسَمعتُ الجبالَ كأنَّها تَتَمَلْمَلُ، والشِّعابَ تَضيقُ، والقُبَّةَ تَنفطرُ، فَعَلَوْتُ بَغلَتي وهتفتُ النجاةَ! النجاةَ!

---

[9] سِدْرَةُ المنتهَى. قلتُ: السّدرةُ شجرةٌ عامرةٌ مَنْبَتُها في بعضِ الوديانِ، وهي علامةٌ من علاماتِ الطريقِ إليه. وكانَ في نواحي البلدةِ رجلٌ يحبُّ العلومَ ويتجلَّى هو بركةُ الأرضِ والسماءِ، نافعُ بن سُكَّرَ، درويشُ بوسليمَ والهضبةِ الخضراء، وبهلولُ اطرابلسْ والزهراء، القلبُ العاملُ والحالُ الكاملُ، ومقامُ العرشِ والأسماء. فرأيتُه مرةً يحملُ غصناً من سدرةٍ ويمشي به بين الدورِ يجعلُه ظُلَّةً فوقَ رأسِه. فسألتُه عن أمرِه فقالَ: هذي شجرةٌ أتعبتني وأنا علَى الطريقِ تَبِينُ لي ثم تحتجبُ، وأنا رجلٌ مشغولٌ بالعالمِ، فاستأذنتُها في هذا الغصنِ آخذُه فحيثُ توجّهتُ كانَ الطريقُ معي فلا أضِلُّ أبداً. قلتُ: فما تفعلُ إن صافَ الغصنُ وخَلَتْ أوراقُه وصارَ عوداً يابساً؟ قالَ الدرويشُ: العودُ اليابسُ آخذُه فأُطَيِّبُ عليه الخبزَ وبعضَ الشايِ الأخضرِ حتى يصيرَ الطريقُ الذي كان معي هو الزادَ الذي يسدُّ الرمقَ. فعجبتُ من فهمِه وترتيبِه للأمرِ.

فبينما أنا لا أَلْوي علَى شَيءٍ إذ بكوكبٍ ضَوِيٍّ بحذائي، كأنَّهُ أَنا. أشارَ إليّ أنِ اعْتَلِني ببدنِكَ أُعْلِكَ، واهجُرِ الحيوانَ أُنَجِّكَ. فوثبتُ ملبّياً غيرَ مُخلصٍ. فما شعرتُ إلاّ ببساطِ الموطوءةِ يُشيرُ إليَّ بلسانِ الصَّفعِ أنْ ما امْتَطيتَ إلا الهواءَ. وإذا هُوَ الوَهمُ وإذا أنا الموهومُ. وإذا لِسانُ الكائناتِ يَضحكُ منْ خَيبتي وقلّةِ حِيلَتي.[10]

وفيْ ضُحَاهُ يَئِسْتُ منَ البَغلةِ أنْ تَؤُوبَ، فاعْتَمدتُ ساقيَّ وغُصنَ زيتونٍ اتَّخذتُهُ مُتَّكأً واتَّخَذَني ظلّاً.

وفي عَشِيِّهِ رَاوَدَني عَنْ حُزْني بيتُ شعرٍ، بَهُتَ أَوَّلُهُ، واستعصَى عليَّ آخِرُهُ. فعاودتُّه بعدَ هُدُوِّ خاطري فإذا أنا أَشْجُو:

---

[10] كتبتْ إليَّ مَولاتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمِيَن، مولاةُ العملِ والمجاهدةِ في مساجدِ الأصابعةِ العابدةِ، ولم أرَ أشدَّ مِنها على مظانِّ الطريقِ: "الكوكبُ الضَّوِيُّ" الباطلُ ذو الزخرفِ. وهوَ أن تضيعَ في قلبِكَ بوصلةُ الصدقِ، وتَفسدَ خارطةُ العشقِ، و ينكسرَ اسطرلابُ المحبةِ. فلا تعودُ تعرفُ الجميلَ من القبيحِ، ولا الطيّبَ من الخبيثِ. ومَثَلُه كمَثَلِ الكوكبِ الذي هو مظلمٌ بالضرورةِ، فيظهرُ نورانياً لسلبِهِ وهجَ نجمٍ متاخمٍ، فيَظُنُّهُ الغافلُ متوهّجاً في ذاتِه وما هوَ كذلكَ.

قالتْ: ومنه في وقتِنا هذا هؤلاءِ الذينَ يَعقِدونَ مع برابرةِ الأفقِ الغربيِّ، ويركبونَ بغالَ أهلِ الاستكبارِ في العالمينَ، ويجيؤونَ في حِمَمٍ من دمِ الأولادِ والصّبايا. فهم يظهرونَ لبعضِ أهلِ الغفلةِ كأنّهم من أهلِ الجهادِ وهم منعقدونَ بالباطلِ لا تفوتُهم منهُ إشارةٌ أو علامةٌ.

كفى حَزَناً أنّي أُناديكَ دائباً كأني بعيدٌ أو كأنَّكَ غائبُ[11]

وبِلَيْلِهِ مررتُ بِجُرفٍ انحدرَ أوَّلُهُ، وغارَ آخِرُهُ. فحدَّثَتْني نَفْسي حَديثَ اليَقينِ[12]، غيرَ أني سَوَّفْتُهُ إلى حينٍ.

***

وفي الصُبْحِ الَّذي تَلاهُ ضَوَّتْ وَجهي شَمسٌ شاحبةٌ، وَحَيَّتْني نَسمةٌ عَابرةٌ، وهَطَلَ غَيْثٌ لَمْ يُغِثْني، وهبَّتْ ريحٌ لم تُرِحْني. ثُمَّ أني رأيتُ أنِّيَ أَغفُو، وأنَّ سِنةً تُرَاوِدني عنْ نَفْسي، فجاهدتُ أنْ أُفيقَ لِذاتي، وأَعِي حَقيقَتي، فَأَعْوَزَتْني الهمَّةُ، وغُلبتُ في سَعْيِي، فَنِمْتُ. فَرَأَيْتُ أن نِعَمَهُ تُحصَى فأَحْصيتُها، وعَجَائبَهُ تُعَدُّ، فَعَددْتُها. وشَهِدْتُهُ عَاطلاً عنْ كلِّ حمدٍ، قَاعداً عن كلِّ كريمةٍ. وكانَ وجهُهُ مِشياناً، وبعينيهِ انطفاءٌ. وكانَ عَرشُهُ على الرَّملِ، وصَوتُهُ من غُبَارٍ، وحَديثُه منْ قَذًى. وكانَ عَجزٌ في رُكبتَيْهِ يمنعُهُ أنْ يَبُشَّ إلي. فَلَفَتُّ قلبي عنهُ، ووقفتُ عيني عليهِ أَنْظُرُ هل يتحشّمُ. فلمَّا ظلَّ حيثُ هوَ، أَظْللتُ عليهِ بريبَتي، وأَسكنتُه مرابعَ شكِّي، فلا

---

[11] بيتٌ من الوجعِ الإلهيّ لأبي الحسينِ النوريّ وقالَ بعضُهم: بل هو للحلّاجِ الشهيدِ. قلتُ: كلاهُما يجوزُ، وإنما هوَ لسانُ أحدهِما ينطقُ بقلبِ الآخرِ.

[12] قالَ السالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ أنّه سمعَ تلميذاً يقولُ لإمامِنا أحمدَ بنِ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيّ: اليقينُ عندَ أهلِ الطريقِ الموتُ. فذُهِلَ الإمامُ كأنّهُ غُشِيَ عليهِ من هولِ الكلامِ. ثمّ وعَى ما حولَهُ فقالَ: لا تأخذوا عن التلميذِ فإنّه في أوّلِ الطريقِ، ولا تأخذوا عنّي فإني حِدْتُ عنهُ لساعةٍ، وإنما اليقينُ الحياةُ، وما الموتُ إلا عابرٌ على مطايا الاحتمالِ.

حولَ ظاهرٌ ولا قوّةَ في ضميرِ الأشياءِ.[13]

وفي ضحاهُ أَمسيتُ في ضَميرِ الأَشياءِ فَريداً أزليّاً، وكلَّمَتني كلُّ ذاتٍ مُظلمةٍ، وسكتَ عني كلُّ معنًى منيرٍ، وأُسقِطَ في يدِ المقاييسِ كلِّها.[14] ثمّ انتهتْ إليَّ كلُّ

[13] وجدتُ شيخيَ العارفَ بالخلقِ العرْبي بن مْهيدي، شيخَ المودّةِ والكراماتِ، وأستاذَ التجلّي والفتوحاتِ، السلطانَ الآسرَ، والمددَ العامرَ، بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائر، يمشي لاهثاً وقدْ أظلمَ وجهُه وأزبدَ فمُه. ففزعتُ من مشهدِه فقالَ: من أيامٍ وأنا أسمعُ عواءَ كلبٍ في هذه النواحي فانشغلتُ عنه بالصلاةِ والمجاهداتِ، حتى سكتَ هذا الصبحَ. فلما مشيتُ إلى الحقلِ أريدُ الزرعَ وجدتُه قد عَلِقَ في شُقٍّ بين جدارينِ لا يستطيعُ الخروجَ. فجاعَ وظمأَ وعوَّى حتّى ماتَ. فلا هو فزِعَ له ربّهُ الذي خلقَه وقلاهُ، ولا جاءَه مني مددٌ أو عونٌ. فإن الحقَّ أحالَه إلى معنَى الإنسانيّة يريدُها أن تشملَه بالحفظِ، وأنا أحلتُه علَى خاطرِ الربوبيّةِ أبتغي أن تكفيني همَّهُ وهَمَّ عوائِه. قالَ: فلا هو شُمِلَ بالحفظِ ولا أنا كُفِيتُ همَّه. قلتُ: فظلَّ الشيخُ مدةً علَى هذا الحالِ من الحزنِ حتّى خشينا عليهِ أن يتبدّدَ قلبُه.

[14] كانت شيخَتي خديجةُ بنتُ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ، مولاةُ المسرّاتِ، وصانعةُ البهجاتِ، صاحبةُ العلمِ والسناءِ، وسلطانةُ الوجدِ والرجاءِ، في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراءِ، تتخذُ ميزاناً بين يديها ثم تمشي به إلى السوقِ. فتستأذنُ من اشترى شيئاً فتَزِنُ الجرجيرَ والتمرَ والحبوبَ، وتختبرُ الحليبَ واللبنَ خاثرٌ هو أم خُلِطَ بالماءِ، وتقيسُ أطوالَ الأقمشةِ، وتَنْقُدُ الذهبَ والفضةَ. فإن رأتْ غشاً صُراحاً أو تطفيفاً كلّمتِ الشاري أن يُحاججَ البائعَ وكلمتِ البائعَ أن يَعْدِلَ. قلتُ: وهذا يسيرٌ، فهي تحسِبُ وراءَ حاكري الصناعاتِ، ومُراكمي الأسهمِ، والمستأثرينَ بالإدارةِ تقولُ: المقاييسُ ركنٌ من أركانِ العرشِ فإن أُسْقِطَ في يدِها، أي أصابَها العجزُ فهي بلا حولٍ، أُسقِطَ في يدِ العرشِ، وهذا مُقامٌ مَهُولٌ.

أنّةٍ نبتتْ في أزلٍ، واحتجبتْ عني كلُّ نغمةٍ صدرتْ في أبدٍ. وغابَ الضدُّ عنْ ضدِّهِ، فخَلا المعنى. فرأيتُ القبيحَ والجميلَ لا يتمايزانِ، والفعلَ والسكونَ يتماهَيانِ. فقعدتُ، وأجريتُ عينَ الفهمِ على الأشياءِ فعادتْ كليلةً، فسقطَ العقلُ، وقامَ كلُّ ما عداهُ.[15] وجاءتِ الشمسُ ولم تكنْ شمساً، وحضرتِ الأجرامُ وما هيَ هيَ، وعبرَ بيْ كلُّ شيءٍ غابَ عنْ ذاتهِ، وحارَ في كُنهِهِ، ورأيتُهُم يَبكونَ، وما أحدٌ يُعزِّي أحداً، فأخذتُ ثَوبي وعَضَضْتُ عليهِ بأسناني، وعَدوتُ لا أَلْوي علَى شَيءٍ.

***

وفي الصُّبحِ الخامسِ اختلّتِ الحكمةُ، وارتبكَ النظامُ، وذَهَلَ التدبيرُ.[16] فَتقدَّمَ ما طبعُه التأخيرُ، وتأخَّرَ ما لَزِمَهُ أنْ يَتقدَّمَ. فإذا أنَا مُمْسِياً فَمُظْهِراً فَمُعْصِراً فَمُصْبِحاً. فَقامَ البَيَانُ بالبُطْلانِ، فكانَ فَجرُ هذا الوقتِ آخِرَ ما أدَّيتُ.[17]

---

[15] قال الإمامُ الدُّرِّيُّ: "ما عَدا العقلَ" الباطلُ، و "قامَ" أي استحكمَ أمرُهُ بالكُّليةِ فلا يَخرجُ عن عزمِهِ شيءٌ. وقالَ وقد استحكمَ البرانيُّ بالبلدِ: الباطلُ أن تضعَ الواحدَ معَ الواحدِ فلا يحصلُ اثنانِ. ثم اتكأَ وأشارَ: ومثلُهُ حَالُنا هذا، فلا تزدني. فسكتُّ عنهُ.

[16] قالَ بعضُنا: هيَ حكمتُه ونظامُه وتدبيرُه. وقالَ آخرونَ: بل هيَ حكمةُ العالمِ ونظامُه وتدبيرُه. فسألْنا الإمامَ أحمدَ فقالَ: والفرقُ عندَكم هو ماذا ؟ فقُلنا: هذا مخلوقٌ وذاكَ خالقٌ، فقالَ: فَمِنْ لَدُنِّ الخالقِ كلُّ ما هو مخلوقٌ وإلا بَطلَتِ الرابطةُ وانفكَّ عِقدُ الربانيةِ.

[17] دخلتْ أُستاذتي زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ، أستاذةُ المحبةِ والمكابداتِ، في مساجدِ وزوايا العجيلات، مُقامَ الغيبةِ زمناً طاولَ الحولَينِ حتّى ظننّا يقيناً أنها لا تخرجُ

***

وفي الُّصبحِ السَّادسِ اقتعدتُ الأرضَ، وكانَ وَجهي كالحاً، وبِعينيَّ يَباسُ العطشِ، ولِيَدَيَّ وَهنُ القنوطِ. فأسندتُ رأسِي إلى ظاهرِ الهواءِ، وقَلبي إلى زَهرةٍ قريبةٍ. ورأيتُ أني قدْ غُلِبتُ، وأنَّ صُبحاً آخرَ، إنْ أَتى، أَتى عليَّ. وبَدا وَجيبُ الكائناتِ يَهدأُ، والصّخبُ الكونيُّ يَسكنُ، وإيقاعُ الحياةِ يَستحيلُ رتيباً، بارداً.[18] فلامسَ

عنهُ. فكانتْ تصومُ الليلَ وتقومُ النهارَ، ثمّ تصلّي العشَاءَ لأذانِ الصبحِ من ذُهولِها عنِ الوقتِ. وتقرأُ الشعرَ تحسبُهُ كلامَ الرحمنِ من حُسنِ ترتيلِها وترتيبِها. ولعلّها طلبتِ النبيذَ والغناءَ في بعضِ أوقاتِها. فكنّا نسكتُ عنها زمناً ونكلّمُها زمناً حتّى تُفيقَ من غفلتِها، فتردُّ علينا بكلامٍ ثقيلٍ لو سَمِعَهُ أهلُ الشرائعِ لاكفهرّتْ وجوهُهم مثلما اكفهرّت قلوبُهم. قالَ شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى: صاحبُ مقامِ الغيبةِ معذورٌ بغيبتِه تشفعُ لهُ عندَ اللهِ شفاعةً لا يقدرُ عليها أحدٌ منَ الخلقِ.

[18] كان الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي يحبُّ أن يخرجَ آخرَ الليلِ إلى أولِ الفجرِ الوليدِ، فيَغيبُ عنا ساعةً ثم يعودُ وعلَى وجهِه أثرٌ طيّبٌ قد لا نجدُه في صلاتِنا وذِكرنا ونحنُ بين حجارةِ الديارِ. فسألتُه عن حالِه هذا فقالَ: أمشي في بعضِ الخلاءِ المجاورِ للعُمرانِ، فأشُمُّ ضَوْعَ النُّوَّارِ قبلَ أن يحتجبَ بدخانِ العوادمِ، واسمعُ وجيبَ الحشراتِ قبلَ أن يطغَى على حضورِها صخبُ العمرانِ، وأشهدُ طلعةَ الرملِ والحجرِ والماءِ إلى أفقِ الفجرِ قبلَ أن تَصهدَهم شمسُ الرمَضِ. فإذا أنا وهذا الكونَ روحٌ واحدةٌ واجدةٌ، فأعودُ إلى دارِ الصلاةِ وأنا علَى هذا الحالِ الذي رأيتَ منّي. قالَ الإمامُ: هو وجدَ في رتابةِ الحياةِ وبرودةِ الأشياءِ معنًى فريداً لا يعيهِ غالبُ الناسِ الذين شغلَهم صخبُ الكونِ عن روحِه الكامنةِ في الصمتِ. قلتُ: فكلّمَ الإمامُ التلاميذَ أن يخرجوا إلى الخلاءِ والفضاءاتِ القريبةِ، وجعلَها في محلِّ مُجاهدةِ الليلِ يوماً من كلِّ أسبوعٍ.

شِغافَ رُوحِي حزنٌ بَهِيُّ الجلالِ، وخَالطَ آلةَ بدني عوزٌ وقعودُ همَّةٍ عَظيمينِ. فتَرَاخَيْتُ عنْ كلِّ شيءٍ، وشَاهدتُ العَجْزَ شَهادةَ حقٍّ لا مَراءَ فيهِ. واستوتْ عنديَ الظُلُمَاتُ والنُّورُ، فَكأنَّهَا منْ مَصدرٍ واحدٍ نَشأَتْ، وللمَآلِ عَيْنِهِ اندفعتْ. وأصابتْ عَيني غِشَاوةٌ شديدةٌ، وسَقطتْ آلةُ بَدَني، وتَضاءلَ شَأني، وذهبَتْ رِيحي، وتَفرَّقْتُ عنِّي وتبدّدتُ عن قلبي. فَمِنّي مَنِ اطمأنَّ ومِنّي مَنْ تولّهَ ومِنّي مَنْ هامَ علَى شغافِ الاغترابِ.

ثُمَّ إني سَهَوتُ عنك، وعنهُ، وعني.[19] ونسيتُ شِعري وكلَّ ما غنَّيتُ وما لم أُغنِّ. وبَدا لي أنِّيَ لمْ أَعرفْ قَطْ، ولمْ أَعملْ ولمْ أَسْعَ. وأنَّ عُمري هَباءٌ، وحُضُوري في الكونِ سُدًى. فَصَارَ أَلَمِي عَظيماً، وتَوجَّعتُ بِوجُودِي في الأشياءِ، وافْتِراقِها عنّي. وأَصَابَني منْ لَومِ نَفْسي كدرٌ قصمَ ظَهْرَ هِمَّتي، وحَزَنٌ ذَهَبَ ببصَري وبصيرَتي. وقَسَى قَلبي فَهُوَ كالحِجَارةِ أو أَشَدُّ، وَنزَلَ عليَّ المطرُ بلا عُوانٍ، وصِرْتُ كَزَرْعٍ صَائفٍ أوَّلَ نهارٍ رامضٍ، لا ليلٌ باردٌ ولا ظلٌّ قريبٌ.[20]

---

[19] قلتُ: "عنك وعنه وعني" جاءتْ هكذا غُفْلَةً عن الإعرابِ والترقيمِ كحالِ أكثرِ الكِتَابِ. فإذا قدّرناها على فتحِ الكافِ فإنّ الرجلَ يخاطبُ الحقَّ بالمواجهةِ في عنكَ، وبالغيابِ في عنهُ، وبالإحالةِ في عنّي. وإن قدّرنا الكافَ على الكسرِ حضرتِ امرأةٌ في النصِّ لا ترتيبَ سابقَ لها. قالَ الإمامُ أحمد الدريُّ: حضرةٌ صاعقةٌ تليقُ بقلبٍ يتوجّعُ، وجسدٍ يناشدُ، وعقلٍ تَتناوَشُه الوساوسُ والأساطيرُ.

[20] قالَ مُعلّمي أبو العيالِ مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى: لا يثبتُ لهذا البلاءِ إلا الخلفاءُ الكاملونَ، أو الذينَ بِهِمُ قبولٌ لمقامِ الخلافةِ من جهةِ أحوالِهم وأشواقِهم. فإن كانوا في

***

فَبينما أنا بهذهِ الشِّدَّةِ وذاكَ الكَرَبِ تَوهَّمْتُ صوتَ غَيثٍ قريبٍ، وهو في حالٍ بينَ أنْ يَدعُوني إليهِ أوْ يَأتي إليَّ. وإذْ بهواءٍ طيِّبٍ يمرُّ بشغافِ الأشياءِ، وظلٍّ باردٍ يَلمسُ حَرارةَ العناصرِ. واخْتَلجَ بدنُ الأرضِ بما أَشْبهَ البِشارةَ، وجَرَى نَسْغُ حياةٍ في الكائناتِ. وبَدَا وكأنَّ الأَصْواتَ المُبْهَمَةَ تتكشَّفُ عنْ مَعْنًى، والألوانَ الغُفْلَةَ عنْ غَايةٍ تَتَأوَّلُ. وناداني منْ جِهةِ قَلبي[21] مُنادٍ إنْ هَذا إلا بيَانٌ، فَأَعْجَمُهُ مَا رَأَيْتَ وَأَفْصَحُهُ ما يَأْتِيكَ. وكانَ منْ ذَلك مَخَاضٌ جَمْعِيٌّ، وتَبَدُّلٌ كُلِّيٌّ، منهُ وَعَيْتُ أوَّلَ إشاراتِ الحقيقةِ، وعايَنْتُ أبكرَ عَلاماتِ الطَرِيقِ.

وبينما أنا في تَفَكُّرٍ وتَدَبُّرٍ، ومُعالجةٍ ومُعاينةٍ، ورُؤيةٍ واعتبارٍ، وبينما جَسدي مُنهكٌ، وهِمَّتي مُقْعدةٌ، وعُرُوقي ضَامرةٌ، وعُيوني زَائغةٌ، وقد قَعدْتُ بِحِذَاءِ صَخْرةٍ عطشَى، إذْ بيدٍ جليلةٍ تَلمسُ وجْهي المُطفأَ فيَستضيءُ، وتَسْنُدُ كَتِفِي المائلَ فيستوي، وإذْ

أولِ الطريقِ تصدّعوا وتوجّعوا. وأما مَنْ كانَ يأكلُ ويشربُ ولا شيء في قلبِه من جهةِ المعاني القصيّةِ والرؤى العُلْويّةِ فيحيدُ عنهم الحزنُ كما يحيدُ النبتُ الطيبُ عن الحجارةِ اليابسةِ.

[21] قالَ مَولاي تاجُ السرّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ، مولَى المعارفِ والحقائقِ في صحراءِ الطوارقِ: جهةُ قلبِ المهاجرِ الصادقِ حيثُ التفتَ – الحقُّ. فإن دخلَ عليهِ شيءٌ منَ الباطلِ لم يَضُرَّهُ لغلبةِ مُقامِ الهجرةِ عليهِ، وهو مُقامُ صدقٍ وخيرٍ كثيرٍ. قلتُ: وكان تاجُ السرِّ أكثرَنا ضرباً في الأرضِ لا يكادُ يجلسُ في محلٍّ يوماً، فلعلَّهُ وجدَ الحقَّ في جهاتِ السفرِ، والتفاتاتِ القلبِ، فعقدَ بدنَهُ وعقلَهُ بها.

بروحٍ لطيفةٍ تَغمرُ إهابي، ورَعْشةٍ تَسْري في ثَنَايا شَفَتي، فيذهبُ زَبَدُهَا جَفَاءً ويَمكُثُ بينَ أَسْنَاني أنْ:

كُرْمَى لكَ مَنْ أَنت؟

فإذْ بصوتٍ لمْ تَسَعْ حَلاوتَه أُذُنايَ، ولا قَدَرَ بَعْضِي أنْ يَختَصَّ بهِ دونَ بَعْضٍ، فَكأنَّ جَوَارحِي أصغَتْ إليهِ مُجْتَمِعَة، وأَفكاري اهتَدَتْ إليهِ مَعا، كما أنَّ الضَّوءَ إذْ يَحضرُ لهُ طلَّةٌ واحِدَة، والماءَ إذْ يهطلُ لهُ غَمْرةٌ مَاجِدة. فاستبشرتُ حُبًّا فكانَ حُبًّا وسَكَنًا للقلبِ، وجاءني الأمرُ الجميلُ أنْ:

تعالَ واسجدْ واقتربْ

فقلتُ: من أنتَ وقدْ طيَّبتَ شفَتي، وأسندتَ كتفي، وأحييتَ هِمَّتي، وجبرتَ بخاطري.

فقالَ لِيْ: أسميتَني مُطَيِّباً، سَانِداً، مُحْيِياً، جابراً، فكَذا أَكونُ المُطَيِّب، السَّاندَ، المُحْيِي، وجابرَ الخاطرِ.[22]

---

[22] أخذَ التلميذُ عبدُ الله التّوغولي، القلبُ المهاجرُ والبدنُ الصابرُ، من ديار لومي وأتاكبامي أرضِ البشَائر، على نفسِه أن يخدمَ المحبوسين بالدرسِ وبعضِ الفنونِ والصناعاتِ. وفي هؤلاءِ الجُناةُ العتاةُ والجانحونَ والمسرفونَ على أنفسِهم من أهلِ الشهواتِ. فكانَ يُرَتّبُ مع المصلحةِ العموميّةِ فيزورُ ديارَ الحبسِ ويُنَظّمُ لهم وقتَ العلومِ، وَوِرَشَ الفنونِ، وبعضَ الحِرَفِ. وجعلَ الفتَى معه جماعةً من التلاميذِ النُّجباءِ، وأصحابِ العلمِ والمهاراتِ، يقومونَ على هذا العملِ. فيكونُ من هذا فرحٌ للمحبوسينَ، وسببٌ في تغيّرِ حالِهم، ومراجعتِهم للسُّبُلِ التي كانوا عليها.

قالَ الإمامُ أحمدُ: هذا التلميذُ وجماعتُه هم جابرو الخواطر الذين يتسمّى بهم الحقُّ، ويلهجُ الكتابُ، وتَقَرُّ عيونُ الكونِ.

وقالَ لِيْ: أسمائي بعضٌ من اسمِك، واسمُك بعضٌ من قلبِك، وقلبُك بعضٌ من هذا العالِم.

وقالَ لِيْ: أسمائي الحسَنةُ من اسمِك الحسَنِ.

وقالَ لِيْ: وَجْهُكَ أبهَى منْ وجهي، لَفَحَتْهُ رِيحُ الضَّنَى، وصَهَدَتْهُ شَمْسُ النَّدَمِ، وأَذْهَبَ نَضَارَتَهُ الكَدُّ، وأَنْضَبَ مَاءَهُ القَحْطُ. فَتَقَدَّسَ في عَيْنِ الكونِ، وجَاوَرَنِي في الفَضَاءِ.

وقالَ لِيْ: ها أنا ذا أُسَوِّي شَعرَكَ منْ شَعَثٍ، وأغسلُ قلبَكَ من وهنٍ، وأَمْسَحُ رِجلَيْكَ منْ يَبَاسٍ.

وقالَ لِيْ: أَرْهَقَتْكَ العناصرُ وضَيَّعَتْكَ الأَشياءُ، هَذِهِ تَتَلَوَّنُ وتِلكَ تَتَأَوَّلُ. وأنتَ لا لونَ لكَ غيرَ ما أصبغتَ على نفسِكَ، ولا تأويلَ إلا ما برأتَ بيديكَ.

وقالَ لِيْ: أنا واحةُ المتعبينَ، وظلُّ الرامضينَ، وشمسُ البردانينَ. كتبتُ علَى نفسي أنْ أُحبَّكَ وأحبَّ من يُحبُّكَ، وألزمتُ رحمتي ألا تهجرَكَ، وربوبيّتي أن ترعاكَ. فأنتَ الحبيبُ المحِبُّ، والطالبُ الذي لا يُرَدّ، والزائرُ الذي تُرتجى طلّتُه، والنديمُ الذي تُخشَى غيبتُه. السّيدُ المسودُ، والواحدُ المعدودُ، والربُّ المكدودُ.

وقالَ لِيْ: زمنُ غيبتِكَ أشدُّ الأزمانِ عليكَ، وأكثرُها هولاً عليّ.

وقالَ لِيْ: الذي هو هولٌ عليَّ كيفَ تفعلُ أنتَ، وكيفَ يفعلُ العالمُ، معه؟

وقالَ لِيْ: لا يشتاقُ إليكَ في الكونِ شيءٌ مثلي، ولا لَهَجَ بكَ لسانٌ كلساني، ولا تمنّاكَ خاطرٌ كخاطري، غيرَ أنّ صبرِي عنكَ عتيدٌ.

وقالَ لِيْ: أنا الشوقُ الغامرُ، والوحشةُ الغالبةُ، والغوايةُ التي اختلطتْ باسمِك قبل أن تكونَ اللغةُ ويصيرَ الكلامُ و يُزهِرَ نوارُ الحروفِ.

وقالَ لِيْ: الغيبةُ أوّلُ الطريقِ إليّ.[23]

وقالَ لِيْ: الغيبةُ مُقامٌ لا بدَّ منهُ، فمنْ أرادَ أن يفوتَه فاتَهُ علمُ الغيبةِ.

وقالَ لِيْ: علمُ الغيبةِ الجهلُ الكاملُ، فمن ظنَّ أنهُ علمَ شيئاً فيها خرجَ عن مُقامِها.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ يهيمُ ببدنِه لا تدري يمناهُ أينَ حطّتْ يُسراهُ، ولا لسانُه ما تنبسُ به شفتاهُ، فأنّى لهُ العلومُ.

وقالَ لِيْ: الغيابُ اسمُ الحضورِ.

وقالَ لِيْ: الغيابُ حضورٌ ملتبسٌ بالمسافةِ.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ في حضرةِ المسافةِ التي وقفتْ إزاءَه ثم إزائي.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ في حفظِها حتّى ينبثقَ منها إليّ.

---

[23] كنتُ في طريقي إلى الدرسِ كلَّ وقتٍ أرى عمومَ الناسِ يهيمونَ على وجوهِهم وهم يبيعونَ ويشترونَ، ويتخاصمونَ ويتنابزونَ. فإذا أحدُهم يقفُ لحظةً يتأمّلُ زهرةً أطلعتْ زينتَها على حديدِ كُشْكٍ من الأكشاكِ، أو آخرُ يأخذُه نغمٌ شَجِيٌّ يصلُه من شُبّاكِ دارٍ مجاورةٍ، أو ثالثٌ يتركُ الخصامَ ليَبْسُمَ في وجهِ طفلٍ جاءَ يسألُه أين محلُّ الحلوَى. قالَ الإمامُ أحمدُ: من كان غائباً من هؤلاء فإن الغيبةَ لا تحيطُ بقلبِه كلِّه، بل هو في أوّلِ الطريقِ إليه، إلى الحقِّ. وعلامةُ ذلك الزهرةُ والأغنيةُ والابتسامةُ، فإنها جميعاً من الإشاراتِ التي يرسلُها القلبُ الذي مَسّتْهُ الرحمةُ، وخالطتْهُ المحبةُ، وعجنتْهُ الربانيّةُ. قلتُ: فصرتُ أجدُ لذّةً في مشاهدةِ هذه العلاماتِ الإلهيّةِ على وجوهِ الخلقِ، وقد أجلسُ غالبةَ الصبحِ على كَثَبٍ من زهرةٍ أرى هل فيها إشارةٌ لإنسانٍ بعينِه. فإذا تَضَوَّعَ عبيرُها لعابرٍ من العابرينَ، وظهرَ أثرُها في وجهِه، فكأني لقيتُ نبيّاً قبل أن يدخلَ الغارَ، أو صحابياً قبل أن يهاجرَ، أو غوثاً قبل أن يُستجابَ له بالمطرِ والخُضرةِ.

وقالَ ليْ: الذي تنبثقُ منه لا بدّ من أن تظهرَ عليكَ علاماتُه وينوشُك منه اسمُه.
وقالَ ليْ: صاحبُ الغيبةِ لا صاحبَ له يُغيثُه بالإشاراتِ، ولا وليّ يفزعُ بالكراماتِ.
وقالَ ليْ: الأولياءُ إزاءَكَ يتولّون عن صفوفِ الولايةِ التي هي لهم، لأنهم لا يعرفونَ كيفَ يدخلونَ علَى غيبتِك.
وقالَ ليْ: الأولياءُ الذينَ يخضعُ لهم العالمُ يخضعون لحكمِ الغيبةِ ثم يُسْلِمون وجوهَهم لصاحبِها يطلبونَ عهدَ الأمانِ.
وقالَ ليْ: صاحبُ الغيبةِ لا بشارةَ ينهضُ لها، ولا إشارةَ يَسِمُ بها الطريقَ، ولا عبارةَ يفهمُ بها السّياقَ الذي هو فيهِ.
وقالَ ليْ: الغائبونَ لا يكونونَ، وإنما الغيبةُ فردٌ صمدٌ.[24]
وقالَ ليْ: الصمديّةُ في الغيبةِ مثلُ السّبحانيّةِ للحضرةِ التي من جهتي.
وقالَ ليْ: الصمديّةُ تنشدُك لأنكَ معنًى فريدٌ في العالمِ.
وقالَ ليْ: الصمديّةُ استثناءٌ لخاطرِك حتى تعرفَ العالمَ بجوهرِك الفردِ.
وقالَ ليْ: الصمديّةُ سياقُك لأن العالمَ سياقُه الاختلافُ.
وقالَ ليْ: صمديّةُ الإنسانِ إزاءَ اختلافِ العالمِ.
وقالَ ليْ: صمديّةُ الإنسانِ حاسرةٌ وأنا في حجابِ الحضورِ أتوحّشُ منه ثم أناوئهُ

---

[24] غابَ أحدُ شيوخِنا وهو في الطريقِ يكادُ يبلغُ مقصدَه، ففزعنا عليهِ فزعاً شديداً. فأردنا أن نأتيهِ بالكتبِ والأحاديثِ وغيباتِ الرجالِ الأفذاذِ نتلوها عليهِ فيستأنسَ بها ويصيرَ بهم أمةً واحدةً. فقالَ إمامُنا: واللهِ لو اجتمعَ عليه الغائبونَ جميعاً ما أغنوا عنهُ شيئاً، وإنما هي غيبتُهُ ورحلتُهُ وطريقُه، فخلّوا بينه وبيَن هذا البلاءِ العظيمِ.

عن اسمِه الذي يروقُ له.[25]

وقالَ لِيْ: صمديّةُ الإنسانِ اسمُهُ وهو في أحوالِ الغيبةِ، وإن شُغِفَتْ بهِ الأممُ.

وقالَ لِيْ: أمةُ الغائبينَ أمةٌ منَ الغائبينَ.

وقالَ لِيْ: الغائبُ أُمّةٌ فردٌ.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ لا إمامَ لهُ يَضربُ في الأرضِ وراءَه، ولا مأمومَ يَنْشُدُ ما عندَه، ولا صلاةَ تقيمُ أَوَدَهُ.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ لا قِبلةَ لهُ يُوَلِّي وجهَه إليها، ولا بيتَ لي يرفعُهُ، ولا عبادةَ يدخلُ وقتُها عليهِ.

وقالَ لِيْ: صاحبُ الغيبةِ يَبكي، فلا يُبكَى لهُ، ولا يُبكَى عليهِ، ولا يُبكَى منهُ.

وقالَ لِيْ: صَاحِبُ الغيْبةِ يتكلمُّ بالحقِّ، فلا يُفْتَحُ لهُ، وبالباطلِ، فيَشتدُّ عليه، وبما بينَ بينَ فلا يكونُ شيءٌ.

وقالَ لِيْ: صَاحِبُ الغيْبةِ في عينِ الرحمةِ أظهرُ منهُ في عينِ العدلِ.

---

[25] قرأَ تلميذٌ عبارةً من الكلامِ المعروفِ ثمّ قالَ: لا تُعجبني. قلنا: لما؟ قالَ: فيها من معاني العبوديّةِ والغلبَةِ والأَثَرَةِ ما لا يَروقُ لقلبي. قُلنا: وما رَوقانُ القلوبِ؟ قالَ: اطمئنانُها في سياقِ الإنسانِ، والسّكينةُ التي تأخذُ بها حينَ العدلِ والحريّةِ. قُلنا: فما تفعلُ بالكلامِ المعروفِ وهو إزاءَ قلبِك وقلوبِنا؟ قالَ: تَنسخُه هذي القلوبُ الرائقةُ بالإنسانِ، ثم تُمعِنُ في السهولِ المفتوحةِ حتّى تقبضَ على المعاني التي تجبرُ بخاطرِكم وخاطري. قلنا: فكيفَ يصيرُ مع صاحبِ الكلامِ؟ قالَ: هذا الذي كادَ يتبدّدُ من الشوقِ وهو يُطْلِعُ الكلامَ يَشملُه الشوقُ الذي بنا ونحنُ نُبَدِّلُ الكلامَ. قُلتُ: فلمْ نعرفْ أن الروقانَ، روقانَ القلوبِ، ينسخُ الكلامَ الفخمَ، وأن الشوقَ الذي نَضِجُّ بهِ يشملُ صاحبَ الكلامِ فيطمئِنُّ، إلا من عندِ هذا التلميذِ. فهذهِ هيَ الصمديّةُ التي لهُ.

وقالَ لِيْ: صَاحِبُ الغيْبةِ لا عملَ له يتكلّمُ به إلا حالُه.

وقالَ لِيْ: العملُ يصحُّ لمن هو في العالمِ وأنتَ متوحّشٌ من اسمِك واسمِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: العملُ انعقادٌ بالأشياءِ وأنتَ قطيعةٌ في المعارفِ وانفصالٌ في العلومِ ومسافةٌ إزاءَ الأفعالِ.[26]

وقالَ لِيْ: أنتَ المُغيثُ الذي أطلبهُ، والمستغيثُ الذي يسعَى إليّ، صارَ اسمي من بعضِ اسمِكَ، وفعلي متعلّقاً بفعلِكَ، ولساني يلهجُ بلغوِكَ، ونوري تفيّأ ظلّكَ. أَشُدُّ إليكَ الرحالَ وأنتَ صاحبُها، وأضربُ في الأرضِ وأنتَ مولاها. قدّمتُكَ للخلافةِ الكاملةِ، والربوبيّةِ الخاصّةِ، وأصلحتُ من شأني لأجلِ خاطرِكَ، وأظهرتُ صفاتي لعينِ جمالِكَ، وأشرقتُ بأحوالي لجلالِ طلعتِك. أعطيتُكَ اسمي فَبَلِّغْ بهِ إلى الخلقِ، واذكرْني في لهوِك وملعبِكَ، وحدِّثْ عني في الجدِّ والهزلِ، أنتَ المسرّةُ التي أبديتُها

---

[26] كان لجماعتِنا أرضُ وقفٍ ببعضِ النواحي الخارجةِ عن عُمرانِنا. ولم يكن لنا جَهدٌ عليها لبُعدِ المسافةِ، وانشغالِنا في الدرسِ والحِرفِ، وغلبةِ أحوالِ الغيبةِ علَى بعضِ التلاميذِ. فجاءَ الإمامُ أحمدُ الدريّ إلى أهلِ تلك الناحيةِ من صُنّاعٍ ومعلمينَ وأهلِ حرفٍ، فقالَ: نَقْسِمُ الأرضَ حصصاً صغيرةً نُجري فيها الماءَ، وتزرعونها نعناعاً وطماطمَ وجرجيرَ لتأكلوا منه ولعلكم تَبيعون، فتشطِرون لنا الثّلثَ. قالوا: نعمٌ، هذا عدلٌ وكرامةٌ. قالَ الإمامُ: فاجعلوا لنا في قلبِ الوقفِ داراً للدرسِ والخلوةِ من أخفِّ البناءِ. ففعلُوا. قلتُ: فكانَ الإمامُ إذا رأَى في أحدِنا غيبةً من غيباتِ العقلِ، أو القلبِ، أو البدنِ، أرسلَهُ إلى هذه الدارِ يقولُ له: أنتَ صاحبُ حالٍ لا عملَ لكَ. فاجلسْ في دارٍ خفيفةٍ علَى رئةِ الأرضِ، وسطَ الزرعِ الذي أنبتَهُ الصُّنَّاعُ والمعلّمونَ، ويأكلُ منهُ الناسُ والحيوانُ، واسمعْ خريرَ الماءِ الذي يجري أولَ الصبحِ، وتنفسْ هواءَ النعناعِ أو القرنفلِ، واقرأْ من كُتُبِ السادةِ، واكتبْ من بعضِ ما يلهجُ به قلبُك حتّى تُفارقَ الغيبةَ وتدخلَ الطريقَ.

أولَ الأمرِ، والسرورُ الذي أظهرني في آخرَهُ، والفرحُ الذي لا يزالُ يكون.

وقالَ لِيْ: من خلا عنِ العملِ أغاثَهُ الحالُ، فمن خلَى عن الحالِ أغاثَهُ الوهمُ، فمن خلا عن الوهمِ أنَّى لهُ الغوثُ.[27]

وقالَ لِيْ: لا يعودُ صاحبُ الغيبةِ حتى أعودَ بهِ، ولا يفرحُ حتى أفرحَ إليهِ، فمِنْ هذا تقومُ الربانيّةُ.

وقالَ لِيْ: الغائبُ لا يرجعُ إلى شيءٍ لأنّهُ إذا رجعَ إلى شيءٍ آواهُ، والغيبةُ لا مأوَى لها.

وقالَ لِيْ: مآلُ الغائبِ قلبُهُ الذي في صدرِه، وصدرُ الغائبِ أجوفُ كالعودِ الذي أغنيتُه ليستْ من اسمِه هو.

وقالَ لِيْ: الغَيْبةُ المسافةُ التي تفصلُ البذرةَ عن جوفِ الأرضِ، والوقتُ الذي

[27] قلتُ: كان من معارفِنا في الطريقةِ رجلٌ صالحٌ في أوّلِ الوقتِ، فأخذتْهُ بعضُ العلومِ المأجورةِ، والترفِ الغالبِ، فتبدّلَ وصارَ هيّناً علَى قلبِه ما في العالمِ من وجعٍ، وقد كانَ يعتبرُه. قالَ الإمامُ: هل له عملٌ يفزعُ له كالكدحِ الصادقِ، أوِ العونِ الظاهرِ، أو الصبرِ المريرِ؟ قلنا: لا عملَ له غيرَ وظيفتِه التي يقتاتُ منها لصالحِ ظالمٍ في الناحيةِ. قالَ: فهل عندهُ حالٌ غالبةٌ من مجاهدةٍ روحيةٍ، أو مُكابدةٍ ضميريّةٍ، أو مراجعةٍ عقليةٍ، أو ما قاربَ هذا؟ قلنا: نعرفهُ عن قربٍ وبُعْدٍ، ولا يبينُ لنا شيءٌ من هذا الحالِ. قالَ: فهلْ في تَبَدُّلِهِ وهمٌ ظنَّ فيه الخيرَ أو تهيّأَ له الحقُّ؟ قالَ تلميذٌ درسَ علَى يديهِ: نعمْ، بدَا له أنه يُصلحُ من حالِه ولا يُفسدُ العالَمَ. قالَ الإمامُ: فادخلوا عليه من هذا البابِ، وبيّنوا له عطبَ قلبِه وعطبَ العالمِ، حتى لا يعودُ يتّكئُ على التهيّؤِ، وربما تبدّلَ حالُه أو صَلُحَ عملُه. قلتُ: ففعلنا حتى كانَ الحولُ، فترقَّى الرجلُ من الوهمِ، إلى الحالِ، إلى العملِ، وتوجّعَ بالعالمِ كما كان يفعلُ من قبلُ.

يَحُولُ بين الزارعِ والسُّنبلةِ.

وقالَ ليْ: الغيبةُ انفصالُ التربةِ عن المحراثِ.[28]

وقالَ ليْ: الحارثُ على عتبةِ الغيابِ والحضورِ، بين أن يُخفي البذرةَ وأن تظهرَ السنبلةُ.

وقالَ ليْ: البذرةُ غيابٌ يشيرُ إلى الحضورِ.

وقالَ ليْ: البذرةُ، هذي التي تقلقُ بين يديكَ، بِشَارَةُ السُّنبلةِ.

وقالَ ليْ: السُّنْبُلَةُ، هذي التي تصيرُ خبزاً للقلوبِ، خبرٌ عنِ البذرةِ.

وقالَ ليْ: الغيبةُ لا غلالَ لها، ولا حرثَ يحصلُ عنها، ولا تُحيلك إلى زرعٍ جديدٍ.

وقالَ ليْ: الذي يغيبُ لا يقدرُ أن يُحيلَ إلى شيءٍ، لأنّ الإحالةَ رابطٌ والغائبُ لا رابطَ له.

وقالَ ليْ: الإحالةُ حضورٌ بالأصالةِ عن محلِّ الإحالةِ فلهذا لا تحصلُ للغيبةِ.

وقالَ ليْ: الإحالةُ، تُأوِّلُ لكَ الأشياءَ ثم تَؤُولُ بكَ إليها حتّى تصيرَ إلى سياقِ

---

[28] جئتُ أُستاذتي فاطمةَ ريحانةَ القلوبِ بنتَ حالِ الودِّ الفاتحةَ، من عابداتِ غدامسَ ودرجَ وسيناونَ والحمادة، إمامةَ المحبّة، وصاحبةَ اللواءِ والريادة، زائراً وقتَ القائلةِ الشديدةِ الرمضِ، وهي فلاحةٌ تكدحُ الزرعَ. فرأيتُ فأسَها الذي تُقَلّبُ به الأرضَ مُنغرساً في قلبِ التربةِ، وهي مُضْطَجِعَةٌ بحذائِه في رائعةِ النهارِ.

فسلّمتُ عليها وسألتُها عن حالِها الذي هي فيه، فقالتْ: لم ينزلْ مطرُ هذا الموسمِ، وهذهِ غيبةٌ نتوحَّشُ ويتوحّشُ العالمُ منها، حتى خشيتُ أن يَفْسُدَ البذرُ. فرشقتُ الفأسَ في رحمِ الأرضِ، وقعدتُ حذاءَه، حتى إذا رآني، أي الحقُّ، تَحَشّمَ من عِدّتي وعَتادي وعشَمي فيه، وربما أنزلَ الغيثَ فأبذرُ وأسقي وأحصدُ.

قلتُ: وكل هذا تشبيهٌ يحبّهُ أهلُ الطريقةِ ويجدونَ فيه لذةً لقلوبِهم وتأليهاً لأبدانِهم وآلاتِهم.

الأشياءِ لا سياقِ الغيابِ.

وقالَ لِيْ: الذي يؤولُ لا يعرفُ المهْجَرَ، ولا يذوقُ الشتاتَ، ولا يطأُ عتبةَ الغيابِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ مآلٌ، تحيلُ إليكَ الإشاراتُ وتُنْبِؤُ عنكَ العلاماتُ، فكيفَ تؤولُ؟[29]

وقالَ لِيْ: أنتَ مآلُ العالمِ يحثُّ جسدَهُ إلى جسدِكَ، ويمشي بقلبِهِ إلى قلبِكَ، ثمّ يقولُ خَلّكَ في جِواري.

وقالَ لِيْ: المآلُ الذي يؤولُ يُربِكُ المعنى لأنّهُ يَنْكُصُ بهِ إلى مُبتداهُ، وهو يريدُ السِّدْرَةَ الآخِرةَ.

وقالَ لِيْ: المآلُ هو الإنسانُ الذي استلفَ مني الاسمَ ثم لم يَجِدْهُ، ومن هذا يصيرُ الغيابُ.

وقالَ لِيْ: أنتَ غيابٌ عن معنى الإنسانيّةِ، وانقطاعٌ عن نسلِ الخلافةِ، وانفصامٌ

---

[29] جاءَ تلميذٌ إلى الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ بن إبراهيمَ الدُّرّيُّ، رفيقِ الكادحينَ، وملجأِ المظلومينَ، إمامِ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمِ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، فقالَ: دوّختنا العلومُ، وأربكَنا الحسابُ، وتلخبَطْنا بالكلامِ والمقالاتِ العتيدةِ.

قالَ الإمامُ: ما تقرأُ هل يؤولُ إلى إنسانيّتِك العموميّةِ أم يؤولُ بكَ إليهِ. فلم يفهمِ التلميذُ. فقالَ الإمامُ: هل يَخدِمُك أم يُخِدّمُك؟ قالَ التلميذُ: ثم ما؟ قالَ الإمامُ: فهل يَخدِمك في سياقِ الأَثَرَةِ أو الحُكْرَةِ أو الظُّلمِ، أم يُوجِّهُك إلى أفقِ العدلِ والجمالِ؟ قالَ التلميذُ: ثمّ ما؟ قالَ الإمامُ: فهل ينفعُ لوقتِك الذي أنتَ فيه، أم لوقتٍ مضَى عنكَ، أم وقتٍ لم يأتِ عليكَ؟ قالَ التلميذُ: ثم ما؟ قالَ الإمامُ: فهل يثبتُ للمراجعةِ العقليّةِ، والمناهضةِ القلبيّةِ؟ قالَ التلميذُ: ثمّ ما؟ قالَ الإمامُ: فإن ناوشتَ النصوصَ بهذه الأسئلةِ عرفتَ أيها ينبغي لكَ، وإلا طرحتَها عنك حتى ينطرحَ عن فؤادِك ما به من دُواخٍ.

عن الأرضِ التي جعلتُها لكَ.

وقالَ ليْ: نسلُ الخلافةِ في نطفةٍ واحدةٍ، هي الإنسانُ.

وقالَ ليْ: نسلُ الخلافةِ حيازةٌ لكَ عن الوحشةِ التي تتعلّقُ بالعالمِ حينَ لا تُمعِنُ فيهِ.

وقالَ ليْ: نسلُ الخلافةِ بيعةٌ لك تحت شجرةِ الإنسانيّةِ وأنتَ مع الشياهِ ترعَى عشبَ المعارفِ وتنهلُ من ماءِ الإشاراتِ الغريبةِ.

وقالَ ليْ: نسلُ الخلافةِ اجتماعُ السلطانِ في نُطفتِك.

وقالَ ليْ: الذي تَنْسُلُ منه الخلافةُ لا ينقطعُ عنها ولا تزولُ عن ظلّهِ لأنّ الوشيجةَ في النطفةِ لا في المعاهدِ والأسواقِ ودواوينِ الحكمِ.

وقالَ ليْ: الوشيجةُ في النطفةِ ثم في الصيرورةِ الحاصلةِ عن انخراطِكَ في العالمِ.

وقالَ ليْ: الصيرورةُ هي اقترافُك للمعنَى ثم انبثاقُ المعنَى إلى أفقِ الفعلِ.

وقالَ ليْ: الصيروةُ متعلّقةٌ بالقلبِ الذي يتقلّبُ، والاسمِ الذي يسمو، والجسدِ الذي يتجسّدُ قدّامَك وقدّامَ العالمِ.

وقالَ ليْ: الصيرورةُ، كالحضورِ، إزاءَ الغيابِ، غيرَ أنَّ الصيرورةَ تتقدّمُ والحضورَ يصمدُ في المقامِ الذي هو فيهِ.

وقالَ ليْ: الغيابُ فاجعةٌ لأنه يجتثُّكَ من طينِ المعنَى، ثم يُسْلِمُكَ إلَى الاسمِ الظاهرِ.[30]

---

[30] قلتُ للإمامِ أحمدَ: ما الاسمُ الظاهرُ؟ قالَ: غالبُ كلامِ الناسِ. قلتُ: فما حجابُ هذا الاسمِ؟ قالَ: العباراتُ الفخمةِ. قلتُ: فكيفَ يكشفُه من هو على الطريقِ؟ قالَ: يتركُ النصوصَ إلى القلوبِ، والحركاتِ إلى العملِ، والتلبيةَ إلى الغناءِ، غنائِه هُو.

وقالَ ليْ: الاسمُ الظّاهرُ خواءٌ يلتحفُ به الذين يريدونَ الأسماءَ دون المعاني.
وقالَ ليْ: الاسمُ الظاهرُ طمأنينةٌ وأنتَ يَنبغي لكَ أن تركضَ الأرضَ وتُسْفِرَ عن العالَمِ وتَضِجَّ بالأشياءِ.[31]

---

[31] كانَ أوّلُ الفجرِ فجلستُ في ركنِ المسجدِ عندَ البابِ الغفاريِّ أقرأُ وأُجَوِّدُ. وكانَ التلاميذُ والأساتذةُ قد أتمُّوا قيامَ الليلِ وهجعُوا في ديارِهم إلى وقتِ الصبحِ. فرأيتُ في ناحيةِ المحرابِ شيخي العرْبي بن مْهيدي قاعداً يذكرُ الحبيبَ ويتمايلُ ميلاً لا يكادُ يبينُ، وهو يَظُنُّ أنه فردٌ صمدٌ في المكانِ. ففي لحظةٍ بعينِها تَهيّأَ لقلبي أنّهُ يرتفعُ عن سجّادةِ الصلاةِ حتى يكادُ يخرجُ عن المكانِ، وهو يقرأُ ويتمايلُ كأنْ لا شيءَ. ثمّ رأيتُه يَلِجُ إلى القُبّةِ التي فوقَ وسطِ المسجدِ وفيها خطوطٌ ظاهرةٌ من الكتابِ علَى وجهٍ حسنٍ. ثمّ إذا هو يعودُ إلى موضعِه من المحرابِ ويجلسُ في هيأتِه الأولَى علَى نحوٍ من العفوِ عجيبٍ. فمشيتُ إليه وَجِلاً وقلتُ: أي مولايَ، أراكَ صعدتَ في الهواءِ حتّى تعلّقتَ بالسّقفِ ثم رجعتَ ها هنا وأنتَ تقرأُ. فنظرَ إليّ نظرةً والهةً غائبةً عن المكانِ وقالَ: هذا تَهيّأَ لكَ من حالِ رَوحانِيّتِك وتَقَبُّلِكَ لمعاني الكرامةِ والولايةِ. فلمّا خرجَ إلى دارِه نظرتُ إلى جُوّانِيّةِ القُبّةِ وهي في عُلُوٍّ عجيبٍ، فإذا الكلامُ المخطوطُ قد تغيّرَ إلى كلامٍ آخرَ لم أحفظْهُ من قبلُ ولم أعرفْ أنّهُ من الكتابِ. ففزعتُ إلى الإمامِ أحمدَ بالأمرِ فقالَ: لا تدخلْ بين الأقطابِ وبين ربِّ الأقطابِ، وإلا حَشّمُوكَ بالعلومِ التي لا تَصِحُّ لكَ في هذا الحالِ الظاهرِ الذي أنتَ فيه. قلتُ: ولكنّي أجلسُ تحتَ القبّةِ. قالَ الإمامُ: نعمْ، عندَك حقٌّ يا موسى، هي متعلّقةٌ بكَ من هذهِ الجهةِ فيصحُّ لك السؤالُ. فارتفعْ إليها في الهواءِ وامحُو ما كتبَ العربي بن مْهيدي، أو ارجعْ به إلى الكلامِ الظاهرِ الذي تحفظُه وتُجَوّدُهُ.
قلتُ: فلم أعرفْ أيّهما أشدُّ سطوةً وأبعدُ إيغالاً، الطيرانُ بغيرِ آلةٍ أم محوُ كلامِ العارفينَ من علَى قبابِ المساجدِ.

وقالَ ليْ: الاسمُ الظّاهرُ تلبيةٌ من وراءِ حجابٍ.

وقالَ ليْ: الاسمُ الظّاهرُ اسمي في أولِ الطريقِ فإن ناديتَني به في متنِه لم تَصِلْ.

وقالَ ليْ: متنُ الطريقِ تنبغي لهُ علومُ الطريقِ.

وقالَ ليْ: متنُ الطريقِ يَنْشُدُ القوافلَ التي تحمّلتْ بالأسرارِ وانتعلتْ حوافرَ الحقائقِ وحدَا بها الاسمُ الحسنُ.

وقالَ ليْ: الاسمُ الحسنُ يَلي في التخومِ الاسمَ الذي يظهرُ لكَ أوّلاً.

وقالَ ليْ: الاسمُ الظاهرُ تجدهُ مكتوباً.

وقالَ ليْ: الذين لا يعرفونَ غيرَ اسمي الظّاهرِ تقابلُهم منّي الرحمةُ فَحَسْب، وهم يطلبونَ الرحمةَ والعلومَ والأسرارَ الجليلةَ.

وقالَ ليْ: الذينَ يطلبونَ أسراري وهم منقطعُون عنّي بحجابِ الاسمِ الظاهرِ لا يصِلُون.

وقالَ ليْ: الذي لا يصلُ غائبٌ وإن دخلَ بعضَ الديارِ، وجلسَ علَى عتباتِ الحِمَى، ومشَى في الحواشينِ.

وقالَ ليْ: الوصولُ يسلبني عِمامةَ المفارقةِ فتراني حاسرَ الأسرارِ سافرَ العلومِ أبذلُ لك الأحوالَ والمقاماتِ كأنّها من بعضِ زادِك الذي دخلتَ به عليَّ أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الواصلونَ يدخلونَ عليّ وأنا أدبّرُ الكونَ، وأُجري الأرزاقَ، وأحيِي وأميتُ، فأقولُ من هذا الذي يتنفّسُ في المكانِ، ويجوسُ بين الديارِ، ويلهو بقوائمِ العرشِ؟

وقالَ ليْ: الواصلونَ ينبغي لهم دخولُ الطريقِ أولاً.

وقالَ ليْ: دخولُ الطريقِ أن تنهضَ عن دارِك ثم تُمعِنَ في السهولِ التي تَلِي الدارَ.

وقالَ لِيْ: الإمعانُ في السهولِ يحثُّكَ أن تنبثقَ ابتداءً عنِ الغارِ الذي في الجبلِ.[32]

وقالَ لِيْ: الإمعانُ يلزمُه قلبٌ يطلبُ الوصولَ، وبدنٌ ينعقدُ بالطريقِ، وعقلٌ يتناوشُ المعاني والعلومَ.

وقالَ لِيْ: الإمعانُ خروجُك عن أرضِ الغيبةِ تركضُ السهولَ إلى تخومِ الرؤيةِ.

وقالَ لِيْ: تخومُ الرؤيةِ جهاتٌ تشرفُ علَى أسمائي وتُطِلُّ علَى مواضعِ العرشِ، وتُقاربُ قوائمَ الرّحمانيّةِ.

وقالَ لِيْ: تخومُ الرؤيةِ محلُّها القلبُ غيرَ أن ضوءَها منَ الشوارعِ والمشاغلِ والدكاكينِ.

وقالَ لِيْ: تخومُ الرؤيةِ عشبُها من طينِ العالمِ لأنّ العالَمَ هو موضعُ الخِصْبِ الذي نبتَ فيه الإنسانُ.

وقالَ لِيْ: طينُ العالمِ يُناشِدُك أن تغرسَ فيهِ النوارَ كي يتضوّعَ هو برائحةِ النوارِ.

وقالَ لِيْ: الغيبةُ اجتثاثُ الإنسانِ من طينِ العالمِ ورائحةِ الأشياءِ فلا يعرفُ كيفَ

---

[32] قالَ تلميذٌ للإمامِ: مالذي يَلزمُنا من كلامِ الغارِ؟ قالَ الإمامُ: ما يَلزمُ عن إنسانيّتِنا العاملةِ. قالَ التلميذُ: فكيفَ يصيرُ في ما لا يَلزمُ عنها؟ قالَ الإمامُ: نُحيلُه إلى حينِ الغارِ ثم نؤولُ به إلى السّهولِ التي نزلَ إليها المحمومُ يريدُ أن يصدعَ بالأمرِ. قالَ التلميذُ: فيعجبُ هذا صاحبَنا؟ قالَ الإمامُ: نعمٌ، لأنّ الحُمّى التي به من فعلِ المحبّةِ، وحالِ الضعفِ الموجبِ للرحمةِ العاملةِ، فلا أثرَ فيها للسّطوةِ أو الإرغامِ، فإن كليهما غلبَا بعدَ حينِ الحُمّى.

قلتُ: غَلبا حينَ التمكينِ الذي نتجَ عنِ الحديدِ والأَتْبَاعِ. فالمحموميّةُ، عندَ القومِ، كرامةٌ في أولِ الأمرِ تناوئُ السّطوةَ الحادثةَ في الديانةِ، وتناوشُ عنّا ما تعلّقَ بالكلامِ الفخمِ من أذًى للإنسانِ حتّى يعودَ الكتابُ كلُّه خالصاً للقلوبِ الوالهةِ بالحريّةِ والسؤالِ.

ينهضُ أو يمشي في قارعةِ الطريقِ.[33]

وقالَ ليْ: قد يصيرُ الطريقُ إلى العرشِ هو العرشُ لمن اتَّسَعَ قلبُه للعلومِ، وانتهَبتْ جسدَه المعارفُ، وصارَ هو والطريقَ شيئاً واحداً.

وقالَ ليْ: قد يسبقُ قلبُك حافرَكَ فتصلُ أو يسبقُ حافرُك قلبَكَ فتصلُ.

وقالَ ليْ: الذين تسبقُ قلوبُهُم غلبَهم الشوقُ، والذين تسبقُ حوافرُهم خطفَهم الكدحُ.[34]

---

[33] من كناياتِ أهلِ الطريقةِ، وإشاراتِهم الروحانيّةِ، أنهم يحبّونَ أثرَ العملِ على أبدانِهم، فتجدُ الطينَ في أيدِيهم، وزيتَ الآلاتِ علَى بَذْلاتِ شُغلِهم، والحِبرَ بأطرافِ أناملِهم وأثرَ الحَرّ علَى جباهِهم. وكانَ الذي لا يعملُ منهم بِضْعَةَ نَهاراتٍ يستوحشُ ويضطربُ ونرَى هذا علَى وجهِه، ويُسَمُّونَ هذا الحالَ *الانقطاعَ* لأنَّهم ينقطعونَ به عن معنًى من معاني إنسانيَّتِهم، وهو قريبٌ من حالِ الغيبةِ الذي يشرحُه الغْدامسيُّ وإن لم يَكُنْ له الفداحةُ والهولُ.

[34] جئتُ الإمامَ في رُكنِه من السّوقِ يخيطُ النّعالَ، فسلّمتُ عليهِ فقالَ: تريدُ أن تنظرَ إلى واحدٍ من الواصلينَ؟ فتهلّلَ وجهي وقلتُ: نعمْ. قالَ: ذلكَ الكهلُ الجالسُ قِبالتَنا يبيعُ تمرَ حقلِه. قلتُ: ثمّ؟ قالَ: هو واصلٌ. فرأَى الإمامُ العُجْبَ في وجهي فقالَ: من عشرينَ حولاً أشهدُه في مكانِه هذا يَبْسُمُ للناسِ صبحاً وعشيّةً، ويبيعُ نصفَ التّمرِ ويُعطي نصفَه لبعضِ العوائلِ المحتاجينَ بالسوق، ورأيتُه يذهبُ يبيعُ تمرَه لبعضِ العِشَشِ التي فيها نساءٌ بعيالِهنّ لا يستطِعنَ الخروجَ للدكاكينِ، فإذا رفعَ التّجارُ أسعارَ التّمرِ جاءَ هو بسيّارتِه وقد ملأها تمراً فيبيعُ بالسّعرِ العادلِ فيستقيمُ السوقُ. فهو يتسابقُ قلبُه وبدنُه على الخيرِ حتّى وصلَ وهو يدري أو لا يدري. فواللهِ يا موسَى لو مشيتَ إلى مجلسِه الذي هو فيه ربما خبطَ رأسُك في قائمٍ من قوائمِ العرشِ وأنتَ في السوقِ بين البضائعِ والورشِ والأكشاكِ.

وقالَ لِيْ: الطريقُ لغةٌ في الوصولِ لمن بدأ منّي ليصلَ إليّ.[35]

---

[35] أصابتِ الحمّى تلميذةً من غيرِ مرضٍ ظاهرٍ. فتكلّمتْ بشيءٍ عجيبٍ لا ينبغي أن أخُطَّهُ. قالَ الإمامُ: خذوا بالَكم منها. فظلَلنا بها ثلاثةَ أيامٍ وهي تهذي بهلوسةٍ فخمةٍ، ثم قامتْ فمشتْ في الشارعِ العموميّ، تُؤَذِّنُ بصوتٍ هامسٍ كأنّها لا تريدُ لأحدٍ أن يَصدعَ به، أو أنَّ من تدعُوهم للصلاةِ كانوا من غيرِ الإنسانيّينَ، الهمسُ عندَهم كالصخبِ الشديدِ. قلتُ: فرأيناها بعدَ حينٍ تشهقُ وتتأوَّه، فتحشّمنا لها. وجاءَتها التلميذاتُ فأخذْنَها إلى البابِ الغفاريِّ من المسجدِ، حيثُ لنا رجاءٌ مخصوصٌ في الرحمةِ، وهو من حالِ أهلِ الطريقةِ، يعتقدونَ البركةَ في بعضِ النواحي علَى وجهٍ من اللُّطفِ والأمنياتِ. قلتُ: فقعدتُ حذاءَها أرَى وجهَها وما هي فيهِ من حالٍ خارقٍ. فانتبهتْ وقالتْ: أنا محمومةُ القلبِ والناسُ يظنُونني محمومةَ البدنِ. قلتُ: ما هذه الهلوساتُ التي تطلعُ منكِ على فراشِك وفي الطريقِ العموميّ؟ قالتْ: أحاولُ الكتابَ أريدُه أن يصيرَ مني لا منهُ. أطلبُ العبارةَ الناضرةَ، والكنايةَ الباكرةَ، والمعنَى الذي يباغتُ صاحبَ إقرأ فلا يعرفُ هل فاتَهُ هذا الكلامُ، أم نَسِيَهُ، أم نُسِخَ له. قلتُ: فقد أَذَّنْتِ! قالتْ: أردتُ أن أعرفَ المسافةَ التي بيني وبين حالي قبلَ أن تَنُوشَني الحُمّى، فإني حينَ وقفتُ على عتبةِ الدخولِ همستُ بالأذانِ حتى أجعلَه علامةً أقيسُ بها جهةَ المكانِ والزمانِ. قلتُ: فأينَ أنتِ من هذهِ العلامةِ الجِهويّةِ الوقتيّةِ؟ قالتْ: قد أوغلتُ وأمعنتُ شيئاً كثيراً ولكني لم أخرُجْ عن التخومِ الموجبةِ للحياةِ. قلتُ: فما الذي حَصّلَ لكِ الحمّى أولَ الأمرِ؟ قالتْ: اجتماعُ الاثنتينِ. قلتُ: يا سبحانَ الله، وما الاثنتانِ؟ قالتْ: الغوايةُ والفزعةُ – غُويْتُ شابّاً مليحاً كادَ جسدي أن يتهافتَ من شهوتِه لهُ، وفزعتُ لعاملٍ كانَ يُصلِحُ بعضَ الآلاتِ في ورشةِ ربِّ عملٍ فأنقصَ في أُجرتِه وسَلَبَهُ من ساعاتِ كَدْحِه. قلتُ: فظلّتِ البنتُ على هذا الحالِ أياماً حتى شَمَلَها فتاها بالوصلِ، ونالَ العاملُ بعضَ حقّه من قِبَلِ مالكِ الورشةِ وحاكرِها، وإلا لأقامتِ البُنَيّةُ في هذه التخومِ العجيبةِ ماشاءَ الله لها أن تُقيمَ.

وقالَ ليْ: القلبُ والحافرُ من وشيجةٍ واحدةٍ غيرَ أن دفقةَ القلبِ أوسعُ من ركضةِ الحافرِ.

وقالَ ليْ: الذي يغيبُ عنا بقلبِه يتوهُ بدنُه وإن ركضَ الأرضَ جميعاً، والذي يغيبُ ببدنِه قد يحملُه قلبُه إلينا علَى جناحِ الاسمِ الأعظمِ.

وقالَ ليْ: أصحابُ القلوبِ يطلبونَ الحوافرَ، وأصحابُ الحوافرِ ينشدونَ القلوبَ، كي تَحتملَ المطايا وتنتظمَ القوافلُ.

وقالَ ليْ: السفرُ في أرضِ الغيبةِ يتّسعُ بها إلى التخومِ التي تظهرُ لك، والأفقِ الذي يتجلّى إزاءَك، والفضاءِ الذي يستشرفُه قلبُك.

وقالَ ليْ: اتّساعُ أرضِ الغيبةِ يزيدُ في وجعِك ووعيِك باسمِك في مُقامٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: حمّى الغيابِ إشارةٌ بسيرِك نحو منتهَى الأرضِ التي أحاطَت بكَ عنّي.

وقالَ ليْ: حمّى الغيابِ تنوشُ الذي هو مشغولٌ بالعالمِ يكادُ يتصدّعُ من الشوقِ للبساتينِ أو لزهرةٍ على ناصيةِ الطريقِ.

وقالَ ليْ: حُمّى الغيابِ قلبُك يتململُ في أغلالِ العالمِ.

وقالَ ليْ: الذي لا يتململُ قلبُه أو بدنُه قد لا يعرفُ أنه في الأغلالِ.

وقالَ لي: حُمّى الغيابِ لا تسكنُ لأن قلبَك يريدُ أن يخلُدَ إلى الطمأنينةِ، مثلما لا تهدأُ الريحُ لأنّ الشجرَ يريدُ أن يستريحَ من المرجَحةِ.

وقالَ ليْ: سياقُ الغيابِ يُطْلِعُ وعيَك بهذا الغيابِ، ثم يَدمُغُ وعيُك بالغيابِ سياقَك الذي أنتَ فيه.

وقالَ ليْ: كلُّ سياقٍ يُطلِعُ مقاماتٍ وأحوالاً متعلقةً به، ثم تدورُ هذه المقاماتُ الناتجةُ والأحوالُ الحاصلةُ فتُعْمِلُ في السياقِ وتُمعِنُ فيه.

وقالَ لِيْ: الوعُي علومُكَ ومعارفُكَ التي تنهضُ بها من أغلالِ السّياقِ الذي حبسَك في العالمِ إلى أولِ السّياقِ الذي يُطلِقُ سراحَك وسراحَ العالمِ.[36]
وقالَ لِيْ: كنتَ فِيْ الهُدَى فَضَلَلْتَ، وفِيْ الطَّرِيقِ فَقَعدْتَ، وقدْ جاءَكَ منِّي بيانٌ فَقَصُرْتَ عن إدرَاكِهِ، فجعلتَ تَعْملُ فيهِ لا بهِ، فَهَجَرَكَ بَيانِي، وفَارقَكَ خِطَابِي،

---

[36] قالَ تلميذٌ قد جلسَ في الخلوةِ الصوفيةِ عندَنا: إني من وقتٍ في مقامٍ من مقاماتِ الغيبةِ أحاولُ تخومَ أبي ذرٍّ، فتحوزُني عنهُ عُصبةُ خالدٍ وعَمْرٍو ومن هو في معناهُما في الأثَرةِ، والحكمِ، والبأسِ المؤذي للخلقِ. قالَ الإمامُ: فما تريدُ من الرجلِ – يعني أبا ذرٍّ؟ قالَ التلميذُ: شِرْكَةَ الأصولِ، ومناهضةَ الاستئثارِ، وقولةَ لا في حضرةِ السلطانِ. قالَ الإمامُ: فما يُراوِدُكَ من جهةِ أغيارِهِ الذينَ ذكرتَ؟ قالَ التلميذُ: أجدُهم في قلبي حينَ أغضبُ لقومي أو ديني أو أبغِي الفتوحَ والغنائمَ والعروشَ. قالَ الإمامُ: فإنْ فكّرتَ في أبي ذرٍّ خطرتْ علَى قلبِك الرَّبَذَةُ فتوحّشتَ منها؟ فاهتزَّ التلميذُ وقالَ: نعمٌ، الرّبَذةُ يا إمامي، الرّبَذةُ. قالَ الإمامُ: فأنتَ تريدُ طمأنينةَ المناهضةِ وتخشَى وحشةَ المنفَى والغيابِ. فإنَّ حلَّ هذا الإشكالِ لا يحصلُ في الخلواتِ الصوفيّةِ والمكابداتِ الرّوحيّةِ فحَسْبْ. ينبغي لكَ أن تخرجَ عن حالِ التّأمُّلِ المحضِ الذي أنتَ فيه، ثم تَشَبَّهْ ببعضِ أحوالِ أبي ذرّ، علَى نحوٍ لطيفٍ لا يرهقُك، وامشِ في الأسواقِ، وتكلّم مع العاملينَ، وناوِئ الناهبينَ علَى كثبٍ، فإنّهم يُراكِمونَ الأموالَ في خزائنِهم وأنتَ تراكمُ الغِفاريَّةَ في قلبِك، حتّى تصيرَ مطمئِنّاً في المناهضةِ وفي المنفَى معاً. قالَ التلميذُ: وكيفَ أصنعُ بالعُصبةِ الخالديّةِ ذاتِ الأثَرةِ يُراوِدون قلبي؟ قالَ الإمامُ: تَشْغَلُهُمْ عن قلبِك العبيدُ والسبايا، وتحوزُهم عن ضميرِك الأسهمُ والعروشُ الوارثةُ. فإن أردتَ مجدَ الفاتحينَ فانظر كيفَ فتحَ الغفاريُّ قلبَك من الرّبَذَةِ إلى الزّنْقَةِ التي أنت فيها بطرابلِس، وبينكما أربعُ عشرةَ مائةٍ من السنينِ.
قلتُ: فاطمأنَّ التلميذُ واطمأنَّ معه أهلُ الطريقةِ جميعاً.

ثُمَّ عَاودناكَ فَعُدتَ، ثُم إنَّا عَاودناكَ فَعُدْتَ. فَنَفدتِ الرَّحمةُ، وغَاضَتِ النِّعمةُ، وحلَّ الغضبُ، وانبثقَ ليلُ الهجرِ.

وقالَ لِيْ: هُمْ بَيَانِي وَخَطَابِي.[37]

وقالَ لِيْ: اِقْرأْ فِيْ صَفحةِ الكونِ تَجِدْنِي هَامَشتُ مَتْنَكَ، وتَجِدْكَ هَامَشْتَ مَتْنَهم، فأنا أَشْرحُكَ، وأنتَ تَشرحُهم، حتى يصيرَ الهامشُ والمتنُ كتاباً واحداً.

وقالَ لِيْ: الهامشُ يطلبُ المتنَ يريدُ أن يَؤُولَ إليهِ، والمتنُ يُشْكِلُ فيَلْزَمُهُ الهامشُ ثم لا يُلْزِمُهُ.

وقالَ لِيْ: الهامشُ يدّعيكَ والمتنُ يدّعيكَ، ثم يستوليانِ علَى معناكَ قُدّامَ عينيكَ.

وقالَ لِيْ: اسْتَحَيْتُ منْ ضَعفِكَ وقلّةِ حِيلتِكَ، وذهابِ أمرِك، فَأَتَيْتُ أُسَلِّمُ عَليكَ.

وقالَ لِيْ: جاءَ وَقتُكَ، وَحَانَ مِيعَادُكَ، فَخَرجتُ لكَ وقدْ تزيّنتُ بالحِكمةِ، واشْتَملتُ بالرّحمةِ، وانْتَعَلتُ الهُدَى، وأْتَزَرْتُ الأمَانَ. وكانَ حَوْلي أَحِبَّائي فَهَجَرْتُهُمْ لأَجْلِكَ، وأتيتكَ مُسلِّماً، فالآنَ تَعرفُني وأَعرفُكَ، وتُكلّمُني فأُكلّمُكَ، وجَاعِلُكَ للناسِ إماماً، وفي الكونِ سَلاماً، وأَفتحُ لكَ دَاري، وأُشرِكُكَ زَاديْ، وأَرْتَضِيكَ وَلِيّي، وأُسَمِّيكَ غوثَ الأرضِ، ويكونُ من لَدُنّي أُنسٌ لكَ وفرحٌ عظيمٌ.

---

[37] قالَت سيّدتي الواجدةُ باللهِ سمرُ الزمانِ المهديّةُ: "هُم" أي العارفونَ من الخلقِ، بل همُ الخلقُ كلّهم. وقالَ شيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ: هاؤُها من "هُو" وفيها معنى الغَيريّةِ، وميمُها من "منّي" أي منَ الحقِّ ذاتِه، قالَ، ومعناها "كلّكُم منّي". وقالَ الإمامُ: لو وقعَ الشيخُ بلخير على هذهِ اللطيفةِ لجاءَ بها ناصعةً، ولكنَّهُ فِعْلُ القراءةِ يذهبُ بالكلامِ إلى منتهاهُ، وربما خرجَ بهِ إلى غيرِ غايتهِ.

وقالَ لِيْ، إذْ رآني متفكّراً: عَفوتُ عنكَ فاعفُ عني[38]، واصفحْ لي والتمسْ لِيَ العُذر، واكفُفْ عني شرَّ حَيْرتِكَ. ما تَوَّهْتُكَ بلْ تُهْتَ، وما أَشقيتُكَ ولَكِنْ شَقَوْتَ، وما أَضنيتُكَ ولكنْ نفسَكَ أَضْنَيْتَ.

ثُمَّ دَنا برحمتِهِ وقالَ لِيْ: أيْ أيها الإنسانُ، أَخَذْتَ عَلى خَاطِرِكَ مِنّي؟ فوحقِّ خَلْقي عَليَّ، وأَنْتَ فيهمُ إشارةٌ مني، ما هُنْتَ عليَّ طَرْفَةَ عينٍ، ولا شَرَّدْتُكَ عن دارِكَ أوْ نَزَعْتُكَ مِنْ أَهلِكَ إلَّا لأُدْخِلَكَ في سرِّ الكَونِ الأكبرِ، منهُ تَتعَلَّمُ، وبهِ تؤوبُ.
فقُلتُ بلسانِ الحالِ: وكَيفَ يكونُ ذاكَ، يا حضرةَ الجلالِ؟
فَقالَ لي: بيديكَ هاتينِ تُقَلِّبُ التُّرابَ، وتَحْرُثُ الأرضَ، وتَمُدُّ مساربَ الماءِ، وتُسوِّي مَواضِعَ الزَّرعِ. فيكونُ منْ ذلكَ رَحِمٌ طيّبةٌ، فَتَضَعُ البِذرَ، وترعاهُ يَومكَ الَّذي تحياهُ. حَتى إذا اسْتَوَتِ الجذوعُ، وأورقتِ الأغصانُ، وكانَ زهرٌ وثمرٌ كثيرٌ، عصرتَ منهُ حَظاً، وحَفِظْتَ حظاً، وبَنَيتَ لكَ داراً ظليلةً، مُؤالفةً للزرعِ فلا ضررٌ ولا ضِرارٌ، نَاديتَ أنْ هَذي حَديقةُ الرِضَى، وروضُ القُبولِ. ثُمَّ تَعْمَدُ إلى ثَمَرِكَ الّذِي جَنَيْتَ فَتُقيمُ بهِ بَدَنَكَ، وإلى نَبِيذِكِ الّذي عَصَرْتَ فَتَجْعَلُهُ قُوتَ قَلبِكَ، وإِلى نِصْفِ زَرْعِكَ فَتَهَبُهُ لفقراءِ الأرضِ الذين نُهِبوا زرعَهُم وسُلِبوا آلاتِهم. ثُم أنَّا ندعو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِمُ، فأْتِنا مُلبّياً غيرَ مَخذولٍ، عَلَى جَبينِكَ عَلامةُ الخِلافةِ، يَكُونُ معكَ قومٌ أوّلُ أَمْرِهِمُ هَوَانٌ وآخِرُهُ عزَّةٌ. تَنَزَّلُ عَليهُمُ كراماتُنا كالغيثِ،

---

[38] قال سيّدي تاجُ السرِّ عليُّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: "عفوتُ عنكَ" نظرتُ إليكَ بعينِ المحبةِ فلمْ أرَ إلا أنّك هيَ. و "اعفُ عنّي" خُذ بطرفِ غضبِكَ فاضرِبْ به لوجهِ الحقِّ لا عليهِ. وقالتْ أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمِيَن: عفوُ الحقِّ واجبٌ وعفوُ الإنسانِ غايةٌ.

فَيَلَينُ لهمُ الحَديدُ، وهُم يَلِينُونَ بالمحبّةِ، بعضُهمُ لبعضٍ شِغافٌ، إخوانٌ وأزواجٌ وأولياءٌ منْ عندِ أَنفُسِهِم، يجلسونَ علَى عُروشٍ قُدَّتْ منْ عَرشي، ويَتكلَّمُونَ بكلامٍ منْ لَدُنيّ. فَخُذ ما آتَيْتُكَ بكدحٍ وعلمٍ، وأَقِمْ بُستانَكَ بأعيُنِنا ووَحْيِنا، نُلقي عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّا وَلِتُصْنَعَ عَلَى علومِنا. إن ثَبَّتَّ قلبَكَ علَى هَذا فَلحْتَ، وإنْ أَخلصتَ عَملَك أَقمتُكَ بهِ، فِعْلَ ربٍّ كريم.

قُلْتُ: فَما فَلاحي، كُرْمَى لكَ؟

قالَ: أنْ أَصِلَكَ بي.

قُلتُ: ومَا قَوَامِي، تَبارَكْتَ؟

قَالَ: أنْ أَصِلَكَ بهم.

المواسِمُ

1. موسمُ القعودِ

(وهو الحسَابُ)

ومن أحوالِه الحدسُ والفزعةُ والغيبُ والحضورُ وأريكةُ الحسابِ والحسبةُ المخبوءةُ والاحتمالُ واليقينُ والمراجعةُ وجبرُ الحسبةِ والغلطُ والاستئنافُ

ولـمّا سمِعتُ القولَ، ووعيتُ مُقامَ المحاورةِ، وكدتُ أوقِنُ بالخبرِ، لم أُشَمِّرْ عنْ ساعدِ الجدِّ، ولم أُهْرَعْ إلى الكَدِّ. بلِ اثَّاقَلْتُ تَثاقُلَ خَيْرٍ، وتَكَاسَلْتُ تَكاسُلَ حِكْمةٍ. وانْتَبذتُ مكاناً دانياً بظلٍّ وشرابٍ، وأمنٍ ومَهجعٍ، أَحسِبُ الحِسبةَ فأُعيدُها عَلَى مَبدئِها. فَعِنْدي أنَّ منِ اتَّبَعَ خَبَراً بِلا إعمالِ فكرٍ أو تجريدِ رأيٍ خرجَ عنْ زُمرةِ العاقلينَ، وقَرَّ معَ الغافلينَ، وإنْ كانَ المُخبِرُ الحقَّ والخبرُ اليقينَ.

فكانَ أوّلُ أَمْري أنني تَدبَّرتُ، واعتبرتُ وفكَّرتُ، وجَاهدتُ أنْ أعي مَبْدأَ الحِسبةِ وأَفهمَ غايةَ المقصودِ. فكافحتُ عني الغلطَ والزَّلَلَ، وقدَّرتُ معنى إنسانيَّتي، واحتطتُ لثابتِ جهلي، وطرحتُ عني الهوَى والغُرورَ. فَجَاءَتْني المعاني فعرضتْ نَفسها عليَّ، وأَخْبرتني بأسمائِها، وكلَّمتني بعلاماتِها، وأبانتْ ليْ عن أَحْوَالِها. فَأَخذتُها منَ النَّواصي، فَشَدَدْتُ عَليها فأغلظتُ لهَا القولَ فخَفَضَتْ لي جناحَ الفهمِ فاستقامَ عندي صراطُها. وجَعلتُ أعدادَها أزواجاً ومُخْتَلَفَهَا أَنْداداً، فتيسَّرَ لي حِسابُها. فَجَمَعْتُهَا وقِسْتُهَا عَلى بعضٍ، واستخلصتُها منْ بعضٍ، وأرفقتُها ببعضٍ، ونَفَيْتُهَا عنْ بعضٍ، وقَرنتُها، وأَضفتُها، وعَادلتُها، وبَاينتُها، حتى أَجهدتُّها كلَّ مَجْهَدٍ، وأَرهقتُها رَهَقاً. فسلَّمَتْ لي منْ قِيادِها ما اسْتَعْصَى، وكَشَفَتْ ليْ منْ مَنْطِقِهَا مَا أَبهمَ. فألحقتُ بالخبرِ الرَّأيَ ولمْ يَبْقَ غيرُ المُشَاهَدَةِ.[1]

[1] قال أُستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ: في هذه الحسبةِ التي جلسَ إليها الغدامسيُّ في موسمِ القعودِ ثم في جميعِ تخومِ الحديقةِ، بعضُ الحسابِ السَومريِّ، والهندسةِ الإقليديّةِ، والمنطقِ الأرسطيِّ، والقياسِ الفقهيِّ، ما اختلطَ بالرياضياتِ الحديثةِ، وفلسفةِ العلومِ، ونسبيّةِ الوقتِ، وفيزياءِ الدقائقِ. وهو شيءٌ يُفهمُ إما بالعفوِ الناتجِ عن القراءةِ

فَبينما أنا في قُعُودِي مَرَّتْ بِيْ ألفُ قافلةٍ، كلُّ قافلةٍ عَليهَا ألفُ عالِمٍ يَقولونَ بالعناصرِ والأشياءِ، ويَلْغَوْنَ بالأسْرارِ، ويُنَافِحونَ بالدَّقائقِ.[2] فلمَّا رَأَوْنِي قَاعداً أَحْسِبُ رَجَموني بالأسئلةِ المكينةِ، ورَمَوْنِي بالمقالاتِ المُصنَّفةِ. فَقُلتُ "أَخْرِجُوا إليَّ نَظيراً". فلمّا غَشِيَتْهُم آخِرةُ النّهارِ فَعلوا وما كَادوا. فَقالوا "هذا كبيرُنا يَبُزُّكَ". فجاءَنِي علَى ظَهْرِ رَاحِلةٍ أَرْهقَتْها القَضايا وأَعيَتْها المسائلُ. فَأَخذتُ بغارِبِها وقُدتُها قَوداً هيّناً، فَسَقَيْتُها منْ حِدَائي، وأَطْعَمْتُها ممَّا أُطعِمُ الناسَ شَرِيفاً طيّباً. فلمّا أَرادَتْ أنْ تُكَلّمَني بمعنى الرّحمةِ، صاحَ عَليها بلسانِ الجهلِ، فأَجفلتْ، فَسقطَ عنْ ظَهْرِها إليّ، فَتلقّيتُه بالقلبِ الذي شغافُهُ الحبُّ. فَجَلَسَ وحَدَّثَ عَنْ مَشَقّةِ الحِسَابِ، وخَيْبةِ القُعُودِ، وغَلَبَةِ الوَهَنِ عَلى العُقُولِ لِنَقْصِهَا بالطَّبيعةِ الثّابِتَةِ، وتَنَاقُضِ الحَواصِلِ والنَّوَاتجِ. فَصَبَرْتُ عليهِ حتى أَخرجَ ما في صدرِهِ. فلمّا فعلَ وَثَبْتُ عليهِ بِحِسْبَتِي التي عَمِلْتُها، فغُلِبَ والحقُّ الغالبُ. فلمّا رَأَى خَيْبةَ عُلُومِ الأَسفارِ دَخَلَ في مَوْسِمِ القُعُودِ فَجَلسَ عِنْدِي ألفَ ليلةٍ، كلَّ ليلةٍ أَقرأُ عليهِ ألفَ

الرائقةِ لهذا الكلامِ السرديّ، أو بالفكرِ المُتَحَصّلِ عنِ التحليلِ والتركيبِ والنقدِ. قالَ: وكلاهُما، أي العفوُ والفكرُ، يُعينانِ القارئَ أن يقبضَ علَى اللذّةِ الواجبةِ عن النصِ، ويفتحانِ أمامَهُ أفقَ الحديقةِ الغدامسيّةِ. فمن هذا يدخلُ البستانَ من كان بيدِه فأسُ العلومِ الناهجةِ أو مِنجلُ القلوبِ الواجدةِ، سِيّانِ.

[2] "الدقيقُ" من كلّ شيءٍ سرُّه ومعناهُ المضنونُ به عنِ الخلقِ. وأهلُ العلمِ والأحبارِ يجعلونَه في بطونِ الكتبِ المحروسةِ، ومجالسِهم المخصوصةِ يقولونَ: لا قِبَلَ للخلقِ بهذا الحقّ ثمّ يعقِدونَ أمرَ الخلقِ بهِ. قالَ إمامُنا أحمدُ: فلهذا كلُّ حقٍّ مضنونٍ به باطلٌ حتّى يُخْرَجَ بهِ على الخلقِ يتكلّمونَ فيهِ كما يتكلّمونَ في مُبتذَلِ أمرِهم، وإلا كيفَ ينعقدُ أمرُهم بهِ ثم لا يتكلَّمونَ فيهِ؟

عِلْمٍ منْ عُلومِ القُعُودِ. فعجبَ كيف يَجُبُّ القاعدُ القائمَ، وكيف فهمتُ ما لم يَفهمْ وقد رأى البلدانَ الغريبةَ والأمصارَ البعيدةَ.

فأَقْرَأْتُهُ منهُ السلامَ، فصُعِقَ في حالِ زمانِهِ ومكانِهِ. فلمَّا وعَى ما حولَهُ وَعَانِي، فَشَهِدَنِي أَطوفُ البلادَ وأسيحُ في الأمصارِ، وسَمِعَني أَلغُو فأُحسِنُ الحديثَ بألفِ لسانٍ، ورآني عُرياناً مع من تعرَّى وكاسياً مع الكاسين. ونظرَ فإذا وجهي منْ كلّ لونٍ وعرقٍ، وإذا أنا الإنسانُ كلُّه، في حِسبةٍ واحدةٍ.[3] وبانَ لهُ عزمُ بغلتي عليها الخُرُجُ والمحاملُ، قراطيسُ ومحابرُ من علمِ الأولينَ والآخرين، فنهضَ عني وعنها وقال أينَ الوضوءُ؟ فلمّا أشرتُ إلى عينِ اليقينِ رمى بقلبِه فيها.[4] فلمّا رآهُ أهلُ القوافلِ في الماءِ صاحوا به: يا مبعوثُ، نراكَ ابْتَلَلْتَ! فخرجَ إليهِمُ وقالَ: مبعوثُكم بُعِثَ إليكمُ الساعةَ فتدبّروا أمرَكُم!

***

[3] لعلّهُ أقرأَهُ السلامَ منْ صاحبِ العلومِ كلِّها، وهو فيَ ذاتِه العلمُ الكاملُ الذي لا يجوزُ عليهِ نقصٌ ولا يجري عليه باطلٌ. قالتْ سيّدتي الواجدةُ باللهِ سَمَرُ الزّمانِ المهديّةُ: إذا قابلَكَ العلمُ الكاملُ خرجتَ عن معاني إنسانيَّتِكَ لوقتِ المقابلةِ، ودخلتَ في معنى الحقِّ الواحدِ. قالتْ: ولا يكونُ هذا إلا للأفذاذِ من الخلقِ لساعةِ حُلمٍ أو إلهامٍ.

[4] قال شَيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ، شيخُ السياحةِ والأسفارِ، من تمبكتو إلى تاورغاءَ بلادِ الأحرارِ: "عيُن اليقينِ" موضعٌ للعلمِ الكاملِ موقوفٌ على الخلقِ كلِّهم لا يختصُّ به رهطٌ دونَ رهطٍ. قالَ: فإنِ ادَّعَاهُ قومٌ ودافعُوا الخلقَ عنهُ خُيِّبَتْ آمالُهم، وضُيِّعتْ أحلامُهم، وفاتَهمْ الحقُّ كلُّهُ وبعضُهُ.

فبينما هُمو في لَبسٍ من أمرِهم، وعِلمُهم على ظهورِ الإبل، أسفاراً أسفاراً، يرمونَ بها على قارعةِ الطريقِ ويبكونَ، جاءَني الحقُّ فقعدَ بحذائي، وهم قائمونَ فلم يروهُ، فقالَ لي:

قُعودُك للفكرِ مسيرٌ لا تقدرُ عليه الإبلُ المحمّلةُ

بالكتبِ العتيدةِ والعلومِ الناجزةِ.

وقالَ لِيْ: يخشى الكونُ عليكَ مِنْ حِسابِكَ وحِسْبَتِكَ، وجمعِك وقسمتِكَ، وإعراضِك عنّي وقعدَتِك.

وقالَ لِيْ: أرهقتُكَ بالعقلِ، ووسوستُكَ بالفكرِ، وأَجريتُ فيكَ دمَ الغرابةِ وماءَ الدهشةِ، وعجنتُ لك العالمَ من قمحِ السؤالِ، ثُم قُلتُ لكَ احْسِبْ!

وقالَ لِيْ: قعودُك للحسابِ أشدُّ هَوْلاً منَ الحسابِ.[5]

وقالَ لِيْ: فها أنتَ تَرى مُشاهَدَتي خَبراً، ورأيَكَ الرأيَ، وعَمَلَكَ المشاهدَةَ، فَطوبى لكَ ولأسمائكَ.[6]

---

[5] قال السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ، مثالُ التلاميذِ والمريدين في ورفلّةَ بَرِّ الرياحين: "الحسابُ" الأوّلُ الفلسفةُ والعلومُ والمناهجُ وأصلُها العددُ الذي في الرياضةِ، و "الحسابُ" الآخِرُ معروفٌ، الحكمُ على مصائرِ الخلقِ، وأصلُه العدلُ الذي في الأسواقِ والعُمرانِ، وهو الميزانُ الذي يكونُ من لَدُنِّ أحكمِ الحاكمينَ. وقالَ: سُمّيَ بأحكمِ الحاكمينَ لكمالِ ميزانِ الرّحمةِ والعدلِ عندَه ونقصِه عندَ غيرِه، فتأمّلْ في ذلكَ يرحمُك اللهُ.

[6] قالَ مُعلّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى، معلمُ المقاماتِ وأسرارِها، في باديةِ سرتَ وما حولَها: افترقَ الغدامسيُّ عن سائرِ العارفِيَن في هذا الموضعِ، فإنّهم لا يجعلونَ بعدَ رؤيةِ الحقّ في وجْدِهم مِن مشاهدةٍ. فأمّا العملُ فإنّهُ خابَ عندَهم في مواضعَ ثلاثٍ:

وقالَ لِيْ: لكلِّ شَيءٍ في الكونِ عِلّةٌ يتّكئُ عليها، فاعتَلِلْ كلَّ شيءٍ حتى تصيرَ إليك كلُّ اتّكاءةٍ في ضميرِ الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: إن غابتْ عنك عِلّةُ شيءٍ فاحدُسْها حدسَ الأحلامِ المتقدةِ بالرُّؤَى والنبوءاتِ.

وقالَ لِيْ: ليسَ حَدْسُك من قلبِك حَسْباً، ولا هو منْ عقلِكَ حَصْراً، بلْ منْ وريدِ خيرٍ يَضُمُّهُمَا وشِريانِ نورٍ يَصِلُهُمَا.

وقالَ لِيْ: الغيبُ ما غابتْ عنكَ عِلَّتُهُ الساندةُ، فإنْ كشفتَ عنها كشفتَ عن الغيبِ فصارَ حضوراً باهراً.

وقالَ لِيْ: لمْ أَجعلْ على عقلِكَ أَبهَى منْ حُضُورِ الغيبِ، ولا علَى قلبِكَ أَمْلَلَ.

وقالَ لِيْ: يروقُ لقلبِك سحرُ ما أخفيتُ عنكَ، ويشقَى عقلُكَ بما أبديتُ لكَ.

وقالَ لِيْ: باركتُ أعدادَك وأَنا الواحدُ، وروابِطَكَ وأنا الواصِلُ، وكنتُ أوّلَ افتراضٍ تَتَوهَّمُهُ، وأبكرَ حقٍّ تَتَحصَّلُهُ، فَجُلْ كمَا يحلو لكَ، حيثُ قصدتَ أكُونُ، وأنّى قعدتَ أُسَامِرُكَ.

وقالَ لِيْ: القعودُ الذي يعقبُه فهمٌ خيرٌ منَ الفزعةِ التي يعقبُها جهلٌ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يفزعونَ لكلِّ أمرٍ يفوتُهم فهمُ كلِّ أمرٍ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يسمعونَ فيفزَعونَ إلى الجَهدِ نالَهم الجهدُ ولمْ ينالوا عِلْمَ الفزعةِ.

النيّةُ بشائبةِ الرياءِ، والجهدُ بشائبةِ الكسلِ، والعاقبةُ بشائبةِ الفشلِ. ولكنّهُ عند الشيخِ الغدامسيِّ خيرٌ منَ الرؤيةِ وأشهدُ منها في موضعين: الأوّلُ أنّ العملَ جهدٌ إنسانيٌّ مستحقٌّ والرؤيةُ تفضّلٌ إلهيٌّ بميزانِ الرحمةِ يظنّهُ الواجدُ ظنّاً، والثاني أنَّ العملَ أصلُ الخلافةِ التي هيَ معنى الكونِ، والرؤيةُ كريمةٌ زائدةٌ عن هذا المعنَى. والله أعلمُ.

وقالَ ليْ: الذينَ يُفزّعونَ الناسَ إلى القيامِ، ولمْ يحثُّوهم إلى فضائلِ القعودِ، أئمّةُ الجهلِ.

وقالَ ليْ: الفزعةُ مقعدٌ من مقاعدِ الغفلةِ، فإذا جاءَكَ الفزّاعونَ يهتِفونَ بالقيامِ لكلِّ أمرٍ فارْمِهم بالحسابِ الحقّ في كلِّ أمرٍ.

وقالَ ليْ: أنتَ إمامُ القاعدينَ في أوّلِ الطريقِ، إمامُ الخارجيَن في آخرِه.

وقالَ ليْ: القعودُ إمكانٌ، والإمكانُ لا حدَّ لهُ إلا تخومُ الحسابِ.[7]

وقالَ ليْ: القعودُ كمونٌ للفعلِ.

وقالَ ليْ: القعودُ استئنافٌ للسبيلِ.

---

[7] شهدتُ وأنا تلميذٌ مولايَ الحسنَ بنَ عبدِ الملكِ الحضرَمِيّ وهو يجلسُ في ظلّ شجرةٍ علَى أرضٍ مرتفعةٍ عما جاورَها من بناءٍ ونباتٍ يدرسُ العلومَ. وكانَ يصنعُ السِّلَالَ من أولِ الصّبحِ حتّى الظهرِ ويعيشُ منها، فإذا أتمَّ واحدةً دحرجَها من موطئِه إلى ساحةٍ للدكاكينِ كانت تحتَه، فيأخذُها صاحبٌ له فيزيدُ عليها بعضَ الزينةِ ويبيعُها ويَقْسِمانِ الثمنَ. فعجبتُ من حالِه فقالَ: إني أحسِبُ في الإلهياتِ والربانياتِ، وفي الدكاكينِ يَحسِبونَ حقوقَ الناسِ وأجزاءَ البيعِ والمكوسَ، فخشيتُ أن أُخبطَهم وأكدّرَ عليهم حِسابَهم وهو أوثقُ من حسابي وأجلُّ، قلتُ: حسابُ الدكاكينِ! قالَ: نعم، ذلك أني أجمعُ وأطرحُ بالقلبِ والخيالِ والتهيّؤِ وهو شيءٌ بيني وبين الحقّ أغلطُ فيه فلا يكونُ شيءٌ، وهم يجمعونَ ويطرحونَ بالورقةِ والقلمِ شيئاً بينَهم وبين الخلقِ فيهِ مظنّةُ ظلمٍ أو نهبٍ أو فسادٍ، فحَرِيٌّ بهم أن لا يقلقوا من كلامي وذِكري وما يخطرُ على قلبي. قلتُ: فكيفَ عرفتَ أن سِلالَك التي تُدحرجُها تُباعُ بحسابٍ حقٍّ. قالَ: اختبرتُ قلبَ صاحبي فوجدتُه متّصلاً بالربّانيّةِ من جهةٍ، وبالحقوقِ من جهةٍ، فعرفتُ أنه لا يستطيعُ الظّلْمَ، فسلّمتُ إليه نَتْجَ يديَّ، وبيننا حسابُ الورقةِ علَى كلِّ حالٍ!

وقالَ لِيْ: القاعدُ على وشكِ أن لا يقعدَ، حتى يرى أريكةَ الحسابِ.

وقالَ لِيْ: أريكةُ الحسابِ اتكاءةُ العارفينَ.

وقالَ لِيْ: أريكةُ الحسابِ مُشابَهَةٌ لصهوةِ المنازلةِ.

وقالَ لِيْ: أريكةُ الحسابِ رحمٌ للمعاني التي لم تُسقَى بماءِ العملِ.[8]

وقالَ لِيْ: الأرائكُ أعنّةُ الحاسبينَ الذين يَشتهون علومَ المنازلةِ.

وقالَ لِيْ: علومُ المنازلةِ تَلْزَمُها أرائكُ الحسابِ.

---

[8] قالَ تلميذٌ: المعاني شِياهٌ ترعَى عشبَ العملِ، غيرَ أنها تتلاقحُ من بينِ أصلابِها وترائبِها هي. قلنا: كيفَ تهيّأَ لكَ ذلكَ؟ قالَ: كنتُ غُفلاً عن أكثرِ العلومِ والفكرِ والفهمِ العموميّ والمخصوصِ. فلمّا دخلتُ في طريقتِكم قذفتُم بي إلى الفؤوسِ، وورشِ النجارةِ، وبواتقِ الحديدِ. ثم أخرجتُموني إلى ظاهرِ الأرضِ وقلتُم هذا هو الإنسانُ فناوِشْهُ وتناوشْ بِه. فتوغّلتُ في سياقِ العالمِ بالعملِ، حتى صارَ هذا العملُ زاداً تقتاتُ عليهِ المعاني اللازمةُ للحياةِ والمتعلّقةُ بمغامرتي فيه. قلنا: فهذا عشبُ الشياهِ، ثم ما؟ قالَ: فانتبهتُ إليها، إلى المعاني التي أطلعَها وأقامها العملُ، فإذا هي تناهِضُ سياقَها، وتَشغُفُ بأحوالِها، وتَتولّهُ بتناقضاتِها، وتحتدُّ بسطوتِها، وتَنزلُ عند تهافتِها الذي هو من جُوّانيَّتها، فيكونُ من هذا معانٍ جديدةٌ وُلِدَتْ بلا عملٍ، وانبثقتْ من غيرِ كدحٍ للعالمِ.

قلتُ: وكلامُ التلميذِ حسنٌ، ولكنّهُ يَفْصِلُ في الماهيّةِ بينَ العشبِ والشياهِ، فحصلَ له من ذلكَ بعضُ الغلطِ. والحقُّ الذي يبينُ للعارفِ، حينَ يُمعن في الفهمِ، أن كِليهما في صورةِ الآخرِ، كالكتلةِ والطاقةِ عندَ أهلِ الفيزياءِ. فالعملُ معنًى يضربُ الحديدَ. والمعنَى، في اكتمالِ الدائرةِ، عملٌ ينظمُ الفكرَ والرّؤَى والأسماءَ. قلتُ: وهذا كلامٌ، إن فهمتَه، تتهافتُ له أكثرُ الفلسفاتِ التي تتكلّمُ عن الشياهِ دونَ العشبِ، وتتداعَى غالبُ النُّظُمِ الفكريةِ، والأنساقِ المعرفيةِ، في هذا الوقتِ وقبلَهُ شيئاً كثيراً.

وقالَ لِيْ: القعودُ ينبغي لك أولَ الأمرِ، ثم لا يَنبغي، لأنّكَ تصيرُ تمشي وتحسبُ.
وقالَ لِيْ: الذي يصيرُ إلى مطايا العالَمِ لا يعودُ يعرفُ كيفَ يقعدُ، فيستأنفُ حسابَهُ المكينَ وهو ينازلُ العالَمَ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ المكينُ يتّقدُ بهمومِ الخلقِ كأنّهُ نارٌ من حطبِ العالَمِ لا يستضيءُ بها غيرُ أُولي الفكرِ والمراجعةِ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ المكينُ كذلكَ لأنه يُمْكِنُكَ من العالَمِ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ الذي يَقُضُّ مضجعَكَ يقضُّ مضاجعَ الحاكمينَ.
وقالَ لِيْ: مضجعُك يَقُضُّهُ جَهْدُ الحسابِ، ومضاجعُ الحاكمينَ تَقُضُّها نتائجُ هذا الحسابِ.
وقالَ لِيْ: الحاكمونَ من استأثرَ بالأمرِ – المعائشِ والعلومِ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ الذي يشرحُ لكَ السبيلَ يُضيّقُ على المستأثرينَ ألفَ سبيلٍ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ الذي تدخلُ عليهِ بنيّةِ الفهمِ الصّادقِ يَلبثُ بكَ حتّى يَصْدُقَكَ الخبرَ أو يصيرَ بكَ إلى حسابٍ خيرٍ منهُ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ أوّلُ أعمالِ الخلافةِ.
وقالَ لِيْ: الحسابُ إذنٌ مني بالشِّرْكةِ في تدبيرِ الأمرِ، لا تَحِلُّ لكَ الشِّرْكَةُ إلا بهِ.[9]

[9] قالتْ أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّة، قدوةُ العاشقِ والمريد، في جبالِ ترهونةَ ووديانِ بني وليد: أُذِنَ للإنسانِ من ربّه في ثلاثٍ: أن يُستخلفَ في نفسِه وأمرِه فلا يلزَمُهُ أن يُسْلِمَ وجهَه لإنسانٍ، وأن يكدحَ للخلافةِ ويغلطَ في كدحِه إن حَسُنَتْ نِيّتُهُ، وأن يتزوّدَ من الطيّباتِ بميزانِ العدلِ زاداً غيرَ ممنونٍ. فمن حازَ ابنَ آدمَ عن شيءٍ من هذا حازَهُ عن معاني إنسانيَّتِه، وهذا ظلمٌ لا تَسَعُهُ أرضٌ.

وقالَ ليْ: الحسابُ استدعاءٌ للشِّرْكَةِ لأنكَ إذ تحسبُ تشاركني عفواً.

وقالَ ليْ: الحسابُ شِركةُ المأذونِ للآذن.

وقالَ ليْ: الحسابُ موقوفٌ على مبادئِه، إن صلَحتْ صَلَحَ، وإن فَسَدَتْ فَسَدَ.

وقالَ ليْ: الحسابُ يتبدّلُ والمحسوبُ لا يتبدّلُ.

وقالَ ليْ: ما يتبدّلُ تابعٌ لما لا يتبدّلُ.

وقالَ ليْ: المحسوبُ ربّما تبَّدل.

وقالَ ليْ: حسابُك يَتِمُّ فتصدَعُ لهُ الأشياءُ، وتَدينُ العناصرُ، ويخضعُ الوقتُ.

وقالَ ليْ: حسابُكَ محسوبٌ عليكَ.

وقالَ ليْ: حسابُكَ بعضٌ منكَ وتكادُ تكونُ بعضَهُ، فهُو حَسْبُكَ وحَسَبُكَ وحِسْبَتُكَ.

وقالَ ليْ: الحاسبُ يجمعُ ويطرحُ حتّى لا يبقَى شيءٌ في العالمِ إلا وهُوَ مجموعٌ مطروحٌ.

وقالَ ليْ: أنتَ الحاسبُ، وأنتَ الحاصلُ الناتجُ.

وقالَ ليْ: أنتَ تصفُّ الأعدادَ ثم أنتَ تحصلُ عن هذه الأعدادِ.

وقالَ ليْ: الحاسبُ قلبُه قُدَّ منْ عددٍ لا يُعقَلُ.[10]

---

[10] العددُ الذي لا يُعْقَلُ من أصولِ الرياضياتِ المُربكةِ للفكرِ، الخارجةِ عن مُقتضَى الفهمِ غيرِ المركّبِ، وهو عندَ أهلِ العلومِ إشارةٌ بعجزِ العقلِ عن الإحاطةِ بالأشياءِ وعلامةٌ بنقصِهِ عن كمالِ المعرفةِ. ومنهُ الجذورُ التربيعيَّةُ لكلِّ عددٍ أوّلِيٍّ، وهي بلا حدٍّ. قلتُ: فمن ذلكَ أنكَ إذا أردتَ أن تفهمَ الجذرَ التربيعيَّ للعدد 2 أو مقدارَ نسبةِ محيطِ الدائرةِ إلى قطرِها لم تقدرْ، فتأمّلْ.

وقالَ لِيْ: نسبةُ قلبِ الحاسبِ إلى العالمِ كنسبةِ محيطِ الدائرةِ إلى قُطرِها، لا تُعقلُ، وهي تَعقِلُ الدائرةَ ذاتَها.

وقالَ لِيْ: قلبُ الحاسبِ مشغولٌ عنّا بنا، لأن من يهتمُّ بالعالمِ يجدُنا في العالمِ.

وقالَ لِيْ: قلبُ الحاسبِ منعقدٌ بآياتِنا يَزيدُ فيها ويُنقِصُ حتّى تكاد كلُّ آيةٍ أن تكونَ منهُ لا منّا.

وقالَ لِيْ: قلبُ الحاسبِ آيةٌ تَلْقُفُ آياتي جَميعاً.

وقالَ لِيْ: آياتي تشبيهٌ وآيتُه إحكامٌ فمِن هذا يكونُ اللَّقْفُ.

وقالَ لِيْ: قلبُ الحاسبِ قلبُنا، من جهةِ أن أريكةَ الحسابِ مُشَابَهَةٌ لعرشِ الربوبيّةِ.

وقالَ لِيْ: في قلبِ الحاسبِ موضعُ ربوبيّةٍ أوقفتُها عليهِ فلا يَتَسَنَّه.

وقالَ لِيْ: الحاسبُ معرفةٌ والعالَمُ معرفةٌ، فمنْ كانَ منكُم يحسبُ فليضربْ بيدِه في لجّةِ قلبِه ثم لجُّةِ العالمِ حتّى يجدَ ما يسدُّ رمقَهُ.

وقالَ لِيْ: الحِسبةُ التي لا تسدُّ الرمقَ لا تقدرُ أن تخرجَ بها إزاءَ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الإزاءةُ غايةُ الحاسبِ.

وقالَ لِيْ: الإزاءةُ فعلُ مناهضةٍ ومحبةٍ في هيئةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: سدُّ الرمقِ من أصولِ الحسبةِ الواجبةِ وشروطِها البادئةِ، وإلا فالجوعُ لا حسبةَ لهُ.

وقالَ لِيْ: الحاسبُ يَحْسِبُ له قلبُه وعقلُه ويداهُ.

وقالَ لِيْ: ليسَ على الحاسبِ سطوةٌ، ما دامَ في حِسْبَتِهِ، غيرُ سطوةِ الجمعِ والقياسِ والمباينةِ.

وقالَ لِيْ: سياقُ الحاسبِ سطوةٌ فوقَ سطوةِ الجمعِ والقياسِ والمباينةِ.

وقالَ لِيْ: سياقُ الحاسبِ جبرٌ لحسبتِه.

وقالَ لِيْ: جبرُ الحسبةِ وصلُها بما انقطعَ عنها من العالَمِ حتى لا تكونَ حسبةً لذاتِها بل للمعنَى الذي تؤدِّي إليهِ.

وقالَ لِيْ: جبرُ الحسبةِ وَصْلُهَا بقلبِك ثم بمعيشتِك.

وقالَ لِيْ: جبرُ الحسبةِ يجبرُ بخاطرِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: جبرُ الحسبةِ استدراكٌ على حاصلِها.

وقالَ لِيْ: جبرُ الحسبةِ عتبةٌ من عتباتِ المراجعةِ.

وقالَ لِيْ: المحاسبةُ والمراجعةُ مقامانِ يلزمانِ الإنسانَ الذي يتهيّأ للنزالِ.

وقالَ لِيْ: القلبُ الذي يحسبُ ويراجعُ يصيرُ موسيقى الكونِ.

وقالَ لِيْ: الحسابُ والمراجعةُ خفقتانِ بحذاءِ بعضِهما يوشكانِ أن يَتَّقِدا من الولهِ بالعالَمِ.

وقالَ لِيْ: الحسابُ قدحٌ لصوّانِ القلبِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ صُوَّانُ القلوبِ.[11]

---

[11] من كناياتِ الشيوخِ وتشبيهاتِ الأئمّةِ أن العارفَ باالخلقِ العرْبي بن مهيدي يُلْزِمُ كلّ تلميذٍ أن يأتِي الحضرةَ الصوفيّةَ، التي فيها الرقصُ والغناءُ والوساوسُ، بحجرَيّ صُوّانٍ. فإذا انجذبَ القومُ وارتجّتْ أجسادُهم وغرقوا في اللّجّةِ أخرجوا صُوّانَهم، كنايةً عن القلبِ، وصاروا يقدحون الحجرَ بالحجرِ حتى يتّقدَ بالشرارِ الباهرِ في ظُلمةِ الصدورِ قبلَ ظلمةِ العالَمِ. وكلما زادوا هُياماً زادوا قدحاً حتى تظنَّ إنْ حضرْتَ معهم أن القومَ يريدون للظلامِ نفسِه أن يَتوهّجَ. قالَ العرْبي: الكنايةُ التي تُشَبّهُ لكَ، وتأتيها عن علمٍ وإرادةٍ، قد تشرحُ لكَ صدرَك، وتزيدُ في أفقِ قلبِك، وتفتحُ أمامَك الفكرةَ والعبارةَ في إضاءةٍ واحدةٍ.

وقالَ ليْ: النارُ التي ينبثقُ شَرارُها من شغافِ القلبِ الحاسبِ تضيءُ ما حولَها.

وقالَ ليْ: النارُ التي تَشْغُفُكَ وأنتَ تحسِبُ، تَشْغُفُ العالمَ وهو يَشْهَدُكَ.

وقالَ ليْ: النارُ التي تَتَوَلَّهُ بكَ، بردٌ وسلامٌ على الأشياءِ.

وقالَ ليْ: النارُ التي تضيءُ لكَ، تضيءُ بكَ.

وقالَ ليْ: النارُ التي تشي بِحِسْبَتِك تشي بالطريقِ أمامَك.

وقالَ ليْ: الحسبةُ المخبوءةُ في الطريقِ علامةٌ على صحةِ الجهةِ.

وقالَ ليْ: الحسبةُ المخبوءةُ هي مادّةُ الطريقِ وما ينبغي عنهُ ضرورةً.

وقالَ ليْ: ما ينبغي عن الحبِّ ضرورةً، الاتقادُ؛ وما ينبغي عن الزرعِ ضرورةً، الحصادُ.

وقالَ ليْ: ما ينبغي عن حسابِك أنتَ ثم أنا.

وقالَ ليْ: ما ينبغي عن كلِّ حسابٍ الغلطُ لأنه حاصلُ العالمِ الذي أشكلَ عليكَ.

وقالَ ليْ: الغلطُ في حسابِك يُحَدِّثُ بمغامرتِك وهي في فجرِها الأوّلِ.

وقالَ ليْ: الغلطُ استهتارٌ بالصراطِ.

وقالَ ليْ: الصراطُ حِسبةٌ غيرُ متعلقةٍ بالعالمِ، فلا تصحُّ.

وقالَ ليْ: الصراطُ حبسٌ للاحتمالِ الذي يصيرُ به العالمُ غامراً.

وقالَ ليْ: الغلطُ اتصالٌ بالعالمِ من جهةِ أنه إمعانٌ في غمرِ هذا العالمِ.

وقالَ ليْ: الغلطُ سبيلٌ تظهرُ فيه علاماتٌ لا سياقَ لها في سبيلِ الصحّةِ.

وقالَ ليْ: الذي يغلطُ في الحسابِ يُحْسَبُ لهُ أنه أجرَى الحسابَ.

وقالَ ليْ: الغلطُ استدعاءٌ للمراجعةِ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ اعتبارٌ للعالمِ.

وقالَ لِيْ: المراجعةُ موقفٌ من مواقفِ الغالطِ إزاءَ نفسِه وإزاءَ العالِم.[12]

وقالَ لِيْ: المراجعةُ استدعاءٌ للحسبةِ الجديدةِ.

وقالَ لِيْ: الحسبةُ الجديدةُ استئنافٌ باللزومِ.

وقالَ لِيْ: الغالطُ يَستأنفُ.

وقالَ لِيْ: الاستئنافُ أشدُّ من المبادرةِ، لأنّ المُبادِرَ يأتِي الأشياءَ وهي بِكْرٌ، والمستأنفَ يأتيها وهي مكلومةٌ.

---

[12] كنتُ في أولِ الطريقِ فقالَ الإمامُ أحمدُ: امضِ إلى درسِ فلانَ عندَ البابِ الشرقيِّ من مسجدِنا فاجلس إليهِ واسمعْ منه. فلمّا أتيتُ هذا المعلّمَ وجدتُه يغلطُ في النحوِ ويرتبكُ في حفظِ الشعرِ ويقرأُ الكتابَ من الكُرّاسِ وقد يُشكِلُ عليهِ. فاستَهونتُه. ولكني رأيتُ التلاميذَ حولَه وبعضَ الأساتذةِ، فتعجّبتُ ورحتُ للإمامِ أسألُه. فقالَ: ألم أُوَجّهْكَ تجلس إليه يا تلميذ! هذا رجلٌ يعرفُ العالمَ ويقولُ كلاماً من أحوالِ الناسِ والأسواقِ والسفرِ لا يعرفُه أكثرُ الذين يدرسونَ ويُزوّقون الحديثَ. فإنه حاولَ علومَ الشريعةِ زمناً طويلاً فاعوجّتْ له، وعلومَ الحقيقةِ دهراً فتهيّئَتْ له سراباً، وخالطَ بعضَ المذاهبِ الدينيّةِ وقتاً حتى خرجَ عنها إلى ما لا مذهبَ له غيرُ الإنسانِ. ثم إنه حاولَ الصنائعَ فلمْ يَمْهَرْ في حدادةٍ أو نجارةٍ أو خِزافةٍ، فلمّا اتّخذَ التجارةَ حرفةً باعَ واشترى وعاركَ السوقَ حتى بارتْ بضاعتُه. فمضَى بعدَها إلى بعضِ ديارِ الجهادِ بفلسطينَ فلم يتهيّأ له النزالُ. فسكنَ إلى دِعَةِ الحياةِ وقتاً بنواحي البرِّ الإفريقيِّ فأنجبَ الأولادَ والبناتَ، ثم جاءَ بهم علَى ظهورِ الإبلِ حتى نزلَ بناحيتِنا وهو رجلٌ في الأربعينِ. فلمْ أسمعْ أطيبَ من حديثِه المرتبكِ، وأوسعَ من عبارتِه المكسورةِ، وأنفعَ من عملِه الذي غلطَ في كلِّ هيئةٍ منهُ. وهذا هو الإمعانُ في العالمِ والنفاذُ في الكونِ الكبيرِ. وهو مقامٌ من المقاماتِ الجليلةِ التي لا يعرفُها الناجحونَ الذين ترتَّبَ لهم كلُّ شيءٍ فلم يذُوقوا مرارةَ الغلطِ، غلطِ المعارفِ والعلومِ.

وقالَ ليْ: المستأنفُ يعيدُ ضبطَ الوقتِ ويراجعُ الجهةَ ويقفو أثرَ الإمكانِ.
وقالَ ليْ: المستأنفُ يأخذُ بخاطرِ المبادرةِ حينَ ينفخُ فيها من روحِ المراجعةِ.
وقالَ ليْ: المستأنفُ يربكُ الكونَ لأنه يعيدُ قَدْحَ الحجرِ الذي خابَ.[13]
وقالَ ليْ: الخيبةُ تصيرُ عند الغالطِ المستأنفِ كشفاً باهراً.
وقالَ ليْ: الغالطُ يذوقُ مرارةَ الغلطِ فيعرفُ ما لم يعرفْهُ الذي لم يَغلط.
وقالَ ليْ: الغلطُ معرفةٌ مريرةٌ.
وقالَ ليْ: المعرفةُ المريرةُ تسدُّ لأنّها تفجعُ قلبَك وهو في دعةِ الغفلةِ بوجعِ الفهمِ.
وقالَ ليْ: الغلطُ ينوشُكَ وأنتَ أحدٌ تحسِبُ في الغارِ أو جماعةٌ تقيسُ في الدكاكينِ.
وقالَ ليْ: حِسبةُ الواحدِ حريٌّ بها أن تُنْقَدَ علَى مِحَكِّ الجماعةِ حتى يبينَ منها أثرُها الكلّيُّ الذي لا يظهرُ في سياقِ الواحديّةِ.

[13] اجتمعَ قِضوار، وهو فتىً صغيرٌ، وحميدةُ، وهيَ بنتٌ يافعةٌ، في مدرستِنا فتحابّا وقتاً وصارا عُشباً ونواراً وقُرّةَ أعينٌ للناظرينَ. ثم إن الفتَى انطفأَ عن الحبِّ واشتغلَ ببعضِ العلمِ والدرسِ وحاجاتِ الأولادِ من سفرٍ ورزقٍ. فتركتهُ البنتِ حتّى ظننّا أنّها انطفأتْ عنهُ كما انطفأَ عنها. فلمّا كانتْ ثلاثُ سنينَ تَدَوَّرَ وجهُها، وامتَلأ صدرُها، ورقَّ قوامُها، وصارَ لها وهجٌ وسطوةٌ باهرةٌ. فاعترضَتْهُ في سبيلِ الحياةِ، وهي علَى هذه الهيئةِ الجليلةِ، فصعقَتْهُ كأنّها برقُ السماءِ، وصارَ يلهجُ باسمِها ويُتِمتمُ بكلامِها ويَستعيدُ حضورَها. فاتّقدتْ باتّقادِه، وكانا وهَجاً من حبٍّ مُستأنَفٍ. قالتْ حميدةُ: قدحتُه أولَ عَهدي بالحياةِ، وهو خاملٌ، فخابَ صُوّانُ قلبِه ولم يَشتعلْ جسداً أو عقلاً، فاستأنفتُ عليه بعدَ أن ضجَّ قلبي بعُنوةِ الشوقِ، فتوهّجَ من شرارةِ الحبِّ وتوَهّجتُ معه.
قلتُ أنا موسَى: فهذا معنَى الاستئنافِ بعد المبادرةِ، وهو سبيلٌ لا يستطيعهُ إلا أهلُ المراجعةِ الدائمةِ، والحسبةِ المتواترةِ، والمثابرةِ الحاسمةِ.

وقالَ لِيْ: الجماعةُ الحاسبونَ يلزمُهم أن يَعتبروا حِسبة الواحدِ.

وقالَ لِيْ: حسبةُ الواحدِ تضيءُ للجماعةِ ثم تستضيءُ بها في اتّقادةٍ غامرةٍ.[14]

---

[14] قلتُ أنا موسَى: لمّا دخلتُ الطريقَ جعلني الإمامُ راعياً لشؤونِ الأستاذِ تاجِ السرِّ عليِّ بنِ زهرةِ الحُسنِ. قالَ الإمامُ: تتلقَّى عنهُ علومَ القومِ في سياقهِ هُو، ثم تقابلُها بسياقِ العالمِ. فصرتُ أخدمُ الأستاذَ بدارِه أولَ النهارِ يُصلِحُ من شأنِهِ ويُرتِّبُ أوراقَهُ للدرسِ، إلى وقتِ العشيّةِ وهو بحلقةِ العلومِ مع التلاميذِ. قلتُ: فإذا هو كلَّ صبحٍ يمسكُ الفحمةَ السوداءَ، أو العودَ الذي اسودَّ طرفُهُ من النارِ التي كان يجعلُها لشايِ الفجرِ، فيكتبُ على ناحيةٍ من سورِ دارِه الجُوّانِيِّ رموزاً رياضيّةً مُرتّبةً ومصفوفةً علَى أحسنِ ما يكونُ. فهي يوماً مُركَّبةٌ ذاتُ أجزاءٍ تأخذُ السورَ من أعلاه لأسفلِه، وفي غالبِ الأيامِ لا تفوتُ السطرَ والسطرينَ. قلتُ: فهو ينظرُ إلى ما خربشَ بالفحمِ وقتاً يطولُ ويقصرُ يشربُ الشايَ ولا يتكلّم. ثم يأخذُ ما فضلَ في السّطلِ من ماءِ وضوئِه فيسكبُهُ على السّورِ ويقولُ: هيّا يا تلميذُ نطلعُ للناسِ. فلمّا كانَ موسمُ الخَلوةِ الصوفيّةِ لنا نحنُ التلاميذَ قالَ: خُذْ هذه الفحمةَ فخربشْ بها ما يظهرُ لكَ من علومٍ وأنتَ تتجلّى في خَلْوَتِك هذا الشهرَ. قلتُ: يا أستاذُ، أَبِنْ لي ما حالُ هذه الفحميَّاتِ التي تخطُّها ثم تغمرُها بماء الوضوءِ كلَّ صباحٍ. قالَ: هذه معادلاتٌ رياضيّةٌ تامّةٌ، وهي معمارٌ عدديٌّ فخمُ الهيئةِ والمعنَى، كلُّ واحدةٍ منها صورةٌ للجمالِ الكونيِّ والجلالِ الوجوديِّ الذي اخْتُصَّتْ به الرياضياتُ. قلتُ: فما تريدُ منها ومن فَحْمِها؟ قالَ: هي جميعاً حسبةٌ ناجزةٌ خارجةٌ عن سياقِ اجتماعي ها هنا في هذه الزناقي الطّرابلسِيّةِ. فأَرْقُمُها علَى السُّورِ أتشوَّقُ بها للعلومِ المكينةِ والمعارفِ الخارقةِ، ثم أدخلُ إلى سياقِ الزناقي والدكاكينِ والورشِ وحلقةِ الدرسِ في حالٍ من الطمأنينةِ إزاءَ القلقِ الذي بالعالمِ. قلتُ: فحِسْبَةُ الرياضياتِ أمكنُ من حِسْبَةِ الزّناقي؟ قالَ تاجُ السرِّ: التمكينُ يا ولدي في قدحِ هذهِ بتلكَ وإعمالِ بعضٍ من تلكَ في هذهِ حتى يَضِجَّ السياقُ ويتّقدَ القلبُ ويُضيءَ اسمُ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: حسبةُ الواحدِ جامعةٌ من جهةِ مبادئِها الأولَى ومن جهةِ آثارِها الآخرةِ.

وقالَ ليْ: مبادئُ الحسبةِ الأولَى متعلّقةٌ ضرورةً بهيئاتِ الاجتماعِ، ومعيارِ الربطِ والفصلِ، ومقدارِ التراتبِ والتجاورِ. وآثارُ الحسبةِ الآخرةُ معقودةٌ بمنفعةِ العمومِ، وشهودِ الكلّياتِ، وتراتبِ المحصولِ الخاصّ علَى الناتجِ الشاملِ.

وقالَ ليْ: حسبةُ الواحدِ خروجٌ للمبارزةِ وحسبةُ الجماعةِ دخولٌ فيها.

وقالَ ليْ: حسبةُ الواحدِ شجاعةٌ وحسبةُ الجماعةِ تشجّعٌ.

وقالَ ليْ: سطوةُ الجماعةِ أشدُّ من سطوةِ الواحدِ لأنكَ تُناوِشَ المفردَ ولا تعرفُ كيفَ تُناوِشَ غالبَ الناسِ.

وقالَ ليْ: يقينُ الحسبةِ مَكْمَنُ فَضِّها.

وقالَ ليْ: يقينُ الحسبةِ حيلةٌ في العددِ.

وقالَ ليْ: يقينُ الحسبةِ استكانةٌ لسلطانِ المعلومِ بالاستثناءِ إزاءَ سلطانِ المجهولِ بالضرورةِ.

وقالَ ليْ: يقينُ الحسبةِ ابتسارٌ للعالمِ.

وقالَ ليْ: اليقينُ حبسٌ.

وقالَ ليْ: اليقينُ إجهاضٌ للاحتمالِ الذي هو رحمُ العالمِ.

وقالَ ليْ: رحمُ العالمِ حريٌّ به أن يَضِجَّ بالاحتمالِ.

وقالَ ليْ: الاحتمالُ بشارةُ الإمكانِ في الحسبةِ التي نفضتْ عن أعدادها غبارَ اليقينِ.

وقالَ ليْ: غبارُ اليقينِ يحجبُ عنكَ شيئاً من أفقِ البشارةِ التي تُراوِدُك عن قلبِكَ وعلومِكَ وسياقِ اجتماعِكَ.

وقالَ لِيْ: غبارُ اليقينِ يراكمُ ظاهرَ العالمِ علَى اسمِك الذي ينبغي له الانبثاقُ.

وقالَ لِيْ: نفضُ غبارِ اليقينِ مناهضةٌ لتراكمِ العالمِ وخضوعٌ لشوقِ البِشَاراتِ وإقامةٌ لاسمِكَ الحسنِ.[15]

وقالَ لِيْ: المناهضةُ هي حسبتُك وعلومُك في مقامِ الفعلِ المنحازِ للإنسانِ.

وقالَ لِيْ: المناهضةُ الحاسبةُ أن تقفَ إزاءَ الأشياءِ سافرةً كما هيَ، لأنّ الحقيقةَ السافرةَ هيَ المناهضةُ التي تشدُّ أزرَ العالمِ.

---

[15] عشقَ تلميذٌ بنتاً حتى أحاطتْ به من كلِّ جهةٍ، وصارَ يقولُ هي الحقُّ. فقالَ الإمامُ أحمدُ: لكلِّ حقٍّ "عينُ اليقينِ"، فأينَ عينُ يقينِك منها؟ قالَ التلميذُ: وصالُها، فإني لم أذقْ أطيبَ منهُ، حتّى علومُ السّادةِ لا تقاربُه حلاوةً، ولولا خشيةُ الشّركِ لاتّخذتُ موضعَ وصالِها مقامَ إبراهيمَ. قالَ الإمامُ: نصبرُ عليكَ.

فكانَ وقتٌ ثمّ وجدَ الفتَى عينَ يقينٍ أخرَى عندَ بنتٍ غيرِها، فأصابَهُ من ذلكَ همٌّ عظيمٌ وصارَ يقولُ: لا ينبغي أن يتبدّلَ الحقُّ الذي شهدتُهُ عليها فيتحوّلَ إلى سِواها. فناداهُ الإمامُ وقالَ: ياولدي، حبستَ اليقينَ في نيكتارِ البنتِ الذي هو رحيقُها، وهو كذلك مُقامُ إبراهيمِها، فانفضَّ عنكَ حينَ فضضتَهُ لها. فلو قسّمْتَ اليقينَ بين موضعِ الوصالِ هذا، وبين قلبِها وعقلِها وعملِها في هذي الحياةِ، لسَرَتْ عينُ اليقينِ كالنسْغِ في إنسانِها كلِّه ولم يعدْ سهلاً أن تتهافتَ أو تتبدَّلَ. قالَ التلميذُ: وما أفعلُ بالحلاوةِ التي أجدُها ثم قد لا أجدُها؟ قالَ الإمامُ: إن لم تجِدْها في النيكتارِ تجدْها في القلبِ أو العقلِ أو العملِ حتّى ترجعَ إلى مقامِ إبراهيمَ هذا فتلقاهُ في حالٍ من الشوقِ إليكَ يغلبُكَ بسطوةِ اللبنِ والعسلِ والخمرِ معاً. فانشرحَ صدرُ التلميذِ وعادَ إلَى البنتِ فغفرتْ له بقلبِها وأحسنتْ إليه بنيكتارِها.

إشارةٌ غَدَامِسِيّة

وقالَ ليْ: أنتَ إمامُ الحسبةِ، وخليفةُ العددِ، وأميرُ الجمعِ والطرحِ، وسيّدُ القياسِ والمباينةِ. أسلمَتْ لكَ الأعدادُ قيادَها، ودانتْ لكَ المبادئُ والمفاهيمُ، وتبرّجتْ لجلالِ وجهِكَ العللُ والأسبابُ، وشربتْ حتى سكرتْ بحسبتِكَ الأشياءُ. فكأنّكَ الحسابُ الكاملُ والترتيبُ الشاملُ، والقياسُ الذي لا يُقاسُ عليهِ. كلُّ غلطٍ يراودُك، وكلُّ جَبْرٍ يؤاسيكَ، وكلُّ مراجعةٍ تستأنفُ بها الطريقَ. فاتّكِئْ ماشئتَ على أريكةِ الحسابِ حتّى تبينَ الحسبةُ المخبوءةُ في العالمِ. قعودُكَ تدبيرٌ لكَ، وقيامُكَ أذانٌ منّي، فأنتَ المدبِّرُ المأذونُ جملةً واحدةً، والحاسبُ المحسوبُ عليَّ أمامَ الخلقِ، والحاصلُ الناتجُ من كلِّ أمرٍ عظيمٍ.

2. موسمُ النيّة

(وهو العَقْدُ)

ومن أحوالِه الفعلُ وخبزُ الخلافةِ والموطئُ والاشتهاءُ والانحيازُ والكمُونُ
والاصطفافُ والانخراطُ والإبداءُ وجذعُ السدرةِ والتوسّلُ والتولّهُ وقوائمُ العرشِ

وفيه أُخِذَ قلبي أوّلَ ما أُخذَ بخفقةِ صدقٍ، وراوَدَتْهُ عن شِغَافِهِ دورةُ دمٍ طيّبٍ، لم يَتَسَنّه. ثم حَضرَتْ إليّ الخواطرُ فكدَّرتني، والجبنُ فعكّرَ مائي، والضّعفُ فَسَلَبَني سَكينتي. فدَخلَ الليلُ على النهارِ، واختلطَ اللَّبَاسُ والمعاشُ. فتراخيتُ عنِ الجهدِ العظيمِ والكدحِ الجليلِ، وهَالَني الزّرعُ والبذرُ، ورأيتُ بعينِ اليأسِ أني خائبٌ في سَعيي، وظهرَ لي أنِّي لوْ حَرّكتُ حبةَ ترابٍ لانهدَّ حَيْلي، وخارَ عَزمي. فأجمعتُ أمري علَى الثَّباتِ، وحدّثتُ نَفسي بالخيرِ المَرجُوّ والعاقبةِ الطيّبةِ، ورأيتُ الناسَ يأكلونَ بعدَ جوعٍ، وينعمونَ بعدَ شقاءٍ. فهنَأتُ للخاطرِ الطيبِ، والفالِ الحسنِ، وعَزَمْتُ على الصبرِ الجميلِ. فانْشَرحَ صَدري، ووُضِعَ وِزْري، وهَنَا خاطِري، وَفَرغتُ منْ هاجِسي، وإليهمْ رغبتُ.[1]

فبينما أنا في سَوْرَةِ الشَّرحِ مرَّ بِي شيخٌ عتيدٌ، عَلَى كتفيهِ خاتمُ النُّبُوّةِ جَعَلَهُ من حبرٍ ودِهانٍ، أسمالُه فخمةٌ رُكّبتْ علِى عجلٍ، ونعلاهُ أطيبُ شيءٍ فيه. معهُ جماعةٌ

[1] قالتْ أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودّ الفاتحةُ، من عابداتِ غدامسَ والحمادة، إمامةُ المحبّةِ، وصاحبةُ اللواءِ والريادة: تمعّنْ في هذا يا تلميذُ، فهذا الغدامسِيُّ يصيبهُ العجزُ والجبنُ فيخرجُ إلى نزالِهما في حضرةِ الناسِ، فلمّا تَسرْبلَ في خاطرِه بفرحِ الخلقِ وشَبَعِهم وسرورِهم صارتْ له الغلبةُ علَى هذا العجزِ وهذا الجبنِ. فلا تفارقِ الناسَ ياموسَى. قلتُ: فإن فارقَ الناسُ الحقَّ أحقُّ بهم؟ قالتْ: نعمْ، تلحقُ ولا تلتحقُ. فإنّ الحقّ بدونِ الخلقِ لا ينفعُ، والخلقُ بلا حقٍّ لا يفلحونَ. فأنتَ تكونُ مع الناسِ حتّى يروا أثرَ قدميكَ ومسيرَك من جهةِ الحقّ فيعرفونَ الطريقَ الذي أتيتَهم منه، وأنتَ لم تخرجْ عنه، فيمشُون هم فيهِ ويحصلُ لهم ولكَ السرورُ. وأما من يفارقُ الناسَ ويعتزلُ حشدَهم فلا هو يُسَرُّ ولا يحصلُ منه سرورٌ، وهذه خيبةٌ وخسرانٌ مبينٌ.

يحملونَ حاجتَهُ ومَؤونتَهُ، وفيهمُ مُنشدونَ بتَلبيةٍ عجيبةٍ، ومُنشداتٌ يلبسنَ الحُليَّ والحريرَ، وصبيانٌ وبناتٌ كالوردِ، ووراءَ ذلكَ أَنعامٌ مسخَّرة، ورعاةٌ يأخذونَ بشؤونِها. فهالَني الجمعُ فنبحتُهُم في غفلةٍ من القلبِ، فأَثَرْتُ كلابَهم فقامتْ عليّ. فتَقدّمتُ عنهمُ وحاذَيْتُ مطلعَ الرَّكبِ فبانَ عليَّ العتيدُ، فهِبْتُه لأوّلِ الأمرِ ثمَّ انكشفَ لي فقلتُ: لا بأسَ عليكُم؟ فقالَ: فارُّونَ من الرَّهَقِ. فقلتُ: وما الرَّهَقُ أيّها الموسومُ بالنبوّةِ؟ فشمخَ وظهرَ بوجهِهِ نورٌ وقال: خَوْضُ عُبَابِ هذا العالمِ الذي أنتَ فيه.

فقلتُ: فإلى أينَ والعُبابُ صفةُ العالمِ، قديمةٌ كما هو قديمٌ؟ فأشارَ إلى ظلٍّ بعيدٍ لا يَسَعُ رجلاً وامرأة، هوَ بينَ أنْ يَكونَ أوْ لا يكونَ، وقال: نَطلبُ ذاكَ النعيمَ. فنظرتُ إلى مشهدِ القومِ المَهيبِ، والظّلُّ مِنهمُ مسيرةُ ألفِ ألفِ عامٍ، فإذا الشَّمسُ أصابَتْهُم، فقلتُ: فكنتمْ في رَهَقٍ ففررتُم؟ قالَ: نعمْ ولا، فقد مسّنا الضّرُّ أولَ الأمرِ ثمّ سَبَقْناه. فَسَمِعْتُ بُكاءَ العيالِ ونشازَ المُلبّينَ فقلتُ: وكيفَ تَرَى رَهَقَكُم الذي أنتمْ فيهِ اليومَ؟ فاتخذَ هيئةَ رسولٍ كريمٍ وأخرجَ من خُرْجِهِ سِفْراً فتَلا عليّ: اليومَ تَمْشونَ إلى الظلِّ الكريمِ، منكمْ قاصدٌ إليهِ، ومنكمْ حائدٌ عنهُ، والفائزُ من سَعَى حَثيثاً.

فَنَفَضْتُ يَدَيَّ كأنني أتيمّمُ وقلتُ: فما تفعلونَ إنْ لحقَ بكم عُبابُ العالمِ فكانَ أحَثّكمْ خطواً، وأسبقَكُم قَفواً، وأَرشَدَكُم صِراطاً، وأَكثرَكُم غَمراً؟ فجفلَ عنّي وأشارَ أنْ احمِلُوني عنْ هذا فهُوَ منزوعُ الإيمانِ. فكتَبُوها في أوراقٍ لديهِم وذهبوا

بهِ يريدون الظلّ الذي توهَّمَهُ لهم.

فدخلتُ في آخرِ القومِ وكلّمتُهم عن العُبابِ والخِضَمّ، وأَرَيْتُهُم آلَتي ومنهَاجي، وأَبَنْتُ لهُم عن نيّتي وحسابي. فتبلبَلوا بالحقِّ الذي كاشَفْتُهُم بهِ، وصاروا في فُتورٍ عن المسيرِ، فأبطأَ بعضُهم بعضاً، وارتبكتْ تلبيتُهم العتيدةُ، وخابتْ نيّةُ فرارِهم، ومالوا إلى شمسي الظّاهرةِ عن ظِلِّهم الغائبِ، وأَعْجَبَتْهُم كلمَاتي رَشَداً تهدي للّتي هي الآنَ. وقالوا لو عَملنا دياراً وسقائفَ لبَرَأْنا الظّلَّ براءةً فوقَ رؤوسِنا فلا نُرهَقَ إليهِ مسيرةَ ألفِ ألفِ عامٍ، ولجعلناهُ علَى قَدِّنا وقَدِّ شهواتِنا. فسرَّتني النيّةُ الحَسنةُ والقصدُ الطيبُ، فتركتُهم يحسِبونَ حِسبَتهم ومضيتُ إلى شأني. ثمَّ رأيتُ قلبي يَحُلُّ عُقدةً منْ نِيَّتي إذِ ابتهلتُ: ربّي عليكَ اعتمدتُ، وإليهِمُ تَوجَّهتُ، ومنكمُ استقيتُ دمي صاعداً عروقَ يديْ لتستحيلَ فأسَ خيرٍ يرسمُ وجهَ الأرضِ.

فجاءَني وقالَ ليْ:

النيّةُ التي تقصِدني ولا تُسلِّمُ في طريقِها على خلقي تَضِلُّ.[2]

وقالَ ليْ: النيّةُ انفكاكُ القلبِ عن سياقِ الشّركِ، وبراءةُ الفكرِ من وَهَنِ الرِّيبةِ، وخَلاصُ البَدَنِ من ذُلِّ القُعودِ.

[2] قالَ أُستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ، أستاذُ العلومِ المعيشيّةِ في حلقاتِ الطريقةِ، ومعاهدِ بلدةِ العزيزية: خابتْ نيّةُ مائةِ ألفِ ألفٍ من الخلقِ، فيهم نبيّونَ وصالحونَ، قالوا "يا ربُّ" ولم يذكروا حقوقَ الناسِ، فنيّاتُهم هائمةٌ لا تدري أينَ بابُ الحقّ إلى الآنَ.

وقالَ لِيْ: الشّركُ أنْ تَرى الحقَّ في غيرِ خَلْقِي، والقُعودُ أنْ تَراهُ في الخلقِ ثمَّ لا تَقُومُ لهُ.[3]

وقالَ لِيْ: النيّةُ فعلٌ لا اسمَ لهُ.[4]

وقالَ لِيْ: النيّةُ الحقُّ بنتُ الحسابِ، فلا تَخْرُجْ بهَا عنْ نَسَبِهَا فَيأخُذُها البُطلانُ.

وقالَ لِيْ: ما عقدْتَ عليهِ انعقدَ بكَ، فمنهُ معناكَ، ومنكَ اسْمُهُ الذي يتسمَّى به.

وقالَ لِيْ: لا يخرجُ أَمرُكَ عنْ أنْ تَعْقِدَ أوْ لا تَعْقِدْ، وبَيْنَهُما لا يكونُ شيءٌ أبداً.[5]

وقالَ لِيْ: النَّوايا مَطايا العمَلِ، تحملُ زادَ العزمِ، ومؤونةَ المجاهدةِ، ومددَ المناشدةِ.

---

[3] تكلّمَتْ أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ فقالَتْ: معناهُ إن رأيتَني ولم ترَ خلقي معي إنَّما رأيتَ غيري فحسبتَهُ أنا فأشركتَ لأنني لا أكونُ إلا مع الخلقِ، وإن رأيتَني مع خلقِي فلم تُسَلّمْ وتستأنِسْ بهم فقد توحّشتَ مني وأسأتَ الأدبَ في حضرتي وحضرتِهم.

[4] كان الإمامُ أحمدُ يخرجُ كلَّ جُمعةٍ بالمساميرِ والقادومةِ فيستأذنُ على بيوتِ الفقراءِ يقولُ: رجلٌ يُصلِحُ الأبوابَ والشبابيكَ بدعوةٍ صالحةٍ. فضحكَ منهُ بعضُ اللاهينَ في بعضِ الأيامِ وآذوهُ بكلامٍ. فوقفَ عليهم سيّدي الشيخُ المجتبَى وقالَ: واللهِ لو علمتُم بركةَ قادومةِ الإمام تدخلُ على بيوتِ الخلقِ فتقيمُ أبوابَهم وشبابيكَهم إزاءَ الحرِّ والبردِ لدافعتُموهُ عليها دفعاً كما تدافعتُم على القروش وطيوزِ البناتِ، ولكنّكم قومٌ بلا نيّةٍ تشرحُ صدورَكم فكيفَ يكونُ لكم جهدٌ أو فلحٌ.

[5] قالتِ العَارفةُ باللهِ فاتنةُ بنتُ الواجدةِ باللهِ المهديةِ، عارفةُ فزّان، وفتنةُ الأبدان، والقائمةُ بالبرهان: ومنهُ ثَبُتَ أنّ الخلافةَ فرضُ عينٍ على كلِّ من انعقدتْ لهُ صفةُ البشريةِ لا يُقيلهُ منها لونُه أو لسانُه أو فرجُهُ، فمن حَضَرَتْهُ منكم الحياةُ حضرَتْهُ الخلافةُ، أذانُها أفصحُ من خفقِ فؤادِه الذي في صدرِه.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تدخلُ بها الطريقَ تصيرُ الطريقَ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تَعْقِدُهَا تعقدُكَ، والنيّةُ التي تُسِرُّ بها تَجهرُ بكَ.

وقالَ لِيْ: الذي يجهرُ بكَ يُسمّيكَ لي مثلمَا أَسْمَيْتُ العالَمَ لكَ وأنتَ مازلتَ في الهيئةِ الأولَى.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تدخلُ بها علينا تخرجُ بها منّا، غيرَ أنّ بعضَ العرشِ يصيرُ لكَ.

وقالَ لِيْ: بعضُ العرشِ أوسعُ من زُخرفِ العالِمِ.

وقالَ لِيْ: زُخرفُ العالِمِ لازمٌ للعرشِ لأنّ خلافتَك استيلاءٌ على البهجةِ الظاهرةِ والمخبوءةِ جميعاً.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تُحدِّثُ بها نفسكَ، تُحدِّثُ نفسَها بكَ، حتّى تدخلَ إلى مقامِك مثلما دخلتَ إلى مقامِها.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تتّكئُ على محبّةِ الخلقِ، تتّكئُ على جذعِ السّدرةِ ثم تمشي بكَ إلى قوائمِ العرشِ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تنوشُها الأَثَرَةُ لا تَسُدُّ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي ينوشُها الحبُّ تَسُدُّ.

وقالَ لِيْ: الذي ينوشُه الحبُّ يصيرُ لذّةً من ساعتِه ثم يسُدُّ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ التي تتعلقُ بك تقيمُ أَوَدَ إنسانيّتِكَ.

وقالَ لِيْ: أَوَدُ الإنسانيةِ قد ينفعُ أن يقيمَ أودَ السبحانيّةِ.

وقالَ لِيْ: أَوَدُ الإنسانيّةِ الخبزُ والعشقُ والعلومُ، وأودُ السبحانيّةِ العشقُ حصراً.

وقالَ لِيْ: الإنسانيّةُ تحثُّكَ أن تدخلَ في جوارِ السبحانيّةِ بالنيّةِ التي تفضُّ بها بَكارةَ العالِمِ.

وقالَ لِيْ: العالمُ خُبزُ الخلافةِ، من جهةِ أنّ الخلافةَ هي الرَّمقُ الذي بكَ.

وقالَ لِيْ: خبزُ الخلافةِ ينبغي لكَ أن تَقْتَسِمَهُ.[6]

وقالَ لِيْ: كسرةُ خبزِ الخلافةِ خيرٌ من بيادرِ النهبِ والحيازةِ.

وقالَ لِيْ: خبزُ الخلافةِ إن حازهُ المستأثرونَ عن الخلقِ خرجَ عن معنى الخلافةِ إلى معنى الاستبدادِ.

وقالَ لِيْ: النيةُ التي تقتسمُها مع المستأثرينَ تحيلُكَ إليهم.[7]

---

[6] قالَ مولايَ الحضْرميّ: الحكمُ، والمالُ، والبأسُ من حديدٍ أو علومٍ، ينبغي فيها القسمةُ والمشاركةُ بين الخلقِ، ويكونُ هذا في متنِها الذي تقومُ عليه، بالمباشرةِ لا بالتفويضِ. قالَ: وكنتُ في بعضِ بلدانِ الزيتِ والغازِ فرأيتُ أربابَ المعاشِ يأخذونَ الفُتاتَ من ريعِ البلدِ فينثُرونَهُ على أهلِ هذا البلدِ من جهةِ الجمعياتِ والمساجدِ وأوجهِ الزكاةِ يقولونَ هذي شِركةٌ بيننا وبين الناسِ. وهذا باطلٌ لأنّ الشِّرْكَةَ تكونُ في الأرضِ التي نُهِبَتْ والزيوتِ التي حُكِرَتْ والآلاتِ التي استُأثِرَ بها عن الخلقِ، فأمّا فتاتُ الغلالِ فأجدرُ به نملُ النواحي وطيرُها لا ابنُ آدمَ الذي هو صاحبُ الأرضِ، ظاهرِها وباطنِها، والخليفةُ القائمُ فيها.

[7] دخلتُ الدرسَ فإذا التلاميذُ يدفعونَ رجلاً شائهَ الوجهِ كنتُ أراهُ يختلفُ إلى إمامِنا أحمدَ حيناً من الوقتِ. وإذا الإمامُ في سَوْرةٍ من الغضبِ والبذاءةِ لا تليقُ إلا بالأقطابِ. فأخذتُ الرجلَ ولفظتُهُ خارجَ المجلسِ رحمةً بهِ. فقالَ التلاميذُ: هذا شائنٌ عقَدَ قلبَهُ بقلوبِ أهلِ الاستكبارِ في العالمينَ، وقالَ نخرجُ ونطلبُ معونَتَهم وننتصرُ لهم فينتصرونَ لنا. قالَ تلميذٌ: فهو يريدُ للطاغوتِ الأكبرِ مُدخَلاً علينا وعلى أوطانِنا وجهادُه أولَى لأنه مظنّةُ شرٍّ كبيرٍ لا قِبَلَ للعالمِ بهِ، ومنبتُ وجعٍ إزاءَ الإنسانيةِ كلِّها، فكلّما دخلَ هذا الطاغوتُ في عقدٍ مع عاقدٍ صارَ العاقدُ معقوداً بالشرِّ والوجعِ. قلتُ للتلميذِ: من أين لكَ هذا الفهمُ؟ فانتبهَ الإمامُ من غضبتِهِ وقالَ: من الدرسِ والحبِّ يا موسَى، من الدرسِ والحبّ!

وقالَ ليْ: النيةُ التي تحيلُك إلى المستأثرينَ نيَّتُهم.

وقالَ ليْ: النيةُ التي تَقتسِمها مع من حَكَرَ الأمرَ تقتسمُ قلبَكَ لهم.

وقالَ ليْ: النيّةُ الحقُّ عَقْدٌ بين قلبِكَ وبيَن العالمِ بالمباشرةِ.

وقالَ ليْ: الذي يَعقِدُ يُعقَدُ عليهِ.

وقالَ ليْ: الذي يعقدُ على العالمِ إنما يعقدُ بقلبِه وبدنِه وعقلِه جميعاً فلا يصحُّ العقدُ إلا بآلاتِه الكاملةِ.

وقالَ ليْ: الذي يَعْقِدُ على العالمِ يَعْقِدُ على خلافتِه في العالمِ.

وقالَ ليْ: الذي يعقدُ أشرحُ له صدرَهُ يدخلُ إليهِ الحزنُ فيستحيلُ فرحاً، والشكُّ فيصيرُ طمأنينةً، والوهنُ فينقلبُ بأساً شديداً.

وقالَ ليْ: الذي يَعْقِدُ يُعْقَدُ لهُ.

وقالَ ليْ: الذي يَعقِدُ يدخلُ على العالمِ في هيئتِي.

وقالَ ليْ: هيئَتي جلالٌ مفارقٌ أوّلَ الأمرِ، فإن عقدتَ اتّصلَ بكَ.

وقالَ ليْ: هيئَتي لحافٌ يسعُ جسدَك وقلبَك معاً فمن هذا يكونُ اسمُك تامّاً.

وقالَ ليْ: هيئتي كنايةٌ عن اسمِكَ التامِّ.

وقالَ لي: الذي يُكَنّي عن اسمِكَ يؤولُ إليه.[8]

وقالَ ليْ: اسمُك في مقامِ الكنايةِ يدخلُ على العالمِ تحُفُّهُ أسمائي، وتتبرّكُ بهِ أحوالي، وتنتسبُ إليهِ معانيَّ.

وقالَ ليْ: الذي يدخلُ على العالمِ أحشدُ لهُ ألوِيةَ حبٍّ وشاراتِ سيادةٍ من لَدُنّي

---

[8] قالت أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ: الهيئةُ التي تؤولُ إلى الاسمِ أمرٌ عجيبٌ وهولٌ شديدٌ. قالَ بَابِكرِ النوبيُّ: لا بدّ لها من أن تؤولَ وإلا من أين يحصلُ لها معنى الربانيّةِ؟

يكادُ يفتحُ بها المدائنَ وهو لم ينهضْ إلى الطريقِ بعدُ.[9]

وقالَ ليْ: الذي يَعقدُ غالبٌ على العالمِ وهو مغلوبٌ بشغفِه بالعالمِ.

وقالَ ليْ: هذا الذي يعقدُ غالبٌ ومغلوبٌ في مقامٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: الذي يَغلِبُه الشغفُ يخضعُ للحبِّ وهو علَى عرشِ العالمِ يُبدِّدُ الظلمَ ويسندُ ظهرَ الخلقِ ويُقيمُ اسمَ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: لا ينبغي للذي عقَدَ أن يَفُكَّ عقدَهُ حتى ينفصلَ عن العالمِ ما لحقَ به من أذًى.

وقالَ ليْ: الذي يَعقِدُ يَلْزَمُهُ أن ينخرطَ.

وقالَ ليْ: الذي يَعقدُ ثم لا ينخرطُ لم يعقدْ، ولكن شُبّهَ له.

وقالَ ليْ: الذي يُشَبَّهُ له العالمُ يرتدُّ إليه طرفُهُ قبلَ أن يأتِه العرشُ أو يجلسَ في ظلِّ السّدرةِ.

وقالَ ليْ: العرشُ والسِّدرةُ من لزومِ العاقدينَ الذين انخرطوا.

وقالَ ليْ: العرشُ والسدرةُ إشارتانِ على الطريقِ وأنتَ تحسبُ أنهما جائزةٌ.

---

[9] كنتُ مع الإمامِ أحمدَ سائحاً في بَرٍّ غريبٍ، فبينما نحن بمسجدِ الناحيةِ نسلّم على الناسِ ونتكلّمُ، دخلَ علينا رجلٌ لعينيهِ بريقٌ يخطفُ الأبصارَ، ولمشيتِه عزمٌ كأنّه مَلَكَ الدّنيا وأهلَها، فجلسَ معنا يسمعُ ويهزُّ رأسَه حتى ظننّا أنّ بهِ غفلةً. فلما ذكرَ الإمامُ أحوالَ الناسِ وأمورَ المعيشةِ قامَ الرجلُ فقالَ بعاميّةِ بلدِه: ما نعملُ؟ فقالَ الإمامُ: تفهمونَ ثم تنتظمونَ ثم تخرجونَ. فقالَ الرجلُ: صدقتَ. ثمَّ طلعَ كما دخلَ. قالَ الإمامُ: هو رجلٌ عَقَدَ فظهرَ في وجهِه وكلامِه نورُ الحقِّ لاتصالِ قلبِه به. قلتُ: ومازالَ صاحبُنا هذا يدخل ويطلعُ ويعملُ بعلمِه وفهمِه حتى يصيرَ وقتُ الأذانِ، أذانِ الخروجِ.

وقال لي: العرشُ والسّدرةُ من لزومِ الإنسانِ الذي ناشَهُ وجعُ العالمِ.[10]

وقالَ ليْ: العاقدونَ معقودٌ عليهم ضرورةً، من جهةِ العالمِ.

وقالَ ليْ: العاقدونَ يُفارقونَ حالَ الدرسِ والحِسْبةِ، ويَقترنونَ بحالِ الفعلِ والمناهضةِ.

وقالَ ليْ: الفعلُ عتبةٌ ينزلُ بها قلبُك، فيقومُ ساعدُك، وتركضُ رِجلُك الأرضَ والفضاءَ.

وقالَ ليْ: الفعلُ من ميراثِ الخلقِ الأولِ، كلاهُما انبثاقٌ للقدرةِ الكامنةِ.

وقالَ ليْ: الفعلُ نيةٌ في لباسِ الركوبِ.

وقالَ ليْ: الفعلُ اشتباكٌ مع العالمِ، مثلما أنتَ اشتباكٌ معي.

وقالَ ليْ: الذي يشتبكُ معي تتناوشُه أسمائي وأحوالي فتتعلّقُ به وتتاخمُه.

وقالَ ليْ: الفعلُ يقترفُ العلومَ التي تَلزمُك لأنه يَبْرَؤُها ثم يكشفُ عن عوارِها أو

[10] قالَ تلميذٌ: إني من وقتٍ أتوجّعُ في الخلواتِ الصوفيّةِ والمكابداتِ الروحيّةِ أريدُ أن أرَى وجهَه فلا يمكنُ لي. قالَ الإمامُ: أنظرْ إلى وجهِ بُنَيّةٍ مسلوبةٍ منهوبةٍ، تكدحُ علَى إخوتِها الصغارِ، فلا يُمْكِنُها مؤونتُهم نهاراً بعد نهارٍ، فتُؤَجِّرُ جسدَها للرجالِ حتى تُنتهكَ إنسانيّتُها، وتُبتذَلَ حوائِيّتُها، ولا يعودُ لها غيرُ الربانيةِ مقاماً أو حالاً. قالَ التلميذُ: كأنّك تعني فلانةً بناحيةِ كذا وشارعِ كذا؟ قالَ الإمامُ: نعمْ، خطرتْ علَى قلبي. قالَ التلميذُ: فهذهِ القحبةُ في مُقامِ المُحَيَّا الربّانيّ؟ قالَ الإمامُ: أدنَى ما ينبغِي لها بعدَ الوجعِ الذي ناشَها، وناشَ عيالَها، وجهُهُ. فإنْ حِيلَ بينَها وبينَهُ تهافتتِ الربّانيةُ وصارتْ غُفْلاً عنِ اسمِ العدلِ ومُحَيّا الجمالِ. فانظر، أيها التلميذُ، إلى وجهِها راضياً مطمئنًّا لأنّهُ يحفظُ الأسماءَ الحسنةَ أن تتبدّدَ ويشدُّ من أزرِ العرشِ العظيمِ. قالَ التلميذُ: كلامٌ لا نجدُه إلا عندكم. قالَ الإمامُ: لأنّكَ يا تلميذُ لا تجدُ وجهَه، في بعضِ الوقتِ الشديدِ، إلا عندَها.

صلاحِها للعالِم.

وقالَ ليْ: الفعلُ والعلومُ حجرا صوّانٍ لا يتّقدانِ إلا بالمجاورةِ القادحةِ.

وقالَ ليْ: الفاعلونَ يعلمونَ ضرورةً لأنهم ينخرطونَ في العالِم فيسفرُ لهم العالمُ عن أحوالِه وروابطِه.

وقالَ ليْ: الفاعلونَ تحصلُ لهم العلومُ عفواً لأنّ الإمعانَ في العالِم يبينُ عن هذا العالِم تِلقاءً.

وقالَ ليْ: العفوُ والتِّلقاءُ مسرّةٌ للعالِم الذي لا ينبغي لهُ العسفُ.

وقالَ ليْ: الفعلُ نطفةُ السرورِ.[11]

وقالَ ليْ: الفعلُ مَوطِئُ قلبِك في تربةِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: العالمُ يعرفُك بموطئِ قلبِك.

وقالَ ليْ: مَوطِئُ القلبِ أثرٌ لا تخطئُه عيني لأني أرى العالمَ بالحبّ.

وقالَ ليْ: مَوطئُ القلبِ علامةٌ على جسدِ العالِم تخبُر عنكَ.

وقالَ ليْ: مَوطئُ قلبِك نداءُ الإنسانيّةِ لربانيةِ يديكَ.

---

[11] مرَّ بناحيتِنا درويشٌ مُهلهلُ الثيابِ فشكاهُ بعضُ الرجالِ والنِّسوةِ لزعمهم أنه يُؤذي، فرَجانا مُعلِّمي أبو العيال مُغيثُ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى أن نأتيهِ فنُسلّمَ عليهِ ونعرفَ أمرَه. فلما عَثرنا به إذا هو لا يملكُ من المتاعِ غيرَ حافظةٍ للموسيقَى، فيجيءُ بها إلى الزرائبِ وحظائرِ الحيوانِ وأسواقِ الدوابِ، فيُطلقُ منها ألحاناً حلوةً ويرقصُ وإذا الحيوانُ يتمايلُ طرباً. ثم يأتي فيبوسُ رأسَ الدّابَّةِ وربما بكَى وقتاً ثم يمضي إلى حالِه. قالَ مُعلمي: هذا غوثٌ من الأغواثِ الذين يمنعُ اللهُ البلاءَ عن الناسِ بهم. وإنّكمْ لا تَجِدوهُ. قلتُ: فَلَمْ نَجِدْهُ، ولعلّهُ ذهبَ إلى أرضٍ أخرَى يرحمُ حيوانَها فيحفظَها من جوعٍ أو ظلمٍ عظيمٍ.

وقالَ لِيْ: مَوطئُ يَدَيْكَ حرثُ الفدَادينِ، ومَوطئُ قلبِكَ سِدْرَةُ المُنْتَهَى.[12]

وقالَ لِيْ: القدرةُ الكامنةُ فيكَ كفيلةٌ بالعالمِ.

وقالَ لِيْ: الكامنُ فيكَ محبةٌ، والمحبةُ أشرسُ منَ العالمِ.

وقالَ لِيْ: حينَ لا تُبدي عن المحبّةِ، لا يُبدي عنكَ العالمُ.

وقالَ لِيْ: حينَ لا تُبدي عن الفعلِ المتّصلِ بالمحبةِ التي تتكلمُ بها في الأسواقِ، تصيرُ غُفلاً عنِ المعنى الذي يُسمّيكَ عندَ السّدرةِ.

---

[12] درسَ عندنا سالمُ بن الطاهرِ وهو تلميذٌ شديدُ المراسِ، شرسُ الطباعِ، مشغوفٌ بالعالمِ يريد أن يَهْتِكَهُ بالفكرِ والإلهامِ والفنونِ. وكانَ يقولُ إن علومَنا وتجلّياتِنا وأعمالَنا في الدرسِ والذِّكرِ والمجاهدةِ الصوفيةِ حريٌّ بها أن تَنتهكَ العالمَ وتصيرَ مَتْنَهُ لا هامشَه الذي يتفرّجُ عليه الخلقُ. فبعد حينٍ قالَ: اسمحوا لي ياجماعة. وذهبَ فلم نعرفْ له داراً ولا درَينا بأيّ أرضٍ يكونُ. فكان في بعضِ السنينِ موسمُ بيعِ بعضِ الغلالِ، فذهبتُ بها مع الإمامِ أحمدَ الدريّ إلى سوقٍ بعيدٍ بقريةٍ علَى حدودِ البلادِ. فوجدْنا أهلَ البلدةِ يتكلّمونَ بالجليلِ من الأمورِ، ويتناولونَ الفلسفاتِ والفنونَ كأنها أخبارُ الزرعِ والماشيةِ، ويأتونَ بأعمالِ المجاهدةِ والمذاكرةِ بلا مشقةٍ ظاهرةٍ. فقالَ الإمامُ: يا موسَى، إني أرَى مَوطئَ قلبِ الولدِ في هذا السوقِ وهذي البلد!

فإذا الولدُ يمشي في عُصبةٍ من الناسِ في ظاهرِ الطريقِ كأنّهُ نبيٌّ تَنَزَّلُ عليه الصحائفُ. وإذا هم يُنادونَه بالأستاذِ ويَفزعون لخدمتِه وهو يتحشّمُ، فسلَّمنا عليه فاستبشرَ بنا وباسَ الإمامَ على جبينِه وقالَ: إنما تَخَلَّقَ قلبي عندكم ولكنَّ وطأتَه في العالمِ من عندي، وإني لا أتركه حتّى أجعلَ فيه من علاماتي وإشاراتي وآثارِ الوجدِ والفهمِ.

قالَ الإمامُ: هذا حِمْلٌ ثقيلٌ، ولكنَّ بعضَ الخلقِ مُلهَمون سِيّانِ عندَهم أن يَطأوا العالمَ أو يطأوا عتبةَ الدار التي يخرجونَ منها للمعيشةِ كلَّ صباحٍ، وهذهِ هِمّةٌ عَجيبةٌ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ إبداءٌ عن العالِمِ الذي يَكْمُنُ فيكَ.

وقالَ لِيْ: الكمونُ كزهرةِ الكَرْمِ التي تمرُّ بها مشغولاً بالعالمِ وهي بعدَ حينٍ كأسُ الخمرةِ التي تكرعُها وأنتَ في خِضَمِّ هذا العالمِ.

وقالَ لِيْ: العالمُ يُسْفِرُ عن نفسِه في قلبِك عفواً، حينَ الابتداءِ، ثم يمشي كنهرٍ يعرفُ مجراهُ بينَ السهولِ.

وقالَ لِيْ: المعرفةُ اتّساقٌ مع العالمِ وإحداثٌ له في آنٍ واحدٍ.[13]

وقالَ لِيْ: قلبُ صاحبِ النيّةِ آلةٌ كامنةٌ.

وقالَ لِيْ: قلبُ صاحبِ النيّةِ محلُّ نورٍ إذا أتيتَهُ غمرَك وأبَانَ لكَ الطريقَ وكشفَ عن أفقِ الفعلِ الذي سيكونُ.

---

[13] إن لطريقتِنا وشيجةً مع مدارسِ الطاوِ، وروحانيّاتِ الهندِ، واستشرافاتِ العيساويّةِ المشرقيةِ والغربيةِ. ومنها أن أهلَ الطاوِ من أرضِ الصينِ يرونَ الكونَ نهراً جارياً في الوقتِ والمكانِ يجدرُ بالإنسانِ أن يَتَّسِقَ معهُ، فلا يكونُ إزاءَه بل في مَتْنِه ومجراهُ، ويترتّبُ على هذا محبةٌ للعالمِ، وإجلالٌ للخلقِ، وتوقيرٌ لعناصرِ الطبيعةِ. قالَ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النوبيّ: وأصحابُ الطاو يروونَ توازنَ الإنسانِ مع الكونِ، ومشاعَ الحاجاتِ، جوهراً فذاً، فهم لذلكَ يقيمونَ مبدأ الانسيابِ، أي سريانَ الأشياءِ على فطرتِها، لصالحِ الناسِ والحيوانِ والنباتِ، وسيرِها نحو غايتِها المخبوءةِ فيها. وهذا هو إحداثُ العالمِ عندَهم ليسَ فيه صنعةٌ أو غلبةٌ، وفيهِ رؤيةٌ موجبةٌ للمحبةِ الكاملةِ والطمأنينةِ الغامرةِ. قلتُ: وقد ساقني نهرُ الحياةِ إلى مداراتٍ وأفلاكٍ كان الطاوُ فيها هواءً عليلاً وأرضاً طيبةً وبستاناً من الحبِّ والإنسانِ. فكانَ الأستاذُ بَابِكِر يُمازحني فينادي عليّ: ياطاويّ! حتى ظنّ بعضُ الناسِ أنه اسمي، وحسبوا الطاوَ بلدةً أو عشيرةً من العربِ يَنسبني إليها!

ولازلتُ أجدُ في النداءِ لذةً وحلاوةً لا تسعُها العبارةُ.

وقالَ لِيْ: قلبُ صاحبِ النيّةِ بِشارةٌ تابعةٌ لبشارتي، لانعقادِ الربانيّةِ الكاملةِ بالإنسانيّةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: الذي تفيضُ عليه الربانيةُ يقومُ للعملِ، والذي تَتعلّقُ به الإنسانيةُ يقومُ للعملِ.

وقالَ لِيْ: القيامُ للعملِ تصديقٌ للنيةِ لأنهُ تحقيقٌ لمثالِها في سياقِ الكونِ.

وقالَ لِيْ: النيّةُ اشتهاءٌ للأشياءِ.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ يقومونَ علَى خدمةِ العالمِ لأنهم مشغوفونَ به.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ يُطيّبونَ الأشياءَ لأنّهم مُنعقدونَ بها برغبةِ الوّصلِ.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ متّصلونَ بالآدميةِ والحوائيةِ ضرورةً.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ يعرفونَ لونَ الأشياءِ ورائحةَ العناصرِ ومذاقَ الأسماءِ وقوامَ المعاني.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ يتوسّلون الشهوةَ للاتصالِ بالعالمِ، ويتوسَّلُهم العالمُ كي تَنُوشَهُ الشهوةُ.

وقالَ لِيْ: المُشتَهُون يتولَّهُون بسياقِ العالمِ لأنّ سياقَ العالمِ محلُّ اللذّةِ.

وقالَ لِيْ: التوسُّلُ إعمالُ الوسيلةِ في جسدِ العالمِ، والتَوَلُّهُ إعمالُ الوَلَهِ في جسدِ العالمِ وقلبِه معاً.

وقالَ لِيْ: العالمُ ينشدُ المشتهينَ لأنَّ قلوبَهم تلهجُ بمعانيهِ، وأيديهِم تعجنُ أطايبَه، وأقدامَهم تركضُ أقاليمَه.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ منحازونَ للعالمِ.

وقالَ لِيْ: المشتهونَ يراودونَ العالمَ عن الخلافةِ التي جعلتُها خبيئةً فيهِ.

وقالَ لِيْ: الانحيازُ للعالَمِ مقامٌ مُلزِمٌ لأنه يترتّبُ عليهِ الانخراطُ في العالَمِ.[14]
وقالَ لِيْ: الانحيازُ حاصلُ النيةِ.
وقالَ لِيْ: الانحيازُ ميلٌ شهيٌّ عن بلادةِ الحيادِ.
وقالَ لِيْ: المحايدون منحازونَ سلباً لأنهم يمشونَ في سبيلِ الحيادِ حصراً عن سبيلٍ آخر يستطيعونَه.
وقالَ لِيْ: الحيادُ خدعةٌ في القولِ، وحيلةٌ في المعنَى، وفخٌّ لاسمِ الإنسانِ.
وقالَ لِيْ: الحيادُ اصطفافٌ ضدَّ الفعلِ.
وقالَ لِيْ: الحيادُ نيّةٌ خائبةٌ.
وقالَ لِيْ: نيةُ الفعلِ استهزاءٌ بالمراوغةِ، واستهتارٌ بالمماطلةِ، واشتهاءٌ لوطءِ العالَمِ.
وقالَ لِيْ: وطءُ العالَمِ جائزةٌ في هيئةِ الانحيازِ.
وقالَ لِيْ: المنحازونَ للعالَمِ يتراصُّونَ في صفوفِ الربّانيةِ إزاءَ البلادةِ الكونيّةِ المُعَطِّلَةِ للإنسانِ.

---

[14] قالتْ خديجةُ الشنقيطيّةُ: الذي يَشتهي زهرةً يميلُ إليها، والذي يَشتهي ثدياً يَنثني عليهِ، والذي يَشتهي عدلاً يخرجُ لهُ. قالتْ: والميلُ والانثناءُ والخروجُ لغةٌ في الانحيازِ الذي يمشي بكَ ضرورةً إلى الانخراطِ في الأشياءِ. فالزهرةُ التي مِلْتَ إليها لا بدّ لك من شَمِّها، والثديُ الذي انثنيتَ عليهِ لا بدَّ لكَ من لَثْمِهِ، والعدلُ الذي خرجتَ لهُ لا بدَّ لك من إحقاقِه. قالتْ: وبعضُ المنحازينَ يتردّدون في الانخراطِ خوفاً أو ارتباكاً أو وسواساً. فيجدرُ بالذي عقدَ النيّةَ من بينِهم أن يتقدّمَ الصفوفَ أمامَهم، فيحثَّهُم علَى المنازلةِ التي تليقُ بهم، والمبارزةِ التي تنبغي لهم. فيكونُ من هذا مجاهدةٌ جامعةٌ ودخولٌ عموميٌّ في غِمَارِ العالَمِ، وهو المقصودُ عندَ العارفِينَ.

وقالَ لِيْ: المنحازونَ للعالمِ ينتهكونَ قلبَك كي يُمعنوا بهِ في الأشياءِ.[15]

وقالَ لِيْ: الذي يُعطِّلُ الإنسانَ يحبسُه عن الفعلِ.

وقالَ لِيْ: حبسُ الإنسانِ عن الفعلِ إبطالٌ لمعناهُ لأنّ معنَى الإنسانِ في الفعلِ كما هو في الاسمِ.

وقالَ لِيْ: صفوفُ الربانيةِ اصطفافٌ للآدميّةِ والحوائيّةِ لخاطرِ الإنسانِ الواحدِ وهو يضطربُ بالعالمِ.

وقالَ لِيْ: الاصطفافُ حشدٌ للحبِّ إزاءَ الأسماءِ التي افترقتْ عنكَ واشتبكتْ بي.

وقالَ لِيْ: الاصطفافُ استعادةٌ للأسماءِ الحسنةِ التي تَنبغي لكَ.

وقالَ لِيْ: الاصطفافُ منازلةٌ فذّةٌ للكتبِ التي وسمتني بالمفارقةِ تقولُ هذا اسمُ السبحانيّةِ.

---

[15] رأيتُ شَيخي المهمومَ بالخلقِ، المسكونَ بالعالمِ، الحارثَ بن الصادقِ المتوقّدَ، شيخَ الرؤَى والبشائر، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر، يمشي في زنقةٍ من زناقي البلدِ وقد تخضّبتْ يداهُ بحبرٍ أزرقَ، ولطخةٌ منهُ ناشتْ خشمَه وذِقنَه، فسلّمتُ عليه وكلّمتُه فقالَ: ليستْ شيئاً، غير أني كنتُ في الدرسِ أياماً وليالٍ أنسخُ كلاماً للسادةِ الذين انحازوا للخلقِ فراعتْني أسرارُه، وانتهبَتْ قلبي علومُه، وأخذَتْ بدني شهوتُه ولذّتُه. فنظرتُ فإذا بوجهي ويديَّ علامةٌ من حبرِ الكتابةِ، فأعجبني هذا الأثرُ الظاهرُ للكلامِ المخبوءِ كأنّهُ إشارةٌ علَى شدّةِ السّفرِ الذي كنتُ فيه، فأحببتُ أن أمشي به للمسجدِ للصلاةِ فيراهُ ربي عليَّ فيفرحَ لي. قلتُ: فَمَنِ السّادةُ المنحازونَ الذين يفرحُ ربُّكَ أنهم انتهَبُوك بالعلومِ؟ قالَ الأستاذُ: أبو ذرٍّ وابنُ الفارضِ ولاوتسِه وامرأةٌ يقالُ لها إمَا جُولدْمَنْ تتكلمُ في الناسِ والأسواقِ.

وقال لي: المفارقةُ تلزمُ الذين يتاخمونَك يخشونَ أن يشتبكوا بأسمائِكَ، أو تَسِمَهم بقلقِكَ ووحشتِك.

وقالَ ليْ: المفارقةُ حيلةُ الذين يريدونَ أن يحوزوكَ عنّي.

وقالَ ليْ: الاصطفافُ اسمٌ لي اتخذتُه لأجلِ خاطرِك.

وقالَ ليْ: الاصطفافُ تجدُه عندَ العَقْدِ.

وقالَ ليْ: الآدميةُ عَقْدٌ، والحوائية عقدٌ، والربانيةُ مآلُ العقدِ عندَ قوائمِ العرشِ.

وقالَ ليْ: قوائمُ العرشِ عندَك لا عندي.

وقالَ ليْ: قوائمُ العرشِ قد تُقابِلُك وهي تسندُ جذعَ شجرةٍ في بُستانِك، أو يَتّكِئُ عليها سِندانُ عاملِ حدادةٍ، أو تَتَّقِدُ في أتونِ الخبزِ الذي يسندُ قلوبَ الخلقِ.

وقالَ ليْ: قوائمُ العرشِ طمأنينةٌ لإنسانيّتِكَ العاملةِ، واتكاءةٌ علَى معناكَ الكاملِ، ومددٌ من لَدُنِّ قلبِك ويديكَ.

وقالَ ليْ: القائمُ بالعرشِ قلبُكَ، والقائمُ على العرشِ معناكَ، فالقيّومُ من أسماءِ قلبِك، والقيّوميّةُ من أحوالِك ومعانيكَ.

وقالَ ليْ: يا قيُّومُ.

وقالَ ليْ: عَقْدُكَ دَمُكَ إزاءَ التُّرابِ، غمراً بغمرٍ وسَيْلاً بِسَيْلٍ. يَدوخُ الدمُ في انعطافةِ العِرْقِ، يَئِنُّ العِرْقُ تحتَ وطأةِ الدمِ، تَضُمُّ إليكَ بقيّةَ عَزْمِكَ، تُغْلِقُ مَسامَكَ، وتضمُّ بَتْلاتِكَ، غضّاً جبلتُكَ وغَضاً تكونُ. ثمّ أنّ هواءً طيباً يَتنَفّسُكَ، وضَوءً مشرقاً يَستضيءُ بكَ، من واردِ خيرٍ حلّ بقلبِك، وخاطرِ شرٍّ نبَا عن ديارِك. يَستحيلُ الدّمُ نَسْغاً وماءَ حَياةٍ، يَنبسطُ العِرقُ يَضْحَى وَريدَ خيرٍ، يَسيلُ أَمري في إهابِكَ، وقدْ سمّيتُكَ الخليفةَ. أَجمعُ لكَ الشّمسَ والقمرَ، فَتَصْدعانِ بالطّاعةِ، ثمَّ لا يَبْقَى شيءٌ منْ كبيرٍ أو صغيرٍ إلا ويَصدعُ. فتقولُ البذرةُ وما شأْني؟ وأُهرَعُ إليكَ في ثيابِ عزَّتي، وأُقَبّلُ جَبينَكَ وأَحْلِفُ عليكَ أنْ تَقُصَّ عليَّ الخبرَ. فَطوبى لي طُوبى، إذْ إنّي حبيبُكَ في النهاراتِ، وحينَ سكونِ الليلِ، وفي العَشِيّاتِ الرياحينِ.

3. موسمُ الهجرةِ

(وهو الخروجُ الأوّلُ)

ومن أحوالِه الجهةُ وعلومُ الأسفارِ وشغافُ الربانيةِ وجسدُ الأرضِ والهجرةُ الآخرةُ والشتاتُ والطريقُ والعبارةُ ومعنَى المعنى والنهوضُ والجسدُ والاقترافُ

وفيهِ انْتعلتُ بغلتي فتعمَّمَتْ بي، فلمّا استويتُ عليها استوتْ لي. فساقتني في أقطارِ الأرضِ سائحاً، وفي مدائنِها مُهاجراً، أنظرُ أيَّ ترابٍ يكونُ بستانيَ، وأيَّ طينٍ يصيرُ نخلي وأعنابي. فخضتُ السهولَ العظيمةَ، وجئتُ الحواضرَ والبادياتِ، وغَشِيتُ السّماحَ والوعرَ. فكَشَفْتُ عن كلِّ أرضٍ مَعْدِنَها التي هيَ منهُ، وفضحتُ أرومَتَها التي إليها مآلُهَا. وعالجتُ التّرابَ بعدَ الترابِ أَنظرُ أيّ لونٍ هوَ، وقلبي أحمرُ. وقدَّرتُ ما بينَ الحبّةِ والحبّةِ هلْ تَثْبُتَانِ فيقومُ بِهما غذاءُ الأَرضِ. وعَاينتُ السماءَ كيفَ ماؤُها، والرّيحَ من أين قُدومُها. وعقدتُ ما بين مواقعِ النّجومِ، وأثبتُّ منازلَ الكواكبِ. فأجريتُ الفصولَ على المكانِ، وقدّرتُ مواسمَ الكَّدِّ والكدحِ، وحَسَبْتُ كمْ يَقْعُدِ الليلُ، وكمْ يَسري النّهارُ. وقايستُ الماءَ ببعضهِ، فهذا جارٍ، وهذا قار. وضربتُ بالفأسِ كلَّ أرضٍ نبتَ عُشبُها أو صافَ، فذهبَ في بدنٍ ورجعَ عن آخرَ. وأرخيتُ عَنانَ الغُيومِ فَجَاءتني بأحمالِها، فركِبتُها إلى أقطارِها التي قُدّرتْ عليها، فأعيَتْني عُلومُها وأحوالُها. فنزلتُ عنها وأتيتُ الناسَ أطلبُ علومَهم، فإذا هي من القحطِ. فاتَّبَعْتُ حيوانَهم قفواً قفواً، فنزلتْ بي على مراعيها. فإذا هيَ أممٌ عظيمةٌ شُؤونُها وشُجونُها، فدافعَتْني عن حياضِها، وأَخرجتني إلى أرضٍ غيرِ أرضِها. فجاوزتُها بعدَ لأْيٍ حتى دخلتُ حِمى قومٍ أقاموا سقائفَهُم، وأَعْلَوْا بُنيانَهم، وأَجْرَوْا ماءَهُم، وبَذروا حِصصَهم، وصارتْ لهم أيامٌ يَسردونَ أخبارَها، وقُرونٌ يَرْوُونَ أَحْوالَهَا، وأحلامٌ وأوهامٌ اختلطتْ بالأرضِ فصارتْ من عجينتِها، وأصلِ معدنِها. فنزلتُ عليهم أطلبُ حصّةً أجعلُها بُستانيَ الذي وُعِدْتُ. فَسلّمَ عليّ قومٌ وجفلَ عني قومٌ وقالوا: سَحْنَتُكَ غيرُ سَحْنتِنا ونحنُ من طينةِ هذهِ الأرضِ، وها أنتَ تُريدُ حصّةً ولم يختلطْ دمُ آبائِكَ بكَرْمِها،

ولم يَخدِشوا وجهَهَا، ولم يُوارَوْا قلبَها. فلا هيَ لكَ حبيبٌ ولا أنتَ منها قريبٌ. فامضِ إلى غيرِ حِمىً، وانظرْ أرضاً تَبتدؤها، هُوَ خيرٌ لكَ وأَبقى. فقلتُ: واللهِ لم أجئْ غَازياً ولا غالباً، بلْ طالبَ ظلٍّ وحصّةٍ، وهذهِ أرضُ اللهِ، فإن كانَ حبلُ آبائِكُم يَصِلُكُم بها فإنها جُعلتْ للإنسانِ، وأنا الإنسانُ الكَامِلُ، وَسِعتُ كلَّ شيءٍ حبّاً. فإنْ رأيتُم أَكرمتُموني فأُكْرِمُ أرضَكَم فتصيرُ مني وأَصيرُ منْها، ويُزَادَ في بَدَنِها بمقدارِ بَدَني. وأنا رَجُلٌ عاملٌ مُستخلفٌ، فاحْكموا إنْ كُنتمْ عازمينَ. فاخْتلفوا فيْ أَمْرِهِم وطالَ جِدَالهُمْ زمناً حتى لَبستُ ثياب القنوطِ، ودُختُ دَوَاخاً وتَصَدّعَ بَدني منَ المسيرِ. فبدّلتُ قولاً غيرَ الذي قيلَ ليْ، وتهيّأَ لي أن الأرضَ موعودةٌ أحكرُها عن أهلِها، وأحوزُها عن ذراريها، وأَجبي أسواقَها، وأَغنمُ غلالَها، فهُرِعَ إليَّ كادحاً وبعينيهِ هَوْلٌ، وقالَ لي:

أرضُ الإنسانِ فلحٌ في سبيلِ الخلافةِ
فلا تنبغي للوعودِ المبجّلةِ، والحُكْرَةِ الشائنةِ

وقالَ ليْ: هي ذيْ أرضي تَقَاسَمها الحاكرونَ، ثمَّ وَضعوا اسمي عَليها، فهلّا غافلتَهُم ومَحوتَهُ عنْ كلّ بابٍ؟
وقالَ ليْ: أنا عدلُ الأرضِ وميزانُها، وأنتَ صاحبُ حرثِها وغلالِها، والخلقُ شهودُها وشركاؤها.[1]

[1] قالَ شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ: من قالَ "الحقُّ موزّعُ الأرزاقِ" جَهِلَ مبدأَ الأمورِ

وقالَ لِيْ: إنْ سيّجتَ أرضَكَ عنْ الإنسانِ سيَّجتَ اسمَك عن اسمِه، وإنْ حُزْتَها عنِ الشِّرْكَةِ حُزتَ معناكَ عن معناهُ.[2]

وقالَ لِيْ: في كتابِ الخلافةِ لا يَطَأُ الأرضَ حديدٌ غيرُ فأسِك.

وقالَ لِيْ: لا تخدِش من الأرضِ رُكنين: ما سكنَ إليه الحيوانُ الغامرُ فلا يستطيعُ عيشاً بدونِه، وما اتخذه نباتٌ كثيرٌ لا تقدرُ أنْ تأتي بمثلِهِ.

وربّما أشركَ. قلتُ: لِمَ؟ فقالَ: خلطَ الأسبابَ بالحقِ وهيَ غيرُه، وإنما الرزقُ تابعٌ للأسبابِ التي يعملُها البشرُ منْ سلطانٍ ونظامٍ وجبايةٍ وترتيبِ معاشٍ. فقلتُ: فما يفعلُ الواحدُ منّا؟ قال: يفهمُ الأسبابَ ثمّ يُغَيِّرُ فيها حتى يُصْلِحَ أمرَ نفسِه وأمرَ جماعتِه، ولا يعودُ يتكلّمُ عنِ الحقِّ. قلتُ: فلم أعرفْ أن السكوتَ عن الحقِّ ينبغي للإنسانِ إلا في هذا المقامِ الجليلِ.

[2] قلتُ: الشِّركةُ في الأرضِ من عفوِ الحسابِ والحقوقِ التي يُنكِرُها الظالمونَ لمصلحتِهم، أو المظلومونَ لسطوةِ علومِ الظلمِ عليهم. وهي، أي الشِّرْكَةُ، تكونُ في النّسقِ الذي تقومُ عليهِ المعائشُ، والترتيبِ الذي ينتظمُ الأرزاقَ أوّلَ الأمرِ. غيرَ أنها تصحُّ في نوافلِ الأشياءِ حتّى يقومَ العدلُ الكاملُ. فقد كانتْ أرضُ زاويتِنا الصوفيّةِ واسعةً من الجهةِ الشرقيّةِ، تفصلُ الزناقي الطرابلسيةَ عن السوقِ العموميّ الذي للصناعِ والعاملينَ. فيُرْغَمُ الناسُ علَى المشيِ مسافةً حولَ سورِ الزاويةِ الواطئِ حتى يلحقوا بالجهةِ الغربيةِ حيثُ السوقُ، وكذا في إيابِهم، فيتأذَّونَ بالشمسِ والحجرِ الكثيرِ والمسافةِ الغالبةِ. فأمرَنا الإمامُ أن نجعلَ باباً في كلِّ جهةٍ من جهاتِ السورِ، ونَرْصُفَ بينهما ممشًى يتّسعُ لإنسانينِ يحملانِ حاجاتِهما أو أدواتِ عملِهما، ونظلّلَهُ بالسَّعْفِ عن الشمسِ والمطرِ، ثم نفتحَهُ قبلَ السوقِ بساعةٍ ونغلقُه بعدَه بساعةٍ أخرَى. قالَ الإمامُ: فإنَّ مَشْيَ الخلقِ في أرضِنا يحفظُها عنِ الآفاتِ، ويزيدُ في بركةِ العلومِ، ويحولُ بيننا نحنُ وبينَ الاستئثارِ الذي تَشِيْنُ له القلوبُ.

وقالَ ليْ: مَنْ ذهبَ في الأرضِ ذهبتْ فيهِ، فأبانتْ عنْ أحوالِها، وأَظهَرتْ أسرارَها، وكشفتْ عُلومَها وأخبارَها، فلا يَرجعُ بغيرِ الحكمةِ الكاملةِ.

وقالَ ليْ: منْ قعدَ عن الأرضِ قعدتْ عنهُ، جسدُها ومعناها.

وقالَ ليْ: هِجرتُكَ في الأرضِ هجرةُ الأرضِ فيكَ.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ قلوبُهم تجري كماءٍ مركوضٍ لا يصيبُها وهنٌ ولا تصيبُ وهناً.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ قلوبُهم عن المضاجعِ تطلبُ السفرَ فتتهيّأُ لها علومُ الأسفارِ.

وقالَ ليْ: علومُ الأسفارِ استئنافٌ لمعرفةِ الأرضِ التي خرجتَ عنها وانعقادٌ بمعارفِ الأرضِ التي تدخلُ إليها.

وقالَ ليْ: علومُ الأسفارِ لا تحصلُ للقلبِ المقيمِ، فمن هذا يلزمُك أن تمشي.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ أجسادٌ منْ جسدِ الأرضِ.

وقالَ ليْ: جسدُ الأرضِ هيئةٌ للاسمِ الذي ناديتُك به حينَ أتَى عليكَ حينٌ من الدهرِ.[3]

---

[3] قالَ الإمامُ: هذا إشارةٌ إلى الكلامِ المعروفِ "هلْ أَتَى علَى الإنسانِ حِينٌ منَ الدّهرِ لَم يَكُن شيئًا مَذكُوراً"، وهو الحينُ الذي يسبقُ الحديقةَ كلّها. قالَ: وفيه كانَ الإنسانُ مختلطاً، جسدُه وقلبُه، بمادّةِ الكونِ لا يتميّزُ عنها، وهو في تَنُّورِ النجومِ يجاورُ الجبلَ الشامخَ، والنملةَ الضعيفةَ، والكوكبَ السائرَ، في الصورةِ الكامنةِ لكلِّ هيئةٍ من هذهِ الهيئاتِ. حتّى جاءَ حينُ الإنسانيةِ فخرجتْ "كُنْ" من لَدُنِّ اسمِ الرحمةِ فكانَ ما كانَ. قالَ: ومن هذا تجدُ عندَ البني آدم، الذي توغَّلَ في العلومِ، شوقاً لهذا الحينِ من الدّهرِ يريدُ أن يرجعَ إليه رجوعَه إلى الرّحمِ الأولَى. فاعلمْ يا تلميذُ أن انفصالَنا عن جسدِ الكونِ، وانقطاعَنا عن البوتقةِ الباكرةِ للنجومِ، وجعٌ يصيبُ العارفينَ والعاشقينَ وأصحابَ القلوبِ في غالبِ أحيانِهم الإنسانيةِ. وهو وجعٌ لازمٌ لمن أرادَ الآدميّةَ الشاملةَ والحوّائيّةَ الغامرةَ. فتأمّلْ.

وقالَ لِيْ: جسدُ الأرضِ سياقٌ للّذةِ التي رجفَ لها قلبُك حينَ كلّمتُك أوّلَ الأمرِ.

وقالَ لِيْ: جسدُ الأرضِ انبثاقٌ للمعنَى الذي تبرؤُه من حافّةِ قلبِك أو قدميكَ.

وقالَ لِيْ: حافّةُ قلبِك أن تصدعَ، وحافّةُ قدميكَ سطوةُ الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ يخوضونَ الأرضَ بقلوبِهم فيصيرونَ قلبَها، وبأقدامِهم فإذا هم تخومُها التي ضجّت بالمعائشِ والعلومِ.[4]

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ أمّةٌ واحدةٌ إذا خرجتْ إلى الأرضِ تفرّقتْ حتى تكونَ الأرضُ جميعُها من أسمائِهم وأحوالِهم.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ واقفونَ ببابِ النبوّةِ يكادُونَ يدفعونَهُ فيصيرونَ بأرضِها سائرينَ.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ أهلُ أرضِ النبوّةِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ يَشهدون لي بالأحَديّةِ البِلاليّةِ ثم يَنفِرونَ إلى يثربَ أو الحبَشةِ، سِيّانِ.

وقالَ لِيْ: نخيلُ يثربَ كطَلْحِ الحبشةِ، كلاهُما يَطلعُ في أرضِ الهجرةِ التي تنبغِي

[4] لم يكنْ في الناسِ ألطفُ حضوراً من خيّاطٍ جوّالٍ من طَمْيِ النيلِ جلسَ بناصيةِ زاويتَنا الصوفيّةِ باطْرابلِسْ وقتاً، يُرَتِّقُ الثيابَ، ويُصلحُ النعالَ، ثم يسلّمُ على الناسِ ويُحدّثُهم بأطيبِ الكلامِ، ويقول بعضاً من الشعرِ والحكيِ المرسَلِ بلهجتِه النيليّةِ ذاتِ الغوايةِ. قالتْ أُستاذتي زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ: إن الكونَ بين يديه يُقَلّبُهُ كما يشاءُ ولو أرادَ لحلفَ على الله فأخرجَ الشمسَ من مغربِها أو طوَى الأرضَ في خطوةٍ واحدةٍ، ولكنّهُ محفوظٌ عن الطغيانِ برحمةِ العملِ الذي يشتغلُ به عن هذا. قلتُ وما رحمةُ العملِ؟ قالتْ: معرفةُ العالمِ بالمباشَرةِ.

لكَ.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ ماءُ الأرضِ.[5]

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ هجرتُهم منَ الخلقِ إلى الخلقِ، ومن العالمِ إلى العالمِ، ومنّي إليّ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ التي تفارقُ بها خلقي، علَى جهةِ القلبِ، تنفصلُ بها عن شغافِ ربانيّتي.

وقالَ لِيْ: شغافُ الربانيّةِ تنبغِي لكَ وتنبغِي أنتَ لها، فكأنّكُما رَتْقٌ واحدٌ.

وقالَ لِيْ: شغافُ الربّانيةِ تَشملُك وأنتَ في تُخومِ الهجرةِ تحسَبُ أنّكَ تَقطّعتْ بكَ السُّبُلُ وغابتْ عنكَ الجهةُ الآخرةُ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ التي تَصِلُكَ بالخلقِ تُدَشّنُ فيكَ معنَى الإنسانيّةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ التي تجتثُّك من مكانٍ تغرسُكَ في كلّ الأمكنةِ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ التي تَبْدَؤُها تثابرُ بكَ إلى سِدْرةِ المنتهَى.

---

[5] كنّا إذا بَلغنا في العلمِ مبلغاً معروفاً، وبنا جَهْدٌ وطاقةٌ، أخرَجَنا شيوخُنا عن الدرسِ إلى ظاهرِ البلدِ وقالوا سيحُوا في الأرضِ. فنذهبُ في البلادِ أياماً وأسابيعَ لا نعلمُ حيَن نصبحُ أينَ نُمسي. فإذا عُدنا هَرَعَ إلينا شيوخُنا وقالوا: ما أوتيتُم من علمٍ؟ أفيدونا فإنّ لنا عليكُم دَيناً. فنظلُّ نخبرُ عن البلادِ وأهلِها وكيفَ قُمنا وماذا فعلنا حتى يتّكئَ الشيخُ منهُم ويقولَ: العلمُ في بطونِ الأرضِ ونحنُ هنا في الظلّ الخائبِ. فيستأذنونَ في السياحةِ يوغلونَ فيها فلا نراهُم مُدداً من الزمنِ. قلتُ: ومنهُم شَيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصور، شيخُ الغناءِ والبرهانِ في بساتينِ سلوقَ وزوايا البطنان، ذهبَ إلى ديارِ قومٍ بعيدي النُّجعةِ من أرضِ كانم، فأقامَ عندَهم لا يبرحُ، ثم كتبَ إلينا: عندَهم منَ العلومِ والأحوالِ ما لا تَسَعُهُ سياحةُ سنةٍ أو مثلِها، فإن فهمتُ علومَهم وشؤونَهم رجعتُ. فعادَ بعدَ عشرِ سنينَ ومعهُ زوجةٌ منهُم، وذَراري، وأسفارٌ كثيرةٌ ومعارفُ.

وقالَ لِيْ: السِّدرةُ علامةٌ عليَّ لأني جهةُ الهجرةِ الآخِرةِ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ الآخرةُ مقصدُ القوافلِ التي تنشدُ الأسواقَ والعلومَ وبشاراتِ القلوبِ في إيلافٍ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ الآخرةُ تنبغي لها الهجرةُ الأولَى لأنّ الذي لا يسيرُ في الطريقِ لا يصلُ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ وطنٌ على الطريقِ إليّ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ تذهبُ بكَ من أرضٍ عجنتَها إلى أرضٍ لم تَعجِنها، ومن وقتٍ ابتذلتَهُ إلى وقتٍ لم تَبتذِلهُ، ومن قلبٍ أَلِفَهُ صدرُك إلى قلبٍ أوسعَ من صدرِك ومن العالمِ.

وقالَ لِيْ: الهجرةُ موضعُ تقلّبِ قلبِك في الكونِ حتى تكونَ له المسرّةُ.[6]

وقالَ لِيْ: الذي يَشُدُّ الرِّحالَ إليَّ يُشرفُ عليَّ بقلبِه قبلَ أن يستقرَّ طرفُ نعلِه على أوّلِ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ يَلزمُه أن يكونَ جميعاً في مُقامِ الهجرةِ، قلبُه وعقلُه وبدنُه.

وقالَ لِيْ: الذي يهاجرُ بعضُه دونَ بعضٍ يتهافتُ على الطريقِ ويتداعَى قبلَ

---

[6] قالتْ سَيّدتي الواجدةُ بالله سمرُ الزمانِ المهديّة، سيدةُ المواجدِ والإشارات في واحاتِ سبها وغات: "له" أي لقلبِك أو للكونِ، سِيّانِ. والكونُ أثرُ الرحمنِ، فمن أرادَ الجهةَ التي فيها اسمُ الرحمنِ سعَى إلى مسرّةِ الكونِ فَيَصِلُ. قالتْ: يَصِلُ.

فأمّا من قصدَ الرحمنَ رأساً فَيفقدُ الأثرَ ويُضيّعُ الجهةَ، ولعلّهُ تعلّقَ بأستارٍ نسجَها سلطانٌ بعرقِ أجراءَ يَظُنُّها القاصدُ من عباءةِ اللهِ وهيَ سُنْدُسُ الشيطانِ وإسْتَبْرَقُ الطاغوتِ. قالتْ: لا يَصِلُ.

الوصولِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ أرضٌ قَلِقَةٌ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ حركةٌ في ضميرِ الكونِ يجري لمستَقرٍّ لهُ.[7]

وقالَ لِيْ: المهاجرُ خليفةٌ يمشي.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ جهةٌ وراءَ كلَّ الجِّهات، فكلُّ جهةٍ تؤولُ إليهِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ جهةٌ أوسعُ من الديارِ، ثم يريدُ أن تَضمَّهُ هذي الديارُ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ قلبُه قُدَّ من سفرٍ فلا يستقرُّ بقلبِه عِلمٌ على مسافةِ حالينِ.[8]

وقالَ لِيْ: إمّا أن تُهاجرَ إليَّ فتُحَشِّمَني أو أهاجرَ إليكَ فأُحَشِّمَك.

وقالَ لِيْ: إن هاجرتَ إليَّ هاجرتُ إليكَ بالمبادرةِ لأن الوقتَ عندي لا عندكَ.

---

[7] قرأَ شيخي الواحديُّ: "لمستقرٍ لهُ" أي للمهاجرِ وهو صيرورتُه خليفةً واستتبابُ الأمرِ لهُ ولذُرِّيَّتِهِ من بعدِه، فهذا هو قرارُه. وقرأتِ العارفةُ المهديّةُ: "لهُ" أي للكونِ وهو أن يتبدّلَ حالُ الكونِ بالهجرةِ فيصيرَ الحديقةَ التي هي مستقرُّ الخلافةِ وعرينُ الخليفةِ. قلتُ: وكِلا القراءتينِ حقٌّ متصلٌ بأخيهِ، ذلكَ أن الضميرَ إما أن يعودَ علَى المهاجرِ من جهةِ وعيِه بذاتِه، وإما أن يؤولَ إلى الكونِ من حيثُ هو محلُّ الضمائرِ كلِّها.

[8] لَبِسَ تلميذٌ من جماعتِنا ثيابَ الهجرةِ وصارَ يقولُ: أنا علَى الطريقِ فخلّوا بيني وبيني. فشكوتُه إلى الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيّ، رفيقِ الكادحينَ، وملجأِ المظلومينَ، إمامِ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمِ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، فقالَ لي: امضِ فاسألهُ عمّا بدا لكَ ثمَّ عاوِدْهُ بعدَ ثلاثِ ليالٍ فإنْ تشابَهَ جوابُهُ فقد قعدَ على نفسِ الحالِ ثلاثاً ولم يَعُدْ علَى الطريقِ. فأتيتهُ فسألتهُ عن اسمِهِ ما هو، فقالَ التلميذُ: خَميسٌ. فعاودتُه بعد ثلاثٍ فقالَ: حليمةُ. فعرفتُ أنه مسافرٌ في مقامات الهوَى لا يلبثُ على حالٍ ولا يَستغرقُه مقامٌ. فأخبرتُ التلاميذَ أن يُسَوُّوا لهُ الزادَ ويعذروهُ، ففعلوا.

وقالَ ليْ: إن هاجرتَ إليَّ تريدُ أن تُقيمَ عندي خرجتْ عنكَ هيبةُ الهجرةِ، وإن هاجرتَ إليَّ تريدُ مؤونةَ الطريقِ فحَسب، ذهبَ قلبي معكَ فصيّرتُه زادَ السفرِ ومؤونةَ الشّتاتِ.

وقالَ ليْ: قلبي المؤونةُ.

وقالَ ليْ: إن أتيتَني فرداً أصلحتُ من شأني لخاطرِك، وإن أتيتني جمعاً أصلحتُ من شأني وشأنِ العالمِ وخرجتُ لكَ.

وقالَ ليْ: بابُ الفردِ إلهامٌ، وبابُ الجماعةِ حِسبةٌ مكينةٌ.

وقالَ ليْ: الفردُ يجدُ حبسَه وانعتاقَه في الجماعةِ لأنه في الجماعةِ تسنحُ له أسبابُ القهرِ وسبلُ الثورةِ.

وقالَ ليْ: الفردُ الذي ليس في الجماعةِ تتبدّدُ فرديّتُه، والجماعةُ التي ليسَ لها أفرادٌ تصيرُ غُفلاً عن معاني الصمديّةِ.

وقالَ ليْ: المهاجرُ قلبٌ مفارقٌ.

وقالَ ليْ: المهاجرُ جسدٌ سادرٌ يرعى عشبَ السهولِ، ويحفظُ الأغنياتِ، ويَهيمُ في البرّيةِ.

وقالَ ليْ: الجسدُ السادرُ أغنيةٌ.

وقالَ ليْ: الجسدُ المهاجرُ يصيرُ معنى الأرضِ التي هيَ مقصدُ الهجرةِ.

وقالَ ليْ: الجسدُ المهاجرُ هو الراحلُ والمرتَحَلُ إليه، والمرتَحَلُ عنهُ.

وقالَ ليْ: الجسدُ المهاجرُ هو فعلُ الهجرةِ مُتَحَيِّناً في فضاءِ الإمكانِ.

وقالَ ليْ: الأرضُ التي تهاجرُ عنها تُحَدِّثُ عنكَ حتى تلقاكَ في دورةِ الحياةِ والموتِ.

وقالَ ليْ: الأرضُ التي تهاجرُ إليها تُسَمّيكَ بأسماءَ لم أُسَمِّها لكَ.

وقالَ لِيْ: الأرضُ التي تهاجرُ عنها أمٌّ ثَكلى باسمِك الذي امّحَى عن طينِها.
وقالَ لِيْ: الأرضُ التي تحطُّ فيها الرِّحالَ تَصيرُ هي الدارَ الآخرةَ.[9]
وقالَ لِيْ: الدارُ الآخرةُ استئنافٌ لأفقِ القلبِ، واحتمالٌ لجهاتِ الإنسانِ.
وقالَ لِيْ: أفقُ القلبِ المهاجرِ أكثرُ إمعاناً من المكانِ، وأشرسُ من نصلِ الجهاتِ.
وقالَ لِيْ: أنتَ جهاتُ الأرضِ المتربّصةُ بالإنسانِ، ووقتُها المشدودُ إلى الريحِ، ونصلُها المفتوحُ على معناكَ.

[9] قالَ الإمامُ أحمدُ: لما قامَ أهلُ الجزائرِ على أجلافِ الفرنسيسِ، استنهضَ الليبيونَ عوائلَهم وعيالَهم يَجمعون الأموالَ، وبعضَ الآلةِ، والحريرَ الذي تتزيّنُ به بناتُهم، يُريدون مَدَدَ المجاهدين. فجعلوا أبي الشيخَ محمداً بنَ إبراهيمَ الدُّرّي على بِعثةٍ للأوراسِ من سبيلِ غْدَامِسْ. فأخذني معه، وأنا فتى في الرابعةَ عشرَةَ، أخدُمه وأخدمُ بعثةَ المددِ والزادِ. فلمّا نزلنا غدامس، وهي بابُ البلادِ الجزائريةِ، وجدنا بها الشيخَ بلخير، صاحبَ الحديقةِ، وهو في آخرِ أيامِه، يقومُ بالدّرسِ والجهادِ. فسمعتُ منه أعجبَ الكلامِ وأشدَّ المعاني جلالاً، ولعلّي قرأتُ عندَه بعضاً من هذهِ الحديقةِ فهي كانتْ في تمامِها من غيرِ الإشاراتِ الغدامسيّة. فسألَنا الشيخُ عن حالِنا فلمّا علمَ بمؤونةِ الهجرةِ والجهادِ تَهلّلَ واستبشرَ وفزعَ وفزعَ تلاميذُه بالمددِ والسندِ. فلما خرجْنا ووصلْنا الأوراسَ تُوفّيَ والدِي بالحُمّى وصارَ بلدُ المجاهدةِ مثوًى لجسدِه وبدنِه. وعدتُ أنا فوجدتُ الشيخَ الغدامسيَّ قد رحلَ عن الدنيا. فجلستُ إلى أهلِ طريقتِه وأخذتُ عنهم وصرتُ منهُم عاماً أو نحوَه ثم نَحَوْتُ إلى اطرابلس. فانظرْ كيفَ بعدَ خمسينَ عاماً تأتيني يا موسى بكتابِه هذا من هجرتِك أنتَ لغدامس وأنا جاوزتُ الستينَ من عمري. فكأنَّ الحديقةَ لاحتْ لي في صبحِ الحياةِ الباكرِ ثم قابلتني في عشيَّتِها السّادرةِ. وهذا كلُّه من معاني الهجرةِ، وأسماءِ التَّرحالِ والجهادِ، وبركاتِ الفداءِ والمصابرةِ.

وقالَ ليْ: جهاتُ الأرضِ استلابٌ.

وقالَ ليْ: كلّ جهةٍ تسلبُ منكَ جسداً، وتنهبُ من زادِك الخبزَ والماءَ. فمن هذا تَلزمُك مؤونةُ الديارِ في كل وقتٍ.[10]

وقالَ ليْ: الجهةُ غوايةٌ.

وقالَ ليْ: الجهةُ نكايةٌ.

وقالَ ليْ: الجهةُ نكايةٌ بكَ من حيثُ هي اغترابٌ لجسدِك واجتثاثٌ لمعناكَ.

وقالَ ليْ: المهاجرُ يَنكأُ جراحَ الأرضِ برجليهِ، ويوجعُ كبدَها بعصا السفرِ، ويطأُ دمَها المسفوكَ على عتبةِ المغادرةِ.

وقالَ ليْ: طوبَى للمهاجرينَ لأنهم لا يخدِشونَ من الأرضِ غيرَ موضعِ أقدامِهمْ،

---

[10] قالَ تلميذٌ: أريدُ أن ينقدحَ قلبي بالغيبِ، فهو يرجعُ إليّ مُطفأً ليسَ عليهِ من وعثاءِ السفرِ غيرُ الرهقِ. قالَ العرْبي بن مْهيدي: فهلْ يعتبرُ قلبُك هذا العالمَ الذي هو ونحنُ في سياقِه؟ قالَ التلميذُ: يعني، بعضَ الاعتبارِ. قالَ العربي: فأنتَ أرسلتَهُ في جهاتِ الغيبِ وليسَ لهُ ديارٌ يتشوّقُ إليها أولَ الأمرِ، ولا وطنٌ يتوحّشُ له، ولا سِدرةٌ مبتدًى يتقوّتُ منها ويتولّهُ بها. فهو نهضَ إلى السفرِ بلا صُوّانٍ ولا عودٍ، والذي لا صوانَ له ولا عودَ كيفَ ينقدحُ أو كيفَ يتوقّدُ؟ قالَ التلميذُ: فأفعلُ ماذا؟ قالَ العرْبي: اغرسْ نفسَك في طينِ هذهِ الأرضِ، أو في طينِ بنتٍ سِيّانِ، وانخرطْ في أوجاعِ الخلقِ وتوغّلْ في الشّهودِ. حتّى إذا أفزعتَ الإبلَ، إبلَ القلبِ، إلى السفرِ في جهاتِ الغيبِ، كانَ لكَ صوّانٌ قادحٌ، وعودٌ يتّقِدُ، وصرتَ علَى أُهبةِ التوهّجِ. قالَ التلميذُ: وما أهبةُ التوهجِ: قالَ العربي: النبوّةُ، نُبُوَّتُكَ أنتَ.

فكادَ التلميذُ أن يضيءَ من المعاني، أو يصدعَ بـ إقرأْ، وهو بعدُ لم ينغرسْ، ولم ينخرطْ، ولم يتوّغلْ.

ومن الهواءِ غيرَ وجوهِهم التي تلفحُها شمسُ الصباحِ، ومن الوقتِ غيرَ لحظةِ المغادرةِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرونَ الذين يصلونَ، غيرُهم وهم يطأونَ أوّلَ الطريقِ.[11]

وقالَ لِيْ: القلبُ الذي يسقطُ مُجهداً علَى طريقِ الهجرةِ يَثوي الهجرةَ في خفقتِه الأخيرةِ.

وقالَ لِيْ: قلبُ المهاجرِ شراعٌ بِرَسْمِ الريحِ.

وقالَ لِيْ: المهاجرُ يمرُّ في طريقِ الهجرةِ عابراً غيرَ أن الطريقَ يَظَلُّ فيه إشارةً بعلومِ

---

[11] جمعَ الإمامُ أحمدُ التلامذةَ في عامٍ خصيبٍ فقالَ: إن من ضروراتِ الترقِّي الرُّوحِيِّ المجاهدةُ والمصابرةُ. فعرفنا أنّهُ يريدُ أمراً عظيماً. فقالَ: 100 من الإبلِ الموسومةِ الضامرةِ تمشون بها من ديارِها في نواحي أكاكوسَ إلى مراتِعها في الحمادةِ الحمراءِ مسيرةَ 18 يوماً وليلةً تُؤْجَرُونَ عليها، وتَنهلُونَ علماً لا يكونُ في الكتبِ، وتدخلونَ إلى مُقاماتٍ جليلةٍ لا عتبةَ لها في الزوايا والدروسِ. قلتُ: فمضيتُ أنا ونحوَ العشرةِ من التلاميذِ، وتلميذةٌ، فنزلنا بلدةَ غاتَ الطيبةَ، وانتظَمْنا مع الرُّعاةِ، وأخرَجْنا الإبلَ إلى ظاهرِ الصحراءِ، فقطَعنا بها 700 كيلومترَ نشهدُ أحوالَها، ونسمعُ حَنينَها، ونفهمُ عنها بعضَ شوقِها وإلهامِها. وأَخذْنا من الرعاةِ علوماً وأعمالاً متعلقةً بالأرضِ، والحيوانِ، والسفرِ طلباً للرزقِ. وسَمِعنا حَدْوَ المسيرِ يَشدو به بعضهم وفيه إلهامٌ وتَجَلٍّ وكشوفاتٌ عظيمةٌ. وعرفنا عن أنفسِنا مواطنَ قوةٍ وضعفٍ لم نكن نحفظُها من قبلُ. فلما أُبْنا إلى طمأنينةِ الزاويةِ الصوفيّةِ، في حاضرةِ اطرابلس السَنيَّةِ، قالَ الإمامُ: إني أرَى في وجوهِكم أثرَ الألوهيّةِ التي عَجَنَتْ أرواحَكم بأجسادِكم، وعلامةَ الربانيةِ التي رَعَيْتُمْ بها الإبلَ وحفِظتُموها عن العطشِ والجوعِ والخوفِ، وإشارةَ الإنسانيةِ التي جاهدتُّم بها فعَبرتُم بالحيوانِ إلى مرعاهُ وأنتم تكدحونَ وتفهمونَ.

هذا الطريقِ.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ بعضُ أشلاءِ الطريقِ.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ شتاتُ الطريقِ.

وقالَ ليْ: شتاتُ الطريقِ حضرَتي في ثيابِ السفرِ والمكابدةِ.

وقالَ ليْ: الشتاتُ أسماءُ الإنسانِ الذي تهيّأتْ له الخلافةُ على الطريقِ.

وقالَ ليْ: الإنسانيّةُ شَتَاتُ المهاجرِ وأوصالُه التي تَقَطَّعَتْ وسُبُلُهُ التي تناوشَتها الجهاتُ.

وقالَ ليْ: الشّتاتُ سبيلُ المهاجرينَ.

وقالَ ليْ: الشتاتُ وجدٌ بقلبِ الإنسانِ يَلُمُّ العالمَ في خفقةٍ واحدةٍ.

وقالَ ليْ: الشتاتُ أسماءٌ للإنسانِ المهاجرِ.

وقالَ ليْ: الشتاتُ حواضرُ للوجعِ الذي بالإنسانِ، وبي.

وقالَ ليْ: الذي يتشتّتُ في العالمِ قلبُك قبلَ جسدِك، واسمُك قبلَ دمِك، ومعناكَ قبل رداءِ السّفرِ.

وقالَ ليْ: أهلُ الشّتاتِ من رحمٍ واحدةٍ يظنّونَ أنهم مقطوعونَ من شجرِ الأقاليمِ.

وقالَ ليْ: أهلُ الشّتاتِ يرجعون إلى خفقةِ قلبٍ واحدٍ بوطأةِ قدمٍ باكرةٍ وهُم يحسَبون أنّهم اقترَفتْهم الوديانُ والسّهولُ.

وقالَ ليْ: المهاجرُ يفكّكُ الأنظمةَ التي تصدأُ بها الأشياءُ.

وقالَ ليْ: بلا انفكاكِ النُّظُمِ التي عليها الأشياءُ لا تقدرُ أن تعقِدَ نظاماً، وبلا انحسارِ الموجِ لن يتقدّمَ موجٌ جديدٌ، وبلا أفولِ الشمسِ لن يبزغَ القمرُ والنجومُ وترى الفضاءَ.

وقالَ ليْ: الإنسانُ اقترافُ الهجرةِ.[12]

وقالَ ليْ: الذي يقترِفُك قد تقترِفُهُ في الوقتِ فيصيرُ منك كما كنتَ منهُ في أوّلِ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الذي تَبْرَؤُهُ الهجرةُ مهاجراً قد لا يفتأُ ماشياً في أرضِها حتّى تصيرَ الهجرةُ بعضاً منه وهو كانَ منها أوّلاً.

وقالَ ليْ: الذي يحصلُ عنه المعنَى الذي اقترفَه مبدأَ الوقتِ، صارَ معنَى المعنَى.

وقالَ ليْ: معنَى المعنَى مقامُ العارفينَ الذين يحتسبُ العالمُ نفسَه عندَهم وهمْ يتَحشّمونَ من المُشابهةِ.

وقالَ ليْ: الذينَ يجِدُون أسمائي عندَهم فيتحشّمونَ يزيدونَ في المشابهةِ وهم مشوبونَ بحُمرة المعاني الجليلةِ.

وقالَ ليْ: المهاجرونَ العارفونَ لا يَسْتقرّون علَى اسمٍ من أسمائي وإلا خرجوا عن مقامِ الهجرةِ ودخلوا أحوالَ الوطنِ.

---

[12] قلتُ: عندَ أهلِ العلمِ المكينِ أنَّ الإنسانَ في فجرِه الأوّلِ انفصلَ عن رِبْقَةِ الأفقِ الحيوانيّ وصارَ عارفاً ناطقاً ماشياً في أرضٍ بعينِها، لعلّها في القرنِ الإفريقيّ. فبعدَها خرجَ في آلافِ الأعوامِ إلى ما يُجاورُها من الأرضينَ. فهو كلّما دخلَ أرضَ عشبٍ أو شجرٍ أو جبلٍ أو ماءٍ كثيرٍ أخذَ من كلِّ سياقَ معرفةٍ، وتجربةٍ، وهيئةٍ جسديّةٍ ولغويّةٍ وفكريّةٍ. ولولا هذا السفرُ لظلَّ الإنسانُ بائسَ الصورةِ، أحاديَّ الفكرةِ، ضيّقَ الأفقِ، ذا صيرورةٍ واحدةٍ. فمن هذا انتسبَ الإنسانُ للأرضِ التي هاجرَ إليها ثم توطّنَ بها حتّى اختلطَ دمُهُ بمائِها وجِلدُه بطِينها وقلبُه بمعناها، فاتّسعَ منها فضاءُ الإنسانيّةِ وتعدّد معناها. فيَصِحُّ القولُ أن الهجرةَ اقترفتِ الإنسانَ لأنها أولُ الفتوحِ التي أدخلتْهُ إلى زخمِ الحياةِ وخِضَمِّ الوقتِ ولُجّةِ الاجتماعِ.

وقالَ ليْ: العارفونَ الذين يتذوّقون أسمائي بشغافِ قلوبِهم هم أصحابُ الأرائكِ السُّندسيّةِ في المقاماتِ العليّةِ لا يُسَدُّ لهم رمقٌ ولا تَبْتَلُّ عروقٌ.

وقالَ ليْ: الذين تَبْتَلُّ عروقُهم منّي يتركونَني ويقولونَ عَلِمنا.

وقالَ ليْ: العلومُ مواطنُ هجرةٍ لا ينبغي لك أن تَنْزِلَ عنها إلى بللِ العروقِ وذهابِ الظمأِ.

وقالَ ليْ: مواطنُ الهجرةِ عبارةٌ غريبةٌ.[13]

وقالَ ليْ: كلما دخلتْ عبارتُكَ إلى أرضِ الغرابةِ أشارتْ إليّ، وإن لم ترَني القلوبُ التي لم تنهضْ إلى السّفرِ فلا اتّصالَ بينها وبينَ تخومِ الغرابةِ.

وقالَ ليْ: الناهضونَ إلى السفرِ يتّسعونَ حتى تصيرَ الغرابةُ اتّكاءةً في الطريقِ الذي يدخلونَهُ كلَّ صباحٍ.

وقالَ ليْ: الناهضونَ إلى السفرِ يستنهضونَ همّةَ الكونِ الذي جلسَ علَى الأعتابِ يخشَى أن يقتحمَ أرضَ الهجرةِ.

وقالَ ليْ: الناهضونَ قوافلُ الكدحِ التي خرجتْ تريدُ أسواقَ المعاني الفريدةِ.

وقالَ ليْ: الناهضونَ يعرفونَ الأرضَ على أَعِنّةِ القلوبِ التي تولّهتْ بالهجرةِ،

[13] قالَ السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ، قوتُ القلوبِ الصابرةِ، وسندُ المواجهةِ الحاسرة، العارفُ العابدُ، وزادُ المجاهدِ، في أريحا والجليلِ والناصرة: كشفَ الغدامسيُّ هنا عن حيلتِه بحيلةٍ أخرَى، فهذي عبارةٌ أعجبُ من الأولَى. "مواطنُ" هي الثابتةُ فيها فحسبُ، أما "الهجرةُ" فمهاجرةٌ، و "عبارةُ" عابرةٌ، و "غريبةُ" لم تَنُشْها الغرابةُ إلا بانتزاعِها من سياقِها وإقحامِها في سياقٍ جديدٍ. قلتُ: وهذا إما عناهُ الشيخُ بلخير، أو هو من عفوِ الكلامِ النُبُوئيِّ إذ يذهبُ به القلبُ في شعابِ المعاني الوعرةِ.

وبحوافرِ الأبدانِ التي ركضتْ أديمَ الوقتِ.

وقالَ لِيْ: الناهضونَ يمشونَ في الوقتِ كما يمشونَ في جهاتِ المكانِ.

وقالَ لِيْ: جهاتُ الوقتِ أوسعُ من صراطِ الوقتِ الذي إن مشيتَ فيه لم تعرفْ كيفَ ترجعُ أو تتقدّمُ أو تحيدُ.

وقالَ لِيْ: جهاتُ الوقتِ تُطلعُ علوماً لا تقدر عليها جهاتُ المكانِ.

وقالَ لِيْ: جهاتُ الوقتِ تخومٌ تنحسرُ فيها المسافةُ، وينحني الضوءُ، ويُسرِعُ الوقتُ ويبطئ رويداً.[14]

وقالَ لِيْ: جهاتُ الوقتُ تَلزمُ الناهضينَ إلى الطريقِ، لأنّ الطريقَ شيءٌ من الأرضِ وشيءٌ من صيرورةِ هذي الأرضِ.

وقالَ لِيْ: الصيرورةُ هي المكانُ في الوقتِ.

وقالَ لِيْ: الناهضونَ يقتحمونَ عليّ مملكتي وأنا أسلّمُ عليهم وأقولُ لا تَقِفوا

---

[14] قلتُ أنا موسى: من الذين يُسافرونَ في الوقتِ أهلُ الخيالِ التقنيّ والرؤى المتصلةِ بالعلومِ الحديثةِ. وهم يَشغُفونَ في أغلبِ الحالِ بالنهوضِ إلى القرونِ التي تَلِي قرنَنا الذي نحنُ فيهِ. فيَتهيّؤُون العالمَ في صورةٍ جديدةٍ من الآلاتِ والتِّقانةِ والنظامِ المستقبليّ والنسقِ الاجتماعيّ المغايرِ. قلتُ: وهم في أكثرِ الحالِ يتفكّرون في سياقِهم الحاضرِ بكنايةِ المستقبلِ يريدونَ البِشارةَ بالطيّباتِ، أو التنبيهَ على الشرورِ والأوجاعِ. وكنتُ من بين التلاميذِ محبّاً لهذا الخيالِ الذى في العلومِ يَمشي بي عبرَ الوقتِ زمناً طويلاً، وأجدُ فيه لذّةً وحكمةً وأسئلةً باهرةً. وكانَ الإمامُ أحمدُ يتعجّبُ من مذهبي هذا يقولُ: لم يمكنْ لي أن أجاريكَ في ميلِك لهذا الفنّ، ولكنّكَ تعودُ إلينا منهُ بفكرٍ ثاقبٍ ومراجعةٍ كاشفةٍ للواقعِ الذي نحنُ فيهِ. وهذا حالُ الهجرةِ الحسنةِ التي تتزوّدُ منها بالعلومِ، فهنيئاً لكَ ولمن مالَ ميلَك من الأساتذةِ والتلاميذِ.

عندي، فالطريقُ أولَى بكم من هذي الأرائكِ تحسَبونَها العرشَ، وهذي الشجيراتِ أتقوّتُ بها تحسَبُونَها سِدرةَ المنتهَى.

وقالَ ليْ: الناهضونَ إلى الطريقِ يمرُّون بشبّاكِ داري يَسترقون إليَّ النظرَ يريدونَ بعضَ الزادِ ومؤونةَ السّفرِ.

وقالَ ليْ: الناهضونَ إلى الطريقِ يَنْشُدُونَ زادي، ويُناشِدُونَ ربّانيتي، ثمّ يَنْشَدُّونَ بقلوبِهم إلى جهةِ الأرضِ التي خرجوا إليها يريدونَ الحرثَ والزرعَ والحصادَ المكينَ.

وقالَ لي: أنتَ المهاجرُ الذي تطلبُه الأمكنةُ، والمسافرُ الذي يَحُثُّ إليه الوقتُ، والقافلةُ التي تحطُّ عندَها الأسواقُ. لا ديارَ لكَ تبكي عليهَا، ولا منازلَ تَحِنُّ لحجارتِها، ولا أهلَ يرجون عيونَك وترجو أعينَهم. فعلَى من تُسلّمُ إن ترجّلتَ عن عُنوةِ السفرِ، ومن يعرفُ إمامَتك إن جلستَ بين المحبينَ، وهلْ يَعقدُ لكَ بالولايةِ من عزموا وتربّصوا، فهم العازمونَ المتربّصون؟ فاركضْ بفؤادِك الأرضَ تجدْ عندَها رزقاً وحُبّاً حسناً، وخذ إليكَ جهاتي جميعاً، وسَمِّهَا بأسماءَ لا أعرفُها فلا أحوزُ أحوالَها عنكَ، ثم اقترفْ هذا العالمَ في الطريقِ الذي ظهرتْ عبارتُه وأشرقَ معناهُ، واجمعْ شتاتَ الإنسانِ إلى شتاتِ المكانِ، وغادرْ.

4. موسمُ الدعاءِ

(وهُو السِّيادةُ)

ومن أحوالِه كُنْ والراهنيّةُ والمناشدةُ والاستفزازُ والاسمُ والمناوشةُ والمولويّةُ والسُّبحانيّةُ والوطأةُ والتحشيمُ والسبيلُ والخاطرُ

فلمّا ألقيتُ عصا التّرحالِ، وبِتُّ ليلَتي على بساطِ الآمالِ، انتفضْتُ للشمسِ طالعةً على أرضِ الله، وقد صرتُ إنسانَها الكادحَ، وآلتَها العامِلةَ، فغرستُ يدي في رملِها الغامرِ، وتمرّغتُ في طينِها الخصيبِ. فلمّا اختلطَ قلبي بقلبِها، واتَّصلَتْ عروقي بعروقِها، أخذتُ ماءً من النُّهَيْرِ النابتِ في ثَراها، فغسلتُ جسدي العاملَ من وهنِ الرُّقادِ، فجرَى الماءُ على وجهي زكيّاً، وهَنَتْ مساميَ العطشَى لدفقةِ الماءِ والنورِ. وكانَ الوقتُ في حِسْبَةِ الكونِ صُبحاً حَيِيًّاً، تنفَّسَ فيهِ الليلُ البارِحُ طِيْبَ أحلامِه، فعادَ منها غَضّاً نديًّا. فأرهفتُ السّمعَ فإذا وَجيبُ الكائناتِ، وإذا كلُّ شيءٍ حيّ يتنفّسُ، وإذا الكونُ فكرةٌ واحدةٌ، وإذا أنا هيَ، جوهراً بجوهرٍ، وعَرَضاً بعَرَض.[1] فمشيتُ أتأمّلُ اجتماعَ الكونِ فيَّ، وانعقادَهُ بيديّ، وكانَ كُلّ شيءٍ بِكراً بريئاً، لم تَمْسسهُ يدُ القُدرةِ، ولم تَجْرِ عليهِ ألفاظُ الهتكِ العظيمِ. فركبتُ بَغلتي الشهباءَ وقلتُ ارتعي، فرفعتْ رأسَها إليَّ بحمحمةٍ لم أُعَلَّمها، وبكلامٍ عجيبٍ لم أَفهمهُ، فَضَّتْ بهِ بَكارةَ الكونِ كلِّهِ. فأعجبني فعلُها ولم تُستخلفْ في شيءٍ. فعرفتُ أنها مأمورةٌ في جِدّها وهَزْلِها، فأَسْلمتُ لها قِيادي، فمَضَتْ بِيَ

[1] قلتُ أنا موسى: في لغةِ الصوفيّةِ والمتكلمينَ، "الجوهرُ" ما كانَ أصلاً وثباتاً في معنى الشيءِ، مثلُ أنّ الإنسانَ إنسانٌ، و "العَرَضُ" ما يَطرأُ عليهِ ويَقبلُ الانتفاءَ مثلُ كونِه عالماً أو جاهلاً، خارجاً أو داخلاً، مستأثراً أو مشاركاً. قالتْ أُستاذتي زِينةُ العالمَين راويةُ بنتُ جميلٍ النَوراني: وبعضُ الأعراضِ ملازمةٌ لبعضِ الأعراضِ حتّى تكادُ تدخلُ في حُكمِها كمُلازمةِ الظّلمِ للحُكمِ الذي يكونُ دونَ الناسِ. قالتْ: وقد يتلازمُ جوهرانِ كاقترانِ العاشقِ والمعشوقِ. قلتُ: عجيبٌ! جعلتِ العشقَ جوهراً، وهو عندَ علماءِ الروايةِ عَرَضٌ يطرأُ علَى ابنِ آدمَ أو ابنتِه فَيُوْهِنُهُما.

الهُوينا، حتى وقفتْ بيْ على المثابةِ الكاملةِ، وأَشْهدَتْني تخومَ المُنتهَى. فرأيتُهُ بعينِ الإنسانيّةِ الصادقةِ، وعَرفني بكمالِ السُّبحانيّةِ الخالصةِ. فنزلتُ عن راحلتي الكريمةِ، وأَدنيتُها من ظلِّهِ الجليلِ، فقابلَني وجهُهُ، وكانَ جميلاً كوجهي، وبَدَني في حالِ القريبِ الغَريبِ. فدخلتُ إلى مُقامِ الحبِّ، ومَشيتُ فيهِ ألفَ يومٍ وليلةٍ، كلَّ يومٍ تُسلِّمُ عليَّ الأشياءُ، وكلَّ ليلةٍ أُكلِّمُهُ ويُكلِّمُني. فلمَّا وافيتُ الوقتَ، تعلّقَ قلبي بشغافِ المحبّةِ، وعروقي بالاسمِ الذي عَلَّمَنيهُ، فمددتُ يديَّ بقصدِ الخضوعِ حتى لامستْ أناملي تُخومَ السّماءِ، فوشوشتُ الكونَ "اللهُ أكبرُ".[2]

فسألتُهُ، بالذي هو أهلٌ لهُ ثمّ لي، أن يُباركَ في كدحي، ولا يَلفُتَ وجهَهُ عني، ويُشيرَ إليَّ بالطريقِ وإن لم يُفصحْ، وبالمنهجِ وإن لم يُبِنْ، وأن يُثْبِتَ الخِيرةَ فيما اخترتُ، أو يوحي إليّ، مناماً أو قياماً، بالبَدَلِ، وأن يَسكُتَ عنّي فلا يكشفَ سرّي، ويَسكُتَ لي فيسمَعني، وأنْ يُقِرَّ لي غَلطي إذْ قدَّمَني للجهدِ، وقلقي إذ برَاني منْ خليطِ الماءِ والتُّرابِ، وأن يَقْعُدَ قُدّامي في المجالسِ فيُؤنسَني، وفي المواطنِ

[2] قالَ الحارثُ بنُ الصادقِ المتوقّدِ: الله أكبرُ، "اللهُ" كنايةٌ عن الحبِّ، وهو "أكبرُ" لأنَّ الحبَّ يَبُزُّ كلَّ شيءٍ ويزيدُ عليهِ مقداراً كثيراً. وقالتِ العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ: "اللهُ" اسمٌ من أسماءِ القلوبِ العارفةِ وهو "أكبرُ" لاتساعِ القلبِ العارفِ عن حجمِ الكونِ. وقالَ شيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصورٍ: بل "الله" مقامُ العقلِ والقلبِ واليدِ في وقفةٍ واحدةٍ، و "أكبرُ" زائدةٌ في الكلامِ لأنها من ضروراتِ المقامِ. قلتُ أنا موسَى: لا تَستعجلوا علَى شيوخِي، "الله أكبرُ" معنىً يربكُ الكلامَ ولا تجوزُ عليهِ الشروحُ.

فيَحُثَّني، وأنْ يتربّصَ بي حتى أَفرغَ من أمري، ويُمسكَ عني من أسمائِه ما لا يليقُ بمقامي وأحوالي، فلا يكونُ بإزائي، ولا يناهضُني، ولا يقدِّمُني للمنازلةِ دونَ فهمي وعلومي، ولا يُطْفِئُ ناري، ولا يَذْهبُ بِنُورٍ قدحتُه من صُوّانِ القلبِ حتّى عادَ كالنجمِ القديمِ. فتَلقَّى الاسمُ الأعظمُ كلمَاتي واتّقدَ بالمناشدةِ لأجلِ خاطري، فجاءني وقالَ ليْ:

الدعاءُ وشيجةٌ بين قلبِك الذي يَدْفُقُ بدمِك، واسمي الذي يَدفقُ بالعالمِ.

وقالَ ليْ: من قصدَ العرشَ على مطايا حاجاتِ الخلقِ أُشرِعتْ له الأبوابُ، وجلسَ على الأرائكِ، وتنعّمَ بالسُّندسِ والإستَبرقِ، حتى يخرجَ بالمؤونةِ التي تَسُدُّ رمقَهُ ورمقَ الأممِ.[3]

وقالَ ليْ: جعلتُ لكَ ثلاثَ نيرانٍ: نارَ العقلِ وحَطَبُها العالمُ المشهودُ، ونارَ القلبِ وحَطبُها ما استخفَّ وغابَ، ونارَ السّرِّ وحَطبُها أَسمائي وأَحْوالي.

[3] حدّثنا شيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ قالَ: كنتُ، في هذا الوقتِ الشديدِ، ببعضِ إداراتِ البلدِ مشغولاً بأوراقِ عقارٍ أُورِثْتُهُ، فمرّتْ بي امرأةٌ حسنةُ الوجهِ جعلتْ شعرَها قرنينِ كفعلِ بناتِ المدارسِ، وعليها ثوبٌ أخضرُ قصيرٌ وحِلْيةٌ وريحٌ طيّبةٌ. فسلّمتْ ثمّ قالتْ: أنتمْ في طريقتِكم تقولونَ الحقُّ يجلسُ فيسمعُ من أوضعِ الناسِ رُتبةً فيفهمُ عنهُ ويقومُ بحاجتِه، وأنا ببابِ هذا الظالمِ الحاكمِ من ثلاثةِ شهورٍ أدعو الله أن يَقْصِمَ ظهرَه أو يقضي حاجتي وهيَ حقٌّ. فظهرُه بخيرٍ وحاجتي لم تُقضَ. قال الشيخُ: فحِرتُ في جوابِها، ولم يَنفعني من عِلمي شيءٌ.

وقالَ ليْ: لا أَخْذُلُكَ، وأنتَ صاحبُ الأرضِ تفلحُها أنّى تشاءُ، ولكنّي رُبما تَرَاخيتُ عنكَ لحكمةِ الحريّةِ، أو فزعتُ إليكَ بالآياتِ الغامرةِ والإشاراتِ الباهرةِ حتى ترضَى ويرضى العالمُ الذي يَضِجُّ به قلبُكَ.

وقالَ ليْ: إن خاطبتَني في مجالسِ القومِ كلّمتُكَ بلسانِ الإشارةِ، فإنْ كنتَ ماشياً في الطريقِ جعلتُ لكَ العلاماتِ، فإنْ كنتَ في شُغلٍ عنِ المشيِ مشيتُ بها إليكَ، فإنْ سَهوتَ وغفوتَ تجلّتْ لك رؤًى وحلماً من لدنِّ الاسمِ. فأنا أصبرُ عليكَ أنْ تنعسَ عيناكَ أو يميلَ حافرُكَ، وأما غفلةُ قلبِكَ فيهتزُّ لها العرشُ وتَيْبَسُ لها السّدرةُ.[4]

وقالَ ليْ: أَحُثُّكَ في الطريقِ كما أَحُثُّ التّرابَ تمشي به الريحُ إلى تخومِ الاسمِ، فأنتَ في كلِّ وقتٍ بلا وهلةٍ، وفي كلِّ مكانٍ بلا جهةٍ، حتى تَبلُغَ سِدرةً أو تَصِلَ

---

[4] قالَ العارفُ بالخلقِ العربي بومدين، شيخُ المودةِ والمسرّاتِ، وأستاذُ التجلّي والفتوحاتِ، السلطانُ الآسرُ، والمددُ العامرُ، بديارِ عَنّابَةَ، ووهرانَ، والجزائر: دخلتُ ساحةَ المسجدِ للصلاةِ وأنا في أول سلوكي للطريقِ، فما كَبّرتُ حتى جاءَ طائرٌ فأسقطَ عليّ، فكلما توضأتُ وعاودتُ صلاتي عادَ. ففزعتُ منه. فأتيتُ الإمامَ أحمدَ الدُّرِّيَّ، وهو يُدرّسُ عندَنا، فسكتَ ساعةً ثم قال: ما كانَ طعامُك في يومِك هذا؟ فقلتُ: حضرتُ وليمةً لفلانٍ من الكُتّابِ جعلَها تهنئةً لطبعِ كتابٍ لهُ. قالَ الإمامُ: هو رجلٌ يمدحُ الظالمينَ ويُزوّقُ الظلمَ بنظمٍ ونثرٍ حسنٍ، فقد خالطَ طعامُهُ بدنَكَ الذي هو آلةُ صلاتِك فلم ينفعْ معه وضوءٌ بماءٍ أو نحوِه. وهذا جميعُه من حالِ الغفلةِ القلبيّةِ التي كنتَ فيها حينَ واليتَ ذلك الكاتبَ أوّلَ الأمرِ. فكأنّ الطيرَ، وليسَ هو كذلكَ، إشارةٌ لكَ بذلكَ. قالَ العرْبي بومدين: فكتبتُ مقالةً أَسُبُّ فيها الظالمينَ، فَحُبِسْتُ وضُرِبْتُ، فعادَ بَدني صحيحاً وقلبي مُعافىً وصرتُ أُصَلّي العشاءَ بوضوءِ الصبحِ.

إليّ بلا علامةٍ في الكتابِ.

وقالَ ليْ: الذين يمشونَ في الطريقِ ولا يرونني كلّمْهُم ينظروا بقلوبِهم إلى الطريق.[5]

وقالَ ليْ: والحبِّ والفؤادِ لأسمعنَّ لكَ، وأفهمنَّ عنكَ، ولأَدْنُوَنَّ منكَ دُنُوَّكَ منَ المرآةِ تَتملَّى فيها بهاءَك، ولأَحْفظنّكَ من سابقِ عِلمي، وأُخرجنّكَ من ماضي قَضائي، ولأُجرينَّ كلامَكَ علَى جواهرِ الأشياءِ، حتى تَعْلَمَكَ المجرَّةُ ويعيكَ الكونُ الكبيرُ، والأسماءُ في سديمِ النشأةِ تَقولُ: كَذا انبثقَ الإنسانُ، والسُّبحانيّةُ توسوسُ بكَ "حدّثنا العاملُ فقالَ"، ويزهرُ قلبُك في الأرضِ، ويَصيرُ العلامَةَ.

وقالَ ليْ: أنتَ متنُ السَّبيلِ الذي لا متنَ غيرُهُ، وصاحبُ الأمرِ التامّ بذاتِهِ، عقدتُ لكَ بالحاكميّةِ الكاملةِ، وأنعمتُ عليكَ بالإرادةِ التامّةِ، فالجِهاتُ كلُّها جهةٌ واحدةٌ هي لكَ، والنهاراتُ صبحٌ أشرقَ من عندِك، والسبيلُ بعضٌ من قلبِك وقلوبِ المحبّينَ.

وقالَ ليْ: السبيلُ بعضُكَ.[6]

وقالَ ليْ: ما أردتَ يكونُ في نصلِ فأسِك أو نصلِ قلبِك، سِيانٌ.

---

[5] قالَ تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: بيَن الإنسانِ وربِّهِ ما بيَن أوّلِ الدائرةِ وآخرِها، فمن كانَ في أوّلِ الطريقِ ولم يَرَهُ لَزِمَهُ أن يتلفّتَ قلبُه إلى آخرِ الطريقِ فيراهُ.

[6] قلتُ: "السبيلُ بعضُك" أيْ هو في حُكمِكَ ولستَ في حُكمِه، فلا سبيلَ علَى ابنِ آدمَ إلا من عجينةِ ابنِ آدمَ. فإن قالَ بعضُ الغائبيَن: يَتّبعُ ابنُ آدمَ السبيلَ، قُلنا: فبماذا: إن مشَى فيهِ بإرادتِهِ، فقد مشَى بحُكمِه لا بحُكمِ السّبيلِ، وإن مشَى فيهِ قهراً انفصلَ عن السبيلِ بمعناهُ وإن اتّصلَ به بمادَّتِهِ، فمنهُ لا نُجَوِّزُ إقامةَ السبيلِ بل إقامةَ الإنسانِ. قال الإمامُ أحمدُ: كلامٌ خطيرٌ.

وقالَ لِيْ: أنتَ "كُنْ" التي في الكتابِ، و "كنْ" أخرى لا يعرفُها الكتابُ الذي بين أيديهمُ.

وقالَ لِيْ: أنتَ كُنْ والذي كانَ وما سيكونُ، ما قبلَكَ وحشةٌ، وما بعدَك غيبةٌ، وما بيني وبينكَ لا ينبغي. فَأَرِدْ أُرِدْ لكَ، واكدحْ حتى أظهرَ في قمحِ يديكَ، فإنْ برز إليك أهلُ النصوصِ قدّم قلبَك للمُنازلةِ، ولا تجادلْ باسمي حتّى أتكلمَ باسمِكَ وأناهضَ عنكَ، كلامي كلامُكَ لا تُغالبْ بهِ خلقي، وفعلي فعلُكَ لا بأسَ عليهِم منهُ، هُم أهلُكَ وأنا أهلُهم، كتابُك وأنا كتابُهم، معادُك وأنا معادُهم والسبيلُ.

وقالَ لِيْ: الذي يسألُ أين الطريقُ دخلَ أولَ الطريقِ.

وقالَ لي: الطريقُ الذي تسألُنا عنهُ بقلبِك العاملِ نَصِلُهُ بقدميكَ حتّى يمشي بك فتدخلَ عليّ وأنا أسقي النوّارَ الذي تحتَ العرشِ.

وقالَ لِيْ: دعاؤُك معجونٌ بطينِ العملِ، وملحِ الكدحِ، وماءِ المحبّةِ الموقوفةِ على الخلقِ.

وقالَ لِيْ: الدّعاءُ المعجونُ بالعملِ كنايةٌ عن قمحِ الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: قمحُ الخلافةِ يتقدّمُكَ إلى مناهضةِ الجوعِ الذي أوجعَ قلبَك وقلوبَ أبناءِ السبيلِ.

وقالَ لِيْ: قمحُ الخلافةِ استثناءٌ على الجوعِ، والذي يَستثني على الجوعِ يشفعُ لبطونِ المحتاجينَ.

وقالَ لِيْ: قمحُ الخلافةِ شفاعةٌ.

وقالَ لِيْ: الدّعاءُ الذي يلهجُ بهِ القلبُ العاملُ مناشدةٌ غالبةٌ.

وقالَ لِيْ: الدعاءُ الصادقُ لا يَخرجُ عن معنى حالِكَ الذي أنتَ فيهِ.

وقالَ ليْ: حالُكَ الذي أنتَ فيهِ ترتيبُ معيشتِكَ، وجنبُكَ الذي يتقلّبُ عليهِ قلبُك.[7]

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ يبدأُ بي وينتهي بكَ وما بينهما علمُ الفترةِ.[8]

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ يناشدني أمامَ الخلقِ ثم يناشدُك أمامَ حضرةِ العرشِ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ يمرُّ بأسمائي ليقفَ عندَ اسمِك أنتَ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ مشغولٌ بكَ لا بيْ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ متصلٌ بفضاءِ ربّانيّتي الكاملةِ من بابِ الإنسانيةِ التي تكدحُ الأرضَ وتضربُ الحديدَ وتغزلُ صوفَ الفقراءِ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ التامُّ فعلٌ موقوفٌ علَى زوالِ الوقتِ عن سَمْتِ الحضرةِ الراهنةِ.

---

[7] قلتُ: ابنُ آدمَ معقودٌ من جِهَتَيْ قلبهِ ومعيشتِه لا تخرجُ إنسانيّتُه عنهُما إلا وهْماً وتخييلاً. وقد رأيتُ أكثرَ الناسِ فسدتْ معيشتُهم (من فقرٍ أو ظلمٍ) ففسدتْ قلوبُهم، وأقلُّهم غلبَت قلوبُهم على معائشِهم فهم خيرُ جوهرِ الإنسانيةِ. قلتُ: وغَلَبَةُ القلوبِ أظهرُ ما تكونُ عندَ أهلِ العشقِ الكاملِ وأصحابِ المحبةِ الخالصةِ.

[8] الفترةُ عندَ أهلِ الديانةِ الوقتُ الذي يكونُ بين غيبةِ نبيٍّ وظهورِ أخيهِ، ويكثرُ فيها الفسادُ والظّلمُ والوجعُ، وجعُ الخلقِ. قالَ ماءُ السماءِ، وشارةُ الولاءِ الطاهرُ بن الرّضا، بابُ العلومِ الآنيّةِ، ومِشكاةُ الأسرارِ الإماميّة، في البصرةِ والنجفِ وكربلاء: وفي الفترةِ علومٌ باهرةٌ من لَدُنِّ القلبِ الذي لم يقعْ تحتَ سطوةِ الظالمينَ. وهذا عجيبٌ من جهةِ أنّ علومَ الحيازةِ والاستئثارِ تغلبُ علَى البلادِ والأقاليمِ لاتّصالِها بسياقِ السّلطانِ والأَثَرَةِ والنهبِ، فكيفَ يفلتُ منها قلبُ البني آدمَ بشغافِه؟ قلتُ أنا موسَى: ومن هذا يقولُ العارفونَ بمقامِ المناهضةِ: القلبُ أفقٌ يخرجُ عن حبسِ النّهبِ إن ناشَهُ نورُ الإنسانيةِ العاملةِ، وهذا لا يكونُ إلا لأهلِ الرجاءِ والثورةِ في وقتٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: سمتُ اللحظةِ الراهنةِ لا يبقَى وقتينِ وإلا خرجَ عن حالِ الراهنيّةِ.

وقالَ لي: الراهنيةُ حجابٌ بينك وبينَ علومِ البِشارةِ.

وقالَ ليْ: الراهنيّةُ اتّصالٌ بينَك وبينَ علومِ البشارةِ.

وقالَ ليْ: الراهنيةُ المتصلةُ بالمناشدةِ ربما تَرى.

وقالَ ليْ: الدعاءُ رؤيةٌ عابرةٌ للوقتِ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ يقولُك كما أنتَ لتصيرَ كما ينبغي لكَ.

وقالَ ليْ: قُلِ الأشياءَ كما هي، لأنّ هذا أشدُّ الأفعالِ إزاءَ العالمِ.

وقالَ ليْ: الذين يدعُونني في كلّ وقتٍ لهمُ الوقتُ، إن كدحوا هذا الوقتَ.

وقالَ ليْ: الذينَ يدعونني وأيديهِم تقدحُ العالمَ، لهمُ العالمُ.

وقالَ ليْ: قدحُ العالمِ يُلزِمُني بأن آخذَ بالي من القادحِ ومن العالمِ معاً.

وقالَ ليْ: الذينَ يُكلِّمُونَني بالدُّعاءِ التامّ ألسنتُهم من حالِ أيديهِم، وأيديهم من شغافِ قُلوبِهم، وقُلوبُهم موضعُ قوائمِ العرشِ.[9]

---

[9] أجدبَ الناسُ في عامٍ، فجاؤوا مدرستَنا يطلبونَ الدعاءَ بالغوثِ. فخرجَ الإمامُ أحمدُ حتى دخل بهم أرضَ الميناءِ، فجاءَ إلى عمالٍ بعينِهم فسلّمَ عليهم وطَيّبَ خاطرَهم بالحديثِ. ثم سألَهم بركةَ الدعاءِ للقومِ، فدعوا والشيخُ والناسُ يُؤَمّنون. فأُمطِرَ القومُ وأُغِيثوا من يومِهم. فقالوا: يا إمامُ، ما بالُ نطلبُكَ فتطلبُ بنا عمالَ الميناءِ. قالَ: إنما أنا مُفردٌ، وقد أثقلَ قلبي مكانتي ومَشْيَختي وأَتباعي ومُرَتّبي، فجئتُ لهؤلاء وهم جماعةٌ يتشاركونَ الكدحَ، ويَقْسِمون الرزقَ ثلثاً لهم، وثلثاً لرأسمالِ العملِ، وثلثاً للصدقاتِ والخيرِ، ولا سُلطةَ لهم ولا تبِعَاتٍ، فدَعَوْا فأُجيبوا.

قلتُ: تعاونوا فتقاسَموا فغَلبوا. وهم يَمُنُّونَ على اللهِ لأنّهُ يَستحي من الجماعةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: دعاؤُكَ إسرارٌ بمعنى إنسانيّتِك وجهرٌ بمعنى ربّانيّتي.

وقالَ لِيْ: الدعاءُ الذي تتحشّمُ وأنتَ تُتَمْتِمُ بهِ أمرٌ في ثيابِ الرجاءِ.

وقالَ لِيْ: ثيابُ الرجاءِ حيلةٌ لطيفةٌ تصدرُ عنكَ عفواً في مقامِ السيادةِ.

وقالَ لِيْ: مقامُ السيادةِ يَلحنُ به الناسُ يقولونَ الخضوعَ.

وقالَ لِيْ: السيادةُ أن تملكَ زمامَ أمرِك، وأمري.

وقالَ لِيْ: الزمامُ كنايةٌ عنِ الخلافةِ ثمّ الربّانيّةِ.

وقالَ لِيْ: ادعُني بأسْمائي التي تعرفُها حتّى تُكلّمَكَ منّي أسمائي التي لا تعرفُها ولم يَغْمُرْكَ بأسُها وسلطانُها.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها جليلةٌ لا تقدرُ عليها لغةٌ، ولا تسعُها عبارةٌ، ولا يقاربُها خطابٌ.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها ربّما تعرفُكَ.[10]

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها تبوحُ بأسرارٍ لا تجوزُ لكَ إلا وأنتَ في تخومِ

---

[10] قلتُ: بَهَتَ ظالمٌ أجيراً ذا عيالٍ في أجرتِهِ التي يقتاتُ منها فراخُهُ. فأرادَ المسلوبُ أن يُكَلِّمَ الحقَّ فلمْ يعرفْ كيفَ يناديهِ وهو في ساحةِ السوقِ بينَ الخلقِ. فظلَّ يصرخُ مرَّةً ويُهمهمُ مرّةً ويضربُ علَى الأرضِ في كلِّ مرّةٍ. فلمّا رآه الظالمُ اتَّهَمَهُ في عقلِهِ أمامَ الناسِ، فكادُوا يُصَدِّقُونَهُ. فغضبَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرِّيّ فتكلّمَ في الخلقِ يقولُ: هو واللهِ في مُقامِ المظلومِ يُكلّمُ الحقَّ بأسماءَ لا نُطيقُها، وصفاتٍ لا نعرفُها، وأحوالٍ لو كُشِفتْ لنا لانهدَّ حيلُ الظلمِ كأنّهُ لم يكنْ. وهذا ربُّ عملٍ لا يَصِحُّ لهُ اسمُ الربوبيّةِ وإنما الربُّ واحدٌ والظالمونَ أممٌ. قلتُ: فانصرفتْ قلوبُ الناسِ عنِ الظالمِ إلى المظلومِ يرجون نصرَهُ.

المناشدةِ.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها تسمعُ دعاءَك كأنّكَ كلَّمتَها وحشّمتَها أمامَ حَضرتي.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها لا تُكتَبُ ولا تُقرأُ ولا تجدُها مخطوطةً عند من لديهم الكتابُ والأخبارُ.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها وهمٌ خارقٌ لمعناكَ.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها مددٌ لم تَطْلُبْهُ منّي، أوّلُهُ عندَك وآخرُه عندِي.

وقالَ لِيْ: أسْمائي التي لا تعرفُها من أسمائِكَ التي لم أُسَمِّها لكَ.

وقالَ لِيْ: الاسم إذعانٌ لهيبتِك.

وقالَ لِيْ: الاسم إشهارٌ لوطأتِك.

وقالَ لِيْ: وطأتُكَ في العالمِ أشدُّ من وطأتي عليه.[11]

وقالَ لِيْ: وطأتُكَ في، ووطأتي علَى.

---

[11] ظهرَ في وقتنا رجلٌ عظيمُ الجثةِ، ذو قوةٍ وبأسٍ، فكانَ ينهرُ الناسَ عن الباطلِ ويشدُّ من أزرِ الحقّ، ويدخلُ على القومِ فيضربُ هذا ويرهبُ هذا حتى خافهُ الناسُ ونفروا عنهُ. فأخذه مَولاي تاجُ السرِّ عليُّ بنُ زهرةِ الحُسنِ، مولَى المعارفِ والحقائقِ في صحراءِ الطوارقِ، بالنصيحةِ، فقال الرجلُ: واللهِ إني لرأيتُ في منامي رسولَ اللهِ يضحكُ لي، ومعهُ ثلّةٌ من الصحابةِ، فأخذَ عمامةَ خالدٍ، وهي من إسْتَبْرَقٍ، ووضعها على رأسي وجعلَ يُسوّيها بيديه الكريمتينِ، فمنها صارتْ لي شدةٌ ورهبةٌ. فقالَ مولاي: لا آخذها، ولو تَعَمّمْتَ من أبي ذَرٍّ أو انتعلتَ مداسَ بلالٍ لكانَ أرحمَ للناسِ وأقربَ إلى اسمِ الودودِ. قالَ الرجلُ: فما أفعلُ بحريرِ خالدٍ؟ قالَ تاجُ السرِّ: رُدَّهُ إلى من نسجَهُ من العاملين أو اجعلهُ في بيتِ مالِ الناسِ يبذلونهُ في الصدقاتِ الواجبةِ لمن نُهِبوا أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: وطأتُك وجعٌ وفرحٌ مستأنفٌ، ووطأتي محبّةٌ أولى لا تُستأنفُ، لأنها تستغرقُ الطريقَ كلَّه.

وقالَ ليْ: وطأةُ الوجعِ والفرحِ استدعاءٌ بالضرورةِ لوطأةِ المحبّةِ.

وقالَ لي: أنا اسمُ المحبّةِ، فكلُّ اسمٍ غيرِه يؤولُ إليهِ.[12]

وقالَ ليْ: الدعاءُ مُناوشةٌ لجلالِ الربانيةِ.

وقالَ ليْ: المناوشةُ إشارةٌ إنسانيةٌ ببدءِ النزالِ.

وقالَ ليْ: المناوشةُ استبسالُ حضرتِك عندَ حضرَتي.

وقالَ ليْ: المناوشةُ غالبةٌ من جهةِ الجرأةِ، ثمّ من جهةِ النزولِ عندَ محبّتِكَ.

وقالَ ليْ: المناوشةُ منازلةٌ في رواءِ الخضوعُ.

وقالَ ليْ: الدعاءُ اتساعٌ لألفاظِ الرجاءِ، وانفجارٌ لعيونِ الكلامِ، وانبثاقٌ للغةِ المناشدةِ.

وقالَ ليْ: لغةُ المناشدةِ لغةُ إحاطةٍ لأنها تُحيطُ بالمُناشَدِ من كلّ جهةٍ.

---

[12] كانت أُستاذتي زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جَميلٍ في حالِ الصلاةِ إماماً على جماعتِنا، فضحكتْ حتى شهَقتْ واحمرّت خدودُها. فأنكرَ عليها القومُ وذَهَلوا عن الصلاةِ خلفها. فقالَ مُريدٌ مُحبّ: لعلها رأت نعيمَ ربِّها فأعجبَها فضحكتْ. فلما سلّمتِ الأستاذةُ قالتْ: بل رأيتُ جهنمَ، فشهدتُ فيها الحقَّ يكلّمُ من يعذّبُهم يقولُ "أوجدتم وعدَنا حقاً؟" "هذا عذابي لكم"، "ذوقوا عاقبَة أعمالِكم"، فعرفتُ أنها هيّنة لأن الحقّ لا يفارقُ فيها خَلْقَهُ يُكلّمهم، ويحضرُ أذاهُم، ويشهدُ تقلّبهم في العذابِ. وهذه غايةُ العاشقِ ومرادُ المحبوبِ. وأما هو فلا يَلبثُ اسمُ الرحمةِ أن يغلبَ عليه، فيُخرِجَهم إلى جناتٍ وأنهار. فعرفتُ أنني فائزةٌ لا محالة! فضحكتُ وأفسدتُ عليكم صلاتَكم! قلتُ: فلم أرَ أحداً يجعلُ الشريعةَ باباً للمحبّةِ والضحكِ مثلَ الأستاذةِ.

وقالَ ليْ: المناشدةُ تفترضُ الربّانيةَ.

وقالَ ليْ: ما يفترضُ الربانيةَ يلزمُ عنها في مبدئِها.

وقالَ ليْ: ما يفترضُ الربانيةَ يتّصلُ بي من جهةِ الاضطرارِ.

وقالَ ليْ: الربانيةُ تكشفُ عن سُبحانِيّتِها في مقامِ الخضوعِ.

وقالَ ليْ: السُّبحانيّةُ والخضوعُ اسمٌ أحدٌ.

وقالَ ليْ: السُّبحانيّةُ استنفارٌ للأسماءِ في حضرتِك كي لا تتبدّدَ هي من الهيبةِ.

وقال لي: السُّبحانيّةُ شهودٌ لأسماءِ القوةِ في مقامِ الكدحِ.[13]

وقالَ ليْ: السُّبحانيّةُ مناشدةٌ للإنسانيّةِ.

---

[13] اتّخَذَ المهدِي بن بَرْكة، وهو عاملٌ بَهِيُّ الطلعةِ من عُمالِ المصانعِ في ناحيتِنا، ورشةً له من نَتْجِ يديهِ، يقطعُ الحديدَ، ويصهرُ النحاسَ، ويذيبُ القلوبَ التي تعلقتْ به من بناتِ الحيّ. فكانتْ نيرانُ الأَتونِ تضيءُ وجهَه وهو يكدحُ المعادنَ حتّى يكادُ يَتّقِدُ من الوهجِ. يأتيهِ الناسُ بآلاتِهم فيشحذُها وبمصنوعاتِهم فيُصلحُ من شأنِها، وهو في كلِّ هذا يُدنِدنُ بأحسنِ صوتٍ وأفخمِ كلامٍ لم يُسمعْ بمثلِه من قبلُ. وجاءتْهُ البناتُ فَشُغِفْنَ به حباً حتى صرنَ يَلْهَجْنَ بِاسْمِهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ. فخرجَ إليهِنّ بداعي الحضرةِ الصوفيّةِ، فَتَعَلَّقْنَ بثيابِه وكِدْنَ يَمُتْنَ عشقاً، فصارَ بِن برْكة يجذبُ ويقولُ "ما في الهِرْكَه غيرْ بِنْ بَركه، ما في الهِركه غير بن بركَه"، والهِركةُ لباسٌ فضفاضٌ عندَ بعضِ أهلِ ليبيا. حتى إذا بلغَ به الوجدُ صارَ يقولُ "ما في الجثةْ، قدِ اجتُثَّ، ما في الجثةْ قدِ اجتُثَّ". فحينَ يَصِلُ تحتَ العرشِ يَهتفُ "ما في اِفَّادِي غيرْ مُرادي، ما في افّادي غيرْ مُرادي"، وافّادي، بفاءٍ مُغلّظةٍ، أيْ فؤادي. فيغيبُ عنِ العالمِ ساعةً تنالُ فيها البناتُ منه ما يَشتهين، ثم يعودُ إلى ورشتِه يذيبُ الحديدَ كأنْ لم يكُنْ شيءٌ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هذا حَلّاجُنا وقَيْسُهُنّ، كلاهما يَنفعُ به الدعاءُ ويُثمِرُ الرجاءُ ويَصلحُ حالُ الناسِ.

وقالَ لِيْ: اسمُ الإنسانِ استدراكٌ علَى اسمِي.
وقالَ لِيْ: اسمُ الإنسانِ من أسمائي التي يناديني بها الذين يُحبّونني عفواً.
وقالَ لِيْ: اسمُ الإنسانِ من ضروراتِ الخالقيّةِ لأنه إحالةٌ للصُّلصالِ الأولِ.
وقالَ لِيْ: الذينَ لا ينادونَ الإنسانَ باسمِه لا يعرفونَ اسمِي.
وقالَ لِيْ: الذينَ لا يُناشدون الإنسانَ لا يُلتفتُ إليهِم.
وقالَ لِيْ: المناشدةُ تسميةٌ.
وقالَ لِيْ: مناشدةُ الإنسانِ استفزازٌ لمعنَى الرحمانيّةِ وليسَ لسياقِ التبعيّةِ.
وقالَ لِيْ: الاستفزازُ يصلحُ من القلوبِ التي تضِجُّ أما القلوبُ الغافلةُ فلا استفزازَ يَشْغَفُها ولا مناشدةَ تَدْفُقُ بدمِها.
وقالَ لِيْ: الاستفزازُ شهادةٌ بربانيّةِ العرشِ الذي ينهضُ لنداءِ المناشدةِ.
وقالَ لِيْ: الاستفزازُ كلامُ الإنسانِ مع ربانيّةِ العالِمِ في وقتِ العازةِ.
وقالَ لِيْ: الاستفزازُ تحشيمٌ لأسمائي أن تُناهِضَ لخاطرِك.[14]

---

[14] كانَ المجاهدونُ من الأساتذةِ والتلاميذِ يحثُّونَ الأسماءَ لمؤونتِهم يطلبونَ الزادَ والعتادَ بحسَبِ قلبِ كلِّ واحدٍ منهم. فإني رأيتُ أستاذاً يغمغمُ بِاسْمِ "جابرِ الخاطرِ" وهو ينازعُ الموتَ من شظيةٍ فرنسيّةٍ عاورتْ جسدَه، ولم أسمع هذا الاسمَ من قَبْلُ. قالَ أخي زينُ السماحِ، ومقصدُ الأرواحِ، صبحي بنُ مسعودِ: عرفتُه، هو المعلمُ عبدُ القادرِ الجَوشي البدريّ، تأخّرَ عن منازلةٍ غابرةٍ سنحتْ له بأرضِ الدّامورِ بديارِ الساحلِ من الشامِ قبلَ ثلاثينَ عاماً فظلَّ يتحسّفُ عليها حتّى جبرَ اللهُ بخاطرِه فقَدَّمَهُ إلى مواجهةٍ حاسرةٍ بأرضِ الحمادةِ الليبيّةِ على كثبٍ من دارِه وعيالِه في هذا الوقتِ. قالَ: فقد ماتَ مُطيَّبَ النفس راضياً مرضياً، فهنيئاً له وللشّظْيةِ. قلت: ها؟ قالَ: قد كانتِ الآلةَ التي تَوَسّلَ بها الاسمُ، اسمُ جابرِ الخاطرِ.

وقالَ ليْ: الاستفزازُ مناهضةٌ.

وقالَ ليْ: مناهضةُ الأسماءِ مواجهةٌ حاسرةٌ للعالمِ الذي يناوشُك بحجابِ الحاجاتِ.

وقالَ ليْ: مناهضةُ الأسماءِ جوابٌ لدعائِك وأنتَ تتَلعثمُ في اسمِك أمامَ طغيانِ العالمِ.

وقالَ ليْ: اسمي إزاءَ العالمِ لخاطرِك.[15]

وقالَ ليْ: من له خاطرٌ كخاطرِك ينبغي له أن يُسفرَ عن قلبِه ويخوضَ العالمَ حاسراً ثم يقولُ أيْ ربّي هلمَّ إليّ.

وقالَ ليْ: الخاطرُ كرامةٌ في ثيابِ الحاجةِ، ومحبّةٌ في رُوَاءِ التَذَلُّلِ، وسيادةٌ في هيئةِ الرجاءِ.

وقالَ ليْ: السيادةُ التي تتذلّلُ ينبو حدُّها عن الأذَى لأنها تريدُ كرامةَ الخاطرِ.

وقالَ ليْ: السيادةُ يحصلُ لها الحكمُ وعليها في مقامٍ واحدٍ لأنها رابطةٌ بينَ وَلِيَّيْنِ تعهَّدا بعضَهما بولايةِ الحبِّ.

---

[15] قالتِ العارفةُ باللهِ جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ، العارفةُ بالإشارات، الموغلةُ في المسافات، وإمامةُ برِّ أوباري وغات: ومنهُ الاسمُ الذي استلفَهُ بلالٌ لنفسِه وقتَ البلاءِ فإنّهُ للسّبحانيّةِ الخالصةِ أوّلَ الأمرِ، فلمّا دخلَ الإنسانُ، وهو هنا مغلولٌ بقيدِ العبوديّةِ، إلى مقامِ القلبِ الربّانيّ من بابِ الصبرِ والرجاءِ صارَ الاسمُ الذي وسوسَ به هُوَ هُوْ. قلتُ: عَنَتْ مولاتي اسمَ الأحدِ، لم تصرّحْ به للياقةِ الكنايةِ عنهُ في هذا السّياقِ، فإن بلالاً إنما كان يخبرُ القومَ عن ذاتهِ هو، وهم يظنُّون أنه يتكلّمُ عن الحقّ. ومن هذا جاءتِ التثنيةُ في "أحَدٌ، أحَدٌ"، ولو عنَى بها الحقَّ لأفردَ اللّفظَ، ولكنّهُ أرادَ قلبَه الصابرَ ثمّ بدنه الثابتَ فلَزِمَهُ أن يُثَنّي الأَحَديّةَ حتى تشملَ كلًّا منهما. فكأنَّ عبارةَ بلالٍ كاملةً هي "قلبي أحدٌ في العشقِ، وجسدِي أحدٌ في الشوقِ ياقومُ". فتأمّل في ذلك رعاكَ الله.

وقالَ ليْ: السيادةُ مولويّةٌ تقدّمُ الخضوعَ والسطوةَ في إشارةٍ واحدةٍ فلا يعرفُ المخاطَبُ هو بإزاءِ الحبِّ أمِ السلطانِ.[16]

وقالَ ليْ: السيادةُ الإنسانيةُ تطلعُ عفواً من النقصِ الذي جعلتُه فيكَ أولَ الأمرِ فكأنَّ السيادةَ مناهضَةٌ لرُكْنِ النُّقصانِ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ تعبيرٌ عن السيادةِ في حالِ الفعلِ مثلمَا أنتَ تعبيرٌ عنها في حالِ الاسمِ.

وقالَ ليْ: السيادةُ أن أبدأكَ أنا بالسلامِ.[17]

وقالَ ليْ: السيادةُ قبولُ المناشدةِ قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُ الكلامِ.

وقالَ ليْ: تكلّمْ بحاجتِك تخضعْ لكَ الحضرةُ أوّلاً ثمّ يَلِيكَ الاسمُ الحسَنُ.

---

[16] قلتُ: المولويّةُ. العربُ تقولُ مولايَ لمن يخضعونَ لهُ ولمن لهم عليهِ السّطوةُ، سِيّان. قالَ الحضرميُّ: وهذا فخٌّ يَشبكُ المُخاطَبَ فيرتبكُ له في مقامِ الدعاءِ، فلا يعودُ يعرفُ أن يقولَ لا أستطيعُ ولا أريدُ، فتحصلُ الإجابةُ بالقبولِ.

[17] طلعتُ مع الأستاذِ بَابِكِر بنِ الفاتحِ النّوبِيّ، غوثِ السودان، وعارفِ قِرنةَ وأسوان، الفتحِ الباهرِ، والنيلِ الغامرِ، وإمامِ الزمانِ الظاهرِ، إلى بلدةِ بسيونَ من بعضِ نواحي الدّلتا فاستأجرْنا داراً عندَ بعضِ الصّنَايْعِيّةِ من تلاميذِ الطريقةِ، فلمّا كانَ الصبحُ سمِعنا نداءَ العمّالِ يقولونَ من معروفِ كلامِهم "صبَحنا وصَبحِ المُلْكِ لله" "الرزقِ علَى الله يا عبدَ الله" "يا فتّاحْ يا عَلِيمْ، يا رزّاقْ يا كريمْ". فقالَ مولايَ: حيلةٌ مُعتبرةٌ منهُم، يُحَشّمُونَهُ بالكلامِ الحلوِ وهم يدقُّونَ المساميرَ ويَلحمُونَ الحديدَ بالحديدِ، فلا يستطيعُ أن يقولَ "ما عندي شيءٌ لكم، ولم أُلاحِظْكُم، وما أعددتُ لكم مؤونةَ النهارْ دَهْ". ثمّ قالَ الأستاذُ بابِكر: يجدرُ أن نأخذَ هذا الكلامَ المُحَشّمَ فنخلطَهُ ببعضِ أحوالِنا في المناشدةِ والذّكرِ لعلّهُ يسمعُ منّا أو ينزلُ عندَ حقِّ السّيادةِ التي هي لنا في مُقامِ العملِ والدعاءِ.

إشارةٌ غدَامسِيّة

وقالَ لي: أنتَ الدعاءُ الذي يطرقُ بابَ عزّتي أولَ الصبحِ، والابتهالُ الذي يحطُّ على شُبّاكِ رحمانيّتي وقتَ العشيّ، والرجاءُ الذي يقفو سُبحانيتي في الأسواقِ. فأنتَ هَذَرُ كلِّ ذي عيالٍ، ولسانُ الكادحينَ ذوي الأسمالِ، ولهفةُ الأمهاتِ المثخناتِ بالأثداءِ اليابسةِ. كلُّ "كُنْ" هي عبارتُك، وكلُّ مناشدةٍ هي السيادةُ لكَ. فكلِّمني بالراهنيّةِ التي فيها وطأةُ العالمِ ووطأتُك، حتّى أتَحَشّمَ منكَ وأَجْبُرَ بخاطِرِك .ثم هُزَّ إليكَ جِذْعَ العبارةِ، واحرثْ بفؤادكَ المعانيْ، واسْتَسقي أفعالَ المحبةِ، تجد عندي روضةً وسلاماً للعاملينَ. أنا حضرةُ البكاءِ، واستبسالُ الرجاءِ، وغلبةُ الدعاءِ الأمينِ.

5. موسمُ الماءِ
(وهو الفرحُ)

ومن أحوالِه السطوةُ والميزانُ والبللُ والغمرُ والغرغرةُ الأولى والغرغرةُ الآخرةُ والوصالُ والغرقُ والدفقُ وموسيقَى الأشياءِ

وفيه انتظرتُ قُدومَ الماءِ غيماً بعدَ غيمٍ، فكلّمتُ من الرِّيحِ مَقاصدَها، وشهدتُ جهاتِها وأحوالَها، وأتيتُ الأرضَ أطلبُ سُقْيَها، فاحتجبَ ماؤُها الذي انبغَى له أن يَبِينَ، وغاضتْ عيونُها التي في المحاجرِ. فركضْتُ الرملَ برجليَّ ركْضاً، فلمْ يكنْ شيءٌ. ورأيتُ الماءَ يدورُ في قناعِ الحرِّ والبردِ، وأخذني تَوَهَانُهُ فسَلَبني. وكلّمتُ نفسي بالعطشِ حيناً وبالارتواءِ حيناً آخرَ، وقعدتُ أرقبُ مداراتِ العناصرِ أرجو أن تسيلَ بمائِها، وهيَ تنفصلُ وتتّصلُ، وتميعُ ثمّ يصلبُ قوامُها.

وجاءَ الغيمُ فانعقدَ ثمَّ انصرمَ، وحَبَلَ بالماءِ ثمّ لم يلدْ. وجاءتِ الشّمسُ وجلستْ في كبدِ السماءِ، فقلتُ ربما يتهافتُ الثلجُ من رؤوسِ الجبالِ فتَضِجُّ الوديانُ بالخيرِ، وتصيرُ أنهاراً من قمحٍ وكلأٍ وثُغاء. وجلستُ أنظرُ اكتمالَ الدّورةِ، ورأيتُ الماءَ يمشي في الكونِ، في البحرِ بحرٌ وفي الهواءِ هواءٌ، فلمْ يتركْ رداءً لم يخلعهُ علَى نفسِهِ، ولا رُواءً إلا اختصَّ بهِ ذاتَهُ.

ثّم غفوتُ علّ إشارةً تحضرُ، أو علامةً تهتُكُ حُجُبَ الماءِ، فإذا بِبُنَيّةٍ بهيّةِ الطّلعةِ، نجيبةِ الملامحِ، عليها ملابسُ الفتيانِ، شعرُها دونَ الكتفينِ طولاً، وقدْ وقفتْ على رأسِ بئرٍ مهجورةٍ، رثّةِ الحالِ، عتيقةِ البناءِ، فارَقَها كُلُّ ماءٍ طيّبٍ، وقرَّ بها كلُّ خَبَثٍ. وإذا هيَ تحادِثُها بكلامٍ رقيقٍ، ومعنى دقيقٍ، فاتَني بعضُه فلمْ أَفهمهُ.

فأتيتُها أنشدُ ما عندَها من رؤًى ووساوسَ، وقدْ بذرتْ في جسدي الشهوةَ، وأكبرتِ النارَ. فسلَّمتُ فأجفلتْ ظاهراً ثمَّ وَعَتْني بقلبِها فقالتْ: خيراً سلاماً.

فقلتُ: أيُّ شيءٍ أَوْقَفَكِ على رأسِ هذهِ البئرِ التي غاضَ ماؤُها، وما حالُ كلامِكِ غَمُضَ عليَّ أكثرُهُ؟

فسكتَتْ ساعةً أو بعضَها، فإذا هيَ آيةٌ ترنُو إليّ كحُلمٍ وقالتْ:

كانتْ هذهِ البئرُ لقومٍ علَى السّليقةِ الحسَنةِ[1]، منها زادُهم وإليها وُرودُهُم وشُرودُهم. فانتسبوا إليها فَهُمْ من صُلْبِ مائِها، وترائِبِ طينِها. يختلفُ إليها الفتيانُ يَنهبونَ قلوبَ العذارَى نهباً، فيكونُ شعرٌ وشدوٌ ورقصٌ. فقامَ في القومِ داعٍ يقولُ بالحلالِ والحرامِ، ويرسمُ الشّريعةَ بالروايةِ والسّنَدِ، عندَهُ منِ الأوراقِ ما يسقطُ على الجملِ الفحلِ فيقصِمُ ظهرَهُ. فسلّمَ لهُ صبيانٌ وتَبِعَهُ وِلدانٌ، ثُلّةٌ قلوبُها غُفْلٌ عنِ الخلقِ، جعَلوا اللهَ غايَتَهُم ومادَّتَهُم، فغلظُتْ أكبادُهُم، وانعقدَتْ ألسنتُهُم، فحديثُهم هجرٌ وفكرُهم غُثَاءٌ. يَهبُّونَ للنصوصِ رجلاً واحداً، جناتٌ

---

[1] كنتُ في بعض السنينِ سائحاً في بَرِّ تُمْبُكْتُو من بلادِ مالي، فنزلتُ بدارِ أستاذَتي فاطمةَ بنتِ حالِ الودِّ. فبينما نحنُ نسيرُ ببعضِ نواحي الصحراءِ إذ بقومٍ على البدائيّةِ الأولَى يورِدونَ إبلَهم، طوالُ القامةِ، جميلو المحيّا، لا يَسترونَ أجسادَهم. ورأيتُ الفتياتِ يمشيَن الهُوينا، صدورُهُنّ كالعناقيدِ قُدّتْ من أجسادٍ كالنخلِ، وبطونُهُنّ استَوتْ فلا تُخمةَ فيهنّ ولا كسلَ. فرأتْ أستاذتي في عينيَّ معنى الإعجابِ، فقالتْ: هؤلاءِ أهلُ سليقةٍ وفطرةٍ دخلَ بعضُ أهلِ الشرائعِ على إخوانٍ لهم فأفسدوا عليهِم فرحَهم وأدخلوا فيهم الريبةَ والفتنةَ، فغطّوا أبدانَهم بالخرقِ السوداءِ وانكشفتْ أرواحُهم للفسادِ والعطبِ، فهربَ هؤلاءِ ببراءَتِهم إلى هذه الناحيةِ من البرّ الصحراوي.

قلتُ: فتعجّبتُ من شَبَهِ خبرِهم بخبرِ بلخير الغدامسيّ وكأنَّهُ، رحمَه اللهُ، رآهُم أو رأى أشباهَهم في أيامِه التي لم نشهدْها وأسفارِه التي فاتتنا مَطاياها.

آجلةٌ لما حُرِموا عاجِلةً[2]، ويَغُضّونَ عنِ الشهواتِ خوفاً لا أَنَفَةَ فيهِ. فنظَروا بعينِ المقتِ إلى حالِ قومِهم منَ الفرحِ، وقاسوهُ بما حفظوهُ منَ الروايةِ وأخبارِ الرجالِ، فوجدوهُ بِدَعاً باطلاً، فدافعوا قومَهَم عنهُ. فلما ثَبُتَ الناسُ علَى السّرورِ قالَ كبيرُهم الماءُ أصلُ مَفْسَدَتِهم، ومَجْمَعُ غِوايتِهم، فإذا غاضَ غاضُوا، وإنْ فاضَ فاضُوا، فعليكُم بهِ. فظلَّ أصحابُ النصوصِ يهيلونَ الترابَ على البئرِ ويرمُونَها بالجيفِ والقذارةِ، حتى عافَهَا الناسُ وهجروهَا. وحيلَ بينَ العشَاقِ فخَلا شِعرُهم منَ المعْنى ولم يَقْدروا على غناءٍ أو رقصٍ. فتفرّقَ شملُ القومِ إذْ فَقَدُوا مَغانيهم وأيامَ سرورِهم. وقالَ وِلْدانُ القراطيسِ لا نفتأُ وفي الأرضِ بئرٌ واحدةٌ عليهَا يقومُ سرورُ الخلقِ بالباطلِ.[3] فَهُمْ منْ ذاكَ اليومِ مُهاجرونَ في طريقِ الدّيانةِ لا يحيدونَ عنهُ حتى يُرْزَأَ الخلائقُ في مباهِجِهم أو يُغادرُوها مُختارينَ.

---

[2] قالتْ سيّدتي الواجدةُ باللهِ سمرُ الزمانِ المهديّةُ: لا يفلحُ قومٌ يريدونَ الآجلةَ دونَ العاجلةِ، وإنما الخلافةُ والعاقبةُ والمثوَى في الدارِ الأولى، والدارُ الثانيةُ مقامُ غيبٍ لا نستعجلهُ ولا نأمنُهُ. قلتُ: عنَتْ بالخلافةِ العملَ الذي لا يكونُ إلا في الدارِ الأولَى، وبالعاقبةِ حاصلَ العملِ من سعادةٍ أو حزنٍ للناسِ وهذا أيضاً في الدارِ الأولى، وبالمثوَى ما يستقرُّ عليهِ الأمرُ للجيلِ والجيلينِ من الخلقِ، إمّا عدلٌ في الأرزاقِ والعلومِ وإما أثَرَةٌ وظلمٌ، وهو أيضاً من صُلبِ هذهِ الدارِ.

[3] قالتْ فاتنةُ بنتُ سمرِ الزمانِ: "وِلدانُ القراطيسِ" فتيانٌ ورجالٌ وكهولٌ أسلمُوا أنفسَهم للأحاديثِ والروايةِ، وأوثقوا عقولَهم بأوتادِ النصوصِ والمتونِ، وأغلقوا قلوبَهم عن الفكرِ والنظرِ، يقولونَ "الاتّباعَ، الاتّباعَ، ولا قولَ إلا قولُ الأوّلين". فوجوهُهم من هذا وَحْشةٌ، وألسنتُهم سوءٌ، وأيديهم باطلٌ. وهم في زمانِنا هذا ملكوا واشتدَّ بأسُهم من الجهلِ، وحالِ المعيشةِ، ومنفعتِهم لسلطانِ الظلمِ في العالمينَ.

فلمّا سمعتُ قولَها لامسَ قلبي عطشٌ جليلٌ، وناشَ بدني أسًى غالبٌ، حتى سألتُها: فكيفَ مُقامُكِ يا بنتَ الإنسانيّةِ على البئرِ الموؤودةِ ولا فتىً يُؤنسُ ولا أُغنيةٌ؟

قالتِ البنتُ: أنا مريدةٌ عاشقةٌ، خَصّني الحقُّ بمقامِ الماءِ، الذي هو الغمرُ، فأجرَى علَى يديَّ ألفَ كرامةٍ، في كلِّ كرامةٍ سرورُ ألفٍ من الخلقِ، وهذا من حاصلِ العملِ الطيبِ والقلبِ الذي علَى الطريقِ. فجاءَنِي في بعضِ أحلامِي وقالَ لِيْ: "اخْرُجي عنِ الناسِ إلى الماءِ الذي كانوا عليهِ أيامَ سُرورِهم، فتكلّمي بالبشاراتِ ووسوسي بالأسرارِ المكينةِ، حتى يشهدَ وقفتَك على البئرِ خليفةٌ باكرٌ ذو جهدٍ ومثابرةٍ، وكدحٍ ومصابرةٍ، قلبُه يتاخمُ البداياتِ، وعقلُه متصلٌ بالكونِ الكبيرِ، يسألُكِ عنْ حالِ الخلقِ ويبكي عليهِم، فإنْ شَهِدْتِ عليهِ علامةَ الولايةِ وشارةَ الإنسانيّة، أقيمي أمرَ البئرِ بالكرامةِ منكِ ومنهُ، وادخُلِي في عملِهِ حتى يكونَ منْ أصلِ عملِكِ، وفي فرحِهِ حتّى يكونَ سُرورَكِ المخصوصَ". فخبِّرنِيْ عنْ حالِكَ ما هُو حتّى أعرفَكَ؟[4]

---

[4] قالَ الإمامُ أحمدُ: إنّ الشيخَ والمريدَ يلزمُه بنتٌ كهذهِ تقفُ له علَى بئرِ العلومِ، فإنّها حَريّةٌ أن تخترقَ حجابَ الغفلةِ وتنتهكَ سياقَ الغيبةِ وتقدحَ صوّانَ القلبِ، وهذا ينفعُ الجسدَ والقلبَ والعقلَ مرّةً واحدةً. قالتْ مولاتي خديجةُ الشنقيطيّ: وتقدرُ أن تقولَ يا أحمدُ إنّ الأستاذةَ والمريدةَ ينبغي لها رجلٌ كالغدامسيّ يتلقّاها عندَ ماءِ المعارفِ فيَضِجُّ بها عشقاً ويفتحُ علَى يديها أبوابَ الكشفِ ويتاخمُ بها أرضَ التجلّياتِ، وهذا ينفعُ الجسدَ الحوّائيَّ والقلبَ الإنسانيّ والعقلَ الكونيَّ في مقامٍ واحدٍ. قالَ الإمامُ: باهي، باهي، يصيرُ، يصيرُ.

فما قَصصتُ عليها خبرَ غيبَتي ومواسمي الأُولَى وكيفَ كانَ مِنْ أمرِ بناءِ الحديقةِ حتى قالتْ: إني والذي جعلَ الماءَ فرحاً للخلقِ أراكَ هُو.

فأَخَذْتُها وأَخَذَتْني، وأقمْنا البئرَ في عُمْرٍ من الدهرِ، فانفجرَ الماءُ يخرجُ منهُ رَوِيّاً، فإذا بهِ مُستوياً عليهِ، وإذا هوَ سرُّ الماءِ الذي غمرَ العالمَ أولَ الأمرِ، فجاءَني علَى لُجّتِهِ وقالَ ليْ:

الماءُ عُرْسُ العَالِم.

وقالَ ليْ: الماءُ سفرُ الاسمِ، اسمِك، في العالم.[5]

وقالَ ليْ: الماءُ موسيقَى الأشياءِ.

وقالَ ليْ: موسيقى الأشياءِ إيقاعُها وهي تتّصلُ بالمجرّاتِ وتخترقُ الفضاءَ وتسكنُ ذراتِ العناصرِ.

وقالَ ليْ: سكنَ الماءُ الأشياءَ ليُظهِرَها لكَ، ووقفتَ أنتَ إزاءَها لتُظهرَها لي، فالماءُ يُسفرُ عن العالمِ لكَ، وأنتَ تُسْفِرُ عنهُ لي.

وقالَ ليْ: الماءُ مني قبلَكَ في ضميرِ الوقتِ: فاضَ مني قبلكَ، ولمستُهُ بالنار، التي

[5] حدّثني مُعلّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى أن الماءَ أوّلُ القاعدينَ وأوّلُ المسافرينَ وأولُ الآيبينَ. فمُقامُ قعودِه الثلجُ، ومقامُ سفرِه الأنهارُ، ومقامُ أوبتِه السحابُ. وقَدْرُه بين المقاماتِ طرفةُ عينٍ جُعلتْ فيها الشهادةُ الكاملةُ. قالَ: هي شهادةُ وحدانيةِ الحقّ بإقامةِ الشركِ في كلِّ ما عداهُ، فالفكرُ شِركٌ والعملُ شِركٌ والأصولُ شِركٌ، فطوبَى للمُشركين. قلتُ: الشركُ لغةٌ في الإشراكِ والشِّركةِ والمشاركةِ، وكلُّها يُوَحَّدُ بها الحقُّ، وتتعلّقُ السبحانيةُ من جهتِها بالأحَديّةِ الصمديّةِ.

هي أسمائي، قبلَكَ، واستخلفتُهُ قبلَكَ.

وقالَ ليْ: الماءُ خليفةٌ.

وقالَ ليْ: خِلافةُ الماءِ سُنّتي التي في اللوحِ، وخِلافَتُكَ سُنَّتُكَ التي لم يأتِ بها اللوحُ ولكن شُبِّهَ لكَ.[6]

وقالَ ليْ: خلافتُك سطوةٌ وكلُّ سطوةٍ هي قهرٌ ضرورةً، ولو كانتْ سطوتَك أنتَ.

وقالَ ليْ: سطوةُ الماءِ لا تخرجُ عن الميزان، وسطوتُك تربكُ الميزانَ.

وقالَ ليْ: الماءُ أصلُ الميزانِ الذي يقومُ بهِ العالمُ.

وقالَ ليْ: الميزانُ يجري كالماءِ علَى حسبةِ العدلِ في نهرِ الرحمةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: الذينَ يُنقِصُون من أطرافِ الماءِ في العالمِ ينوشونَ الميزانَ فلا تستقيمُ حِسبةٌ ولا يصحُّ ترتيبٌ ولا تَسُدُّ مراجعةٌ.[7]

وقالَ ليْ: ميزانُ الكونِ واحدٌ في مقام الصّمديةِ الكاملةِ، فهُو لغةٌ في الوحدانيّةِ

---

[6] قالتِ العارفةُ باللهِ، مُزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ: سُنّةُ اللهِ القَدَرُ وسُنّةُ الخليفةِ القُدْرةُ. فالماءُ مقدورٌ عليهِ ولا قُدرةَ أي إرادةَ لهُ، وهذهِ سُنّةُ اللهِ فيه. والخليفةُ قادرٌ لا يكادُ يجري عليهِ قَدَر إلا بحسبةِ السبحانيةِ الغالبةِ، وهذه سُنَّتُهُ، أيِ الخليفةُ، في نفسهِ وفي العالمِ. قالتْ: إنّ في قُدرةِ الخليفةِ معنى العملِ الذي هو أصلُ الخلافةِ، وفي مقدوريّتهِ معنى العجزِ الذي هو أصلُ الرحمانيّة.

[7] كتبَ الإمامُ أحمدُ الدرّيُّ أن الميزانَ الموضوعَ بالحقّ واحدٌ في حِسْبَتِهِ، كثيرٌ في هيئَتِهِ. ومن هنا افترقَ عنِ الحقّ الكاملِ الذي هو واحدٌ في الحسبةِ والهيئةِ معاً. فسبحانَ المتفرّدِ لم يشارِكْهُ شيءٌ في شيءٍ، إلا وهْماً من لَدُنِ الظنّ والفكرِ. قلتُ: "الحِسبةُ" مثلُ أن الواحدَ والواحدَ اثنانٌ، وهيئاتُ ذلكَ كثيرةٌ مثلُ كلّ الأعدادِ، وكلّ حواصلِ الجمعِ والقسمةِ، ومراتبِ الفهمِ السليمِ.

التي تجدُها في الكتابِ.

وقالَ ليْ: ميزانُ الكونِ مني فإنْ تَجَرَّأْتَ عليهِ تجرأتَ عليّ.

وقالَ ليْ: لا يزالُ الماءُ في سياقِ السفرِ فرحاً لك وللخلقِ، فإن قعدَ وركدَ ناشَهُ الحزنُ وتَسَنَّهَ بالوجعِ.

وقالَ ليْ: قلبُك من هذا الماءِ، أو هذا الماءُ من قلبِك.

وقالَ ليْ: لأيِّ شيءٍ تَثْبُتُ في رُواءِ بدنِك والعالمُ من حولِكَ في مُقامِ "يكادُ" — الماءُ ثلجٌ يتربصُ، والثلجُ بخارٌ آتٍ، والبخارُ ماءٌ سيكونُ.

وقالَ ليْ: لا تجعلني ثَباتاً في فكرِكَ بلْ حركةً في مُقامِ "يَكادُ". إنْ ثَبَّتَّ اسمي فيكَ أَسِنَ، وإنْ حَرّكْتَهُ فاضَ.[8]

وقالَ ليْ: الماء سُكونُ العالمِ وحركتُهُ.

وقالَ ليْ: أنتَ ماءُ الكونِ.

---

[8] قلتُ: كانَ مولايَ العرْبي بن امْهيدي صاحبَ الحضرةِ الصوفيّةِ عندَنا والمقدَّمَ في علومِ الوجدِ والمجذوبيّةِ. فمِنْ أسرارِ إمامتِه للأشواقِ أنّهُ يحثُّنا إلى اسمٍ من الأسماءِ علَى التخصيصِ اللذيذِ الذي ينفعُ للهُيامِ والرّقصِ. فمرّةً يقولُ تمايلوا علَى اسمِ الجميلِ، ومرّةً علَى اسمِ السّكرانِ، ومرّةً علَى اسمِ الثُّمالةِ. قلتُ: وكلُّها أسماءٌ حسنةٌ غيرَ أن كثيراً منها لم يَرِدْ بينَ الدَّفّتينِ. قالَ العرْبي: القلبُ أوسعَ مما بينَ الدَّفَّتَيْنِ. قلتُ: والسّفرُ الذي يريدُه مولايَ بين هذهِ الأسماءِ ينفعُ لأنَّ الاسمَ الواحدَ كالماءِ إذا ركدَ في قلبِ العارفِ أَسِنَ. قلتُ للعرْبي: فأَمشي بينَ البناتِ حتّى لا يَتَسَنَّهَ اسمُ بنتٍ واحدةٍ في قلبي؟ قالَ: يا ولدْ! هذهِ أسماءٌ ظاهرةٌ وتلكَ أسماءٌ حَسنةٌ، فإنْ أردْتَ ألا يَأْسَنَ ماءُ البنتِ الواحدةِ في قلبِك فاسْعَى بينَ أحوالِها وأشواقِها وآمالِها فهذهِ أسماؤُها الحسنةُ، فإذا أنتَ تعرفُ منها جديداً، وتَتذوّقُ نضارةً، وتهيمُ بصبحٍ لم تطلعْ شمسُه من قبلُ.

وقالَ لِيْ: أنتَ الماءُ الكامِلُ، منكَ كلُّ شيءٍ صارَ، وإليكَ كلُّ شيءٍ يصيرُ.

وقالَ لِيْ: الكونُ بين حالِ أن يصدرَ عنكَ أو يرجِعَ إليَّ، فأمّا ما ركدَ خرجَ عن حُكمِ الكينونةِ.

وقالَ لِيْ: الماءُ الجاري الذي لا يحضرُ وقتَ صلاتِكَ اطلبْهُ حتّى يكونَ ماءَ كلِّ صلاةٍ.[9]

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي لا يكونُ عليهِ فرحُ خلقي آسِنٌ وإن جرَى كالغَمْرِ.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي يحضرُه الخلقُ فيعبثونَ عليهِ ويلهونَ ويشربونَ ويسقونَ، لا يتسنّه.

وقالَ لِيْ: أنا ماءُ قلبِك، ثم تمشي في الأسواقِ تقولُ ظمأتُ؟

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي يكرِعُ منهُ الكادحونَ يطلبُ شفاهَهم كأنَّ معناهُ منهُم.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي تقفُ على أوّلهُ يطلبُكَ آخرُه.

وقالَ لِيْ: العاشقُ الذي يذوقُ أوّلَ الوصالِ يشتاقُه آخرُ الوصالِ.

وقالَ لِيْ: آخرُ الوصالِ كآخرِ الماءِ، دفقٌ غامرٌ.

وقالَ لِيْ: آخرُ الوصالِ لا بدَّ أن يمشي بكَ إلى أوّلِ الوصالِ فلا تتبدّدَ.

---

[9] قال أخي الصّدّيقُ بنُ عبدِ الله السّاقي: الماءُ الجاري هو العلومُ الحسنةُ التي تَلزمُ الإنسانَ في معيشتِه ومناهضتِه وروحانيّتِه. وهذه كلُّها، أي المعيشةُ والمناهضةُ والروحانيةُ، هي الصلاةِ التي قصدَها الغدامسيُّ، وإلا فإن الصلاةَ المفروضةَ بالشعائرِ ينفعُ معها ماءُ الحنفيّةِ. قالَ: وأكثرُ الماءِ جرياناً، يعني أحسنَ هذه العلومِ وألزمَها للبني آدم، ما كشفَ له عن نُظُمِ الأرزاقِ وأنساقِ الاجتماعِ ثم مشَى به إلى الروحانيّةِ التي تسندُها الفنونُ والآدابُ وبعضُ الوهمِ والتخييلِ.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي تركضُ أوّلَهُ بقدميكَ يجري آخرُه تحتَ عرشي.[10]

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي يدخلُ على قلبِك بعرسِ العالِمِ يصلحُ للوضوءِ.

وقالَ لِيْ: الوضوءُ أدبٌ مع العالِمِ في مقامِ الوصالِ، بماءِ العلومِ المركوضةِ.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي تشربُ منهُ يدخلُ في معناكَ قبل أن يدخلَ إلى عروقِك.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي تشربُ منهُ تشربُ من معناهُ هو.

وقالَ لِيْ: إن شربتَ من ماءِ مُحتكرٍ ناشكَ معنَى الحُكْرَةِ، وإن اغتسلتَ بماءٍ راكدٍ ركدَ قلبُك.

وقالَ لِيْ: الماءُ الذي تمنعُه عنِ الخلقِ يمنعكَ عنّي.

---

[10] كانتْ مدرستُنا واسعةً ومبنيّةً على معمارِ المغاربةِ على رأسِ بئرٍ كانتْ تَسقي الناسَ والزرعَ، وملحقٌ بها ديارُ الإقامةِ والمعيشةِ، ثم ورشٌ للصناعاتِ، ومسجدٌ صغيرٌ، وزاويةٌ للخلوةِ الصوفيّةِ يَتّصِلُ بها بستانٌ للنبتِ وبعضِ الطيرِ والحيوانِ. وكان فيها تُسعونَ تلميذاً وثلاثونَ أستاذاً يَزيدون ويَنقُصون. فأخذتْ أُستاذتي زِينةُ العالمَين راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ، أستاذةُ المحبةِ والمكابدات، في مساجدِ وزوايا العجيلات، على نفسِها أن تجعلَ المدرسةَ روضةً تجري من تحتِها الأنهارُ. فأَصْعَدَتِ الماءَ من البئرِ بناعورةٍ تُديرُها بغلةٌ ثمّ بغلةٌ أخرَى، فإذا الماءُ يسيلُ في قناةٍ مفتوحةٍ كأنها نُهَيْرٌ يمشي خلالَ فضاءِ المدرسةِ، والورشِ، والمسجدِ، والبستانِ. فصِرنا نتوضّأ من النهرِ، ونشربُ، ونُقِرّ أعيُننا بمائِه، وسَمْعَنا بخريرِه، ونَعقِدُ حولَه الدّرسَ وحلقاتِ الذكرِ. قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيُّ، رفيقُ الكادحينَ، وملجأُ المظلومينَ، إمامُ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمُ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة: من جعلَ للناسِ نهراً، يجري عفواً أو قسراً، جعلَ الله له نهرين من لبنٍ وعسلٍ علَى بابِ دارِه في الجنّةِ. قلتُ: ومازلتُ أجدُ في جَلستي علَى نهرِ الأستاذةِ لذةً لا تَسَعُها العبارةُ.

وقالَ ليْ: الماءُ الذي تُشرِكُ فيهِ الخلقَ تجدني عندَه.

وقال لي: الشِّركةُ بينكَ وبينَ الخلقِ استدعاءٌ لحضرَتي.

وقالَ ليْ: الماءُ الذي يجري من قلبكَ في العالمِ هو معناكَ في مُقامِ الشِّركةِ.

وقالَ ليْ: الماءُ الذي لم تركضْهُ برجليكَ ولم تَسْقِ منهُ الظامئينَ تمشي عليهِ فلا يُصيبُكَ البللُ.

وقالَ ليْ: الماءُ الذي لا ينوشُك بَلَلُهُ وهمٌ.[11]

وقالَ ليْ: البللُ غايةُ الماءِ.

وقالَ ليْ: البللُ كلامُ الماءِ.

وقالَ ليْ: البللُ أثرُ الماءِ في قلوبِ العارفيَن.

وقالَ ليْ: لا يخشَى البللَ إلا من يخشَى حُجّةَ الماءِ.

وقالَ ليْ: حَدُّ الماءِ الارتواءُ.

وقالَ ليْ: حدُّ الماءِ مُفارقةُ العطشِ.

وقالَ ليْ: الارتواءُ علامةُ المفارقةِ.

وقالَ ليْ: الارتواءُ وهمُ العلومِ في قلوبِ العارفينَ.

وقالَ ليْ: العارفونَ لا يفارقونَ العطشَ.

---

[11] قالتْ سَيّدتي الواجدةُ بالله سمرُ الزمانِ المهديّة، سيدةُ المواجدِ والإشارات، في واحاتِ سبها وغات: من تكلَّمَ ولمْ يظهرْ عليهِ أثرُ الكلامِ لمْ يتكلَّمْ، ومَنْ فعلَ ولمْ يتبدّلْ حالُهُ بالفعلِ لمْ يفعلْ ولكنْ شُبِّهَ لهُ. قلتُ: وأكثرُ أقوالِ الخلقِ وأفعالِهم ليسَ لها بللٌ يصيبُ القلوبَ أو الأبدانَ وإنما هيَ أوهامٌ يعملونَها من معارفَ ناقصةٍ وعلومٍ مبتورةٍ ونِيّاتٍ مَشوبةٍ بالظلمِ والاستئثارِ لا تصحُّ للإنسانِ الكاملِ.

وقالَ لِيْ: الارتواءُ أثرُ العلومِ الجاريةِ التي تصيرُ مؤونةً للعملِ ومدداً للزرعِ والأغنياتِ.[12]

وقالَ لِيْ: العطشُ سفرُ الماءِ في قلوبِ العارفين.[13]

وقالَ لِيْ: العطشُ لغةٌ في الارتواءِ.

وقالَ لِيْ: العطشُ حجةُ الماءِ.

وقالَ لي: حجةُ الماءِ مدادٌ للعلومِ التي يرهقُ الحافظونَ على عتباتِها الأولى.

وقالَ لِيْ: عطشُكَ إليَّ عينُ ارتوائِك منّي، وعطشُكَ إلى عُلومي عينُ العلومِ

---

[12] قال شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى: لا تصحُّ صلاةُ الاستسقاءِ لعارفٍ حتى يجعلَ في دعائِه أن يا ربُّ هبْ لي من لَدُنّكَ علماً أضربُ به السحابَ بالسحابِ فينزلُ الغيثُ فلا أعودُ أستسقيكَ بعدَها إلا كرامةً وكنايةً عن الحبّ. قلتُ: وهذا كلامٌ دقيقٌ يَستوحِشُهُ غالبُ الناسِ.

[13] بينما أنا مسافرٌ في مُقاماتِ الأحلامِ، أكلّمُ الأوهامَ وتُكلّمُني، رأيتُ شيخي الفتحَ المجتبَى يَخرجُ من بابِ الغرباءِ، بأرضِ الملكوتِ الأعلَى، يمشي علَى مهلٍ وقدِ التحفَ برداءٍ من نورٍ، وعليهِ هيبةٌ لا تَصِحُّ لبشرٍ. فكأنَّني فزعتُ منهُ لحالِهِ العجيبِ، فقالَ: دخلتُ عليهِ أريدُ أن أنهلَ منهُ، فلمّا رأى علومي ومَعارفي سبقَني إليها فشربَ منها حتى ارتوَى، فخرجتُ عطشاناً عليَّ نورُ العطاءِ وهيبةُ الإغاثةِ، وجلسَ هو مرتوياً علَى عرشِ المعارفِ والعلومِ.

قلتُ: معارفُ الشيخِ وعلومُهُ، التي لا يقترفُها الحقُّ، ما يكونُ علَى بدنِ ابنِ آدمَ وقلبِهِ من أثرِ الكدحِ والعملِ والبلاءِ، فالحقُّ لا يكدحُ ولا يعطشُ ولا يصيرُ عليهِ ظلمٌ ولا يُسلبُ رزقُه إلا منْ مجازِ الكلامِ. ولهذا يقولُ العارفونَ إن الإنسانَ يعلمُ ما لا يعلمُه الحقُّ فحريٌّ به أن يَحكُمَ في شأنِه لا أن يُحكمَ فيهِ أو لهُ.

كلها.[14]

وقالَ ليْ: عطشُكَ إلى خَلقي مناهضةٌ تقومُ بها الأرضُ.

وقالَ ليْ: عطشُكَ إلى انعتاقِ الجماعةِ، ثم انعتاقُك منها، حكايتُكَ كلُّها.

وقالَ ليْ: عطشي إليكَ أكبرُ منْ عطشِ العالمِ إليَّ.

وقالَ ليْ: العطشُ أوّل الارتواءِ، من جهةِ أنّهُ تشوُّقٌ للماءِ.

---

[14] استخدمَ الإمامُ أحمدُ جَنايْنِيًّا يقالُ له جِرجسُ الأسيُوطي في زاويتِنا، له علمٌ بالنبتِ والزهرِ والتربةِ الصّالحةِ، وهو مع علمِه مُجتهدٌ دؤوبٌ على العملِ يَشْغُفُهُ سَقْيُ النّوارِ وإن ظلَّ هو علَى العطشِ. وكنتُ مع الشيوخِ والتلامذةِ نتذاكرُ في ظلِّ البستانِ وبينَ مياهِه ونُوَّارِه. فيَسمعُ الجنايْنيُّ كلامَنا في الإلهيّاتِ والإنسانيّاتِ والتجليَّاتِ فيُذْهَلُ من المعاني، ويُؤْخَذُ بجلالِ الأسرارِ، فيسألُ ويستزيدُ ويطلبُ الشواهدَ والإشاراتِ. فكنّا في كل حينٍ نُغلِقُ باباً من أبوابِ العلمِ وندخلُ علَى بابِ غيرِه، ثم نغادرُ هذا إلى آخَرَ نريدُ تمامَ العلومِ، والجنايْنيُّ لا يتزحزحُ عن أوّلِ مسألةٍ يقولُ لم ارتوِ منها. قالَ مَولاي تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: هذا العطشُ الذي بالجنايْنيّ يُبَلّلُ العروقَ، ويُذهِبُ الظّمأَ، خيراً من ريِّ الشيوخِ، وَسقْيِ الكتبِ، ونَهْلِ الأساتذةِ والتلاميذِ. قلتُ: ورأيتُه مرّةً يَغرسُ نبتاً وهو يجادلُ الشيخَ عبدَ الجبارِ المُجتبَى في اسمِ الله الأعظمِ يقولُ قدْ عَلِمْتُهُ. والشيخُ يقولُ: ياجنايني شنو أعلمَك؟ تأتي باسمٍ لا نعرفُه ولم نَرَهُ في كتابٍ تقولُ هو اسمُه الأعظمُ الذي بهِ يُدَبَّرُ الكونُ. قالَ: رأيتُه مرقوماً علَى شغافِ قلبي وأنا في الحضرةِ فلا يَغْشُّنِي قلبي ولا تَخذلني حَضْرَتُهُ. قالَ الشيخُ: فاكتبْهُ إذن حتّى يَعرفَه الخلقُ ويتدارسونَه في حلقاتِ العلمِ ويَستخدموه في مصالِحِهم. قالَ الجنايْنيّ جرجسُ الأسيوطيُّ: اسمُه الأعظمُ يُنادِي به القلبُ حِشمةً في مقامِ المحبّةِ الآسرةِ بين يدي الحضرةِ الغامرةِ وأنتَ تقولُ اكتبُوه علَى الورقِ! ومضَى يُقَلِّبُ الأرضَ، ويغرسُ النوارَ، ويمدُّ المسَاقي، كأنْ لم يَكُنْ شيءٌ.

وقالَ ليْ: العطشُ مسيرُك إليّ، والارتواءُ قعودُك بحضرَتي.

وقالَ ليْ: عطَشي لا يرويهِ العالمُ إلا بكَ.

وقالَ ليْ: عطَشي هو الحالُ الذي دخلَ بي إلى مقامِ النشأةِ الأولى فخلقتُ العالمَ به.

وقالَ ليْ: أنتَ ماءُ الربانيّةِ الذي يجري في العالمِ كنهرٍ من معانٍ لا يقدرُ غيرُك أن يأتي بها.

وقالَ ليْ: أنتَ البللُ الذي يَنوشُ اسمي وأنا في العالمِ.

وقالَ ليْ: البللُ لازمٌ للماءِ، مثلمَا أنتَ لازمٌ للعالمِ.

وقالَ ليْ: أنتَ بللُ العالمِ.

وقالَ ليْ: العالمُ المبتلُّ بكَ أبهَى من العالمِ الذي لمْ تَنُشْهُ مياهُكَ.

وقالَ ليْ: العالمُ المبتلُّ بكَ يُغرِقهُ معنىً واحدٌ من معانيكَ.

وقالَ ليْ: الماءُ الذي لا يُغْرِقُكَ أوّلهُ ربما أغرقَكَ آخِرُهُ.[15]

وقالَ ليْ: معناكَ ماءُ العالمِ.

---

[15] جاءَ رجلٌ ليسَ لهُ هيبةٌ ينتعلُ شِبشباً ويَحُكُّ فروةَ رأسِهِ بيدِهِ، فقالَ للإمامِ أحمدَ: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أذبحُكَ. فقالَ الإمامُ: كلامٌ هَيِّنٌ علينَا. فقالَ الرجلُ: فلمّا قَدَّمْتُكَ للذبحِ توجَّستَ خوفاً من الموتِ فأخَّرْتُكَ إلَى أجلٍ مُسمّى، فهلْ تجدُ في موضعِ نحرِكَ علامةً من منامي؟ فجعلَ الإمامُ يدَهُ في رقبَتِهِ يريدُ أنْ يعرفَ، فنقصتْ هيبتُهُ. فضحكَ الرجلُ وقالَ: يا إمامُ، ضحكتَ علَى أولِ الكلامِ فغلبَكَ آخرُهُ، فلا تُهَوِّنِ العبارةَ حتّى يُحدثكَ منها طرفُها الذي لا تراهُ. فسكتَ الإمامُ ثمّ قالَ: صَدقتَ، فهاتِ ما عندَكَ. فتكلّمَ الرجلُ.

وقالَ ليْ: الذين يَبتلُّونَ بماءِ العالِمِ تظهرُ عليهِم أسماؤُه المخبوءةُ في اللُّجَّةِ.

وقالَ ليْ: المبتلُّونَ بالعالِمِ يصيرُ لهم حضورُ اللُّجَّةِ فيدخلونَ علَى بحرِ المعاني وهم على صفحةِ الماءِ كأنَّهم منهُ.

وقالَ ليْ: الذينَ علَى صفحةِ الماءِ يمشونَ فلا يتوجَّعُ لهم، ولا تَمُورُ لُجَّتُهُ، ولا يضطربُ غمرُه.

وقالَ ليْ: الذي يمشِي علَى صفحةِ الماءِ لا بدَّ له من أن ينزلَ إلى الغمرِ.

وقالَ ليْ: الغمرُ ماءٌ آخرُ.

وقالَ ليْ: الغمرُ بللُ الغرقِ، وأنتَ تريدُ بللَ النجاةِ.[16]

وقالَ ليْ: الغمرُ مغامرةٌ محفوفةٌ بالأسماءِ.

---

[16] قلتُ أنا موسَى: دخلَ رجلٌ ذو علمٍ علَى الإمامِ أحمدَ وهو جالسٌ يَخيطُ نَعْلَهُ فقالَ: يا أحمدُ، هاتِ لي شيئاً من أَسرارِكُمُ الجليلةِ، وعلومِ السدرةِ، التي لا يَصِلُها إلا العارفونَ، فإني أريدُ الخوضَ في الحقائقِ اللَّدُنِّيّةِ. فمَدَّ له الإمامُ أوراقاً كانتْ أمامَه فيها من كلامِ السَادةِ ما فيها. فأخذَها الرجلُ ثم جاءَ بعد ثلاثةِ أيامٍ وهو محمومٌ فقالَ: إنما أردتُ النجاةَ يا إمامُ وهذا الكلامُ يُلقي بقلبي إلى غَمْرٍ شديدٍ، ولا خَشَبَةَ لي من سفينةِ المعرفةِ أتشبّثُ بها حتى تذهبَ بي إلى ساحلِ الغوثِ. قالَ الإمامُ: فخذِ الكتابَ فهو سهلُ الغمرِ لا يَنُوشُكَ منهُ غيرُ البَلَلِ. قالَ الرجلُ: نعمْ ولكنّه لا يَقدحُ صُوّانَ القلبِ. قالَ الإمامُ: سبحانَ اللهِ، هُمامٌ تَطلبُ قدحَ النيرانِ لقلبِك ثم تخشَى عليهِ من غمرِ الماءِ! قالَ الرجلُ: فكيفَ أصنعُ؟ قالَ الإمامُ: أنتَ من أهلِ الوسطِ بين البللِ والغمرِ وهم أهلُ خيرٍ علَى كلِّ حالٍ، فاسْتَمْسِكْ بالكتابِ ثمّ واسِي قلبَك ببعضِ الشعرِ والغناءِ والمجاهداتِ والكلامِ المفرّقِ. فأمّا غَمْرُ السّادةِ فأنتَ وقلبُك في حِلٍّ منهُ. فاطمأنَّ الرجلُ واستمسَك بالكتابِ وشيءٍ من الأدبِ والعباداتِ ولم يَعُدْ يطلبُ الأسرارَ.

وقالَ ليْ: الأسماءُ ذاتي في مقامِ الغمرِ، فحينَ تبتلُّ بالغمرِ تبتلُّ بأسمائي.

وقالَ ليْ: البللُ متعلّقٌ بالأسماءِ لأنه متعلّقٌ بالبحرِ المحيطِ.

وقالَ ليْ: دفقُ الماءِ من دفقِ الاسمِ الأعظمِ الذي لم أُعَلِّمْكَ إيّاه.

وقالَ ليْ: دَفْقُ الماءِ إشارةٌ بدفقِ المعارفِ التي تفيضُ عني إلَى جهاتِك.

وقالَ ليْ: دفقُ الماءِ يصيرُ نهرَ العلومِ الذي يجري بالمعارفِ في أرضِ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: من أرادَ أن تأخذَه العلومُ وقَفَ في مجرَى سيلِها ثم يقولُ أَقْبِلي.

وقالَ ليْ: الغرقُ غايةُ الذي يدخلُ علَى الماءِ فمنْ غرقَ ربّما وصلَ.

وقالَ ليْ: الغارقونَ يتغرغرونَ بالماءِ يظنّهم الذي لم يمسَسه ماءٌ أنهم يتكلمونَ بالعلومِ.

وقالَ ليْ: الذي يغرقُ لا يتكلّم حتّى يتنفّسَ من الماءِ الذي أغرقَهُ فتخرجُ منه معارفُ شديدةٌ وأسرارٌ جليلةٌ لا يقدرُها الذي لم يغرقْ.

وقالَ ليْ: الغارقونَ يَتّقِدونَ بالمعارفِ وهم في متنِ الماءِ فلا هو يُطفي وَهَجَهُم ولا هم يَغرقون ويَسكُتون.

وقالَ ليْ: لا عليكَ إن تَكلّمتَ وأنتَ تغرقُ، فالعجيبُ الغرقُ والعلومُ، فأما الكلامُ فيحصلُ عنكَ في مقامِ الغرغرةِ.

وقالَ ليْ: الغرغرةُ كلامُ القلوبِ التي غمرَها ماءُ العلومِ.

وقالَ ليْ: الغرغرةُ إشارةٌ على دخولِ القلبِ إلى مقامِ الماءِ من عتبةِ الغمرِ.

وقالَ ليْ: الغرغرةُ إشهادٌ للعالِمِ على وصولِ الماءِ، وتبديدِ العطشِ الذي أحاطَ بكَ.

وقالَ ليْ: الغرغرةُ إشارةٌ على أثرِ الماءِ فكيفَ تعرفُ الماءَ الذي لا تتغرغرُ به؟

وقالَ لِيْ: عتبةُ الغمرِ غرغرةٌ أولى فما تعملُ حين تتغرغرُ آخراً؟[17]

وقالَ لِيْ: الغرغرةُ الآخرةُ ماءٌ لم تغرقْ فيه ولم يَنُشْكَ بَلَلُهُ ولم تَمْشِ علَى صفحتِه حتى تدخلَ إلى وقتِه وتقفَ بساحلِه.

وقالَ لِيْ: الغرغرةُ الآخرةُ إذنٌ لكَ بالغرقِ.

وقالَ لِيْ: الغرغرةُ الآخرةُ معراجٌ.

وقالَ لِيْ: الغرغرةُ الآخرةُ همهمةُ الماءِ يريدُ أن يُكلّمني بكَ.

وقالَ لِيْ: الذي يسمعُ همهمةَ الماءِ يتوضّأُ ثمّ يدخلُ.

وقالَ لِيْ: الذي يتوضّأُ تحصلُ له الصلاةُ وهو لم يَقِفْ بين يديَّ، فإذا وقفَ وصلَ.

وقالَ لِيْ: إذا حضرَ ماؤُكَ عندَ الصلاةِ، بَطُلَ التَيَمُّمُ بي.

---

[17] وجدتُ نافعاً البهلولَ، وهو درويشُنا والمقدّمُ في مقامِ البركةِ القلبيّةِ عندنا، قاعداً في دارِ الدرسِ التي بالزاويةِ البستانيّةِ الطرابلسيةِ وهو يصنعُ شيئاً كالشرابِ في إناءٍ من زجاجٍ، فسألتُه عن حالِه فقالَ لي: آخذُ بعضاً من كراساتِ الشيوخِ في العلومِ فأنقعُها في ماءِ البئرِ الذي أَجْرَتْهُ أستاذَتي راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ فيكونُ من ذلكَ شرابٌ من حبرِ المعارفِ الجليلةِ. قلتُ: ثم ما؟ قالَ: أضعُه في فمي وأظلُّ أتغرغرُ به حتّى يصيرَ قلبي ترجمانَ العلومِ وكاتبَ سرِّ التجلّيَاتِ. قلتُ: يا نافعُ، إنما الغرغرةُ تشبيهٌ وكنايةٌ. قالَ: فاسألني علَى التحقيقِ. قلتُ: ما الحقُّ يا درويشُ؟ قالَ: أنا. قلتُ: فما الباطلُ؟ قالَ: ما عدايَ. قلتُ: فأنا باطلٌ؟ قالَ: وهل أنتَ إلا أنا أيها الإنسانُ؟

فعرفتُ أنه تغرغرَ بالحضرةِ التي ظهرتْ له في رُواءِ الماءِ والحبرِ من جهةِ البُهلوليّةِ. فقلتُ لهُ: يا نافعُ، اشربْ فإنّ الكأسَ التي بين يديكَ يكدحُ عليها العارفونَ 40 عاماً يشتهونَ رشفةً منها ولا ينالونَ.

وقالَ ليْ: أجيئُكَ في رُواءِ الأنهارِ، معي مساكينُ إن حَلفوا عليّ أنفذتُ أمرَهم، وإن كلّموني صَدَعَتْ لهم علاماتي وأسمائي، يَغتسلونَ بماءِ المعارفِ الأولَى، ويَرتوُونَ من ينابيعِ العلومِ المحفوظةِ، ويغوصونَ في لُجَجِ الأسرارِ. فإذا أنتَ إزاءَهم، يُفجعونَ بكَ، فتَنُوشُهُم منكَ الآياتُ، وتَتَنَزّلُ عليهم الإشاراتُ، وتخضعُ لهم المعاني والأصولُ. ويكونُ من ذلكَ فهمٌ، وتَمشي حافياً في الماءِ، يَدفقُ بارداً بين مسامِكَ حتى يصيرَ إليكَ بحرُ الولايةِ، ويُعجبَ الأصحابُ من أمرِك، ويركبونَ إليكَ الموجَ، يحسبونَه بعضاً منكَ، فيَتغرغرون في أولِ الغمرِ، ثم يُمعِنونَ في آخرِه، حتى يَصيروا بحراً وتَتّسِعَ أبدانُهم، فإذا قلوبُهم "وجَعلنا من الحبّ"، وإذا أنتَ كلُّ شيءٍ يُحِبُّ. فخذْ بيديكَ حِفنةَ الغمرِ العظيمِ، واغسلْ بها وجهَك المتعبَ من غربةِ الأرضِ، وتغرغرْ كالطائرِ المبتلّ بالوحيِ، ثم تكلّمْ بالنبوةِ، وخُطَّ الكتابَ الذي يجدرُ بالإنسانِ.

6. موسمُ الضوءِ

(وهو المسافةُ)

ومن أحوالِه الاستضاءةُ والخدشُ والوقتُ والمشكاةُ والوميضُ الأولُ
وحيّزُ القلبِ والظلُّ وموضعُ المداسِ والصخبُ والراهنيّةُ والإشارةُ الإلهيّةُ

وفيهِ غَمرتُ الحاجاتِ بنوري، وألبستُها بهائي، وأجريتُ عليها ألواني. فيَ ظهرتْ واحتجبتْ، ومنّي فاضتْ وغاضتْ، وعنّي استبانَ الخبرُ، وإليّ آلَ المقصودُ. وقبلَهُ جاءَتني المعاني كلُّها وقعدتْ قُدّامي، فغلبَهَا العجزُ أن تبينَ عن غايةٍ، والظُّلماتُ أن تَخْلُصَ إلى حقٍّ، وقد حكَمَها حالُ الغفلةِ، وأعمَاها مُقامُ الخواءِ. وكانَ بها انطفاءٌ بهيٌّ، ولعيونِها ظلمةٌ مهولةٌ، وعلَى وجوهِها أثرُ ليلٍ حالكٍ. فقدحتُها بحالِها ووقفتُ أرجو أوارَها. فأخرجتِ الظّلمةُ ظلمةً أشدَّ وأبقَى، وإذا قطعةٌ من الليلِ غلبتْ كلَّ نهارٍ، وإذا المعَاني محفوظةٌ عنِ الأفهامِ، مُعطّلةٌ عن الحكمةِ. فخُضتُ فيها كحاطبِ ليلٍ. فظللتُ خبطَ عشواءَ حتى وقعتُ علَى معنى النارِ.[1] فقَبضْتُهُ بيديَّ. وصرتُ إلى المعاني الأُوَلِ، فأخذتُ أمشاجَها وهيَ في الأرحامِ، فلمستُها بالنارِ التي صارتْ لي، فخرجتْ عنْ عهدِ البراءةِ، ونطقتْ بالأخبارِ، ولَغَتْ بالرّواياتِ، وتكلَّمتْ بالفكرِ في ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ. فانبثقَ القلبُ كمُزنةٍ حُبلَى، فما تركتْ سهلاً ولا وعراً، ولا فاتَتْها كنايةٌ أو إشارةٌ. فاهتزَّ سديمُ كُنْ، وأضاءَ ألفُ نجمٍ، واتّقَدَتْ أساريرُ الكواكبِ.

[1] كان صاحبٌ لنا في حالِ غفلةٍ عجيبةٍ، لباسُه باهتٌ، ومَشْيُه لا وثبَ فيهِ. فكانَ إمامُنا الدريُّ يقولُ: لا تقومُ فيهِ الحياةُ حتّى يَقْبِضَ قلبُه على معنىً بريءٍ يَفُضُّ بهِ بَكارةَ هذا الليلِ الذي هُو فيهِ. قلتُ: فحلفتْ بنتٌ نعرفُها أن تكونَ معناهُ ذاكَ. فتعرّضتْ له في بعضِ الصباحاتِ، فلمّا رآها ملكتْ عليهِ قلبَه من ساعتِه. فتبِعَها بخطوةٍ واثبةٍ، ولباسٍ جديدٍ، وصارَ يقولُ الشعرَ ويغنّي حتّى صارَ إمامَنا في الهوَى، ولواءَنا في المحبَّةِ. فضحكَ الإمامُ وقالَ: ليتَها تعرّضتْ لنا فأماطتْ عنّا لثامَ العلومِ وحجابَ الإمامةِ، ولكنّها هَوَتْهُ من قبل أن يَهواها، فهي استضاءتْ بهِ كما أضاءتْ لهُ شيئاً كثيراً.

فلمّا جاؤُوا بأيدِيهم المشاعلُ قالَ الناسُ فقدْنا آلهتَنا التي منها أضواؤنا. فجعلتُ لهم آلهةً من دونِهِ، فقدحوا لها المشكاةَ وأوقدوا النارَ الكاملةَ. فجئتُ إلى كلِّ إلهٍ فأطفأتُ نورَه، وإلى كلِّ وثنٍ فجعلتُه بدداً. فأَخذَني القومُ بالجحودِ، وهَمُّوا بي وهممتُ بهم. فسقطَ حجابُه بينَنا فلمْ يَروني. وكُشِفتْ لي نساؤُهم وذرارِيهم، فوقعتُ عليهن، فحلفنَ عليَّ ألا أُهاجرَ في الأرضِ. فأخذتُهُنَّ من أثدائِهنَّ وخرجتُ بهنَّ، وأثخنتُ فيهنَّ. فلمَّا قامَ الفجرُ قامَ ألفُ رجلٍ من صُلبي علَى الحقّ، وجاءتْ ألفُ امرأةٍ فانتسبتْ إليَّ. فوسمْتُهم بشاراتِ الصحابةِ، وأكرمْتُهم بعلومِ الخارجينَ، ودخلتُ بهمْ علَى الناسِ، تكادُ وجوهُهُم تُضيءُ منَ الحبِّ، فأوقدتُ بها النيرانَ في قلوبِ الأُممِ. فدافعُوني ودافعْتُهم، فسلّمتُ أمري إليهم، وقلتُ تعالوا إلى نُورٍ سَواء. فقالوا أنتَ في الظلماتِ كحالِ السديمِ الأولِ. فرجعتُ عنهُم، وصرتُ إلى رجالي ونسواني، فقلتُ "لا يَطلُعُ النورُ إلا بكم". فوثَبُوا علَى بعضِهم، ورأيتُهم يَضِجُّون بالشهوةِ يريدُونها قائمةً لا تتحوّلُ، فكتبُوها لأنفسِهم خالصةً من النّقصِ. فلمّا قاموا عنها إذا هُم أمّةٌ كاملةٌ، وإذا نارُ المعاني بأيديهِم يُرسلونَها حيثُ قصدُوا. فمشيتُ بهم حتّى دخلنا الظلمةَ، وفيها الخلقُ كلُّهُ، فَتَلفّتُّ فإذا أُمّتي من نورٍ، وإذا الكونُ ظلمةٌ واحدةٌ. فأُذِنتُ بالبلاغِ فَأَذَّنْتُ بهِ. فأخذَ الصّحابةُ مشاعلَهم فرفعُوها وهُم يبكونَ. فأضاءَتْ سُبُحاتُ اسمي وجهَ الكونِ، فقامتْ بنورِهِ المعاني، وظَهرتِ الأسماءُ، وقُصِمَ ظهرُ الظُّلماتِ يَكَادُ قلبُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، وأَشرقتْ شموسُ مُلْكي، فَهُرِعوا إليّ مُستبشرينَ، فأظهرتُ لهم أنوارَ خلافتِهم المخبوءةَ، وشموسَ سلطانِهم المحجوبِ، وأسميتُهم الخلفاءَ، وخاطبتُهم بدَعوَى المُلوكِ. فلمّا رأَى نورَ المُلكِ مُتّقِداً جاءَني وقالَ لِيْ:

أنتَ نورُ االأرض

وقالَ لِيْ: أنتَ ليلُ الأرضِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ الغلالةُ التي تَشِفُّ عن النورِ والليلِ معاً، كما يَشِفُّ اسمُك عنكَ وعني في أبجدَ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: اسمُك تهجئةٌ لاسمي مثلما الليلُ رَقْمٌ لمشكاةِ النورِ على صفحةِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: النورُ والليلُ روحٌ واحدةٌ. كانَ الليلُ أجملَ شيءٍ خلقتُ، فلمّا جاءَ حِينُكَ من الدَّهرِ أرسلتُك فيهِ إشارةً باهرةً، حتّى إذا كنتَ نبأً عظيماً اختلفَتْ في أمركَ الأمُم وتفرّقتِ الشرائعُ. وإذْ سَرَيْتَ في الليلِ لم يَرَوْكَ، ولمْ يسجُدوا لجلالِكَ، فَحَسِبَكَ الجاهلون سلاماً وأنتَ مناهضةٌ لا قِبَلَ للكونِ بها، والغافلونَ ينُوشُونَكَ بالأذَى تمشي بينَهم يقولونَ "لا نرَى لهُ علامةً"، فأرسلتُكَ من لَدُنّي آيةً من نورٍ لا تَجِبُ إلا للخلفاءِ، ولا تنبغي لغيرِ النبيّين.

وقالَ لِيْ: ما أبهاكَ في رداءِ اللّيلِ، وما أفتنَ رداءَ الليلِ عليكَ. خَطْوُكَ في الليلِ قُدسيٌّ، ونَفَسُكَ عُلويٌّ، والتفاتُكَ سَنِيٌّ. أنتَ روحُ اللّيلِ المجهدةِ، وضميرُ النهارِ الذي وَعاني. كنتُ قبلَكَ غُفلاً منْ رُبوبيّةِ الإنسانِ، فأنشأتُ نورَكَ من ظِلّي، وجعلتُ بهاءَهُ من أسمَائي، وأَسْلمتُ لك أن تَرضَى وتغضبَ، وقَبِلْتُ منكَ أن تُهادِنَ ثم تُنازِلَ. فتقدّمتَ خَلقي في مسرَى ليلِهم، وأقبلتَ علَى جناحِ محبّتي، فأشرقَ عليكَ الصّبحُ ولمّا يَزَلْ في رَحمِ اللّيلِ، وضَمَّتْكَ النهاراتُ ولمّا تَنفلقْ عن حَبِّها. فأنتَ صُبحُ الكونِ الباكرُ، ونهارُهُ العجولُ. وقد بَلَغْتَني في مُستقرّ الجائزةِ، ومَنزلِ الرّضوانِ، فقَبَسْتُكَ من نورِ الرّحمةِ، ومددتُكَ من نورِ العدلِ، وأعنتُكَ

بنورِ التكوينِ.[2]

وقالَ لِيْ: الذين يمشونَ إلى ظلّي يَصِلُونَ بنورِ الإنسانِ الذي كشفَ لهمُ الطريقَ، وأضاءَ أمامَهم التخومَ، وتوهَّجتْ له العناصرُ والأشياءُ.

وقالَ لِيْ: نورُ الإنسانِ مؤونةُ السائرينَ إليّ حتّى تعلّقَتْ حضرَتِي بحضرَتِه.

وقالَ لِيْ: الذي يحاولُ نورَ الإنسانِ يحاولُ حضرَتِي.

وقالَ لِيْ: الضوءُ توهُّجُ القلبِ فإذا اتّقدَ العالمُ من أثرِ هذا القلبِ صارَ النورَ.

وقالَ لِيْ: النورُ عاقبةُ الضوءِ مثلما الإنسانيّةُ حاصلُ الربّانيّةِ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ مؤونةٌ لازمةٌ لزرعِ الأرضِ، وغرسِ القلوبِ العارفةِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ بين زرعِ الأرضِ وغرسِ القلوبِ يلزمُك أن تستضيءَ وإلا لا تحصلُ الغلالُ.

وقالَ لِيْ: الغلالُ الحاصلةُ عن الضوءِ تجدُ فيها أثرَ هذا الضوءِ.

وقالَ لِيْ: الضَوْءُ الذي تَبْرَؤُهُ بينَ يديكَ يضيءُ بينَ يديكَ، والضوءُ الذي تبرؤُه

---

[2] قالَ الإمامُ أحمدُ: هذه رؤيا من رُؤى المناشدةِ الغدامسيّةِ يقصدُ بها بلخير ما يقصدُه العاشقُ حين يقولُ لمَحَلِّ العشقِ "رأيتُ في المنامِ أنكَ تبوسُني أو تضمُّني أو تداعبُ لحيتي" وهو يريدُ له أن يفعلَ. فإن تحشّمَ هذا وعانقَ وباسَ وداعبَ اللحيةَ كانَ له جنابُ الحشمةِ العالي الذي يكونُ لأصحابِ الذوقِ والأدبِ الواجبِ للعشقِ، وإلا ظهرتْ عليهِ هيئةُ الفظاظةِ. قالَ: وهي هيئةٌ تبينُ على الحضرةِ في بعضِ المقاماتِ غير أنها لا تليقُ بها. قلتُ: حيثُ متى؟ قالَ: حيثُ يجوعُ عيالٌ، أو يُسْلَبُ عاملٌ أو يُغْلَبُ رجلٌ خرجَ في مناوأةٍ للظالمينَ. قلتُ: يا إمامُ، هذا كثيرٌ في العالمِ. قالَ: نعمٌ، فهذه الهيئةُ لها السّطوةُ كما لجنابِ الحشمةِ، فننظرُ نرَى أيّهما تكونُ له السيادةُ آخرَ الأمرِ.

بيَن يديّ الكونِ يضيء أمامَك حتى يكونَ أمامي.[3]

وقالَ ليْ: الضوءُ الذي تَتّقِدُ بهِ في العالمِ تدخلُ بهِ عليَّ فيكشفُ عني رداءَ البُعْدِ.

وقالَ ليْ: الضوءُ الذي يمشي في العالمَ ثم لا يُشرِفُ علَى تُخومي، يرهقُ قلبَك ولا يَسُدُّ.[4]

وقالَ ليْ: الضوءُ الذي يشرفُ على تخومي ثم لا يراكَ، انطفاءٌ.

---

[3] وجدتُها في المخطوطِ هكذا "حتى يكون امامي" من أثرِ الزمنِ وشحوبِ الحبرِ وامّحاءِ الخطِّ. فقدّرتُها كما رأيتَ في النصِّ. وسمعتُ شيخَتي خديجةَ بنتَ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ، مولاةَ المسرّاتِ، وصانعةَ البهجاتِ، صاحبةَ العلمِ والسناءِ، وسلطانةَ الوجدِ والرجاءِ، في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراءِ، تقرؤها "حتّى تَكون إمامي". قلتُ: وهذا من الوساوسِ التي تنوشُ العارفينَ وتنهبُ قلوبَهم وهم لا يشعرونَ. قالَ الإمامُ أحمدُ: لعلّها فهمتِ الإمامةَ علَى معنَى الجهةِ لا السطوةِ والسلطانِ، ففي هذا المقامِ يتقدّمُ الإنسانُ بالضوءِ الذي قدَحهُ في الكونِ إلى جهاتٍ وتخومٍ وآفاقٍ لا يستطيعُها الحقُّ لأنّها لا تليقُ بسبحانيّتِه كجهةِ الشهواتِ وتخومِ الوجعِ وآفاقِ المصابرةِ والبكاءِ. قلتُ: أرادَ الإمامُ أن يُخفّفَ عنّي فزادَني ولهاً وقلقاً.

[4] كانَ في جماعتِنا من يدرسُ علومَ الفيزياءِ والكيمياءِ والجيناتِ، ومنْ هو مولعٌ بنظرياتِ الكَمِّ والذرّةِ وتقنياتِ النانُو. وكانَ شيوخُنا وأساتذتُنا يُؤازِرونَهم يرجونَ منهمْ خيراً لأنفسِهم وللخلقِ. قلتُ: ومنهُم أستاذَتي زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جميلٍ النَورانيِ كانتْ تعملُ لنا الدروسَ في فيزياءِ الدقائقِ فنرتبكُ من دقائِقِها الجليلةِ وتأخذُنا أسرارُها أخذاً شديداً حتّى نعودُ لا نعرفُ الحقَّ ما هو. فإذا انتبهتْ إلى حالنا قالتْ: هذا علمٌ لهُ نورٌ من مشكاةِ الحقِّ فإن صادفتُم نوراً غيرَهُ اصرفوا عنهُ قلوبَكم أو اثبُتوا لهُ حتّى تبيَن الظّلمةُ التي هو منهَا.

وقالَ ليْ: تخومي أرضٌ مفتوحةٌ علَى اسمِكَ من جهةِ الخلافةِ فمَن وقفَ بها ولم يقفْ عليكَ كأنّهُ لم يقفْ.

وقالَ ليْ: الضوءُ ظلُّ قائلةِ العالمِ.[5]

وقالَ ليْ: الضوءُ الذي يكشفُ أمامَك سبيلاً واحدةً، محلُّ مراجعةٍ.

وقالَ ليْ: الضوءُ الذي لا يكشفُ أمامَك ألفَ سبيلٍ، مُلتَبِسٌ.

وقالَ ليْ: الضوءُ الحقُّ يفضحُ أمامَكَ السُّبُلَ حتّى تنكشِفَ لكَ غوايةُ كلِّ سبيلٍ فلا تعودُ وِجهةٌ تمكرُ بكَ.

وقالَ ليْ: الضوءُ فضحٌ.

وقالَ ليْ: الضوءُ إشارةٌ إلى حيّزِ الحقِّ.

وقالَ ليْ: الحيّزُ ما بيني وبينك.

وقالَ ليْ: الحيّزُ ما كانَ أمامَ اسمِك وإزاءَ اسمِي.

وقالَ ليْ: الحيّزُ ليسُ انقطاعاً بيني وبينَك ضرورةً، لأنّ الذي تُسمّيهِ يصيرُ منكَ أو من طريقِك.

---

[5] كانتْ مولاتي زُهرةُ بنتُ العالمِيَن تُرهِقُ بدنَهَا في علومِ الرياضةِ والأعدادِ حتّى ترَى عليهَا من أثرِ السهرِ والفكرِ قلقاً بادياً وارتباكاً في المشيِ كأنّها تريدُ جهةً ثمَّ لا تريدُها. فكلَّمتُها حتَّى تَتَلَطَّفَ السبيلَ إلى العلومِ تأخذُها قبساً من نورِها علَى قدِّ الحالِ والقدرةِ، فقالتْ: واللهِ إنَّ رَهَقَ المعارفِ خيرٌ منْ دِعَةِ الجهلِ، وكدحَ العلومِ خيرٌ من بحبوحةِ الغفلةِ، وجهدَ الرياضةِ والفكرِ خيرٌ من طيّباتِ العالمِ مجتمعةً. فأما ارتباكُ بدني والرهقُ الذي أنا فيهِ فهو لذّةٌ لا يعرفُها إلا من دخلَ فسلَّمَ علَى الحقائقِ فإذا هيَ حقٌّ واحدٌ صمدٌ.
ثمّ انتبهتْ إلى عبارتِها فقالتْ: وإني أرجو أن أكونَ من هؤلاءِ الداخلينَ المسلِّمينَ.

وقالَ لِيْ: الحيّزُ ينبغِي لكَ أن تمَشي فيه حتى لا يتعلّقَ بشيءٍ غيرِك.

وقالَ لِيْ: الحيِّزُ غوايةٌ للضوءِ أن يحضرَ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ حيّزُ السفرِ إلى اسمِك، ثم زمنُ الوصولِ إلى معناكَ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي لا يكشفُ عن نفسِه لا يكشفُ عنِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي لا تدري من أين يتوهّجُ، وكيفَ يتّقدُ، وما مادّةُ اشتعالِه، محلّ نظرٍ ومواجهةٍ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الصادقُ يغمرُ غمراً كأن السُّبُلَ كلَّها تَتَّقِدُ بهِ، والضوءُ الكاذبُ لا يكشفُ لكَ موضعَ مداسِك.

وقالَ لِيْ: موضعُ المداسِ عتبةُ المشيِ في العالمِ فالذي لا يضيؤُها لا يضيءُ العالمَ.

وقالَ لِيْ: موضعُ المداسِ إشارةٌ علَى سدرةِ المبتدَى، وموضعُ القلبِ علامةٌ على سدرةِ المنتهَى.

وقالَ لِيْ: موضعُ القلبِ، حينَ تنزلُ به، يسألُك عن موضعِ المداسِ هل أحسنتَ مصاحبتَه وفهمتَ عنه علومَه.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الصادقُ يُنِيرُ مشكاةَ قلبِكَ قبلَ أنْ ينيرَ فضاءَ العالمِ.[6]

---

[6] قالَ رجلٌ لشَيخي الحسنِ بنِ الغريبِ الواحديّ، شيخِ السياحةِ والأسفار، من تمبكتو إلى تاورغاءَ بلادِ الأحرارِ: إني أراكَ تخرجُ بعدَ الدرسِ من عندِنا في الليلةِ الحالكةِ فإن لكَ ضوءً يسيرُ معكَ في الزّناقي حيثُ توَجّهتَ، حتى يكادُ يشتعلُ الطريقُ ويصيرُ نهاراً مشهوداً، فهذهِ كرامةٌ. قالَ الشيخُ: نعمْ، والضوءُ من حَذَاكَ، لمحبّةٍ ناشَتْنا من جانبِك في حالِ نظرتِك إلينا فاتّقدنا بالحبّ الذي هو منكَ في أولِ الأمرِ، فالكرامةُ لكَ لا لي. فاستبشرَ الرجلُ وعانقَ الشيخَ سُروراً.

وقالَ لِيْ: مشكاةُ قلبِكَ من فضاءِ العالمِ غيرَ أن ضوءَها يتَّصلُ بي قبلَ كلِّ شيءٍ، ويُسفِرُ عني بعدَ كلِّ شيءٍ.[7]

وقالَ لِيْ: مشكاةُ قلبِكَ التي يخرجُ منها ضوؤُك أوسعُ منَ العالمِ.

---

[7] كنتُ في داري بالطريقةِ البستانيّةِ أجعلُ قنديلاً بين يديّ أو من ورائي حينَ بعضِ الدرسِ أو الذِّكْرِ. ويكونُ هذا في آخرِ الليلِ أو عندَ أوّلِ الإصباحِ الذي مازالَ يتنفّسُ بعضَ العتمةِ. وهو من الأعمالِ الجالبةِ للطمأنينةِ والمحفّزةِ على المجاهداتِ الروحيّةِ والعقليّةِ. ففي ليلةٍ سمعتُ طرقاً على البابِ فإذا ببنتٍ أعرفُها من التلميذاتِ تقولُ: أَعِرْنِي قنديلَك أستضيءُ به. ففعلتُ وخرجتِ البنتُ مستعجلةً بالضوءِ ولم أرَها بعدَه أياماً.

ففي عشيّةٍ كنتُ في الدرسِ فسمعتُ التلميذاتِ يَذْكُرْنَ حالَ التلميذةِ يَقُلْنَ هي في الحُمّى الشديدةِ تصطكُّ أسنانُها وتلهثُ بالنفسِ. فأدنيتُ بنتاً مِنْهُنَّ فقالتْ: هي قبسَتْ من واحدٍ من التلاميذِ لا نعرفُه ضوءَ تريدُ المشيَ به في الطريقِ، طريقِ العلومِ أو الزّناقِي لا فرقَ. فبعد ليلٍ كأنّ الوهجَ الذي بالقنديلِ حملَ قلبَ الفتَى أو جسدَه أو فِتْنَتَهُ فغمرَ البنتَ غمراً لذيذاً. وصارتِ العلومُ التي درسَها علَى ضوءِ القنديلِ والمجاهداتُ والأشواقُ تَنُوشُ البنتَ نوشاً شديداً حتّى حفظتْ ما حفظَ هو من الكتابِ وصارتْ تُجَوِّدُهُ دونَ سابقِ مذاكرةٍ أو درسٍ. قلتُ: ليسَ لهذا أصلٌ غيرُ الوهمِ والتشبيهِ ولا بدّ أنّ البنتَ شُغِفَتْ بالفتَى فعرفتْ أخبارَه وتَقَفَّتْ دروسَه وتَبَرَّكَتْ بعلومِه، حتى حفظتِ السُّوَرَ التي حفظَها تحسبُها من كلامِه هو لا من الحقِّ. وكل هذا من جهةِ تعلُّقِها به وبأثرِه في العالمِ. قالتِ التلميذةُ التي أدنيتُها: لعلّ في الأمرِ شيئاً من ذلكَ، ولكنّ قبسَ الضوءِ الذي نَهَبَتْهُ منه نَهباً كانَ صِلَةً بينهما، ووشيجةً ربطتْ قلبَها بقلبِه، وأثيراً حمل اسمَ الفتَى حتى اختلطَ باسمِ البنتِ، وإلا كيفَ لم يطرأ عليها هذا الولهُ جميعُه إلا بعد تَحَوُّلِ ضوئِه إليها؟ قالتْ: الضوءُ يحملُ العالمَ كلَّه فيقدرُ أن يحملَ قلبَ الفتَى إن تحصّلَ قلباً آخرَ ينزلُ عندَه.

وقالَ ليْ: مشكاةُ قلبِكَ اعتبارٌ للعالمِ لأن قلبَك محلُّ فرحِ ووجعِ العالمِ في آن واحد.

وقالَ ليْ: المشكاةُ اشتمالٌ علَى الضوءِ وهو في اتّقادِه الأولِ قبلَ أن يفيضَ علَى العالمِ.

وقالَ ليْ: المشكاةُ التي تفيضُ بضوئِك تفيضُ بقلبِك نفسِه فيصيرُ بعضُه عندَك وبعضُه عندَ العالمِ.

وقالَ ليْ: ضوءُ قلبِكَ علامةٌ لكَ بالألوهيّةِ، وضوءُ يَدِكَ علامةٌ لكَ بالربوبيّةِ، وضوءُ العالمِ علامةٌ لكَ بالإنسانيّةِ.

وقالَ ليْ: من أضواءِ العالمِ ضوءٌ واحدٌ يَتَّقِدُ لكَ وبكَ وإليكَ، ضَوئي.

وقالَ ليْ: أضواءُ العالمِ غَمْرٌ لا بدَّ لكَ من خوضِه في مقامِ المواجهةِ.

وقالَ ليْ: مواجهةُ العالمِ انخراطٌ في الأسواقِ وانشغالٌ بالعلومِ واعتمالٌ للوقتِ الراهنِ في قلبِ البني آدمِ.

وقالَ ليْ: الوقتُ الراهنُ يحبسُكَ في سياقِ الفعلِ الذي ينبثقُ عنِ العالمِ كما هو، ثم يدفعُ بكَ إلَى فضاءِ الاحتمالِ الذي يتزوّدُ من خبزِ النهاياتِ الممكنةِ.

وقالَ ليْ: الوقتُ الراهنُ كالتربةِ التي تحيطُ بالبذرةِ، منها ماؤُها ثم إليها يخرجُ أولُ الغلالِ.

وقالَ ليْ: الراهنيةُ التي للوقتِ تُطلِعُ المرهونيّةَ التي لقلبِك، ومن هذا يصيرُ الحبسُ أولاً.

وقالَ ليْ: قد تصلُ، أو تدخلُ الطريقَ فحسبُ، فيرهنُ قلبُك الوقتَ.

وقالَ ليْ: الراهنيّةُ ارتهانٌ للمعاني والأسماءِ في حيّزِ الوقتِ وحبسِ المكانِ، ومن

هذا ينفعُ معها الضوءُ.[8]
وقالَ لي: الذي ليسَ لهُ راهنيّةٌ يحاولُه الضوءُ فلا يصلُ إلى نواحيهِ لأنّهُ لا حَيِّزَ لهُ.
وقالَ لِيْ: الوصولُ ركنُ صحّةِ الضوءِ.
وقالَ لِيْ: الضوء يُسْفِرُ فلا يطيقُهُ مَن لا يريدُ أن يُسفِرَ عن مبدئِه أو يَبينَ عن غايتِه.

---

[8] كانَ معنا تلميذٌ يلقمُ العلومَ لقماً شديداً، وبه شراهةٌ للمعاني والفكرِ. فلم أرهُ روياناً ليومِه، يوماً. ولقيتُه مرّةً قاعداً علَى حصيرةِ الدرسِ يصنّفُ الكتبَ الجليلةَ للعارفِينَ يقولُ هذا لا شيءَ، وهذا لا يَسُدُّ، وهذا لا ضوءَ لهُ. فقلتُ لهُ: يا أخي، في بعضِ هذهِ الأوراقِ أسرارٌ مشتْ بالأساتذةِ إلى تخومِ السرِّ الأكبرِ، وأسئلةٌ قاربتْ للتلاميذِ ما وراءَ الأكَمَةِ من فتوحاتٍ، وأنتَ تقرأُها قراءةً تامّةً ثم تدفعُها عن يمينِك وعن شمالِك تقولُ لا تنفعُ! ثم تمضي لغيرِها فغيرِها.
قالَ التلميذُ: إني هالكٌ إذن فأنجِدني. قلتُ: الإمامُ غايتُك. فلمّا كلّمناهُ تفكّرَ بُرْهةً ثم قالَ: الضوءُ متوفّرٌ في هذهِ العلومِ غيرَ أن الإضاءةَ تصيرُ بالضوء وبالحيز معاً، وهو هنا الراهنيّةُ التي لكَ في العالمِ. قالَ التلميذُ: وما الراهنيّةُ؟ قالَ: الوقتُ والمكانُ اللذانِ تستشرفُ منهما العالمَ. مثلُ الشغلِ الذي تنخرطُ فيه، والعيالِ الذينَ تكدحُ لهم، والمظالمِ التي تتوجعُ بها، والأشواقِ التي تتوحّشُ منها. فإنَّ ما تقرأهُ يتّصل بهذهِ الراهنيّةِ فيضيءُ أنحاءَها ويكشفُ عن حيّزِها ويَبِينُ عن روابطِها. فأمّا الضوءُ الذي يكونُ في الخواءِ فيتبدّدُ حتى يتلاشَى ولا يعودُ له أثرُ النورِ. وهو ما صارَ معكَ من جهةِ غفلتِك عن رَاهِنِيَّتِكَ أنتَ. قالَ التلميذُ: فأشتغلُ وأُعِيلُ وأتوجّعُ وأتشوّقُ؟ قالَ الإمامُ: نعمْ يا ولدي، مَنْ تحيّزَ أضاءَ.

وقالَ لِيْ: الضَوْءُ الذي يغمرُ العالمَ فيُسْفِرُ عنهُ ضوؤُك، والضوءُ الذي يَحيدُ عن العالمِ فلا يكشفُ، ضوءٌ يُناوِئُك على التخصيصِ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي يأتيكَ لهُ جَلَبَةٌ اصرِفْ سَمْعَكَ عن صَخَبِهِ إلى معناهُ الذي لا صخبَ لهُ.

وقالَ لِيْ: الصخبُ تبديدٌ للمعنَى وإلهاءٌ عن صيرورةِ العالمِ وانشغالٌ بالحِداءِ دونَ السفرِ.

وقالَ لِيْ: الصاخبونَ منطفؤونَ وهم يظنُّونَ أنهم شمسُ الوقتِ.

وقالَ لِيْ: الصخبُ يُوهِنُ الضوءَ لأنّهُ يُحيلُ توهّجَ الإضاءةِ إلى هذرِ الضجيجِ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الواهنُ يربكُ قلبَك حتّى تنزِعَ عنهُ حجابَ الصخبِ، والمسافةَ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي يَصِلُكَ واهناً ربما أَجْهَدَتْهُ المسافةُ إليكَ.

وقالَ لِيْ: المسافةُ إزاءَ الضوءِ.

وقالَ لِيْ: المسافةُ تَلْقُمُ الضَوْءَ كمَا يلقُمُكَ أنت الوقتُ.

وقالَ لِيْ: المسافةُ مكيدةٌ بينكَ وبينَ الضوءِ.

وقالَ لِيْ: المسافةُ شرطُ وجوبِ الضوءِ، وأنتَ شرطُ صحّتِه.

وقالَ لِيْ: المسافةُ مشيُ الضوءِ إليكَ في الوقتِ.

وقال لي: المسافةُ والوقتُ هيئتانِ لاسمٍ واحدٍ يَبِينُ عندَ الضوءِ.[9]

وقالَ لِيْ: كلُّ اسمٍ هو في آخرِ الأمرِ اسمُك.

---

[9] قلتُ للإمامِ: مالاسمُ الواحدُ الذي يبينُ عندَ الضوءِ؟ قالَ: شيءٌ يُشكِلُ بينَك وبينه في ظلمةِ العالمِ، فإذا دخلتَ إلى تخمٍ بذاتِه من تخومِ الضوءِ انفضَّ عنكُما الإشكالُ وتعلّقَ بكما يقينٌ يصلحُ لكليكما. قالَ: هُو يقينُ هُو.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي يلمسُ الأشياءَ يُسَمِّيهَا.[10]

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي يَبِينُ عن وجهِك أو يُبِينُ، من أثرِ الصّبحِ الأوّلِ.

وقالَ لِيْ: الصبحُ الأوّلُ كمونٌ لكلِّ صبحٍ بعدَه، واحتمالٌ لكلِّ حينٍ مُضيءٍ.

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي لا يكشفُ مرَّتينِ ظلمةٌ مستترةٌ.[11]

---

[10] قرأَ الإمامُ أحمدُ هذه العبارةَ علينا في درسِ الضُحَى فخرجَ نافعٌ الدرويشُ يمشي في نواحي الزاويةِ الصوفيةِ يلمسُ التلميذَ أو التلميذةَ ويقولُ: أنتِ ياسمينةٌ، أو أنتَ أفقٌ، أو أنتما فجرٌ وضُحًى. وقد يأتي الأساتذةَ فيضعُ يدَهُ على كتفِ واحدٍ منهم ثم يقولُ: أنتَ سنبلةٌ. وكنت أراهُ يمشي إلى جهةِ المريدينَ ويدُه مرفوعةٌ في الهواءِ كأنّهُ يؤاتيها لِلَّمْسِ فتتهلّلُ وجوهُ الأولادِ والبناتِ يتشوّقونَ ماذا يُسَمّيهمُ الدرويشُ، ولعلّهم وقفوا يتكلّمون عن أحوالِ هذهِ الأسماءِ ويَخرجون بمعانٍ جديدةٍ وبعضٍ من الشعرِ الذي يقترفُونَهُ من وحيِ الاسمِ الدّرويشيِّ. قلتُ: وعرفتُ تلميذاً وتلميذةً فَرِحَا باسميْهِمَا وتعاهدا على أن يتعلَّقا بهما إشارةً على الحبِّ والوصالِ. قالَ الإمامُ، وقد رآني أنظرُ إلى نافعٍ وبسمةُ إعجابٍ على مُحَيَّايَ: أظنُّك تحسبُه يُكَنِّي ويُشبِّهُ فحسبْ. قلتُ: فما يكونُ غيرَ الكنايةِ والشبهِ. قالَ: فانظرْ إلى عاقبةِ ما يفعلُ، التلاميذُ في مقامُ الفرحِ يتناوشونَ العلومَ ويكتبونَ الشعرَ ويتعاهدونَ على الحبِّ، والأساتذةُ يرتبكونَ ويتحشّمونَ من المعاني الجليلةِ التي تنبثقُ عن الأسماءِ، فإن لم يكنْ هذا من أثرِ الضوءِ الصادقِ في العالمِ، فما يكونُ الضوءُ إذن يا موسَى غيرَ هذا الدّرويشِ؟

[11] قلتُ: "الكشفُ الأوّلُ" من بركاتِ الغمرِ الأوّلِ الذي يأخذُ الأشياءَ غريرةً فيخلعُ عنها حجابَهَا في الوقتِ والمكانِ الحاضرينِ، فتُسفرُ عن مبادئِها. وأما "الكشفُ الثاني" فمنْ كراماتِ الضوءِ الصادقِ في الوقتِ والمكانِ الغائبينِ حتى تبينَ الأشياءُ عن خواتِمها وهي لمّا تَزَلْ في الطريقِ. ومثالُ ذلكَ ضوءُ الخلافةِ الأرضيّةِ الجماعيةِ فإنَّ كشفَها الأوّلَ

وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي لا يطلعُ من قلبِكَ لا يقدرُ على وجعِ العتمةِ التي تغمرُكَ.
وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي لا يمكنُكَ اقتفاؤُهُ إلى مبدءِ اتقادِه محَلُّ مراجعةٍ.
وقالَ لِيْ: الضوءُ الذي يظهرُ لكَ في عزِّ النَّهارِ خلِّ بينَهُ وبيَن ضوءِ النهارِ، فما أسفرَ عن العالمِ صارَ ضوءَكَ.
وقالَ لِيْ: الضوءُ فيضٌ ربّانيٌّ لا يبينُ عنِ العالمِ إلا وفنارُه بيديّ الإنسانِ.
وقالَ لِيْ: ضوؤُكَ إشارةٌ إلهيّةٌ معجونةٌ بطينِ الكدحِ الآدميّ.[12]
وقالَ لِيْ: طينُ الإنسانِ صلصالُ العلومِ السافرةِ عن الطريقِ.

إبانتُها عن فسادِ أحوالِ الحكمِ والمعيشةِ المسيطرةِ علَى الأمِم، وكشفُها الثاني إظهارها لمصائرِ الذينَ يدخلونَ في دائرةِ الحكمِ والمعيشةِ كيفَ تكونُ، ومراتبِ الذينَ يخرجونَ عنها في قادمِ الأيامِ. قلتُ: وكلا الكشفينِ لازمٌ للإنسانِ لا يكونُ له خيرٌ بغيرِهما.

[12] جاءتِ امرأةٌ علَى قَدِّ نِيّتِها تَطلبُ البركةَ من أبي القاسمِ سعيدِ العاقبةِ عامرِ بنِ منصور، شيخِ الغناءِ والبرهانِ، في بساتينِ سُلوقَ وزوايا البطنان، فقالتْ: تُفَّ في فمي، وخلِّني أمسحُ على جلبابك، واقطعْ لي من خِرْقَتِك الخضراءِ، فلا يعودُ يَمَسُّني أذىً. فضحكَ الشيخُ وقالَ لها: لو عرفتُ في تُفَّتِي خيراً لأخزيتُ بها نفسي كل عشيّة، ولكنْ إن أردتِ بركةَ هذا العالمِ فخُذي من طينِ حرثِ فلانَ فإنه كادحٌ يحبّهُ اللهُ، ومن زيتِ حِدادةِ فلانةَ فإنها عاملةٌ يتحشّمُ منها اللهُ، ومن وَبَرِ الناقةِ التي تدورُ في مطحنةِ هذهِ المدرسةِ تطعمُ فقراءَ الناحيةِ فإنها صابرةٌ يُظِلُّهَا اللهُ، ثم اجعَلي هذا كلَّه في حافظةٍ بين يديّ سجودِك، وقولي ياربِّ اجعلْ لي من أثرِ هذا الرجلِ الكادحِ، والمرأةِ العاملةِ، والناقةِ الصابرةِ، نوراً يضربُ أمامي فلا أعودُ أضِلُّ عن طريقَك أبداً.
ففعلتِ المرأةُ الطيبةُ، وصارَ الناسُ يتكلمونَ عن البركةِ الجديدةِ، ويتسارعونَ إلى أهلِ العملِ والكدحِ يطلبونَ سماحةَ القلوبِ، وأنوارَ العقولِ، وكراماتِ العيشِ والعافيةِ.

وقالَ ليْ: العلومُ السافرةُ لغةٌ في الضوءِ.

وقالَ ليْ: طينُ الإنسانِ نطفةُ أولِ الضوءِ ثم يصيرُ فتيلَ المصباحِ الذي في الزّجاجةِ.

وقالَ ليْ: طينُ الإنسانِ وإشارتي قدحٌ للوميضِ الأولِ.

وقالَ ليْ: الوميضُ الأولُ أنشأَ العالمَ.

وقالَ ليْ: الوميضُ الأولُ انكسارٌ للعتمةِ وانبلاجٌ لفجرِ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: الوميضُ الأوّلُ مشاركةٌ بيني وبينَك فمِن أينَ تجيءُ بالأثرَةِ العتيدةِ في اسمِك ابتداءً ثم في المعائشِ والعلومِ؟

وقالَ ليْ: الومضةُ التي تنقدحُ في جسدِ الكونِ تَخْدُشُهُ ضرورةً.

وقالَ ليْ: خدشُ الضوءِ علامةٌ.[13]

وقالَ ليْ: خدشُ الضوءِ وجعٌ من أوجاعِ المعرفةِ اللازمةِ عن انخراطِك في العالمِ.

وقالَ ليْ: الذين يخدشُ الضوءُ أجسادَهم يَرَوْنَ العالمَ.

وقالَ ليْ: الذينَ يخدشُ الضوءُ أجسادَهم يَرونني مع العالمِ في الجوارِ العظيمِ.

---

[13] قلتُ لخديجةَ الشنقيطيّةَ: يا مولاتي، علامةُ ما؟ قالتْ: علامةُ حصولِ الضوءِ لكَ. قلتُ: مثلُ ماذا؟ قالتْ: إن نهضتَ عن كتابٍ حصلَ لك منهُ علمٌ فإنَّ قلبَك ينخدشُ علامةً علَى المعارفِ الجديدةِ، وإن أمعنتَ في بُنَيّةٍ فنِلتَ منها ما نِلتَ فإن جسدَك ينخدشُ علامةً على اللذّةِ الناضرةِ، وإن أفضتَ عن منازلةٍ ناوشَتْك وناوشْتَها فإن قلبَك وجسدَك معاً ينخدشانِ علامةً علَى النصرِ الرائقِ أو الهزيمةِ الباهرةِ. قلتُ: فكأنَّ الخدشَ للضوءِ كالبللِ للماءِ؟ قالتْ: نعمْ، الخدشُ بللُ الضوءِ غيرَ أنه ينتهكُك بالقطعِ، والبللُ يضمُّك بالغمرِ. فأنتَ بين الانتهاكِ والضمّ تستضيئُ بالعالمِ وتنهلُ منه حتى تصيرَ اسماً يتاخمُ الحدودَ الآخرةَ له هو. قالتْ: هُو.

وقالَ لِيْ: لا يفتأُ الضوءُ يخدشُكَ حتّى تخدشَهُ فيستضيءُ بكَ كما أضاءَ لكَ.
وقالَ لِيْ: الذينَ يخدشونَ الضوءَ يُربكون آياتي ويَستعيدونَ اسمي.[14]

---

[14] دخلَ بِلِحْسِنْ الزّرُّوق، وهو تلميذٌ، جماعَتنا يدرسُ الطريقةَ، وكان فتىً مليحاً يلبسُ أحسنَ الثيابِ، ويقولُ الشّعرَ، ويمرحُ. فسلكَ في الخلوةِ الصوفيّةِ، وكدحَ في ورشةِ الحدادةِ، وقرأ الحلّاج ولاوتسي وبعضاً من روحانيّاتِ الحبيبِ تُولِسْتُويْ. فكأنَّهُ تلخبطَ وتَغيرتْ هَيْئَتُه، وصارَ يتمتمُ بالكلامِ، ويتلعثمُ بعد فصاحةٍ، ويرتبكُ خطوُه بين بابِ الدرسِ وركنِ الصلاةِ المجاورِ. قالَ الإمامُ أحمدُ الدريّ: هذا ناشَتْهُ أنوارُ المعرفةِ فخدشَتْهُ وافتضَّتْ بَكارةَ الغفلةِ التي كانَ فيها، وهو صاحبُ أرضٍ طيبةٍ وتربةٍ حسنةٍ ينفعُ معها الضّوءُ، وإلا فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يَنْخَدِشُ قلبُه، ولا تُفْتَضُّ له بَكارةٌ، ولا يُربِكه علمٌ جديدٌ. قلتُ: فغادرَنا الفتَى ولم نعلمْ له جهةً حتّى عثرتُ به بعدَ 10 سنينَ يَعْتِلُ شكائرَ الإسمنتِ في موضعِ بناءٍ وقد تَدثّرَ بالغبارِ وتعمّمَ بصهدِ النهارِ، وهو يُغنّي من كلامِ سلطانِ العاشقينَ ابنِ الفارضِ في الحبِّ الإلهيّ:

زِدْني بفَرْطِ الحُبِّ فيك تَحَيّرا
وارْحَمْ حشىً بلَظَى هواكَ تَسعَّرا
وإذا سألْتُكَ أن أراكَ حقيقةً
فاسمَحْ ولا تجعلْ جوابك لن تَرى
يا قلبُ أنتَ وعدَتني في حُبّهمْ
صَبراً فحاذرْ أن تَضِيقَ وتَضجرا
إنَّ الغرامَ هوَ الحياةُ فمُتْ بِهِ
صَبّاً فحَقُّك أن تموتَ وتُعذرا

فلم أرَ أكثرَ جلالاً من هذا البِلِحْسِنْ، أو أجملَ، أو أَحَدَّ نَصْلاً في نهبِ القلوبِ والأجسادِ، أجسادِ العاشقينَ.

وقالَ ليْ: الذي يستعيدُ اسمي يَصِيرُ مُتاخماً لي.

وقالَ ليْ: الصيرورةُ حاصلُ الضوءِ السَّادِرِ في سبيلِ الاحتمالِ.

وقالَ ليْ: الصيرورةُ مسارُ الضوءِ إليّ، وهو كائنٌ مني في أولِ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الكينونةُ أولُ الأمرِ والصيرورةُ آخرُه، وأنتَ، بينَ أن تكونَ وأن تصيرَ.

وقالَ ليْ: الذي يُضيءُ قد يَستضيءُ.[15]

---

[15] كنتُ مع شيخي العارفِ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي، شيخِ المودّةِ والكراماتِ، وأستاذِ التجلّي والفتوحاتِ، السلطانِ الآسرِ، والمددِ العامرِ، بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائرِ، في بعضِ بلادِ التوغو. وكان الناسُ في وقتِ شدّةٍ وجفافٍ في الأرضِ والحيوانِ حتّى أصابَهم المرضُ والهُزالُ وانكسارُ القلبِ. فحَضرْنا نزولَ المطرِ بعدَ حينٍ، ففرِحَ الناسُ وابتهجَ الزُرّاعُ ونشطتِ التجارةُ، ورأينا الأرضَ يتغيّرُ لونُها والحيوانَ ينهضُ ويتراقصُ. ثم انتبهَ الناسُ فصاروا يلهجونَ بذكرِ الحقّ، ويحتفونَ بحضرتِه في الشمسِ والمطرِ والريحِ والشجرِ. ويجعلُ من كان منهم علَى منهجِ الوثنيّةِ التماثيلَ والتصاويرَ والشعائرَ، ومنِ اتّبعَ المِلَلَ الإبراهيميّةَ ترنّمَ أو أنشدَ أو تصدّقَ. فكأنَّ البلدَ جميعاً أشرقَ علَى الحقّ بالمحبّةِ مثلمَا أفاضَ عليهِم الحقُّ بالغوثِ. فقلتُ للعارفِ بالخلقِ: إني أنظرُ إلى هذ المشهدِ الكونيّ فأرَى الحقَّ والخَلْقَ عاشقَين نالا اللّذّةَ من جهةِ اتّصالِهما بالعطاءِ والامتنانِ. قالَ العَرْبي: نعمْ، وهذا معنَى "الذي يُضِيءُ قد يستضيءُ"، ذلكَ أنّكَ في سَوْرةِ الاتّقادِ لا بدّ لمحلّ هذا الاتقادِ، الذي هو القلبُ أو العقلُ أو الجسدُ، أن تنوشَهُ بعضُ دفقةِ النورِ التي تخرجُ عنهُ، ثم أنّه ترتدُّ إليهِ دفقةً أخرَى من قلوبِ الذين استضاؤوا بهِ فيصيرُ من هذينِ "نوراً على نورٍ". قلتُ: فكأنّي لم أعرفْ معنَى هذه المحاورةِ الإلهيةِ في الحديقةِ الغدامسيّةِ إلا بِنَظري إلى هذا المشهدِ وقد أضاءَ الحقُّ لأهلِ الوثنيّةِ فاستضاءَ بهم، واستضاءَ الوثنيّونَ بالحقِ فأضاؤوا من ذلك للعالمِ شيئاً كثيراً.

وقالَ لِيْ: الإضاءةُ استضاءةٌ لأنّ النورَ الذي يَتَّقِدُ تَتوهّجُ به كلُّ جهةٍ يخرجُ عنها.

وقالَ لِيْ: التوهّجُ إحالةُ الضوءِ إلى جهتِه التي أفاضَ عنها.

وقالَ لِيْ: التوهّجُ علامةٌ علَى الاسمِ الذي اتّقَدَ من بينِ الأسماءِ.

وقالَ لِيْ: التوهّجُ نداءٌ لكَ بالمُضِيّ في السّبيلِ الذي اتّقدَ لأجلِ خاطرِك.

وقالَ لِيْ: التوهّجُ احتفاءٌ بجهةِ الوَهَجِ.

وقالَ لِيْ: وقتي وأنا أُضيءُ يستغرقُ مقامَ الربّانيّةِ كلِّه.

وقالَ لِيْ: وقتي وأنا أضيءُ أظلُّ أحملُ مِشكاتي وأفيضُ إليكَ كأني مَنارةُ ساحلِ العلومِ.

وقالَ لِيْ: أنا أتصدّعُ بالتوهّجِ لكَ مثلمَا أنتَ تتصدّعُ بالتوهّجِ بِي.

وقالَ لِيْ: كلّما اشتَدَّ التوهّجُ اتّقدَ السّبيلُ.

وقالَ لِيْ: الاتقادُ بكَ سعيرٌ لأسمائِي.[16]

---

[16] قال حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ، الصّدّيقُ بنُ عبدِ الله السّاقي: أشدُّ الأسماءِ اتقاداً الواحدُ. ذلكَ أنّ العالمَ في اختلافِه وألوانِه ومَعْدُودِيَّتِه يعكسُ ضوءَ الواحديّةِ الذي تفيضُ عليهِ بألفِ هيئةٍ وطيفٍ ودرجةٍ. فالخنفسُ يُرَجّعُ ضوءَ الواحديةِ نوراً علَى قدرِ حيّزِه، والياسمينُ يُعطّرُهُ بشذاهُ، والطيرُ يُرفرفُه رفرفةً باهرةً، والجبلُ يتصدّعُ بهِ فيفيضُ عنهُ إلى الحقّ في هيئةِ الخضوعِ. والقلبُ العاشقُ، كالمرآةِ الصافيةِ، يرسلُ ضوءَ الواحديّةِ إلى الذاتِ التي أطلعتْهُ أوّلَ الأمرِ حتى تستضيءَ الذاتُ وتتّقدَ بما أوقدَتْهُ هي في العالمِ الكبيرِ.

قلتُ: وهذا ما وجدَه الصدّيقُ من لذّةِ اسمِ الواحديّةِ التي توهّجتْ بالكونِ. ومن التلاميذِ والشيوخِ من يجدُ لذّةَ الاتّقادِ في اسمِ الرّحمنِ أو السّلام أو القيّومِ. ومنهُم من هُو مازالَ في الطريقِ يقفو أثرَ الضوءِ الذي رَجّعَهُ العالمُ حتى يصلَ به إلى الاسمِ الذي صدرَ عنهُ وفاضَ من جُوّانِيَّتِهِ.

وقالَ ليْ: الاتقادُ بكَ إغاثةٌ لي وأنا ألتحفُ العالمَ إزاءَ صقيعِ الخواءِ الأوّلِ.

وقالَ ليْ: الاتقادُ بكَ انقيادٌ لإغوائِكَ.

وقالَ ليْ: الاتقادُ بك قبضٌ علَى جمرِ الغضَا، وأنا أتحشّمُ من غوايتِك.

وقالَ ليْ: غوايتُك التي تَلزمُ عن الاتّقادِ بكَ تغلبُ وتصيرُ لها السّطوةُ التي للاتّقادِ.

وقالَ ليْ: سطوةُ الاتقادِ يلزمُ عنها واجبُ الإضاءةِ.

وقالَ ليْ: الذي يتقدُ ولا يضيءُ لم يتّقدْ ولكنْ شُبِّهَ لهُ.

وقالَ ليْ: الذي لا يضيءُ زيتُهُ وفتيلُهُ وشرارتُهُ محلُّ نظرٍ.

وقالَ ليْ: الذي لا يضيءُ ربما لهُ وهجٌ لا تَسَعُهُ عيناكَ.

وقالَ ليْ: الذي لا يضيءُ ربما أضاءَ.

وقالَ ليْ: الذي لا يضيءُ قد يستضيءُ.

وقالَ ليْ: وقتَ أن أضيءَ لكَ، أستضيءُ بكَ.

وقالَ ليْ: الاستضاءةُ مناشدةٌ.

وقالَ ليْ: الاستضاءةُ علامةٌ علَى صحةِ الضوءِ.

وقالَ ليْ: الاستضاءةُ دخولُ الأممِ إلى إيوانِ الخلافةِ.

وقالَ لْي: ها طلعَ صبحُ الإشراقِ، وظهرَ الأصحابُ يُسَبّحونَ بأسمائِهم، وخطَّ الكاتبونَ رِقاعَ الكلامِ الذي خدشَ بَكارةَ العالِم، ووَجَبَ على المحبينَ طوافُ القدومِ. وجابَ العسسُ البيوتَ يطلبونَ بدنَكَ يعرفونكَ بهيئَتِكَ التي أخذْتَها في الأسواقِ، وصارَ الحرسُ يدفعونَ الأولياءَ عنكَ، والجندُ يأخذونَ بشتاتِ رِدائِك يَطلبون فؤادَك. وجاءتِ النِّسوةُ يَتكلّمنَ بالولايةِ ويَلْهَجْنَ بلسانِ الإمامةِ، فَسَلَّمنَ عليكَ وسلّمتَ عليهن، وأظهرتَ لهن المشكاةَ، فأضاءتْ ما حولَها. وعرفَ الأصحابُ كيفَ يوقِدون، ورأى أهلُ الصُّفَّةِ ديوانَ الخراجِ، وأسفروا عن حيِّز القلبِ، واقتفُوا موضعَ المداسِ الذي مشيتَ منهُ. ونزلَ لهم الشمسُ والقمرُ، واتّصلَ عَوَزُهُمْ بسطوةِ الكتابِ، وصار لهم الوقتُ كلُّه، وحدّثوا أنفسَهم بالحكمِ، واتّسعت أحداقُهم يكادُ يَهتِكها ضوءُ المحبّةِ، وتفضُّها أنوارُ الإمامةِ، ويُخْتَمُ عليها بالخلافةِ الكاملةِ. فاهْرَعْ إلى قلوبِ الذين يحبُّونك تجدْ عندَهم سِدرةَ السّلطانِ، ومنارةَ الفتحِ، وصُبحَ العارفينَ.

7. موسمُ الحرثِ

(وهُو الآلةُ)

ومن أحوالِه هيئةُ الانتهاكِ والراهنيةُ وضميرُ الآلةِ والانشغالُ والغرسُ والبذرةُ وصلةُ الشوقِ والغلّةُ والسّطوةُ العاملةُ والمباشَرةُ وقمحُ الفؤادِ

فلمّا دخلَ الوقتُ، أُذِّنَ في الكونِ بالحرثِ، وناداني من جهةِ قلبيَ الفأسُ. فأخذتُ حَفْنَةً من تُرابِ الأرضِ فتضوّعَ المكانُ، وصارتْ يدي معطرةً برائحةِ القمحِ الذي سينهضُ، واللقمةِ التي ستكونُ. فأصلحتُ من شأنِ قلبي وفأسي معاً، وأسفرتُ عن ساعدِ الحبِّ، واستقبلتُ أفقَ الكدحِ، وتنفّستُ هواءَ الغلّةِ الأولى.[1] ثم كلّمتني الأرضُ بالشوقِ الذي ملكَ عليها أمرَها، والولهِ الذي ضجّتْ به العروقُ فضجَّ بها. وسمعتُ نشيدَ البيادرِ التي تصيرُ الزادَ وتكونُ المؤونةَ. وخططتُ كتابَ الغلّةِ التي مُكوسُها للخلقِ، والسوقِ الذي جبايتُه للعاملينَ، وأقمتُ الشِّرْكَةَ في الجهدِ والأرضِ ومِنجلِ الحصْدِ، حتى لا يكونَ للحُكْرَةِ عليهِم من سبيل. وفكّرتُ كيفَ يكونُ مآلُ الأمرِ كلّهِ، أَثَرَةً تحبِسُني عن الخلقِ أم فرحاً لهم من جسدٍ عاملٍ وقلبٍ مكينٍ. فإذا كدْحي متّصلٌ بكدحِ الناسِ، وإذا معنايَ ومعنى الكونِ في نصلِ الفؤوسِ أو نصلِ القلوبِ. فقُمتُ مستنداً علَى الآدميّةِ

[1] قلتُ أنا موسى: الغَلّةُ الأولَى في الزرعِ أو العلومِ فتحٌ باكرٌ، وبِشارةٌ بالحصادِ، وإشارةٌ إلى السّبيلِ الذي يمشي فيهِ القلبُ والبدنُ معاً. وكانَ الإمامُ أحمدُ يحثُّ التلاميذَ على اعتبارِ البواكرِ من الغلالِ يقولُ: إذا ظهرتْ لك سنبلةٌ من سنابلِ العلومِ الأولَى، أو تهيّأَ قُدّامَك زهرٌ من نوّارِ العملِ الباكرِ، فشُدَّهُ إلى شغافِ فؤادِك، وتعلّقْ ببركةِ هذا الكشفِ الذي هو حاصلُ الصدقِ والمجاهدةِ. وكان معنا تلميذٌ يدرسُ العلومَ، فأحسَّ في نفسِه فهماً مبتَكَراً لبعضِ مسائلِ نظريّةِ الأوتَارِ. ثمّ لم يتقدّمْ. فقالَ لهُ الإمامُ: اعتبرْ هذهِ الغلّةَ. قالَ التلميذُ: ما أفعلُ؟ قالَ: تأمّلها كما يتأمّلُ الزارعُ أوّلَ القمحِ، واعصُر منها شيئاً لخمرةِ القلبِ، وأَرسِلْها في أفقِ العلومِ للسياحةِ والسلامِ علَى المسائلِ، وإن قدرتَ لحقتَ بها فكانتْ مطيّتَك إلى تخومِ القضايا والأسرارِ. قالَ التلميذُ: باهي، كلامٌ باهرٌ، ندخلُ به علَى الفيزياءِ إن شاءَ اللهُ ونشوفُ ما يصيرُ.

الأولَى، معتمداً على الحوائيّةِ البِكْرِ. فضربتُ الأرضَ بفأسِي فانشقَّ الكونُ عن معناهُ[2]، فخرجَ من الرّحمِ الكونيّ عُلوماً شديدةً، ومعارفَ ثقيلةً، ومقاصدَ جليلةً. فضربتُ بالفأسِ لجّةَ الأسرارِ، فذهبَ فيهَا بقدرِ القلبِ الذي صابرَ وثابرَ. فتفرّقَ الكلامُ عن الكلامِ، وانفصلَ كلُّ سؤالٍ عنْ جوابِهِ، وانفرطَ عِقْدُ العباراتِ. فضربتُ به سديمَ الغرابةِ الأولَى، فانبثقَ اسمُ كلِّ شيءٍ وظهرَتِ السّبحانيّةُ علَى وجهِ الأرضِ. فناوشتُ بفأسي أديمَ الأسماءِ التي ابتدا بها الأمرُ كلُّهُ، فارتجَّ عرشُ الجوعِ وتهافتَ ألفُ سلطانٍ أكلوا أقواتَ الناسِ، وحَكَروا خرَاجَهُم.[3] فركضتُ

---

[2] قالتْ بنتُ الحبيبِ رقيّةُ الرضيَّةُ: إنّ من لزومِ كلامِ الغدامسيّ أن معنى الكونِ في الترابِ. وقالَ سيّدي مغيثٌ بنُ المعلَّى: بل المعنى في الآلةِ التي هيَ الفأسُ أو ما شابهَ الفأسَ. وكتبَ شيخي الواحديُّ أنه في الإنسانِ الذي يعملُ الآلةَ فيفتحُ بها الترابَ. قلتُ: فانظرْ حواليكَ، أنارَ الله عينيكَ، فإن رأيتَ ابنَ آدمَ كادحاً في العالمِ بفأسٍ أو بغيرِهِ فهو معنَى الكونِ الكامنُ، وغايتُهُ المخبوءةُ.

[3] قال صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ، زادُ القلوبِ الصابرةِ، في أريحا والجليلِ والناصرة: هم ألفُ سلطانٍ في الدكاكينِ التي حَذَانا، غيرَ أنّهم يرجعونَ إلى سلطانٍ واحدٍ في السوقِ الجامعِ. قلتُ: دُلَّنا عليهِ فنقطعَ رأسَهُ ونخلصَ! قالَ: الذي حَكَرَ السِّلَعَ في الأرضين، وحكمَ في بلادِ العالمين، وراكمَ الأموالَ، ومنعَ الماعونَ، وقسَّمَ الأرضَ أقاليمَ، وأعدَّ الجنودَ، وزيّفَ الأفهامَ، وأقامَ المخافرَ، ونصبَ النواطيرَ. قلتُ: يا أستاذُ، هذا همٌّ كبيرٌ. قالَ: وهل ما نحنُ فيه حَبّةٌ فجعلتُها لكَ قُبّةً؟ قلتُ: فمِن أينَ نبادرُ؟ قالَ: نقطعُ دابرَ النهبِ بأن نملكَ الدكانَ، ونَبْتُرُهُ عن سوقِ الحُكْرَةِ، ونجهدَ بالعملِ، ونَعْقِدَ مع أهلِ الدكاكينِ المنتبهينَ، ونثابرَ جيلاً بعدَ جيلٍ حتّى يكونَ العِتقُ. قالَ تلميذٌ: سفكتَ الدمَ يا ابنَ الدُّرَّةِ، سفكتَ الدم. قالَ السيّدُ: وهل ما يسيلُ من جراحِ المكلومينَ المنهوبينَ خمرٌ وعسلٌ يا ولدي؟

بفأسي الكتابَ الذي أُنْزِلَ لخاطرِ الأرضِ فطلعَ الحصادُ يسعَى إلى رمقِ الفقراءِ الذين سُلِبوا فؤوسَهم، فَفَرَّقْتُهُ على العاملين زاداً، وجعلتُهُ للجائعينَ مؤونةً، وزيّنتُ لهمْ يومَهَم الذي يكونُ لهم، فتحاً منْ عندِ أنفسِهم قريبٌ.

ثمَّ قصدتُ إلى ما ابتدرَ منِ الأرضِ عفواً، فَنَما بلا تدبيرٍ، وطلعَ بغيرِ نظامٍ. فجعلتُ أنظرُ أيَّهُ أنتخبُ وأيَّ حياةٍ أُلقي في رحمِ المحروثةِ، فهذا زاهٍ لونُهُ وذاكَ يعبقُ عبَقاً، وذا يَنشأُ جِذعاً فتياً وذا يمشي علَى الأرضِ ساقاً وأوراقاً. وقلتُ "أبذرُ ما أقيمُ به بدني وأشدُّ عُروقي، وعُشباً لماشيةِ الأرضِ[4]، فإنْ طِبتُ بذرتُ زَهراً وزهواً لعطرِي وزينَتي". فقابلتني إشارةُ الرِّضا[5] وظهرتْ في الكونِ البِشارةُ. ثمّ أجريتُ المسَاقي، وأخلصتُ الحصصَ، واستبشرتُ خيراً، هنا يكونُ تمرٌ، على يمينِهِ زيتونٌ، يجاورُهُ عنبٌ، وهنا يَكونُ نخلٌ وتفاحٌ وكرموسٌ. وطربتُ طرباً، وصرتُ أُهمهِمُ بالأسماءِ، وأرسمُ الأشجارَ، وأستظلُّ بها قبلَ أن تُولَدَ، وكدتُ أبكي بُكاءً.

---

[4] قال مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ: ماشيةُ الأرضِ علَى المجازِ الحيوانُ الذي يرعَى، وعلَى وجهِ الحقيقةِ الخلقُ كلُّه. أما العشبُ الذي يُتَقَوَّتُ به فهو النبتُ المعروفُ لمؤونةِ البدنِ، أما القلبُ فيقتاتُ على العلومِ ويرعَى حشائشَ الأسرارِ ثم لا يَسُدُّ رمقَهُ غيرُ الحبِّ.

[5] سألتُ عنها إمامِيَ أحمدَ، فقالَ: "إشارةُ الرضا" سكينةٌ تنزلُ في القلبِ على جهةِ نيّةٍ طيّبةٍ لا يُكَدِّرها قلقُ العالمِ كلِّهِ، أو هيَ حِسبةٌ صالحةٌ تأخذُ العقلَ بقوّةِ حُجّتها فيَلْهَجُ لها فؤادُ المؤمنِ يحثُّ يديهِ للكدحِ كأنَّهُ يَحُثُّهُما للغناءِ، أو هي قصيدةٌ أو أغنيةٌ أو بُنَيَّةٌ تلوحُ للجسدِ المناهضِ يريدُ أن يُكَنّيَ بها عنِ الشوقِ الذي هو مَطِيّةُ العمَلِ ومؤونةُ الطريقِ.

ما عليّ، أنا في أوّلِ الفرحِ، وهذهِ الأرضُ جسدٌ، والبَذرُ عطاءٌ، وغداً أَعصرُ كرمي، وأسكرُ منْ هذي الكرومِ. فلمّا جاءَني شَهِدَنِي والفأسَ روحاً واحدةً[6]، والبِذرةَ معنىً من معَانيَّ، فقالَ ليْ:

الفأسُ والبذرةُ عاشقانِ غلبَهما البوحُ في الأرضِ، بسطوةِ القلبِ العاملِ.

وقالَ ليْ: بذرتُ في قلبِكَ المحبّةَ أولَ الأمرِ لتَبْذُرَ في الأرضِ غلالَ هذه المحبّةِ عند منتهاه، فَخَلْقُكَ محبّةٌ، وتفويضُكَ محبةٌ، وتمكينُكَ محبةٌ.
وقالَ ليْ (وقد حلّتْ إشارَتُهُ في الأرضِ): أنتَ بِذرتُها الطَيِّبةُ، وغرسُها الصالحُ، وعلومُها يزهرُ نُوّارَها في كلِّ حينٍ.
وقالَ ليْ: الذي هو بذرةُ الأرضِ يصيرُ في الوقتِ غلالَ هذهِ الأرضِ.
وقالَ ليْ: الذي هو بذرةُ الأرضِ يصيرُ بعدَ الوقتِ هذهِ الأرضَ.

---

[6] قلتُ لم يَزَلِ العارفُ بالخلقِ العرْبي بن مْهيدي، شيخُ المودّةِ والكراماتِ، وأستاذُ التجلّي والفتوحاتِ، السلطانُ الآسرُ، والمددُ العامرُ، بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائر، يعملُ بالحدادةِ وقتاً طويلاً، حتّى صارَ مُقدّماً فيها، يصرفُ غالبَ يومِه في ورشةِ الحديدِ لا في الدرسِ أو الخَلْوةِ. قلتُ: وهو مع هذا معدودٌ في الأساتذةِ العارفينَ وله كشوفاتٌ وإلهاماتٌ جليلةٌ. وتسمعُ منهُ حينَ يمشِي في نواحي الزاويةِ الصوفيّةِ خشخشةَ المساميرِ في حزامِ الأدواتِ حولَ خِصْرِه تُحاكي وقعَ مِشْيَتِهِ، أو ترَى أثرَ القادومةِ في جيبِه وقد تكوَّرَ وتهدَّلَ، أو تشُمُّ ريحةَ الصَّهَدِ الذي ذوّبَ به قلبَ الحديدِ أولَ النهارِ. يقولُ: أحبُّ أن أصيرَ من الحديدِ ويصيرَ الحديدُ منّي.

وقالَ لِيْ: أنتَ بِذرتي.[7]

وقالَ لِيْ: البَذْرُ فعليْ خصصتُكَ بهِ في سياقِ الإنسانيّةِ[8]، وقدْ ناشَدتني الأكوانُ بالشفاعاتِ السّنيَّةِ والحضرةِ الوليَّةِ أن أجعلَ لهم منهُ. فخلعتُ عليهِمِ العونَ، وأَلبستُهم التيسيرَ، فمنهم الرّياحُ اللواقحُ والدّوابُّ على حوافرِها وأوبارِها الحَبُّ تمشي به من أرضٍ إلى أرضٍ.

وقالَ لِيْ: ابْذُرْ لحضرَتي، وأنا القيُّومُ بكلِّ شيءٍ. وابذُرْ لحضرتِك، وأنتَ القائمُ على كلِّ شيءٍ.

وقالَ لِيْ: وضعتُ الأشياءَ فحرّكْتَهَا عنِ المواضعِ، وأرسلتُها لمُستقرٍّ فحوّلْتَها عن المقارِّ، وأثبتُّها عنْ تدبيرٍ فحيَّدتَهَا عن المثابتِ، فذا أنا أُوَطِّنُ الكونَ، وذا أنتَ تجتثُّهُ عنِ الوطنِ، فطوبَى لكَ إذ لم تُشاركني مَبدأَ خلقِي، ولم أُشارِكْكَ مجرَى بِدعتِكَ.

وقالَ لِيْ: أتحسَبُ لا يقومُ الترابُ إلا بكَ؟ ولكني أُفزّعُهُ بالريحِ والمطرِ والحيوان،

---

[7] قلتُ: "أنتَ بِذرتِي" من جهةِ أني غرستُكَ في تربةِ الكونِ حتّى تصيرَ نبتاً كاملاً بالعملِ والعلمِ والحبِّ، وهي أقواتُك جميعاً. قالتْ شيختي خديجةُ: لا بأسَ بكلامِك الذي هو علمُ الظاهرِ، وهو حسنٌ ينفعُ للطريقِ، فأمّا حقيقةُ العبارةِ التي تصلُ بكَ إلى آخرِ هذا الطريقِ فهيَ أنّ الإنسانَ بذرةُ اللهِ مثلمَا النواةُ بذرةُ النخلةِ.

قلتُ: لا أقدرُ علَى هذا القُوتِ.

[8] قالَ شيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ: جعلَ بِلخير البَذْرَ على ثلاثِ هيئاتٍ ورتّبهُ على قدرِ المقسومِ لهُ: فالبَذْرُ الكاملُ، بالسبحانيّةِ، للحقّ. والبذرُ الناقصُ، بالقلبِ، للإنسانِ. والبذرُ المنقوصُ، بالطبيعةِ، للريحِ والحيوانِ. وهذا يقابلُ الهيئاتِ الثلاثةَ التي في الكتابِ "قُلْ هو اللهُ أحدٌ" و "إنّي جاعلٌ" و "إنّا عَرَضْنَا". واللهُ أعلمُ.

فتخصبُ أرضٌ وتجوعُ أرضٌ، فأنتَ عندي ريحٌ ذاتُ مُقامٍ وحالٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وفهمٍ وتدبيرٍ، وكِبْرٍ وغرورٍ، ووحشةٍ وحضورٍ.

وقالَ لِيْ: أنتَ أكرمُ خلْقي، وفأسُكَ أنبلُ مصنوعِكَ. فاهوي بفأسِكَ حينَ تهوي كريماً من جِهتي، نبيلاً من جهتِهِ.[9]

وقالَ لِيْ: اضربْ بفأسِكَ الأرضَ، يَجْعَدُ وجهُها من غيرِ داءٍ، ويُخْدَشُ أديمُها من غيرِ سوءٍ، فيَأخذُها الفرحُ تغنِّي اسمَكَ في الطرقاتِ. أنتَ حبيبُها الكونيُّ، وصاحبُ أمرِها السَّنيُّ، الزارعُ الحاصدُ، والمفرِطُ القاصدُ، كلُّ شجرةٍ تنتسبُ إليكَ، وكلُّ ثمرةٍ تلهج بمعناكَ، وكلُّ نَسْغٍ يصيرُ دمَكَ.[10]

---

[9] من مُقاماتِ الروحانيةِ التي ينشدُها التلاميذُ والشيوخُ حبُّ الآلاتِ واعتبارُها. يقولُ الإمامُ أحمدُ: هيَ صنعتُنا وجَهدُنا ورابطتُنا بالعالِمِ. قلتُ: وفي أوّلِ أمرِنا جَمَعَ منّا مالاً فاشترى به حاسوباً وربطَهُ بالشبكةِ المعلوماتيّة، وكانَ يلمسهُ ويقولُ: هذا فأسٌ من فؤوسِنا لا نضعُهُ حتى نَشُقَّ به سُبُلَ العِلْمِ والعَمَلِ شقاً. قلتُ: فلمّا قَصُرَ عن حاجتِنا زِدنا أربعةً أخرى فعشرةً فنحنُ نفلحُ بها إلى اليومِ.

[10] لما حضرَ الشيخَ ساسي بن نايل الموتُ قالَ: اجعلوا الهيئةَ التي ظهرتُ بها عليكُم، يقصدُ بدنَهُ، تحتَ الزيتونةِ التي ببستاني فإني أحبُّ أن تقتاتَ مني مثلمَا تَقَوّتُّ منها زمناً. قالَ: فإن عصرتُم زيتَها اجعلُوا بعضَه في القناديلِ تستضيؤونَ بها في الموالدِ والحضرةِ ومسرّاتِ الأولادِ. قلتُ: يريدُ أن يحضرَ فرحَ الخلقِ. وهو، رحمَه اللهُ، أخذَ هذا من فهمِنا للرابطةِ التي بين البني آدم وبينَ الكونِ. وقد حضرتُ في أحوالٍ متباعدةٍ أستاذينِ آخرينِ وتلميذةً يوصُونَ بمثلِ هذا وهم علَى عتباتِ الوداعِ في بعضِ السنينِ، فكنّا بعدَها نقولُ عنِ الواحدِ منهم "زادُ النخيلِ سالمٌ" و "قوتُ الكرومِ محمودٌ" و "مؤونةُ الزرعِ خديجةُ". رحمهم الله جميعاً وأسعدَ أشجارَهم، وأظلَّ علينا بعلومِهم وأسرارِهم، ومحبّتِهم للعالمِ.

وقالَ ليْ: البِذرةُ التي لا تَقصدُ بها بطونَ الجائعينَ بذرةٌ خائبةٌ.[11]

---

[11] قالَ تلميذٌ: اشتدَّ الظّلمُ بالبلدِ وحكمَ البرانيُّ بالجُوَّانيّ، فرأيتُ الإمامَ أحمدَ يدخلُ الدكاكينَ يكلّمُ الناسَ ويسألُ عن أسعارِ السّلعِ وحالِ المعيشةِ، وعلماءُ الروايةِ يُنكرون عليه لنجاسةِ السوقِ عندهم. فقالَ الإمامُ: منْ لم يعرفِ السّوقَ لم يعرفِ الخلقَ، ومن لم يعرفِ الخلقَ لم يعرفِ الحقَّ، ووالله إنَّ في السوقِ هُموماً للناسِ وحاجاتٍ هيَ أقصرُ طريقٍ إليهِ. قالَ التلميذُ: ثم مشى في سوقِ الفُقراءِ، وفيهمُ النازحُ والمُطاردُ والثكلَى والأرملةُ واليتيمُ، وهوَ يقولُ:

ليسَ لي في السّوقِ هَمٌّ	غيرَ أنّي في طِلابِكْ
بينَ مظلومٍ ومُدقِعْ	أرجُو أنْ ألقَى جَوابَكْ
أو علَى البَدَنِ الفقيرِ	أرجُو أن ترمِي ثيابَكْ
أرفعُ الصوتَ خصِيماً	ضَاعَ يومِي في عِتابِكْ
كيفَ لي ألّا أُبالِي	والغلابَا منْ عِيالِكْ
أمرُهمْ إن قلتَ عدلٌ	تاهَ في الدُّنيا مقالُكْ
أو قَسَمْتَ الرّزْقَ حقّاً	نَالَهَمْ مِنْهُ فُتاتُكْ
بينَ سلطانٍ أجرتَهْ	منْ عقابِي أو عقَابِكْ
أو قوانينَ استباحتْ	نهبَ منْ ملّوا دُعاءَكْ
أو إلَى فعلٍ قصدتُ	لم يُقابلني صَوابُكْ
أو تَوخَّيتُ الشُّهودَ	راعني فيهِمْ حجابُكْ

ليسَ لي في السّوقِ هَمٌّ، غيرَ أنّي في طِلابِكْ، غيرَ أنّي في طِلابِكْ.

ثمّ سقطَ الإمامُ على أرضِ السوقِ يئنُّ، والناس لا يفهمون من أمرِهِ شيئاً. قلتُ: نعمْ، وهذا من الأوجاعِ التي عليها الأئمةُ، وهو من شروطِ صحةِ الخلافةِ عندَهم فلا تقومُ بغيرِهِ. ولا يقدرُ على هذا الحالِ إلا العارفونَ باسمِ الرحمةِ العاملةِ ومقامِ الربانيّةِ الشاملةِ.

وقالَ لِيْ: البذرةُ التي تَـحْرُثُ لها عندَ المسلوبينَ تَحرثُ لكَ عندِي.

وقالَ لِيْ: خيرُ بِذْرِكَ ما أسندَ قلبَ الجياعِ، وعُشباً لماشيةِ الأرضِ، وزاداً للخارجينَ في سبيلي.

وقالَ لِيْ: البذرةُ التي يذهبُ خراجُها للمترفينَ شاهدٌ عليهِم.

وقالَ لِيْ: المترفونَ ينهبونَ غِلالَ الأرضَ وهم قلوبُهم منهوبةٌ بمعنى الاستئثارِ.

وقالَ لِيْ: الذي يَنهبُ يُنهبُ لأنّ فعلَ الظلمِ يشينُ له العالمُ من كلِّ جهةٍ.

وقالَ لِيْ: الغِلالُ التي تَقِفُها على الشِّرْكَةِ قُوتُ الخُلفاءِ.

وقالَ لِيْ: الشِّرْكَةُ معنًى يجمعُ الكونَ في سياقٍ واحدٍ هو سياقُ الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ الغلالَ تُنْهَبُ منهم ثمّ يصيرونَ تحتَ حُكمِ عازتِهم للغلالِ التي خرجتْ من بين أيديهِم.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ الغلالَ حَرِيٌّ بالغلالِ أن تقعَ تحتَ سطوتِهم فلا تُغادِرُهم ولا يغادرُونَها.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ الغلالَ حريٌّ بِهِمُ العالمُ.

وقالَ لِيْ: الغرسُ الذي بين يديكَ، بين يديَّ. فكأنَّه حينَ يخرج عنكَ يخرج عنِّي.

وقالَ لِيْ: الغرسُ الذي بينَ يديكَ ألفُ عرشٍ يكادُ يَكون، فإنْ ذهبتَ به في الأرضِ كانَ.

وقالَ لِيْ: الغرسُ مقاربةٌ للعرشِ.

وقالَ لِيْ: الغرسُ يقيمُ رابطتَك بالأرضِ التي هي محلُّ العرشِ الذي ينبغي لك.

وقالَ لِيْ: الغرسُ الذي في رحمِ التُّرابِ حديقةٌ كامنةٌ، هي اسمُك في الأرضِ ورائحتُك التي تُنْبِئُ عنكَ في العالمِ.

وقالَ لِيْ: الغرسُ من عملِ قلبِك قبلَ يديكَ، فمقامُ القلبِ هو الزارعُ الحاصدُ.[12]
وقالَ لِيْ: الغرسُ الذي لا يعرفُه قلبُكَ لا يَسُدُّ الرمقَ، لأنّ القلبَ يحرثُ قبلَ اليدينِ.
وقالَ لِيْ: الحرثُ الذي تُقلّبُ بهِ وجهَ الأرضِ يَبيُن لكَ عن وجهي.
وقالَ لِيْ: وجهي تجدُه في غمرِ الترابِ أو غمرِ قلبِك لا فرقَ.
وقالَ لِيْ: الذي هو لا فرقَ بين الترابِ وبينَ قلبِه حَرِيٌّ به مقامُ السّبحانيّةِ.
وقالَ لِيْ: الحرثُ الذي تَشُقُّ بهِ سُبُلَ الأرضَ تَشُقُّ بهِ سبيلَ خلافتِكَ.
وقالَ لِيْ: الذين يبحثونَ عن سبيلِ الخلافةِ قل لهم يمشُوا إلَى المشاغلِ والبساتينِ.
وقالَ لِيْ: الحرثُ الذي يُطلِعُ غلّةَ الأرضِ إنما يُطلِعُ غلالَ قلبِكَ.
وقالَ لِيْ: الحرثُ الذي يَسْنُدُ قلوبَ الجياعِ يسندُ قلبي.
وقالَ لِيْ: الحرثُ الذي تبدؤُهُ يُدشِّنُكَ.
وقالَ لِيْ: آلةُ الحرثِ آلةٌ لحضرةِ اسمِك.
وقالَ لِيْ: الآلةُ بدنٌ متّصلٌ ببدنِكَ، ومتْن منعقد بمتنِكَ، ويدٌ أخرَى لك في جسدِ

[12] كان شيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصورٍ ضَحوكاً يُحِبُّ التمثيلَ وضربَ الأمثالِ. فلمّا كانَ وقتُ حرثٍ قامَ أهلُ الناحيةِ يُقَلِّبونَ الأرضَ ويبذرونَ. فشاركَهم واحداً واحداً، وصارَ يبذرُ شَتلتينِ ثمّ يضعُ حَجَراً بدلَ الثالثةِ ويقولُ لصاحبِ الزّرعِ: أترَى هذهِ تقومُ ويخرجُ منها زرعٌ طيّبٌ؟ فكذا زرعُكَ مع فلانٍ استأثرتَ عنه بالماعونِ، أو طففتَ عليهِ كَيْلَه، أو خذلتَهُ في وقتِ حاجةٍ. فيضطربُ الزارعونَ لكلامِهِ وأكثرُهم يُصلِحُ من حالِ زرعِه ولا يعودُ يَظلِمُ. قلتُ: والشيخُ أعظَمُ حساباً لنفسِه منهُ لغيرِه ولهُ في هذا أحوالٌ معروفةٌ، ومُقاماتٌ موصوفةٌ.

الكونِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ مُقامُ رُبوبِيَّتِكَ في الكونِ لأنها جهةُ الكدحِ التي تدخلُ منها عليهِ.[13]

وقالَ لِيْ: مقامُ الربوبيّةِ أثرٌ عنِ الإنسانيّةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: الذين يَعملون بآلاتهم في العالمِ يُعمِلون معناهُم في هذا العالمِ، في راهنيّةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: الراهنيةُ انعقادُ مقامينِ في منزلٍ واحدٍ من منازلِ الكدحِ عندَك، أو السّبحانيّةِ عندِي.

وقالَ لِيْ: الراهنيّةُ أن تنبثقَ في العالمِ من جهاتٍ كثيرةٍ في وقتِك الذي أنتَ قائمٌ في سياقِه.

وقالَ لِيْ: الانبثاقُ ينهضُ بك على التخومِ المقابلةِ للراهنيةِ .

وقالَ لِيْ: الوقتُ الذي يَرهنُك لا يحبِسُكَ جميعاً، لأن فيكَ محلَّ الإنسانيّةِ

---

[13] **قالت سَيّدتي الواجدةُ بالله سمرُ الزمانِ المهديّة، سيدةُ المواجدِ والإشارات في واحاتِ سبها وغات: إني علمتُ كلَّ شيءٍ. فسكتَ عنها الناسُ، أي جحدُوها، فقالتْ: واللهِ لو سألتموني عن شيءٍ لم يكن عندي لأجَبْتُكم من اللوحِ المحفوظِ. قيلَ: وما ذاكَ؟ قالتِ: الكدحُ.**

قالَ مَولايَ سعيدُ العاقبةِ: اللوحُ المحفوظُ – "اللوحُ" ما لاحَ لعقلِك أو قلبِك من حسابٍ أو فكرٍ أو خاطرٍ، و "المحفوظُ" ما وافقَ المراجعةَ والعملَ والنظرَ المستديمَ فهو محفوظٌ عن الغلطِ والمحوِ والتبديلِ. قالَ: وهذا لا يكونُ إلا في الكدحِ الإنسانيّ الذي يتّصلُ بالعالمِ من بابِ الإنسانيةِ العاملة، فيُنْشِئُ المعاني إنشاءً وينتهكُ حرمةَ الجهلِ بلا حشمةٍ. أما الكلامُ، وإن كانَ في الغيرانِ، فيَلُوْحُ ويمّحي ويُبَدّلُ قراءةً وتأويلاً ومنفعةً للسلاطينِ. قلتُ: هذرٌ جليلٌ.

الشّاملةِ، قلبَك.[14]

وقالَ لِيْ: الآلةُ معونةٌ لقلبِك كي يتّخذَ الراهنيّةَ مبدأَ المسيرِ لا مُنتهَى المصيرِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ بأسٌ منكَ في سلامِ الكونِ تمشي بألويةِ الكدحِ، فتفزعُ الأشياءُ إلى معانيها الأولى، وأنتَ تُحيلُها إلى جَهدِك في الوقتِ وكدحِكَ في المكانِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ خروجٌ بقلبِك عنْ حَيِّزِهِ، إلَى حَيِّزِيْ.

وقالَ لِيْ: وقتَ دخولِك إلى حيّزي لا يعودُ شيءٌ يحوزُك غيرُ اسمائِك التي تتسمّى بها في حَضرتي.[15]

وقالَ لِيْ: الآلةُ اشتراكُك معي في معنىً من معانيَّ واسمٍ من أسمائِي.

وقالَ لِيْ: الآلةُ امتثالٌ لإرادةِ القلبِ وخضوعٌ لاشتهاءاتِ الانحيازِ واستبسالٌ

---

[14] قالَ الأستاذُ قرلصُ بنُ مرقصَ العامليّ: الغدامسيُّ مشغولٌ بخروجِ القلبِ، في جهةٍ من جهاتِه، عن قيدِ الاجتماعِ وأغلالِ السياقِ. وهو في هذا يفترقُ عن من جعلَ الإنسانَ كلَّه منعقداً بنَيْرِ المعيشةِ وعِنانِ النظامِ الذي ترتَّبَ عليه رزقُه واجتماعُه. قالَ: ولا نعرفُ هيئةَ هذا الخروجِ كيفَ تصيرُ، بالفكرِ أم بالآدابِ أم بالعملِ. فقد ينظمُ العاملُ الذي غُلِبَ في سياقِ الحُكْرَةِ شعراً باهراً، أو يحيكُ فكرة ثاقبةً، أو ينبثقُ بعملٍ يناهضُ به الحبسَ الذي هو فيه. قال: ولعلّ هذا يرجعُ إلى أن القلبَ قبَسٌ من الصبحِ الأوّلِ الذي سبقَ علَى السياقاتِ والنُظُمِ جميعِها، فمِن هذا لا يقعُ كلُّه في الحبسِ.

[15] سألتُ الأستاذَ بَابِكِر بنَ الفاتحِ النّوبِي، غوثَ السودان، وعارفَ قرنةَ وأسوان، الفتحَ الباهرَ، والنيلَ الغامرَ، وإمامَ الزمانِ الظاهرِ: ما الأسماءُ التي يتّخذُها الإنسانُ في الحضرةِ؟ قالَ: هي موقوفةٌ علَى الجهةِ التي يدخلُ منها إليه، فمنها الصانعُ، والزارعُ، والعاملُ؛ ومنها العاشقُ، والمُغَنّي، والسّكرانُ؛ ومنها القيّومُ، والرحمانُ، والسّبحانُ. قالَ: وهيَ جميعاً الإنسانُ ولكنّهُ شُبّهَ لها. قلتُ: لمن؟ قالَ: للحضرةِ.

قدّامَ غوايةِ الحيادِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ مغامرةُ يديكَ بين يديَّ، وأفقٌ متَّصلٌ بأفقِ قدرتي.

وقالَ لِيْ: يداكَ عقلٌ في رواءِ الآلة، وقلبٌ في ثيابِ التمكينِ، وفكرةٌ في مُقام المحاولةِ.

وقالَ لِيْ: يداكَ استشرافٌ ليديَّ.[16]

وقالَ لِيْ: يداكَ تعقدانِكَ كما تعقدُني أسمائي.

وقالَ لِيْ: يداكَ أسماؤُك.

وقالَ لِيْ: يداكَ تهجئةٌ لأسمائِك على نحوٍ من الفعلِ.

وقالَ لِيْ: الذي هو على نحوٍ من الفعلِ يصيرُ على نحوٍ تامٍّ من الكونِ.

وقالَ لِيْ: نحوُ الفعلِ انحيازٌ إلى جهةِ الانعقادِ بالكونِ.

---

[16] كانتْ مولاتي العَارفةُ باللِه فاتنةُ بنتُ الواجدةِ بالله المهدية، عارفةُ فزّان، وفتنةُ الأبدانِ، والقائمةُ بالبرهانِ، سافرةً لا تحجبُ وجهَها ولا جدائِلها، وتمشي فتهتزُّ لها القلوبُ من حُسنِها ودلالِها. فقامَ لها بعضُ القومِ في السوقِ يريدونَ أذاها يقولون: أفسدتِ البلادَ والعبادَ. فلمّا دافعُوها وخاشنُوها فزعَ لها وَلدانِ أمردانِ جميلانِ لباسُهما من غيرِ اللباسِ المعهودِ عن أهلِ البلدِ. فلمّا غلبا أهلَ الأذيّة عادتْ مولاتي تبحثُ عن الولدين تقول: أريدُ حمدَهما، والثناءَ عليهما، والدعاءَ بالأجرِ من الله. فقالَ لها الناسُ: ما رأينا ولدينِ أمردينِ، وما غلبَ القومَ غيرُ الهيبةِ التي لكِ في السوقِ. فحلفتْ مولاتي أن الولدينِ كانا يَرُدّانِ عنها أيدي العابثينَ، وقد اتّكأتْ على كتفِ أحدهما وأمسكتْ بيدِ الثاني حتى أخرجاها عن ظاهرِ السوقِ. قال الإمامُ الدريّ: روحانِ من الجنةِ. قلتُ أنا موسَى: فجاءتني مولاتي وجعلت تمدُّ رُسْغَها إليّ، فما شممتُ ريحاً أطيبَ من موضعِ يدِ الولدِ علَى يدِها وظلّتْ هذه الريحُ عليها دهراً من الزمنِ حتى سمّيناها: العاطرة.

وقالَ لِيْ: يداكَ تعقدانِ الكونَ فتنعقدانِ بهِ.[17]
وقالَ لِيْ: يداكَ آلةٌ تصلُ بين معناكَ وبينَ العالمِ.
وقالَ لِيْ: الصِلَةُ بين الحارثِ وسياقِ العالمِ صلةُ شوقٍ.[18]

---

[17] قالَ رجلٌ لمولايَ الحسنِ الحضرميّ: أليسَ لكَ كرامةٌ كما للمرابطينَ الصالحينَ يطيرونَ في الهواءِ ويفلقونَ البحرَ ويَحُجّونَ في يومٍ وليلةٍ؟ قالَ مولاي: بلَى، إني أقومُ الفجرَ فأُدخِلُ سَعَفَ النخلِ في عُقَدٍ أجعلُها كذا وكذا فلا تَنتصفُ الشمسُ إلا وهو سَلّةٌ من سلالِ الخبزِ أو قُفّةٌ من قُفَفِ الماعونِ. فانظرْ رعاكَ اللهُ كيفَ تَغَيّرَ حالُ السعفِ على يديَّ فصارَ منفعةً للناسِ ولم أُصَلِّ الظهرَ بعد!
قلتُ: كلُّ عملٍ ينفعُ الخلقَ هو كرامةٌ كاملةٌ، وكلُّ كدحٍ يقتاتُ منه الذّراري والعوائلُ فهو من لَدُنِّ الربانيةِ الشاملةِ. ولهذا فإن العاملينَ الكادحينَ هم أهلُ الولايةِ والمعجزاتِ وأصحابُ اللواءِ والسُّبحانيةِ، فمن عاداهُم، بالمُكُوسِ والجباياتِ الظالمةِ والأُجرةِ، فقد عادَى الربّانيةَ والسُّبحانيةَ في مَعْقِلِها الإنسانيّ الكريمِ.
[18] أخبرَنا الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ الدريّ أن "الحفّارينَ" و "المُمَهّدينَ" كانوا جماعةً من الناسِ في بَرّ الانجليز في القرونِ الأولى يخرجونَ إلى الأرضِ العموميّةِ فيكدحُونها جمعاً واحداً ويأكلونَ من خيرِها ولا يَظلمون، وهم في هذا لا يحكُرونَ ولا يمكُسونَ. ومِثْلُهم "المزارعونَ بلا أرضٍ" في نواحي البرازيل يجمعونَ فقراءَ العاملينَ الذين لا نصيبَ لهم من ترابِ البلدِ فإذا هم يحرثونَ مشاعَها ويتشاركون المحصولَ. وآخرونَ في البلدانِ يَنْظِمون صفوفَهم ويأتون العالمَ بالمباشرةِ والكدحِ المتكأِ على الفكرِ المُتّقِدِ لا علَى الكلامِ السائبِ والعباراتِ المشتراةِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هؤلاءِ صلةُ الشوقِ التي بينَ الإنسانِ والعالمِ، وهم إشاراتٌ بالربوبيةِ وعلاماتٌ بالنهارِ الذي سيكونُ. فمنْ لم يرَ هذا كانَ أعمَى عن الفجرِ الصُّراحِ. ولو أن الناسَ اتّبعوا هذا السبيلَ لصَلُحَ حالُ الخلقِ وصارتِ الخلافةُ مُتحقِّقةً في العيانِ.

وقالَ لِيْ: الحارثُ يَشْغُفُ بتربةِ الأرضِ حتى يَدُسَّ فيها يدَه فتَشْغُفُ هي بهِ.
وقالَ لِيْ: الحارثُ زعزعةٌ لاستقرارِ الترابِ، وتقويضٌ لاطمئنانِ الأرضِ.
وقالَ لِيْ: الترابُ موضعُ أثرِ القلبِ، ومَحَلُّ فعلِ اليدينِ، وعلامةُ خدشِ الآلةِ.
وقالَ لِيْ: الترابُ مَحَلُّ خلافتَك.
وقالَ لِيْ: التراب محلُّ خلافِكَ وهو حَرِيٌّ أن يكونَ محلَّ خلافتِك.
وقالَ لِيْ: الترابُ الذي سيرقدُ فيه جسدُك تغفو فيه البذرةُ التي ستصيرُ سنبلةً.
وقالَ لِيْ: الترابُ سِنَةٌ من النومِ.
وقالَ لِيْ: الترابُ يضمُّ جسدَ البذرةِ ثم يصيرُ إلى أن يضمَّ جسدَ صاحبِ البذرةِ.
وقالَ لِيْ: جسدُ البذرةِ وجسدُ صاحبِها جيرةٌ في الترابِ ورفقةٌ في هواءِ الإمكانِ.
وقالَ لِيْ: الترابُ الذي يَلُمُّ شتاتَ جسدِك أمٌّ ثَكلى وحُبْلَى بك في وقتٍ واحدٍ.
وقالَ لِيْ: الترابُ الذي يلمُّ شتاتَك يصيرُ دارَ العزاءِ التي يحضرُها المحبُّون.
وقالَ لِيْ: الترابُ الذي لا يعرفُك غفلٌ عن معنى الإنسانيّة، والترابُ الذي لا يعرفُ فأسَك لا يعرفُ اسمَك كلَّهُ.
وقالَ لِيْ: الترابُ الذي لا يعرفُ فأسَك قد يَسْنُدُكَ بهواءٍ طيبٍ وظلٍّ حسنٍ وحياةٍ من رحمِ السديمِ الأوّلِ.[19]

[19] كانَ الإمامُ أحمدُ يقولُ: لا تزرعوا كلَّ فدّانٍ من هذهِ الأرضِ، بل اتركُوا شيئاً للعَفْوِ يَنْبُتُ فيه الشجرُ الوحشِيُّ، ويرعَى الحيوانُ البرّيُّ، ويقتاتُ النملُ والخنفسُ، ويتنفسُ هواءُ هذا الإقليمِ. فإننا نزرعُ الصنفَ الواحدَ والصنفينِ لزادِنا وحاجاتِنا، والعفوُ يزرعُ ما لا عَدَّ له من النبتِ والشجرِ المتطاولِ والنوارِ العجيبِ، وهذا حسنٌ للحيوانِ والمناخِ وخصوبةِ الكونِ.

وقالَ لِيْ: فأسُك إشهادٌ للترابِ على خلافتِك.

وقالَ لِيْ: فأسُك مباشَرةٌ لأعمالِ الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: الفعلُ المباشِرُ الذي يلامسُ الأشياءَ ويخترقُ العالمَ هو سبيلُ الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: المباشَرةُ تقابلُ العازةَ فتلقحُ منها وعيَك بالسياقِ الذي أنتَ فيهِ.

وقالَ لِيْ: العازةُ تحبِسُكَ حتّى تَعِيها فيصيرُ هذا الوعيُ مكمنَ الانعتاقِ، وتصيرُ العازةُ تلكَ عتبةَ الحريّةِ.[20]

وقالَ لِيْ: العازةُ عتبةُ الحريةِ.

وقالَ لِيْ: فأسُك محبةٌ في هيئةِ الانتهاكِ.

---

[20] جعلتِ الأستاذةُ زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ أستاذةُ المحبةِ والمكابدات، في مساجدِ وزوايا العجيلات، نَوْلاً للنسيجِ تعملُ عليهِ ويُعينها بعضُ التلاميذِ. فتَغَيّرَ حالُها، وصارتْ بها شِدّةٌ، وبعضُ الهمّةِ الدنيويّةِ، وشيءٌ من الحسابِ وترتيبِ الأمورِ لم أعرفهُ عنها لاستغراقِها في الخَلوةِ والدرسِ والمجاهداتِ الروحيّةِ. فسألتُها عن هذه المعَاني الجديدةِ والأحوالِ الغريبةِ، فقالتْ: لمّا اتَّخَذْتُ النولَ آلةً للرزقِ والنَتْج الطيّبِ ظننتُ النولَ محبوساً في الرُّكنِ الذي أقعدتُه عندَه، والساعةِ التي أجلسُ فيها إليه. فإذا أنا أشتري مؤونتَه من خيطٍ وصوفٍ، وأصلحُ أعطالَه، وأشدُّ أطرافَه، وأخلُو إلى نفسي فأرسمُ أشكالاً يَشبُكها، وتصاميمَ ينسجُها. ثم يأتي الناسُ فيتكلمونَ معي يريدونَ نتجاً منه أو يَنشدون معرفةً بعملِه، ومعي التلاميذُ نتكلّمُ في شؤونِ الحرفةِ وحاجاتِ السوقِ. وأنا في كل هذا أعلمُ شيئاً من صناعةِ النّولِ، وأفهمُ أسرارَه، وأُجري حساباتِه، وأُقدّرُ ربحَه وخسارتَه، وأتّصلُ بالخلقِ من جهتِه. فهذه جميعاً بركةُ الآلةِ، ورحمةُ الصنعةِ، وربانيةُ العملِ الإنسانيّ.

قلتُ أنا موسى: فعجبتُ من كلامِها وتصنيفِها للأمرِ، وعزمتُ أن أكتبهُ ها هنا لما رأيتُ من اتّصالِه بعبارةِ الشيخِ الغدامسيّ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الانتهاكِ إعمالٌ للعشقِ الذي ضَجَّ به قلبُك في الأرضِ التي جاشَتْ بالمناشدةِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ لغةٌ في القلبِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ احتمالٌ لمعناكَ في فضاءِ الإمكانِ.

وقالَ لِيْ: الآلة احتمالٌ لمعانٍ لم يَشهدْها قلبُك قبلَ فجرِ الآلةِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ تُضفي على حديدِها ضميراً لم تُضْمِرْهُ لها.

وقالَ لِيْ: ضميرُ الآلةِ تابعٌ لخُطّتِها وصُنعِها وموادِها، وللاحتمالِ الذي هو كامنٌ فيها.

وقالَ لِيْ: الآلةُ التي تخرجُ عن حكمِ قلبِك قد ترهقُ قلبَك.

وقالَ لِيْ: خضوعُ الآلةِ لقلبِ الصانعِ قلبٌ للآلةِ.

وقالَ لِيْ: قلبُ الآلةِ يُحِيلُ إلى قلبِك وقلبُك يحيلُ إليّ.

وقالَ لِيْ: الآلة التي تنحتُ قلبَها تفهمُ عنها معنًى لم يظهرْ لكَ قبلَ الآلةِ.

وقالَ لِيْ: وقتَ أن تصنعَ الآلةَ تصيرُ هي صانعةَ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الآلةُ التي تسبُكها تسبُكك لأنها تَبرؤُ فيك أسماءَ لم تشهدْها في ذاتِك.

وقالَ لِيْ: لا يزرعُ الزارعُ ولا يصنعُ الصانعُ ولا يَحيكُ الحائكُ إلا بمعنَى الزرعِ والصُّنْعِ والحياكةِ، فمِن هذا تقترفُك الآلةُ كلما اقترفتَ بها، وترتكبُك كلّما ارتكبتَ بها.

وقالَ لِيْ: الآلةُ تزيدُ في جسدِك جسداً وفي قلبِك قلباً وفي معناكَ معنًى يُؤويك.

وقالَ لِيْ: الآلةُ إيواءٌ لحاجةِ الاسمِ فيكَ.

وقالَ لِيْ: الذي يدخلُ عليَّ بآلةٍ يعملُ بها يزيدُ حضورُها في حضرتِه، وجاهُها في

جاهِه، وسلطانُها في سلطانِه.

وقالَ لِيْ: سلطانُ الإنسانِ سطوةٌ تأخذُ بقلبِ العالِمِ فينبثقُ المعنَى وتنفتقُ الرّؤَى وتنفجرُ عيونُ الكلامِ.

وقال لي: الآلةُ والأصولُ والحاجاتُ ينبغي لها النزولُ عندَ سطوةِ العملِ.

وقال لي: سطوةُ العملِ عندَ العاملِ.[21]

وقالَ لِيْ: أصحابُ السّطوةِ العاملةِ معجونونَ بالمحبّةِ التي أنبتتِ العالمَ أوّلَ الأمرِ فمِن هذا تأخذُ بقلبِ العالِمِ.

وقالَ لِيْ: الذي ينشغلُ بقلبِ العالِمِ يعتملُ قلبُ العالِمِ بهِ.

وقالَ لِيْ: الانشغالُ بالعالِمِ موقفٌ يَنبغي لكَ.

وقالَ لِيْ: الانشغالُ يشابهُ الحالَ الذي كنتُ فيهِ قبلَ الاستواءِ على العرشِ.

وقالَ لِيْ: قبلَ الاستواءِ بدا لي العالمُ محلًّا للانشغالِ الذي يحصلُ عنه ضرورةً هذا الاستواءُ.

وقالَ لِيْ: انشغلْ تجلسْ على العرشِ.

---

[21] عملتِ امرأةٌ مهاجرةٌ عندَنا مدةً ثمّ حَبِلتْ فأنجبتْ، فكانتْ تكنسُ المدرسةَ وتُرَتِّبُ الحوائجَ وتُطَيِّبُ بعضَ الطعامِ وولدُها يرضعُ من لبنِ ثديِها وهيَ تلفُّهُ بردائِها. فأرسلَ وراءَها الإمامُ أحمدُ وقالَ: كيفَ أجرُكِ؟ قالتْ: يَكفيني. قالَ الإمامُ: ولكنّهُ لا يَكفي ولدَك، يجوعُ ويصقعُ وأنتِ تَخدمينَنا. فنحنُ نَعفيكِ من العملِ ستةَ أشهرٍ ولا نَمْنَعُكِ أُجرتَك. فقالتِ المرأةُ: قد عرفتَ حالي وحالَ عَيّلي، وقدَّرتَ خيراً لنا، وأنا امرأةٌ غريبةٌ في هذي الديارِ، فهذه كرامةٌ أُذيعُها عنك. قالَ الإمامُ: بل هي السطوةُ الواجبةُ للعملِ إزاءَ الحاجاتِ وهي حقٌّ يجدرُ أن يُكتبَ في قانونِ البلدِ، ويحملَه نظامُ الشغلِ عنكِ جماعةً.

وقالَ لِيْ: المنشغلونَ حريٌّ بهم أن يجلسوا على عتبةِ داري، حيثُ الاسمُ الأعظمُ، ليُسلِّموا عليّ وينالوا الزادَ وينوشَهم ظِلِّي.[22]

وقالَ لِيْ: المُنشغِلون قد يَفوتُهم وقتُ المؤونةِ فيضربونَ بفؤوسِهم، وقلوبُهم تطلبُ الزادَ وتشتهي سَدَّ الرمقِ.

وقالَ لِيْ: المنشغلونَ يتلفَّتون بوجوهِهم يريدونَ ما تحتَ العرشِ، وما هو تحتَ أقدامِهم يئِنُّ بهم شوقاً وهم لا يَعَوْنَهُ.

وقالَ لِيْ: المنشغلونَ أهلُ اللهفةِ المشبوكةِ بالكدحِ يطلعُ الصبحُ عليهم وهم في أفقِ الأرضِ يسألونَ أين مَطلعُ الشمسِ وقلوبُهم هي محلُّ الإشراقِ في الكونِ.

وقالَ لِيْ: لو وقَفَ المنشغلونَ بمحالِّ القلوبِ لارْتَوَوا من مناهلِ العلومِ وتزوّدوا بمؤونةِ الأشواقِ.

وقالَ لِيْ: الحرثُ معنًى وآلةُ الحرثِ اسمٌ، وأنتَ عجينُ الاسمِ، وسنبلةُ المعنَى،

---

[22] قلت لشيخَتِي خديجةَ بنتِ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ، مولاةِ المسرّاتِ، وصانعةِ البهجاتِ، صاحبةِ العلمِ والسناءِ، وسلطانةِ الوجدِ والرجاءِ، في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراءِ: كيفَ يجلسُ الواحدُ منّا علَى عتبةِ الدارِ، دارِ الاسمِ الأعظمِ؟ قالتْ: لا بدَّ لهُ منْ أنْ ينشغلَ بالعالَمِ أولاً، فيكدحُهُ حتّى يقدحَهُ. فإن رأَى أثرَهُ الإنسانيَّ في سياقِ الزرعِ والحديدِ، يسيرُ علَى مطايا المحبّةِ، محبّةِ الخلقِ، فيُنيخُها عندَ السّدرةِ المعروفةِ، وينادي علَى صاحبِ الدارِ بالاسمِ الذي يتهيّأُ لهُ، أو يسنحُ لقلبِه، فإنّهُ يسمعُ الجوابَ بأنْ اقعُدْ حتّى نُصلِحَ من شأنِنا ونخرجَ إليكَ. فيجلسُ علَى العتبةِ التي تظهرُ له كرامةً، ويَلْقُمُ من الزادِ الذي هو علومُ العتبةِ ومعارفُ السّدرةِ، ويَستظِلُّ بالعطرِ الربّانيّ الذي يَصِلُهُ من داخلِ الدارِ من جهةِ أنّ الحقّ يتزيّنُ لزيارتِه. حتّى يسمعَ النفَسَ الجليلَ وركضةَ الحضرةِ الغامرةِ تُقارِبُ موضعَهُ علَى العتبةِ، فيكونُ بعدَ ذلكَ ما يكونُ مما لا يسعُه حديثٌ ولا يجوزُ عليهِ الكلامُ.

وحبّةُ قمحِ الفؤادِ الذي ينشغلُ بي وبالعالمِ.

وقالَ ليْ: قمحُ الفؤادِ من الزادِ الذي يَصْلُبُ عودَ الكونِ وأنتَ تنهضُ به تريدُ التخومَ الآخرةَ.

وقالَ ليْ: قمحُ الفؤادِ مؤونةٌ يقتاتُ عليها الاسمُ الذي لم أخطَّهُ في كتابٍ، ولم أتكلّمْ بهِ في فجرِ الوقتِ، ولم أَفُضْ بهِ علَى مُحَيَّا الأنبياءِ.

وقالَ ليْ: قمحُ الفؤادِ يتشوّقُ أن يصيرَ عجينَ العلومِ، وخبزَ الغواياتِ، وقوتَ العاملينَ الذين ملكوا أمرَهم وغِلالَهم.

وقالَ ليْ: قمحُ الفؤادِ نَتْجُ الفعلِ الذي بَاشَرْتَهُ في سياقِ الحياةِ فاقترفَك هو في سياقِ القلوبِ.

إشارةٌ غدامسيّة

وقالَ ليْ: أنتَ آلةُ الآلات، وقمحُ الفؤادِ، وبذرةُ كلِّ أرضٍ طيِّبةٍ. خَلَقْتُكَ بجَهدي وفَلحي قبلَ أن يكونَ لكَ جَهْدٌ وفلحٌ، وأشرقتُ عليكَ بأنواري حيثُ لم يكنْ لكَ نورٌ، واحتسبتُكَ لخيرِ خلقي وهُمْ في رحمِ الغيبِ لم يخرجوا عنهُ. فأنتَ الحرثُ الذي أَذِنْتُ بهِ، والبَذْرُ الذي أَرَدْتَهُ من محضِ محبَّتِكَ. كلُّ أرضٍ حديقتُكَ، وكلُّ معنًى صَنِيعَتُكَ، وكلُّ فأسٍ نصلُكَ وآلتُكَ. تأتي العالمَ شغفاً بالمباشرةِ، وتَتّخِذُ هيئةَ الانتهاكِ الآسرةَ، وتنشغلُ باقترافِ الأسماءِ التي ناديتَ بها الأشياءَ. دخولُك إلى الأرضِ كرامةٌ، وحديثُك عنها شوقٌ، وكدحُكَ فيها فرحٌ وفاكهةٌ للحارثين.

8. موسمُ الحيوانِ

(وهو الشّاهدُ)

ومن أحوالِه الحافرُ والثُّغاءُ والإعفاءُ والمصاحبةُ والصيرورةُ والكُمُونُ والمُضاهاةُ والاسمُ والانفكاكُ والانخراطُ والمقاربةُ والمناوشةُ وربانيّةُ الوقتِ

وفيه اشتدَّ بأسي، واتّسعَ خَطوي، وانتبهتْ يدِي، واجتمعَ إليّ عيالي وأهلُ النُّصرةِ والمؤازرةِ. فضربتُ بهم في الأرضِ نطلبُ رياضتَها وعلومَها، وننشدُ معارفَها وطرائفَ فنّها. فإذا هيَ مشهدٌ واحدٌ لا ينقسمُ، جمالُهُ من أصلِ مادّتِهِ، وجلالُهُ من لَدُنٍّ لا يُدرَكُ كُنهُه، وكمالهُ من وراءِ ذلكَ. ضجّتْ بالخلقِ والخلائقِ، واعتمَلتْ بالأعيانِ والأبدانِ، فكأنّها الوجودُ كلّهُ، وهيَ دونَ ذلكَ. فجعلتُ أنظرُ في أسمائِها وأحوالِها، وأعجَبُ من تبدُّلِها وتحوُّلِها، ونشأتِها واختلافِ مآلِها. فلمّا توسّطْتُ منها ما توسّطتُ، خرجَ إليّ حيوانُها أُمماً شتّى فَجُّها ومطعمُها، فمِنَ الهواءِ خَلْقٌ، ومنَ اليابسِ خلقٌ، ومنَ الماءِ أكثرُ من ذلكَ وأدنى. فعرفتُها علَى عمومِها، وقَصُرْتُ دونَ مخصوصِها. وأصغيتُ إلى نَهيقِ الرحمةِ، وماشيتُ حوافرَ المحبّةِ، وأدركتُ من البهيمةِ بعضَ معنَاها، وآلفني الطيرُ فدخلَ عليَّ بُستاني، وفَهِمَتْ عنّي الدوابُ فغفتْ علَى رُكبتي.[1] وعَقلتُ ما اشتركنَا فيهِ وما افترقنَا بهِ. ورأيتُها تَتّخِذُ الولدَ والبلدَ، وتكونُ أمماً أمثَالي لا تفريطَ في الحبّ. فحُشِرتْ لي. فكلّمتُها

[1] رأيتُ أستاذي نورَ العقولِ قُرْلُسَ بنَ مُرقصَ العامليّ قاعداً يعرقُ في الشمسِ عرقاً شديداً والظلُّ من حولِه كثيرٌ، فجئتُه وقلتُ: آسيّدي! فأشارَ إلى خُنيفسةٍ ضعيفةٍ تَقَصَّفَتْ قِشرتُها وتكسَّرتْ سيقانُها وقد اتّخذتْ ظلَّ كُمّهِ مَعاذاً وقال: جِئني بظلٍّ وماء لهٰذه المسكينةِ، فقد كادتْ تذهبُ ببدني في الشّمسِ وأنا رجلٌ مسنٌّ، ولم أقدرْ أنْ أُحَرِّكَها خشيةَ أن أُوذِيها. قلتُ: ففزعتُ لهُ بحَجَرٍ أقعدْتُهُ فأظلَّ المخلوقَ البائسَ ورشرشتُ عليها بعضَ الماءِ الذي كانَ معي. فقامَ أُستاذي إلى ظلٍّ قريبٍ وهو يقولُ: هذا شرطُ الأمانةِ يا موسَى، فكِدنا أن لا نقدرَ عليهَا. قلتُ: والأساتذةُ والشيوخُ يحبُّون أن يقعُوا تحتَ حُكْمِ الحشراتِ والطيرِ وضعيفِ الحيوانِ يقولونَ هذا يزيدُ في المحبّةِ التي من القلوبِ الإنسانيّةِ، ويحثُّ الرحمةَ التي من اللّدُنِّ الربانيّةِ.

بلسانِ الرحمةِ، وآنستُها بحديثِ الرفقةِ، وعرفتُ ما اتّصَلْنا به وما افترقْنا عليهِ، فلمْ أخرقِ الأرضَ زهواً، ولم أُرهِقْ حيوانَهَا لغواً. وتفكّرتُ في الأمانةِ فَثَقُلَ خطْوي وأسرعَ خَطْوُهَا، وانعقدَ كدحي وانفرطَ كدحُها، ووُضِعَ ميزاني ورُفِعَ ميزانُهَا. ونظرتُ إلى طيرِها ودوابِها، ولاحِمِها ومُعشبِها، ووحشيِّهَا وأليفِها، فأخذتُ من المُفْرَدِ معنىً ومنَ القطيعِ معنىً، وفهمتُ عن القويِّ حكمةً وعن الضعيفِ حكمةً، وأفدتُ عن معايشِهم معايشَ لي ولعيالي. فما نزلنَا مرتعاً لها فحبسناهُ عنها، ولا اتَّخذنا زرعاً علَى مرعىً يُقيمُ أُوَدَهَا، ولا جُرنا على شجرةٍ آوتْها فأستوَى أُكلُها، وغلظَ جذعُها، وأفاءَ ظلُّها. ولا جعلنَاها سُخْرةً لِلَهْوِنَا وملعبِنا.[2] فصاحبنَاها بمقدارٍ، وآلفناهَا بمقدارٍ. فقاربتْ بينَ أسفارِنا، وحملتْ أخبارَنا، فهيَ قُرانَا الظاهرةُ، وسُبُلُنَا المشهورةُ، وسَفَائِنُنَا المعمورةُ. ووددتُ لو كَلّمْتُها بلسانِ الحروفِ، ورويتُ عنهَا الأخبارَ، ففرّقتْ بيننَا العُجْمَةُ، فجاءَني من لا عُجمةَ لهُ فقالَ لي:

بين الإنسانيةِ والربّانيةِ ثغاءُ المصاحبةِ

وقالَ لِيْ: المصاحبةُ التي بينكَ وبينَ الحيوانِ مؤونةٌ للطريقِ الذي أنتَ فيهِ.

وقالَ لِيْ: المصاحبةُ رفقةٌ بين الذي علَى الطريقِ يمشي والذي أُعْفِيَ من المشيِ

[2] رأيتُ إمامي أحمدَ يجري في السّوقِ وهو يصيحُ بكلامٍ لم أفهمهُ. فظننتُ مُقامَ الإمامةِ اشتدَّ عليهِ، فلحقتُ بهِ، فإذا هو يُباطحُ رجلاً ذا بأسٍ ومِرَّةٍ، فعلوتُ الرجلَ وأنا لا أشكُّ أنه ظالمٌ. فأخذَ الإمامُ قبضةً من التبنِ إزاءَ فمِ الرجلِ يقولُ لهُ: أتقتلُ الأرواحَ لغيرِ مَطْعَمٍ لتحشُوها قَشّاً وتِبناً وتجعلُهَا فُرجةً ثمّ تبيعُها للتلاميذِ، واللهِ لا أرجعُ عنكَ حتى ترجعَ عنها. فحَالَ الناسُ بينهما وهربَ الرجلُ لا يَلوي على شيءٍ.

فلا يصيبُ الذي لا يمشي رهقٌ ولا يطلبُ المؤونةَ.

وقالَ ليْ: المصاحبةُ التفاتٌ بإنسانيةِ القلبِ إلى جهةِ الحيوانِ، وبربّانِيّتِه إلى جِهتي.[3]

وقالَ ليْ: الذي يريدُ أن ينعقدَ بضميرِ الأشياءِ، ويختلطَ بنسغِ الحياةِ، ويلمسَ جسدَ العالمِ، يقفُ في الطريقِ حتى يجدَ الحيوانَ فيتّخذَهُ في مقامِ المصاحبةِ.

وقالَ ليْ: الوقوفُ في الطريقِ يصلحُ للمراجعةِ ولصحبةِ الحيوانِ.

وقالَ ليْ: مصاحبتُك للحيوانِ حثٌّ لي بمصاحبَتِكَ، من بَابَيّ الجائزةِ والمقابلةِ.

وقالَ ليْ: مصاحبةُ الحيوانِ استدعاءٌ للرفقةِ التي هي مُوجِبةٌ للمحبّةِ.

وقالَ ليْ: كلُّ ما أوجبَ المحبةَ أوجَبني.

---

[3] رأيتُ في وقتِ العشيّةِ تلميذاً واقفاً وسطَ الشياهِ التي كنا نرعَى شؤونَها عندَنا في الطريقةِ، وهو يتكلّمُ معها ويناديها بأسماءَ لم أحفظْها لها. فسلّمتُ عليهِ وسألتُه عن حالِه، فقالَ: الإنسانُ، وهو الخليفةُ، يقفُ في وسطِ المسافةِ التي بينَ الحقّ وهذه الشياهِ. قلتُ: يا أخي، ما أقربَ الشياهَ إلينا، قلوبُها وأبدانُها ومعاشُها، وما أبعدَ الحقَّ عنا، ذاتُه وأسماؤُه ومنازلُ سبحانيّتِه، فنحنُ في ناحيةِ الطريقِ التي فيها الشياهُ لا الحقُّ. قالَ التلميذُ: اعتبرْ حبّةَ الغبارِ الهائمةَ في الهواءِ! قلتُ: اعتبرتُها. قالَ: فهي، من جهةِ حجمِها، تقفُ في منتصفِ المسافةِ بين كوكبِ الأرضِ وبين الذرَّةِ، علمتُ هذا من درسِ العلومِ الطبيعيّةِ. ولكنّك تظنُّ أن حبّةَ الغبارِ في ناحيةِ الذرّةِ ولا يمكنُك أن تَتَهَيّأَ أنها في ناحيةِ الكوكبِ كلِّه. فهي في الوسطِ تكادُ تكونُ ذرّةً من جهةٍ، وتكادُ تكونُ كوكباً من الجهةِ الأخرَى. قلتُ: كلامٌ يَعْزِمُ على الفكرِ. قالَ التلميذُ: فأنا هنا أتكلّمُ مع الشياهِ، وأنادِيها بأسمائِها كأني جالسٌ على العتبةِ البالغةِ، أسامِرُه هو، وأتاخِمُ معناهُ، وأنادِيه بأيّ اسمٍ خطرَ علَى بالِ الإنسانيّةِ التي دخلتُ بهَا عليهِ.

وقالَ لِيْ: الذي يصاحبُ حيواناً بلا كدحٍ مُتَعَيِّنٍ قد تُصيبُه منهُ رِقّةٌ غيرُ مُتَعَيِّنَةٍ.[4]
وقالَ لِيْ: صاحبُ الحيوانِ يتّسعُ بدنُه حتّى يتّصلَ ببدنِه، وقلبُه حتّى ينعقدَ بقلبِه، ومعناهُ حتى يتّكِئَ علَى معناهُ.
وقالَ لِيْ: مصاحبةُ الحيوانِ استعادةٌ للرفقةِ الأولَى التي اكتملتْ قبلَ أن تنفصلَ عن أفقِ السذاجةِ وتدخلَ إلى تخومِ العقلِ والحسابِ والعملِ.
وقالَ لِيْ: مصاحبةُ الحيوانِ إشارةٌ بجلالِ القلبِ الذي أحبَّ العالمَ فأحبَّهُ العالمُ لأنّه منهُ.
وقالَ لِيْ: جلالُ القلبِ هيبةٌ تكونُ معقودةٌ باسمِك وأنتَ في مقامِ المصاحبةِ، فحينَ تدخلُ بها عليَّ يهابُك كلُّ من كانَ في مجلسِي يقولونَ من هذا الذي أينَعتْ لخطوتِه الحقولُ، وثَغَتْ لعطرِه الشّياهُ، وهرهَرتْ لصوتِه الجُرَيْوَاتُ والقطاطيسُ.

[4] قلتُ: كانَ السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ، زادُ القلوبِ الصابرةِ، وسندُ المواجهةِ الحاسرةِ، العارفُ العابدُ، وزادُ المجاهد، في أريحا والجليلِ والناصرة، محسوباً في الأئمّةِ العارفينَ، له طلّةٌ باهرةٌ وحضورٌ يأخذُ بالقلوبِ. وكانَ يمشي في الشارعِ ويدخلُ علينا زاويتَنا ويحضرُ درسَنا ومعه كلبٌ أبيضُ يجري ويتقافزُ ويُصدرُ أصواتاً فيها مرحٌ وسرورٌ. والأستاذُ في كلِّ هذا يُلاعِبُه ويضحكُ له ويحضنُه. فإذا حانتِ الصلاةُ أجلسَه قُرْبَ نافورةِ ماءٍ بصحنِ المسجدِ وطبطبَ عليهِ ثم قامَ يصلّي بحذائِه، فإذا جلسَ للتشهّدِ وضعَ يدَه علَى ظهرِه كأنّه يُطَمْئِنُ الحيوانَ أنه معه أو هو يطلبُ بركتَه، وكان يقولُ: إن في هذا الكلبِ لطافةً تُذْهِبُ عني قسوةَ القلبِ، وبهجةً تغمرُ الحزنَ غمراً، ورحمةً أطلبُها لنفسي، وعلماً يُضارعُ علومَ الكتبِ والمجاهداتِ. قلتُ: ورأيتُه مرةً غافياً في صحنِ المسجدِ والكلبُ مضطجعٌ بجوارِه فواللهِ كأنني رأيتُ نبياً أو غوثاً من الأغواثِ الذين يحفظُ اللهُ الأرضَ بهم. قالَ الإمامُ أحمدُ: لم يكن ليُغيثَ الأرضَ لو لم يُغِثْهُ هذا الكلبُ بالمحبّةِ الشّاملةِ.

وقالَ ليْ: الثغاءُ والهرهرةُ استنفارٌ لاسمِ الرحمةِ، واستدعاءٌ لمقامِ المحبّةِ، ومخاطبةٌ للخليفةِ باسمِه وصفتِه.

وقالَ ليْ: الثغاءُ والهرهرةُ لغةٌ في الهمهمةِ والغرغرةِ التي للعارفينَ.

وقالَ ليْ: الثغاءُ والهرهرةُ من دَواةِ اللّوحِ، فحينَ تقرأُ إنما تَصْدَعُ بالثُّغاءِ، وتخضعُ للهرهرةِ، وتقيمُ الخلافةَ التي تحفظُ مَن ثَغى في الحياةِ وهرهرَ.

وقالَ ليْ: الثغاءُ والهرهرةُ الصوتُ الذي تجدُه في الغارِ حينَ نزولِ الأمرِ، وقد كنتَ قبلُ تلقاهُ في السهولِ التي ستمشِي إليها محموماً بعدَ نزولِ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الثغاءُ والهرهرةُ قراءةٌ في الكتابِ، ولغةٌ في الآياتِ، وحرفٌ من حروفِ التنزيلِ.

وقالَ ليْ: الذي لا يسمعُ الحيوانَ بقلبهِ، ولا يقرأُ كتابَه، ولا يجدُ رائحةَ وَبَرِهِ، ينفكُّ عن العالمِ الذي ينبغي له الانخراطُ فيهِ.

وقالَ ليْ: الانفكاكُ عن العالمِ يذبلُ له قلبُك قبلَ أن يتوجّعَ العالمُ بالمسافةِ التي بينَك وبينَهُ.

وقالَ ليْ: المنفكّونَ عن العالمِ لا يقدرون أن يمشوا في الطريقِ إليّ، لأنّ الطريقَ من العالمِ الذي انفكوا عنهُ.

وقالَ ليْ: المنفكُّونَ يتبدّدونَ في الأنحاءِ بلا أثرٍ لأنهم لم ينغرسُوا في طينِ الأرضِ، أو يتنفّسوا وَبَرَ الحيوانِ، أو يخضعوا في حضرةِ زهرةٍ مجاورةٍ.

وقالَ ليْ: المنفكُّونَ ينفصلونَ عن أسمائِهم وهم يحسَبون أنّهم يعوذونَ بها أمامَ وطأةِ العالمِ.

وقالَ ليْ: المنفكُّونَ لا يجدُونَ حلاوةَ العالمِ في قلوبِهم ثم هم لا يجدونَ قلوبَهم.

وقالَ لِيْ: حلاوةُ العالِمِ زادٌ تقتاتُ عليهِ القلوبُ وإلا يَبُسَتْ شغافُها وضَمُرَتْ وشائجُها، وتَسَنَّهَ الدّمُ الذي فِي العروقِ.

وقالَ لِيْ: لا يصيرُ لكَ قلبٌ حتّى يصيرَ لكَ حافرٌ تتّخِذُهُ علامةً علَى انعقادِك بالعالِمِ.[5]

وقالَ لِيْ: الحافرُ يقاربُك ويناهزُ تخومَك ويناوشُ الأقاليمَ التي تمشِي أنتَ فيها بقدميّ الإنسانيّةِ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ من متنِ الربانيّةِ العموميّةِ مثلمَا اليدُ من متنِ الربانيّة الخاصةِ.

---

[5] قالَ تلميذٌ: قرأتُ أن عارفاً معتبراً من العارفينَ كان يمشِي فِي السوقِ فرأَى عربجيّاً يُعَنّفُ حصانَهُ بالسّوطِ ينهرُهُ نَهْراً شديداً، والحيوانُ المسكينُ يتوجّعُ ويترنّحُ حتّى يكادُ يسقطُ علَى قارعةِ الطريقِ. فتقدّمَ العارفُ جهةَ الحصانِ يريدُ أن يَحْجُبَهُ عنِ الأذَى، والعربجيُّ لا يأبهُ لهُ. فعانقَ صاحبُنا الحيوانَ وأراحَ عُنُقَهُ المكلومَ علَى كتفِه وصارَ يجهشُ ببكاءٍ عظيمٍ. فارتبكَ العربجيُّ ولم يعرفْ كيفَ يفعلُ. وظلَّ العارفُ علَى هذا الحالِ من الرّقَّةِ وقتاً يبكِي ويُرَبِّتُ علَى ظهرِ الحصانِ، حتّى جاءَ بعضُ من يعرفُه ومشَى بهِ إلى دارِه، فظلَّ بها عشرَ سنينَ يتوجّعُ حتى فاضتْ روحُه لربِّهِ وربِّ الحصانِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هذا وتدٌ من الأوتادِ الذين ينهضُ عليهم الملكوتُ، ولولا أنِ استندَ علَى الحيوانِ لتصدَّعَ فتصدَّعَ الملكوتُ. أما بكاؤُه فبعضُه من عينِ الرحمةِ وأكثَرُه من عينِ العدلِ. وهو تَفَكَّرَ أنّ هذا الحيوانَ اجتمعتْ لهُ المظلوميّةُ، والشّهادةُ علَى الإنسانِ، فِي مقامٍ واحدٍ، فبكَى لخاطرِه من جهةٍ، ولخاطرِ الإنسانيّةِ المشهودِ عليها من جهةٍ آخرةٍ. قالَ: ولعلَّ العربجيَّ انتبهَ ببكاءِ العارفِ لوقوعِ الظلمِ منهُ، وهو وقعَ عليهِ الظلمُ قبلاً ممن امْتَهَنَهُ أو سلبَهُ أُجرتَهُ أو استأثرَ عنه بأحكامِ السوقِ. قلتُ: فهذا الإمامُ رأَى من الحكايةِ وجوهَها جميعاً وأكثرُ الناسِ يتكلّمونَ عن العارفِ ويَسْهَونَ عن الحصانِ قليلاً، وعنِ العربجيِّ شيئاً كثيراً.

وقالَ لِيْ: الحافرُ الذي يمشي بقلبِك قد يصلُ بهِ إليّ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ يُشكِلُ بكَ علَى الحزنِ لأنّهُ يُشكِلُ بكَ علَى الغيبةِ الموحشةِ حينَ لا يكونُ لكَ حافرٌ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ حضورُ الحيوانِ في أحيانِك واشتراكُه في أحوالِك وصَيْرُورتِك.

وقالَ لِيْ: الحافرُ يركضُ الأرضَ كما يذهبُ الثُّغاءُ في فضاءِ العالمِ، فأنتَ بإزائِهما قائمٌ تكدحُ وتصيرُ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ صنوُ القدمِ، كلاهُما يَصِلُكَ بجهةٍ من جهاتِ الأرضِ، أو بِاسْمٍ من أسمائِيَ الحسنةِ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ إزاءَ مِشْطِ قَدَمِك يُنْبِئانِ عن قلبِك، ويتكلّمانِ بمعناك، ويَهذُرانِ علَى عتبةِ خلافتِك.

وقالَ لِيْ: حافرُ الحيوانِ قائمٌ علَى كثبٍ منكَ حتى يَشْتَبِكَ بقلبِك فيأخذَ من شغافِك لشغافِه وتأخذَ من ركضتِه لمشيتِك الأولَى.[6]

---

[6] شهدَ درسَنا في السوقِ ونحنُ بِبَرّ مرّاكشَ بعضُ التجارِ والعاملينَ، فدخلَ علينا رجلٌ بمداسٍ وعصاةٍ وعرقٍ كثيرٍ، فسلّمَ وجلسَ ومدَّ ساقَه حتى كادتْ تنوشُ إمامي أحمدَ وهو يفترشُ حصيرةَ الدّكانِ. فأخذَ الإمامُ، وهو يتكلّمُ في الرُّبوبياتِ ومعانٍ جليلةٍ، ساقَ الرجلِ وظلَّ يُدَلِّكُها ويعبثُ بِمشطِها وكعبِها والمسكينُ لا يدري ما يفعلُ. فلما انتهَى درسُ الإمامِ قالَ للرجلِ: علَّ كراعَك الآنَ أحسنُ يا راعيَ الضأنِ؟ فقالَ الرجلُ: وما أعلمَك برزقي يا أستاذُ؟ قالَ الإمامُ: الزبلُ الذي في طرفِ مَداسِك، وعصاكَ التي تَهشُّ بها، وزَفْرَةُ الضأنِ.

فتحشّم الرجلُ واعتذرَ عن نفسِه، فضحكَ الإمامُ وقالَ: واللهِ إنّ زِبْلَ مداسِك أطيبُ عندنا من اللؤلؤِ الذي يَعْقِدُ عنقَ بنتِ السلطانِ.

وقالَ لِيْ: الحافرُ سردٌ لصيرورةِ الشاهدِ مثلما القدمُ كنايةٌ عن انبلاجِ فجرِ الخليفةِ.

وقالَ لِيْ: الحيوانُ غرسٌ في الأرضِ ينبغي له أن لا يُجْتَثَّ منها وإلا توجّعَ هو وتوجّعتِ الأرضُ في حينٍ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الحيوانُ يركضُ وجهَ الأرضِ حتّى يَنْبَثِقَ معناها كالنُّوَّارِ، فالذي يُناهِضُهُ إنما يناهضُ العبيرَ الذي يطلعُ من رحمِ الأرضِ.[7]

وقالَ لِيْ: الحيوانُ عبيرُ الأرضِ.

وقالَ لِيْ: كنتَ والحيوانَ جسداً واحداً فلمّا استخلفتُكَ فصلتُكَ عنهُ كما تُفْصَلُ الثمرةُ عن غصنِها وهو هي، أو الضوءُ عنِ النارِ وهي هو.

وقالَ لِيْ: كنتَ والعالمَ قلباً واحداً، حتى جئتُكَ في آخرِ الليلِ فانبلجَ فجري في أفقِ عينيكَ، فاستحلتَ نبأً لا قِبَلَ للكائناتِ بهِ، وسرداً لا يسعُ الأشياءَ أن ترويهِ.

---

[7] بلغ شَيخي المهمومَ بالخلقِ، المسكونَ بالعالِمِ الحارثَ بن الصادقِ المتوقّدِ، شيخَ الرؤَى والبشائر، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر، أن دارَهُ دكّتْها قنابلُ الهمجِ الميريكانِ لعلمِهم أنها محلُّ درسٍ وأرومةُ فهمٍ، فاستُشهدَ ولدٌ له فيها. فبكَى رحمةً وبكينا مرارةً، ثم قالَ: كان لنا فيها عنزٌ ولودٌ، وحمارٌ صبورٌ، وحمامٌ ونحلٌ نأكلُ منه عسلاً ونَدْهَنُ. وقد فاتنا أن نُخرجَهم مثلما أخرجْنا غالبَ النسوةِ والصبيانِ، ولم يكن من العَجَبِ عندنا أن يُقنبِلوا الديارَ والحواشينَ والزرعَ.

قلتُ: فلم يفتأ المتوقّدُ بعدها يذكرُ ابنَه والحيوانَ والزرعَ حتى خَشينا عليهِ سطوةَ البكاءِ، وهذا من أثرِ القلبِ الرحمانيّ الذي فيه البنوّةُ والحيوانُ والزرعُ في شغافٍ واحدةٍ. وهو مقامٌ لا يذوقُ الظالمونَ حلاوتَه ولا يشهدونَ جلالَه.

قالَ لِيْ: عملُكَ مع الحيوانِ أبلغُ من حديثِكَ كلّهِ، لأن حديثَكَ يُفصحُ ويُعجمُ، وعملُكَ فصاحةٌ لا عُجمةَ لها.

وقالَ لِيْ: محبّتي لكَ محبةُ تكليفٍ، ومحبتي للحيوانِ إعفاءٌ.

وقالَ لِيْ: محبّتي لكَ رحمةٌ وبلاءٌ منعقدانِ بلا فكاكٍ، ومحبّتي له رحمةٌ خالصةٌ.

وقالَ لِيْ: همُّكَ بالناسِ متّصلٌ بهمّكَ بالحيوانِ لأن هذا العالمَ كلمةٌ صمدٌ ومُتونٌ عديدةٌ.

وقالَ لِيْ: الخليفةُ الكاملُ لا تعرفُ يداهُ موضعَ نحرِ دابّةٍ.[8]

وقالَ لِيْ: لا يصحُّ لكَ نحرُ دابّةٍ حتى تعرفَ ظلَّها وماءَها وزادَها.

وقالَ لِيْ: لا يصحُّ لكَ ظهرُ دابّةٍ حتى تقومَ بظلِّها ومائِها وزادِها.

وقالَ لِيْ: بدنُ الحيوانِ محَلُّ ميثاقٍ غليظٍ.

وقالَ لِيْ: بدنُ الحيوانِ مناشدةٌ للإنسانيةِ تحثُّها أن تحوزَ الجائزةَ.

وقالَ لِيْ: بدنُ الحيوانِ سبيلٌ إلى أن تحوزَ اسمَك أنتَ.

---

[8] كان شيوخِي والمريدونَ يأكلونَ اللحمَ لحاجةِ الأجسامِ إليهِ وضعفِ النباتِ المعروفِ عن تَتِمَّةِ الغذاءِ الذي يعوزُ الواحدَ منهُم في الزرعِ والكدحِ والمجاهدةِ العلميّةِ والروحيّةِ، يقولونَ: نَقَصْنَا عن الكمالِ الإنسانيّ. فلمّا أخذَ مريدٌ منا على نفسِه ألا يأكلَهُ أكبروهُ لأجلِها، فكانُوا يأتونهُ بخيرِ أطعمةِ النباتِ ويقدّمونهُ في الصبرِ والثّباتِ.

قال الإمامُ أحمدُ الدرّي: نحنُ نصاحبُ الشّاهدَ بالمعروفِ وهو يصاحبُه بالحقّ، فنحنُ تُشَبّهُ لنا الخلافةُ وهو مُتحقّقةٌ عندَه يكادُ يَصدعُ بها إلى الخلقِ.

قلتُ: وكانَ أغلبُ لحمِنا ما نأخذُه من البحرِ أو نعلفُه بأيدينا أو نعرفُ معاشَه ومآلَهُ، فمبدأُ الأمرِ عندَنا كيفَ عاشَ الحيوانُ ثم كيفَ يموتُ، وهذا أمرٌ لا يأخذُ أهلُ الشعائرِ بالَهم منهُ لأنهم ينتبهونَ لذبحِ الدابّةِ ولا يقتفونَ أثرَ معاشِها كيفَ كانَ.

وقالَ لِيْ: بدنُ الحيوانِ في محلّ القلبِ، قلبِه هو، لأنه يتلقّى به أثرَ العالمِ وعلامتَه، وفرحَه وحزنَه، وعلومَه ومعارفَه.

وقالَ لِيْ: هذا البدنُ الذي للحيوانِ يتاخمُ العالمَ بالوبَرِ، ويركضُه بالحافرِ، ويتنفّسُه بالمناخيرِ، حتّى يَحْصُلَ له علمُ القلوبِ.

وقالَ لِيْ: علمُ قلبِ الحيوانِ عفوٌ يطلعُ من انبثاقِه في العالمِ على جهةِ التّلقائيّةِ.

وقالَ لِيْ: جهةُ التلقائيّةِ في العلومِ يصحُّ عنها الصدقُ ولا يصحُّ عليها الاختلافُ الذي تجدُه في الكتبِ المعتبرةِ والنصوصِ المحفوظةِ.

وقالَ لِيْ: التلقائيّةُ أن تقابلَ العالمَ ببدنِك وقلبِك دونَ ترتيبٍ أو حسابٍ أو مراجعةٍ، ثم تُمعِنَ في الوقتِ والمكانِ دونَ فكرٍ مُتعيّنٍ يحبسُك عن نضارةِ الحريّةِ.

وقالَ لِيْ: بدنُ الحيوانِ وقلبُه في مقامِ التلقائيّةِ شاهدٌ علَى صحّةِ خلافَتِك أو بُطلانِها.[9]

---

[9] كان شَيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصور، شيخُ الغناءِ والبرهانِ في بساتِينِ سلوقَ وزوايا البطنان، يحبُّ اجتماعَ الخلقِ فيشهدُ أعراسَهم ومآدبَهم يقرأُ القرآنَ والمدائحَ بصوتٍ حسنٍ فيهِ طربٌ وغناءٌ.

فإذا أرادَ القومُ أن يُؤجِروهُ قالَ لهم: أخرِجوا إليّ ما فَضَلَ من طعامِكم الذي لا يَحْسُنُ أن يُفرَّقَ على الفقراءِ.

فيَعجبونَ من أمرِه كيفَ يطلبُ ما أكلَ منهُ الناسُ لا يعافُهُ. حتَّى إذا جمعُوا له الفُضلةَ في أكياسٍ أخذَها في سيَّارتِهِ ففرَّقَها على كلابِ النواحي وقططِها.

قلتُ: فكانَ الناسُ ينادونَهُ بلغوةِ الليبيينَ "بو القطاطيسِ" و"بو الجريوات" فيُعْجِبُهُ ويقولُ: علَّها تشفعُ لي عندَ الحضرةِ الربانيةِ أو تَتوسَّطُ لي في سياقِ المقامِ الحيوانيّ فينالُني منها جانبُ المحبّةِ أو يشملُني أثرُ الفرحِ والسَّكينةِ.

وقالَ لِيْ: من آذَوا دوابي آذوني ثم يحيدُ عنهُم نُور رحْمانِيَّتِي فلا يرونَهُ ولا يراهُم.

وقالَ لِيْ: وجعُ الحيوانِ يُناكِفك حتى لا تجدَ أرضاً تُؤويكَ أو معنًى يحيلُ إليكَ.

وقالَ لِيْ: وجعُ الحيوانِ يتصلُ بوجعِك من جِهتَيْ الاسمِ والمعنَى.

وقالَ لِيْ: وجعُ الحيوانِ جرحٌ مفتوحٌ علَى اسمِك الذي تنبغي له المحبةُ.[10]

وقالَ لِيْ: اسمُكَ واسمُ الحيوانِ من أَرومةٍ واحدةٍ، ومعناكَ يشتبكُ بمعناهُ.

وقالَ لِيْ: اسمُك واسمُ الحيوانِ يشتبكانِ لأن شيئاً من الوجعِ الذي بكما واحدٌ.

وقالَ لِيْ: اسمُكَ إظهارٌ لمعنًى من معَاني الإنسانيّةِ، واسمُ الحيوانِ كُمُونٌ.

وقالَ لِيْ: اسمُ الإنسانِ استماتةٌ في المعنَى واسمُ الحيوانِ تَلْقَاءٌ في البداهةِ.

وقالَ لِيْ: اسمُ الحيوانِ مُضاهاةٌ.

---

[10] كنا في درسٍ من الدروسِ فقالَ تلميذٌ: يا إمامُ، إنّا نذبحُ الأضاحي، فنسلخُ جلودَها، ونشوي أكبادَها، ونَقلي قلوبَها، ونفري لحومَها، ونَدُقُّ عظامَها، فلا يحصلُ من هذا فهمٌ، ولا تفيضُ رحمةٌ، ولا يصيرُ حالُ العالمِ أحسنَ. والدمُ والنَّهَمُ لا يكونُ منهما خيرٌ كثيرٌ. قالَ الإمامُ أحمدُ: صدقتَ، والجهدُ والوقتُ والمالُ الذي يذهبُ في سبيلِ الذبحِ الموسميّ لو تَيَسَّرَ لها سبيلٌ آخرُ لعَمرتِ الدنيا وكان خيراً للناسِ. قلنا: مثلاً يا إمامُ؟ قالَ: الذابحونَ أمّةُ ألفِ ألفِ ألفٍ ويزيدُ، فلو ألزَموا أنفسَهم أن يزرعَ كلُّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ شجرةً لكان لنا مليارُ شجرةٍ كلَّ عامٍ في جامعِ أقطارِ الأرضِ، تَهَبُ الظِّلَّ، وتُعطي الثّمرَ، وتزيدُ الهواءَ، وتناهضُ التلوّثَ، حتّى يقولَ الناسُ إن أهلَ هذه الملّةِ أصلحوا من شأنِ العالمِ فلعلَّ عندهم نوراً نستضيءُ به. ثم كلّما رأو خضرةً في الأرضِ قالوا لعلّها خُضرةُ المُحَمَّدِيّينَ!

قلتُ: فأخذنا على أنفسِنا العهدَ بزرعِ الشجرِ وقتَ الموسمِ المعروفِ بنواحي البلدةِ الطرابلسيةِ وما جاورَها من الحواضرِ الليبيةِ.

وقالَ ليْ: اسمُ الحيوانِ يُقَارِبُكَ.

وقالَ ليْ: اسمُ الحيوانِ يُناوِشُكَ.

وقالَ ليْ: بينَ المقاربةِ والمناوشةِ دورةُ الاكتمالِ من جهةِ الشهادةِ.

وقالَ ليْ: الشهادةُ أن يرَى الحيوانُ كلَّ فعلٍ تأتي به وأنتَ في الطريقِ، ثمّ يشهدُ لكَ أو عليكَ في حضرتي وحضرةِ الخلقِ.

وقالَ ليْ: الشهادةُ فعلُ الحيوانِ في سياقِك مثلمَا الخلافةُ فعلُك في سياقِ العالمِ.

وقالَ ليْ: الشهادةُ تنبغي للحيوانِ حصراً من جهةِ أنه لا ينخرطُ في الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الذي ينخرطُ في أعمالِ الخلافةِ لا يشهدُ لأنه محلُّ الشهادةِ ذاتِها.

وقالَ لي: أنتَ مَحَلُّ الخلافةِ فلَزِمَكَ أن تكونَ محلَّ الشهادةِ.

وقالَ ليْ: الشّهادةُ إزاءَ الكونِ فعلٌ لا تقدرُ عليهِ ولا يجوزُ لكَ من حيثُ انخراطِك في هذا الكونِ.

وقالَ لي: أنتَ لا تقدرُ عليها من جهةِ أنكَ مأخوذٌ بالعملِ لا تكادُ ترَى أو تسمعُ، وهي لا تجوزُ لكَ من جهةِ أنكَ المشهودُ عليهِ نفسُه.

وقالَ ليْ: الشاهدُ قلبُه طليقٌ ويدُه مغلولةٌ فمِن هذا هو يرَى ولا يفعلُ.

وقالَ ليْ: الخليفةُ مختلَفٌ فيهِ.

وقالَ ليْ: الشاهدُ مشهودٌ لهُ.

وقالَ ليْ: الحيوانُ يشهدُ لك كيفَ مشيتَ في الطريقِ، آذيتَ وأوجعتَ أم بذرتَ الكرومَ وعصرتَ، في الكونِ، خمرَ البهجةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: من شَهِدَ عليكَ تقدّمَ مقامُه عنكَ حالَ شهادتِه.

وقالَ ليْ: الشاهدُ من صُلبِ القضيّةِ، لأنه أصلٌ من أصولِ الحسابِ، ونسغٌ في

سِدرةِ الخلافةِ، وحرفٌ من حروفِ كُنْ.[11]

---

[11] قالتْ خديجةُ الشنقيطيُّ: إن الشاهدَ، الذي تجري شهادتُه في الوقتِ والمكانِ، صاحبُ أثرٍ في محلِّ الشهادةِ، حتّى أن المشهودَ يتغيّرُ ويتبدّلُ اسماً وصفاتاً لخاطرِ الشاهدِ في حالِ المراقبةِ. قلنا: كيفَ تهيّأَ لكِ هذا والشاهدُ يرقبُ فحسب، والمشهودُ يكونُ، ويصيرُ، ويفعلُ، على حِسبةِ طبيعتِه هو، لا بأثرِ الشاهدِ المنفصلِ عنهُ بجوهرِه وأعراضِه. قالتْ خديجةُ: إذا غفلَ الحيوانُ عن الإنسانِ فلم يشهدْ عليهِ، تَغَيّرَ اسمُ الإنسانِ فلم يعد مشهوداً ولا خليفةً، وتغيّرَ فعلُه لانفكاكِه عن المراقبةِ والواجبِ، وتغيّرتْ صيرورتُه لأنّ ما يصيرُ إليهِ حاصلٌ عن اسمِه وفعلِه. فإذا نظرَ الحيوانُ إلى الإنسانِ تسمّى هذا باسمِ المشهودِ، له وعليه، وكانَ خليفةً، واتّخذَ أفعالاً مُنعقِدةً بالواجبِ والمسؤوليّةِ، وذهبَ في الصيرورةِ حسبَ اسمِ الخليفةِ وأفعالِ الواجبِ تلكَ، فيَصِلُ إلى منتهًى غيرِ منتهاه حين لم يشهدْ عليهِ الحيوانُ. قالَ تلميذٌ يدرسُ العلومَ: يا أستاذةُ، هذا واللهِ عجيبٌ في شَبَهِهِ بفيزياءِ الدقائقِ، فإنّ الإلكترونَ، وهو في مجالِ ما تحتَ الذرّةِ، يتغيّرُ اسمُه وصفاتُه وأفعالُه تبَعاً للمراقبِ الإنسانيّ الذي يتجسّسُ عليهِ بالآلاتِ السابرةِ غيرِ المتصلةِ به. قلنا: يا تلميذُ، الأستاذةُ في مقامِ الكنايةِ والمجازِ وأنتَ نقلتَ الكلامَ إلى المجالِ تحتِ–الذرّي، وهو واقعٌ فيزيائيٌّ لا استعارةَ ولا تشبيهَ فيه. قالَ التلميذُ: هو واللهِ كما أقول لكم، وهو أمرٌ أربكَ أهلَ العلمِ ودوّخَ الدارسينَ وتساقطتْ له صروحُ النظرياتِ العتيدةِ، فالإلكترونُ يكونُ كتلةً لها طرائقُ الكُتَلِ وآثارُها فإذا نظرتَ إليه بالمسبارِ، أي كنتَ شاهداً عليهِ، استحالَ طاقةً خالصةً في اسمِها وسُبُلِ حركتِها. فكأنّهُ، الإلكترونُ، تحوّلَ حالُه من الغفلةِ إلى المشهوديّةِ فتحوّلَ من كتلةٍ مصمتةٍ إلى طاقةٍ مُتَوَقِّدَةٍ.
قلتُ: فانظرْ رعاكَ اللهُ كيفَ تجمعُ القلوبُ الوالهةُ بالخلقِ بين صلةِ الإنسانِ بالحيوانِ من جهةٍ، وبينَ صلتِه بما تحتَ الذرّةِ من جهةٍ أخرَى. فهذا هو الطريقُ، فاركضْهُ برجلِك يَطلعْ إليكَ ماءُ العلومِ عذباً جارياً لا يَتَسَنَّهُ.

وقالَ ليْ: الشاهدُ الذي يحضرُ أحيانَ خلافتِك يَرى منكَ ما لا ترَى من نفسِك.

وقالَ ليْ: الشاهدُ يُؤذَنُ له قبلَ أن يُؤذَن لكَ، ويُسمعُ له قبل أن يُسمعَ لك، ويُعطَى الأمانَ وأنتَ لا أمانَ لكَ.

وقالَ ليْ: غلبكَ الشاهدُ عدداً وأحاطَ بكَ بدناً فلا يَعزِبُ عنهُ من فعلِك شيءٌ.

وقالَ ليْ: المشهودُ حريٌ به أن يحسِبَ حسابَ الشّاهدِ.[12]

وقالَ ليْ: الشاهدُ لا ينسَى ولا يسهُو ولا ينحازُ، وأنتَ النّسيانُ دأبُكَ، والسَّهْوُ دَيْدَنُكَ، والانحيازُ شأنُكَ وسنَّتُكَ.

وقال لي: الشاهدُ محفوظٌ وأنتَ مُبَدَّدٌ في الطريقِ تتناوشُكَ الأغلاطُ والمراجعةُ والاستئنافُ.

وقالَ ليْ: الشاهدُ لا يدخلُ إلى الطريقِ لأنّهُ لا يَلزمُه عناءُ السفرِ إليّ.

---

[12] قرَأها الإمامُ أحمدُ علينا في درسِ المعيشةِ وأحوالِ الخلقِ، ففرِحَ بها فرحاً ظاهراً نافعُ بن سُكّرَ، بركةُ الأرضِ والسماءِ، درويشُ بوسليمَ والهضبةِ الخضراء، وبهلولُ اطرابلسْ والزهراء، القلبُ العاملُ والحالُ الكاملُ، ومقامُ العرشِ والأسماء. قلتُ: ورأيتُه بعدها في سوقِ الجمعةِ يمشي ببغلةِ الإمامِ مختالاً يقولُ: احسِبُوا حسابي وحسابَها فإنّا نشهدُ لكم أو عليكم أمامَ العرشِ. ثم يقولُ: وهي شاهدُ عمومٍ وأنا شاهدُ الخصوصِ. فقلتُ له: كيفَ ذاك يا نافعُ؟ قالَ: لأنها دابةٌ تشهدُ من بَرّانيّتِكُم، وأنا آدمِيٌّ أشهدُ من جُوّانِيَّتِكم، فهي ترَى عمومَ أثرِكم في العالمِ، وأنا أقفُ على خصوصِ وطأتِكم في قلوبِكم وقلوبِ الذين تحبُّونَهم أو تُؤذونَهم أو تستأثرونَ عنهم بالحكمِ والمالِ. قلتُ: يا درويشُ، من أين لكَ هذا الفهمُ؟ قالَ: علّمني إياهُ من أحبّني فَفَكَّ عني رباطَ الخلافةِ الحاكمةِ وألبسَني عِمَامَةَ الشهادةِ المخصوصةِ. ثم قالَ: حِدْ عن سَبيلي وسبيلِ البغلةِ وإلا أخبرْنا عن أثرِكَ في قلوبِ الذين آذيتَهُم يا مُوسَى.

وقالَ ليْ: الشاهدُ عندي من أولِ الأمرِ.

وقالَ ليْ: لسانُ الشاهدِ معقودٌ في حالِ فعلكَ، فإذا نفضتَ يدكَ عن الفعلِ تكلّمَ هو بالحقّ.

وقالَ ليْ: الحيوانُ في العالِمِ. وأنتَ بحذاءِ العالمِ كأنّكَ فيهِ، وفيهِ كأنّكَ بحذائِه.[13]

وقالَ ليْ: الحيوانُ يُكلّمني من جُوانيّةِ العالِمِ، وأنتَ العالمُ كلُّه في جُوّانيّتكَ.

وقالَ ليْ: العالمُ في جُوَّانِيَّتِك صلةُ رحمٍ وأنتَ تقولُ كيفَ أتّصلُ بالخلقِ!

وقالَ ليْ: الحيوانُ حبلٌ سُرّيٌّ بينَك وبينَ العالمِ.

وقالَ ليْ: الحيوانُ في بدنِه لا يقدرُ أن يخرجُ عنهُ، وأنتَ علَى حافّةِ بدنِكَ تكادُ أن تنفصلَ عنه ثمّ تتّصلُ بما هو خارجٌ عن هذا البدنِ.

وقالَ ليْ: الحيوانُ مقامٌ في إنسانيتِك، وحالٌ من أحوالِ عرشِك، ومقصدٌ من مقاصدِ ولايتِك.

وقالَ ليْ: الحيوانُ حضورٌ لا يقعُ كلُّهُ في أفقِك، ولا تركضُ جميعُ حوافرِه في سبيلِك، فهو فضاءٌ يدخلُ بعضُهُ في ديوانِ الإنسانيةِ وأكثرُه في ربّانيَّتي لا يُغادِرُها

[13] قالَ حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ، الصّدّيقُ بنُ عبدِ الله السّاقي، جليسُ العاشقين، وأنيسُ المحبين، بنواحي الجِميل ورِقدالين: "الحيوانُ في العالِمِ" بدناً وقلباً لا يقدرُ أن يخرقَهُ أو يخرجَ عنهُ إلى حلمٍ أو فكرةٍ أو خيالٍ من برانيّة الأشياءِ. أما ابنُ آدمَ فهو مغروسٌ في العالمِ ببدنِهِ تجري عليهِ أحكامُ الطبيعةِ تقولُ لهُ كيفَ يتنفسُ وكيفَ يمشي، غيرَ أنّهُ منعقدٌ بما هو خارجَ العالمِ بقلبِهِ وعقلِهِ تتناوشُهُ أوهامُ المطلقِ، ورؤَى الكمالِ، وأسماءُ الحقِّ يكادُ يتّخذُها لهُ خالصةً من دونِ العالمينَ. قالَ: فموضعُ الإنسانِ هو بينَ جُوّانيّةِ العالمِ وبرّانيَّتِه، يكادُ ولا يكادُ، بينَ وبينَ، فهو على حافّةِ الأشياءِ وتخومِها القصوَى. فتأمّلْ في ذلك.

إليكَ.[14]

وقالَ لِيْ: الحيوانُ آيةٌ تمشي بيني وبينَكَ بالحُجَجِ، فساعةً تشهدُ بربوبيتي وساعةً تخبرُ عن إنسانيّتِكَ.

وقالَ لِيْ: الحيوانُ بيانٌ.

وقالَ لِيْ: ما يربطكَ بالحيوانِ العدلُ وليسَ الرحمةُ.

وقالَ لِيْ: العالمُ شِرْكَةٌ بينكَ وبين الخلقِ، والشركةُ مقامُ عدلٍ قبلَ أن تكونَ رحمةً.

وقالَ لِيْ: الرحمةُ شجرةٌ وافرةٌ غيرَ أنّ غِلالَ العدلِ تَلْزَمُكَ للمؤونةِ.

وقالَ لِيْ: من مشَى في الطريقِ بحافرِ الشاهدِ صارَ له الطريقُ بعضاً من معنى الشاهدِ.[15]

---

[14] قالَ مُعلِّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى: الحيوانُ جوهرٌ أسبقُ من الإنسانِ زمناً، وأوسعُ منهُ بدناً، فلا يتعلَّقُ بهِ خَلْقُهُ أو رِزْقُهُ أو معناهُ. وإنما الحيوانُ مُتَعلِّقٌ باللَّدُنِّ الذي أَنشأهُ أَوَّلَ مرَّةٍ غُفْلاً ثمَّ أدخلَهُ في سياقِ الكونِ الشاملِ وقتَ خلافةِ الإنسانِ. ثمّ أن هذا الحيوانَ يرجعُ إلى اللّدُنِّ شاهداً كريماً. قالَ: فكأنَّ الإنسانَ موقفٌ من مواقفِ الحيوانِ في سفرِه إلى الخالقِ من حالِ الغفلةِ الأولى إلى مُقامِ الشهادةِ الكاملةِ، فتأملْ.

[15] كان شَيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ، شيخُ السياحةِ والأسفارِ، من تمبكتو إلى تاورغاءَ بلادِ الأحرار، يُكلّمُ الطيرَ، وكانتِ الطيرُ لا تَفهمُه. فضحكتُ وقلتُ: هذي خيبةٌ يا شيخي. قالَ: بل فلاحٌ يا موسى، فإني أبوحُ لها بفكري وحاجاتي فتصيرُ، في ضميرِ الكونِ، شاهداً علَى أحوالي من الليلِ والنهارِ، ويكونُ لي من جهتِها أُنْسٌ واعتبارٌ، وقد أسمعُ تغريدَها ونوحَها فيهتزُّ قلبي، وتَشُفُّ روحي، ويبرأُ جسدِي، وفي السّيرِ نحو مكامنِ الطيرِ، والقعدةِ تجاهها، هواءٌ طيبٌ ومَشْيٌ مباركٌ واعتناقٌ للأرضِ والفضاءِ. هذا غيرَ العلمِ بأنواعِها وأحوالِها ومراقبةِ أعمالِها. قلتُ: هذا خيرٌ من الكلامِ مع أكثرِ الناسِ!

وقالَ لِيْ: أفقُ الحيوانِ يتناهَى عندَ أولِ أفقِك، ثمّ يَستديرُ أوّلُ أفقِكَ في دورةِ الخلافةِ حتى يَتّصلَ بمدارِ الحيوانِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتّصلُ بالحيوانِ تعتملُ الإنسانيةُ فيهِ، والذي ينقطعُ عنِ الحيوانِ تَخْمُلُ الربانيةُ عنهُ.

وقالَ لِيْ: الإنسانيةُ الكاملةُ تمشي عبرَ الحيوانِ إلى ربانيةِ الوقتِ.

وقالَ لِيْ: الإنسانيةُ عابرةٌ.

وقالَ لِيْ: ربّانيّةُ الوقتِ قَبَسٌ من الربانيّةِ الشاملةِ رحمةً برحمةٍ وحفظاً بحفظٍ، فلا تُنقِصْ من أطرافِ ربانيّتِك ثم تدخلُ عليّ تنشدُ كمالَ ربانيّتِي.

وقالَ لِيْ: الحيوانُ الذي تركبُه تسيرُ به إلَى جهتِك التي سيعلمُها، وهو يسيرُ بك إلى جهتِه التي لا تَعلمُها.

وقالَ لِيْ: جهةُ الحيوانِ معانٍ جليلةٌ وعلومٌ شديدةٌ وكراماتٌ كاملةٌ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يدركُ معنًى من الحيوانِ كأنّهُ بين دفَّتَيّ اللوحِ وهو لا يَفُكُّ الخطَّ.

وقالَ لِيْ: علومُ الحيوانِ زادٌ لكَ وأنتَ تتقدّمُ في أحراشِ العالِمِ وتجوبُ فيافيهِ وتركضُ أديمَ الكونِ.[16]

---

[16] قالَ تلميذٌ: لو تحصلّتُ ببُراقٍ لأسرعتُ في الطريقِ وربما لحقتُ بصاحبِ البراقِ الأوّلِ. قالَ الإمامِ: لكلِّ مهاجرٍ بُرَاقُهُ، فالعشقُ براقُ العاشقِ، والعملُ براقُ العاملِ. وإنما سافرَ صاحبُنا علَى مطايا العشقِ الإلهي، والعملِ الإنسانِيّ، حتّى عُرّجَ به إلى سدرةِ المنتهَى وهي مُبتدَى الدخولِ عليهِ. قالَ: فتفكّر في بُراقِك أنتَ وأحسِن لها الزادَ والسّرْجَ تجدْ منها الصّهوةَ الحاسرةَ والمطيّةَ الباهرةَ.

وقالَ لِيْ: علومُ الحيوانِ مَطِيّةٌ أخرَى تسيرُ بكَ إلى فهمٍ لم يكن لك من غيرِ المطيّةِ.
وقالَ لِيْ: علومُ الحيوانِ علومٌ للحيوانِ لأنّها تَعجِنك بفهمٍ يقفُ بكَ علَى تخومِه ويُنفِذُك في قلبِه ويُجلسِك بينَ شِغَافِه.
وقالَ لِيْ: علومُ الحيوانِ استسقاءٌ بماءِ الربانيّةِ في وقتِ العطشِ الذي يحضرُك وأنتَ في سفرِ الخلافةِ تَبينُ لكَ التخومُ ثمّ لا تبينُ.

مَن يمشي في الطرقاتِ وقد اتّصلَ صوتُه بالقلوبِ، وحَمْحمتُه أيقظتْ من توسّدَ، ومَطِيّتُهُ يَعلوها العِيالُ، مَنْ أسنانُه نُخِرَتْ، وحوافرُه بَلِيَتْ، وعيونُه تَرقرقتْ بالدمعِ؟ أيّتُها الحمارةُ الفارهةُ، المتخذةُ من بابي مَربطاً، ومن أرضي مَرْبعاً، ومن عَرشي مَرتعاً وظلّاً بارداً، وقد أوسعْتُ لكِ في المؤونةِ، وصففتُ لكِ الزادَ، وأجريتُ لك الماءَ العذبَ، امشي في الطرقاتِ فتتّصلُ حوافرُكِ بالزناقي، وحنينُك بالحواشين، ونهيقُك بالقلوبِ الواجدةِ، يركبُكِ المحبُّونَ مَطيّةً للمُحبّينَ، حتّى تصيرينَ أُقنومَ المحبّةِ، وتَجَلّي الشوقِ، وجسدَ الوصلِ الظَليلِ. أيتها السادرةُ! الهائمةُ في البرّيةِ، هل حوافرُكِ من رحمَتي الأولى، وخُشومُكِ من لَدُنّ الربانيّةِ، وعيونُك مرآةُ العشبِ والثمرِ؟ فها ذا أنتِ حبيبةٌ قريبةٌ، أوقفتُ عليكِ معنَى الشهادةِ، وخلعتُ عنكِ جسدَ الخلافةِ، وأعفيتُكِ من رهقِ الإنسانِ. فخُذي ما آتيناكِ من عفوٍ وأَقيمي عرسَكِ في الأرضِ، حتى يكونَ الماءُ والكلأُ جنةً لكِ، وظلاً باهراً، ورِضواناً مُقيماً.

9. موسمُ العشقِ

(وهو الخلافةُ الأولَى)

ومن أحوالِه الهتكُ والاستحواذُ والسطوةُ والتهجئةُ الأولَى واللزومُ
والريقُ الآخِرُ والتسميةُ وهيئةُ الإزاءَةِ والانكفاءُ والأحيانُ وكوثرُ السّبحانيةِ

وفيه تجلّتْ لي فأسفرتُ لها، فرأيتُ الإنسانَ فأظللتُ به عليها[1]، فصُرِفَ عنّا الحبُّ حيناً من الخوفِ. فناديتُها باسْمِها الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ غوايةً، وحادثتُها فإذا هي الحديثُ والروايةُ. وألبَستُها رداءَ بَدني، وأسْلمتُها زمامَ عِلمي، وسقيتُها خَمرِي، وأطعمتُها كَرْمِي. فقامتْ وقعدتْ، وتكلَّمَتْ وسكتَتْ، وذَهبتْ في أرضي وذهبتُ في أرضِها، ودثَّرتْني في الصباحاتِ النّديةِ، وعرَّتْني في الليالي الباردةِ، وقلتُ فيها وقالتْ فيَّ، وأحطتُ بها فأباحتْ لي بالعلاماتِ، وقالتْ ربّي أنتَ ومَنَاةُ. فذهبتُ عنها لفلحِي فاجتثَّني الكدحُ منها ولم أعرفِ الشوقَ، وذاقَ جسدي بأسَ الغيابِ. فقالتْ أغافلٌ أنتَ عن فمي واطرحْ عنّي اسمَك عاشقاً ونبيّاً. فلمّا جاءَتْها الشهواتُ قالتْ إني ألهثُ اسمَه.[2] فحالوا بيننَا وقالوا مالكِ إليهِ من شغافٍ. فَجِيءَ من كلِّ أمةٍ بوليٍّ وكنتُ على أمّةِ المحبينَ وليّاً. فتكلّمتُ فإذا كلاميَ الولهُ من لَدُنْهَا، فلم يفهمِ القومُ. فدنتْ وقالتْ إنكَ بوَسْوَسَتِنا وشفاهِنا وشيءٍ منَ الحبِّ إزاءَ أثدائِنا. وأثنتْ صدرَها تَستخفي من علومي، وحذَّرتني

---

[1] قالَ أستاذي تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: "الإنسانُ" الحجّةُ البالغةُ، وهوَ ثباتُ حالِ المحبّةِ في مُقامَيّ الوصلِ والهجرِ، ومن علاماتِه المفروضةِ اتّصالُ شوقِ الجسدِ بشهوةِ المعرفةِ بلا انقطاعٍ، ودوامُ حالِ الولهِ بعدَ الجماعِ، واحتسابُ المحبّيَن قلوبَهم على ثلاثٍ: الصدقُ والعملُ والسّماعُ. قالَ: السماعُ الغناءُ، أتيتُ به هكذا للرَّوِيّ.

[2] قالتْ أُستاذتي زِينةُ العالمَيَن راويةُ بنتُ جميلٍ النَوراني: اسمُ المحبِّ الشِّعرُ، فكلما حاولَ العاشقُ اسمَ معشوقِه وُلدتْ قصيدةٌ في فمِه وصارتْ أسنانُه من سُندسٍ وإسْتَبْرَقٍ. وقالَ وَلِيُّ القلوبِ الصّدّيقُ بنُ عبدِ الله السّاقي: بلِ اسمُه الشوقُ الذي يكونُ قبلَ الشّعرِ، وإنما الشّعرُ تُرجُمانٌ بحالِ المحبينَ لا يَلزمُ لكلِّ واحدٍ منهُم، ولكنْ يَلْزَمُهم الشوقُ الذي يكادُ يقصمُ ظهرَ العالمِ فلا يصحُّ لهم وصفُ أحوالِهم بدونِه.

شوقَها فغُويتُ عنهَا دهراً. فآتَتْني المُلْكَ ثمَّ نزعَتْهُ عنّي، وأسلمتْ لي عِنانَ المحبّةِ وجهَ النهارِ وضنّتْ بهِ آخرَهُ. فلمّا غلبَها الشوقُ قالتْ أَطْلِعْ لي من أرضي حبّاً وعسلاً وقليلاً من الخمرِ، يكونُ سِدْرَةً في الطريقِ وإشارةً منكَ وزاداً لفمي. فنهلتْ منها جميعاً واطمأنَّ جسدُها، وصارتْ من الواهينَ. فتكدَّسَ الزرعُ، وامتلأَ الضرعُ، وسالَ نبيذُ السنابلِ، وعُتّقَ خَمْرُ الداليات، وصارتِ الأرضُ حرثاً واحداً. فناديتُها من جانبِ الزَّرعِ قالتْ مالِي منْ دونِكَ من وليّ. فَوُلِيْتُهَا وَوُلِيَتْنِي، فأينَ قصدْتُ فثَمَّ قلبُها.[3] فَلَمَّا دخلتْ إلى الأعتابِ رَأَتني حسيراً قَالَتْ أنتَ رَبِّي. لكِ الفتنةُ الغالبةُ كَتَبْتِ عَلَى نَفْسِكِ الحبَّ. فلما جاوزتُ بها الحُزْنَ أَتَتْ على رجلٍ وامرأةٍ عاكفينِ على جَسَدَيْهِما، فقالتِ اجْعَلْ لي من لَدُنْكَ فرَحاً كما لهم فرحاً. فَتَمَّتْ علومُها ظاهراً وباطناً، كُلَّمَا دَخَلتُ عَلَيْهَا الفؤادَ وَجَدتُ عِنْدَهَا مسرّةً ومعارفَ وفتوحاتٍ، قَلتُ من أينَ هذا الزادُ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الحبِّ إنَّ الحبَّ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وقالتِ ائْتوني بكلِّ مُتَيَّمٍ عليمٍ. فلما جاءَها العاشقونَ أشارتْ إليَّ بطرفِ علومِها. فعرفوا الحقَّ وَاسْتَبَقَوا المعاني وَقُدَّتْ قلوبُهم بنصلِ الحبِّ الذي ضَجُّوا به فضَجَّ بهم، يكادونَ يصرَعُ بعضُهم بعضاً فرحاً.

[3] مشتْ بي أستاذَتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمَينَ إلى دارِها، فصعدتْ بنا إلى السطحِ حتى أشرفْنا على دارٍ مجاورةٍ، فإذا بصحنِها مجْمَعُ فتيانٍ وفتياتٍ لبسُوا أفتَنَ الثيابِ وأخذوا أحسنَ الطيبِ وقد ضحكوا وخفّتْ أرواحُهم وعقولُهم، فهُم عن الدنيا وأهلِها غافلونَ. فقالتْ أستاذتي: أُدْعُ. فقلتُ: اللّهمّ اجعلْهُم زهرةَ الآخرةِ كما جَعَلْتَهم زهرةَ الدّنيا. فقبّلتني الأستاذةُ علَى جبيني وضمّتني إلى صدرِها وقالتْ: دعوتَ لهم؟ فواللهِ لقد رأيتُ نوراً يتصلُ من فمكَ إلى الحقّ في دفقةٍ واحدةٍ فأحببتُ أن يَضُمَّني فَضممتُكَ.

قلتُ سلامٌ عليكمْ سأمشي بِكم إلَى ربّي هو أوّلُ العشقِ وآخِرُ الشوقِ وما بينَ بينَ. فَلَمْ تكُنْ مسرَّةٌ إلا بشغافِهِم، ولا شهوةٌ في طينِ الأرضِ، ولا لذَّةٌ في جسدِ الزمانِ.

فلمّا خرجَ عني العاشقونَ لسرورِهم دخلَ صاحبُ المسرَّةِ الكاملةِ فقالَ ليْ:

العاشقونَ مشغُولونَ عنّي بي،

فكأنَّهُم حينَ يطلبونَ أحبَّتَهُم يطلبونَني.[4]

وقالَ ليْ: العاشقونَ أهلُ الحقِّ كادَ أنْ يُسْتَغْرَقَ فيهم حتّى لا يَجِبَ لأحدٍ غيرِهم، لولا رحمةٌ سبقتْ منّي.

وقالَ ليْ: العاشِقونَ أُمَّةٌ لا يَصِحُّ اجتماعُها علَى غيرِي.

وقالَ ليْ: العاشِقونَ خُلاصةُ الخلْقِ.

وقالَ ليْ: العاشقونَ طينُ الكونِ.

وقالَ ليْ: العاشقونَ الكأسُ التي تنبغي لاسمِ البهجةِ، والخمرةُ التي تجبُ لاسمِ الرحمنِ.

[4] كانت أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمِيَن من أهلِ الهوَى والغواية، يعجبُها الرجلُ، علمُه وكدحُه وقلبُه، فتهيمُ بهِ وتلهجُ بأسمائِه أياماً، ثم يسكنُ خاطرُها فتكتبُ فيهِ شعراً رقيقاً ويزولُ عن جسدِها ما علقَ به من شهوةٍ، حتّى تَرى غيرَهُ. قالَ الإمامُ: وهي في شغفِها بأسماءِ الإنسانِ تَتشوّقُ أسماءَ الحقِّ. قلتُ: وكانتْ، ثبَّتَها الله، تأتيني فتقرأُ عليَّ كلامَها فأهتزُّ لهُ طرباً فإذا أنا الصَّبُّ العاشقُ. وكانتْ، سامحَها الله، تعرفُ هذا فيَّ، فتَزيدُني، وتترُكني علَى حالي هذا وتمضي.

وقالَ ليْ: العاشِقونَ سلامٌ يأذنُ بمناهضةٍ لا قِبَلَ للغافلينَ بهَا.

وقالَ ليْ: العاشقونَ يَرَوْنَنِي بعينِ العشقِ من حيثُ لا أراني، فيعرفونَ منّي أحوالاً ومقاماتٍ لم تَبْدُ لي ولم تخطرْ على بالِ السّبحانيةِ.

وقالَ ليْ: العاشِقونَ عُيونُهم منازلُ سُبحَانِيَّتِي.[5]

وقالَ ليْ: العاشِقونَ عُيونُهم مَرايا أتملَّى فيهَا مَعنايَ فيتجلّى لي في رواءِ الرقّةِ، وفيضِ العذوبةِ، وثيابِ الولهِ.

وقالَ ليْ: ثيابُ الولهِ تربكُ السّبحانيّةَ ويتحشّمُ لها الاسمُ.

وقالَ ليْ: ثيابُ الولهِ هذا الإهابُ الذي أنتَ فيهِ.

وقالَ ليْ: السّبحانيّةُ التي تتولّهُ تشتبكُ بالعالمِ وهي تحسَبُ أنها في حالِ المفارقةِ.

وقالَ ليْ: السّبحانيّةُ التي تتولّهُ تُراجعُ الكتابَ فتزيدُ في كلامِ المحبّةِ وتنسخُ عبارةَ العذابِ.

وقالَ ليْ: هذه السبحانيّةُ الواهةُ تعتملُ بما يعتملُ به العاشقونَ.

---

[5] أحببتُ الإمامَ أحمدَ بنَ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيَّ، رفيقَ الكادحينَ، وملجأَ المظلومينَ، إمامَ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمَ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، حباً شديداً حتى تعلقتُ به وبصوتِه وحضورِه، وصارَ يطيبُ لي الحديثُ مادامَ في سيرتِه وشأنِه. فقالَ حفظَه اللهُ: دعكَ عنّي، وانظرْ إلى من ليسَ له علمٌ ظاهرٌ، وسَمْتٌ باهرٌ، وإمامةٌ عموميةٌ، يُقَلّبُ الكونَ بين أصابِعِهِ، ويَتصرّفُ في أحوالِ الخلقِ، حتى السحابُ يتحشّمُ منه أن لا ينزلَ بأرضِ دعائِه، وهو لا يَعلمُ هذا ولا يَلتفُ إليه. قلتُ: منْ؟ قالَ: من مَظْلُومِيّتُهُ معجونةٌ بربانيةِ القلبِ.

قلتُ: ربانيةُ القلبِ سلامتُه من عطبِ الضغينةِ.

وقالَ لِيْ: العاشقُونَ يَضِجُّونَ بالعشقِ وأنا أَضِجُّ بهم.

وقالَ لِيْ: ما قولُكَ فيمن تَضِجُّ بهِ السُّبحانيّةُ؟

وقالَ لِيْ: العاشِقون قلوبُهم قُدَّتْ من معنى الخِلافةِ، والخالونَ من العشقِ قلوبُهم قُدَّتْ من معنى العبوديَّةِ.

وقالَ لِيْ: العاشقُونَ زمانُهم بعضُ قلوبِهم، والخالونَ قلوبُهم بعضُ زمانِهم.

وقالَ لِيْ: زمانُ العاشقينَ مُتّصلٌ بِخَفْقِهِم، وزمانُ الخالينَ لا يدرِي خفقتْ قلوبُهم أم سكتتْ.

وقالَ لِيْ: زمانُ العاشقينَ معقودٌ بالعشقِ وزمانُ الخالينَ معقودٌ بالخواءِ.[6]

---

[6] تعلّقَ قلبُ تلميذٍ كانَ يعرفُ الفارسيّةَ ببعضِ كلامِ السّادةِ، وهمُ الرّوميُّ والعطّارُ والسّنائيّ. فبينما نحنُ وقتَ الضُّحَى نتكلّمُ معَ التلاميذِ في شؤونٍ مبتذَلةٍ بصحنِ المدرسةِ، إذ بالفتَى يقولُ وقد باغتَهُ الشوقُ: السادةُ يندهونَ. فذهبَ عنا إلى خَلْوَتِهِ التي جعلَها في سقيفةِ بيتِه يقرأُ أوجاعَ هؤلاءِ النفرِ من العارفينَ، وينسخُ عباراتِهم، ويتهيّأُ لهُ الخاطرُ والحالُ، وهو في كلِّ هذا لا يخرجُ عن مقامِ العشقِ الذي أحاطَ به علَى حينِ غفلةٍ وهو بينَنا. فبعدَ حولٍ، وقتَ العشيّةِ، جاءَ مجلسَنا ونحنُ مجتمعونَ فأشارَ بالتحيّةِ ثمّ قالَ: كيفَ الأمورُ يا شبابُ؟ فقلنا: سبحانَ اللهِ! تغيبُ حولاً ثم تُسلِّمُ بإشارةِ اليدِ! فذَهَلَ هُنيهةً ثمّ قالَ وبعينيهِ رقرقةُ الدمعِ: واللهِ ما ظننتُ إلا أني قدْ خرجتُ عنكُم ضُحَى هذا اليومِ، وهذا حالُ من صَعَقَهُ العشقُ. ثمّ جلسَ يبوحُ لنا بما كانَ بينَهُ وبينَ السّادةِ العارفينَ، وبكشوفاتِه وفتوحاتِه، وهو ما يزالُ يحسَبُ عندَ قلبِه أنه ما انصرفَ عنّا إلا بعضَ نهارٍ. قالَ: لو كنتُ أقمتُ العبادةَ المعروفةَ لأدركتُ الوقتَ وأدركني، ولكنّني كنتُ تحتَ العرشِ فلمْ يُمْكِنْ لي أن أتصدّعَ. قلتُ: يقصدُ أنه كانَ في مقامِ العشقِ، يحملُ العرشَ فوقَ كتفيهِ، فلمْ يَجُزْ لهُ أن يسجدَ لصلاةٍ وإلّا لانهدَّ هذا العرشُ، عرشُ المعشوقِ الأكبرِ.

وقالَ ليْ: المعقودُ بالعشقِ معقودٌ بالحُريّةِ.

وقالَ ليْ: المعقودُ بالعشقِ لا ينبغي له أن يتّخذَ الأغلالَ لأنّ العشقَ اسمٌ من أسماءِ الانعتاقِ.

وقالَ ليْ:الذين يَغُلُّونَ سواهُم كيفَ يفعلونَ بأغلالِهم هُم؟

وقالَ ليْ: الأغلالُ التي بأيدي الحابسينَ وأقدامِهم هي من سياقِهم الذي أودَى بهم إلى حبسِ غيرِهم أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الذين يحبسونَ يصيرُ الحبسُ منعقداً بهم حتّى يقبضَ علَى معناهم هم لا معنَى من حَبسوا من الخلقِ.

وقالَ ليْ: الحريةُ، التي في العشقِ، معنًى في الترابِ.

وقالَ ليْ: الذي يعشقُ يصيرُ حَفنةً من ترابِ الأرضِ.[7]

وقالَ ليْ: ترابُ الأرضِ هو محَلُّ الخصبِ في الكونِ كلِّهِ.

وقالَ ليْ: العشقُ استنفارٌ للأرضِ، واستفزازٌ للرحمِ، واستنهاضٌ للصُّلْبِ والتَّرائبِ.

وقالَ ليْ: العشقُ استشرافٌ لما بعدَ التخومِ التي تَحُدُّ القلبَ وتحيطُ بالجسدِ.

وقالَ ليْ: الذي يستشرفُ حدودَ القلبِ وحوافَّ الجسدِ ونهاياتِ العالمِ ربما يجدُ

---

[7] قالتْ أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ، قدوةُ العاشقِ والمريدِ، في جبالِ ترهونةَ ووديانِ بني وليد: لا ينبغي للعاشقِ أن ينفصلَ عن ترابَ الأرضِ ولا يَسَعُهُ وإن أرادَ. ذلكَ أن الأرضَ فيها معنَى الشهوةِ التي تُحرّكُ العشقَ، والخصبُ الذي يُجَدّدُ الحياةَ، والسرورُ الذي هو آيةُ الخلافةِ. قالتْ: فترابُ هذي الأرضِ إشارةٌ بالمعاني العُلويّةِ وتحقيقٌ للمقاماتِ السنيّةِ في الهيئاتِ الآدميةِ والحوائيةِ.

نفسَه في صحنِ الدارِ، داري.
وقالَ ليْ: ما بعدَ العشقِ مُقاماتٌ كلُّها علَى طريقِي فأنّ ركضتَ ثَمّ داري ووِصالي.
وقالَ ليْ: مُقاماتُ ما بعدَ العشقِ عشقٌ جديدٌ يَلزمُك أن تتهجّاهُ مثلَ الكلامِ الأوّلِ.
وقالَ ليْ: التهجئةُ الأولَى لذّةٌ غامرةٌ كحالِ اللقاءِ الأوّلِ، والهيامِ الأوّلِ، والدفقةِ الأولَى الواجبةِ عنِ الوصالِ.
وقالَ ليْ: العشقُ فعلٌ لا يُضاهَى من جهةِ أنّهُ يستعيدُ الشهقةَ الأولَى كأنّها لم تخطفْ أنفاسَك وتَسْلُبْكَ.
وقالَ ليْ: شهقةٌ في العشقِ خيرٌ من سبعيَن سنةً في عبادةٍ من غيرِ شهقةٍ.[8]
وقالَ ليْ: الذي يشهقُ يحوزُ نفَساً زائداً فكأنّهُ يَلقمُ به لذةً مباغتةً من العالمِ الذي أسفرَ عن غوايتِه.
وقالَ ليْ: العشقُ الذي لا يُطيِّر عقلَكَ، ولا يفضحُكَ، ولا يَغلبُك، ما لزومُه

---

[8] دخلَ الإمامُ أحمدُ على دارسٍ مجتهدٍ لعلمِ الفيزياءِ لم يكن يأبهُ بطريقتِنا أو بما نحنُ عليه من روحانيّةٍ. فلمّا سلّمَ عليهِ وجدَه في حالٍ غريبٍ من الرقةِ واللطفِ، فسألَهُ الإمامُ فقالَ الدارسُ: قد مرَّ بي هذه الساعةَ من دقائقِ علمِ الذرّةِ، وآثارِ معادلاتِ الكّمِّ، وافتراضاتِ نظريةِ الأوتارِ، ما فتحَ قلبي علَى معانٍ فارهةٍ تأخذُ بالعقولِ والأفهامِ، حتّى أصابَتني رعشةٌ في بدني هي ما رأيتَ من رِقّتي ولُطفي حين دخلتَ عليّ.
قالَ الإمامُ: فعاشَ بعدَها ثلاثيَن عاماً ببركةِ تلك الرعشةِ التي سَرتْ ببدنِه وروحِه يَدْرُسُ ويَخْدمُ الخلقَ بالعلومِ المدنيةِ. ولا أرى تلك الرعشةَ إلا فزعتْ له يومَ اللقاءِ العظيمِ تذودُ عنهُ وتتقدّمُ به إلى جنةٍ وأنهارٍ تقولُ: أنا محبّتُهُ الكامنةُ، ورحمانيّتُهُ المخبوءةُ، وربّانيّتُهُ التي أشرقتْ شمسُها في صبحِ الحياةِ.

عندَك؟[9]

وقالَ لِيْ: العشقُ الذي لا يُلزِمكَ لا يَلزَمُكَ.

وقالَ لِيْ: العشقُ يَلْزَمُ عنكَ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يَلزمُ عنهُ العشقُ لا تلزمُ عنه المعرفةُ.[10]

وقالَ لِيْ: أنا أوّلُ العاشِقينَ، لأنّ كلَّ معرفةٍ تلزمُ عني، وأنا ألزمُ عن المعارفِ في في تخومِها الآخِرةِ.

وقالَ لِيْ: أنا العاشقُ الذي لا يبوحُ في الكتبِ، ولا يغلبُه الشوقُ إلا في الكلامِ الذي توسوسُ بهِ، والحضرةِ التي تدخلُ بها عليّ.

وقالَ لِيْ: أنا ثُمالةُ العاشِقينَ، وبقيّةُ رمقِ المُحبّينَ، ومِسْكُ ختامِ المُتَيَّمِين.

وقالَ لِيْ: أنتَ المعشُوقُ الذي لم يكنْ قبلَهُ شيءٌ، والعاشقُ الذي لا يكونُ بعدَهُ

---

[9] حلَّ ديارَنا شيخٌ من شيوخِ التلفِ، فيه غِلظةٌ وجفاءٌ، وأغلبُ كلامِه قدحٌ وذمٌّ للإثنتينِ وسبعينَ، وحَكْرٌ للنجاةِ من دون العالمينِ. وكان يحفظُ من النصوصِ ما ليسَ له عدٌّ، ويُجافي أصحابَ الفكرِ والفنونِ والتجليّاتِ، ويُبغضُ أحوالَنا ومُقاماتِنا. فمرَّ به شابٌّ مُبتهجٌ، فسلبَ الشيخَ قلبَه، فلم يَلبثْ أن سَلبه عِلمَه، فلم يلبثْ أن سَلبه فاتحةَ الكتابِ، فصارَ إلى الهلاكِ والناسُ من حولِه لا يدرونَ. فغفَى وهو ينظرُ إلى قبرِه فرأَى الفتَى يقولُ له: حقرتَنا وكذّبتَ بنا فجاءَك منا برهانٌ لا قِبَلَ لك به فكيفَ تقولُ. فبكَى الشيخُ وطلبَ القُرْبَ والرحمانيةَ. فقَبِلَ منه الفتَى وقرّبهُ وأقرَّ عينَه وفؤادَه.

[10] قلتُ: أيِ الذي لا يكونُ منهُ العشقُ عفواً وكرامةً كما يكونُ العطرُ من الزهرةِ، فإنها تَتضوّعُ به بلا مكابدةٍ، لا يكونُ منهُ معرفةٌ باللهِ وبالعالمِ علَى جهةِ اللزومِ. وهذا حقٌّ لأنّنا نرَى العاشقِينَ يَسبِقونَ في مُقاماتِ التَألُّهِ والأسرارِ والفتوحاتِ من يجلسونَ للدرسِ والعبادةِ دونَ أن يخترقَ قلوبَهم نَصْلُ العشقِ أو يمشُوا في الطريقِ بحوافرِ المحبّةِ.

شيءٌ، والعشقُ الذي هو كلُّ شيءٍ.

وقالَ لِيْ: بين العاشقِ والمعشوقِ شريعةُ القلوبِ، وفقهُ الأحوالِ، وحديثُ المتنِ والسّنَدِ.

وقالَ لِيْ: المتنُ اسمُك وقلبُك وجسدُك، والسّنَدُ هذا العالمُ الذي يُحَدِّثُ عنكَ.

وقالَ لِيْ: حديثُ العاشقينَ بعضٌ من حَديثي، أسرارُهُ بعيدةٌ وفتوحاتُهُ قريبةٌ. فحينَ تسمعُ عاشقاً يتكلّمُ بالشوقِ أو يهمسُ بالشَّغَفِ، احفظْ عبارتَهُ لأنّهُ يَصِحُّ لكَ أن تُؤدّي بها الصلاةَ المفروضةَ.

وقالَ لِيْ: العشقُ دِينٌ لا قِبَلَ لأهلِ النصوصِ بهِ: يُرِيدُونَهُ بِكْراً وهُوَ يهتكُ الكونَ أسماءَهُ ومعانيهِ.

وقالَ لِيْ: العشقُ هتكٌ عظيمٌ، فمن أرادَ البَكارةَ لم يعرفْ كيفَ يمشِي في طريقِ العشقِ.[11]

وقالَ لِيْ: الذي يعشقُ يصيرُ معشوقاً بالضرورةِ.

وقالَ لِيْ: العشقُ الذي يقترفُه العاشقُ يحيطُ به قبلَ أن يصلَ محلَّ العشقِ.

وقالَ لِيْ: محلُّ العشقِ شِرْكَةٌ في العشقِ، لا استئثارٌ يحبسُ القلوبَ عن معاني

---

[11] كان مريدٌ يعشقُ بُنيَّةً جاورتْ دارُها دارَ جماعتِنا. فكان يخرجُ إليها من فوقِ السّطحِ فتلقاهُ وجِلةً، فيحدِّثُها وتحدّثُهُ بأحسنِ الكلامِ. وكان فتانَا شاعراً فائراً يَفحشُ في فنّهِ ويَعُفُّ في حديثِهِ. فسمعَه إمامُنا أحمدُ مرّةً فأعجبَهُ شعرُهُ فقالَ: هذا أخوكُم يقولُ فيفحشُ فحشاً لطيفاً فعاونُوه على عشقهِ حتّى يطيبَ خاطرُهُ ولا يستوحشَ. فكنّا نأخذُ أشعارَه، وفيها الحضنُ والقبلةُ والوطءُ، فنغنّيها في بعضِ الأسحارِ نتقوّى بها على الجهدِ والدّرسِ. فيفرحُ صاحبُنا ويقولُ: أنتمُ، واللهِ، خيرُ الناسِ.

الإنسانيّةِ.

وقالَ لِيْ: محلُّ العشقِ ليلاكَ التي تقفُ إزاءَك قلباً بقلبٍ واسماً بِاسمٍ وشهقةً بشهقةٍ.

وقالَ لِيْ: محلُّ العشقِ إزاءةٌ إنسانيّةٌ.

وقالَ لِيْ: محلُّ العشقِ الذي تهيأ لكَ يشيرُ إليّ.[12]

وقالَ لِيْ: محلُّ العشقِ حِينٌ منّي.

وقالَ لِيْ: أحيانِي، كأسمائي، حسنةٌ.

وقالَ لِيْ: المعشوقونَ من أحياني فكأنّهم كنايةٌ عنّي.

وقالَ لِيْ: المعشوقونَ أحيانُ العشقِ فيختلطونَ بِي من جهةِ أني حينُ العشقِ التامّ.

وقالَ لِيْ: الذين يتحيَّنونَ في العشقِ يتحيّنونَ في العالمِ من أكثرِ جهاتِه غوايةً ووطأةً.

---

[12] لما شُغِفَتْ تلميذةٌ بتلميذٍ عندَنا سمعتُها توسوسُ باسمِه في الصلاةِ المعروفةِ وهي لا تدري، تحسَبُ أنّها تنادي علَى الحقّ. ورأيتُها في وقتِ الدرسِ تخطُّ اسمَهُ علَى الرّقعةِ التي نكتبُ فيها اسمَ "هو" نقاربُ الحضرةَ ونتّصلُ بالجنابِ. وفي قيامِ الليلِ الذي حَضَرَتْهُ بعضُ التلميذاتِ مع الإمامِ أحمدَ كانَ القومُ يلهجونَ "ربّي أُلَبِّي، ربي أُلَبِّي" فصارتِ التلميذةُ تهذي والعَرَقُ يَنِزُّ من بدنِها "صُبحي بَوحي، صُبحي فَتحي، صُبحي كَدحي، صُبحي رَوحي، صُبحي جَرحي، صُبحي نَوحي، صُبحي صُبحي"، والتلاميذُ في هذا كلّه في حالٍ من الحياءِ. قالَ الإمامُ: هلْ في الفتيانِ صبحُ؟ قلنا: نعمْ، صُبحي بنُ مَسعود. قالَ: قولوا له قد صَيّرَهُ العشقُ كنايةً عن الحضرةِ، وإشارةً إلى الجنابِ، وعلامةً على اللَّدُنِّ، فلَعَلَّهُ يتحشّمُ ويَصِلُ البنتَ بشيءٍ من الزادِ الذي يَنبغي علَى من اتّخَذَ هيئةَ الرّبوبيّةِ. قلنا: وما زادُ الربوبيّة؟ قالَ: المحبّةُ الكاملةُ.

وقالَ ليْ: وطأةُ العشقِ تطأُ بكَ الأرضَ، وهذا حسنٌ لكَ وللأرضِ.

وقالَ ليْ: المعشُوقونَ مُحَكَّمُونَ في أحوالِ العاشقينَ، وكلُّ مُحَكَّمٍ محكومٌ.[13]

وقالَ ليْ: المعشوقُ فضاءُ بوحٍ وإباحةٍ.

وقالَ ليْ: المعشوقُ مستباحٌ بحُكمِ العشقِ، محفوظٌ بحُكمِ الشرائعِ.

وقالَ ليْ: بين الحفظِ والاستباحةِ ما بينَ الاسمِ الظاهرِ والاسمِ الأعظمِ.

وقالَ ليْ: بين الاسمينِ تتبدّدُ قلوبٌ، وتتصدّعُ أكوانٌ، ويتهافتُ العرشُ الذي شُبّهَ لكَ في الكتابِ.

وقالَ ليْ: المعشوقُ اسمٌ من أسمائي التي تحصلُ عنها العلومُ اللّدُنِيَّةُ.[14]

---

[13] قال الإمامُ الدُّرّيُّ: المعشوقُ ملزومٌ بالعاشقِ من جهةِ أنَّهُ وَلِيُّهُ وصاحبُ أمرِهِ، وهو يَحكمُ بشرعِ الحبِّ فيجري عليهِ ما يجري على الحكّامِ من المحاسبةِ والسؤالِ. قلتُ: فكُنّا إذا دخلنا في مُقاماتِ العشقِ تفقّدَ الإمامُ أمرَنا هلْ نَحْكُمُ ويُحْكَمَ فينا بالعدلِ، فمن ظَلَمَ أو ظُلِمَ منا جاءَهُ الإمامُ فنبَّهَهُ إلى شِرْعةِ الحبِّ، واقترانِ العشقِ بالولايةِ والحفظِ للمعشوقِ في كلِّ حالٍ.

[14] قلتُ: علَى حاشيةِ هذهِ المحاورةِ عبارةٌ زائدةٌ، بينَ أن تبينَ أو لا تبينَ، كتبَها في غالبِ الأمرِ الخطّاطُ آحمدُو، أو لعلّه الشيخُ نفسُه، فهيئةُ الحبرِ ورسمُ الخطِّ فيهما اختلافٌ. والعبارةُ هي: من بحرِ المتداركِ، وصوتُها علَى صوتِ "يا ليلُ، الصَبُّ متى غَدُهُ"، شعرٌ يليقُ بهذا المقامِ، فإن شئتَ غَنَّيْتَهُ وأنتَ في الحضرةِ، أو رَجّعْتَهُ في قلبِك حتى يطمئِنّ بهِ:

فامسَحْ رجيكَ منَ الوهَنِ وفؤادَكَ طهِّرْ، فاسْتَعِنِ

واكتُبْ بمدادِ الفهمِ علَى متنٍ منْ عشـقٍ مُرْتَهَنِ

أُبْلِغْكَ عُلُوماً تَجْهَلُهَا أوَّلُها حلمٌ في الوسَنِ

آخِرُهَـا فَتْحٌ تعرفُهُ تشتـاقُ إليَّ فَتَشْهَدُنِي

وقالَ ليْ: المعشوقُ جهةٌ لي يقصدُ إليها العارفونَ تَسْبِقُهم قلوبُهم، وتخبرُ عنهم أنوارُهم، وتَشِي بهم شهواتُهم.

وقالَ ليْ: المعشوقُ الذي لا تجدُ اسمَهُ وعبيرَهُ في أسماءِ الأشياءِ وعبيرِها لا تعرفُهُ ولكنْ شُبِّه لكَ.

وقالَ ليْ: معرفةُ المعشوقِ لازمةٌ للعاشقِ وإلا تقطّعتْ سُبُلُ الغوايةِ، وتهافتَ فعلُ العشقِ.

وقالَ ليْ: فعلُ العشقِ حاصلٌ عن اسمِه الذي هو حسنٌ.

وقالَ ليْ: العاشقُ اسمٌ يستغرقُ أسماءَ لي في تَلْبِيَتِكَ الظاهرةِ.

وقالَ ليْ: العاشقُ ضرورةً صلةٌ فلهذا لا تجدُني مفارقاً إلا عندَ الذين لم يذوقوا حلاوةَ العشقِ.

وقالَ ليْ: العاشقُ يختلطُ بعجينِ المعشوقِ حتى يستحيلَ خبزَ الجسدِ وكسرةَ الروحِ ومُضغةَ القلبِ.

وقالَ ليْ: جوابُ "أَرِنِي" في مُضغةِ القلبِ.[15]

---

[15] قلتُ: إشارةٌ إلى الكلامِ المعروفِ حيثُ يقولُ أَرِني أنظُرْ إليكَ. وهو كثيرٌ في الحديقةِ الغدامسيّةِ يريدُ به الشيخُ بلخير أن يتكلّمَ مع النصِّ، ويهذرَ مع صاحبِه، ويَطلعَ بإجاباتٍ جديدةٍ، وأسئلةٍ مُناوشةٍ لتخومِ الغوايةِ التي تكونُ بين المحبّينَ. قالَ أستاذي بابِكرِ النّوبي: وهو المقصودُ في "إقرأ" لأنّ عملَ القراءةِ اقتحامُ النصّ، والذهابُ فيه، ثمّ الخروجُ به علَى الملأِ بالجهرِ والمناهضةِ العمليّةِ والمساكنةِ القلبيّةِ. وهذا لا يكونُ إلا لمن رأَى المعشوقَ الأكبرَ في مُضغةِ القلبِ فيقرأُ حينَ يقرأُ به لا بإزائِه. وهذا رعاكَ الله شيءٌ لا تقدرُ عليهِ غالبُ المِلَلِ التي انتظمتْ في الأنساقِ القاهرةِ والسّياقاتِ ذواتِ السّطوةِ والحديدِ.

وقالَ لِيْ: العاشقُ الذي يصيرُ إلى مُضغةِ القلبِ يصيرُ مولَى القلبِ، حُكماً وخُضوعاً.[16]

وقالَ لِيْ: العاشقُ الذي لا يخرجُ على الناسِ شاهراً عشقَهُ خائبٌ.[17]

وقالَ لِيْ: يلزمُك في العشقِ أن تصيرَ حاداً كنصلِ هذا العالمِ، فحيثُ ينوشُك تنوشُه وحينَ يقدحُك تقدحُه.

---

[16] قلتُ أنا موسَى: بنو آدمَ الذينَ لم يدخُلوا مقاماتِ العشقِ يظنُّونَ أنّهم يملكونَ أمرَهم وإنما هُم يَتّبِعُونَ حبسَ الغفلةِ التي لم يَخترقْها اتصالٌ بحبيبٍ أو تسليمٌ لمعشوقٍ. وأما العاشقونَ فيدخلونَ إلى فضاءِ الإمكانِ باتصالِ أبدانِهم وأرواحِهم بالمعشوقيَن فتصيرُ من ذلكَ حركةٌ في ضميرِ العاشقِ لا تكونُ لغيرِه، وقوةٌ لا تصحُّ لسواهُ، فمِنْ هذا كانَ العاشقُ مولىً سيداً، ومولىً خاضعاً في مقام واحدٍ، والخالي من العشقِ مغلولاً لا سيادةَ له ولا خضوعَ.

[17] عشقتُ وأنا فتىً بنتاً كالشهابِ، عينَاها من شهوةٍ، وصوتُها من حلمٍ، وقدُّها نخلةٌ دانيةٌ، ومشيتُها أذانٌ بالغوايةِ. فصِرنا نلهجُ بِاسْمينا ثَماني سنيَن في الطرقاتِ، نبوسُ في الحدائقِ العموميةِ، ونتعانقُ في حرمِ الجامعةِ، حتى اشتدَّ كلامُ الناسِ فينا وقالوا فاسقانِ يَفْجُرَانِ علَى الملإِ. فحالُوا بيننا ومنعُونا الحبَّ والغرامَ. فارتبكتْ وارتبكتُ، وتلخبطتْ وتلخبطتُ، فإذا نحنُ افترقْنا، فلمّا عرفَ الإمامُ أحمدُ الدريّ صارَ يبكي ويقولُ: عاشقانِ ولهانانِ لم يقدرا إلا علَى البوحِ، أفَيُتَّهَمَانِ في أمرِهما، قلتُ: فهاجرتُ. بعدَها إلى بلادٍ غريبةٍ، فإذا الحبُّ عندَهم كرامةٌ وفرحٌ، فأحببتُ فيهم ومنهم بُنَيَّةً سَنِيّةً ولمْ أعرفْ حُزناً بعدَها قطُّ. قلتُ أيضاً: فأنا إلى هذه الساعةِ لا أنكرُ علَى العاشقِ القبلةَ والعناقَ والمطارحةَ. وما زلتُ أجدُ في نفسي من أثرِ ذاكَ العشقِ، ومازالَ العشقُ يجدُ في نفسِهِ من أثري إلَى اليومِ.

وقالَ لِيْ: كنْ في الغوايةِ علَى حافّةِ العالِمِ الذي هو بإزائِك وأنتَ منهُ على مرمَى مطارحةٍ سافرةٍ أو منازلةٍ حاسرةٍ.

وقالَ لِيْ: الغوايةُ تسليمٌ منك بفتنةِ العالِمِ وخضوعٌ للذةِ الأشياءِ وإقرارٌ بولايةِ العشقِ.

وقالَ لِيْ: ولايةُ العشقِ أصلحُ لك وللعالِمِ من الولايةِ التي تعسفُ بك باسمي أو باسمِ شركائي.

وقالَ لِيْ: شركاؤك في العشقِ ألزمُ لكَ من شركائي في العسفِ.

وقالَ لِيْ: العشقُ لازمٌ عن العالِمِ لأنه بغيرِ العشقِ لا يحصلُ الخلقُ الأولُ.

وقالَ لِيْ: الذي يتنفّسُ في الديارِ، ويمشي في الطرقاتِ، ويكدحُ في الأسواقِ، التي هي جميعاً سياقُ العالمِ، كيفَ يفارقُ هذا العالمَ؟

وقالَ لِيْ: العشقُ نَسْغُ الشجرةِ التي أسميتُها العالمَ.[18]

وقالَ لِيْ: الذين يدخلونَ العشقَ في مقامِ الكدحِ يجدونَ حلاوتَه من حلاوةِ الأرضِ

---

[18] أحبَّ أخي زينُ السماحِ، ومقصدُ الأرواحِ صبحي بنُ مسعود، حبيبُ البُنَيّاتِ في الأصابعةِ أرضِ الجهادِ والثباتِ، قتالَ العلوجِ الظالمينَ حباً ملكَ عليهِ قلبَه، وحكمَ بجهاتِ جسدِه. قلتُ: فتركَ بنتاً كان يَشْغَفُها بناحيةِ البلدةِ وذهبَ حتى أثخنَ بأرضِ فلسطينَ ولبنانَ وسوريّةَ وبعضٍ من تخومِ اليمنِ. فكانَ يرجعُ للديارِ وقتاً يتزوّدُ فيهِ، ويأخذُ شيئاً من الدرسِ والحبِّ، ثم يَسعى في الأرضِ مُقاتلاً. وكانتِ البنتُ تجتمعُ به في كلِّ مرّةٍ كأنّها لا تراهُ بعدَها، ولا تفتأُ تلعقُ جراحَه من آخرِ معركةٍ، حتى يكونَ بينهما من الحبِّ ما لا تَسُدُّ رمقَه الشروحُ. فنفرحُ وندعو لهما بدوامِ الوصلِ. غيرَ أن الفتى يسكتُ ثم يقولُ، وبعينه اتّقادٌ، وليَدَيْهِ سطوةٌ كسطوةِ النيكِ أو أشدُّ قليلاً: إن ضربَ رقابِ الفرنسيسِ ألذُّ من مصِّ رُضابِ البناتِ. ثم يخرجُ مجاهداً.

التي خدشَتْها فؤوسُهم.[19]

وقالَ ليْ: العشقُ في مُقامِ الكدحِ إتيانُ العالِمِ في وضحِ النهارِ.

وقالَ ليْ: الذي يعقدُ العشقَ والكدحَ كأنه يعقدُ ذَرّةً بذرّةٍ مجاورةٍ.

وقالَ ليْ: الانعقادُ الذرّيُّ إشارةٌ عنِ اجتماعِ سطوةِ العشقِ برحمةِ الكدحِ.

وقالَ ليْ: الانعقادُ الذرّيُّ من حلاوةِ العشقِ الكاملِ ولو أن جسدَك ثم قلبَك يتصدّعانِ من البأسِ الذي له عليكَ.

وقالَ ليْ: سطوةُ العشقِ من جلالِ الانعقادِ أو من ابتذالِ الرّيقِ، سِيّانِ.

وقالَ ليْ: الانعقادُ بِريقِ المعشوقِ ريقٌ آخرٌ.

وقالَ ليْ: الريقُ الآخَرُ قد يصيرُ إن مشيتَ فيه إلى غايتِه ريقاً آخِراً.

---

[19] خرجتْ بُنَيّةٌ في ناحيتِنا عن أهلِها، وهم مُترفون غلاظُ قلوبٍ، ولَحِقَتْ بفتىً كانتْ مُحِبّةً له. فلم يجدِ الناسُ لهما أثراً عِدَّةً من السنينِ. فبينما أنا في طريقِ سفرٍ بعيدٍ رأيتُ البنتَ وهي تبيعُ التمرَ في سوقِ الخضارِ، وبحذائِها طفلٌ يطلبُ ثديَها فتدعوهُ للصبرِ وهو لا يقدرُ عليهِ. فلمّا رأتني أَجفلتْ وكانتْ تَعرفني من سابقِ الجيرةِ بيننا. فسَلّمْتُ عليها وحلفتُ بِوَلِيّ الناحيةِ أني لا أذيعُ سرَّها. فاطمأنَّ قلبُها، فقالتْ: كانَ قلبي مُضْغَةً بلا وهجٍ في بيتِ الترفِ، فلما عشقتُ فتايَ اتَّقَدَتْ جوانبي، وأضاءَ جُثماني، فهاجرتُ معه إلى هذا البلدِ نزرعُ أرضاً اِكْتَرَيْنَاهَا من صاحبِها، ونبيعُ التمرَ في موسِمِه ثم البرتقالَ ثم البرقوقَ ثم البطيخَ حتى نعودَ للتمرِ في دورةٍ كاملةٍ. ولي من الفتَى عَيّلٌ تَقَرُّ به عيني وعينُه، وحبٌّ يُدَوِّخُنا، وأمرُنا بأيدينا متَى أردنا خَرجنا بمتاعِنا القليلِ إلى أرضٍ جديدةٍ نحرثُها ونقتاتُ من خيرِها. فعَجِبتُ من ترتيبِها للأمرِ، وكيفَ فكَّتْ قيدَها، وملكَتْ شأنَها، وأرضَتْ قلبَها وجسدَها في آنٍ. واشتريتُ منها قُفَّتَيْ تمرٍ ومَضَيْتُ في سبيلِ سفَري أسألُ هل لي ما لها من معنَى الحريةِ، أم أني كأكثرِ الناسِ محبوسٌ في الأصفادِ؟

وقالَ لِيْ: الريقُ الآخِرُ اختلاطُك بالمعشوقِ حتى يُشَبَّهَ لكَ أنّكَ هُو.[20]

وقالَ لِيْ: الريقُ الآخِرُ كنايةٌ عن كوثرِ السبحانيّةِ.

---

[20] كانَ معنا تلميذٌ عاشقٌ تَوَلَّهَ ببنتٍ تبيعُ النُّوّارَ في مَشتلٍ مجاورٍ للطريقةِ. فبعدَ وقتٍ أصابتْهُ الحُمَّى وصارَ يهذي ويتوجّعُ. فزرناهُ مع الإمامِ أحمدَ نرجو أن نُخَفّفَ عنهُ ما بهِ من أحوالِ العشقِ. قالَ التلميذُ: إني أحبُّ ما أجدُ في بَدني من ضعفٍ وهوانٍ. قلنا: من جهةِ أنّهُ برهانٌ على العشقِ؟ قالَ: لا، هو فتحٌ روحانيٌّ خُصِصْتُ بهِ، فإن شئتُم جبرتُ بخاطرِكم وأشركتُكم فيه. قلنا: افعلْ، فالشِّرْكَةُ شِرْعَةُ العشّاقِ. قالَ: إن قلبي ذابَ وتماهَى مع قلبِ البنتِ فهُما شيءٌ واحدٌ، وهذا أَمْكَنَ لي ولها لروحانيّةِ القلوبِ. فأمّا بدَني فإنهُ كتلةٌ صمّاءُ، لا تقدرُ أن تتبدّدَ وتصيرَ هويةً واحدةً مع بدنِ البُنَيّةِ. فحزنتُ لهذا حزناً شديداً. ثم إني بعدَ وقتٍ فهمتُ من علومِ الفيزياءِ، التي درستُها عندَ مَولاي تاجِ السرِّ عليِّ بنِ زهرةِ الحُسنِ، أن المادّةَ فراغٌ في غالبِها الأعظمِ، لا يربطُ بين ذرّاتِها، في ذلكَ الفراغِ الكاملِ، إلا قُوَى التجاذبِ والتدافعِ التي تَصِلُها ببعضِها البعضِ، فلولاها لماعتِ المادّةُ، وسالتْ هُوُيَّتُها، وتمثّلَتْ هيئةَ المكانِ التي هي فيهِ.

قلنا: ثمّ ماذا يا محمومُ؟ قالَ: فأخذتُ علَى نفسِي العهدَ أن أُبَدِّدَ، بالصيامِ والحُمّى والهذيانِ، هذه القُوَى بينَ–الذريّةِ حتى يصيرَ جسدي غُفلاً عنها، فأدفعَ به تجاهَ حبيبتي فينفذَ في جسدِها، ويَتّحِدَ بهِ، لأنّهُ صارَ فراغاً تاماً من الذرّاتِ المتباعدةِ بلا روابطَ تعقدُ بينها.

قالَ الإمامُ: الفتَى أوغلَ في العشقِ وفي الفيزياءِ معاً، فافزعُوا لهُ علَى مطايا الوصالِ، حتى تعودوا به قبلَ أن يتبدّدَ قلبُه وجسدُه علَى وجهِ الحقيقةِ لا المجازِ.

قلتُ: فجئناهُ بالبنتِ بائعةِ النُّوّارِ على عجلٍ، وصارتْ تحضنُه وتبوسُه وتناشدُه أن يرجعَ إلى هيأتِه الأولَى وهي كفيلةٌ به، وبقلبِه وجسدِه علَى التخصيصِ اللذيذِ. ففعلَ وفعلتْ، وعادَ الفتَى إلى الحياةِ بعدَ أن كادَ يخرجُ عنها من أثرِ العشقِ والفيزياءِ.

وقالَ ليْ: الكنايةُ أَلْيَقُ بالعشقِ مِنَ التَّسميةِ.

وقالَ ليْ: المعشوقُ قد يُحجَبُ عن العاشقِ بمعنًى من معاني العشقِ أو اسمٍ من أسماءِ الشوقِ الذي يأخذُ القلبَ.

وقالَ ليْ: الاسمُ حجابٌ.

وقالَ ليْ: العشقُ الذي تُسَمّيهِ يُسْلَبُ منكَ فلا تعودُ تَعْرِفُهُ وأنتَ تقفُ بإزائِه تبكيهِ.

وقالَ ليْ: التسميةُ استحواذٌ والاستحواذُ حَثٌّ علَى المناهضةِ.

وقالَ ليْ: الاستحواذُ قَبْضُكَ علَى جمرِ العشقِ وهو بلا أَوَارٍ.

وقالَ ليْ: الاستحواذُ هيئةٌ من هيئاتِ السلطانِ الذي يَصِحُّ للعشقِ ولا ينبغي للعاشقينَ.[21]

---

[21] جلستُ في السّوقِ مع التلاميذِ نتكلّمُ في حبِّ الإمامِ أحمدَ، وهيبتِه في النفوسِ، وسطوتِه على القلوبِ. قالَ تلميذٌ: كلّما رأيتُ أثرَ مَدَاسِه علَى الترابِ هممتُ أن أنزلَ فأبوسَه لولا الحياءُ. فسَمِعَنا رجلٌ يبيعُ في دكّانِه فقالَ: هذا طاووسٌ بريشٍ من زهوٍ وغرورٍ حَكَمَ فيكُم واستأثرَ عنكُم بالسلطانِ! قلنا: ما هو بذلكَ، وإنّما هو أثرُ العلمِ والعملِ والمحبّةِ. قالَ: أراهُ. فجاءَ درسَ العشيّةِ علَى غفلةٍ منا ونحنُ نتكلّمُ تحتَ سقيفةِ المسجدِ مع المريدينَ، والإمامُ بيننا. فنظرَ الرجلُ إلى حلقةِ الدرسِ وجعلَ يتفرّسُ فينا ثم قالَ: أيُّكم الإمامُ أحمدُ؟ فلمْ يلفظْ سؤالَه حتّى عرفَ أنّه غلطَ في الحالِ، فاعتذرَ وجلسَ يسمعُ ويفهمُ. قلتُ: لو كانَ الإمامُ مستأثراً أو حاكماً لعرفَهُ الرجلُ بفخامةِ اللباسِ، أو الصُّفَّةِ التي يجلسُ عليها من دونِنا، أو الهيئةِ التي يجعلُنا فيها من الخضوعِ والتسليمِ، فلمّا لم يُمَيِّزْهُ من بينِنا عرفَ هذا الرجلُ أنّ سطوةَ الإمامِ محلُّها القلبُ وليسَ الحريرَ والمشيخةَ الدينيّةَ والسيادةَ الدنيويّةَ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يَنبغي للعاشقينَ مَظَانُّ الظّلْمِ، ومَحَالُّ الحُكمِ، ومواضعُ الاستحواذِ.

وقالَ لِيْ: الذي يظلمُ أو يحكمُ أو يستحوذُ حادَ عن معنَى العشقِ إلى معنَى السّلْبِ والاحتكارِ.

وقالَ لِيْ: العشقُ مشاركةٌ في الاسمِ فلا يكونُ حجاباً، وفي الفعلِ فلا يصيرُ استحواذاً، وفي المعنَى فلا يستحيلُ حبساً.

وقالَ لِيْ: الاسمُ والفعلُ والمعنى مقاماتُ الإنسانِ التامّةِ فإن شاركتَ فيها من تحبُّ فقد شاركتَهُ في إنسانيّتِك.

وقالَ لِيْ: الآدميةُ استشرافٌ للحوائيّةِ والحوائيّةُ استحضارٌ للآدميّةِ، وكلاهُما استنهاضٌ للإنسانيّةِ الكامنةِ.

وقالَ لِيْ: سلطانُ العشقِ عموميٌّ تدخلُ فيه الأممُ، وسلطانُ العاشقِ استئثارٌ يحجبُ الآدميّةَ، وحيازةٌ تحبسُ الحوائيّةَ.

وقالَ لِيْ: الآدميُّ الذي لا تخترقُه الحوائيّةُ يتهافتُ، والحوائيّةُ التي لا تَمَسُّهَا الآدميّةُ تصيرُ خَواءً.

وقالَ لِيْ: الآدميّةُ والحوائيّةُ اسمانِ لفعلٍ واحدٍ، مكتوبٌ عندي أنّه العشقُ.

وقالَ لِيْ: الآدميّةُ والحوائيّةُ مُجَاوَرَةٌ في هيأةِ الإزاءةِ، للزومِ الشوقِ، والقُبَلِ، والمنازلةِ.

وقالَ لِيْ: مجاورةُ العشاقِ إفضاءُ التّخومِ إلى التخومِ، وانعقادُ الجسدِ بالجسدِ، واستشرافُ المعنَى للمعنَى.

وقالَ لِيْ: هيأةُ الإزاءةِ مُقَابَلَةٌ لمظانّ الشوقِ حتّى يحصلَ عنها الوهجُ الذي يضيءُ

القلبَ والجسدَ جميعاً.[22]

وقالَ لِيْ: هيأةُ الإزاءةِ سبيلٌ للفتنةِ التي يَبتغيها العالمُ كي لا يصيرَ عاطلاً عن اللذّةِ الغامرةِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الإزاءةِ لا تَصِحُّ إلا في العشقِ أو في المناهضةِ.[23]

وقالَ لِيْ: العشقُ والمناهضةُ مقامانِ مُتّصِلانِ من معنَى الانحيازِ الذي هو لخاطرِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الانحيازُ يعقدُ العشقَ بالمناهضةِ من جهةِ أن العاشقَ يريدُ بهجةَ العالمِ والمناهضةُ تريدُ انعتاقَه، والبهجةُ والانعتاقُ شيءٌ واحدٌ.

وقالَ لِيْ: العشقُ ينفرطُ به العِقدُ الذي انتظمَ عليهِ الاستئثارُ والحكمُ والانكفاءُ فمن هذا يصيرُ الانعتاقُ.

وقالَ لِيْ: الانكفاءُ اجتثاثٌ لقلبِك من فضاءِ الإنسانيّةِ وحبسُه في أصفادِ الفرديّةِ

---

[22] قلتُ: مظانُّ الأمرِ الجهاتُ التي يُظَنُّ أنه بها علَى وجهِ الأملِ أو الحِسْبةِ. فمظانُّ المياهِ الآبارُ، ومظانُّ العلومِ المعاهدُ، ومظانُّ الموتِ المنازلةُ بالسيفِ. قلتُ: فأمّا مظانُّ الشوقِ التي تليقُ بها هيئةُ الإزاءةِ أي المقابلةِ فهي القلبُ، الذي هو المظنّةُ الكُبرى، ثم العيونُ التي تترقرقُ، والأيدي التي تتحرّقُ، والشفاهُ التي تَرْجُفُ، وتخومٌ أخرَى، نتحشّمُ من عبارتِها، تمشي بالآدميّةِ والحوائيّةِ إلى منتهاها في مقامِ الشوقِ، فيجدُرُ بها الوصلُ المؤدّي إلى قدحِ الجسدِ واستضاءتِه.

[23] قالتْ أستاذتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ: الأصلُ في الهيئةِ الإنسانيةِ المجاوَرةُ. ولا يجدرُ بالواحدِ منا أن يقابلَ بقلبِه وجسدِه شيئاً في هيئةِ الإزاءةِ إلا حبيباً يريدُ أن ينوشَهُ بأفعالِ الشوقِ كالقبلةِ واللثمِ والوطءِ، أو ظالماً يشتهي أن يضربَهُ بأعمالِ المناهضةِ كالعصيانِ والرفضِ والمنازلةِ الحاسرةِ.

التي لم تتّصلْ بالكونِ.

وقالَ لِيْ: المنكفؤونَ مستأثرونَ بالضرورةِ لأنّهم يحكرونَ قلوبَهم عن العالِمِ الذي أقترفَ هذي القلوبَ.

وقالَ لِيْ: المنكفؤونَ علَى وحدانيّتِهِم ينطفؤونَ وهم يحسَبونَ أنهم يتّقِدون بالأحوالِ التي اختُصُّوا بها عنِ العالَمِ.

وقالَ لِيْ: المنكفؤونَ يصيرونَ مرآةً بإزاءِ أنفسِهم فلا هم يفيضونَ بصورةِ العالِمِ الذي يتملّى وجودَهم، ولا العالمُ يَصِلُ نورُه إليهِم.

وقالَ لِيْ: العاشقُ مرآةٌ أتملّى فيها جمالي فكلّما صفَى عشقُه صفَتْ صورةُ الجمالِ في ذاتي.

وقالَ لِيْ: العاشقُ يمشي وراءَ أحيانِ العشقِ، فيدخلُ عليَّ داري، فأنهضُ عن اتكاءَتِي أقولُ علَى ولهٍ "السندسُ والإستَبرَقُ" و "تجري من تحتِها الأنهارُ"، وهو لا يُلقي بالاً للحديثِ المرتَّبِ، والكلامِ المفرّقِ، يريدُ أن يرَى وجهي ويشتبكَ بحضرَتي فحَسْبُ.

وقالَ لِيْ: العاشقُ يدخلُ حين يدخلُ عليَّ بقلبِه وقلبِ من أحبَّ في هيئةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: أنتَ ومن تحبُّ واحِديّةٌ غامرةٌ، ثم صمديّةٌ تُشْكِلُ على الحسابِ المعروفِ.

وقالَ لِيْ: مِن عفوِ العشقِ أن يُشكِلَ على الحسابِ لأنّ الواحدَ والواحدَ في العشقِ قد لا يحصلُ عنهما اثنانِ.

وقالَ لِيْ: من عفوِ العشقِ أن لا يأخذَ بالَه من الوقتِ والمكانِ لأن بعضَه هو في برّانِيّةِ الوقتِ والمكانِ.

وقالَ لِيْ: العاشقُ يشتبكُ بالمعشوقِ بلا اعتبارٍ لأحيانِ العشقِ أو سياقِه.[24]

[24] قالَ التلميذُ الذي حُمَّ من العشقِ والعلومِ: إنّ التشابكَ القلبيَّ، وهو انعقادُ قلوبِ العشاقِ ببعضِها، علَى بُعْدِ المسافةِ واختلافِ الزمنِ، قريبُ الشبهِ بالتشابكِ الكمّي في فيزياءِ الدقائقِ. قلنا: لم نفهمِ الأولَى فنفهمَ الثانيةَ! قالَ: أما تشابكُ القلوبِ فإن العشاقَ يكونونَ في مقامٍ واحدٍ من الشوقِ والمحبّةِ واللذةِ والوجعِ، وإن توغّلُوا في مفارقةِ المسافةِ، واجتُثُّوا من وقتِهم إلى أوقاتٍ موحشةٍ بينَهم. فإنْ ناشَ الشوقُ أحدَهما من طرفٍ ناشَ الآخرَ من الطرفِ الذي يُقابِلُه، وإن أحاطتِ اللذّةُ الأوّلَ بجانبٍ شملتِ الثاني بالجانبِ الذي يليهِ. وهو ما أشارَ إليهِ الغدامسيُّ في حديقتِه. أما تشابكُ الدقائقِ الكَمّيَّةِ فشيءٌ عجيبٌ في الفيزياءِ، انهدَّ له منطقُ العلومِ وتهافتَ بناءُ المعارفِ العتيدةِ. قلنا: كيفَ يكونُ؟ قالَ التلميذُ: إن الذرّاتِ وما تحتَها، ولا يكونُ هذا لما فوقَها، إذا نشأتْ من طاقةٍ تعلّقتْ ببعضِها من جهةِ أحوالِها في الشّحنةِ الكهربائيةِ والدورانِ على محاورِها إلى جهةٍ بعينِها. وهي تفعلُ هذا في صورةِ المرآةِ، فتعكسُ أحوالَ بعضِها طرفاً بطرف، وجانباً بجانبٍ، كما هو عندَ العشّاقِ. فإذا ما اجْتُثَّتْ ذرّةٌ من الذرةِ التي اشتبكتْ معها، وجُعِلَتْ علَى بُعْدِ مجرّةٍ فضائيّةٍ كاملةٍ، فإنّ ارتباطَ أحوالِهما، من حيثُ الشحنةِ والدورانِ، يستمرُّ في نفسِ اللحظةِ الحادثةِ، إنْ تغيّرَ حالُ واحدةٍ تبدّلَ حالُ الثانيةِ في الوقتِ الراهنِ، دونَ مراعاةٍ لقوانينِ المسافةِ وسرعةِ الضوءِ ومنطقِ الحسابِ المعروفِ. قالَ التلميذُ: بل إنّ الذي عليهِ العلمُ الحديثُ أنّ التشابكَ الكَمّيَّ ربما انتهكَ سطوةَ الوقتِ فيُمكِنُ لذرّةٍ راهنةٍ أن تُؤَثّرَ في شَبِيكَتِها بالنكوصِ في الزمنِ، ومثالُه أن العاشقَ الذي يتوجُّع بالشوقِ في الغدِ يتوهّجُ له معشوقُه في ساعتِه هذهِ بأثرٍ رجعيّ/استباقيّ.

قلتُ: فظهرَ علينا جميعاً أثرُ هذا الكلامِ الجليلِ وصرنا هائمينَ في هذا الكونِ الذي تُشَابِهُ فيه قلوبُ العشاقِ الهائمةُ ذراتِ العناصرِ المشتبكةَ عبرَ السنواتِ الضوئيّةِ الموغلةِ في الفضاءِ وفِي الوقتِ سِيّانِ.

وقالَ لِيْ: أحيانُ العشقِ تظهرُ لمن يتمعّنُ في العشقِ فأما من يمعنُ في العشقِ فلا تظهرُ له هذي التخومُ.

وقالَ لِيْ: الإمعانُ توغّلٌ في التخومِ، والتمعّنُ نظرٌ في الهيئاتِ الخارجةِ، فمن هذا تكونُ المفارقةُ.

وقالَ لِيْ: أنتَ توغّلٌ في قلبِ المعشوقِ، وإيغالٌ إلى آخرِ العشقِ، ثم إقامةٌ لاسمِ العاشقِ على ثغورِ الولايةِ الكاملةِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ العاشقُ ثم المعشوقُ ثم العشقُ.

وقالَ لِيْ: الذي يصيرُ العشقَ يُداخلني منه شيءٌ ضرورةً، من اسِم العشقِ الحسنِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ هُوْ.[25]

---

[25] **قلتُ أنا موسَى: في علومِ القومِ "هو" ضميرُ الكنايةِ الأكبرِ، الذي في محلِّ الأسماءِ الحسنَى جميعِها. والغدامسيُّ في الحديقةِ يجعلهُ في محلِّ الأسماءِ الحسنةِ كذلكَ، أسماءِ الإنسانِ. فخُذْ بالَك، رعاكَ اللهُ، من العبارةِ التي تُنَاوِشُكَ، ولا يَفُتْكَ هذا الفتحُ الغامرُ للقلوبِ.**

إشارة غدامسيّة

وقالَ ليْ: العاشقونَ أمّةٌ لا يصحُّ اجتماعُها إلا إليكَ، ولا يكونُ لهم شِغافٌ إلا بمناطِ فؤادِك، ولا طوافٌ إلا لقدومِك وإفاضتِك. قد صاروا وعياً في ضميرِ الأشياءِ، وعرساً في طينِ العروقِ، وسهماً للعاملينَ. كلّما همّوا بكَ أظهرتَ لهم سُبحانيّتك، فيقعُ في ظنّهم أنكَ على وشكٍ مني، حتى أكادُك وتكادُني، ويُصيبهم وهمُ أنا وأنتَ، ولا يعودوا يعرفونَ قلوبَهم وأبدانَهم من بين أنفسِهم، فيُسِرُّونَ باسمِك ويَجهرونَ بي، فتصيرُ عندَهم في مَحَلِّ الحبِّ، ويصيرُ الحبُّ في محلِّك، فيَشتهونَ أن يَشُمُّوك ويضمُّوك، وأنتَ في رُواءِ الشمِّ والضمِّ، وتُسْمَعُ لهم جلبةٌ لا قبلَ لكَ بها، يَضِجُّونَ بالشوقِ فيَضِجُّ بهم، وينوشونَ بعضَهم بعضاً لا يصبرونَ. حتى يجري علَى ألسنتِهم كلامُ المسرّاتِ، ولأيديهِم فعلُ الفداحةِ، وبأعيُنِهم وَجْدُ العارفينَ. فادخلْ إليّ في حضرتِهم، وسلمْ عليَّ وعليهم، وذَكّرني بأسمائِهم كي لا يَغيبوا عن بالي، واحفظْ ذِمَّتي حَذَاهُم، واجعلِ العشقَ عهداً قائماً بيني وبينهم، ولا تَفجعنا بالغيابِ، لا حولَ لنا إلا بكَ، ولا حنينَ إلا إليكَ، ولا بُشرَى إلا من لَدُنّكَ المكينِ.

10. موسمُ اللغةِ

(وهو المناهضةُ)

ومن أحواله التأويلُ وحيّزُ القولِ والقراءةُ والجهةُ والهذرُ وألفاظُ المناهضةِ والتحشيمُ بالفعلِ والسياقُ وما يَلي اقرأْ والنبوّةُ الواحدةُ

وفيهِ غمرَني العالمُ بالمعاني، وأخرجَ إليَّ الكنوزَ، وأطلعَني علَى الأسرارِ، وأقدمَ عليَّ ذاتَهُ وغايتَهُ، وأجلسَني في مرابعِ فكرِهِ. فجعلتُ لكلِّ معنىً حرفاً يُقاربُهُ، ولكلِّ فعلٍ كلاماً يتاخمُه، ولهجتُ بالألسنةِ الكاملةِ[1]، ورجّعتُها في الطرقاتِ، وأصلحتُ من شأنِها، وجعلتُ لها الأصولَ والفروعَ. فأفصحتْ لي ثمَّ أعجمتْ عني، وبرزتْ للمراجعةِ ثم توارتْ وراءَ المجازِ، فانحازَ المعنى عن الكلامِ إلى السُّكوتِ، واندسَّ بين اللسانِ واللَّهاةِ، وغلبَ ما هو في الحاشيةِ على المتنِ، فلم أفهمْ كيفَ أقولُ. ورأيتُ العالمَ يحدُثُ قُدَّامَ عينيّ، وسمعتُ صوتَهُ وهو يكونُ، وغمرتْني روائحُ العناصرِ الأُولَى، واختلجَ بين يديَّ طينُ البداياتِ. فأردتُ الكلامَ واشتهيتُ أن أبوحَ.[2] فرأيتُ حروفي وقد خارتْ، ولُغاتي مسَّها الضُّرُّ، وكلامي من زَبَدٍ، وحديثي من خَواءٍ. فحاولتُ اللغاتِ جميعاً وتلَوتُ الكتابَ بكلِّ لسانٍ، فإذا سماءُ الكلامِ تصدَّعتْ من الهولِ. فلمستُ اللغةَ بالنارِ التي هيَ من بعضِ

[1] كانَ إمامي أحمدُ يقولُ: من لم يَلْغُ بغيرِ لسانِ قومِه تعذّرتْ عليهِ العلومُ، يطلبُها فتعجمُ عنه. فيقولُ بما ابتذَلَهُ قومُه دهراً يظنُّ أنه وقعَ على جِديدٍ، وما وقعَ إلا على مُعادٍ مكرورٍ. قلتُ: فإمامُنا إلى الساعةِ يُخرجنا من عندِه إذا أطَلنا الجلوسَ لديهِ فيقولُ: اذهبوا فانكحُوا حرائرَكم وأبعالَكنَّ، أو تعلَّموا لسانَ وفنونَ قومٍ هو خيرٌ لكم وأدنَى.

[2] قلتُ أنا موسَى: صحِبتُ شيخاً فاضلاً من أهلِ الطريقِ حولاً لم أسمعْ منهُ حرفاً أحفظُهُ. وكانَ الشيخُ إسكافيّاً يَخيطُ نعالَ الناسِ ثمَّ يدخلُ على حاكمِ الجهةِ فيكشِّرُ في حضرتِه لا يقولُ لهُ شيئاً، ويَخرجُ مُتَبَاطِئاً لا يقدرُ الحاكمُ عليهِ من هَيْبَتِهِ. فلمّا انفرطَ الحولُ قالَ: كم فهمتَ؟ قلتُ: لم أسمعْ فأفهمَ. قالَ: قد بُحْتُ لكَ بأحوالي فشغلتْكَ عنها عُقدةُ لساني، فاذهبْ عني. فمازلتُ واللهِ أحاولُ بوحَهُ هذا الذي جعلَهُ في مقامِ العملِ المعجونِ بالصمتِ القاصمِ لظهورِ السلاطينِ، فما قدرتُ على نعالِ الناسِ أو سلطانِهم.

أشواقي، وألقيتُ الحروفَ في أَتُونِ الفعلِ تكادُ تَمَيَّزُ من الوجعِ. وأتيتُ كلَّ مُفردةٍ فثقبتُها بالفكرِ، فخرجَ معناها الكامنُ، فقبضْتُهُ بالنارِ التي صارتْ من كلامي، واتّصلَ أمرُ فهمي بأمر لَغْوي، وانعقدَ حبلُ الخلافةِ بمنطِقي ولساني، فلمْ أَقُلْ إلا الحقَّ. وسقطَ قناعُ الجهلِ، واحتجبَ الزيفُ بالسكوتِ فهتكَهُ الكلامُ. وأُلقيَ إليَّ أنني الحديثُ الذي وُعِدَ الصَّامتونَ. فصرتُ الكتابَ وأبطلتُ ما عدايَ. وذهبتْ عني العُجمةُ، فأَفْصَحْتُ عن الحاجاتِ والأعمالِ، وأَبَنْتُ عن المظالمِ والمطالبِ، وأسفرتُ عنِ المعارفِ والعلومِ.[3] فأخذَ كلُّ سلطانٍ عُدَّتَهُ وحشوا فمي بالدنانيرِ، فلما لفظتُها لفظتُ كلامَ الخروجِ. فبعثوا ورائي بالخيلِ والخطباءِ فعرفتُهم في غوايةِ القولِ وفي زُواقِ الكلامِ. فأسررتُ بالعلومِ ولم أَبُحْ. وجعلتُ أحوالَ الخلقِ مقاماتٍ وإشاراتٍ، وألبستُ الخروجَ رُواء الحكايةِ، وألقيتُ عليهِ ثيابَ الرمزِ. فأخذَ زينتَهُ عندَ كلِّ قصيدةٍ، واغتسلَ بماءِ الفكاهةِ، ومازحَ الذاهلينَ بالحقِّ، وروَى الأمثالَ والعبرَ. فلمّا غَفَى السلاطينُ، تربّصتُ حتى دخلَ الفجرُ، فقمتُ عن القاعدينَ، فقلتُ أو شُبِّهَ لي:

الإنسانُ أكبرُ

فانهدَّ الكلامُ وقامَ فرضُ البلاغِ، وذَهَلَ المستأثرونَ عن اللغةِ التي زيّنوها. فتهافتَ نحوُهم، وارتدَّت عليهِم عبارتُهم، وخابتْ نصوصُهم، ووجبَ ابتداءُ

[3] قالَ التلميذُ عبدُ الله التّوغولي، القلبُ المهاجرُ والبدنُ الصابرُ، من ديار لومي وأتاكبامي أرضِ البشَائرِ: أثبتُ العلمِ ما خرجَ في حبّاتِ العرقِ باباً باباً كأنما مخاضُهُ الدهرُ كلُّهُ، وأنفعُهُ ما وافَقَ حالَ الخلقِ وحاجاتِهم، وأكملُهُ ما نقصَ وسُعِيَ بهِ في الطريقِ، وأجدرُهُ بالاتّباعِ ما علامتُه "لا أدري"، وأَوْصَلُهُ بالحقِّ ما تعلَّقَ بالمحبّةِ الشّاملةِ.

الكلامِ من أوّلِهِ، فجاءَنِي وقالَ لِيْ:

اللغةُ التي لا تشهدُ بأحوالِك ومعانيكَ كتابٌ يناهضُكَ ولوحٌ يُعْطِبُ اسمَك.[4]

وقالَ لِيْ: اللغةُ التي لا تَشِي بكَ ولا تبينُ عن حاجاتِك لغوٌ في رواءِ الألفاظِ المعتبَرَةِ.

وقالَ لِيْ: اللغةُ التي لا تُحشِّمُها بالفعلِ تُحشّمُكَ بزُواقِ الكلامِ.[5]

وقالَ لِيْ: التحشيمُ بالفعلِ حالٌ يليقُ بسياقِ الإنسانيةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: الذي يحشّمُ بالفعلِ يحتشمُ منه العالمُ ألّا يَصْدَعَ لهُ، واللغةُ ألّا تمدَّهُ

---

[4] كان بي شغفٌ بفلسفاتِ بعضِ الفرنسيسِ وثُلّةٍ من الأوروبِّ البارعينَ، وفيها هُياماتٌ وتخييلاتٌ وكلامٌ مرسلٌ يتركّبُ علَى نحوٍ ونحوٍ آخرَ. فلمّا استبطنتُ كلامَهم في بعضِ عباراتي فهمَها الأستاذُ قرلصُ بنُ مرقصَ العامليّ فقالَ: يا موسَى، أنتَ تجيءُ بكلامٍ لا يخدمُك، ولا يهتمُّ لشأنِك، ولايرعَى مصالحَك، ثم تجعلُ له الغلبةَ علَى كلامٍ آخرَ قد يكونُ أوثقَ صلةً بحاجاتِك، وأوفرَ زاداً، وأخصبَ زرعاً لكَ ولماشيتِك. فدعْ عنكَ هؤلاءِ فإنّهم جلسُوا علَى أرائِك الراحةِ في أبراجِ الترفِ، وقعدُوا يضرُطونَ من إستِهم ريحَ الفكرِ المشترَى الذي يتداولُه نظامُ السوقِ عندهم، فيجدُ فيه هذا السوقُ لذةً ومؤونةً وتمكيناً له وللسّدَنَةِ القائمينَ عليهِ. ثم رابِطْ على ثغورِ الكلامِ الذي يطلعُ من سياقِك، أو يخرقُه بنصلِ العلمِ الإنسانيّ، أو يحثُّه بالأحلامِ التي هيَ أضغاثُ الكونيّةِ الشاملةِ. أما العبارةُ التي تباعُ وتشترَى في دكاكينِ الحُكرةِ وأكشاكِ الترفِ الفكريّ فلا تخدمُك، ولا تشدُّ من أزرِ قلبِك، ولا تفضُّ بَكارةَ الجسدِ المناهضِ للظلمِ والعطبِ.

[5] قالت سيّدتي الواجدةُ باللهِ سمرُ الزمانِ المهديّة: تحشيمُ الكلامِ بالفعلِ أن يذهبَ بهِ هذا فيقفَ بهِ علَى حدِّه، فيبهتُ الكلامُ ويخرجُ الفاعلُ عن إقليمِ ألفٍ وباءٍ ويدخلُ إلى فضاءِ غامرَ وكابدَ.

بالمؤونةِ الواجبةِ.

وقالَ ليْ: المؤونةُ الكلامُ الذي يهتَمُّ بكَ.

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي لا يعنيكَ لا يعنيني.

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي يعنيكَ يَفُكُّ عنكَ غِلَّ سياقِك فتدخلُ إلى سياقٍ جديدٍ.[6]

وقالَ ليْ: الكلامُ يذهبُ منَ الألفِ إلى الياءِ، والفعلُ يذهبُ أنّى شاءَ.

وقالَ ليْ: قد يكونُ ما بينَ الألفِ والياءِ أوسعَ من بعضِ السياقِ الذي تَقترفُ فيه الفعلَ.

وقالَ ليْ: المعتبرُ في الكلامِ الموقفُ منكَ، والمعتبرُ في الفعلِ الموقفُ منكَ، فاعتبارُ الكلامِ والفعلِ واحدٌ.

وقالَ ليْ: الكلامُ قد يشيرُ إلى ما هو أوسعُ من الكلامِ، والفعلُ قد يحيلُ إلى سياقٍ أشملَ من سياقِه.

---

[6] قلتُ أنا موسَى: علَى حاشيةِ الصفحةِ من المخطوطِ، ومتّصلةٌ بهذه المحاورةِ وعلَى كثبٍ منها، عبارةٌ كُتبت بخطٍّ مُتعجّلٍ، وقد امَّحَى بعضُه، فحاولتُه مع الإمامِ أحمدَ فإذا هو أبياتٌ من الشعرِ مُسترسِلةٌ في هيئتِها، وتَقدّمَ عنها هذا التاريخُ الهجريُّ "الأربعاءُ، ثاني ذي القِعدةِ، العامُ الأولُ بعدَ السبعينَ من المائةِ الرابعةِ عشرةَ" ثمّ النظمُ نفسُه من بحرِ المتدارَكِ على هذه الهيئةِ:

قالَ بلخير الغدامسيّ:

حدّثْ فكلامُكَ منْ حُجَجي ذِكْرٌ شافٍ من عندِي يَجِي

إن سَكَتَ الخلقُ عنِ الحقِّ اتَّقَدَتْ كلماتُكَ كالسُّرُجِ

أَلْقَمْتَ لسَانَهُمُ عِوَجاً حتّى تَشفيهَا منَ العِوَجِ

فالغُـو بالثورةِ تُوقِدُها منْ لفظِكَ ناراً في المُهَجِ

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي يُحدِّث عنكَ خيرٌ من الكلامِ الذي يُحدِّث عني.[7]

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي يدّعيني مقطوعٌ من شجرةٍ.[8]

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي تدَّعيهِ مقطوعٌ منكَ.

وقالَ ليْ: هذا الذي "وقالَ ليْ" مني أم منكَ؟ [9]

وقالَ ليْ: الكلامُ الذي لا يَشهدُ عنكَ زَبَدٌ، والكلامُ الذي لا يَشهدُ لكَ باطلٌ، والكلامُ الذي لا يَشهدُ بكَ لا يكونُ.

وقالَ ليْ: الزبدُ لا يصيرُ من الكلامِ المعتبرِ وإن رَقَمَهُ السّدنةُ الحافظونَ.

وقالَ ليْ: الزبدُ المعتبرُ يتهافتُ حين يصيرُ بين اليدينِ العاملتينِ.

---

[7] قلتُ لشيخي الحسنِ بنِ الغريبِ الواحديّ: أينَ مِن هذا علومُ الروايةِ والسندِ، والحفظُ والأحكامُ؟ فقالَ: بابٌ في مصالحِ الخلقِ يجبُّها جميعاً.

[8] هيَ شجرةُ الزيفِ، جذرُها الاستئثارُ بالمعاني، وجذعُها الخضوعُ لسطوةِ الكلامِ، وأوراقُها اللغوُ الفخم والهذرُ الجليلُ.

[9] قالَ تلميذٌ: إني أحبُّ كلامَه وحضرتَه وأجدُ فيهما لذّةً وغوايةً. فإن أردتُ شيئاً أو تشوّقتُ معنًى جعلتُه في "وقالَ لي"، ثم ألقيتُ فيها ما راقَ لي واطمأنَّ له قلبي أو قَلِقَ به. قالَ شيخي العرْبي بن مْهيدي: هذا يمكنُ لكَ وقد ينبغِي في أحوالِ الولهِ والشغفِ الشديدِ. ولكنْ يَلْزَمُكَ كلامُك، وتجبُ لك عبارتُك، فلا تنفكَّ عن خطابِك وانتسبْ إليهِ. وإنَّ "قلتُ" لها من الفخامةِ المخبوءةِ والكفايةِ الظاهرةِ ما لها، إنْ هيَ اتّصلتْ بحالِك وسياقِك وصدعتْ بقلبِك. قلتُ: فصارَ التلميذُ يمشي في السوقِ ويجلسُ في الدروسِ يقولُ "وقلتُ، وقلتُ" حتى تَفَخَّمَ علَى نحوٍ ليسَ للغيبِ، وتألّهَ بلا ألواحٍ أو زَبُورٍ، وصارَ كلامُه يُؤخذُ ويُرَدُّ، ويُنسخُ ويُبدّلُ، ويُحفظُ ثم يُهملُ، وهي مقاماتٌ عاملةٌ لا تكونُ لـ "قالَ لي" بل تحوزُها "قلتُ" حصراً.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي لا يختلطُ بيديكَ كلامٌ.[10]

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يقولُ كلَّ شيءٍ لا يقولُ شيئاً.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي تقولُه أهونُ من الكلامِ الذي يقولُكَ.

وقالَ لِيْ: ما يقولُك يُصَيِّرُكَ عبارةً تنوءُ باسمِك في سياقِ المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ التي تنوءُ مثقلةٌ بالمعنَى الذي يكادُ يخرجُ عنها بِنَصْلِ اسمِك.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي تحيكُه يداكَ كلامٌ آخرٌ.[11]

وقالَ لِيْ: العبارةُ التي تغفلُ عن العددِ والحسبةِ والترتيبِ تتهافتُ بعبارةٍ أخرَى غُفلةٍ عن العددِ والحسبةِ والترتيبِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ الباهرةُ تطلعُ من قلبِك فتحسبُها من غيرِ عِدّةِ العددِ وعتادِ الحسابِ، وهي قبلَ ذلكَ مشتْ في العلومِ حتّى ابتلّتْ واستضاءتْ شيئاً شديداً.

وقالَ لِيْ: العبارةُ الباهرةُ لغةُ القلبِ الذي فهمَ عن العالمِ شيئاً لا تَسُدُّهُ العبارةُ المنطفئةُ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يُغْلَطُ بهِ في حضرةِ السلطانِ كلامِي.[12]

---

[10] قالَ الشيخُ الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى: اختلطَ باليدين أي صارَ من عجينتِهما. قلتُ: وما عجينُ اليدينِ؟ قالَ: الفعلُ. ففهمتُ.

[11] قرأَ الإمامُ أحمدُ "آخِرٌ" فمعناهُ الكلامُ الفصلُ، وقرأَ تاجُ السرِّ "آخَرٌ" فمعناهُ غيرُ الباطلِ أي الحقُّ. قالَ الشيخُ أبو العيالِ: وكلاهُما يُخْرَجُ بهِ علَى الظالمينَ.

[12] قرأَها في حلقةِ الدرسِ أُستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ، أستاذُ العلومِ المعيشيّةِ في حلقاتِ الطريقةِ، ومعاهدِ بلدةِ العزيزية، فقالَ تلميذٌ: أإذا غلطتُ بكلامٍ في حضرةِ السلطانِ تصيرُ عبارتي من الكلامِ الجليلِ؟ قالَ الأستاذُ: نعمٌ. فقالَ التلميذُ: فإني

وقالَ ليْ: العبارة التي تُؤَدَّى بها المُكوسُ شاهدُ زورٍ.

وقالَ ليْ: أشدُّ الأفعالِ مناهضةً أن تقولَ الأشياءَ كما هيَ.

وقالَ ليْ: كلّما أسفرتْ عبارتُك عن زيفِ العلومِ التي يتّكئُ عليها أهلُ السّطوةِ أوجبوا هم علومَهم بالسيفِ، أو زوّقوها بالكناياتِ وحجبُوها بالمجازِ وزيّنوها بالغيبِ.

وقالَ ليْ: الكلامُ على الكلامِ كلامٌ آخرٌ.[13]

وقالَ ليْ: العبارةُ التي تشرحُ العبارةَ تَرْتَبِكُ بميزانِ العبارةِ الأولَى.

وقالَ ليْ: العبارةُ التي تفسّرُ العبارةَ ألزمتْ نفسَها ما لا يَلزمُ.

أريدُ أن أتكلّمَ ولكني أخافُ سلطانَ البلدِ الذي جاءَ به أهلُ الاستكبارِ في العالمينَ. فقالَ الأستاذُ: السلطانُ من استأثرَ بسلطةِ مالٍ أو سلطةِ حكمٍ أو سلطةِ علمٍ دونَ الخلقِ. فهذا بلدٌ فيهِ سلاطينُ يتّكئونَ على بعضِهم. فامضِ إلى شَركةِ كذا فإنها تظلمُ العُمّالَ، وتسلبُ الأجرةَ، وتَغُشُّ في السّلعةِ وترهَنُ البلدَ لمنفعتِها ومنفعةِ الحاكرينَ. فاغلطْ في الكلامِ إزاءَها في الصحيفةِ أو الإذاعةِ أو المحاضرةِ أو المظاهرةِ. فإن فعلتَ أخذَ الحقُّ عبارتَك فجعلَها في متنِ كتابِه وادّعاها لنفسِه من بابِ الربانيّة وأنتَ تقولُ آمين. ففرحَ التلميذُ وقالَ: واللهِ إذن لأكتُبنّ الكتابَ كلّه لا أسهو عن شيءٍ يَهُمُّ الخلقَ أو يَنوشُهم في معاشِهم أو قلوبِهم.

[13] قلتُ: "الكلامُ علَى الكلامِ" أن تأخذَ بيديكَ ما لم يكنْ من قولِك فتعملَ فيه شرحاً وزيادةً وتأويلاً. وهو مدخلٌ صعبٌ وأصلُ فسادٍ كبيرٍ في العلومِ والشرائعِ. وقد يكونُ به الانعتاقُ إنِ انحازَ للقارئِ على حسابِ الكاتبِ أو اصطفَّ لصالحِ الإنسانيّةِ العاملةِ في عمومِها. قلتُ: ومنهُ كلامُنا هذا الذي هو كلامٌ على كلامِ الحديقةِ، بين أن ينبثقَ بها أو يحبسَها، فتأمّلْ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ التي تُؤَوّلُ العبارةَ تقطعُ عليها الطريقَ.
وقالَ لِيْ: التأويلُ فعلٌ يتّكئُ علَى الكلامِ الذي لم يدخلْ حيِّزَ القولِ.
وقالَ لِي: الكلامُ الذي دخلَ حيّزَ القولِ لا يَتأوّلُ، إلا اعتسافاً.
وقالَ لِيْ: حيزُ القولِ أضيقُ من عبارتِك التي تتاخِمُ بها المعنَى تريدُ الإحاطةَ.
وقالَ لِيْ: الإحاطةُ بالمعنَى أجدرُ بالكلامِ الذي يقدحُه الحسابُ والفعلُ معاً.
وقالَ لِيْ: عبارةُ الحاسبِ العاملِ، في مُقامِ وقتِها، نُبُوَّةٌ.
وقالَ لِيْ: هذا الذي يشرحُكَ الآنَ يخبرُ عن عاقبتِك فيما يلِي من وقتٍ.
وقالَ لِيْ: كلامُ ما يلي من وقتٍ يلزمُك في وقتِك الذي أنتَ فيه.
وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي تمشي به إلى خلقي يسبقُكَ إليّ.[14]
وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يَسبقكُ إليَّ يُنْبِئُكَ عنّي بلغةٍ لم تصحَّ لكِ.
وقالَ لِيْ: لغتكَ لغوٌ حتّى تلغُو بي وتحدّثَ الخلقَ بالعباراتِ الفخمةِ التي تصنعُها

[14] حضرتْ شيخي رفيقَ العلومِ وعاصرَ الكرومِ ساسي بن نايلْ، مُعلّمَ الطريقةِ وآدابِها العليّة، في ديارِ الزاويةِ البستانيّة، الوفاةُ. فقالَ: احملوني إلى السوقِ. فأتينا به إلى سوقِ الذهبِ والفضةِ فاجتمعَ عليه بعضُ التجارِ والمشترينَ يطلبون بركتَه. فتكلّمَ فيهم بصوتٍ ضعيفٍ يحثُّهم علَى العدلِ والإصلاحِ وشِرْكَةِ الناسِ، وينهاهُم عن الاحتكارِ والكنزِ والسلبِ. فلمّا أتمّ العبارةَ قالَ: الآن احملوني إلى مثواي. فلمّا أنزلنَاه إلَى فراشِ المرضِ الذي أخرجناه عنهُ قلتُ: يا شيخي، أنتَ لا تجدُ النفَسَ وتطلبُ أن تُكلّمَ الناسَ؟ قالَ: أردتُ أن أقولَ كلاماً يسبقني إلى قبري، فأستأنسُ به في وحشةِ الترابِ، ولم أجدْ ألذَّ من كلامِ العدلِ، في سوقِ الذهبِ والفضةِ، أمامَ الخلقِ.
قلتُ: فكنتُ كلما زرتُ قبرَه بعدها آنستُه بالحديثِ عن أحوالِ الناسِ، وترتيبِ الأسواقِ، ومجاهداتِ الصابرينَ الذين يدفعونَ الظلمَ ويسنُدون ظَهْرَ الحقوقِ الواجبةِ للخلقِ.

يحسبونَك تقرأُ ما عندَهم.

وقالَ ليْ: لُغَتُكَ هوانٌ حتّى تتكلّمَ باسمِي وأنتَ في الأسواقِ ثم تقولُ هذهِ وسوسةٌ فلا تعتبرُوها.

وقالَ ليْ: لغةُ الخلقِ ألفاظٌ مُشكِلةٌ، ولغتك لفظٌ لا يُشْكِلُ عن معناهُ إلا وهماً من عندِ الذي يقرأ.

وقالَ ليْ: الذي يقرأُ يُحرِّكُ قلبَه ليَعْجَلَ بكَ، يحسَبُ إنّ عليهِ جمعَك وقرآنَك. وأنتَ محفوظٌ في اللوحِ، رسمُك وترتيبُك، قبلَ أن تتنزَّلَ في الغيرانِ أو يُحَمَّ بكَ النبيُّونَ.

وقالَ ليْ: الذي يقرأُ يناوشكَ يقولُ ما بالُ الكلامِ يرتبكُ، والمعاني تتناقضُ، والتأويلُ لا يمشي إلى العبارةِ نُكوصاً.[15]

وقالَ ليْ: الذي يقرأُ يناهضكَ، ثم يهيمنُ علَى كلامِك، ثمّ يقولُ وقالَ ليْ.

وقالَ ليْ: الذي يقرأُ يخشَى أثرَ القراءةِ يريدُ الطمأنينةَ، وأنتَ كلامُك تتبدّدُ له

[15] قالَ أستاذتِي فاطمةُ بنتُ حالِ الودِّ: هذا الغدامسيُّ يضعُ عِمامتَهُ، أي يخلعُها، ويستلُّ سيفَ المبارزةِ من غِمْدِ الحشمةِ، ويتقدّمُ حاسراً يذودُ عن حياضِ عبارتِه إزاءَ فعلِ القراءةِ الذي يفتضُّها ويخدشُ بَكارتَها. وهو فعلٌ من جهتِنا نحنُ حينَ نمسكُ لوحَ كتابِه ونذهبُ فيهِ. قالَتْ: فالرجلُ ابتدأنا بالمناوأةِ، وبادرَنا بالمنازلةِ، ولم يَرْعَ ذمّةَ القراءةِ. فعليكُم بهِ وبعبارتِه، واعملوا فيها نقداً ونقضاً، حتى تصلوا بها إلى مُبتغاكُم أو تصلَ هي بكم إلى مُبتغاها. قالَتْ: ولا تدرون أيَّ مبتغًى خيرٌ لكم. قلتُ: هذا إعلانُ حربٍ! ولعلَّ الغدامسيَّ يحثُّ من يقرأُه حتّى لا يسكنَ إليهِ أو يخضعَ لسطوتِه، أو هو يريدُ لعبارتِه أن تخرجَ عنهُ فتصيرَ عبارةَ القارئِ وهذا لا يصيرُ إلا بالعُنوةِ الحاصلةِ عنِ المنازلةِ.

النُّظُمُ الحاكمةُ والأنساقُ القاهرةُ والسياقاتُ ذواتِ البأسِ العتيدِ.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ يَوَدُّ لو يَمحي من كلامِك ثمّ يَرْقُمُ من أمنياتِه في محلِّ الكتابِ.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ يصيرُ الكتابُ شِركةً بينك وبينَه وأنتَ تُكلّمني تحلفُ أن الخطَّ خطُّك والعبارةَ انبثقتْ من قلبِك.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ يسلبُك.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ يحوزُ عنكَ الكلامَ الذي أنشأتَهُ أولَ مرّةٍ ثم يقولُ الكلامُ مَشَاعٌ.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ لا يعرفُ هل يتقدّمُ أمامَك أم يتأخّرُ عنكَ كي يحوزُ الغنائمَ ويَقْسِمَ الأسهمَ ويَحكِر الفتوحاتِ.
وقالَ لِيْ: الذي يقرأُ لغةٌ تتجاوزُك، وفضاءٌ يَعْبُرُكَ، وجهةٌ تتّصلُ بما وراءَك.
وقالَ لِيْ: لغتُكَ فضاءٌ لفعلِكَ لا تنبغي لهُ الجهةُ إلا اضطراراً.
وقالَ لِيْ: الجهةُ تَغُلُّكَ حتى تصيرَ بعضاً منها وأنتَ لا تنبغي لكَ هذهِ الصّيرورةُ.
وقالَ لِيْ: الجهةُ وشيجةٌ ولغتُكَ لا وشيجةَ لها إلا معناهَا الذي ادَّعَيْتَهُ لها.
وقالَ لِيْ: الجهةُ صلةُ رحمٍ لا ينبغي لها أن تنعقدَ للغتِك إلا من بابِ الكِسْوَةِ.[16]
وقالَ لِيْ: الجهةُ حبسٌ لمعناكَ وغِلٌّ للغتِكَ وقيدٌ للعبارةِ التي تريدُ أن تبوحَ.

---

[16] قلتُ: الجهةُ عندَ أصحابِنا الحيّزُ، وهي في موضعِ الفكرِ فخٌّ عتيدٌ، وفي موضعِ القلبِ رهنٌ عن معناهُ، وفي موضع البدنِ حبسٌ عن الهجرةِ والسياحة التي تحدثُ بها البركةُ والعلومُ. قلتُ: والجهةُ، كالبلدِ والأهلِ والعهدِ من السنينِ، لازمةٌ لابنِ آدمَ في مُبتدَئ أمرِهِ فإذا اتّسعَ قلبُهُ اتسعتْ جهتُهُ حتى لا يصحَّ لها أن تُعدَّ في الجهاتِ. وربما صارَ العالمُ كلُّهُ جهةً واحدةً لقلبِ رجلٍ واحدٍ أو امرأةٍ واحدةٍ، فذاكَ هو الخليفةُ.

وقالَ ليْ: الجهةُ اضطرارٌ.

وقالَ ليْ: الجهةُ تأسيسٌ لسياقِك الذي لا تركضُ الأرضَ إلا ابتداراً منه.[17]

وقالَ ليْ: الجهةُ لونُك ورائحتُك ومذاقُ جلدِك فإن حاولتَ الخروجَ عنها انفصلتَ عن لونِك ورائحتِك ومذاقِ جلدِك.

وقالَ ليْ: الجهةُ مطيّةٌ في الطريقِ فإن قعدتَ عليها ولم تحرّكها صارتْ مربطاً عنهُ.

وقالَ ليْ: اللغةُ التي تصدرُ عن سياقِك تعملُ لصالحِك في حيّزِ هذا السّياقِ.

وقالَ ليْ: اللغةُ التي لا سياقَ لها شغلٌ عن المعنى وأنتَ انشغالٌ بهِ لا يفتأُ.

وقالَ ليْ: لغتُكَ فضُّ المعاني بألفاظِ الهتكِ، فلا تصحُّ لها البَكارَةُ، ولا تجبُ.

وقالَ ليْ: لغتكَ شِرْكٌ وشَرَكٌ وإشراكٌ، ولا أدلُّ علَى هذا المعنَى من عبارتهِ.

وقالَ ليْ: في الكلامِ إغواءٌ لا ينعقدُ بالمعنَى، والإغواءُ الذي لا ينعقدُ بالمعاني صَبوةٌ.

---

[17] قالَ الإمامُ أحمدُ: لما ضربتُ في الأرضِ، وأنا تلميذٌ، نزلتُ عندَ أقوامٍ هم في حالٍ شديدٍ من البُعدِ عن بلدِنا واختلافِ الوجهِ واللسانِ والاجتماعِ. فرأيتُ من أحوالِهم ما لم يرونَهُ من أنفسِهم بحُكمِ العادةِ، وتعلّمتُ شيئاً من عبارتِهم التي ظهرتْ لي غرابتُها، وتطارحتُ مع بعضِ فكرِهم وترتيبِهم للأمورِ العقليّةِ والفعليّةِ. فقالَ لي رجلٌ منهُم يدرسُ الفلسفةَ: جئتَ من جهةٍ متعيّنةٍ في حيّزِ الوقتِ والمكانِ فدخلتَ علينا مُثقلاً بفكرِك وعقائدِك وفنونِك، فبرزتْ إليكَ جهتُنا بسطوةِ الاجتماعِ الذي نحنُ فيهِ، ونَصْلِ الوطنِ الذي لنا وليس لكَ، فأسفرَ انعقادُ سياقِنا بسياقِك عن معانٍ جديدةٍ وفكرٍ لم نحسبْ حسابَه وعباراتٍ ما عرفْنا لفظَها من قبلُ. فنحنُ جميعاً توسّلنا بمحبسِنا في الجهةِ إلى أفقٍ من آفاقِ الإنسانيّةِ، ولو كنا تلاقينا بلا جهاتٍ مخصوصةٍ لما كان لنا أن نأتي بفكرٍ أو معنًى جديدٍ لأنَّ الغُفلَ الذي يقابلُ الغُفلَ لا ينقدحُ.

وقالَ ليْ: الكلامُ صَبْوَةٌ.[18]

وقالَ ليْ: الكلامُ نبوةٌ.[19]

وقالَ ليْ: الذين لا يتكلمونَ تكلّموا.

وقالَ ليْ: الضدُّ على الكلامِ كلامٌ.

وقالَ ليْ: الضدُّ علَى الكلامِ يلزمُهُ أن يُفصِحَ عن ما سكتَ عنهُ.

وقالَ ليْ: الضدُّ على الكلامِ مُلتبِسٌ أكثرَ منَ الكلامِ.

وقالَ ليْ: الضدُّ على الكلامِ لا نَحْوَ لهُ إلا ما انتحاهُ لنفسِهِ، ولا إعرابَ إلا ما أعربَ عنهُ، فمِن هذا يلتبسُ عليكَ.

وقالَ ليْ: الضدُّ على الكلامِ موضوعٌ في الكلامِ.

وقال لي: الذي يناهضُ بالكلامِ ذهبَ بالكلامِ إلى منتهاهُ.

وقالَ ليْ: الذي يناهضُ بالكلامِ ألزمَ الكلامَ ما يدّعِيه.

وقالَ ليْ: الذي يناهضُ بالكلامِ ذخيرتُه الظاهرةُ بين اللّهاةِ واللسانِ غيرَ أنّ العتادَ المعتبرَ يَضِجُّ في محلِّ القلبِ.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ تابعةٌ لِلا.

---

[18] قال شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ: لي ثلاثونَ سنةً أكلّمُ نفسي والناسُ يظنونني أكلّمُهم، فلما جاءَ وقتُ أن أكلّمهم قالوا دَوَشْتَنا.

[19] قلتُ: إما أن الغدامسيَّ أرادَها بفتحِ النونِ فتصيرُ موافقةً للعبارةِ التي تقدّمتْ عليها، أو هو أملاها علَى آحمدو بضمِّها فهي مُشاكِلةٌ للغارِ وللكتابِ من بابِ المناكفةِ. قلتُ: وكلاهما يجوزُ، غيرَ أنَّ الفتحَ أليقُ إيقاعاً والضمَّ أليقُ معنًى بالحديقةِ جميعِها.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ لا تقدرُ عليها لغاتُ الداخلين، ولا تعرفُها ألسِنتُهم، ولا تشهدُ بها قلوبهم.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ ألفُ ألفِ محمومٍ يصدعُون بالأمرِ قبلَ أن يصدرَ عني الأمرُ.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ من كتابي الذي نزلَ مرّةً واحدةً وأنتَ يشغلُك ما تَفَرَّقَ من هذا الكتابِ.[20]

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ خارجةٌ عن شرائعي التي تجدونَها عندَكم إلى شريعتي التي لا تجدونَها إلا عندَ المناهضينَ.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ تهتكُ بالعلمِ، وتفضُّ بالفهمِ، وتفتقُ بالترتيبِ الذي يحارُ له المُلبسُونَ.

وقالَ ليْ: ألفاظُ المناهضةِ كلامٌ غالبٌ.

وقالَ ليْ: الكلامُ الغالبُ كلامُ المغلوبينَ في مُقامِ الفهمِ.

---

[20] كتبَ إليَّ تلميذٌ: اشتدّ الوقتُ علينا وصارَ الليلُ حالكاً وضاعتِ البلدُ في غوطِ الباطلِ، فكنا نُمْعِنُ في أغوارِ الفكرِ ومجاهلِ الغيبِ نطلبُ العددَ والمددَ، فنصيبُ شيئاً ونخيبُ شيئاً كثيراً. فكانَ في نهارٍ نزلتْ فيه الفرقاطةُ الطليانيةُ في مرسَى البلدِ، فاهتزَّ شَيخي المهمومُ بالخلقِ، المسكونُ بالعالمِ الحارثُ بن الصادقِ المتوقِّدِ، شيخُ الرؤَى والبشائر، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر، وقالَ: كنتُ حاضراً يوم أنزلنا راياتِهم من على الصواري قبل أربعينَ عاماً، فكيفَ أحضرُها وهي ترتقي هذا النهارَ. فبكَى ساعةً ثم قالَ: ما أفضلُ كلامِ الناسِ في عامِّيَّتِهم مما يقاربُ الكتابَ؟ قلتُ: أهل وادي النيلِ يقولون اللّي لوه أوّل بُكرة هـ يبانْ لُه آخر.

قالَ: نعمْ، هذا يقوّي القلوبَ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الغالبُ لا يلزمُه الزواقُ بلِ الانعقادُ بسياقِك ثم الفهمُ الواجبُ.[21]

وقالَ لِيْ: الكلامُ الغالبُ كلامي ادَّعَيْتُهُ أمِ ادَّعاني.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الغالبُ دُوْلَةٌ بينَ المغلوبيَن منكُم.

وقالَ لِيْ: إذا غَلَبَت عبارتُك لزمَ لها عملُ اليدينِ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يغلبُ من جُوَّانِيَّتِهِ مَظَنَّةُ باطلٍ، والكلامُ الذي يغلبُ مِن بَرَّانِيَّتِهِ مَحْمِلُ حقٌّ.

وقالَ لِيْ: جُوَّانِيَّةُ الكلامِ وَهْمُهُ وتَشْبِيهُهُ وغوايَتُهُ، وبَرَّانِيَّةُ الكلامِ سياقُه وعاقِبَتُهُ ورابطتُهُ بالعالَمِ.

وقالَ لِيْ: برانيّةُ الكلامِ رباطٌ لا ينجبرُ كَسْرُ الحَكْيِ إلا بهِ.

وقالَ لِيْ: جَبْرُ الحَكْيِ قد يصيرُ بالهذرِ والوسوسةِ والهذيانِ.

---

[21] كانَ تلميذٌ معنا يُزَوِّقُ الكلامَ حتَّى يأخذَ زينةً لا نقدرُ أن نأتي بمثلِها، فيُعْجِبُهُ نُصْرَتُهُ للحقّ بكلامِهِ هذا ويقولُ: لو جَلسنا نتكلَّمُ للحقِّ لما قامَ الباطلُ أبداً. فزَوّقَ لهُ الإمامُ الدريّ كلاماً فخماً من الباطلِ وجاءَهُ بهِ وهو يلهُو في مجلسِنا. فلمّا ألقاهُ عليهِ ارتبكَ التلميذُ وفَزَعَ إلى حبسِ الكلامِ يريدُ مدداً. فهتفَ بهِ الإمامُ: إن فزعتَ فزعنا، وإن طلبتَ المددَ جئناكَ بمثلِه عدداً. وإنّما الحقُّ يكونُ خارجَ الكلامِ، فإنْ دخلَ في مُقامات اللغوِ والحديثِ جازَ لهُ أن يبينَ أو لا يبينَ. ووالله إنَّ لأهلِ الباطلِ زُوَاقاً من شعرٍ وفلسفةٍ وتمثيلٍ لولا لطفُ اللهِ وعَمَلُ عقولِنا وأيدينا لوقعنَا في حبسهِ لا نقدرُ أن نَخْرُجَ عنهُ إلى حقٍّ أبداً. قالَ التلميذُ: فلا أعودُ أتكلّمُ للحقّ؟ قال الإمامُ: بَلَه، تتكلّمُ، ولكنْ لا تجعلِ الحقَّ في زُواقِ الكلامِ بل في صدقِ العملِ والعاقبةِ والفكرِ الثاقبِ، وإنما الكلامُ حيلةٌ وفخٌّ عتيدٌ.

وقالَ ليْ: بعضُ الهذرِ أشدُّ وقعاً من بعضِ الكتابِ.[22]

وقالَ ليْ: الهذرُ الذي يطأُ عتبةَ الحقِ، ويَتّكِئُ على شُبّاك العلومِ، ويُحِيلُ إلى معاني العملِ، أجدرُ بكَ.

وقالَ ليْ: الهذرُ الذي يتلعثمُ على شفتيكَ تخريفٌ مضاعفٌ.

وقالَ ليْ: الهذرُ الذي يُحَدّثُ عنكَ يَستأنفُ الحديثَ عنّي.

وقالَ ليْ: الهذرُ يستأنفُ عليّ.

وقالَ ليْ: الهذرُ مآلٌ للكلامِ الذي لا يجوزُ، والكلامِ الذي يسبقُ مُقامَه، والكلامِ الذي يصدعُ بالنُّبُوّاتِ.

وقالَ ليْ: الهذرُ مكيدةٌ للقولِ والتفافةٌ حولَ جبلِ العزّةِ.

وقالَ ليْ: بعضُ الكتابِ هذرٌ معتبرٌ.

وقالَ ليْ: الهذرُ الذي تعتبرُه قد يسلبُك وأنتَ في الطريقِ تنشدُ باقي الكلامِ.

وقالَ ليْ: باقي الكلامِ يريدُ أن ينتظمَ في الآياتِ ويدخلَ في الأحزابِ ويصيرَ بين الدفّتينِ.

وقالَ ليْ: باقي الكلامِ يناوئُ الهذرَ علَى المتنِ الذي يصيرُ الكلامَ كلّهُ.

---

[22] نزلتْ بمدرستِنا أستاذةٌ برانيةٌ عن الملةِ تعرفُ لسانَنا تعلّمتْهُ في المعاهدِ المدنيّةِ عندَ قومِها. فأرادتِ البحثَ والدراسةَ في مناهجِ أقوامِنا وخطوطِهم ومساردِهم. فجعلني الإمامُ أحمدُ دليلَها مدّةَ إقامتِها عندنا. فكنتُ أقرأ لها من الكتابِ والأخبارِ المعتبرة فتقولُ: ما شيء. فإذا هي يوماً تجد عندَ واحدٍ من العاملينَ ورقةً مكتوباً عليها: الناسُ شركاءٌ في ثلاثٍ: الماءُ والكلأُ والنارُ. قالتِ الأستاذةُ: هذا استرسالٌ نافعٌ، فدعْ عنكَ ما تقرأُ عليّ فإنّهُ شِقاقٌ، وزدني من هذا فنجتمعَ للمصلحةِ التي فيها خيرُ الخلقِ. فَزِدْتُها واجتمَعنا.

وقالَ لِيْ: بعضُ الكتابِ مخبوءٌ في هذيانِ الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: هذيانُ الأشياءِ موسيقَى الكونِ المخبوءةُ في المكانِ.[23]

وقالَ لِيْ: هذيانُ الأشياءِ كُتبي التي تَنَزّلُ علَى العالِمِ فيصيرُ نُبُوّةً واحدةً.

وقالَ لِيْ: النبوّةُ الواحدةُ أشدُّ غمراً من نُبُوّةِ الواحدِ.

وقالَ لِيْ: كلامُ النبوّةِ الواحدةِ كلامي وأنا في مقامِ الربانيةِ، وكلامُ نبوّةِ الواحدِ كلامُه وهو في حالِ الإلهاميّةِ.

وقالَ لِيْ: نبوّةُ الواحدِ مُشابَهَةٌ.

وقالَ لِيْ: الذين يستعجلونَ النبوّاتِ يلزمُهم أن يطلَعوا الجبالَ، ويدخلُوا الغيرانَ، وينزِلوا مَحمومين يطلبونَ المدَدَ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يَلي إقرأْ تعجّلتَه لنفسِك.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يلي إقرأْ سطوٌ على كلامِك، ثمّ سطوةٌ.

---

[23] جاء تلميذٌ إلى أستاذَتي العَارفةِ باللِه فاتنةَ بنتِ الواجدةِ باللهِ المهديّةِ، عارفةِ فزّان، وفتنةِ الأبدان، والقائمةِ بالبرهان، برابطٍ شبكيّ لتسجيلٍ قالَ أهلُ علمِ الفضاءِ أنه صوتُ الكونِ في الفراغِ المجرّيّ الرهيبِ. وهو صدىً بعيدٌ للرياحِ الكونيّةِ، والأشعاعاتِ النجميةِّ، وانبثاقاتِ الكواكبِ والأجرامِ الكُبرى. فلما أصغَينا للصوتِ، وهو يكادُ يكونُ سكوناً مطبقاً، وسلاماً تاماً، أصابَتنا رِعدةٌ سرتْ في قلوبِنا قبل أجسادِنا. فقالتِ الأستاذةُ: نحن هنا في ضجّةِ العالِمِ، وصخبِ العملِ، وصيحةِ الجدلِ والمدافعةِ، بينَما الكونُ، وهو أعظمُ وأجَلُّ ولا يقدرُ عليه الخيالُ من تناهيهِ، لا يكادُ يكونُ لهُ صوتٌ أو صدىً. فهو موسيقَاهُ مخبوءةٌ في إيقاعِ الصمتِ، ومقاماتِ السكوتِ، ونغمةِ الربانيةِ الساكنةِ. ومن هذا فإنّ من مجاهداتِنا الصّوفيةِ في طريقتِنا أن نخلو إلى الصمتِ زمناً لا نُكَلِّمُ ولا نُكَلَّمُ حتّى نسمعَ في ذواتِنا شدوَ هذا الكونِ الذي يَحْجُبُهُ صخبُ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يلي إقرأْ تتلعثمُ به لأنه يشبهُ كلامي.[24]

---

[24] كنتُ وقتَ السَّحرِ في أشدِّ حالٍ من الشوقِ، وهو حريٌّ بالفُتُوَّةِ التي ضَجّتْ بالحياةِ. فخرجتُ أُرَوِّحُ عن نفْسي، وأطلبُ العزاءَ في العشبِ، والنُوّارِ، وبعضٍ من الديارِ الحسنةِ البناءِ. فبينما أنا أنظرُ إلى شُبّاكٍ جميلٍ، أعجبَني تخطيطُه والزهرُ الغالبُ عليهِ، سمعتُ صوتَ قارئٍ للكتابِ من ورائِه يُرتِّلُه بصوتٍ حسنٍ، غيرَ أنّهُ يتعلثمُ مرّةً ومرّةً. فلمّا أمعنتُ السمعَ بدا لي أنه يرتبكُ لحرفٍ على وجهِ التخصيصِ. فإذا هو الراءُ. قلتُ لعلَّ به لثغةً تمنعُه أن يمشي في تخومِ الرّاءِ، وعجبتُ كيفَ لا يَخْنِسُهُ خَنْساً ويمشي لما يليهِ من الكلامِ الجليلِ. فبعدَ أيامٍ غفوتُ، وقتَ الضُّحَى عندَ البابِ الغفاريّ بمسجدِنا. فلامسَ شغافَ قلبي ذلكَ الصوتُ الحسَنُ المرتبكُ بحرفٍ بعينِه. فظننتُ جازماً أن قلبي اشتاقَ للسّبحانيّةِ فاستعادَ موسيقَى الكتابِ، ولم يَجِدْ ألذَّ من جلالِ اللّوحِ مَشُوباً بارتباكِ الإنسانِ. فانتبهتُ بعدَ حينٍ من سِنَةِ النَّوْمِ، فإذا قارئُ الشّباكِ يُقابلني في جهةِ المحرابِ، وإذا هو فتًى يافعٌ جميلُ الصورةِ حسنُ الهيئةِ. فجئتُه فسلّمتُ عليه، فردّ ردّاً حَيِيّاً، فقلتُ: يا أخي، أنتَ تُجوّدُ الآياتِ علَى نحوٍ لذيذٍ، ثم تَتلعثَمُ عندَ الرّاءِ للثغةٍ لا بُدّ فيكَ، فقارِبْها وامضِ لما بعدَها ولا حرجَ عليكَ. فنظرَ الفتَى إليّ هائماً ثمّ قالَ: لا بُدَّ للعاشقِ من البوحِ وإلا تَفتّتَ قلبُه. قلتُ: بوحُ العاشقينَ كتابٌ كالكتابِ. فظهرتْ علَى الفتَى الطمأنينةُ وقالَ: لا لثغةَ لي. إنما الأمرُ بين ربّي ورُقَيّةَ، كلّما لاحَ لي الحرفُ الذي يَبْتَدِأُهُمَا، وأنا أتلُو، صُعِقتُ من هولِ اللقاءِ، وتزلزلتُ من وقعِ المقاربةِ، وكادَ بدني يتبدّدُ من الشوقِ. وإني أحسَب لو سهوتُ ودخلتُ إلى مقامِ الرّاءِ، لربّما صرتُ في حضرتِه أو حضرتِها، وكلاهُما سواءٌ. وهو شيءٌ لا يستطيعُه القلبُ، ولا يثبتُ له نفسُ الحياةِ الذي يَلزمُني. فمن هذا أرتبكُ وأتلعثمُ ولا أعرفُ كيفَ أقرأُ. قلتُ أنا موسَى: فانظرْ، رعاكَ اللهُ، كيفَ اجتمعَ جلالُ الحقّ وجمالُ الحبيبةِ في قلبِ العاشقِ، فصارَ الجمالُ للحقّ والجلالُ للحبيبةِ، واتّخذَ الحرفُ الذي جمعَ بين اسميهِما هيئةَ الربوبيّةِ الموجبةِ للهيبةِ والتلعثمِ واللذةِ الكاملةِ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يلي إقرأْ ينبغي لك.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يلي إقرأْ مقاربةٌ للتخومِ.

وقالَ لِيْ: الكلامُ الذي يَلي يَليك، من جهةِ أنّهُ يصيرُ وليّاً لكَ.

وقالَ لِيْ: كلُّ عبارةٍ تَليك تنحازُ لكَ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ المنحازةُ تَشْغَلُ حيّزَ المواجهةِ أمامَك ثم تستديرُ وتُكَلِّمُكَ بالمُكابدةِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ المنحازةُ آلَتْ علَى نفسِها أن تنخرطَ بكَ في العالمِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ المنحازةُ ميلٌ إلى جهةِ العالمِ حتّى يستقيمَ الميزانُ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ المنحازةُ ميلٌ والميلُ ضدٌّ على الصراطِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ تقولُك حينَ تقولُها فأنتَ عبارةُ العبارةِ.

وقالَ لِيْ: العبارةُ خروجُ الكلامِ حاسراً عن رحمِ المعنَى فإذا التبسَ بالمجازِ والكنايةِ انطفأَ أو ازدادَ وهَجاً.

وقالَ لِيْ: رحمُ المعنَى يَضِجُّ بالعبارةِ حتّى تنفصلَ عنهُ إلى سياقِ الفعلِ.

وقالَ لِيْ: رحمُ المعنَى من ألقحَهُ نطفةَ الفكرةِ وأسكنَهُ بذرةَ المثالِ الأوّلِ؟

وقالَ لِيْ: الرحمُ تأنيثٌ للبداياتِ التي اقترفتْ كلَّ عبارةٍ من كلامي ثمّ كلامِك.

وقالَ لِيْ: التأنيثُ ينبغي لأوّلِ العبارةِ وأوّلِ المعنَى وأوّلِ الفعلِ.

وقالَ لِيْ: التأنيثُ يجبرُ بخاطرِ العَلَقِ من جهةِ الرحمِ الأولَى.

وقالَ لِيْ: التأنيثُ يُسْكِنُ العلقَ رحمَ الكتابِ الذي فيهِ أكثرُ الكلامِ.

وقالَ لِيْ: التأنيثُ يُلقِحُ المعنى بالعبارةِ، ويُخصِبُ العبارةَ بالمعنَى، ثم هو يَحبلُ باللغةِ العاملةِ التي تكادُ تسدُّ الرمقَ ولا تسدُّه.

وقالَ ليْ: هذا الذي تكتبُ معانٍ صارتْ إلى العباراتِ أم عبارةٌ انبثقَ عنها المعنى؟[25]

وقالَ ليْ: هذا الذي تقولُ كلامٌ مبتدأٌ أم معانٍ اجترحَها الوقتُ في فجرِه الأوّلِ؟

وقالَ ليْ: اِهْذِ واهْذُرْ، والثَغْ وتَمْتِمْ، وارتبكْ وتلعثمْ، فإذا الكتابُ يخرجُ متفرّقاً من بين شفتيكَ، منهكاً على بَرَدِ أسنانِكَ، متعباً فوق لَهَاتِكَ ولسانِكَ، معقوداً بلُعابِكَ، حتّى يكونَ هو كتابَ الإنسانِ.

[25] قلتُ: في اعتقادِنا أن العبارةَ لا ينبثقُ عنها المعنى إلا اتفاقاً لوقوعِ هذا المعنَى في سياقِ الكلامِ. وإنما المعاني يقترفُها تناوشُ العباراتِ ومنازلةُ الكلامِ للكلام، فيبينُ من ذلكَ فكرٌ لم يكنْ ظاهراً وحسبةٌ لم تُسفرْ عن نفسِها. وهذا حالُ الانبثاقِ أي الظهورِ إلى مجالِ النظرِ، أما اجتراحُ المعنَى بالبراءةِ فموضوعٌ جليلٌ لا نعرفُ كيفَ نقولُ فيه. وكانتْ بنتٌ في جوارِنا تقولُ الشعرَ الحارَّ الذي يلهثُ علَى لسانِها يكادُ يقذفُ الحِمَمَ. فوقعتْ في غرامِ ولدٍ جميلٍ فقلتُ للإمامِ: هل أخصبَ الشّعرُ الحبَّ أم كانَ الحبُّ غفلاً عن العبارةِ؟ قالَ: عبارةُ الشعرِ هيّأتْ قلبَ البنتِ لاستقبالِ معنى الحبِّ الذي كانتْ براءَتُه، أي نشأتُه الأولى من العدمِ، في نارِ الحوائيّةِ البِكْرِ. قلتُ: فمَن أوقدَ هذهِ الحوائيةَ؟ قالَ: مَشِيجُها، أي انعقادُها، بالآدميّةِ الذي هو أوّلُ الوقتِ المعروفِ كلّهِ.

فصرتُ أنظرُ للبنتِ فأرَى الحوائيّةَ والآدميّةَ تتوهّجانِ بالمعاني وتُضِيآنِ بالفكرِ وتَضِجّانِ بالعباراتِ التي تحرثُ القلبَ والجسدَ معاً.

وقالَ ليْ: ها هذرَ بكَ الكونُ، وجاءتِ الأخبارُ تُحدّثُ عنكَ، وسَرَتْ في النِّجوعُ عبارتُك، وفي المدائنِ رِقاعُك التي يَأتمرُ بها الأولياءُ، ويصدعُ لها المرسلونَ. كلّما لغوتَ خابتِ النصوصُ، وحين لثغتَ تهافتَ الكتابُ، وأما تلعثمتَ ارتبكَ اللوحُ المحفوظُ. فهاتِ رذاذِ شفتيكَ أُرَطّبُ به جرحَ المكلومينَ، وأُداوي عِلَلَ المحمومينَ، وأُحْيِي نُبُوَّةَ هذي الأرضِ. ثمّ تَكبّدْ عناءَ الكلامِ حتى تُصيبَ كَبِدَه، وقلّبْ عبارةَ المعنى حتى تَشْغُفَ قلبَها، وحَدّثْ عني، بلا سندٍ ولا صِحاحٍ، وقَسِّم كِسَرَ الكلامِ على الفقراءِ الذين حِيْلَ بينهم وبينَ اللفظِ، واعْطِهم عجينَ الحكْي، يَطحنون بأيدِيهم حبوبَ الثورةِ، ويَنقعون في عروقِهم نِخالةَ الغضبِ. واصغِ إلى صوتِ الأشياءِ، عَلّكَ تفهمُ، وأَعِرِ الكونَ وعيَك في الصباحِ وفي الليلِ، لأنّ كلامَ الكائناتِ مسرّةٌ.

11. موسمُ الآفاتِ

(وهو موتُ الخليفةِ)

ومن أحوالِه العطبُ والوهنُ والانقطاعُ والعزاءُ والجثمانُ والاجتثاثُ والابتذالُ والجلالُ والمضغةُ والمعادُ والجسدُ والمجاورةُ وحبسُ الوقتِ وعبيرُ الأشياءِ

وفيهِ تبدّدَ قلبي منَ الحُزنِ، وناشتْ بدَني الهمومُ، وتداعتْ عليهِ العِلَلُ. وكنتُ قبلَهُ في خيرِ حالٍ وأطيبِ مآلٍ، وقد أخذْتُ زرعي بالعنايةِ، وداري بالزينةِ، وبدَني بالطيبِ والماءِ. فردائِي منْ طمأنينةٍ، ونعلايَ من فرحٍ يَثِبُ بي وثباً. وكنتُ أرقبُ المواسمَ تدخلُ عليَّ وتخرجُ عنّي، فآخذُ منها عُلوماً وأعملُ فيها بقدرِ جهدِي. فلمّا كانَ صبحُ الآفةِ طلعتُ إلى بُستاني فقابلَني هواءٌ ثقيلٌ لا عهدَ لي بهِ، فكانَ هذا أوّلَ الفسادِ الكاملِ ومبدأَ العطبِ الشاملِ. فلمّا أردتُ زَرعِي وجدتُهُ صائفاً قصِيفاً، ومرعايَ غثاءً أحوَى. وقد عصَى الدمُ أن يدورَ في العُروقِ، والنَسْغُ أنْ يَصعدَ في السُّوقِ، وتكدَّرَ نَفَسُ الكائناتِ، وثَقُلَتْ أرواحُها حتّى اعتلَّتْ، وناشَها العطبُ، وأَقعدَتْهَا العلّةُ. وشُفْتُ الوَهَنَ بعيني اللّي سيَاكُلُها الدودُ، وشممتُهُ بخشمِي اللي سيُعفِّرُهُ الترابُ. وكانَ لهُ سيماهُ التفسّخِ، وحُضورُ التردّي، وقد اختلَى بالحياةِ في كلِّ شيءٍ فأَخلاها، وبالألوانِ فأغوَاها، وبالضّياءاتِ البهيّةِ فأطفاهَا. وخَرِبَ الكلامُ وخرجَ من الأفواهِ معانيَ سوءٍ، وسكنَ الكامنُ في الشّرانقِ فلم يَصِرْ حياةً، وخمدَ في أصلِهِ. وركدَ ماءُ المحبّةِ فعَطَنَ، وسارَ خبثُ البغضِ فأفاضَ. والتوتِ السوقُ عن عجزٍ وانتكسَ الجذعُ ويَبُسَ الضّرْعُ، وتَقَرّحَ بدنُ الأرضِ. فشَهدتُ القيحَ يسيلُ واستقرَّ الذبابُ علَى الجروحِ، فهذا داءٌ أخَذَ العقلَ والبَقْلَ، واستولَى علَى البَدَنِ والبُدُنِ، واستمسَكَ بالعُروقِ واستوثقَ في النسغِ والأمشاجِ. فهانتِ الدُّنيَا واللهِ بعدَ عزّةٍ، وأَظلمتْ بعدَ إشراقٍ، وانسلخَ عنها الخيرُ بِرُمَّتِهِ وركبَهَا الشرُّ بجرثُومَتِهِ. ورأيتُني وأنا أُسايرُ آفتي في الطرقاتِ، وعينُها في عيني، وقد أخذَني الغُلْبُ، وكانَ النبتُ ذابلاً والثمرُ خصيماً والقلبُ بلا حولٍ ولا قوّةٍ. فلمّا تمّ وقتُ الآفةِ الفاجعةِ سقطَ بدَني وانهدَّ حيْلي، فإذا أنا

علَى فراشِ العلّةِ الكاملةِ، والعجزِ الشاملِ، وإذا هُوَ حينٌ من الدّهرِ غُفْلٌ عنّي، وإذا ذكرِي خاملٌ لا شأنَ لهُ، وإذا العلومُ ليسَ فيها من أمري شيءٌ. فألقيتُ ألواحي وأخذتُ برؤوسِ المعارفِ أجرُّها إليَّ جرّاً، فإذا هيَ باطلٌ كلُّها. فذهبتُ عنها إلى أمانيَّ كلّما تمنيتُ أُلْقِيَ في أمنيَتي، حتى نُسِخَ ثابتُها وتَشابَهَ مُحكَمُها. فلما أردتُ أن أصدعَ بالأمرِ لم أفقَهْ عنهُ، ولم أقدرْ أنْ أُكلّمَ الخلقَ. فخرجتُ لا أنسابَ بيني وبينَهُم، رحمٌ مقطوعةٌ وأخرى موضُوعةٌ، ومساكنُ قائمةٌ وأخرَى حَصيدةٌ. فلمّا أُحيطَ بِثَمري أُحيطَ بي، فنفرتُ ثقيلاً أريدُ آخرَ الزّرعِ ويُريدُني أوّلُهُ. فلما جُسْتُ خلالَ الدّيارِ الآفلةِ، والحصصِ المُجدبةِ، والمسَاقي المُهدّمَةِ، عرفتُ أنّ أُخرايَ التي أرى كأُولايَ التي رأيتُ. فهَمَّني ألّا يأكلَ ضيفي وأن أجوعَ في جنَّتي وأن يعطشَ الطيرُ عندِي. فغرستُ يدي في وجهِ التُّرابِ أريدُ صُلْبَهُ وتَرائِبَهُ، وبدَني عِلّةٌ كُلّهُ. فلمّا فعلتُ اتّصلتْ آفةُ بدَني بآفةِ التّرابِ، فاكتملَ مدارُ الفسادِ وصارَ عتيداً في الكونِ. فَبينما أنا في هذا الخرابِ الكَوني جاءَني صوتُه من لَدُنِّ النُّقصانِ العَظيمِ فقالَ لِيْ:

الآفاتُ منازلةٌ ضدَّك وأنتَ حاسرٌ تريدُ أن تحرثَ البساتينَ،

وتقيمَ المعاملَ، وتبيعَ وتشتري في الدّكاكين.

وقالَ لِيْ: الآفاتُ عطبُ الأشياءِ لوقوعِها في حبسِ الوقتِ، فلو خرجتْ عن الوقتِ لم يَنُشْها العطبُ.

وقالَ لِيْ: عطبُ الوقتِ يحيطُ بما أحاطَ به الوقتُ – كلَّ بدنِك وبعضَ قلبِك.

وقالَ لِيْ: في قلبِك مضغةٌ لا يحبسُها الوقتُ لأنها متعلّقةٌ بي.

وقالَ لِيْ: الذي يتعلّقُ بي سديمُ المعنَى، وبراءةُ الفكرةِ، وطينُ الاسمِ الأوّلِ.

وقالَ لِيْ: مضغةُ القلبِ أثرُ السّبحانيّةِ التي توسّلتْ إليكَ بالأسماءِ، في سديمِ الإنسانيّةِ الباكرةِ.

وقالَ لِيْ: الآفاتُ تنوشُ سياقَ المضغةِ، جسدَك وكثيراً من أحوالِك، فتصفُو المضغةُ وتعودُ إلى مبدئِها الذي هو في أتونِ التكوينِ.[1]

وقالَ لِيْ: المعادُ وجعٌ عظيمٌ يكادُ يمحُو اسمَك من صفحةِ الكونِ، ويتفتّتُ له معناكَ الذي هو جوهرُك الفردُ.

وقالَ لِيْ: المعادُ عزاءٌ خائبٌ، وسَلوًى لا تَسُدُّ، ورحمةٌ لا تبينُ للقلبِ الذي عكفَ

---

[1] ظل مَولاي تاجُ السرّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ، مولَى المعارفِ والحقائقِ في صحراءِ الطوارقِ، أياماً وهو مأخوذٌ عن الدرسِ واجتماعِ الشيوخِ والتلاميذِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هو علَى سطوحِ مسجدِنا هذا، فاذهبْ إليهِ ببعضِ الزُّمّيتَةِ والعسلِ واللبنِ، واجلسْ إليهِ هذهِ الساعةَ من الليلِ لعلّهُ تعوزُه إليكَ حاجةٌ من الحاجاتِ. فلمّا أتيتُ الأستاذَ وجدتُه قد نصبَ منظاراً فلكياً وربطَهُ بالحاسوبِ فيُحَرِّكُهُ حركةً مُرَكّبَةً ببرنامجٍ رقميٍّ دقيقٍ. فسلّمتُ عليهِ وسألتُه عن حالِه فقالَ: من أيامٍ أنظرُ إلى مُسْتَعِرٍ أعظمَ قد انفجرَ وأضاءَ المجرّةَ علَى بُعدِ 100 ألفِ سنةٍ ضوئيّةٍ ويزيدُ، وهو نجمٌ قد نفدَ وقودُه الهيدروجينيُّ، فتغلّبتْ قوَى الجاذبيّةِ فيهِ علَى قوَى التشتّتِ، فانهارَ علَى نفسِه وصارتْ كتلتُه عظيمةً. وقد يصيرُ ثقباً أسودَ يلتهمُ ما حولَهُ، أو نجماً نيوترونياً، أو قزماً أبيضَ. قلتُ: فكلُّ هذا من عِلّةِ النفادِ، نفادِ الوقودِ؟ قالَ: نعمْ، غيرَ أن حياةً تخرجُ من هذا العطبِ الكبيرِ، فتنشأُ طاقةٌ فخمةٌ في هيئةٍ جديدةٍ، وينتشرُ في المجرّةِ غبارُ النجمِ المتبدَّدِ الذي هو أصلُ المادّةِ كلّها ومنهُ تخلّقتْ أجسادُنا وقلوبُنا. فنحنُ، على التحقيقِ، غبارُ النجومِ وأثرُها المجرّيّ. ثم اتّكأَ الأستاذُ وقالَ: هاتِ الزّمّيتةَ والعسلَ واللبنَ فإنّ هذا الكلامَ عن العللِ والآفاتِ والحياةِ يُحتاجُ معه إلى سدِّ الرّمقِ، وبلّ الرّيقِ، وتطييبِ الخاطرِ.

علَى العالَمِ.[2]

وقالَ لِيْ: الذين يرجونَ المعادَ يفزعونَ من الوجعِ الذي فيه العالَمُ إلى الوجعِ الذي يصيرُ إليه.

وقالَ لِيْ: من يُعزّيكَ وأنتَ صاحبُ الجسدِ المكفّنِ، واللحدِ المسوَّى، والعملِ الذي لم يَتِمْ؟

وقالَ لِيْ: أنا صاحبُ العزاءِ فيكَ، وعاقدُ رباطِ الحزنِ عليكَ، وسيّدُ المراثي التي تبكيكَ.

وقالَ لِيْ: أنتَ وجعُ العالمِ الذي لا يعرفُ كيفَ يتركُك تؤولُ إليّ.

وقالَ لِيْ: وجعُ العالمِ متّصلٌ بالأذَى الذي يصيبُ الأشياءَ من جِهَتَيْ الآفاتِ والمظالمِ.

وقالَ لِيْ: وجعُ الأشياءِ التي نفختُ فيها منّي متعلّقٌ بوجعِ الأشياءِ التي تركتُها

---

[2] قالَ مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ: أكثرُ العارفينَ منخرطونَ في العالمِ فهم يتوجّعونَ حينَ الموتِ لخاطرِ الأزهارِ. قلتُ: يا سبحانَ اللهِ، وما شأنُ النُوّارِ يتوجّعونَ لهُ وهمْ في حالِ الاحتضارِ وانقطاعِ النفسِ؟ قالَ الحضرميُّ: هم يتحسّرونَ أن تطلعَ زهرةٌ بعدَهم فلا يشمُّونَ عبيرَها، أو تنبثقَ بُرْعُمَةٌ أوّلَ الربيعِ فلا يشهدونَ ألوانَها، أو تطلبَ أخرَى السّقايةَ بالماءِ فلا يُمكِنُ لهم أن يَفزعوا إليها بداعي الموتِ الذي أحاطَ بهم. قلتُ: فالزهرةُ، يا مولايَ، كنايةٌ؟ قالَ: نعمٌ، عنِ العالمِ الذي يحبُّونَهُ ويَجِدونَ لذّتَهُ، ثمّ يريدون لو يقومونَ عليهِ بالرعايةِ والحفظِ حتى لا يكونَ به حزنٌ أو هيئةٌ من هيئاتِ الوحشةِ والغيابِ. قلتُ أنا موسَى: فصرتُ كلّما رأيتُ زهرةً كلّمتُها، تشبيهاً، أنها لذّةُ العارفينَ ووجعُهم في حضرةٍ واحدةٍ. وأحسبُ أن هذا يُعجِبُ الزهرةَ والعارفينَ معاً، ويجدونَ فيهِ أُنساً ورحمةً بالغةً.

علَى حالِ الغفلةِ الأولَى.

وقالَ لِيْ: وجعُ الإنسانِ متعلّقٌ بحضرتِه في العالمِ، وإلا لا يكونُ هناك وجعٌ.

وقالَ لِيْ: وجعُ الإنسانِ حاصلُ الحزنِ الذي يشملُ العالمَ ويحيطُ السدرةَ والعرشَ.

وقالَ لِيْ: حاصلُ الحزنِ يصيرُ لزوماً عن الإشكالِ الكونيِّ الذي أنتَ فيه.

وقالَ لِيْ: وجعُ العالمِ مقامٌ من مقاماتِ العملِ.

وقالَ لِيْ: وجعُ العالمِ حثٌّ لكَ علَى المنازلةِ وأنتَ تحسَبُ أنه استدعاءٌ للرثاءِ.[3]

وقالَ لِيْ: بيني وبين وجعِ العالمِ خروجُك للمبارزةِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ إزاءَ وجعِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الذي يقفُ إزاءَ وجعِ العالمِ قائمٌ من قوائمِ العرشِ.

---

[3] كان أستاذي العارفُ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي مُعْتَبَراً في العلومِ وبعضِ الفنونِ والآدابِ، وكنا نعرفُ لذّتَهُ في وسواسِ الشعرِ، وهيامِ الفلسفاتِ، وترفِ المعارفِ الفخمةِ. فجاءَ وقتٌ رأينا الأستاذَ عاطلاً عن هذهِ الأحوالِ وقد ظهرَ عليهِ الفتورُ الموهِنُ للعزائمِ. فأتيتُه أطلبُه لدرسِ العصرِ، فسلّمْتُ عليهِ وسألتُه عن حالِه فقالَ: إنّ مقاماتِ العلومِ والفنونِ التي نخوضُها قد ترهّلتْ وأصابَها الوهنُ والخمولُ. قلتُ: ممَّ؟ قالَ: إنني بإزاءِ أوجاعِ الخلقِ وعطبِ العالمِ لا أجدُ فيما أسْتَلِذُّه من معارفَ وآدابٍ شيئاً يسندُ قلبي أو يمدُّني بالمؤونةِ اللازمةِ. قلتُ: وما المؤونةُ اللازمةُ؟ قالَ: ما يفضُّ حجابَ الوجعِ عن بدنِ هذا العالمِ، وقلبِه. قلتُ: يا أستاذُ، فأينَ تريدُ أن تجدَ هذه المؤونةَ التي تلزمُ؟ قالَ: في العملِ حتّى يبينَ لي علمٌ جديدٌ، وفنونٌ مبتكرةٌ، وآدابٌ متّصلةٌ بالخلقِ، فأخلطُ بينها وبينَ الكدحِ الواجبِ، فيحصلُ من ذلكَ الزادُ وتكونُ المؤونةُ. قلتُ: هذا سبيلٌ وسبيلٌ! قالَ: نعمٌ، يصبرُ علينا العالمُ في مقامِ العملِ خيرٌ من أن نقابلَهُ في ثيابِ العلومِ المعطوبةِ، والفنونِ والآدابِ التي ناشَها الوهنُ والمرضُ.

وقالَ لِيْ: قائمُ العرشِ قد يصيرُ القائمَ علَى العرشِ.
وقالَ لِيْ: العرشُ الذي لا تقومُ به ثم عليهِ تَكِيّةُ المستأثرينَ.
وقالَ لِيْ: العرشُ الذي تموتُ وأنتَ تريدُ أن تقيمَهُ لخاطرِ العالمِ يصيرُ لكَ ولهذا العالمِ حباً وكرامةً.
وقالَ لِيْ: موتُك استكمالٌ لطريقِك نحو صيرورةِ الاسمِ الذي اتّخذتَهُ لنفسِك.
وقالَ لِيْ: الاسمُ لا تنوشُهُ الآفةُ التي في زرعِك وبدنِك ودكاكينِك لأنّهُ لا يقعُ تحتَ أفقِ الحدوثِ.[4]
وقالَ لِيْ: أفقُ الحدوثِ تابعٌ لـكُنْ فلهذا صارَ حَيّزَ كلِّ شيءٍ غيرِ اسمِكَ.
وقالَ لِيْ: اسمُكَ سابقٌ علَى كُن.

---

[4] قلتُ: يا إمامُ، كيفَ لا يقعُ الاسمُ تحتَ الآفةِ؟ قالَ: اعتبرْ هذهِ الياسمينةَ. فنظرتُ فإذا زهرةٌ واحدةٌ قد طلعتْ علَى جهةِ العتبةِ التي قعدْنا عليها من المسجدِ، فقلتُ: اعتبرتُها. قالَ: فهي تذبلُ أو تَيْبَسُ، حتّى يبهتَ لونُها ويتبدّدَ عطرُها ويتهافتَ حضورُها. فهلْ ما زلتَ تعرفُ الياسمينَ؟ قلتُ: نعمْ، يتهيّأُ لي الياسمينُ حينَ العشقِ، أو حينَ التأمّلِ، أو حينَ الانخراطِ في العالمِ من جهةِ أنّهُ حسَنٌ فيهِ. ولكنّي يا إمامُ لا أقدرُ بعدَ يباسِه أن أشدَّهُ إلى يدي، أو أغرسَ خشمي فيهِ، أو استخلصَ رحيقَه عطراً ومعاشاً. قالَ: فليسَ ذلك اسمُ الياسمينِ بل أحوالُه ومقاماتُه وهي شيءٌ معتبَرٌ. وإنما الاسمُ ما تهيّأَ لكَ وراءَ ذلكَ. قلتُ: فالاسمُ يتهيّأ فوقَ الآفةِ، والشيءُ ذاتهُ يتوجّعُ تحتَها؟ قالَ: نعمْ، ولو أنّ اسمَ الإنسانِ، وهو استثناءٌ، يكادُ يمّحي من الوجعِ الذي ينوشُ الآحادَ من الناسِ، أو الجماعةَ الكثيرةَ، على وقتٍ يتواترُ حتى لا يكادُ يبلغُ غايةً. قلتُ: هذا كثيرٌ في العالمِ يا إمامُ. قالَ: نعمْ، غيرَ أن الكدحَ، والمجاهدةَ، والعشقَ، والبكاءَ، والصبرَ، والعلومَ، وشيئاً كثيراً من المعاني العاليةِ تحفظُ اسمَ الإنسانِ أن يتبدّدَ أو يتهافتَ أو يحيطَ به العطبُ.

وقالَ لِيْ: اسمُكَ مَعادُ الخلافةِ مثلما هو مبدؤها فهو اكتمالُ الدائرةِ، و "كُنْ" موقفُ استئنافٍ علَى مدارِ هذهِ الدائرةِ.

وقالَ لِيْ: خلافَتُكَ إزاءَ الآفَاتِ.

وقالَ لِيْ: فِي الآفةِ علومٌ مكينةٌ وكشوفاتٌ باهرةٌ لا تجدُها فيما يجاورُ الآفةَ من أحوالٍ صحيحةٍ.[5]

وقالَ لِيْ: لا تَلْفُتْ وجهَكَ عن الآفاتِ تصيبُ الحياةَ حولكَ تقُولُ لم أعرفْ ولم أشهدْ. إن لَفَتَّ وجهَكَ فقد عرفتَ، وإن عرفتَ فقد ارتَهنتَ.

وقالَ لِيْ: موتُكَ آفةٌ لا تقدرُ عليهَا، وخبرٌ لا ينفعُكَ تواترَ أم انقطعَ، وحديثٌ يَشهدُهُ الخلقُ ويَرويهِ أهلُ الأسانيدِ جميعاً.

وقالَ لِيْ: موتُك متنٌ لا سَنَدَ لهُ لأنّهُ سندُ كلِّ مَتن.[6]

---

[5] أرادَ مترفٌ فِي ناحيتِنا أن يدخلَ الجنةَ ويحبَّهُ المؤمنونَ، فاستأجرَ صانعاً فعملَ منبراً للمسجدِ يقومُ عليهِ الوُعّاظُ والأئمّةُ. فلمّا أتمّهُ وضَعَهُ فِي مكانِه من بيتِ اللهِ، فعَجِبَ الناسُ من هيئتِه وزُخرفتِهِ وآيِ الكتابِ كيفَ نُقَشَتْ عليهِ أحسنَ ما يكونُ. فدعَا الإمامُ الدُّرّيُّ أن يُظهرَ الله الحقَّ فِي مُقامِ الآفةِ. فكانتْ لمنبرِ المترفِ ريحٌ منتنةٌ لم يقدرِ الخلقُ معهَا علَى صلاةٍ، وسُمِعَ له صوتٌ كأنهُ يئنُّ من وجعٍ. ففزعَ الناسُ. فلمّا نظروا وجدوا خشبَهُ منهوباً، ومعدنَهُ مغشُوشاً، وصانعَهُ ظُلِمَ فِي حقِّهِ. فهدّموهُ ورموا بهِ خارجَ المسجدِ وصارَ الأئِمّةُ والخطباءُ يقفونَ علَى خشبةٍ ترتفعُ قليلاً أمامَ الناسِ لا زُخرفَ فيها ولا نقوشَ. قالَ الإمامُ: الآنَ تَصِحُّ الصلاةُ.

[6] قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ: هذا كلامٌ شديدٌ لا يُقبلُ إلا علَى جهةٍ واحدةٍ من فعلِ مقامِ الآفةِ علَى البدنِ والفكرِ، وأما السندُ الذي يقومُ به كلُّ متنٍ فهو

وقالَ ليْ: مَوْتُكَ مُفارقةٌ، لأني أقيمُك في العالمِ كي تُصلحَ من شأنِه ثمّ أقولُ لكَ خلِّ عنكَ.
وقالَ ليْ: الذي يقولُ لكَ خلِّ عنكَ شملَك بالرحمةِ أم ناشَك بالخذلانِ؟
وقالَ ليْ: وقتَ الموتِ تنفصلُ عنكَ العبارةُ التي حسبتَ أنك ستقولُها وأنتَ في سياقِ الحياةِ.
وقالَ ليْ: وقتَ الموتِ لن تعوزَك العبارةُ لأنكَ قلتَ كلَّ شيءٍ وأنتَ في وقتِ الحياةِ.
وقالَ ليْ: الذين لم يتكلّموا إزاءَ العالمِ يريدونَ أن يتكلّموا وهم يخرجونَ عن إزاءةِ العالمِ، فعندَها لا يصلُ صوتُهم لأنَّ هذا العالمَ قد التفتَ عنهُم.
وقالَ ليْ: الذين لم يتكلّموا وهم في لجّةِ الأشياءِ لا صخبَ لهم علَى عتباتِ السّفرِ.
وقالَ ليْ: موتُكَ عَوْدٌ أرجوهُ على بَدْءٍ أُرْتُهِنْتَ فيهِ، كي تكتملَ الدائرةُ.
وقالَ ليْ: وقتُكَ حينَ العلةِ أَشَفُّ من وقتكَ قبلَها، وحالُك أرقُّ، ومقامُك أصفَى.
وقالَ ليْ: حينَ العلّةِ يسافرُ جسدُك في تخومِ الأذَى، وقلبُك يزورُ أفقَ الوجعِ، وعقلُك ينزلُ عندَ مواقفِ الفهمِ والوعيِ الذي لم يكنْ لكَ.
وقالَ ليْ: حينَ العلّةِ يحضرُ إليكَ العالمُ في ثيابِ السؤالِ عن الحالِ فترَى منهُ جهاتٍ لم تظهرْ لكَ، ومعانٍ باغتةً علَى فؤادِك، وعلوماً تصدعُ لها روحُك.
وقالَ ليْ: موتُكَ يُسْقِطُ كلَّ فرضٍ عنكَ من حيثُ إنَّ بدنَكَ الذي يتفتّتُ بالموتِ

واللهِ الحياةُ، وما الموتُ إلا روايةٌ تؤخذُ وتردُّ. قلتُ: فكانَ إمامي يقولُ لي: عاودِ الخطَّ يا موسَى لعلَّ أبا الخيرِ كتبَ غيرَ ما ظننتَ. ولكنَّ العبارةَ واضحةٌ لم تتركّبْ علَى تخريجٍ آخرَ.

هو آلتُكَ الفريدةُ، غيرَ فرضِ الوصولِ إليّ.
وقالَ ليْ: موتُكَ حيلةٌ كي تجلسَ علَى العتباتِ.[7]
وقالَ ليْ: موتُكَ اشتياقٌ.
وقالَ ليْ: أنا سبحانيةُ الشوقِ إليكَ التي تغمرُك في هيئةِ الموتِ.
وقالَ ليْ: موتُكَ ابتذالٌ لأنه لا ينوشُ قلبَك، وموتُكَ جلالٌ لأنه يَفْصِلُكَ عن سياقِ العالمِ.
وقالَ ليْ: موتُكَ انقطاعٌ عن سياقِ الإنسانيّةِ العاملةِ، اتصالٌ بسياقِ الربانيةِ التي

---

[7] قلتُ: هذه إمّا حيلةُ العاشقِ كي يَحضُرَ المعشوقُ مُرغماً بالحبّ، أو حيلةُ المعشوقِ كي يُرسِلَ في إِثْرِهِ العاشقُ يطلبُه حثيثاً. وهو تَدَلُّلٌ لذيذٌ يعرفُه أهلُ الغرامِ ويستثقلُه أهلُ الغفلةِ بداعي العزّةِ والوقارِ. قلتُ: وعرفتُ في زناقي اطرابلسْ عاملاً من أهلِ الهجرةِ الإفريقيّةِ وقعَ في غرامِ بُنيّةٍ من بناتِ الصيدلةِ كانت تبيعُ في السّوقِ. فكانَ المهاجرُ يحتالُ بالمرضِ يطلبُ الدواءَ ويسألُ عن العلاجِ ويستزيدُ في كلِّ يومٍ. وهو في هذا يُكلّمُها باللغةِ الأعجميّةِ التي تفهمُها وبعضٍ من العربيّةِ الليبيّةِ التي تعلّمَها لخاطرِها. فلمّا مضَى عامٌ وجدتِ البنتُ في قلبِها مثلمَا وجدَ العاملُ. فدعتْهُ أن يحملَ شيئاً عنها إلى الزنقةِ التي فيها حَوشُها وأهلُها، وأكثرتْ من هذا الكِرَاءِ على عدّةٍ منَ الأيامِ. قلتُ: فظلَّ هو يمرضُ لها، وتمادتْ هي تَكترِيهِ، يتحشّمانِ كلاهُما أن يَبوحا بما وراءَ هذهِ الحِيَلِ وهذا الشوقِ الذي عصفَ بهما. فكلّمتُ الإمامَ فقالَ: ادعُ لهما بالجمعِ. ففعلتُ. فبعدَ عامٍ آخَرَ وجدتُهما يمشيانِ في الزّناقي الطرابلسيّةِ يداً بيدٍ وقد أشرقَ لونُ البنتِ الأبيضُ ونَضَرَ لونُ العاملِ الأسمرِ. فعرفتُ أنهما اجتمعَا، وصارا زوجةً وزوجاً. قالَ الإمامُ: الحمدُ للهِ أنهما لم يَلجآ إلى حيلةِ الموتِ ليجمعَ بينهما كما يفعلُ بعضُ العشّاقِ، ونفعتْهُما حِيَلُ التّمارضِ ثمَّ الكراءِ ثمَّ الزواجِ.

تختلطُ بكَ.

وقالَ لِيْ: موتُكَ جرأةٌ عليكَ وأنتَ تلملمُ جراحَ العالَمِ وتصلحُ من شأنِ الأشياءِ وتَخِيطُ لِبَاسَ الأرضِ التي أوجعَتْها الحاجةُ.

وقالَ لِيْ: موتُكَ حضورٌ في ثيابِ الغيابِ من جهةِ أنك تَتّسِعُ بالموتِ حتّى تُحِيطَ بالعالَمِ الذي حبسَك في الوقتِ.

وقالَ لِيْ: موتُكَ غيابٌ لا يسعُه حضورٌ من جهةِ أنّ الشتلةَ التي كانتْ بيدِك ساعةَ أن مشيتَ لا تفتأُ تتكلّمُ عنكَ وتَذكُرُكَ بالخيرِ.

وقالَ لِيْ: موتُكَ انفصالٌ عن السبيلِ الإنسانيِّ الذي مشيتَ فيهِ إلى آخرِهِ، ثمّ اتصالٌ بسبيلِ الربانيّةِ الذي هو عندَ سدرةِ المنتهَى.[8]

وقالَ لِيْ: سبيلُ الربانيّةِ تحقيقٌ للكامنِ في سبيلِ الإنسانيةِ.

---

[8] خرجَ رجلٌ في ثُلّةٍ صارتْ في الوقتِ غمراً علَى الظالمِيَن من أهل الاستكبارِ في العالمِينَ. فقامَ معهُ خلقٌ كثيرٌ حتّى أَعْيَوا أهلَ الطاغوتِ ومن والاهم، يضربونَهم بالنارِ فيدفعُهم الرجلُ بالفكرِ والقيمِ والصبرِ والثباتِ. فاجتمعوا عليهِ فأخذوهُ ظلماً فقتلوهُ ومثّلوا بهِ. قالَ إمامُنا أحمدُ مستبشراً: غلبَهم واللهُ الغالبُ، ولمْ تَعُدْ لهم عليهِ من سبيلٍ. فقالَ تلميذٌ لم يفهمْ: ولكنهم بقتلِهِ قطعُوا عليهِ كلَّ سبيلٍ. قالَ الإمامُ: بلْ هو بموتِهِ قطعَ عليهِم كلَّ سبيلٍ إليهِ حتّى عادَ حراً كالفكرةِ التي جاهدَهم من أجلِها. ذلكَ أن بَدنَهُ كانَ مدخلَهم إليهِ يريدونَ إفسادَهُ أو تحييدَهُ أو إرهابَهُ. فلمّا انقطعَ بدنُهُ بالموتِ لمْ تَعُدْ لهم عليهِ استطاعةٌ، وصارَ نصراً عُلوياً أطولَ من عُمرِهِ وعُمرِهم. ثم يكونُ له من بعدِ الموتِ رجالٌ وقلوبٌ وشغافٌ تحملُ محبَّتهُ، وترعى عهدَه وميثاقَه. وليس للطغاةِ مدخلٌ عليهم لأنهم أمّةٌ. قلتُ: فانظرْ، رعاكَ اللهُ، كيفَ يكونُ النصرُ معقوداً لمن تقطّعتْ أوصالُهُ، وتضرّجَ بالدمِ، وغُيِّبَ في حفرةٍ تحتَ الأرضِ.

وقالَ ليْ: موتُكَ عابرُ سبيلٍ.

وقالَ ليْ: عابرُ السبيلِ يَلزمُه أن يتزوّدَ ويتفيّأ ويتّخذَ المطايا.

وقالَ ليْ: موتُكَ لا يَلزمُ عنه شيءٌ.

وقالَ ليْ: موتُكَ لا يَلزمُ.

وقالَ ليْ: موتُكَ لا يُلزِم.[9]

وقالَ ليْ: موتُكَ عادةٌ، فربّما لو انتبهتَ منها خرجتَ عنها.

وقالَ ليْ: موتُكَ استبسالٌ لاسمِكَ الذي دخلَ حيّزَ العالمِ.

وقالَ ليْ: لا بأسَ عليكَ، أنا عزاؤُكَ، ومَنْ كنتُ عزاءَهُ فلا بأسَ عليهِ.

وقالَ ليْ: مَنْ كنتُ وجعَهُ لا بأسَ عليهِ، فأمّا مَن توجّعَ بالعالمِ فقلبي عليهِ.

وقالَ ليْ: جَسدُكَ جرحٌ مفتوحٌ عليّ بدمِ العالمِ الذي أنتَ تَرثي لهُ.

وقالَ ليْ: جسدُكَ جرحٌ متّصلٌ باسمِ الرحمةِ.

وقالَ ليْ: جسدُكَ حَيِّزُ الموت.[10]

---

[9] قال شيخي المهمومُ بالخلقِ، المسكونُ بالعالمِ الحارثُ بنُ الصادقِ المتوقِّدُ: "الموت لا يَلْزَمُ" لأن الحقَّ يقدرُ أن يُخرِجَ الإنسانَ من رهنِ الوقتِ فلا تنوشُهُ الآفةُ، و "الموتُ لا يُلزِمُ" لأنّ من لا يَلْزَمُ بذاتِهِ كيفَ يُلْزِمُ غيرَه، و "الموتُ لا يَلْزَمُ عنهُ شيءٌ" لأنّ الموتَ لا رَحِمَ لهُ يطلعُ منُه شيءٌ. قلتُ: فما الذي يَلْزَمُ ويُلزِمُ ويَلْزَمُ عنهُ؟ قالَ: الحياةُ، هي تَلْزَمُ لأنّ الكونَ من غيرِها يخلُو من المعنَى، وتُلْزِمُ لأنها تُهَيِّئُ الإنسانَ إزاءَ الحبِّ والعملِ. قالَ: فتَلزمُ عنها من ذلكَ الخلافةُ.

[10] قلتُ أنا موسَى: "جسدُكَ حَيِّزُ الموتِ" لأنهُ لا يتجاوزُهُ إلى شيءٍ آخرَ. قالتْ العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ: صدقتَ، وبعضُ قلوبِ الخلقِ خربةٌ

وقالَ ليْ: جسدُكَ شرطُ صحّةِ الموتِ.

وقالَ ليْ: جسدُكَ يعرفُ ما لا تطيقهُ روحُكَ، الموتَ.

وقالَ ليْ: الذي لا تطيقُه قدْ يصيرُ ولهاً تَضِجُّ به ويزخرُ هو بكَ.

وقالَ ليْ: جسدُكَ وَلَهٌ لا ينقطعُ حتّى يقطعَ عليكَ الطريقَ إليَّ.

وقالَ ليْ: جسدُكَ قاطعُ طريقٍ .

وقال لي: الوهنُ الذي ينوشُ جسدَك يتصدّعُ له جسدُ الأشياءِ.

وقال لي: الوهنُ الذي يجثمُ على قلبِك جثمانٌ يستشرفُ أفقَ الموتِ.

وقالَ ليْ: أنتَ جثمانُ الفكرةِ الأولَى التي سنَحتْ لي، وفكرةُ الجثمانِ الأولِ الذي تهيّأ لخاطري.

وقالَ ليْ: جثمانُك هو الجسدُ الذي يصيرُ الآلةَ التي تَلُمُّ العالمَ في مضغةٍ واحدةٍ.

وقالَ ليْ: جسدُك أغنيةٌ على الطريقِ فحينَ تموتُ يسقطُ جسدُك وتمشِي الأغنيةُ.

وقالَ ليْ: أغنيتُك ليست متعلّقةً بالحنينِ، بل بالأثرِ الذي يتأخّرُ عنكَ في العالمِ.[11]

لكن لا ينوشُها الموتُ الذي هو انقطاعٌ عنِ الوجودِ، ومنهُم من قلبُهُ مَيْتٌ على معنى المجازِ لا التحقيقِ (وبعضُ المجازِ أبلغُ من بعضِ التحقيقِ). فالموتُ فسادٌ يصيبُ آلةَ البدنِ المعروفةِ فينفصلُ عنه القلبُ إلى فضاءٍ لا يكونُ فيه موتٌ أو فناء.

[11] قالَ الحسنُ بنُ الغريبِ: السوسنةُ حينَ تذبلُ يتأخّرُ عنها عطرُها بُرهةً، والكأسُ حينَ تَثْمُلُ، أي تتبدّدُ ثمالتُها، يتأخّرُ عنها سُكرها ساعةً، والمنازلةُ حين تُفضي إلى مُنتهاها تتأخّرُ عنها جراحُها عاماً. فاعتبرْ كلَّ شيءٍ بما يتأخّرُ عنه كاعتبارِك له بما يُحاذيهِ ويقترنُ بوقتِه. قالَ تلميذٌ مستعجلٌ: وكسُّ البنتِ، ما يتأخّرُ عنهُ؟ قالَ الشيخُ الحسنُ: تقترنُ به لذةُ الهتكِ لوقتِها ثم تتأخّرُ عنه، بعد إفاضتِه عنكَ، لذّةُ المصاحبةِ الإنسانيّةِ لمن له قلبٌ يا ولدْ. فتحشّمَ التلميذُ وقالَ: إنما كنتُ أطلبُ العلومَ.

وقالَ لِيْ: جسدُك يمشي في أوّلِ الطريقِ حتّى يختلطَ بحجارتِه، وينغرسَ في تُربتِه، ويصيرَ متنَه وهامشَه.[12]

وقالَ لِيْ: جسدُك هو الطريقُ.

وقالَ لِيْ: هامشُ الطريقِ من مَتْنِه، ومتنُ الطريقِ منك.

وقالَ لِيْ: الطريقُ إلى مُنتهى، وكذا جسدُك.

---

[12] كان شيخي ضوءٌ بنُ منصورٍ يخرجُ من دارِه كلَّ صباحٍ على بغلتِه يريدُ زاويتَنا وهي علَى مسافةِ سبعةِ كيلُومتراتٍ، ثمّ يعودُ إلى أهلِه وعيالِه وقتَ العشِيّ مَشْياً آخَرَ. فلمّا تُوُفِّيَ رحمَه الله أخذَني الإمامُ أحمدُ إلى دارِه لنُقْدِمَ البغلةَ الهرمةَ إلى الزاويةِ ونرعاها في مرضِها وضعفِ حالِها. فإذا هيَ تسيرُ قُدّامَنا علَى نَهْجِ صاحبِها وصاحبِنا الشيخِ. قالَ الإمامُ: امشِ يا موسَى وراءَها! هذا موضعُ مداسِ الشيخِ وحافرِ البغلةِ على الطريقِ، وهذا، بعدَ حينٍ، البئرُ الذي يشربانِ منهُ ويُقِيمانِه بالحجرِ ويحفظانِه عن العطلِ، وهذا صاحبُ الخبزِ يشترِيانِ منه ويؤنسانِه بالحديثِ، وهذي بائعةُ السّواكِ يُسَلِّمانِ عليها ثم يُرْبِحَانِها ويُرْبِحَانِ عيالَها، وهنا موضعُ مُستراحِهما يُكلِّمانِ الأولادَ الذين يمشونَ لمدارسِهم ولعلَّ بعضَ هؤلاء العيالِ يركبُ الدابّةَ شيئاً من الطريقِ، وهذا بستانُ البرّانياتِ الكادحاتِ اللاتِي يأتينَ مدرستَنا للنظافةِ في كل شهرٍ، يَمُرُّ عليهِنَّ الشيخُ ويُسَلِّمُ ويُعطِيهِنَّ من خبزِه وسِواكِه، وانظر إلى هذا الخلاءِ المقفرِ وراءَ البستانِ كانَ الناسُ يَقْرَفونَهُ فمشى فيه الشيخُ حتى جعلَهُ سبيلاً طيّباً بأثَرِه وأثَرِ البغلةِ، فصارتِ النسوةُ يَتّخِذْنَهُ طريقاً والذراري والحيوانُ. فلا يصلُ ها هنا، وطرقَ الإمامُ بابَ الزاويةِ الصوفيّةِ، حتى يكونَ قد صارَ هو الطريقَ الذي مشَى فيه، ويصيرَ الطريقُ بعضاً من معناهُ ومعنى بغلتِه وأثرِهما في قلوبِ الخلقِ. قلتُ: فصِرْتُ كلّما شاقَني شيخي لم أذهبْ إلى قبرِه بل أسيرُ في طريقِه أكلّمُه بقلبِي وأسمعُ منه وأشهدُ أثرَهُ في الكونِ.

وقالَ ليْ: الموتُ لك!

وقالَ ليْ: لا نجوتُ إن نجوتَ!

وقالَ ليْ: قد يسنحُ لكَ الموتُ.

وقالَ ليْ: قد يسنحُ لك الموتُ في الوقتِ الذي تشتهيهِ والمكانِ الذي ترتضيهِ لجثمانِك الجليلِ.

وقالَ ليْ: الموتُ السّانحُ وقفةٌ أمامَ اسمِك الذي يطلعُ من تحتِ ركامِ الحياةِ إلى أفقِ الموتِ المفتوحِ.

وقالَ ليْ: الموتُ السّانحُ سبيلٌ لم تستعدَّ له القوافلُ، ولم يَشْدُ له الحادُون، ولم يَحفظْ منزلَ نجمِه في السماءِ الرُّوَّادُ والأدلّةُ العارفونَ.

وقالَ ليْ: الموتُ السّانحُ لحظةٌ باهرةٌ إن فاتَتْكَ تَوَجّعَ بها قلبُك كأنّها موسمُ النُّوّارِ الذي فاتكَ في البساتينِ.

وقالَ ليْ: الموتُ السّانحُ نافذةٌ تُشرَعُ أمامَ جسدِك لكي يَطْلَعَ منها إلى احتمالٍ يُناظر الاحتمالَ الذي أنتَ فيه.

وقالَ ليْ: الموتُ السّانحُ احتمالٌ غامرٌ.

وقالَ ليْ: الذي يسنحُ له الموتُ يقفُ قُدَّامَ اسمِه من جهةِ أَبْجَدَ وجهةِ المعنى معاً.

وقالَ ليْ: أبجدُ اسمِك يُهيّأُ لك أن تَفُضَّ الاسمَ ثم تمشي إليّ.

وقالَ ليْ: الموت السّانح كأنّكَ تَكْشِفُ أن البابَ إليَّ مُوَارَبٌ.

وقالَ ليْ: الذي واربَ لكَ البابَ يريدُك أن تدخلَ علَى حينِ غِرّةٍ غيرَ أنّهُ يَتحشَّمُ أن يَجْتَثّكَ من بينِ أحبَّتِكَ.

وقالَ ليْ: الاجتثاثُ إثباتٌ.

وقالَ لِيْ: اجتثاثُك من بينهِم إثباتٌ لكَ بيني وبين أسمائِي.[13]

وقالَ لِيْ: أنتَ بينَ أن تظلَّ معَ أحبَّتِك أو تَصيرَ إلى ظلِّ أسمائِي، فَعَلَيْشْ يُرجِفُكَ الموتُ؟

وقالَ لِيْ: الميتُ يُجتثُّ من عندِك ليَثبُتَ عندي في دورةِ المبدأِ والمعادِ.

وقالَ لِيْ: الميّتُ يصيرُ فكرةً في أرضِ الرُّؤَى ومجازاً في تخومِ الخيالِ وحنيناً في زوايا الوجدِ.

---

[13] قالَ الخطّاطُ آحْمدو، تلميذُ الشيخِ الغدامسيّ الأمينُ وراقمُ رقعةِ الحديقةِ الغدامسيّةِ: لما كانَ سيّدي ينازعُ الحمّى التي ذهبتْ بهِ جاءَتْهُ مولاتي للّا فاطمةُ، وهي زوجتُه وأمُّ عيالِه، تريدُ أن تعملَ لهُ بعضَ الحجامةِ التي لا تزيدُ عن الستّةِ أنصالٍ. فلمّا كشفنا عن بدنِه رأينا ما نعرفُهُ من جروحِ الجهاد بأرضِ السودانِ ثم بوديانِ ليبيا، وبينهُما 30 حولاً، وقدِ اختلطتْ ورَسمتْ ملامحَ جسدِه العليلِ. فخرجتْ من الحِجامةِ حديدةٌ ضئيلةٌ من أثرِ شظيةٍ ناشتْ سيّدي إما في نواحي أمِّ دُرمانَ فيكونُ عمرُها 60 عاماً، وإما في شِعابِ بني وليدَ فيكونُ عمرُها 30 من السنين. فطلبَها الشيخُ عبدُ الرحمنِ وجعلَ ينظرُ إليها ثمّ بكَى، ولم أرَهُ يبكِي في مرضِه ووجعِه الشديدِ. فقبّلتْ مولاتي جبينَه ثم قالتْ: أيْ عبدَ الرحمنِ! لعلّكَ اشتقتَ الحياةَ وغبارَ المعاركِ الواجبةِ؟ فقالَ سيّدي: يا فاطمةُ، هذا أثرُ الموتِ الانجليزيّ أو الطليانيّ الذي كادَ أن يجتثَّني من بينِكم كالشّتلةِ ويغرسَني عندَ بستانِ الحبيبِ، فانغرسَ هو في هيئةِ الشّظيةِ في بدَنِي، وصارَ هذا الموتُ بعضاً منّي وصرتُ بعضاً منهُ، كلَّ هذا الوقتِ، وأنا أحسبُ أني نجوتُ. فإني قد أطلتُ المقامَ بينَكم وإنّ الشوقَ إلى الحبيبِ قد غلبَني فغلبَني البكاءُ. قالَ أحْمدُو: فبكتْ لِلّا فاطمةُ، وبكيتُ معها، اشتياقاً للشيخِ وهو لم يَزل بيننا لم يغادِرنا جسداً، وإن كانَ قلبُه قد عبرَ فوقَ العتباتِ ودخلَ أوّلَ الدارِ، دارِ الحبيبِ الأكبرِ.

وقالَ لِيْ: الميتُ يتركُ أثرَه في قلوبِ الذينَ مرَّ بِهِم حتّى يصيرَ الأثرُ طريقاً أمامَ الميتِ لا خَلْفَهُ.

وقالَ لِيْ: الأثرُ الذي منكَ وأمامَك في وقتٍ واحدٍ شيءٌ عجيبٌ.[14]

وقالَ لِيْ: هيئةُ موتِكَ منعقدةٌ بهيئةِ حياتِك لأنّ الحياةَ سياقُ الموتِ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يُجاوِرونَك تحتَ الترابِ أينَ كنتَ من جوارِهم فوقَ الترابِ؟

وقالَ لِيْ: الذين يُجاورونَك تحتَ الترابِ يصيرونَ رفقةً جديدةً تقابلُ بها وحشةَ هذا الترابِ.

وقالَ لِيْ: موتُك انكفاءٌ عن المسيرِ بجسدِك، غيرَ أنّ رائحةَ قلبِك تظلُّ في المكانِ الذي مشيتَ فيه، والوقتِ الذي كدحتَ نهاراتِه.

وقالَ لِيْ: أنتَ، حينَ موتِكَ، تصيرُ عبيرَ الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: العبيرُ الذي ينهضُ من زهرةٍ مجاورةٍ أثرُ الذي غرسَ النُّوَّارَ، أو انغرسَ

---

[14] قرأَ شَيخي ساسي بن نايل هذهِ المحاورةَ فقالَ: اعتبرْ فلانةً. قلتُ: يا شيخي، هي تلميذةٌ تمشي في طريقِ المعهدِ يقولُ الناسُ أنّها أجملُ خلقِ اللهِ. قالَ: نعمْ، فهُم أمامَها في الدكاكينِ والزناقِي تتهيّأُ قلوبُهم للقائِها، وعيونُهم لرؤيتِها، وأرواحُهم ترتقِي في مدارجِ الإنسانيّةِ عَلَّهُم يَشهدُونها أو يَفنُونَ في حضرتِها. فحينَ تَجُوزُهم التلميذةُ في طريقِها، فيصيرون وراءَها، يتنفّسُون عبيرَها، ويلثمُون موضعَ خطوتِها العابرةِ. وربما خطرَ على قلبِ أحدِهم شعرٌ أو أغنيةٌ أو حبيبةٌ غابرةٌ. فهذا أثرُ البنتِ أمامَها وخلفَها في هيئةٍ إنسانيةٍ واحدةٍ.

قلتُ: ولعلَّ هذا كلَّهُ ما يجدُه الشيخُ في نفسِه منها استقبالاً وإدباراً. فهو صاحبُ ورشةٍ في تلكَ الناحيةِ ولهُ كرسيٌّ علَى مدخلِها يجلسُ فيه يقرأُ العلومَ ويكتبُ الدروسَ ويحسِبُ أثرَ البنتِ في قلبِه وقلوبِ العالمينَ.

هو، حينَ موتِه، في الترابِ الذي أطلعَ النوّارَ.

وقالَ لِيْ: العبيرُ إشارةٌ باكرةٌ بقدومِك عليَّ، وأنتَ تَتَلَفَّتُ هلْ بَتْلاتُكَ ناضرةٌ، وهل رحيقُكَ يَسُدُّ رمقَ الطريقِ، حتّى تدخلَ عليَّ صحنَ الدارِ.

وقالَ لِيْ: العبيرُ يقفُ عليَّ أوّلَ موتِك، فأتركُ ما بيدِي من عملِ الحقولِ، ثم أقولُ الآنَ ألقَى الجسدَ الذي ناوشَ العالمَ، والقلبَ الذي شُغِفَ بِي، والإنسانَ الذي سيجلسُ إليَّ في وحشةِ هذي البساتينِ.

إشارةٌ غَدَامْسِيّة

وقالَ ليْ: تجيءُ الركبانُ بالخبرِ الفادحِ، ورجالٌ، ومن كلِّ أرضٍ أُثخِنت بالحبّ. وكلُّ ثَكلى تولّهتْ بالوجعِ، والذراري الذين ذُهلوا باليُتمِ. وتَشيهُ الوجوهُ من هولِ الاجتثاثِ، ويتقدّمُ كلُّ سيفٍ يَدّعي دمَك، وكلُّ جرحٍ يحلفُ أنك هو. وجسدُك مُوهنٌ من إرثِ الحياةِ، وعيونُك مطفأةٌ في حبسِ الوقتِ، وصوتُك سكونٌ. قد أَلَمّتْ بجسدِك الآلامُ، وصارَ الوجعُ نسغَ حياةٍ فيكَ. فامشِ إلى حَصيرتِك التي في دارِك، واسنُدْ رأسَك إلى لحافِك، واقعدْ بجثمانِكَ الفخمِ بين أحبّتِك، وسلّم على الذراري الذين انشغلتْ عيونُهم يسألونَ عنك. ثم حَدّقْ في وجوهِ الطيبينَ الذين أتوا يؤاسونَك، وتكلمْ بفمِك الواهنِ تسألُ عنهم وعن أحوالِهم. ترَى في قسماتِ قلوبِهم مُضغةَ الفراقِ الذي سيكونُ. وخذ بيدِها، أمَّ العيالِ، وضُمّ قلبَها إليكَ، وحدّثها عن الوحشةِ والاجتثاثِ، وبُسْها على صدرِها فهي كانتْ لكَ أرضاً ومجاوَرةً آسرةً. وخذْ بيدِك حفنةً من الترابِ المجاورِ لحصيرتِك وانْثُرْهُ فوقَ وجهِك وجسدِك، وسَلّمْ آخِرَ خفقةٍ في الفؤادِ الذي أحبَّ العالمَ، لأنّهُ مني مثلَما هو منكَ.

12. موسمُ الفقرِ

(وهو ذو العيالِ)

ومن أحوالِه الكدحُ والعازةُ والأجرةُ والاستئثارُ والترفُ والحاصلُ والنهبُ ونسقُ السوقِ وكثبُ الخلافةِ والأصولُ والمراكمةُ وماءُ الكفايةِ ولحافُ السبحانيّةِ

وفيه مُنِعَ الماعُونُ، وصارَ المالُ دُولةً بين أهلِ السلطانِ[1]، وتكدّسَ الذهبُ في خزائنِ المرابينَ، وجفّ عرقُ الأجراءِ العاملينَ، وَرَبَتْ كُروشُ المؤجِّرين القاعدينَ. واجتمعَ الوارثونَ والمستأثِرونَ والمضاربونَ وأصحابُ الثرواتِ ممّن أمكنَ السياقُ، ينظِمونَ بينهم عقودَ البيعِ والشراءِ، ويُرَتِّبونَ الأجرةَ والسُّخرةَ، والمشاركةَ والحَكْرَ، والكَنْزَ والصرفَ. وجعلوا للعاملِ مما أخرجَ من الحرثِ والجهدِ نصيباً قليلاً، كلّما قدّمَ لنفسِه نَتْجاً لم يجدْه. وأوقفُوا الأموالَ في بنوكِ الرّبا، يَلِدُ الدرهمُ درهماً لا يأكلُ به الناسُ ولا يُغاثونَ. وأقطَعوا الأرضَ أدعياءَها الظالمِيَن يرِثون ما أشاعَهُ اللهُ للزارعينَ. وصَوّروا للناسِ حاجاتٍ لا يحتاجونَها فاستعبَدُوهم لها، وأَحَلُّوا المنفعةَ مَحَلَّ الرّحمِ، والتواجُهَ محلَّ التكاتفِ، والأجرةَ محلَّ الشِّرْكَةِ. فنظرتُ فإذا مَطْعَمُ النّاسِ بأيدِي السلطانِ ومسكنُهم بحكمِ المترفينَ، وأرزاقُهم بديوانِ الجُباةِ[2]، وإذا ملبسُهم من مذلّةٍ، وشرابُهم من قَذى. وإذا أقوامٌ جاعتْ حتى انفطرتْ أكبادُها، وأقوامٌ مسَّها الضُرُّ فلا حولَ لهم، وأقوامٌ أخذَتْها البأساءُ فعزَّتْ عليها أقواتُها، وكِسوةُ عيالِها.

[1] السلطانُ من استأثرَ بالحكمِ أو المالِ دونَ الناسِ، وهم عُصْبَةٌ ذوو قوةٍ من أهلِ الصناعةِ والمصارفِ والميراثِ العتيدِ، يَحْكِرون الأرزاقَ ويَعقِدون أمرَهم بالعلومِ والمعارفِ والفنونِ، حتى يَحْجِبوا الحقَّ، ويُزَيِّنوا الظلمَ، ويُمْعِنوا في السّلبِ وحِرابَةِ السِّرّ والعُنْوَةِ.

[2] دخلتُ على جولينَ بنتِ نورِ العقولِ قرلصَ وعليَّ جبّةٌ حريريَّةٌ حسنةٌ أطلبُ عِلمَها فقالتْ: ما حالُ هذهِ؟ فقلتُ: عملٌ طيّبٌ وأجرةٌ مُجزيةٌ. فقالتْ: فمَنِ المُؤجِرُ، فقلتُ: صحيفةٌ كذا ببلدِ كذا. فصكّتْ صدرَها وهتفتْ: هي فمُ الظالمينَ، وقلمُ المترفينَ، وقرطاسُ الجُباةِ، اخلعْها عنكَ فهذا عِلمي الذي أردتَ. ففعلتُ.

فطلعتُ إليهِم أسألُ عن أحوالِهم وكيفَ نزلُوا هذا المُقامَ. فلما أردتُ الدخولَ عليهم استحوا من حالِ ديارِهم، ولم يكُن لديهِم أريكةٌ أو مؤونةٌ. فظللتُ على الأبوابِ واقفاً أكلِّمُهم. واختلفتُ إلى رُقّادِ الريحِ[3] فسمعتُ منهُم، وأخذتُ عنهُم، وأَثْبَتُّ القولَ لهم فأخذُوا الإذنَ بالكلامِ، فأُذِنَ لهُم بأنّهم ظُلِموا. فلما تكلَّموا خَرَجْتُ بهم، فاعترَضَنا بحرُ الفقرِ فضربتُهُ بعصَايَ، فانفلقتْ نصفَينِ. فقلتُ لا بدّ من العلمِ، فَمَنْ فَهِمَ مبدأَ الحالِ فليَقْدِمْ علينا. فتأخّرُوا جميعاً، وإذا هو الجهلُ قد طلعَ من بطنِ الفقرِ، وإذا الفقراءُ سُلِبُوا المعارفَ ونُهِبُوا العلومَ.[4] فناشدْتُهم أن يُراجِعوا ويُحاجِجُوا، فشغلَهم حالُ عيشِهم عن فرضِ تبديلِهِ. ومَشَوْا وراءَ اللُّقمةِ تسدُّ الرَمَقَ، وتقيمُ بدنَ العيالِ، لا يدرونَ آذنَ الصبحُ أم دخلَ وقتُ الليلِ الحالكِ. فَهُمْ في سعيِهم يلهثونَ لهاثَ الخائرِ، ويَتلفَّتون تلفُّتَ المفزوعِ. فخرجتُ إلى الفقرِ أريدُ أن أقصمَ ظهرَهُ. فهاجَ قومٌ وقالوا الفقرُ مطيّةُ الآخرةِ،

[3] "رُقَّادُ الريحِ"، عندَ أكثرِ أهلِ البلادِ الليبيَّةِ، الفقراءُ المظلومونَ الذينَ لا تَقومُ لهم ريحٌ ولا يَفزعُ وقتٌ ولا يَحضرُ مددٌ. وواحدُهم "راقدْ ريحْ" وهو الفقيرُ الذي يهتزُّ له عرشُ الرحمنِ من جوعِهِ وعُرْيِهِ وهوانِهِ، ثمّ ينامُ مسلوباً والعرشُ قائمٌ لم يَمْسَسْهُ سوءٌ. قالَ الإمامُ الدريُّ: لا تَزِدْ. فسَكَتُّ.

[4] قالَ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي: كنا نقرأ بمسجدٍ على طمي النيلِ فدخلَ علينا ذو عيالٍ فقالَ: أينَ من تقرؤونَ كلامَهُ فيعتذرُ إلَى عيالي عن جُوعِهم وعُريِهم. فقُلنا: المترفونَ غايتُك. فقالَ: وما شأنُ هذا بذاك؟ إنما أكدحُ وأبيعُ فلا يَحْصُلُ رزقٌ. فقالَ الأمامُ أحمدُ: ومن يُقدِّرُ بيعَكَ وكدحَكَ، وما شأنُ المكوسِ والحكْرِ، وأينَ خيرُ البلادِ جعلَهُ الله تحتَ أديمِها وفوقَهُ خبِّرني عندَ منْ هُو؟ فسكتَ الرجلُ ساعةً ثمّ قالَ: لا عِلْمَ لي. فأدناهُ الإمامُ وعلّمَهُ.

والفقراءُ أحبّاءُ اللهِ. فإذا هم أهلُ العلومِ الكاذبةِ، والمعارفِ المشتراةِ، يُزوّقونَ الظلمَ ويحجبونَ وجعَ الخلقِ أن يَبِينَ، يقولونَ ما نفعلُ بمتاعِ الدُّنيا وهو غابرٌ ونحنُ غابرونَ.

فدخلتُ بينَ الفقراءِ، وأنا منهُم. فلما تَوَلَّوا دعوتُهم في أُخراهُم بكلامٍ عظيمٍ، أنْ لَا تَهِنُوا وَلَا تحزَنوا وأنتُمُ الأعْلَوْنَ. فتَطلّعَتْ أعناقٌ أخزاها السَّلبُ، واستوتْ ظهورٌ وَهَنَتْ واستكانتْ. فلمّا لم يجدوا عندي سُندساً وإسْتَبْرَقاً قالوا وهمٌ تتوهّمُهُ لنا وما نحنُ عن الوهمِ عاجزونَ. فتركوا ما أسررتُ إليهم وضاقتْ به صدورُهم يقُولون لَولا أُنزِلَتْ عليهِ فُلُوسٌ أو جاءَنا في ظُلَّةٍ من الثرواتِ. فظللتُ بهِمْ أنكأُ جراحَهم حتّى أَلقمتُهم علومَ الخروجِ، وأترعتُهم مبادئَ الشِّركةِ، وأوقدتُ لهم نارَ المشاعيّةِ. ففضحتُ الملوكَ والجُباةَ، وكشفتُ مدارَ الأمورِ.[5] فانْتَبَهَ فقراءُ وفَهِمَ مساكينُ وعَرَفَ مُستضعَفونَ. فقاموا يردُّونَ الزكاةَ علَى أصحابِها[6]، وأخذُوا قلوبَهم فضربُوا بها البحرَ جماعةً فصدعَ لهم بالطاعةِ. فركبنَا لُـجّتَهُ فجاءَني وقالَ لِيْ:

---

[5] قلتُ: "مدارُ الأمورِ" نَظْمُها الذي به تكونُ، وترتيبُها الذي عليهِ قيامُها، وهو، في غالبِ الوقتِ، معاشُ الناسِ وأرزاقُهم وآلاتُهم كيفَ تنعقدُ ببعضِها فينعقدُ بها حالُ الناسِ على الجملةِ.

[6] كان شيخُنا الفتحُ المجتبَى تاجراً ميسوراً لا يُعطي الزكاةَ في أموالِه، يقولُ: إنما يتزكّى الكانزونَ الذين يفرحونَ بنسخِ الكتابِ يريدونَ للمراكمةِ أن تصيرَ حقًّا. ونحنُ أموالُنا لا تَشهدُ الحولَ نقسمُها مع الخلقِ حتّى صارتْ بعضاً من حُقوقِهم علينا. قلتُ: وكنّا نُعطيها، أي الزّكاةَ، ولا نُنكرُ عليهِ لعِلْمِنا بصدقِ حالِه ودُوْلةِ أموالِه بينَ الناسِ.

الفقرُ استهزاءٌ بمعناكَ

وقالَ ليْ: فقرُكَ لا يليقُ بيْ، ولا يصحُّ لكَ، ولا يجبُ عن مبدءِ الأمورِ.

وقالَ ليْ: أنا ذاتٌ غفلٌ في حالِ الفقرِ فلا تتجلّى أسمائي إلا في مقامِ العدلِ.

وقالَ ليْ: من قالَ "الفقرُ حقٌّ" سَلَبني ثُمَّ أَسْلَمَني للمُترفينَ.[7]

وقالَ ليْ: الفقراءُ بمُقَامِ الهوَانِ حتّى إذا جاعوا أكلوا من ربّانِيَّتِي، وإذا عطشوا شربوا من وحدانِيَّتي، وإذا مشوا إليَّ واطتْ لهم رحمانِيَّتي.[8]

وقالَ ليْ: لا يكونُ مترفٌ حتّى يَسْلُبَ ثُلّةً من الخلقِ، ولا يفتأُ مترفاً حتّى ينهبَ ثلّةً أخرَى، فمِن هذا ينعقدُ الترفُ بالنهبِ ثمّ النهبِ دورةً مستأنفةً.

---

[7] قالَ تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: من مدحَ الفقرَ مدحَ الظالمِيَن وهم أَرُومَتُهُ الخبيثةُ وجُرثومَتُهُ الوالدةُ. ومَن قالَ "حطامُ الدّنيا" فعقلُه حطامٌ لا نفعَ منهُ، ومَن قالَ "الآخرةُ" قُلنا لهُ الأُولى والآخرةُ. ومَن قال "الغِنى بابُ الشّهواتِ" قلنا له الفقرُ مرقدُ الذلِّ، والخلافةُ لا تكونُ لفقيرٍ.

[8] قلتُ أنا موسَى: هذا كلامٌ ينفعُ في الشعرِ والغناءِ وبعضِ المُراضاةِ التي تكونُ في التلبيةِ والقراءةِ من الكتابِ. فأمّا المناوأةُ، مناوأةُ الفقرِ، والمنازلةُ، منازلةُ المترفينَ، فلا بدَّ لها من الحديدِ والعلومِ. قالَ الإمامُ أحمدُ الدريُّ: غلطتَ! ففي "وقالَ لي" هذهِ عزاءٌ للفقراءِ، والعزاءُ إن قُصِدَ به شدُّ العزمِ، وتقويةُ القلبِ، والتربّصُ بالوقتِ، فإنّهُ يكونُ معَ الحديدِ والعلومِ في كِنَانةٍ واحدةٍ. قالَ: هي كنانةُ الثورةِ. قلتُ: يا إمامُ، بعضُ العزاءِ جُعِلَ للبكاءِ دونَ شدِّ العزمِ. قالَ: نعمْ، فمن هذا وجبَ الانتباهُ. فإنّكَ تنظرُ إلى العزاءِ هل يجاورُه الحديدُ وتنهضُ به العلومُ؟ فإن كانَ، فاسنُدْ إليهِ قلبكَ وتقوّتْ بهِ علَى مرأَى من المترفينَ. وإلا أخذتَ "وقالَ لي" هذه ونسختَها بآيةٍ من آياتِ المناوأةِ، أو أغنيةٍ من أغاني المناهضةِ التي في كتابِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الترفُ ناتجُ النهبِ الذي حصّلَهُ البأسُ وهيّأتْهُ العلومُ وحَفِظهُ النسقُ الذي انتظمتْ عليهِ الأمورُ.

وقالَ لِيْ: لا يكونُ منهوبٌ حتّى يَسْقُطَ اسمٌ من أسمائِي، فأصيرُ حينَ تمامِ النّهْبِ غُفلاً عنِ الأسماءِ الحسنةِ.

وقالَ لِيْ: النهبُ الاسمُ الذي ينبغي للفقرِ حينَ تنتبهُ القلوبُ لحقائقِ المعَاني.

وقالَ لِيْ: النهبُ يقعُ علَى العملِ والأصولِ والآلاتِ فإن تمكّنَ وقعَ علَى القلوبِ.

وقالَ لِيْ: القلوبُ المنهوبةُ كالأصولِ المنهوبةِ تطلبُ أهلَها فيحوزُها الحَكْرُ ويحبِسها الاستئثارُ ويتوسَّلُها المترفونَ.

وقالَ لِيْ: ينهبُ القلوبَ من نهبَ سياقها اجتماعِها أوّلَ الأمرِ كي يستقرَّ لهُ آخِرُه.

وقالَ لِيْ: الناهبونَ يخشون أسرارَ القلوبِ، وعلومَ العملِ، ومعارفَ الوجعِ الحاصلِ عن النهبِ، فمن هذا هم يَحوزون القلوبَ والعملَ والوجعَ في غِلٍّ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الناهبونَ يحثُّونكَ على الرّضا والقلبُ والعملُ يحثّانِكَ على الوجعِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتوجّعُ بالفقرِ يتناوشُ الأسماءَ الحسنةَ بقلبِه حتى تصيرَ له فلا تنفصلَ عن معناها ببركةِ المناوشةِ القلبيّةِ.[9]

وقالَ لِيْ: المناوشةُ القلبيّةُ إعدادُ العُدّةِ للمناهضةِ الصمديّةِ التي تَفزعُ للعيالِ

[9] جلسنا عندَ إمامِنا أحمدَ ندرسُ علومَ التصوّفِ وأشعارَ الفناءِ والمقاماتِ الروحيّةَ، فتناهتْ إلينا أصواتٌ أقلقتْ درسَنا، فقالَ الإمامُ: اطّلعوا على الأمرِ! فخرجنا فإذا هيَ امرأةٌ فقيرةٌ بالطريقِ تطلبُ الرحمنَ. فقالَ الإمامُ: أجيبُوها فهذا اسمٌ من أسمائِكم.

وللأمّةِ في منازلةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: فقرُكَ وأنتَ واحدٌ ظلمٌ، وفقرُكَ وأنتَ عائلٌ ظُلمانِ، وفقرُك وأنتَ أمّةٌ هولٌ لا يَسَعُهُ قولٌ.[10]

وقالَ لِيْ: لا يسَعهُ حتى الذي أُشَتِّتُهُ في القلوبِ وأُفَرِّقُهُ في الوقتِ ثم أقولُ حفظتُهُ.

وقالَ لِيْ: فقرُكَ ساعةً إشارةٌ لكَ بالفهمِ، وفقرُك دهراً أذانٌ لك بالخروجِ.

وقالَ لِيْ: أذانُ الخروجِ غيرُ مخصوصٍ بلفظٍ غيرِ لفظِ المناهضةِ الذي يحصلُ عنكَ تلقاءً حينَ الفهمِ.

وقالَ لِيْ: الذي يَصِحُّ أن يَحْصُلَ عنكَ العملُ ونتجُ العملِ، والذي يحصلُ عن النهبِ الفقرُ وسياقُ الفقرِ.

---

[10] كتبَ إليَّ تلميذٌ: كنتُ في السوقِ أُصلحُ نعلي، والبلدُ في غوطِ الباطلِ، فرأيتُ شيخي الفتحَ بنَ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى داخلاً ببغلتِه الشّهباءِ، وعليها قُفّتانِ عظيمتانِ من بستانِه، إحداهُما من تمرٍ والأخرَى من برتقالٍ ورمانٍ، يريد بيعَهُما. فإذا امرأةٌ فقيرةٌ تسيرُ خلفَهُ، وعَيّلانِ لها عُريانانِ، تلتقطُ ما يقعُ من الرزقِ من سَلَّتَي الشيخِ وهي تقولُ بكلامِ العامّةِ:

ميّلَ اللهْ تَوانِيكْ	إمّا يُسرْةٍ وامّا يْمَانِي
وكثّرْ تِعُوريجْ كِرعيكْ	مَشْيَةِ اللّي عِرسْها دَانِي
لين ناكلوا من سَواريكْ	تَمرْ وشي اعْجِباني

قلتُ: والتواني عندَ الليبيينَ الأردافُ، والتِّعُورِيجُ التمايلُ والدَّلَعُ، والسَّواري لحافُ الدابّةِ والسِّلالُ التي عليها. فلمّا سمعَ الشيخُ تلبيةَ المرأةِ رمَى إليه ببغلتِه وما عليها من رزقٍ، ونزلَ يُقبّل الأرضَ بيَن يديها وهو يقولُ: اجعليني في حِلٍّ من جوعِكِ يا مسكينة. فأجفلتِ المرأةُ وصارتْ تجري بعيالِها، فذهبَ وراءَها حتى ربطَ البغلةَ علَى بابِ عُشَّتِها ورحلَ.

وقالَ ليْ: الذي يَصِحُّ أن يَحْصُلَ عنكَ، وأنتَ قائمٌ تكدحُ، كفايتُك وكفايةُ من معكَ.

وقالَ ليْ: الذي يصحُّ أن يحصلَ عنكَ هذا العالمُ.

وقالَ ليْ: بينَ حاصلِك وحاصلِ الفقرِ اسمُ الغرابةِ الكاملِ.

وقالَ ليْ: الغرابةُ من عفوِ النَّسَقِ الذي يحصلُ عنهُ فقرُكَ.

وقالَ ليْ: الغرابةُ لازمةٌ للفقرِ لأنّ الألفةَ من صُنْعِ الذين أطلَعوا هذا الفقرَ.

وقالَ ليْ: الغرابةُ تمشي بكَ إلى انكشافِ الظلمِ، وسفورِ النظامِ الذي ترتّبتْ عليه المعائشُ، ووجوبِ الثورةِ.

وقالَ ليْ: الفقرُ حَبْسُكَ عن الخلافةِ، وحَبْسُكَ عنِ الخلافةِ إبطالٌ لمعناكَ الذي ادّعَيْتُهُ لكَ أو أَطلعتَهُ بنفسِك.[11]

وقالَ ليْ: بطلانُ معناكَ بطلانٌ لمعنايَ غيرَ أن الكتبَ لا تعرفُ الرابطةَ.

وقالَ ليْ: الربانيةُ متعلّقةٌ بالإنسانيةِ من جهاتِ الخلقِ والقيوميّةِ ثم الخلافةِ، فإنْ

---

[11] حدّثَ الإمامُ أحمدُ فقالَ: خرجنا معَ شيوخِنا للحجّ أمةً واحدةً، وكنتُ فتًى لم أبلغِ العاشرةَ. فبينما نحنُ على النجائبِ، يعني ظهورَ الإبلِ، خرجَ علينا مساكينُ قريةٍ ملكَ مُترفوها أمرَها فقالوا: منْ تطلبونَ؟ فقلنا: لبّيكَ اللهمَّ لبيكَ! نريد بيتَ الله. فقالَ صغيرٌ فيهم: فهذي مائةُ بيتٍ لخلقِ الله خاويةٌ على عروشِها، يكاد أهلُها يَسُفُّون الترابَ، وأنتم تركبونَ النجائبَ وتحملونَ الهديَ لأصنامِكم. فسقطَ الشّيوخُ مغشيّاً عليهم وهم يبكونَ وذُهِلنا عن أنفسِنا ساعةً ثم حوّلنا إليهم رواحلَنا وصدقةَ البيتِ وأُبْنا بحجّنا هذا.

قلتُ: كلامُ الولدِ حزبٌ من الكتابِ نَسِيَ صاحبُه أن يُفرّقَهُ، فلمّا سمعَهُ الشيوخُ لأوّلِ مرّةٍ صُعِقوا من هولِ التنزيلِ كما صُعِقَ المحمومُ عند الغارِ. قلتُ: فالغارُ علَى المجازِ، غارُك، يمشي معكَ حيثُ صِرْتَ، إن كنتَ ذا قلبٍ وتريدُ أن تقرأَ، تقرأَ الكتابَ كلّهُ.

ناشَ اسمَك شيءٌ مشَى عبرَ هذه الجهاتِ الفخمةِ حتى ينوشَ اسمي.

وقالَ ليْ: الفقرُ من عملِ الخلقِ في أسواقِهم ومعائشِهم حتى إذا وقفَ عليَّ لم أَكَدْ أعرفهُ من غربتِه ووحشتِه.

وقالَ ليْ: الفقرُ قسمةٌ لا تكونُ من لَدُنِّي، وحِسبةٌ ناقصةٌ أنى لها أن تَتّصِلَ بحسبَتي الكاملةِ.

وقالَ ليْ: الفقرُ كتاب خططتَهُ بيمينك فأمّا يمينُ الحقّ لا يجوزُ عليها غيرُ كتابِ العدلِ الكاملِ.

وقالَ ليْ: الذي تَخُطُّهُ بيمينِك تقدرُ أن تنسخَهُ بيسارِك.

وقالَ ليْ: اليسارُ إزاءَ اليمينِ، والإزاءةُ مناهضةٌ في هيئةِ التشبيهِ.

وقالَ ليْ: اليسارُ حريٌّ بها أن تفضَّ كتابَ اليمينِ.

وقالَ ليْ: اليسارُ يلزمُها أن تشتبكَ بالعالمِ لأن وريدَها أقربُ إلى قلبِك فتحصلُ الرابطةُ.

وقالَ ليْ: الذين يَخُطُّونَ النصوصَ ذاتَ السّطوةِ يحوزونَ اليسارَ عن كتابِها الذي ينبغي عنها.

وقالَ ليْ: نصوصُ السّطوةِ تَشغلُك عن بِنْيَةِ الفقرِ بالصدقاتِ ومناوأةِ الإنسانِ لأن الذي يفهمُ الفقرَ يسنحُ له أن يُقَوِّضَهُ.

وقالَ ليْ: الفقرُ معقودٌ بنسقِ السوقِ وترتيبِ المعائشِ وإزاءةِ الناسِ للناسِ.

وقالَ ليْ: نسقُ السوقِ رأسُ الظّلمِ، وثمرةُ الحَكْرِ، وحاصلُ السلبِ والجبايةِ.

وقالَ ليْ: نسقُ السوقِ نهبٌ انتظمَ في عِقْدِ الأجرةِ الحسنةِ.

وقالَ ليْ: نسقُ السوقِ يَنْظِمُ المعائشَ جميعَها والعلومَ وكثيراً من القلوبِ ثم يقولُ

هذا تلقاءُ العالمِ.

وقالَ لِيْ: نسقُ السوقِ يراكمُ الحاصلَ الناتجَ، وعدلُ الأرضِ في الشِّركةِ إزاءَ المراكمةِ.

وقالَ لِيْ: المراكمةُ تعطيلٌ للزادِ الواجبِ للعاملينَ.[12]

وقالَ لِيْ: الذي يجبُ للعاملينَ ما نتجَ من قلوبِهم وأيديهِم فهو لهم لا للمراكمةِ.

وقالَ لِيْ: المراكمةُ أشدُّ وطأةً علَى العالمِ من جحودِ اسمي.

---

[12] قالتْ مولاتي العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جولينُ بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ: المراكمونَ يأخذونَ الشّكائرَ التي تغلبُ الحسابَ، من الغلالِ التي تسدُّ رمقَ ألفِ ألفِ جائعٍ، فيرمونَ بها في البحرِ عاماً وعاماً مُتواتراً. يقولونَ حتى لا يَجوزَ العرضُ الطلبَ في السوقِ فتفسدَ أسعارُ السلعِ. ثم يأتونَ المعادنَ والزيتَ والغازَ الذي حَبلتْ به أرضُ الفقراءِ ألفَ ألفِ عامٍ، فينهبُونَها جميعاً من تحتِ أقدامِهم يقولونَ لنا بها حاجةٌ في صناعةِ هذي السلعِ. ثم يُطلِعون السّمومَ من مصانعِ ترفِهم، وأسواقِ متاعِهم، حتّى يَشِيهَ وجهُ الأرضِ ويفسدَ الهواءُ، يقولونَ هذا تقدّمٌ وعمرانٌ للأممِ. ثم يُفرزونَ من غُددِ الترفِ خمائرَ العلومِ الزائفةِ، والفلسفاتِ الباذخةِ، والفنونِ المدوّخةِ، حتّى لا يرَى الناسُ ما هو يصيرُ لهم وللعالمِ قدّامَ أعينِهم في رائعةِ النهارِ. قالتْ: فيكونُ هذا كلُّه النسقَ الاجتماعيَّ الذي تنتظمُ عليهِ الإنسانيّةُ جميعاً. فإذا جئتَ الناسَ وقلتَ الغلالُ حاجاتٌ وليستْ سِلعاً، والثرواتُ لأهلِها بالشِّرْكَةِ، والنَتْجُ الذي يَطْلَعُ من اليدينِ لهاتين اليدينِ، والأصولُ لا تصحُّ فيها الحُكْرَةُ، قالوا: جئتَ أمراً إدّاً (والإدُّ العظيمُ المستقبحُ). قالتْ: فإنَّ مبدأَ صلاحِ العالمِ العلومُ الحقُّ التي تناهضُ التراكمَ، والمناهضةُ المباشرةُ التي تناوئُ الحكرةَ، والقلوبُ الواجدةُ التي تخفقُ بالإنسانِ العاملِ إزاءَ السلعِ والأثَرةِ والسطوةِ الحاكمةِ في الأرزاقِ.

قلتُ: هذا كلامٌ يجدرُ أن يُزادَ في الكتابِ.

وقالَ لِيْ: المراكمةُ جحودٌ لاسمِك أنتَ.

وقالَ لِيْ: المراكمةُ خروجٌ عن سبيلِ الإنسانِ إلى سبيلِ السلعةِ.

وقالَ لِيْ: المراكمةُ استواءٌ علَى عرشِ الفلوسِ، فلا الاستواءُ يَصِحُّ ولا الفلوسُ ينبغي لها العرشُ.

وقالَ لِيْ: العرشُ ينبغي للعملِ لأنّ المعيشةَ والعلومَ تحصلُ عنه لا عن الفلوسِ.

وقالَ لِيْ: الذي لا ينزلُ عندَ سطوةِ العملِ ذاهلٌ عن المعنَى الحاصلِ عن العالَمِ.

وقالَ لِيْ: سطوةُ العملِ تناهضُ المراكمةَ بمعنًى من معاني الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الفقراءُ ذاهلونَ عن معناهم، فإنْ أخذُوا مناجلَهم ومطارقَهم، وملكوا حاصلَ زرعِهم وصُنْعِهم، وأَطلعوا علومَهم من بين أيدِيهم، انتبَهُوا فإذا هُم بحضرَةِ قلوبِهم.

وقالَ لِيْ: حضرةُ قلوبِهم إشارةٌ إلى حضرتي.[13]

---

[13] رأيتُ أستاذتي زُهرةَ حبيبةَ اللهِ بنتَ العالمِيَن تمشي في مجتمعِ الفقراءِ العاملينَ وقد ظهرَ نورُ وجهِها الكريمِ للخلقِ وهم يتمسّحونَ بها بأيديهم وآلاتِهم. فلم يُعجِبْني ذلكَ خوفَ الشِّركِ والفتنةِ، فقالتْ: يا موسَى، لم يعرفوني على وجهِ التخصيصِ فيتّخذوني سبيلاً لشركٍ، وإنما أتيتُهم وقلتُ "من كان فقيراً وبيدِه آلةٌ يكدحُ بها فليدنُ مني ويلمسْني بها لأنالَ بركتَها". وأما الفتنةُ فواللهِ لو قدرَ بدني على هذا لجامعتُ منهم في اليومِ الواحدِ ألفَ رجلٍ عاملٍ، يَنْضَحُ عرقُهُ كالكوثرِ أو هو أطيبُ، يَخرجُ من أصلابِهم قومٌ لا ينامُ ظالِمُهم على فراشِ الطمأنينةِ.

قلتُ: وهذا من أحوالِ العارفينَ والعارفاتِ حين يدخلونَ إلى مقاماتِ الولهِ بالخلقِ، ويصيرونَ قلوباً محضةً، وأرواحاً عاشقةً، وأبداناً عاملةً. فوددتُ أنّ آلةَ فقيرٍ معي أتقوّتُ بها من جمالِ زهرةَ حبيبةِ اللهِ.

وقالَ لِيْ: الذي هو بحضرَتِي وأنا بحضرتهِ لا يصحُّ له اليأسُ من العرشِ.

وقالَ لِيْ: اليأسُ يطلعُ من جهلِك بمبادئِ الظلمِ لأنّك إن فهمتَ الظّلمَ عرفتَهُ وعرفتَ مآلَهُ.

وقالَ لِيْ: الذي يفهمُ مبادئَ الظّلمِ لا ييأسُ من غلبتِه للظلمِ.[14]

وقالَ لِيْ: مبدأُ الأمرِ يمشي بكَ إلى مآلِه ضرورةً.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ أو يكدحونَ الحديدَ، ثم لا يدخلونَ مقامَ المناهضةِ، يُنهَبُونَ قبلَ أن يدفعُوا المكوسَ أو يرضَوا بالأجرةِ الحسنةِ.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ أو يكدحونَ يَلزمُهم أن يناهضوا وإلا سُلِبوا اسمَهم.

وقالَ لِيْ: الذين يزرعونَ ويكدحونَ اسمُهم حَسَنٌ.

وقالَ لِيْ: الاسمُ الحسنُ يقتاتُ منه العيالُ الذين أخرجتُهم عن متنِ الجنانِ إلى ظاهرِ السوقِ.

وقالَ لِيْ: ظاهرُ السوقِ ينبغي له أن يصيرَ متنَ الجنانِ.

---

[14] قالَ تلميذٌ: إني رأيتُ العمّالَ في ناحيتِنا ينحازونَ إلى ربِّ العملِ أكثرَ من انحيازِهم لأنفسِهم. قلنا: علَى أيِّ نحوٍ؟ قالَ: يُوقِرُونَهُ في المصنعِ والمشغلِ، وينافحونَ عنه الضرائبَ في دواوينِ السياسةِ، ويَخْشَونَ أن يذهبَ عنهُ الرّبحُ أو يكونَ كسادٌ في السوقِ.

قال الأستاذُ قرلصُ بنُ مُرقُصَ: إنما هم منحازونَ للعملِ الذي يَقتاتون وعيالُهم منه، فهو مَقصِدُهم ومحطُّ حاجتِهم، فلما وقعَ ربُّ العملِ بينَهم وبينَهُ تعلَّقوا بهذا الربِّ، ودافعوا عنهُ الأذَى خشيةَ أن يَلْحَقَ أثرُ هذا الأذَى بالعملِ نفسِه، فيتوجّعون هُم في معاشِهم. ولو صارَ هؤلاء أربابَ العملِ، عملِهم، لانحازُوا لأنفسِهم بالضرورةِ. فاعتبرْ يا تلميذُ الأشياءَ في سياقِ اجتماعِها الذي أطلعَها تَبِينُ لكَ عن أصولِها، وتُسفِرُ عن مصائرِها، ولا تعودُ تَتَلَخْبَطُ.

وقالَ ليْ: ظاهرُ السوقِ الموطئُ الذي تقفُ بهِ على كثبٍ من الخلافةِ.

وقالَ ليْ: ظاهرُ السوقِ يستشرفُك خليفةً لأنه في ظاهرِ السوقِ تعملُ ويقابلُك نتجُ عملِك.

وقالَ ليْ: ظاهرُ السّوقِ سياقُ المنازلةِ التي بينَك وبين الحائلينَ عن مؤونتِك.

وقالَ ليْ: الحائلونَ يخشَون موقفَك على كثبٍ من الحكمِ فيقطعونَ عليكَ الطريقَ ويَحكرون عنكَ المؤونةَ.

وقالَ ليْ: الحائلونَ يُحيلونَك إلى الفقرِ كي لا تصبرَ قائماً على كثبِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الفقرُ إزاءَ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الفقرُ يُعِيزُكَ وما أعازَك غَلَّكَ عن المسيرِ.

وقالَ ليْ: العازةُ ناقضةٌ لوضوءِ خلافتِكَ.

وقالَ ليْ: وضوءُ الخلافةِ يَلزمُه ماءُ الكفايةِ.

وقالَ ليْ: الكفايةُ ما يسدُّ رمقَك فيسدُّ رمقي.

وقالَ ليْ: الكفايةُ الغلالُ جميعُها بينَ يديكَ وأيدي العاملينَ.

وقالَ ليْ: الكفايةُ علامةُ نجاةِ من اتخذها محلَّ العازةِ.[15]

وقالَ ليْ: الكفايةُ ناتجُ الشِركةِ، والعازةُ ناتجُ الحُكْرَةِ.

وقالَ ليْ: الكفايةُ فرضُ عينٍ.

---

[15] قالتْ خديجةُ الشنقيطيّةُ: الفرقةُ الناجيةُ عمومُ الناسِ ما داموا يدفعونَ الظلمَ، وينهضونَ بالعدلِ، ولا يَحْكِرونَ الفلوسَ والسلطانَ. فمن فعلَ، أي حَكَرَ، هلكَ وهلكتْ فِرْقَتُه ولو كانوا من أهلِ الولايةِ والنبوّةِ. قالتْ: لأن الحَكْرَ، في الحكمِ أو المالِ أو العلومِ أذًى للإنسانِ الذي هو صاحبُها جميعاً، وشركٌ بالله الذي أَطلعَ أصولَها أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الذي يكفي الخلقَ يكفي عنّي، والذي يَسُدُّ رمقَ العيالِ يسدُّ عني .

وقالَ ليْ: الفقرُ يَجي أرضَ عزَّتي قبل أن يَجي أرضَ عيالِكَ.

وقالَ ليْ: ذو العيالِ قطبٌ من أقطابِ الكونِ يكادُ يُشيرُ بِبَنَانِه فتتداعَى إليهِ جيوشي وألويَتي.

وقالَ ليْ: ذو العيالِ مسلوبٌ فإذا قامَ أنهضُ عن أريكةِ السبحانيّةِ أسألُ ما بالُ قوائمِ العرشِ تكادُ تتصدّعُ.

وقالَ ليْ: ذو العيالِ حُجّةٌ.

وقالَ ليْ: الحجّةُ ينبغِي لها الغلبةُ.

وقالَ ليْ: غلبةُ الحجّةِ من جُوّانيّتِها التي هي حاصلُ قدحِها بالبرانيّةِ.

وقالَ ليْ: جُوانيّةُ ذي العيالِ الإنسانيةُ من جهةِ أنها اسمُه، وبرانيّةُ ذي العيالِ المظلوميةُ من جهةِ أنها مقامُهُ وأحوالُهُ.

وقالَ ليْ: ظلُّ ذي العيالِ كظلّي، وعزّتُه كعزّتي، وجاهُهُ كجاهي، فإن ظُلِمَ فقد ظُلمتُ، وإن أُنكِرَ فقد أُنكرتُ، وإن ذُلّ فلأُعِزَّنَّهُ بمعارفَ وعلومٍ تخرجُ من قلبِه كأنّها الغَمْرُ.

وقالَ ليْ: ذُو العيالِ أنا ذُوهُ.

وقالَ ليْ: ذُو العيالِ ذو جلالي.[16]

---

[16] قلتُ: اتّخذَها مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ، أستاذُ الطريقةِ، وصنو الحقيقةِ، صاحبُ البهاءِ، وضوء السماءِ، في حضرَموتَ، وديارِ عدنَ وصنعاء، تلبيةً وهو يحرثُ أرضاً لنا أوقفناها على فقراءِ الناحيةِ، فكانَ يرفعُ الفأسَ في الهواءِ وهو يُنْشِدُ: ذو العيالِ، ثم يهوي به يقولُ: ذو جلالي، فهي معاً: ذو العيالِ، ذُو جلالي، ذو العيالِ، ذُو جلالي.

وقالَ ليْ: ذُو العيالِ علَى مثالي، ففيهِ من أمرِي شيء وصِلةٌ.

وقالَ ليْ: أنتَ ذو عيالٍ وأنا ذو العيالِ.[17]

وقالَ ليْ: عيالي إذا جاعوا ناشني جوعُهم، وإذا بردُوا لم يَكْفِني لِحَافُ السُّبحانيّةِ.

وقالَ ليْ: لحافُ السبحانيّةِ ينبغي له أن يشملَ العيالَ وإلا انتقضَ نسيجُه وصارَ رسمُه بالياً.

وقالَ ليْ: لحافُ السبحانيّةِ يَحِيكُهُ العاملونَ فإنْ لم يتدثَّروا به ، هم وعيالُهم، كانَ نهباً.

وقالَ ليْ: الذينَ لا يَحيكون خيطاً يحاكُ لهم الأمرُ، والذينَ يَحيكونَ كلّ خيطٍ يُسلَبون أمرَهم.

وقالَ ليْ: السلبُ يصيبُ العملَ الذي هو حائكُ العالمِ.

وقالَ ليْ: حياكةُ العالمِ للإنسانِ لأنّني فرغتُ من مادّتِه أوّلَ الأمرِ.

فكأنَّ الأرضَ كانتْ تهتزُّ لتَلبيتِه وكأن التَّلْبِيَةَ صارتْ فأساً من سُبحانيّة غامرةٍ.

[17] مرَّ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي، غوثُ السودانْ، وعارفُ قِرنةَ وأسوانْ، الفتحُ الباهرُ، والنيل الغامرُ، وإمامُ الزمانِ الظاهر، بامرأةٍ افترشتِ الرصيفَ في شمسِ القائلةِ، معَ عيّلينِ لها، تبيعُ أرذلَ المتاعِ. فوقفَ عندها وقالَ: قد أرهقتِ عيالكِ في الشمسِ، هلا قعدتِ في ظلِّ شجرةٍ أو حائطٍ قريبٍ. فقالت الكادحةُ: لا يرانِي المارّةُ، ولا يشفقونَ عليّ حتّى يروا الشمسَ في وجهي ووجهِ عيالي، وما وقفتَ أنتَ عليّ ورحمتني حتّى رأيتَ الرَّهَقَ في سِحنتي وسِحنتهم. فاهتزَّ الأستاذُ لكلامِها فاشترى منها ما عندها وزادَها ما تَكسبُ في عشرة أيامٍ على أن تُظِلَّ العيالَ بقية يومهم. ففعلَ وفعلتْ. فظلَّ هكذا كلَّ يومٍ يشتري الظلَّ للعيالِ حتى شكتهُ أمُّ عيالِه وخاصمتْهُ. فبكَى الأستاذُ وقالَ: هؤلاءِ عيالٌ وهؤلاء عيالٌ، فمنْ أبو العيال؟ قلتُ: عناهُ هو، لم يُصَرِّحْ بهِ يريدُه أن يَتَحشَّمَ.

وقالَ لِيْ: حياكةُ العالَمِ محاكاةٌ لِلّحافِ، لحافِ السّبحانيّةِ.

وقالَ لِيْ: الذي هو في سياقِ المحاكاةِ ربما دخلَ إلى مُقامِ المضاهاةِ.

وقالَ لِيْ: الذي يحاكي وقد يضاهي كيفَ يصيرُ عليه الجوعُ؟

وقالَ لِيْ: الجوعُ الذي يقابلُك في الأسواقِ والميادينِ قِلّةُ لياقةٍ في حضرتِك.

وقالَ لِيْ: الجوعُ في هيئةِ المقابلةِ أفخمُ من الكتابِ في هيئةِ المجاورةِ.

وقالَ لِيْ: الكتابُ المجاورُ في بَرّانِيّةِ التخومِ وأنتَ تحسَبُه في دوحةِ القلبِ.

وقالَ لِيْ: الجوعُ آياتٌ محكماتٌ في كتابٍ صحائفُه متفرّقةٌ بين الدكاكينِ، وقراءاتُه متواترةٌ عن الأمةِ، ورسمُه بختمِ السلطانِ.

وقالَ لِيْ: الجوعُ ضَرعٌ لا يُنْتِجُ غيرَ لبنِ القهرِ.

وقالَ لِيْ: الجوعُ هيئةُ الفقرِ علَى بدنِك.

وقالَ لِيْ: الفقرُ مُترتّبٌ على أمورِ السلطانِ، وتابعٌ لديوانِ أربابِ العملِ، وحاصلٌ لنظامِ الكدحِ والأجرِ.

وقالَ لِيْ: الفقرُ عِقدٌ من المظالِمِ، حيالَ الأعناقِ، لا ينفرطُ إلا بيديكَ.

وقالَ لِيْ: الفقراءُ مادّةُ المترفينَ.

وقالَ لِيْ: المترفونَ مُتلِفونَ لمادّةِ الأرضِ، يُؤذونَها في كبدِها، ويُوجعونَ قلبَها، ويَطؤون رَحِمَها.

وقالَ لِيْ: المترفونَ كافرونَ بالأرضِ لأنّهم يَحجبون غلالَها عن كادحِي هذي الغلالِ.[18]

---

[18] الكفرُ، لغةً، الحَجْبُ. والكافرُ من يحجبُ الحقَّ فيُخفيه وهو حريٌّ به أن يَبين ويتّصلَ بالخلقِ. وكذا المترفونَ يَحجبون غَلّةَ الأرضِ الطيبةِ باحتكارِها وهي حَرِيّةٌ بأن تَتّصِلَ بمن

وقالَ لِيْ: المترفون يطؤونَ الأرضَ بالظلمِ ثمّ يريدون أن يطؤوا بيتي بالعبادةِ الظاهرةِ.[19]

وقالَ لِيْ: المترفونَ قائمونَ على المسلوبينَ، عرقُ هؤلاءِ يصيرُ خمراً في عروقِ أولئكَ.

وقالَ لِيْ: المترفونَ خائنونَ لبيعةِ العدلِ.

وقالَ لِيْ: المترفونَ بيعٌ باطلٌ لكدحِ الحقِّ.

وقال لِيْ: المترفونَ إزاءَ عرقِك.

وقال لِيْ: الترفُ يَتّكِئُ علَى الحُكْرَةِ، ويقتاتُ من السلبِ، ويلتحفُ بالمعارفِ الكاذبةِ.

وقالَ لِيْ: الحُكرةُ استئثارٌ بالأرزاقِ دونَ الخلقِ، وحيازةٌ للزادِ عن الناسِ، ومنعٌ للقمةِ أن تَشُدَّ من أزرِ الجائعينَ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يَسلبون العاملينَ يقولونَ بالأجرةِ الحسنةِ.

حرثَها وبَذرَها ورعاها حتّى صارتْ قمحاً وحريراً وكرسيَّ عرشٍ عتيدٍ.

[19] قلتُ: العبادةُ الظاّهرةُ التي لها حركاتٌ وشكلٌ يَبينُ للناظرينَ ويمشي بها إلى مظنّةِ الرياءِ. فيجبُ على الإنسانِ تجذيرُها. قلتُ: والتجذيرُ أن تأخذَ العبادةَ الظاهرةَ فتغرسَها في تربةِ العملِ المتعلّق بمنفعةِ الخلقِ. ومنها الحجُّ فهو لا يصحُّ عندنا إلا لمن وضعَ ديناراً لحاجاتِ الناسِ الجوانيّةِ قُدّامَ كلِّ دينارٍ لبَرّانيّةِ الحجّ. فإن أوفَى، عدّى البرَّ والبحرَ فطافَ ووقفَ وسعَى ما طابَ له ولكراعِه، ومن عدا عن هذَا صار حجُّه ظاهراً، وعدَا على الحقوقِ وكانَ بُهتاناً مبيناً. قالَ الإمامُ الدريُّ: الحجُّ بَرّاني وحقوقُ الناسِ جُوّانيّةٌ، وما نفعَ الناسَ خيرٌ مما نفعَ السلاطينَ. وربُّ الناسِ مع الناسِ في قلوبِهم وديارِهم، فلا وحشةَ لهم، ولا غُربةَ له من قِلّةِ الزيارةِ المعروفةِ.

وقالَ لِيْ: المستأثرونَ بالأمرِ لا أثرَ لهم عندِي.[20]

وقالَ لِيْ: المستأثرونَ بالأمرِ يُحِبّونَ الصدقاتِ لأنها تَحِلُّ محلَّ العدلِ.

وقالَ لِيْ: الصدقاتُ حيلةُ بَدَلٍ.

وقالَ لِيْ: المستأثرونَ بالأرزاقِ يستأثرونَ ضرورةً بالمصائرِ والمعارفِ والفنونِ.

وقالَ لِيْ: المستأثرونَ بالأرزاقِ يَستأثرون بالقلوبِ، غيرَ قلوبِ العارفينَ.

وقالَ لِيْ: المستأثرونَ يتوسّلُونَ العلومَ والفنونَ والشرائعَ كي يَقْبِضُوا علَى القلوبِ ويحوزوا الأبدانَ، أبدانَ العاملينَ.

وقالَ لِيْ: الشرائعُ تحبِسُكَ عن معناكَ حين تحبِسُك عن فهمِ الأصولِ التي يقومُ عليها الظلمُ.

وقالَ لِيْ: الشرائعُ تحيلُك إلى مناهضةِ المخالفينَ، وأنتَ خاضعٌ بقلبِك لمشابهةِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: مشابهةُ الإنسانِ ضدٌّ على العسفِ الذي ينهضُ على ادّعاءِ المخالفةِ.

وقالَ لِيْ: مشابهةُ الإنسانِ تحفظُكَ عن المناوأةِ الساندةِ للظلمِ.

وقالَ لِيْ: مناوأةُ الإنسانِ تشغلُك عن مناوأةِ الظلمِ فتسندُه.

---

[20] قالتْ مولاتي خديجةُ الشنقيطيّةُ: هم لا أثرَ لهم عندَه هُو، وهذا شأنُه من جهةِ أنه لا يقعُ تحتَ سلطانِهم بالسّبحانيةِ التي هي لهُ حصراً. أما الخلقُ فالمستأثرونَ لهم سطوةٌ عظيمةٌ عليهم من جهةِ حيازتِهم للماعونِ والجبايةِ والأرباحِ. قالتْ: فحتّى تصيرَ لنا سبحانيّةٌ تُخرجُنا عن أفقِ هذا الأثرِ الظالمِ يلزمُنا أن نناهضَ الاستئثارَ وندفعَ الحُكْرَةَ ونضربَ على قلبِ الحيازةِ. قلتُ: وما قلبُ الحيازةِ؟ قالتْ: تغليبُ نصيبِ الفلوسِ علَى نصيبِ العملِ في قسمةِ السوقِ والحُكمِ والعلومِ.

وقالَ لِيْ: مشابهةُ الإنسانِ تُقيمُك على كثبِ المجاورةِ لا الإزاءةِ.

وقالَ لِيْ: الإزاءةُ التي تنبغي لكَ إزاءةُ المستأثرينَ حصراً.[21]

وقالَ لِيْ: الظالمونَ يتوسّلونَ الشرائعَ والعلومَ أكثرَ من توسُّلِهم البأسَ الشديدَ، لأنّ حبسَ القلوبِ أنفعُ لهم من حبسِ الأبدانِ.

وقالَ لِيْ: الذين يُكلِّمُونك، في غالبِ الأمرِ، عن ملكوتِ السماءِ أنّهُ لكَ، اسألهُم، في أقلِّ الأمرِ، عن فدادينِ الأرضِ لمن هي؟

وقالَ لِيْ: الأسئلةُ الكاشفةُ خيرٌ من العلومِ الحاجبةِ والمعارفِ التي تحوزُك عن

---

[21] قلتُ: الإزاءةُ هنا المناوأةُ. وهي لا تصحُّ على الإنسانِ في معناهُ الذي يشملُ الجهاتِ جميعاً. وإنَّ عندنا في الزاويةِ البستانيّةِ بحاضرةِ اطرابلسْ البهيّةِ عارفاً من العارفينَ الذين تخضعُ لهم القلوبُ، وتَرِقُّ الأرواحُ، وتستبشرُ العقولُ، هو قرلصُ بنُ مرقصَ العامليّ. وهو رجلٌ يَتَّبِعُ المنهجَ المدنيَّ في الأخلاقِ والعلومِ، وعنصرُه برّانيٌّ علينا. قلتُ: غيرَ أنّهُ في الجُوّانيّةِ الإنسانيّةِ في أعزِّ مقامٍ. وكانَ يُدَرِّسُ علومَ المعيشةِ في المعاهدِ المدنيّةِ فاجتمعَ به الإمامُ أحمدُ لمّا سمعَ كلامَهُ في الأرزاقِ والسّلعِ. فقدَّمَهُ إلى علومِ الوجدِ وأشواقِ المتصوّفةِ يريدُ أن يتاخمَ لهُ قلوبَ العاملينَ الذين يَحْسِبُ لهم في الدكاكينِ. فتمنّعَ العامليُّ أوّلاً بداعي المدنيّةِ التي لا تَشْغُفُ بأحوالِ القلوبِ. ثم وقعَ علَى بعضِ أخبارِ أبي ذرٍّ، وأشعارِ الحسينِ بنِ منصورٍ، ومعارفِ النخعيّ والبَسطاميّ، فتحرّكَ قلبُه وطلبَ الاستزادةَ. فأغاثَهُ الإمامُ بالوجدِ والمجذوبيّةِ والغناءِ المتعلّقةِ جميعاً بالخلقِ، حتّى صارَ الرجلُ أستاذاً في السوقِ والقلوبِ مرّةً واحدةً. قالَ الإمامُ: فهذا القرلصُ برانيٌّ عِرقاً ولغةً ودِيانةً صارَ من أولياءِ قلوبِنا وأئمّةِ عقولِنا. وهو أدنَى إلينا من كثيرٍ ممن يَقْسِمُ معنا العنصرَ والشريعةَ. قلتُ: لأن المجاورةَ القلبيّةَ تنبغي للإنسانِ كلّهِ، والإزاءةَ الجهاديةَ تنفعُ مع الظالمينَ حصراً. فخلِّ بالَك.

الرزقِ.

وقالَ لِيْ: حيازةُ الرزقِ عن صانعِه لا يَصِحُّ إلا عندَ أهلِ الحُكْرَةِ، أو من نزلَ قلبُه عندَهم.[22]

وقالَ لِيْ: حيازةُ الأرضِ والآلةِ والكدحِ، اللاتي يكونُ بِهِنّ الرزقُ، هو دخولُ وقتِ السّلبِ، واكتمالُ دائرةِ الظلمِ.[23]

وقالَ لِيْ: الذي يحوزُ عنكَ أرضَك وآلتَك وحاصلَ كدحِك يحوزُ عنكَ واصلتَك

---

[22] **كانَ الإمامُ أحمدُ الدريُّ يُشْرِكُ العاملينَ في طريقتِنا في الكسبِ ويجعلُ لهم في المرابحةِ. فالبستانيُّ يأخذُ أجرةً حسنةً عن عملِه، فإن بِعْنَا شيئاً من الثمارِ والنوارِ جعلَ له الإمامُ حصةً في الربحِ، وكذا السائسُ الذي يرعَى حيوانَنا وطيرَنا يأخذُ الأجرةَ الطيبةَ فإن عَمِلَ حيوانُنا في معصرةٍ أو أَطلعَ بيضاً أو حليباً جَعلَ له الإمامُ حظاً في كلِّ نَتْجٍ. قالَ بعضُنا: هذا لا يَلْزَمُ. قالَ الإمامُ: إذا لَزَمَ عملُه، أي العاملُ، لَزَمَتْ مُرَابحَتُه. وإن كثيراً من الظلمِ والأَثَرَةِ والحزنِ في العالمِ من سَلْبِ العاملِ أُجْرَتهُ ونهبه حقَّهُ في المشاركةِ، فإنَّ رأسَ المالِ لا يَتقدّمُ علَى العملِ إلا في حسبةِ الظلمِ التي غلبتْ على العقولِ والقلوبِ.**

[23] **قالت أستاذتي العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جولِيُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ، العارفةُ بالإشاراتِ، الموغلةُ في المسافاتِ، وإمامةُ برِّ أوباري وغات: هذا من أثرِ درسِه لعلمِ العُمرانِ عندَ ابنِ خلدونَ وفهمِه للاجتماعِ والأسواقِ. أو لعلّه مِنَ اتّصالِ الشيخِ بفلسفاتِ العملِ والربحِ والتراكمِ حين جلوسِه ببعضِ مدارسِ الهندِ أو باريسَ. قالَ الإمام أحمدُ: الغدامسيُّ مهمومٌ بحيازةِ ناتجِ العملِ عن العاملِ، وحاصلِ الحرثِ عن الحارثِ، وجسدِ الآلةِ عن المتوسّلِ بها في الحدادةِ أو النجارةِ أو الصناعةِ، حتّى قدّمَ الحيازةَ على الشّرْكِ في عَظُمِ الذنبِ. قلتُ: ولهذا يقولُ الغدامسيُّ علَى لسانِ الحقّ: الحائزونَ أشدُّ وقعاً علَى أسمائي من المشركينَ.**

بي وبذاتِك وبالعالِمِ.

وقالَ لِيْ: الفقرُ حيازةٌ لمعناكَ عنكَ.

وقالَ لِيْ: كدحُك إزاءَ المُأجِّرِينَ، الحائزينَ، المستأثرينَ، المضاربينَ، المرابينَ، الحاكرينَ، الكانزينَ، أربابِ العملِ، آلهةِ التجارةِ وأوثانِ الأسواقِ.

وقالَ لِيْ: الذي ينهبُ عملَك ينهبُ من معناكَ وهو يقولُ استأجرتُهُ.

وقالَ لِيْ: العملُ يؤولُ للساعدِ الذي كدحَهُ، والقلبِ الذي اقترفَهُ، والعقلِ الذي حسبَهُ ورتَّبَهُ.[24]

وقالَ لِيْ: الذي يجعلُ العملَ في خدمةِ الأصولِ المحفوظةِ عنِ الشِّركةِ يَغُلُّ الإنسانَ بحبلِ الحُكْرَةِ.

وقالَ لِيْ: العملُ هو الذي يُطْلِعُ نُوّارَ الأرضِ وبَقْلَها وحَبَّها فكيفَ يَصِحُّ عندَك أن تَسْتَلَّهُ للحَكْرِ والكَنْزِ والمُضاربةِ؟

---

[24] قلتُ: لنا في الطريقةِ البستانيّةِ بحاضرةِ اطرابلسْ البهيّةِ وِرَشٌ صغيرةٌ للنجارةِ والحدادةِ وبعضِ الأعمالِ المهنيّةِ، وفي الوقفِ الذي جعلَهُ لها الشيوخُ والتلاميذُ ثلاثةُ بساتينَ للثمرِ والكرومِ. فكانَ الإمامُ أحمدُ يجعلُ الكدحَ فيها جميعاً تابعاً للتلاميذِ ولعمّالِ الناحيةِ بالمشاركةِ الحسنةِ بينهم وبينَ الطريقةِ. ولم نكُن نستأجرُ الناسَ إلا ضرورةً. قالَ الأستاذُ العارفُ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي: من مَظانِّ الظّلمِ التي نخشاها علَى أنفُسِنا إخضاعُ العملِ لسطوةِ الفلوسِ، والحقُّ أن يَغلِبَ العملُ لأنه منتجُ هذي الفلوسِ، وهو جوهرُ الإنسانِ ومعناهُ. أمّا الفلوسُ فهي ورقٌ ونحاسٌ يكنِزُهُ الكانزونَ ويسحَتُه السّاحتونَ بالحيازةِ عن الناسِ. قلتُ: وكنّا نحثُّ العاملين في نواحي اطرابلسْ على هذا المنهجِ في الكسبِ والمرابحةِ والمشاركةِ يقولُ لهمُ الإمامُ أحمدُ: اجمعوا أمرَكم علَى هذا لأنّه يقصِمُ ظهرَ الظّلمِ، وتتهافتُ لهُ سطوةُ الاستئثارِ، ويغلبُ به العاملونَ.

وقالَ لِيْ: العملُ يُصَيِّرُكَ صانعاً ناسِجاً حائِكاً زارِعاً، وهذه من أسمائي التي أتَدلَّلُ بها، وأحوالي التي أشارِكُك فيها.

وقالَ لِيْ: العملُ استنهاضٌ لهِمّةِ الكونِ في أثرِكَ فكأنّهُ أُمّةٌ تَتْبَعُكَ وأنتَ تمشي لا تدري أنّكَ صِرْتَ الخليفةَ.

وقالَ لِيْ: العملُ إزاءَ الأصولِ.

وقالَ لِيْ: الذين يعملونَ لهم نَتْجُ أيديهِم لأنّهُ ترتّبَ عن قلوبِهِم وأسمائِهم التي تَسَمَّوْا بها.

وقالَ لِيْ: الذينَ يعملونَ ثم لا يَستطيعونَ الزادَ نُهِبوا وسُلِبوا وهم يَنظُرون ولا يُنظَرون.

وقالَ لِيْ: العملُ يحصلُ عنهُ علومٌ يخشَاها الذينَ يَكنزونَ ويَحْكِرون، فيَشترون ويَبيعون في العلومِ كأنّها الفحمُ والحديدُ.

وقالَ لِيْ: علومُ الكدحِ تكدحُ لكَ أرضَ الثورةِ وزرعُك مازالَ في ضميرِ الحَبّةِ لم يَفْلُقْهَا بعدُ.

وقالَ لِيْ: علومُ الكدحِ تطلبُ ترتيبَك وتنشدُ منهجَك وتُنادي علَى حسابِك ومراجعتِك.

وقالَ لِيْ: علومُ الكدحِ بِشارةٌ بالضرورةِ لأنّها إِخبارٌ عن الانعتاقِ.

وقالَ لِيْ: الذي ينتجُ عن الكدحِ يُسفِرُ عن الطريقِ الذي ينبغي للكادحِ، فمِن هذا تكونُ البِشَارةُ.

وقالَ لِيْ: البِشَارةُ عبارةٌ في كتابِ النبوّةِ غيرَ أنها تسبقُ الدخولَ إلى الغارِ.

وقالَ لِيْ: الذي يأخذُ من علومِ الكدحِ يَنْقَدِحُ صُوّانُ قلبِه بوهجِ النُّبُوّاتِ فإذا

ذهبَ في السّبيلِ لم يَنْقُصْ عليهِ زادُ المناهضةِ.[25]

وقالَ لِيْ: الكدحُ زادُ المناهضةِ لأنه المِحَكُّ الذي تخرجُ عنه علومُ البشارةِ أوّلَ الأمرِ.

وقالَ لِيْ: الكدحُ ثمّ الفقرُ ترتيبٌ عجيبٌ.

وقالَ لِيْ: الكدحُ يوجبُ الكفايةَ عفواً والحاكرونَ يوجبونَهُ للعازةِ قسراً.

وقالَ لِيْ: الكدحُ الذي يحصلُ عنه الفقرُ يكشفُ عن تهافتِ الترتيبِ الذي

---

[25] بعثتْ ورائي العَارفةُ بالِله فاتنةُ بنتُ الواجدةِ باللهِ المهديّةِ، فوجدْتُها وسطَ حيّ الصناعةِ ببلدتِنا، حيثُ الورشُ والمعاملُ والآلاتُ الحافرةُ والثاقبةُ. فإذا هيَ جلستْ علَى حصيرةٍ أمامَ دارٍ من دورِ الخِراطةِ والحديدِ، وحولَها العمّالُ ببذلاتِ الشُّغلِ وبعضِ أدواتِهم التي تعجَّلُوا فحضرُوا بها. فسلّمتُ عليها وقلتُ: أي مولاتي، ما حالُكِ وسطَ الشِّغّيلَةِ والصنايعيّةِ؟ قالتْ: لي معهُم عملٌ ومهنةٌ سبقتْ. وإني قد نظرتُ إلى ما هُم فيهِ من كدحٍ واجتماعٍ للجهدِ والإنتاجِ، ونسقِ البيعِ والشراءِ، وترتيبِ الحاجاتِ والقوانينِ. فإذا هم يعلمونَ ويعرفونَ ويفهمونَ مِن أمرِهم ما لا يَصِحُّ لغيرِهم. غيرَ أنّهم بلا منهجٍ صحيحٍ أو اجتماعٍ جالبٍ للمصلحةِ أو مُكاتَفةٍ فكريّةٍ ورفاقيّةٍ. فإني أكلّمُهم منذُ أيامٍ أن تكونَ لهم نِقابةٌ تَسُدُّ هذا كلَّهُ وأكثرَ. قلتُ: وما أكثرُ؟ قالتْ: تدفعُ عنهُم العلومَ المأجورةَ، والمعارفَ المسخَّرةَ، التي يبيعُ ويشتري فيها المترفونَ يُريدون أن يحجِبوا علومَ العملِ ومعارفَ الكدحِ والمناهضةِ. قلتُ: فأرسلتِ تطلُبينَني؟ قالتْ: نعمْ، أريدُ أن أخلِطَ الكلامَ في البيعِ والمكوسِ والحقوقِ المهنيّةِ ببعضِ روحانيّاتِنا وأشواقِنا وفنونِنا، حتّى يتقوّى بها هؤلاءِ العاملونَ ولا يَفْتُرُ عزمُهم. وأنتَ تُخرِبشُ الأسرارَ يا موسَى، وتحفظُ الكتبَ والآدابَ المعتبرةَ، فهيِّئْ نفسَك للدرسِ والغناءِ والحضرةِ الصوفيّةِ في هذهِ الورشِ الصناعيّةِ. فقلتُ: هذا درسٌ مَهيبٌ وغناءٌ عجيبٌ وحضرةٌ باهرةٌ! أفعلُ ويفعلونَ يا أستاذةُ.

انتظمتْ عليهِ الأمورُ.

وقالَ لِيْ: كدحُكَ يُلْقِمُكَ الفقرَ وهم أصولهُم تُفرزُ صديدَ الفلوسِ.

وقالَ لِيْ: الكادحونَ أسماءُ الإنسانِ الحسَنةُ ثمّ هُمُ الأسماءُ الحسنَى.[26]

---

[26] قالَ السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ، مثالُ التلاميذِ والمريدين في ورفلّةَ بَرِّ الرياحين: رأيتُ في هذا الوقتِ بالبلدِ الذي نزلَ تحتَ حكمِ الأوغادِ رجلاً وامرأةً وعيالَهما لا يكادونَ يجدونَ ما يسدُّ الرمقَ. فالرجلُ يعملُ في البناءِ بياضَ النهارِ ثمّ لا يأخذُ أجرتَهُ المنقوصَةَ إلا بعدَ لَأْيٍ، والعيالُ يبيعونَ بعضَ الحاجةِ في السوقِ، والمرأةُ تحيكُ وتخيطُ وتُرَتِّقُ فتكسبُ القليلَ المتقطِّعَ. فكانَ الرجلُ ساخطاً يكادُ الغضبُ يذهبُ به أو بمن رهنَهُ ورهَن عيالَه في محبسِ الفقرِ، والعيالُ محزونينَ يكادونَ يتفتَّتُونَ من الوجعِ. غيرَ أن المرأةَ صابرةٌ رابطةُ الجأشِ يسكنُ إليها الرجلُ والعيالُ، فتذهبُ عنهم القسوةُ التي غرسَها الفقرُ في قلوبِهم، والحزنُ الذي أحاطَ بأرواحِهم.

قالَ شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ: هذه الأسماءُ الحسنةُ تأخذ بالهَا من بعضِها. فالرجلُ في مُقامِ اسمِ العدلِ، والعيالُ يمشونَ تحتَ اسمِ الودودِ، والمرأةُ مهاجرةٌ في تخومِ اسمِ الرحمنِ. فهؤلاءِ الذين ظَلموا الرجلَ والعيالَ والمرأةَ إنما يظلمونَ هذهِ الأسماءَ الجليلة، فيُصيبونَ الذاتَ السُّبحانيّةَ وهم يحسَبون أنهم بإزاءِ المستضعفينَ لا أكثرَ. قالَ: ومِنْ هذا وجبَ علَى أهلِ المناهضةِ القائمةِ ضدّ الظلمِ أن يُظهروا الأسماءَ السّبحانيّةَ في المقاماتِ الإنسانيّةِ فينهَدَّ عرشُ هذا الظلمِ. قلتُ: كيفَ يفعلونَ؟ قالَ: يأخذونَ الدِّيانةَ، والرّوحانيّاتِ، وتطلُّعاتِ القلوبِ، وأشواقَ الغيبِ، فيَسنُدونَها بعلومِ المظلوميّةِ، ويجعلونَها في سبيلِ المناهضةِ، وتقويةِ المظلومينَ، ومؤونةِ الحزَانَى والمكلومينَ. فإنْ صارتِ الأسماءُ ذخيرةً قلبيّةً لم يُمْكِنْ للوجعِ والوهنِ أن يَغلبَ علَى البني آدمِ.

وقالَ لِيْ: الأسماءُ الحسنةُ تنبغي لها مجاورةُ الأسماءِ الحُسنى.

وقالَ لِيْ: الكدحُ الذي لا تخضعُ له الأصولُ استلابٌ.

وقالَ لِيْ: الاستلابُ رحمُ الظلمِ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ انقطاعٌ لنسلِكَ عن زادِ الكفايةِ الذي يَلزمُ عن كدحِكَ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ انقطاعُك عني والذي يَقطعُك عنّي يُناوِؤُني فيكَ.

وقالَ لِيْ: الذين يُناووُونني فيكَ يَسْتَلُّونَ علومَ الجحودِ علَى مقامِ الربانيّةِ.

وقالَ لِيْ: الكادحونَ مقامُ الربانيةِ في هيئةِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الإنسانِ لا يصحُّ لها الفقرُ بلِ الخزائنُ كلُّها.

وقالَ لي: هيئةُ الإنسانِ حضرةُ الخلافةِ، والحاكرونَ يراكِمُونَ العروشَ يجلسونَ عليها بحدِّ الفلوسِ التي نتجتْ عن الحضرةِ في مقامِ الكدحِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الإنسانِ يلزمُها العرشُ، هذا الذي استويتُ عليه أحفظُه لكَ عن الحاكرينَ.

وقالَ لِيْ: يسألونَ عن هيئةِ الاستواءِ كيفَ هيَ، هيئةُ الاستواءِ المُرَابَضَةُ لأني أرابضُ على العرشِ لخاطرِ أن تدخلَ عليَّ بالعرقِ والطينِ وزيتِ الحديدِ، فتجلسَ.

وقالَ ليْ: أنتَ خبزُ الفقراءِ، ورمقُ المعتازينَ، وبِلّةُ ريقِ السّابلةِ. وها أنا طَلَعْتُ عليكَ وقد جَفّتْ عُروقي، وأُرهقتْ كبدِي، وانفطرَ فؤادي. والمحبونَ من حولي لا يَجدون ما يَشُدُّ أزرَ القلبِ، والعيالُ يخدشونَ وجهي يَحسَبونَهُ ماءً أو رضواناً، والبُنَيَّاتُ يَنْضَبْنَ من جوعٍ. حتّى إذا دخلْتَ البيوتَ واتّكأتَ على الحوائطِ وقعدتَ على العتباتِ، أفاضَ إليكَ الجوعَى وقامتْ إليكَ البُنَيّاتُ، وعَلِموا أنكَ زرعِ الأرض. فصاروا يَبُوسونك وأنتَ تَستحي منهم، وأنا بينهم. وأَلْقَمَتْكَ أمّهاتُ العيالِ أثداءَهُن، يدفقُ حليبُ الأرضِ الذي صارَ إلى الضُّروعِ، ويضيءُ الشوقُ الذي بين الضلوعِ. ويَتّصِلُ ماءُ الأصلابِ بطينِ الأرحامِ، ولا يَعُدْ هناكَ جُبَاةٌ وأربابُ رزقٍ، وأجرٌ ممنونٌ وغيرُ ممنونٍ. أضغاثُ الجباةِ، وأمانيُّ الذين سَلبوا، ووهمُ المترفينَ. هذا إرثٌ للفقراءِ، وعرسٌ لكَ، وحاصلٌ عن معنى الكونِ. فاصدعْ بما تحبُّ، وتدثّر بلحافِ الاسمِ، تجدْ عندي سقايةَ الناسِ، وحصادَ الزُّرَّاعِ، وخبزَ العاملينَ.

13. موسمُ الظُّلمِ

(وهو الحُجَّةُ)

ومن أحوالِه الفردُ والجماعةُ واقتحامُ الشغافِ والمظلوميّةُ والمآلُ والحُكْرَةُ والفهمُ والرمقُ والعلومُ المناوئةُ والسياقُ والإحاطةُ والعلومُ التابعةُ والمناهضةُ

وفيه اختلفَ معاشُ الناسِ، وملكَ ذَوُو البأسِ منهُم عليهِم، وأقاموا سلطانَهم بالحديدِ والعلومِ والأثرَةِ. فدخلَ بعضُهم في عهدِ بعضٍ[1]، وأَوْرَثَ الداخلونَ ذراريهم الرِّقَّ، وألزموهُم الغلَّ والقيدَ، عبداً من ظهرِ عبدٍ. فذُلَّتْ أجيالٌ منَ الخلقِ لا قِبَلَ لحقٍّ بأوجاعِها. وتعاضدَ المترفونَ، واستندَ كلُّ عزيزٍ علَى عزيزٍ، حتى ذهبَ الأعزّةُ بالأمرِ كلِّهِ. فلما فعلوا مَنعُوا الماعونَ[2]، واستبدُّوا بآلاتِ الزّرعِ والصُنعِ، وجعَلوا جهدَ الناسِ في العملِ موقوفاً على أموالِهم وشهواتِهم، وأجزلوا الأجرَ دَراهِمَ لا تُسمنُ من رهَقٍ، ولا تُغني عن كدحِ العاملينَ.

وجاؤوا إلى مَشاعِ الأرضِ فقيّدُوه، وجعلوا عليهِ العسسَ والأسوارَ، ودافعوا الناسَ عنه بالبهتانِ. وضربوا المكوسَ على الزارعينَ الصانعينَ يُخرجونَها من

[1] قالَ أستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ: دخلتِ الشرائعُ في حُكم الرقِّ حتى كادَ يخرجُ عنها الحقُّ كلّهُ بعد أن خرجَ بعضُه. قُلنا: كيفَ ذاك؟ قالَ: أطلقتِ الناسَ في أسواقِ النخاسةِ يبيعونَ ويشترونَ، وأباحتِ السَّبْيَ والهديَّةَ، وزيّنتِ الغنيمةَ. فكلّما أُلبسَ إنسانٌ غلَّ الرقِّ أُلبستِ الشرائعُ غلاً من أغلالِ الباطلِ. والمغلولُ بالباطلِ لا يكونُ على حقٍّ، لأنّه لم يقدرْ على فكرٍ أو جَهدٍ يُخرجُه عن حالِ البطلانِ الذي هو فيهِ. قلتُ: فمنه يَلزمُ للشرائعِ ذاتِ السطوةِ الروحيةِ أن تميلَ عن الظلمِ ثم تمشي في سبيلِ الإنسانِ.
[2] قالتْ جولينُ بنتُ نورِ العقولِ قرلسَ العامليّ: "الماعونُ" كلُّ ما أعانَ ابنَ آدمَ على الكدحِ، وهو الآلةُ المعمولةُ كالإبرةِ والفأسِ والحاسوبِ. ويقابلُها، في علمِنا، الآلةُ العاملةُ التي هي ابنُ آدمَ حصراً: بدنُه وعقلُه وقلبُه. و "منعوا الماعونَ": أي احتكروا الآلةَ المعمولةَ برؤوسِ أموالِهم، ثمّ امتهنوا الآلةَ العاملةَ لها، وهذا أصلٌ من أصولِ الظلمِ عظيمٌ. فتدبَّر في هذا حفظَكَ الله من الحُكْرَةِ والامتهانِ.

بينِ العرقِ والدمِ، سُحتاً طيّباً لا اختلافَ فيه.[3] وعقدَ الذين هم يَظلمونَ في نواحيهم للذينَ ظُلْمُهم في العالمينَ، فنقصتِ الأرضُ من أطرافِها من العدلِ حتّى خلتْ عنهُ. ودفعَ الأعلَى الذي هُو أدنىَ بالباطلِ، فاستوَى الظلمُ علَى القلوبِ، حتى نزلَ بين المظلومينَ، فقرّ فيهم وهم لا يكادونَ يميّزونَه من أُلْفَتِهِ، فصارَ دُولةً بينهم، وشِرعةً ينزلون عندَها.[4] ونتجَ الظّلمُ من أيدي العاملينَ ذوي الأجرةِ،

---

[3] قالَ السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ: ربحَ ظالمٌ، وقد ضاعتِ البلدُ في غوطِ الباطلِ، مناقصةً لرَصْفِ سبيلٍ للناسِ، فشقَّهُ نصفينِ، فأكلَ هو والأوغادُ الذين مكَّنَ البرانيُّ نصفاً وسوَّى نصفاً. فأخرجَني الإمامُ أحمدُ من الخلوةِ الصوفيّةِ ومشَى بي في السّاحةِ العموميّةِ وجعلَ يقولُ: الظالمُ أكلَ الماعونْ، وأنا أقولُ: والقومُ نيامٌ راضونْ. فأخذهُ العسسُ المأمورونَ فأوثقوهُ في الحبسِ ثلاثَ ليالٍ حتى شفعَ فيه الظالمُ فأُطلقَ. فبكَى الإمامُ أحمدُ بعدَها وقالَ: أرادَ أن يَضُرَّ وينفعَ حتى يزيدَ في الهيبةِ، والنافعُ الضّارُّ وحدَهُ لا شريكَ له.

[4] بينما أستاذتي راويةُ بنتُ جَميلٍ، أستاذةُ المحبةِ والمكابداتِ، في مساجدِ وزوايا العجيلات، تتكلمُ في أمورِ المعيشةِ وأحوالِ الخلقِ في محاضرةٍ عامةٍ قامَ رجلٌ متوسطُ الحالِ وقالَ: فإنَّ أكثرَ الظلمِ الذي يصيبُني يجيءُ من جهةِ الفقراءِ الذينَ لا سلطانَ لهُم، وصغارِ الكَسَبةِ المنهوبةِ حقوقُهم، والعاملينَ الكادحينَ يَغُشُّونَني في العملِ والأجرةِ. قالتْ زِينةُ العالمينَ: وهل يكونُ من رحمِ الظلمِ إلا ظلمٌ يا سبحانَ اللهِ! إنما هؤلاءِ أقوامٌ أُدخلوا في دائرةِ الظلمِ يَنْظِمُها قانونٌ ومبادئُ وترتيبٌ قصديٌّ وفعليٌّ، ولكلِّ دائرةٍ علمُها ومعارفُها وأخلاقُها التي تصيرُ منكَ، وتصيرُ أنتَ منها إن دخلتَ الدائرةَ. قالَ الرجلُ: فأينَ نضربُ يا أستاذةُ؟ قالتْ: الدائرةُ تُهتكُ هتكاً حتى تَخرجَ عن حدِّها وتتّصلَ بفضاءِ الإمكانِ الكاملِ فاضربْ حيثُ يؤاتيكَ الهتكُ. قالَ الرجلُ: نعمْ يا أستاذةُ، أفعلُ إن شاءَ اللهُ.

فأكلُوهُ فباؤوا بظلمٍ يطلعُ من سياقِهم. واتَّصلَ أمرُهم بالمترفِين، فصارُوا أولياءَ لهم من دونِ أنفسِهم، فظاهرُوا علَى بعضِهم وهم من ظهرِ بعضٍ إخوانٌ، مظلومونَ لا يُرَدُّ لهم دعاءٌ. ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به من الظلمِ يفترقونَ على السُّبُلِ التي جعلناها لهم فرحاً. حتّى أَرْهَقُوا بعضَهم عليها يقولونَ هذا ذَكَرٌ وهذي أنثى، والكلامُ فصيحٌ وأعجميٌّ، وذا جِلدٌ كجلدِ آبائنا نعرفُه من طِيْبِهِ وذا جلدٌ لا نعرفُه، وهذا شرعُنا ناصعاً وذا شرعُ الخاسرينَ. فقعدَ الحقُّ مَهيناً وهو القائمُ بالعرشِ. وجاءَ الظالمونَ فكتبُوا أنّ أمرَهَم رشيدٌ، وفِعْلَهم حكمةٌ. فطلعَ الذينَ يعرفُونَ الحروفَ فأنشأوا المقالاتِ، وجمعَ الدارسونَ دروسَهم، وأستأنسَ الذين يشرحُون الكتابَ بمن ملَكَ بغيرِه.[5] فقالوا حلالٌ زُلالٌ، وهي لمن اتَّبَعَ واستقامَ،

[5] لما أفسَد الظالمونَ في البلادِ وأرادوا أن يستأثروا بالأمرِ كلِّهِ أَلبسُوا الدخولَ ثيابَ الخروجِ، وأغروا ولداناً ورجالاً عدداً. وأرسلوا إلى كُبرائِهم من ظالمي الأفقِ الغربيّ أنِ أنصُرونا علَى بعضِ أهلِنا فنقسمَ البلدَ بيننا وبينكم فنغنمَ وتَغنمون. فلمّا تَهيأتْ لهم الحالُ أخرجوا على الناسِ أربعيَن قارئاً حافظاً راوياً يقولونَ لا ضيرَ في حلفِنا مع الظالمينَ، وهذا صلاحٌ للبلادِ والعبادِ، وخلاصٌ من الغمِّ. وقالَ كبيرٌ منهمُ: هو حلفُ الفضولِ، وهذه طيرٌ أبابيلُ. فأَحرقوا وقَتلوا وهُدِّمتْ بيوتٌ وذُبحتْ عوائلُ واستُشهدَ الأبطالُ يقارعونَهم بالصبرِ والجلادِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيُّ، رفيقُ الكادحينَ، وملجأُ المظلومينَ، إمامُ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمُ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة: نقاتلُهم وكبراءَهم حتّى لا نجعلَ لهم سبيلاً على أهلِنا ومواردِ أرزاقِنا ومعانينا وأحلامِنا ونُفسدَ عليهم ما يريدونَه للعالمينَ. وأما إصلاحُ أمرِنا فهو شأنُنا لا شأنُ المترفيَن الذين يُوالونَ في الأفقِ الغربيِّ من هم أقربُ إلى البهيميّةِ منهم إلى البشريّةِ.

أهلِ الجماعةِ والصفِّ، الداخلينَ في السّلْمِ كافّةً. فلمَّا تَوَلَّوا قامَ بهم فسادُ الأرضِ، ينهبونَ الحرثَ والنسلَ، أيديهم إلى أفواهِهم بالرزقِ يسألون الناسَ الصبرَ. وقعدَ الباطلُ مقعدَ الحقِ. ولم يكنْ علمٌ يُعرفُ به مبدأُ الحالِ وأصولُه التي يقومُ عليها.[6] فذَهَلَ الناسُ عن أمرِهم، وظنُّوا فسادَ الأمرِ منْ طبعِه وجِبِلَّتِهِ، فسكنُوا ورضوا، وقالُوا جنّاتُ عدنٍ تجري من تحتِها الأنهارُ. فاشتدَّ الطُغاةُ، وأحكَموا الغلَّ في الرّقابِ، وخرجُوا عنِ الميزانِ، وجلسُوا علَى العروشِ. حتى عَزَّ العيشُ وتهافتتِ العلومُ، وغَلَبَتْ علَى الناسِ سطوةُ الفلوسِ وظهرَ عليهِمُ الكانزونَ الحافظونَ. فأنكرَ الجوعَى بطونَهم، والحُفاةُ أقدامَهم، والعاملونَ نتجَ أيديهِم. واكتملتْ دائرةُ الظلمِ[7]، وانعقدَ حجابُها علَى البصيرةِ.

فجاءَني من لا يَجي ولا يمكسُ ولا يحكرُ وقالَ لي:

---

[6] قال الأستاذُ الحضرميُّ: هو علمُ أحوالِ المعيشةِ وترتيبِ الأرزاقِ، به يُعرفُ اضطرابُ الميزانِ، وخروجُ الأمرِ عن العدلِ، وفيه كثيرٌ منَ الحسابِ والتحليلِ وردِّ الأمور إلى أصولِها. وهو أولُ إشاراتِ التحوّلِ وأصلُ الفهمِ والتفكّرِ. قالَ: واللهِ ما ابتدأَه أحدٌ من الخلقِ أو ذهبَ فيه إلا كُتبَ عند الله صِدِّيقاً وغوثاً للناسِ لا يتعلّقُ به أكانَ قريشيّاً من مُضَرٍ، أو تَكروريّاً من برّ السودانِ، أو جِرمانيّاً من البُروسِيّين.

[7] قال مُعلّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى، وهو من أئمَّتِنا في علِم المظالِمِ واختلالِ المعايشِ: "اكتملتْ دائرةُ الظلمِ" أي اتّصلَ أوّلُها وهو الترفُ بآخرِها وهو الرّضى. ومن صُلبِها أربعونَ غلاً، كل غلٍّ انعقدَ بمظلُمة، في كلِّ مَظلمةٍ سوادٌ غيرُ مبصرٍ، يخبطُ الخلقُ فيه فلا يُفلحونَ سبيلاً. قالَ: ومن كانَ هذا زمانُه وقعَ عليه فرضُ الخروجِ بشرطِ الفهمِ والمؤونةِ.

الظلمُ مناوأةٌ لاسمِي في سياقِ الإنسانِ،
وجرأةٌ علَى حضرَتِي التي تاخمتكَ فتعلّقتْ بأحوالِك.

وقالَ لِيْ: الظلمُ أسبابٌ معقودةٌ ببعضِها، مرتبةٌ من مبادِئها إلى نتائِجها، فإذا فهمتَها غلبتَها من جُوّانِيَّتِها.

وقالَ لِيْ: عِلْمُ المظالِمِ من لَدُنِّي، فهُوَ معقودٌ بالميزانِ لا ينفكُّ عنهُ، غيرَ أنّ حسابَهُ وترتيبَهُ من سياقِ الاجتماعِ.

وقالَ لِيْ: علمُ المظالِمِ حاصلٌ عن الاجتماعِ لأنّ هذا الاجتماعَ حيّزُ الظلمِ أولاً.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي يحيطُ بكَ فرداً ينوشُكَ جماعةً، والظلمُ الذي ينوشُكَ جماعةً يتعلّقُ بكَ فرداً.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي ينتظمُ في هيئةِ الاجتماعِ، لا ينفكُّ إلا بانفكاكِ هذهِ الهيئةِ عن اسمِها وأحوالِها.[8]

---

[8] قالَ مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ: كثيرٌ ممّن يناوئُ الظلمَ يضربُ بسيفِه أو علومِه أو فنونِه في تخومِه الخارجةِ، ولا يَصلُ إلى قلبِه الذي فيهِ عروشُ المستأثرينَ، ودواوينُ الماكسينَ الحاكرينَ. فاعلمْ من هذا، رعاكَ اللهُ، إنّ الظلمَ العتيدَ الذي يُطلعُ المظالمَ الراهنةَ المتواترةَ في الوقتِ يكونُ متّصلاً بهيئةِ الاجتماعِ، ومُشتبكاً بنظامِ السوقِ، وتابعاً لبِنْيَةِ الحكمِ والسّطوةِ. فمن هذا لا تكونُ المجاهدةُ والموتُ علَى عتباتِ الظلمِ البرانيّةِ. بل ينبغي للعارفِ أن يتقدّمَ في أرضِ الباطلِ، ويُمعِنَ في سياقِ الاجتماعِ، حتى يَهتِكَه من جُوّانِيَّتِهِ. وإلا استعادَ هذا الباطلُ زمامَ المنازلةِ، والتفَّ سياقُ الاجتماعِ علَى المناوئِينَ، وأعادَ الظُّلمُ إنتاجَ بضاعتِه في أسواقِ الخضوعِ. لأنّ مصانعَهُ ودكاكينَه، وقوانينَهُ وسَدَنَتَهُ، وعلومَهُ وطبائعَهُ، لم تَمْسَسْها الثورةُ الواجبةُ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الاجتماعِ الترتيبُ العتيدُ للأمورِ التي عليها معاشُك وعلومُك وعبارتُك.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الاجتماعِ العتيدةُ يحصلُ عنها الظلمُ العتيدُ ثم يرجعُ هذا فيُطلِعُ تلكَ في دورةٍ كاملةٍ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ العتيدُ يُربكك لأنه مشتبكٌ بهيئةِ اجتماعِك التي هي سياقُ قلبِك وعلومِك.

وقالَ لِيْ: الذي يرتبكُ بظلمِ الاجتماعِ يصحُّ لهُ، لأنّ هذا الظلمَ داخلٌ في شغافِ القلبِ فلا يراهُ الإنسانُ إلا رَهَقاً.

وقالَ لِيْ: الرؤيةُ تَلي الشغافَ فمِنْ هذا يُربِكُكَ ما اختلطَ بالشّغافِ.[9]

وقالَ لِيْ: المرتبكون يَنبغي لهم اقتحامُ الشّغافِ لأنّ فَضّها يفضُّ عنهُم ما بِهم.

وقالَ لِيْ: اقتحامُ الشّغافِ أن تمَشي في تخومِها بعلومِك البرّانيّةِ أو أحوالِك الجُوّانيّةِ فإذا أنتَ تحتَ سِدْرِها ترَى قلبَك والعالمَ في رمقةٍ واحدةٍ.

---

[9] قلتُ أنا موسَى: عندَ الغدامسيّ أنّ الشّغافَ آلةُ الرؤيةِ مثلمَا العيونُ آلةُ النظرِ. فإنّ العيونَ لا تنظرُ إلى ذاتها وإنما إلى محلّاتِ النظرِ خارجَها. فإن حاولتَ أن تُسفرَ عن عينيكَ لنفسِك لم تقدرْ، إلا بوسيطِ الانعكاسِ في المرآةِ ونحوِها، وهو وسيطُ تشبيهٍ لا على الحقيقةِ. وكذا الشغافُ ترَى العالمَ وسياقاتِه وعلومَه رؤيةَ الحقّ فإنِ اختلطَ شيءٌ منه بها، كالظلمِ الاجتماعيّ العتيدِ، لم تقدرِ الشّغافُ أن تراهُ إلا بوسيطِ الاقتحامِ، أي اقتحامِ الشغافِ ذاتِها. قالَ الإمامُ أحمدُ: الذي يدخلُ على الشّغافِ يجلسُ في دارِها الآخرةِ فيُمْكِنُه أن يرَى نواحي هذه الشغافِ وأطرافَها، كالذي يقعدُ في مركزِ الدائرةِ فيظهرُ له فضاؤُها ومحيطُها وأقطارُها. والاقتحامُ شيءٌ عجيبٌ، بعضُه إلهاميٌّ وأكثرُه اجتماعيٌّ. فخلِّ بالَك.

وقالَ ليْ: اقتحامُ الشّغافِ فتحٌ يقاربُ، رَهقاً وغمراً، فتحَك لأطرافِ الكونِ أو لمدائنِ السبحانيّةِ.

وقالَ ليْ: اقتحامُ الشغافِ مرتَهَنٌ بهيئةِ الاجتماعِ التي تريدُ أن تُخلِّيها وراءَك وتدخلَ إلى قلبِك.

وقالَ ليْ: قلبُك فردٌ صمدٌ.

وقالَ ليْ: الفردُ والجماعةُ هيئتانِ لإنسانيّتِك العاملةِ.

وقالَ ليْ: الفردُ والجماعةُ الوهجُ الكامنُ ثم الاتقادُ الذي لهُ الغلبةُ والسطوةُ.

وقالَ ليْ:الفردُ والجماعةُ جهتانِ تُفضِيانِ إليكَ من وشيجةٍ واحدةٍ.

وقالَ ليْ: كلُّ جهةٍ من جهاتِ الجماعةِ، اللغةُ والجلدُ والمكانُ، تدخلُ في معناكَ.

وقالَ ليْ: الظلمُ بجهةٍ ظلمُ لكلِّ جهةٍ، كالدائرةِ التي يُنتَهكُ اسمُها جميعاً إن انتُهِكَ محلُّ نقطةٍ على محيطِها.

وقالَ ليْ: الجماعةُ التي تظلمُ جماعةً غيرَها بطرائقِ السطوةِ والنهبِ والحُكْرَةِ لا يمكنُ لها أن تخرجَ عن هذهِ الطرائقِ في سياقِها هِيَ.

وقالَ ليْ: كلُّ جماعةٍ ظالمةٍ مظلومةٌ، بضرورةِ الظلمِ.

وقالَ ليْ: ضرورةُ الظلمِ القهرُ والأثَرةُ والحَكْرُ وعلومُ الباطلِ، وهذهِ لا تصيرُ بيدِ جماعةٍ إلا وتمكّنتْ منهم أولَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي يخرجُ عن جماعةٍ إزاءَ أخرَى ينوشُ معناها هي كما ينوشُ معنى الذين ظُلِموا.

وقال لي: الظلمُ سياقٌ متّصلٌ.

وقالَ ليْ: السياقُ يُطلعُ العلومَ التي تنبغي لهُ، فتسندُه أو تُناهضُه.

وقالَ ليْ: سياقُ الظلمِ مأهولٌ بالغفلةِ والمعارفِ.

وقالَ ليْ: لا يكونُ الظُّلْمُ إلا بالغفلةِ الباغتةِ والمتّئِدَةِ، ولا يقومُ المظلومُ إلا بالعلومِ العفويّةِ والقصديّةِ.[10]

وقالَ ليْ: لا يصيرُ الظُّلْمُ إلا بالغفلةِ التي تحجبُ تراتُبَ الأشياءِ على الأشياءِ، ولا ينهضُ المظلومُ إلا بالعلومِ الذي تُسْفِرُ عن هذا التراتُبِ.

وقالَ ليْ: العلومُ السافرةُ عن الظلمِ علومٌ مناوئةٌ له بالضرورةِ.

وقالَ ليْ: العلومُ المناوئةُ استبسالُ القلبِ إزاءَ السّياقِ الذي يحصلُ عنهُ الظلمُ، ونسقِ المعارفِ الذي يحجبُ هذا الظلمَ .

وقالَ ليْ: العلومُ المناوئةُ حسابٌ بِكْرٌ يفضُّ السياقَ الذي هو رحمُ الظلمِ ويمشي بكَ إلى سياقٍ جديدٍ.

---

[10] قالَ العاملُ المهدي بن بَرْكَة،كادحُ الورشِ والمصانع، وشِغّيلُ المحاجرِ والمقالِع، آسرُ الضمائرِ وناهبُ الخواطرِ، المسمّى بالجمالِ الساطعِ: انعقدَ الأمرُ لمترفٍ بناحيتنا قد جاءَ يركبُ بغالَ الظالمينَ، وأنا بخَلْوتي أياماً أقرأُ كتابَ الغدامسيّ. فدخلَ عليَّ الإمامُ أحمدُ فكدتُ أن لا أردَّ عليهِ السلامَ من إغراقي في الفكرِ. فقالَ: هذا وقتُ الانتخابِ وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحونَ، ورجلٌ على بغلةٍ من بغالِ الأعاجمِ يقول للناسِ واطُوا لي ظهورَكم أركبُها فأبلغُ بكم غايتَكم بعلمي وعزمي وحُسْنِ تدبيري مع الأغرابِ. قالَ بِنْ بَركَة: هو يريدُ أن يَفيد من حالِ الغفلةِ التي أصابتِ البلدَ بغتةً ثم اتَّأَدَتْ فيها. ولو صدقَ لَواطَى هو ظهرَهُ فركبَها الناسُ، ولكنّهُ أرادَ مَقصِدَه لا مقصدَهم. وينبغي للناسِ أن يُسَوّوا قاماتِهم بالعلومِ العفويّةِ للقلوبِ، والقصديّةِ للعقولِ، ليتبيّنوا الطريقَ بأنفسِهم لأنفسِهم. أما البغلةُ الأعجميةُ فعلامةُ مَصنُوعِيَّتِهِ للبرّانِيِّ التي تفضحُه لكلِّ ذي قلبٍ.

فتبسّمَ الإمامُ وقالَ: لو فهمَ الناسُ هذهِ، يا شغّيلُ، لانْعَقَدَ الأمرُ لهم لا لهُ.

وقالَ لِيْ: العلومُ المناوئةُ متصلةٌ بالشوقِ الذي بكَ للعدلِ ثم بالسوقِ الذي هو حِسبةُ هذا العدلِ.

وقالَ لِيْ: الذي يشتاقُ ولا يحسبُ لا يجدُ الطريقَ، والذي يحسبُ بلا شوقٍ لا ينهضُ إلى الطريقِ.

وقالَ لِيْ: العلومُ تَلزَمُك لأنّ الظّلمَ لا يكونُ مرّةً واحدةً بل يصيرُ أمامَ أعينِ المظلُومين، وقلوبِهم.[11]

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي لا تفهمُهُ قد يتوغّلُ في قلبِك فيصيرُ منكَ كأنه نَتْجُ يديكَ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي لا تفهمُه أشدُّ عليكَ من الظلمِ الذي تفهمُه.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي يجتاحُك ساعةً بعد ساعةٍ أشدّ من الظلمِ الذي يأخذُك غِرّةً.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي يُؤذي الخلقَ في معايِشهم يُؤذيهم في أحوالِهم ومُقاماتِهم فلا يقدرونَ على كثيرٍ منها.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي ينالُ معايشَ الخلقِ أو قلوبَهم ينالُ أسمائي حتى تكادُ تنفصلُ عني.

---

[11] قلتُ أنا موسَى: الشيءُ "يكونُ مرةً واحدةً" إذا نزلَ في العالمِ بلا تقديمٍ بين أيدي الخلقِ، وهذا حالُ الكرامةِ والمعجزةِ الخارقةِ التي لا يأذنُ بها الوقتُ إلا على غفلةٍ من الناسِ. وربما كانَ بعضُ الشعرِ أو الحبِّ على هذه الجهةِ المباغتةِ. قلتُ: والشيء "يصيرُ" أي يُجْبَلُ به ويَنشأُ ويتّخذُ هيأتَهُ على فترةٍ من الوقتِ يجوزُ عليها الفهمُ والانتباهُ الذي هو ضدُّ الغفلةِ. وهذا هو حالُ مظالمِ المعيشةِ وعسفِ السياسةِ التي تتركّبُ أمامَ أعينِ الناسِ لا يحجبُها إلا العجزُ والجهلُ والتواطؤُ.

وقالَ لِيْ: إذا فارقتني الأسماءُ الحسنةُ التي هيَ لي، فبأيِّ هيئةٍ أقابلُ العالمَ؟

وقالَ لِيْ: الظالمونَ بقوائمِ عرشِي يتناوشونه، فلا يَثبتُ لهم إلا باستواءِ المظلومِ.

وقالَ لِيْ: استواؤُك هو القصدُ، وأنتَ تسألُ عن استوائي.

وقالَ لِيْ: استواءُ المظلومِ استوائي بالضرورةِ اللازمةِ عن الربانيّةِ.

وقالَ لِيْ: أنّةُ المظلومِ أعزُّ من كلامي كلِّه.[12]

وقالَ لِيْ: المظلومُ له هيبةٌ لو عرفَها الظالمُ لقبّلَ الأرضَ بين رجليهِ يطلبُ شفاعتَه ويرجو رحمَتَهُ.

وقالَ لِيْ: هيبةُ المظلومِ من لَدُنِّ هيبتي اسماً بِاسْمٍ وحالاً بحالٍ، يراها الخلقُ العارفونَ فيحسبونَها هيبَتي.

وقالَ لي: كادَ العارفونَ أن يسجدُوا للمظلومِ لمّا رأوا عليهِ نوري وكلّمتْهُم منهُ رحمَتي، وأشارتْ إليهِ قدرَتي.

وقالَ لِيْ: المظلومُ يتّكئُ عليّ كما يتّكئُ اسمُ الإنسانِ علَى الاسمِ الحسنِ.

---

[12] كانَ أستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ في درسِهِ يأتي إلينا بفقراءِ الناحيةِ ومن أصابَهُ ظلمٌ شديدٌ، وفيهمُ النساءُ والأولادُ والشيوخُ، يقولُ لهم: كلِّمونا بمصائبِكم. فيجلسُ الواحدُ منهُم على يمينِ الأستاذِ كأنّهُ عالمُ زمانِهِ يتكلمُ في سياسةِ الناسِ وأمورِ السوقِ وأخبارِ المظالمِ، ونحنُ نسمعُ ونفهمُ عنهُم. قلتُ أنا موسَى: وليسَ كلُّ ما يقولُهُ الفقيرُ والمظلومُ في أحوالِ المعيشةِ حقٌّ، ذلكَ أنَّ للفقرِ والظلمِ سطوةً علَى العقولِ والقلوبِ تحجبُها عن بعضِ الحقِّ. ومنهُ أن كثيراً منَ الفقراءِ يخشونَ الظالمينَ أو يَتَّبِعُونَ شرائعَ هيَ أصلُ مَظلمتِهم أو يُرَجِّعُونَ الظُّلْمَ في أعمالِهم وشؤونِهم. فعلَى هذا لَزِمَ الفهمُ والانتباه.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي يتّكئُ عليَّ فادحٌ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي يدّعيني أبرأُ منهُ أمامَ الخلقِ حتّى يعودَ مقطوعاً لا أصل لهُ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي تُحيلُهُ إليَّ يحيطُ بكَ قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُكَ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي تحيلُهُ إليَّ أنفضُهُ عن رداءِ ربَّانيتي حتَّى يَعلقَ بثوبِ إنسانيَّتِكَ فلا يعودُ مني ولكنْ منكَ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي تحيلُهُ إليّ مددٌ للظالمينَ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي يَهُدُّ حَيْلَ مظلومٍ يهدُّ حَيْلَ الخلافةِ التي هي معنى الكونِ.

وقالَ ليْ: الظلمُ الذي يتوجّعُ منه المظلومُ ينشقُّ له صدرُ الكونِ رَتْقاً لا يسدُّه إلا اسمُ ربانيَّتي الكاملةِ.

وقالَ ليْ: وجعةُ المظلومِ تدخلُ عليَّ بلا إذنٍ فلا أكادُ أعرفُ أن أُصْلِحَ من شأني وهيأتي لخاطِرها.[13]

وقالَ ليْ: المظلومُ الوشيجةُ التي بيني وبين رُبُوبِيَّتي.

---

[13] قلتُ للإمامِ ونحنُ نتهيّأ لقيامِ الليلِ: وجعةُ المظلومِ أنّةٌ تخرجُ من صدرِه فيسمعُها الخلقُ؟ قالَ: يجوزُ ذلكَ علَى الظاهرِ. ولكنْ تفكّرْ فيمَن نُهِبَ أو سُلِبَ أو قُهِرَ، يُفضي إلى فراشِ النومِ فيتقلّبُ علَى مضجعِ الحزنِ لا يقدرُ أن يهنأَ غمضةَ عينٍ. أفتحسَبُ أن الحقَّ فوقَهُ يستوي علَى عرشِ الربّانيّةِ، أو يطمئنُّ في إيوانِ الحكمِ، أو يَقيلُ تحتَ سِدرةِ السبحانيّةِ؟ قلتُ: فما يكونُ من شأنِه؟ قالَ: تغلبُهُ الحشمةُ من أرقِ المظلومِ فلا يعرفُ هل يصلحُ الكتابَ أم ينسخُهُ أم يُنزِلُ غيرَه. وهو في هذا كلّهِ يتربّصُ بالمظلومِ أن يخرجَ على الظلمِ فيكفيهِ. فلا هو يسكنُ إلى مُلكِه العليِّ، ولا المظلومُ تأخذُه سِنَةٌ من نومٍ. قالَ: فالكونُ بين قلقِ الرحمنِ ووجعِ الإنسانِ يكادُ أن يتبدّدَ ثم ينبثقُ في هيئةٍ ليسَ فيها ظلمٌ، ولا يَنْظِمُها باطلٌ، ولا يعقدُها حزنٌ للعالمينَ.

وقالَ لِيْ: المظلومُ يُكَلِّمُنِي وأنا مشغولٌ بالعالِمِ فألتفتُ عنِ العالِمِ إليهِ.[14]

وقالَ لِيْ: المظلومُ يراودُ الكلامَ لا يَستطيعُهُ من وجعِ الظُّلمِ فأفهمُ عنه خيراً من

---

[14] قلتُ أنا موسَى: خرجتُ مهاجراً إلى بلادِ النيلِ الطيبةِ المباركةِ أريدُ استئنافَ المناهضةِ والعلومِ. فبينما أنا بقريةٍ علَى ضفافِ الطمي أدرسُ معائشَ القومِ وأفهمُ عنهم أسرارَ هذه القلوبِ التي يحبُّها اللهُ رأيتُ دِرويشاً يمشِي بحالٍ وهيئةٍ غريبةٍ ويقولُ كلاماً فخماً متفكّكاً ومتباعداً، وهو في هذا كلِّه يتلفّتُ كأنّه يكلّمُ حضرةً بعينِها أو يسمعُ جوابَ حضرةٍ أخرَى. فسألتُ عنه فأخبرَنِي بعضُ العاملِينَ أنّه كانَ فلاحاً له فدادينُ قليلةٌ افتكّها له قانونُ الإصلاحِ من إقطاعيِّ ناهبٍ للأرضِ، فلمّا تمكّنَ الظالمونَ من الأمرِ غصبُوها وأدُّوها إلى الإقطاعيِّ الذي سطَا عليها بالفسادِ وبيعِ الذممِ أوّلَ الأمرِ. فخرجَ الرجلُ عن عقلِه وصارَ علَى الحالِ الذي رأيتَهُ فيهِ سنينَ عدداً.

قلتُ: فتركتُ ما كنتُ فيه من بحثٍ ودرسٍ وهجرةٍ بالغةٍ، وتبعتُ الرجلَ صيفَ ذاكَ العامِ كلِّه، أشهدُ أحوالَه وأسمعُ كلامَه وأكتبُ عبارتَه، فإذا فيها ذِكْرٌ للأرضِ وللعيالِ وللنباتِ المخصوصِ الذي كانَ يزرعُه، ثمّ حثٌّ للسّبحانيّةِ أن تفزعَ لهُ وتحشيمٌ للربّانيّةِ التي تركتْهُ للزُّمرةِ الباشويّةِ. فجمعتُ هذا الحديثَ المتلعثمَ والوسوسةَ والشطحَ وجعلتُه في كتيّبٍ أسميتُه "تحشيمُ السّبحانيةِ بما جاءَ في كلامِ المظلوميّةِ"، ثمّ نسبتُه إلى عارفٍ من العارفِينَ المعتبرينَ من أهلِ القرونِ الأولَى. فعلتُ هذا لعِلّتين – ألا يُعرفَ الرّجلُ بهذا الكلامِ الصاعقِ للظالمينَ وللشريعةِ المكتوبةِ فيُؤذَى في نفسِه أو يُسجنَ أو يُضربَ أو يُؤخذَ من بين عيالِه، ثم أن الخلقَ الغافلينَ يعتبرونَ كلامَ العارفِينَ المشتهَرينَ ويخضعونَ لسلطانِ الاسمِ الفخمِ وسطوةِ التراثِ.

قلتُ: ونسختُ من الكُتَيّبِ ما قدرتُ عليهِ بدمياطَ ودسوقَ والمنصورةَ وجعلتُه في بعضِ الزوايا الصوفيّةِ والتّكايا التي لم تَصِلْها علومُ المظلوميةِ، يقرأُه ويترقّى به المريدونَ الذين في قلوبِهم حبٌّ للخلقِ لم يحتجبْ بالدرسِ والشعائرِ والطاعاتِ الظاهرةِ.

المقالاتِ المبجّلَة والأسفارِ المدجّجةِ بالكلامِ الفخمِ.

وقالَ لِيْ: الذي يُظلمُ يصيرُ سورةٌ في اللوحِ المحفوظِ لو أنزلتُها عليكَ كاملةً لتزلزلَ العالمُ قبلَ أن تصدعَ بها.

وقالَ لِيْ: المظلومُ سورةٌ إذا قُرِئتْ في صلاةٍ وجبت بلا وضوء، وإذا جُعِلَتْ في دعاءٍ صحَّ بلا لفظٍ مخصوصٍ، وإذا قُدِّمَتْ في شهادةٍ ظاهرتْ وغلبتْ وكانتْ برهاناً عظيماً.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي يغلبُك لوقتِكَ يغلبني ولا وقتَ لي.

وقالَ لِيْ: وقتَ وقوعِ الظلمِ يفارقُني معنى السبحانيّةِ فأُصبحُ ولا سلوَى لي غيرُ الكادحِ أن يخرجَ عنوةً على من ظلمَهُ جهاراً.

وقالَ لِيْ: وقتَ وقوعِ الظلمِ يفارقُني معنى العدلِ فلا يعودُ يتّصلُ بي حتى أفتح للإنسانِ ألف سبيلٍ لإقامة الميزانِ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي يشهدُه صُبْحانِ لزمَ الخروجُ عليهِ، لمن ألزمَ نفسَه محبّةَ الخلقِ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ الذي تغضُّ بصرَكَ عنهُ ينزِعُ عنكَ بصيرتَكَ.

وقالَ لِيْ: الظالمونَ حربٌ علَى لواءِ الربوبيَّةِ، أحكارُهم تَشيهها، وتمكُّنُهم يَنْقُضُها، وأسلابُهم تفتكُ بوشائِجِها.[15]

---

[15] قالتْ سمرُ الزمانِ المهديّةُ: الحقُّ في مقامِ المناهضةِ أكثرَ الوقتِ من جهةِ أن الظلمَ يصيبُه في أسمائِه وأحوالِه فيتحشّمُ أن يَبِينَ للخلقِ، الخلقِ كلِّه، في هيئةٍ معطوبةٍ. ومنها اسمُ العاملِ وحالُ العملِ، فإن هذا الاسمَ الحسنَ يتململُ من الإصابةِ والحالَ الحسنَ يقلقُ من العطبِ حتى تصيرَ مناهضةُ الظلمِ مقاماً ربانياً شاملاً لجميعِ الأسماءِ والأحوالِ.

وقالَ ليْ: بينَ المظلومِ وبيَن زمامِ العالَمِ وقفةٌ بينَ يديّ.[16]

وقالَ ليْ: المظلومُ واقفٌ بيَن يديَّ يحسبُ أن الظالميَن أحاطُوا بهِ عنّي.

وقالَ ليْ: لو عرفَ المظلومُ كرامةَ وقفتِهِ بينَ يديَّ لَصَيَّرَني يديهِ.

وقالَ ليْ: المظلومُ ويدايَ شيءٌ واحدٌ، ولو فهمَ ثم ناهضَ لصارَ وقلبي شغافاً واحدةً.[17]

وقالَ ليْ: معرفةُ المظلومِ كُمُونٌ للقوةِ المتعلقةِ بي، ومناهضتُه إظهارٌ لهذه القوةِ في سياقِ العالَمِ.

وقالَ ليْ: المظلومُ بقلبي وخارجَهُ وجعاً ومعرفةً ومناهضةً، فكيفَ يحيطُ بهِ الظالمونَ.

---

[16] جاءَ رجلٌ مضطربٌ إلى العارفةِ بالِله فاتنةَ بنتِ الواجدةِ باللهِ المهديةِ فقالَ: إنّي امرؤٌ لا خيرَ لي، ولا عِلْمَ ولا سابقَ عملٍ طيبٍ، وإني أردتُ أن أُكَلِّمَ الحقَّ حتّى يفزعَ لي بمددٍ من عندِه يهديني إلى جهةٍ صالحةٍ أو يجعلَ لي في قلبي نوراً. فلا أكادُ أجدُهُ ولا أعرفُ كيفَ أكلّمُهُ ولا في أيِّ مقامٍ أدخلُ عليهِ. فقالتِ المهديّةُ: هل ظُلمتَ في شيءٍ من أمركَ من جهةِ سلطانٍ أو جبارٍ ظلماً لم تشتركْ في أسبابِهِ ولم تجلبْهُ على نفسِكَ وليسَ هو الظلمُ الذي يَعُمُّ الخلقَ كلَّهم؟ ففكرَ الرجلُ ساعةً ثُمَّ قالَ: نعمْ، كانَ كذَا وكذَا. فقالت العارفةُ باللهِ: فادخلْ هذا المقامَ ثمَّ قلْ "يا ربُّ، أنا مظلومٌ" فيأتي ليُكلمَكَ فساعَتَها حَدِّثْهُ بما تريدُ. قلتُ: أرادتْ أن يَعي المظلومُ سياقَهُ فيحصلُ لهُ من ذلكَ وعيٌ بربوبيَّتِه الكاملةِ.

[17] قالَ الإمامُ أحمدُ: يدا السبحانيّةِ متّصلتانِ بالخلقِ تعملانِ في الحرثِ ودفعِ الأذَى وضربِ الحديدِ النافعِ. أما قلبُها فيطلبُ الفتحَ عُنوةً من الإنسانيّةِ العاملةِ علَى صهواتِ المحبّةِ الضامرةِ. ومن هذا فالعارفُ باللهِ لا بدّ له من الكدحِ والشوقِ معاً وإلا جلسَ عندَ يدَيّ السبحانيّةِ ولم يَنْفُذْ إلى قلبِها الذي هو مسرّةُ الكونِ.

وقالَ لِيْ: المظلوميّةُ أمُّ الكتابِ لأنها تُطْلِعُهُ من قلبي إليكَ.

وقالَ لِيْ: المظلوميّةُ حالُ المظلومِ ومآلُه، مثلمَا الرُّبوبيّةُ حالي ومآلي.

وقالَ لِيْ: مآلُ المظلومِ الرُّبوبيّةُ لأنّ المظلومَ يحيلُ إليّ آخِراً.

وقالَ لِيْ: مآلُ المظلومِ انحسارُ الظلمِ، وانحسارُ الظلمِ كنايةٌ عنّي.

وقالَ لِيْ: مآلُك يؤولُ إليّ، وهذه مشابهةٌ أحكمُ من بعضِ السياقِ الذي أنتَ فيهِ.

وقالَ لِيْ: مآلُك مبدأُ الأمورِ المعتبرةِ لأنّه تدشينٌ للخلافةِ التي هي أولُ الخلقِ الجديدِ.

وقالَ لِيْ: مآلُ البذرةِ السّنبلةُ، ومآلُ السنبلةِ الرحاةُ، ومآلُ الرحاةِ خبزٌ يسدُّ رمقَ المسلوبين.[18]

وقالَ لِيْ: خبزٌ يَسُدُّ الرمقَ يمشي بكَ إلى الخلافةِ الواجبةِ لكَ.

وقالَ لِيْ: رمقُك علامةُ المظلوميّةِ الأولى التي تحفظُك عن سطوةِ التمكينِ.

وقالَ لِيْ: سطوةُ التمكينِ أن تحوزَ الحكمَ والأصولَ والعلومَ وأنتَ لايصحُّ لكَ غيرُ الشِّرْكَةِ في الحكمِ والأصولِ والعلومِ.

---

[18]جعلَ مُعلِّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى، معلمُ المقاماتِ وأسرارِها في باديةِ سرتَ وما حولَها، قمحاً ورحاةً يدويةً أمامَ بابِ مزرعتِه، فيأتي المحتاجُ فيأخذُ حَفْنَةً من القمحِ يَلْقُمُها قلبَ الرحاةِ، ويَظَلُّ يُديرُها حتى يصيرَ عندَه دقيقٌ من عملِ يديهِ، فيأخذُ الثُّلثين ويتركُ الثلثَ، وإنِ احتاجَ زادَ حفنةً أخرَى. قالَ معلّمي: يأخذُ ما يَسُدُّ رَمَقَهُ ورمقَ عيالِه، ويكدحُ، ويصيرُ القمحُ من نتجِ يديهِ، ولا يَتَحَشَّمُ من الصّدقةِ. وهو في كلّ هذا يُطعِمنا ويُطعم ذرارينا فهو صاحبُ الفضلِ والمبادرُ بالعطاءِ.

وقالَ لِيْ: سطوةُ التمكينِ استهزاءٌ بالعلومِ البكرِ التي حُمّ بها قلبُك مظلوماً قبلَ أن يشتدَّ بأسُه بالحديدِ والأَتْبَاعِ.[19]

وقالَ لِيْ: العلومُ البِكرُ حُجّةٌ علَى الظالمينَ الذين ملكوا زمامَ العلومِ التابعةِ للظلمِ.

وقالَ لِيْ: العلومُ التي تتبعُ الظلمَ تسندُه ثمّ تناوئُ الشّركةَ وتناقضُ العملَ وتحجبُ المناهضةَ اللازمةَ لكَ.

وقالَ لِيْ: العلومُ التابعةُ للظلمِ تهيّئُ الحُكرةَ، وتُأصِّلُ المراكمةَ، وتنحازُ للاستئثارِ الذي يقفُ إزاءَ حاجاتِك.

---

[19] كانتْ مولاتي خديجةُ الشنقيطيّةُ تستحضرُ في قلبِها اسمَ الذي صدعَ بالأمرِ، وتجدُ في ذلكَ لذّةً غالبةً. فتُسلّمُ عليهِ بالمحبّةِ اللائقةِ بمقامِه، ثم تُكلّمُهُ بما في خاطرِها من حاجةٍ. وكانت ربما فعلتْ هذا في الشارعِ والسوقِ فلا يعرفُ الناس ما بها، ويحسَبونَها مجذوبةً. قلتُ: وهي كذلكَ، وجهةُ جذبِها الغارُ. ورأيتُها مرّةً في الدكاكينِ تُكلّمُ حمّالاً غريباً عن البلدِ يطلبُ الرّزقَ. فلمّا عرفتْ أن اسْمَهُ يقاربُ اسمَ الأمينِ أباً عن جدٍّ خضعتْ له بالمحبّةِ الزائدةِ عن حاجةِ العمالِ، وصارتْ تلاطفُه وتصنعُ الكلامَ صُنعاً طريفاً تقولُ: نوّرنا يا محمّد، وأخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، ومحمّدٌ والذينَ معهُ من الحمّالينَ!

قلتُ: كلُّ هذا والرجلُ يجدُ غرابتَها، وربما حسِبها غرابةً لأهلِ البلدِ جميعاً.

وكلّمتُها مرّةً فقالتْ: إني أجدُ حلاوةَ المظلوميّةِ ومناهضةِ الأَثَرةِ والانحيازِ للعبيدِ ذوي الشفاهِ الغليظةِ، ويطيبُ لقلبي الحُمّى الحاصلةُ عن المحبّةِ، وحزنُ الطائفِ، وأثرُ دمغِ الحجرِ للبدنِ. قالتْ: فإن كنتَ تطلبُ العزّةَ للمسلوبينَ والطمأنينةَ لقلبِك، فعليكَ بوليدِ مكّةَ وأمينِها. ولا تُربِكْ قلبَك بفتوحِ يثربَ، وسبايا بني المُصْطَلِقِ، وفَيْءِ هوازنَ وغطفانَ.

قلتُ: فإني إلى هذا الوقتِ أجدُ في محبّتِها للضعفِ الأولِ، والمظلوميةِ الباكرةِ، والمحمّديّةِ المحمومةِ، لذّةً غالبةً ونوراً من الرحمةِ يمشي بي في الطريقِ الواجبةِ للإنسانِ.

وقالَ لِيْ: أهلُ العلومِ التابعةِ للظلمِ أجنادُ القبحِ يتزيّنون بالحسابِ الشائنِ، والترتيبِ الشائهِ لسياقِ المعيشةِ وأحوالِ الاجتماعِ.

وقالَ لِيْ: هم يستندونَ في عبارتهم على العلائِقِ التي تَنْظِمُ الغَلّةَ والنَتْجَ والسِّلَعَ، وأنتَ تكشفُ عن الروابطِ التي تعقدُ كادحِي الغلالِ بحاكري السّلعِ.

وقالَ لِيْ: اكشفْ بعلومِك عن علائقِ البيعِ والشراءِ، والأسواقِ والحُكْرَةِ، والجبايةِ والمكوسِ، ثم أسفِرْ عن حِيَلِ السُّخرةِ والأجرةِ والسّطوةِ التي بين الناسِ وأربابِ الناسِ، حتى تسدَّ رمقَ القلبِ.

وقالَ لِيْ: الرمقُ قاصمٌ لظهرِ العلومِ التابعةِ.

وقالَ لِيْ: الرمقُ الذي حِيلَ بَيْنَهُ وبينَ اللقمةِ أشدُّ بأساً من الحائلين.

وقالَ لِيْ: ما يسدُّ الرمقَ يسدُّني لأنه خبزُ الربانيةِ.

وقالَ لِيْ: ما يسدُّ الرمقَ؟[20]

وقالَ لِيْ: أنا الرمقُ الفخمُ الذي سدُّه عفوٌ عن الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: الذي هو عفوٌ يطلعُ عن الأشياءِ تِلقاءَ نفسِه ونفسِها.

وقالَ لِيْ: التِلقاءُ أشدُّ العلاماتِ التي تخبرُك عن بِنْيَةِ الأشياءِ كما هيَ.

---

[20] أدخلَ تلميذٌ معنا هو العاملُ المهدي بن بَرْكة جماعةً من أهلِ الهجرةِ من برّ السوادِ العظيمِ إلى فناءِ زاويتِنا في يومٍ رامضٍ. فخدمنَاهم بالزادِ والماءِ والكساءِ حتى شَبِعوا واطمأنّوا وتفيّأوا في ظلّ السورِ والشجرِ. فحمدتُ للتلميذِ العاملِ فعلَهُ فقالَ: هذا رمقُ الجوعِ كفيناهُ هذا النهارَ، فمن يَسُدُّ رمقَ الظلمِ الذي ناشَهم، والقهرَ الذي غلبَ عليهِم، والعازةَ الذي تدفعُهم إلى عرضِ المحيطِ يريدونَ شطوطَ الرومِ؟ ثمُ جلسَ على كثبٍ منهم وقالَ: بَرُّهُمْ يَطلبُ الثورةَ وتَطلبُه، غيرَ أنّ أذانَها لم يَدخُل وقتُه بعدُ.

وقالَ لِيْ: تِلقاءُ الظلمِ غالبيّةُ الرمقِ وتلقاءُ الخلافةِ مغلوبيّةُ الرمقِ.

وقالَ لِيْ: رمقُ المظلومِ يَرْمُقُك.[21]

وقالَ لِيْ: رمق المظلوم يرمُقك كيف تفعلُ إزاءَ الظلمِ.

وقالَ لِيْ: من لا يشهدُ الظلمَ لا يشهدُني.

وقالَ لِيْ: الظلمُ أذانُ الخُروجِ.

وقالَ لِيْ: الظلمُ القائمُ علَى الحُكرةِ والأثرةِ والنهبِ يتهافتُ من جُوّانيّةِ سياقِه لأنه يصيرُ مستحيلاً بذاتِه، متناقضاً بأحوالِه، متصدّعاً بآثارِه.

وقالَ لِيْ: تهافتُ الظلمِ أوّلُ السبيلِ.

وقالَ لِيْ: السبيلُ إليّ يبدأُ من عتبةِ دارِ المظلومِ.[22]

---

[21] قالَ الإمامُ أحمدُ: الذي يخضعُ لرَمْقَةِ المظلومِ، الدالّةِ على رَمَقِهِ، قلبُهُ متعلّقٌ بالربانيّةِ الغامرةِ، فليتقدّمْ في الطريقِ لعلّهُ يَصِلُ.

[22] اشتغلتْ كادحةٌ برانيةٌ عن البلدِ في دارِ مُترفٍ عندنا تُطيّبُ له الطعامَ وتَمسحُ البلاطَ وترعى العيالَ. فراودَها عن نفسِها فأبَتْ فضربَها واتّهمَها في مالٍ لهُ وأخرجَها إلى ناصيةِ الطريقِ. فذهبتِ الكادحةُ إلى مَشْغَلِ قماشٍ تعملُ سوادَ النهارِ بأُجرة منقوصةٍ وحقوقٍ مغصوبةٍ. واكترتْ حصيرةً تنامُ عليها في دارٍ للعاملاتِ البرّانياتِ ما فيهنّ إلا مكلومةٌ أو منهوبةٌ. فكانَ الإمامُ أحمدُ الدرّيُّ يخرجُ عن طريقِ مدرستِنا كلَّ صباحٍ فيدخلُ الزناقي الضيّقةَ حتى يصلَ دارَ الكادحاتِ فيضعُ يدَه على البابِ ويدعو اللهَ بما يشبهُ الهمسَ المحتشمَ أن يمنحَه من بركةِ الساكناتِ. ويخصُّ العاملةَ المظلومةَ باسمِها "رشيدةَ" يقولُ: لبَّيكِ يا رَشيدةُ لبيكْ، لبيكِ حتّى يصيرَ العرشُ بينَ يديكْ. ثم يمضي في سبيلِه فيَدخلُ علينا في مدرسَتِنا كأنّه آيبٌ لتوّهِ من سِدرةِ المُنتهَى. قلتُ: وكنتُ أرَى وجهَ رشيدةَ في وجهِه يكادُ يضيءُ بهِ، وهو من كراماتِ الأئمّةِ والأقطابِ التي تحصلُ لهم عفواً.

وقالَ لِيْ: المظلوميّةُ رحمُ العلومِ المتعلّقةِ بالإنسانِ وهو يكدحُ العالَمَ ويمشي في السّبيلِ.

وقالَ لِيْ: علومُ المظلوميّةِ تطلعُ من مخاضِ الوجعِ الذي يُصيبُ رحمَ الإنسانِيةِ العاملةِ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يفهمُ بعلومِ المظلوميّةِ احتجبَ عنّي.[23]

وقالَ لِيْ: حجابي من حجابِ الإنسانِ لأنَّ الإنسانيّةَ سبيلُ الربانيّةِ فمَن قطعَ السبيلَ كيفَ يصِلُ؟

وقالَ لِيْ: العالمونَ الذين لا يقرؤونَ علومَ المظلوميّةِ لا يَفُكُّونَ الخطَّ فإنْ طلبتَ معارفَهم وجدْتَها بلا متنٍ ولا كتابٍ.

وقالَ لِيْ: علومُ المظلوميّةِ حجّةٌ في الحسابِ وفي المحبّةِ معاً فمَن أرادَ أن يُبطِلها غلطَ في الحسابِ والمحبّةِ جميعاً.

وقالَ لِيْ: الظلمُ يُبَدِّلُ حالَ الإنسانِ ويُشَوِّهُ سِحْنَتَهُ وينالُ من قلبِه فكأنَّهُ يَنْكُصُ

---

[23] حضرتُ الإمامَ أحمدَ بنَ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيِّ في درسِ العصرِ يقرأُ هذا الكلامَ على التلاميذِ ثم يشرحُه فيقولُ: أكثرُ من يشتغلونَ بالعلومِ منقطعونَ عن الحقائقِ لانحيازِهم عن نتجِ المظلوميّةِ، فهم لا يَعقلونَ الروابطَ التي تعقدُ السّوقَ بالقلوبِ، ولا النّهبَ بالعقولِ، ولا الحَكْرَ بزيفِ المعارفِ. وهم لا يَرون تراتبَ المظالمِ فوقَ المظالمِ، والتحاقَ الناطورِ الذي فوقَ رؤوسِهم بالناهبِ الذي استوَى علَى عرشِ الدكاكينِ في العالمينِ. ولا يَفُضُّونَ في حسابِهم رِبْقَةَ الرَّيعِ الذي يخرجُ من رحمِ الأرضِ فيتقاسمُه حراميُّ الدارِ مع حراميِّ الديارِ كلِّها. واعلمُوا أيها التلاميذُ أن الذين يكشفونَ مواطنَ الربطِ بين الحاجاتِ، والمفاصلَ التي يتحرّكُ بها جثمانُ المظالمِ الكونيّةِ، هم من فهِموا وعرفوا وأمكَنهم غلبةُ الباطلِ عندَهم وعندَ الإنسانيينَ جميعاً.

عن إنسانيَّتِهِ إلى مُقامٍ لا إنسانيّةَ فيهِ.

وقالَ ليْ: الذي لا إنسانيةَ فيه غُفْلٌ عن الكرامةِ التي تَعَلَّقَتْ بالإنسانِ.

وقالَ ليْ: المظلومُ يُظلم مرّتين، حالَ وقوعِ الظلمِ عليهِ، وحالَ إمعانِ الظلمِ في الوقتِ حتّى تصيرَ من المظلومِ مظالمُ لم تَكُنْ أوّلَ الأمرِ.[24]

وقالَ ليْ: الظلمُ دائرةٌ متصلةٌ أوّلُها يُتَمِّمُ معنَى آخرِها، وآخرُها ينادي علَى أوّلِها، فمَن حضرَ في أولِ الدائرةِ جلسَ في آخرِها.

وقالَ ليْ: الذي يحضرُ الظلمَ سَنَحَتْ لهُ هيئةُ المناهضةِ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ التي تظهرُ في أفقِ القلبِ فألٌ بطالعِ الرصاصِ الذي ينوشُ الجسدَ في فجرِ الخلاصِ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ شعيرةٌ يؤدِّيها الذين سلّموا بفجرِ الخلاصِ الصادقِ.

وقالَ ليْ: من لا يناهضُ لا ينهضُ إلى أفقِ السِّدرةِ.

وقالَ ليْ: من لا يناهضُ لا يُعْرَجُ به إلى المدائنِ التي تجاورُ اسمي، ولا يطأُ التخومَ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ تُفَتّتُ صخرةَ الظلمِ الجاثيةِ علَى قلبِ العالمِ فإذا العالمُ يتنفّسُ

---

24 تَمَثُّلُ الظلمِ، أي دخولُه إلى القلوبِ المكلومةِ ثم حصولُه عنها، من أشدِّ الأذَى الذي ينوشُ المظلومينَ في إنسانيّتِهم، ويسلبُهم فضاءَ العدلِ الذين يطلبونَهُ في ضمائرِهم، ويُربكُ وعيَهم بالمظالمِ الواحدةِ والجامعةِ. ومناهضةُ هذا تكونُ بتغييرِ الحالِ، ومُنازلةِ الأسبابِ الموجبةِ للظلمِ، وحِدّةِ النظرِ العقلانيّ، وتوسُّلِ الفنونِ والآدابِ المتصلةِ بالآدميةِ والحوائيةِ. قالتْ فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ: كنتُ أرَى المظلومَ لا يفهمُ من أين دخلَ عليهِ الظلمُ فيَقرأُ أو يُقرأُ لهُ شيءٌ من العلومِ أو الشعرِ أو الغناءِ المناهضِ، فيعِي شيئاً يطلعُ به من حبسِ الظلمِ لوقتِه، ويفتحُ أمامَه باباً من أبوابِ المناوشةِ، مناوشةِ الظلمِ.

ويتكلّمُ ويمشي في الأسواقِ والجنائنِ التي كان محبوساً عنها.

وقالَ لِيْ: المناهضةُ وقوفٌ بين يديّ المظلوميّةِ وإفاضةٌ عنها إلى شعيرةِ الفداءِ.

وقالَ لِيْ: المناهضةُ تعطيلٌ لغلبةِ الظلمِ الظاهرةِ من قبلُ أن يُغلبَ علَى وجهِ التحقيقِ.[25]

وقالَ لِيْ: المناهضةُ مقاربةٌ لاسمِ العدلِ من جهةِ القوّةِ.

وقالَ لِيْ: المظلومونَ يصيرونَ هم المناهضينَ لأنّ سياقَ الظلمِ يمشِي بهم إلَى فعلِ المناهضةِ من جُوّانِيّتِه.

وقالَ لِيْ: أربابُ الحُكْرَةِ في الأقاليمِ، فأينَ أجدُ أرضاً أنزلُ فيها لأُكلِّمَكَ وأُسلِّمَ عليكَ؟

---

[25] قالَ الإمامُ أحمدُ: إنّ المناهضَ ينوشُ هيبةَ الظلمِ حالَ دخولِه إلى فضاءِ المناهضةِ، ويلقحُ علومَ الفداءِ في أولِ مقاماتِ العملِ المقاومِ، ويراكمُ الوعيَ بجبهةِ المظالمِ من مبدأِ بُروزِه إلى أفقِ المعركةِ. فلهذا قالَ الغدامسيّ إن المناهضةَ في فجرِها الصبوحِ تربكُ الهيمنةَ، هيمنةَ الظلمِ، وتُلَخْبِطُ حساباتِ الظالمينَ، وتفتحُ أفقاً للمجاهدةِ التي لم يكنِ العالمُ يعرفُ أنها في سياقِ الإمكانِ. قلتُ: ومن هذا أنّ المناهضةَ يتّصلُ فجرُها بعشيَّتِها، وأولُ غمرِها بآخرِ لُجّتِها، وتمامُ تنزيلِها بـ إقرأ التي انقدحَتْ بها في فاتحةِ الأمرِ، وهذا من بركاتِ المناهضةِ وكراماتِها المتجليّةِ في القلوبِ.

إشارةٌ خَامْسِيّة

قالَ ليْ: أنتَ صاحبُ الجلالةِ الكاملةِ، والحجّةِ العاملةِ، والمظلوميّةِ التي أحاطتْ بي. ظالموكَ حربٌ عليَّ من لَدُنِّ الحيازةِ، والحاكرونَ ينهبونَ نَتْجَ يديكَ يقولونَ لنا الأصولُ، والقارئونَ الكاتبونَ يحبِسُون قلبَك في غِلِّ العلومِ التابعةِ. يَجْبونَ أرضَك جميعاً وهُم إنما يَجْبُونَ عزَّتي. كلّما استأثروا بالقوتِ الذي يَصِحُّ لكَ استأثروا بالقوتِ الذي ينبغي لي. فإذا استحكمُوا وتمكَّنَوا وظنّوا أن لهم الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، اتّكَأْتَ عليَّ وأنا ربُّكَ لا يَصِحُّ الظلمُ عندي فكيفَ يصحُّ عنّي. فاصبِرْ لهم في سياقِك حتى تخرجَ عنهُ، واكشفْ عن النسقِ الذي تَرَتّبَ عليهِ الظلمُ، وجاهدْهم بالقلوبِ المكينةِ والعلومِ المناوئةِ. حتّى إذا اكتملتِ الدائرةُ وأشرقَ الوقتُ، ظهرتْ علَى جبينِك العلامةُ التي جعلناها لكَ، وبيديكِ ضوءُ المسرّةِ البالغةِ. فإذا دخلتَ علينا في ثيابِ المناهضةِ، قُمنا عن العرشِ واستويتَ عليهِ، وأسميناكَ الخليفةَ، ونادينا لكَ بالإمامةِ الغالبةِ. ثم جعلنا العملَ والأصولَ في يمينِك تُبَدِّدُها أنّى تشاءُ، وأنتَ رحمةٌ لا تكادُ تكونُ بكَ غِلظةٌ، وشِرْكةٌ لا تنوشُها حُكْرَةٌ، وسلامٌ أشدُّ من حربِ الظالمينَ.

14. موسمُ البُكاءِ

(وهو الغَمْرُ)

ومن أحوالِه الشغفُ والاستعجالُ والدمعُ وجُوّانيةُ الحزنِ والاستئنافُ وبَرّانيُةُ الرثاءِ واللجّةُ وسِدرةُ التربّصِ والخوضُ والإجهاشُ وشهقةُ الأملِ

وفيه قَدِمْتُ عليهِ فلم يَعرفْني، وحاولتُ تُخُومَهُ فلمْ تُقابلني أسماؤهُ. حتّى إذا مشيتُ على بِساطِ الرَّجاءِ، وحاذيتُ جبلَ العزَّةِ الكَاملةِ، أشرفتُ علَى سُبحانِيَّتِهِ، وقاربتُ موطِئَ ربَّانِيَّتِهِ، وجاورتُ فضاءَ وحدانِيَّتِهِ. فوقَفْتُ عندَ السِّدرةِ الآخرةِ، ومُقامِ الرحمةِ الآسرةِ، حتى استَويتُ عَليْها جسدًا، وأحطْتُها عَدَدًا، وجاوزتُها فهماً وهمّاً. وكنتُ والعالمَ شهقةً واحدةً، هدأَ فهدأْتُ، وأجهشَ فأجهشتُ، وأحاطَ بي فشَمِلَتْني همومُهُ، وأسفرتْ عنّي شجونُهُ. فإذا أنا والبكاءُ مُقامِي، والباكونَ جمعي وأصحَابي. فخلعتُ عني رداءَ الطمأنينةِ وبكيتُ عليهِ[1]، واستأذنتُ حُجَّابَهُ أريدُ عزاءَهُ وسَلْواهُ، وسلّمتُ علَى من كانَ عندَهُ منَ أهلِ النبوّةِ والولايةِ. فلمّا رآني هابَني يَحسَبُ أنّي لُجَّةٌ منْ الدمعِ.[2] فأتيتُهُ أريدُ أن أُعزّيه، فكادَ أن يَغرقَ في بحرِ حُزني كلَّما كلَّمتُهُ بشهقةِ القلبِ لا يكادُ يفقهُ عني. حتى إذا تغرغرَ بالأحزانِ كَشَفْتُ لهُ عنْ رحمانيَّتهِ، وشمَّرتُ عنْ ربّانِيَّتِهِ، وأقمتُ سُبحانِيَّتَهُ. فَفَرِحَ وأرادَ أنْ

[1] قال إمامُنا أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ: الحقُّ عُريانٌ فليتَ الخلقَ يُؤنسونَهُ يوماً فيُذهِبونَ عنهُم وِزْرَ المَخيطِ. قلتُ: فهل فعلَ إمامي؟ فقالَ: خرجتُ مرّةً في بلدٍ من البلدانِ المنهوبةِ إلى الناسِ أشرحُ لهم علومَ القلوبِ والأسواقَ، فأخذني عسسُ السلطانِ فلمّا وجدوني غريباً ضربوني وتجاذبوني بينَهم، والناسُ يَشهدونَ. فانكشفَ بعضُ بدني من فعلِ السياطِ، وتركوني. فخلعتُ عنّي ما علقَ ببدني من الثوبِ ومشيتُ في السوقِ أسبُّ الظالمينَ ولا أحدَ يقربُني من هيئَتي وحالِي التي كنتُ عليها. قالَ: فكنتُ في حالي تلكَ أقربَ إلى الحقّ مني في ثيابِ المدنيَّةِ المركّبةِ والحشمةِ المُكتسَبةِ.

[2] قالَ حادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ الصّدّيقُ بن عبدِ الله السّاقي: "اللجّةُ" جماعُ شأنِ الإنسانِ وهي في أصلِها شديدةٌ على الحقّ لا يكادُ يقدرُ عليها، وفيها محنُ الخلافةِ والعملِ والخيبةِ وشيءٌ كثيرٌ منَ العشقِ والبكاءِ والمراثي.

يخوضَ إليَّ الماءَ الذي ترقرقَ منّي، فعزَّتْ عَليهِ تُخومي وقد ناشَها البللُ، وحالَ بينَنا الدّمعُ. فَناداني لا يكُنْ أمرُكَ عليكَ غُمّةً، أنتَ إمامُ الحزنِ من أولِ الأمرِ حتّى آخرِهِ.

فآويتُ إلى جَبلِ عِزَّتِهِ. فذهَبَ عنّي الرّوعُ حيناً منَ الدَّهرِ، حتى إذا اجْتَمعَتْ عليَّ الأمانةُ، ومُقَامِي في الخَلقِ، ترقْرقَ ماءُ الخشيةِ فَجرَى نَهرَ رحمةٍ، فغَمرَ جبلَ العزَّةِ غمرةً واحدةً.[3] فأصبحتُ على صفحةِ الماءِ، وإذا الماءُ غَلبَ على كلِّ شيءٍ. فدخلتُ فيهِ، أوجاعٌ بعضُها يلجُ في بَعضٍ، حَزَنٌ منْ فَوقهِ حَزَنٌ منْ فوقه فِكْرٌ. فَفَزِعَ بالعونِ فخابتْ فزعتُهُ. فأخرجَ يَدَهُ فإذا هيَ في أوّلِ الأمرِ وإذا أنا في آخرِهِ. فألقَى عصاهُ فَلَقَمَتْهَا لُجَّةُ الماءِ.[4] فعلمتُ أن الوقتَ لم يَدخلْ، وأن

[3] سمعتُ بكاءَ أستاذَتِي رُقيّةَ بنتِ الحبيبِ الرضيّةِ، وهيَ عليلةٌ في دارِها، فظننتُ أنّها تفكّرتْ في أمرِ الموتِ ولقاءِ ربِّها فخشعَ قلبُها. فدخلتُ عليها أريدُ ملاطفتَها. فسكتتْ ساعةً ثمّ قالتْ: يا موسَى، إنما أبكي لثلاثٍ: أنني حُمِّلْتُ ما لا أكادُ أطيقُ من أمرِ الخلافةِ، وجُعِلتُ شاهدةً على أحوالِ الخلقِ يجوعونَ أم يَشبعونَ، وخُيّرتُ فرأيتُ أن أَخرجَ على الظالمِيَن وبدنِي أصابهُ الوهنُ لا أقدرُ أن أخرجَ به. فأيُّ هؤلاءِ تريدُ أن تخفّفَ عنّي؟ فظللتُ بها أُطيّبُ خاطرهاَ حتّى أخذَتْها سِنَةٌ وخرجتُ.

[4] ارتبكَ التلاميذُ من هذا الكلامِ فقصدْنا أهلَ الطريقةِ فقالَ مُعلّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ: "عصاهُ" شرائِعهُ ورسالاتهُ، و "لقَمَتْها" أي استغرَقتْها كليّةً، و "لجّةُ الماءِ" هولُ هذا العالمِ. فزادَ في روعِنا. وقالتْ زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالميَن: "عصاهُ" حكمتُه، و "اللّقمُ" الغلبةُ، وأمّا "لجّةُ الماءِ" فبكاءُ بُنَيّةٍ لا تجدُ أمُّها ما تَسُدُّ بهِ رمقَها. وقالَ الشيخُ

العامَ عامُ حزنٍ. فَثَبَتُّ في مُقامِ البُكاءِ ألفَ ليلةٍ، كلَّ ليلةٍ يصيرُ بُكائي جَديداً كأنْ لمْ أدخُلْ فيهِ منْ قبلُ، يجري الدمعُ أَسُدُّ به رمَقي، وأسندُ حَيلي، وأشدُّ على يدي. فحدَثَ فيهِ خيرٌ كثيرٌ، وكانَ لي منهُ فهمٌ وحكمةٌ، ورأفةٌ ورحمةٌ، وطمأنينةٌ بالغةٌ. فكتبتُ المراثي، وأنشأتُ النادباتِ، وجعلتُ فيهنَّ بُكائي.[5] فجاءتْ ألفاظِي عليهَا جلالُ الحزنِ، وهيبةُ الفقدِ، ووقارُ الأسَى. فلمّا رأى مُقامي في الحزنِ كتبَ إليّ بالعزاءِ، وخاطبني بالرجاءِ. حتى إذا فهمتُ عنهُ، جئتُه بالدمعِ مُتشابهاً فلم يعرفهُ، فلمّا أحْكمتُه له قالَ اهجرْ عينيكَ ثمّ ارْكُضْ بمآقيكَ المعاني أُخرِجها لكَ. فلما فعلتُ قالَ هَذَا دمعُكَ مُزنُها وشرابُها. فلما اشتدَّ بكائي جاءَني يعزّيني وقالَ ليْ:

الخلافةُ مرثيّةُ الإنسانِ.

الواحديّ: بل "عصاهُ" محبّتُهُ يُلقيها للإنسانِ فتضيعُ في "لجّةِ" الغفلةِ. قلتُ: فأخذَ كلٌّ منا على قدرِ حالهِ ومضينَا.

[5] قامَ الماءُ على قومٍ كثيرينَ فأخذَهم وهم غافلونَ، فماتَ منهم ما لا يقدرُ عليهِ عدٌّ ولا يَسَعُهُ ترتيبٌ. فمنهم الأمُّ تحضنُ عيّلَها كأنّها تُحيطُهُ قبلَ الماءِ والماءُ أشدَّ إحاطةً، والأبُ تيبّستْ عيناهُ من هولِ الفقدِ، والأخُ يبكي أُخيَّتَهُ تتغرغرُ بالماءِ لا يَسَعُها النَفَسُ. فخرجَ أهلُ الشرائعِ، يلبسونَ طَيِّبَ الثيابِ ويتضوّعونَ عطراً كأنّهم خرجُوا من طيزِ الشيطانِ يقولونَ "حُكْمُ اللهِ وعقابُهُ وقومٌ أفسَدوا". فكانَ إمامي أحمدُ يبكي ويقولُ: عيالُ الحقّ فقراءُ بيوتُهُمُ القَشُّ وطعامُهم فُضلةٌ لا تُقيمُ إِوَداً، أفلمْ يقدرْ ربُّ أولئكَ المترفينَ إلا عليهم؟
فكُنَّا نُصبِّرُهُ فيقولُ: قلوبٌ مظلمةٌ وعقولٌ سقيمةٌ وأرواحٌ خَرِبةٌ، واللهِ إنّهُم وكُتَبَهم وأحاديثَهم وأخبارَهم باطلٌ من صُلبِ باطلٍ من تَرِيبَةِ سُوءٍ.

وقالَ ليْ: الخلافةُ رثاءُ الإمكانِ الذي لم يتحققْ من أثرِ الظلمِ أو الغفلةِ أو غيبةِ العلومِ.

وقالَ ليْ: الرثاءُ بعضٌ من الخلافةِ لأنه بعضٌ من الفقدِ الذي يَستولي عليكَ وأنتَ علَى العرشِ.

وقالَ ليْ: أهلُ المراثِي أصابَهم مني نورُ رحمةٍ، فلمّا لم يقدرُوا علَى حَمْلِهِ حَمَلَهُم.

وقالَ ليْ: أهلُ المراثي أهْلي لأني الرثاءُ الذي غمرَ العالمَ، فأنا اجتماعُ الدمعِ كلِّه.[6]

وقالَ ليْ: أنتَ سيّدُ أهلِ المراثي.

وقالَ ليْ: أهلُ المراثي يَعُدُّونَهَا وأنا المرثيَّةُ التي لا عددَ لها.

وقالَ ليْ: أهلُ المراثي يَنْظِمُونَ بكاءَهم وهو يَنْظِمُهم شهقةً واحدةً.

وقالَ ليْ: من لا تَنْظِمُهُ مرثيَّةٌ، ولا يَصُفُّهُ الدمعُ صفاً كأنه ماءٌ واحدٌ، ولا تُرَتِّبُهُ

---

[6] قالَ الإمامُ أحمدُ: هو يجهشُ ويفزعُ بالعونِ من طلعةِ الوقتِ الأوّلِ، غيرَ أنّهُ يعودُ فيقولُ سُنّةُ الأمورِ وابتلاءُ الإنسانِ والحريةُ والاختيارُ. فيرتبكُ من هذا الخاطرِ، فيفارقُ ويقعدُ على كثبٍ يتأمُلُ. قالَ: ومِنَ الإجهاشِ المختلطِ بالفزعةِ إقرأْ. غيرَ أنها نزلتْ في موضعٍ غامرٍ فسالتْ بها الوديانُ وفاضتِ القلوبُ وترقرقتِ المآقي. فوجبَ تأويلُها علَى معنى البكاءِ، ونَزْعُ الشّدَّةِ عنها. فإنّ الدمعَ إذا جفَّ ربما يَبِسَتِ العروقُ أو أجدبتِ الشّغافُ وظلَّ نصلُ الفزعةِ حاداً بلا غمدٍ يطمئنُّ إليهِ. قالَ: وبعضُ القارئينَ يصدعونَ لـ إقرأْ من بابِ الفزعةِ الشديدةِ دونَ البكاءِ الواجبِ لها والذي تحصلُ عنهُ الرحمةُ. فينوشُهم القحطُ وتشيهُ وجوهُهم وأفعالهُم وهم يحسَبون أنهم في موضعِ الجمالِ والحُسنِ. قالَ: وقد ينتبهُ صاحبُ إقرأْ من هذا الغلطِ الغالبِ، فينزلُ حيناً للعونِ، ثمّ يُحَمِّلُ ظهورَ الإبلِ، إبلِ المفارقةِ، ويرحلُ إلى كثبٍ قريبٍ. فمِن هذا لا يصحُّ عندَ العارفينَ اعتبارُ نزولِه أو الاطمئنانُ لوقتِ فزعتِه. فخلِّ بالَك.

الأحزانُ كأنّهُ لم يكنْ فرحٌ من قَبْلُ، لا يليقُ بالخلافةِ.

وقالَ ليْ: البكاءُ فعلُ لياقةٍ.

وقالَ ليْ: البكاءُ فعلٌ.

وقالَ ليْ: في حضرةِ المظلوميّةِ البكاءُ لباقةٌ والغضبُ أدبٌ والثورةُ إذنٌ بالدخولِ.[7]

وقالَ ليْ: البكاءُ فعلُ إفاضةٍ من كعبةِ الحزنِ إلى سدرةِ التربُّصِ.

وقالَ ليْ: سدرةُ التربّصِ مربضُ البكاءِ قبلَ الانقضاضِ علَى تخومِ الحزنِ.

وقالَ ليْ: سدرةُ التربُّصِ لواءُ الخروجِ عن أحوالِ الدمعِ إلى شهقةِ السّكينةِ.

وقالَ ليْ: شهقةُ السّكينةِ آخرُ ما يرجفُ له الكونُ من بكائِكَ فإذا أنتَ تكلّمُه بالشغفِ الأولِ الذي ربطَ علَى قلبِك أوّلَ الأمرِ.[8]

---

[7] قلتُ: لباقةٌ مع المظلومِ، وأدبٌ لخاطرِ المظلوميّةِ، وإذنٌ بالجلوسِ على العرشِ.

[8] قلتُ لسيّدي العربي بن مْهيدي: مالشغفُ الأولُ ياسيّدي؟ قالَ: المحبّةُ التي تَعْقِدُكَ بالعالمِ، والرحمةُ التي تأسِرُك تجاهَ الخلقِ، والولهُ الذي يتوهّجُ به قلبُك وأنتَ تكلّمُ الأشياءَ. قلتُ: فأينَ أجدُ علامةَ هذا المقامِ الجليلِ؟ قالَ: انْظُرْ إلى مولاتِك الشنقيطيّةِ فإنّها الشغفُ في الهيئةِ الإنسانيّةِ، ذلكَ أنّها تقومُ الصبحَ تتوضّأُ ثمّ تنسَى أن تصلّي من الهيامِ الذي بها تريدُ أن تخرجَ لتكنسَ الشارعَ، وتسقِي الشجيراتِ، وتُطعمَ الطيرَ. ثم تنتبهُ فتؤدّي ركعتَي الصبحِ وهي في برانيّةِ الحياةِ وبحذائِها المقشّةُ، وسطلُ الماءِ، وكيسُ الحبوبِ التي تسندُ بها قلبَ العالمِ. فإذا جئتَها شربتَ شاياً أخضرَ بنعناعِ الجُنينةِ، وتذوّقتَ خبزاً من تنُّورِها، وسمعتَ علومَ النهارِ الباكرِ، ومعارفَ الفجرِ الصبوحِ، وانعقدَ قلبُك بصبوةِ العالمِ، وأحبَّك هذا العالمُ لأنّكَ فيهِ.

قلتُ: فعرفتُ أين يمشي سيّدِي في صبحِ كلِّ يومٍ، فهذا شغفٌ خرجَ عن خديجةَ فضمَّ بن مْهيدي حتّى تجاورَ قلباهُما في مقامٍ واحدٍ، وجيرةُ المقامِ عندَ العارفينَ شيءٌ عظيمٌ.

وقالَ لِيْ: الشغفُ الذي ربطَ على قلبِكَ اقترفَ محبّةَ العالمِ فيك وأنتَ في صبحِ الحياةِ الأوّلِ.

وقالَ لِيْ: الشغفُ وشيجةٌ بينكَ وبيني حينَ فصلتُك عن سديمِ الوجودِ الغُفْلِ من التعيينِ والتهيئةِ.

وقالَ لِيْ: الشغفُ حضورُ الواحديّةِ في عددِك وأحوالِك وغواياتِك.

وقالَ لِيْ: الشغفُ أثرُ اسمِ الرحمةِ الحسنِ.

وقالَ لِيْ: اسمُ الرحمةِ مقلةُ عينِ الأسماءِ كلِّها.

وقالَ لِيْ: الأسماءُ يَنْظِمُها اسمُ الرحمةِ حتّى تكادُ تكونُهُ ويكادُ يكونُها.

وقالَ لِيْ: اسمُ الرحمةِ فعلٌ لا ينقطعُ وجيبُه في الكونِ كي لا ينقطعَ وجيبُ الكونِ.

وقالَ لِيْ: في اسمِ الرحمةِ أسرارٌ لو كشفتُها للخلقِ لانفضُّوا عني وتركوني قائماً.[9]

وقالَ لِيْ: اسمُ الرحمةِ اسمي وأنا في مقامِ الربوبيَّةِ الواهةِ، واسمُك وأنتَ في أحوالِ

---

[9] بينما أنا أطلبُ الطمأنينةَ في ناحيةٍ فقيرةٍ ببلدٍ قريبٍ رأيتُ رجلاً في نهارِ رمضانَ فاطراً يخدمُ سُيّاحاً من الأجانبِ، فظننتُهُ من بعضِ أهلِنا النصَارى. فلمّا قامَ أذانُ الظهرِ قامَ الرجلُ فتوضّأ وضوءَ المسلمينَ ثمّ صلّى. فأتيتُهُ فدعوتُ لهُ بالقبولِ وسألتُه المعونةَ في أمرٍ ثمّ قلتُ: يا أخي من أيِّ ملةٍ أنتَ؟ فقالَ: محمّدي. قلتُ: فكيفَ إفطارُكَ وليسَ بكَ علّةٌ بَيّنَةٌ أو سفرٌ ظاهرٌ؟ قالَ الرجلُ: أنا عتّالٌ رزقي من جَهدي وقوّتي وقد جاءني هؤلاءِ السُّياحُ يطلبونَ ما لا يطيقُهُ بدنُ الصائمِ من شَيْلٍ وخدمةٍ فاستأذنتُ الحقَّ وفطرتُ عمداً. ثمَّ قالَ وهو يترقرقُ بالدمعِ: الحقُّ يرحمُ والجوعُ الذي يقضُّ بطنَ بُنَيَّتِي لا يعرفُ اسمَ الرحمةِ. قلتُ: فظننتُ ظنَّ اليقينِ أن الرجلَ أعرفُ بالحقِّ مني، فاستأجرتُهُ ساعةً أفيدُ من بركتِه ويفيدُ من فلوسِي ورحلتُ.

الإنسانيةِ الغامرةِ بالدمعِ.

وقالَ لِيْ: البكاءُ بعضٌ من عينيكَ أم عيناكَ بعضٌ من البكاءِ؟

وقالَ لِيْ: هذا بكاؤكَ وأنتَ بحضرةِ العالمِ فكيفَ بكاؤكَ بحضرَتي.[10]

وقالَ لِيْ: ذاك بكاؤكَ بحضرتي، فكيفَ بكاؤك بحضرتِكَ.

وقالَ لِيْ: حضرتُك مَهيبَة.

وقالَ لِيْ: حضرةُ الإنسانِ شُرفة تراني منها عن كثبٍ.

---

[10] خبَّرني أخي زينُ السماحِ، ومقصدُ الأرواحِ، صبحي بنُ مسعود، رفيقُ الرجالِ، وسليلُ الآمالِ، في بلدةِ الأصابعةِ أرضِ الأبطالِ، فقالَ: جاءَ الطاغوتُ الغربيُّ في غَمامةٍ من نارٍ وبهتانٍ. فاسْتمسَكَ به أهلُ الظلمةِ والغفلةِ حتّى تمكّنوا في البلادِ. فجعلوا يُخرّبون البيوتَ ويَهدِمونَ الديارَ العامرةَ ويقهرونَ الذراري والرجالَ، وهُم في كلِّ هذا علَى المنابرِ المدنيّةِ يتكلّمونَ عن الحقوقِ والحرياتِ، وينهبونَ بيتَ المالِ، ويتواطؤونَ مع البرّاني. فكانَ فينا شيخٌ لا يقرأُ ولا يفكُّ الخطَّ، ذبحوا ولدَه وولدَ ولدِه في ساعةٍ واحدةٍ. فشربَ من خمرِ سانيتِه نبيذاً طيّباً ثم أخذَ كَتّانةً خضراءَ من قبرِ وليّ صالحٍ، وخرجَ إلَى ظاهرِ السوقِ حاسرَ الرأسِ يكادُ العرشُ يَخِرُّ له ساجداً، وهو يشطحُ بلسانِ العامّةِ:

يا مقصودْ يا مقصودْ، إنت غايبْ ولّا ميجودْ،

يا رحمنْ يا رحمنْ، إنت غالبْ ولّا غلبانْ،

يا قيّومْ يا قيّومْ، إنت حقًّا ولّا ميهومْ؟

فلمّا لم يرَ بادرةَ إجابةٍ ظاهرةٍ جلسَ فبكَى بكاءً أوجعَ السمواتِ والأرضَ. فأرادَ صنيعةُ البرّانيّ أن يأخذوه، فأحاطَ به الناسُ ومنعوه أن يَنوشَهُ أذًى. قالَ الإمامُ أحمدُ: لو صحَّ له أن ينزلَ لما كان له محلٌّ خيرٌ من هذا المحلِّ ولكنه يُشكِل علينا بالمفارقةِ، ونُشكلِ عليهِ بالبكاءِ. قلتُ: فلم أعرفْ أننا نُشكلُ عليه إلا الساعةَ.

وقالَ ليْ: حضرةُ الإنسانِ جهرٌ بسرِّ حضرَتي.

وقالَ ليْ: حضرةُ الإنسانِ ركنُ صحةِ حضرَتي.

وقالَ ليْ: حضرةُ الإنسانِ جامعةٌ لمعاني حضرَتي.

وقالَ ليْ: حضرتُك قائمةٌ من جهةِ إنسانيَّتِك، وحاصلةٌ من جهةِ كدحِك.

وقالَ ليْ: جهةُ الإنسانيةِ من يديّ، وجهةُ الكدحِ من يديكَ.

وقالَ ليْ: جهاتُك جميعاً جهةٌ واحدةٌ.

وقالَ ليْ: جهاتُك بوصلةُ الوقتِ.

وقالَ ليْ: جهاتُك مِزْوَلةُ المكانِ.

وقالَ ليْ: جهاتُك تؤولُ إليّ، أو هكذا أظنّ.

وقالَ ليْ: جهاتي تؤولُ إليكَ، أو هكذا تحسَبُ.

وقالَ ليْ: الجهةُ فخٌّ عتيدٌ.[11]

---

[11] اضطربَ رجلٌ من ظلمٍ لَحِقَ به، وكانَ عاملاً مهاجراً من برِّ السوادِ. فصارَ يتكلّمُ بحقِّه، ويقولُ بلسانِه الإفريقيِّ ما لم نفهمْه، فنسألُه بلسانِنا فلا يقدرُ أن يعرفَ قصدَنا. فخرجَ عنا خائباً، وعدنا عنه لم نعرفْ كيفَ نسندُ مظلوميّتَهُ.

فأصابَ التلاميذَ من هذا كدرٌ شديدٌ، وتغيّر حالُهم، وبكَى تلميذٌ عرفنا فيه رقّةً وآدميّةً بالزائدِ. قالَ الإمامُ: جهتُه حجبَتْه عنّا فلم نرَ مظلوميّتَه علَى وجهِ التعيينِ، وجهتُنا حَبَسَتْنا عنهُ فلم يَشهد فزعتَنا علَى وجهِ التخصيصِ. ولو كانَ العالمُ جهةً واحدةً لنقصَ مقدارُ الظلمِ بقدرِ نقصانِ الجهاتِ من لسانٍ وديانةٍ ولونٍ وعِرْقٍ ومكانٍ. قُلنا: فما نفعلُ؟ قالَ: نخلطُ الجهاتِ حتّى تصيرَ جهةً واحدةً. قُلنا: هذا لا يكونُ. قالَ: إذنْ كونوا قلوباً الحبشِيُّ عندَها كالروميِّ، والفَصيحُ كالأعجميّ، والشيخُ كالناهدِ، والمتاخمُ كالمباعدِ. قالَ: وهذي قلوبُ الباكين الذين يجري دمعُهم نهراً فيغمرُ الجهاتِ جميعاً، ولا يعودُ هناك غيرُ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: البكاءُ يَلُمُّ جهاتَك جميعاً حتّى تصيرَ جهةً واحدةً.

وقالَ لِيْ: البكاءُ جهةٌ حاصلةٌ عن جهاتِك.

وقالَ لِيْ: البكاءُ يحصلُ عنكَ أنتَ، حتى يكادُ يحصلُ عنّي.

وقالَ لِيْ: البكاءُ استشهادٌ بالحزنِ علَى العالمِ.

وقالَ لِيْ: البكاءُ ربوبيّةٌ، لأنّهُ دخولُ العالمِ إلى رحِمِك.

وقالَ لِيْ: البكاءُ رَحِمُ العالمِ.

وقالَ لِيْ: مَن تبكي عليهِم يجيؤونَني يَتكلّمونَ عنكَ ويَذكرونك ويَخوضون في سِيرتِك خوضَ المحبينَ.

وقالَ لِيْ: من تبكي عليهم يَصيرون بعضَ قلبِك.

وقالَ لِيْ: من تبكي عليهم يَنزلون في مضاربِ دمعِك ضيوفاً وأهلَ حِمىً.

وقالَ لِيْ: دمعُك حِمَى المحزونينَ ومَضارِبُ الباكينَ وديارُ المكلومينَ الصابرينَ.

وقالَ لِيْ: الدمعُ لجّةٌ لا يَخوضُها إلا الذين يتوجّعونَ بي وبالعالمِ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يَتوجّعونَ يَسْعَونَ بين أسمائي وأحوالِك يَطلبونَ اكتمالَ مَناسكِ الحزنُ وتمامَ شعائرِ الرثاءِ.

وقالَ لِيْ: تمامُ الشعائرِ من أركانِ الإحرامِ بالمحبةِ.

وقالَ لِيْ: تمامُ الشعائرِ إذنٌ بالإفاضةِ إلى ما يَليك.

وقالَ لِيْ: ما يَليك يجاورُك ويسندُك في إعرابٍ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الإعرابُ يفصحُ عن علائقِ الدمعِ كي لا يُعجِمَ عنكَ البكاءُ.

وقالَ لِيْ: الإعرابُ يُقيمُك في أولِ البكاءِ أو آخرِه سِيّانِ لا يَشتبِهُ معناكَ ولا ترتبكُ عبارتُك.

وقالَ لِيْ: الإعرابُ يزيدُ في الوجعِ لأنه يزيدُ في الصّلةِ بينَك وبينَ سياقِ البكاءِ.

وقالَ لِيْ: الوجعُ علامةٌ على القلبِ المتصلِ بالخلقِ من بابِ الرحمةِ.[12]

وقالَ لِيْ: الوجعُ الذي بكَ يتنفّسُ به الكونُ فيصيرُ إيقاعَه الذي يمشي عليهِ كلَّ صباحٍ.

وقالَ لِيْ: الوجعُ إشارةٌ بربانيّةِ القلبِ لأنه مودّةٌ للعالمِ.

وقالَ لِيْ: ربانيةُ القلبِ إحالةٌ إليّ.

وقالَ لِيْ: مآلُ القلبِ الربّانيّ السِّدْرَةُ.

وقالَ لِيْ: السدرةُ عتبةٌ على حين غمرٍ مباغتٍ.

وقالَ لِيْ: السدرةُ شجرةٌ يلزمُها السقايةُ فمن هذا يكونُ البكاءُ.

---

[12] كانَ الأستاذُ العارفُ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي، شيخُ المودّةِ والكراماتِ، وأستاذُ التجلّي والفتوحاتِ، السلطانُ الآسرُ، والمددُ العامرُ، بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائر، كثيرَ المشيِ في السّوقِ والزناقي. وكنتُ كلّما رأيتُه سمعتُ منه أنّةً مكبوتةً كأنها صرخةٌ يمسكُ عنانَها فلا ترعَى إلا قريباً. فظننتُ به صُداراً أو عُسراً في النَفَسِ يُلزِمُهُ الأنينَ. فكلّمتُ الإمامَ أحمدَ أن يطمئنَّ عليه فقالَ: هذه شهقةُ العارفينَ يا موسى. الأستاذُ يخوضُ في السوقِ والزناقي فيشهدُ أوجاعَ الخلقِ ومظانَّ حزنِهم يتقوّى بها علَى المجاهدةِ، وعملِ الخيرِ، والخَلْوَةِ التي لا تجوزُ عندَه من غيرِ الاتصالِ بأوجاعِ البني آدمين. وقد كانَ في أولِ عهدِه يَتصدّعُ من البكاءِ حتّى يسقطَ على طريقِ الدكاكينِ، فيأتي الناسُ ويحملونهُ وهو لا يدري. فلما اشتدَّ ساعدُ قلبِه صارَ تصدُّعُه جُوّانياً، وظهرتْ هذهِ الأنّةُ المكبوتةُ علامةً برانيّةً علَى حضرةِ الألمِ العجيبِ، كما دَلَّتْ ريحُ القميصِ علَى حضرةِ الولدِ الحبيبِ. قلتُ: فكنتُ كلّما سمعتُه يَئِنُّ همساً رأيتُ بعينِ قلبي أنّهُ يتعفَّرُ في الترابِ، وينتفضُ كالمجذوبِ، ويبكي كالأمِّ الثَّكلَى، وهو مستورٌ بشهقةِ القلبِ الظاهرةِ في السُّوقِ.

وقالَ لِيْ: السِّدْرَةُ تُسْقَى من غمرِ الباكينَ فحينَ ينعسونَ في ظِلِّها إنّما ينعسونَ في ظِلِّ دمعِهم.[13]

وقالَ لِيْ: السِّدرةُ حرثُ الدّمعِ.

وقالَ لِيْ: السدرةُ مؤونةُ الرجاءِ حتّى لا يتوجّعَ قلبُك من رهقِ اليأسِ.

وقالَ لِيْ: اليائسونَ لا يناهضونَ الحزنَ لأن المناهضةَ فعلٌ من أفعالِ الأملِ.

وقالَ لِيْ: كلّ فعلٍ من أفعالِ الأملِ شهقةٌ تمشِي بكَ في سياقِ الدمعِ إلى آخرِه.

وقالَ لِيْ: شهقةُ الأملِ مناهضةٌ للدمعِ من جُوّانِيّتِهِ.

وقالَ لِيْ: شهقةُ الأملِ استشكالٌ علَى الحزنِ بفعلٍ من أفعالِ هذا الحزنِ.

وقالَ لِيْ: الاستشكالُ مناهضةٌ متحشِّمةٌ.

---

[13] كان لنا في زاويتِنا الصوفيّةِ سدرةٌ صائفةٌ غرسَها الإمامُ أحمدُ الدريُّ في ناحيةٍ قَفْرٍ تشبيهاً وكنايةً، وهو فعلٌ يُعْجِبُ أهلَ الطريقةِ من بابِ المقاربةِ. وكان معنا شيخٌ هو أرقُّ الناسِ وأكثرُهم رحمةً ورأفةً وأسرعُهم دمعاً من غير ابتذالٍ. فلمّا رأى الشجرةَ ضعيفةً أخذَها بالعنايةِ والسقايةِ حتّى أورقتْ واخضرّت. فلمّا كان وقتُ الخَلوةِ الصوفيّةِ ودخَلنا إلى دورِ المجاهدةِ المخصوصةِ في الزاويةِ البستانيةِ قالَ الإمامُ: يا شيخَنا، أنتَ تخلُو إلى نفسِك تحتَ هذه الشجرةِ حتّى لا نفرضَ عليها أن تفارقَها وتفارقَك. فجلسَ الشيخ تحتَ السدرةِ أسابيعَ لا يطلعُ عنها إلا للضرورةِ الطبيعيةِ. قالَ: فإني تآلفتُ مع نَفَسِهَا، وخشخشةِ أوراقِها، وسكينةِ ظلِّها، حتى صارتْ لي موطناً، وصرتُ قيوماً علَى السّدرةِ، سدرةِ الكنايةِ والتشبيهِ. قلتُ: فما تَكَنّى لكَ وما شُبّهَ لخاطرِك من موقفِك تحتَ السدرةِ ورعايتِك لها وظلِّها عليكَ؟ قالَ: تَكَنَّى لي أن اسمَ الرحمةِ هو الزادُ الذي تتقوّتُ به الحياةِ في الكونِ، وشُبّهَ لي أني القائمُ بهذا الاسمِ حتّى كأنّني هو أو كأنّه أنا، وما هو بذلكَ. فتأمّلْ.

وقالَ لِيْ: شهقةُ الأملِ قد تخرجُ بكَ عن حيّزِ الدمعِ غيرَ أنها لا تخرجُ بكَ عن سياقِه.[14]

وقالَ لِيْ: الذي يشهقُ بالأملِ لا يصحُّ له أن يطمئِنَّ بوقتِ هذا الأملِ.

وقالَ لِيْ: شهقةُ الأملِ ترجعُ بك إلى الإجهاشِ حتى لا تضيعَ منكَ بوصلةُ الحزنِ.

وقالَ لِيْ: الإجهاشُ يسعَى بين يديكَ وهو طلعَ من مُقلتَيكَ فلا تكادُ ترَى إلا بهِ.

وقالَ لِيْ: إجهاشُكَ بالبكاءِ مناوشةٌ معي وانخراطٌ في شؤوني وفتحٌ سافرٌ لديارِي.

وقالَ لِيْ: إجهاشُكَ مبادرةٌ بالعزاءِ وجسدُ العالمِ ينازعُ الحزنَ قدّامَ حضرَتي.

وقالَ لِيْ: الذي يبادرُ بالعزاءِ يستعجلُ اسمَ الرحمةِ ويحثُّ الحضرةَ الوالهةَ أن تُناوشَ الحزنَ.

وقالَ لِيْ: المستعجلونَ مُرْهَفونَ بالمحبّةِ تكادُ قلوبُهم تتقطّعُ بشغافِ الحزنِ.

وقالَ لِيْ: المستعجلونَ يأوونَ إلَى المآقي يحسبونَ الوجعَ لا يدخلُ عليهِم.

وقالَ لِيْ: المستعجلونَ يتهيّأونَ للحزنِ قبلَ أن يتهيّأ الحزنُ للعالمِ.

---

[14] قلتُ أنا موسَى: حيّزُ الدمعِ الوقتُ الذي يغلبُك فيه البكاءُ فلا تقدرُ على فكرٍ أو عملٍ. وأما سياقُ الدمعِ فالوقتُ الذي سبقَ الحيّزَ، ثم يدخلُ فيه الحيّزُ، ثم يَلِيهُ، فهو سياقُ الحزنِ الكاملِ والوجعِ الشاملِ الذي مشَى بك إلى البكاءِ. فمن هذا يرَى الغدامسيُّ أن شهقةَ الأملِ، أي الفكرةَ الناضرةَ والعبارةَ الملهمةَ واللحظةَ المتفائلةَ، قد تنزعُك عن هُنيهةِ البكاءِ لوقتِها، ولكنها لا تطلعُ بكَ عن حبسِ المظالمِ والأذَى. قلتُ: هذا الحبسُ يطلبُ بعد الشهقةِ الهتكَ والفضَّ والانعتاقَ الذي يكونُ بالمناهضةِ لا بالأملِ والرجاءِ.

وقالَ ليْ: الذي يتهيّأُ لحزنِ العالمِ يَحِيكُ ثيابَ الحدادِ من سبحانيّةِ اسمِ الودودِ.
وقالَ ليْ: الذي يتهيّأُ للعالمِ يقدرُ أن يدخلَ عليّ في هذهِ الهيئةِ وإن لم يتكلّم عني أو يطلبِ السلامَ عليّ.[15]
وقالَ ليْ: هيئةُ البكاءِ حَرِيّةٌ بالدخولِ عليَّ.
وقالَ ليْ: هيئةُ البكاءِ لها غوايةُ الجلالِ من بابِ الجمالِ.

---

[15] عرفتُ تلميذاً محباً للعلومِ والمعارفِ، مشغولاً بالأعمالِ والمجاهداتِ، متعلقاً بهمومِ الخلقِ خادماً لحاجاتِهم. فقرأَ بعضَ فلسفاتِ السوقِ، وكَتَبَ في الفكرِ والمنهجِ والأنساقِ التي تنظمُ الاجتماعَ البشريّ. فلمّا صارَ أستاذاً معتبراً ذهبَ عنا إلى قريةٍ صغيرةٍ في تخمٍ بعيدٍ من تخومِ البلدِ. فبعدَ عشرِ سنينَ أتيتُها لبعضِ البيعِ والشراءِ. فوجدتُ الأستاذَ يُعَلّمُ في المدرسةِ والمعهدِ المتوسّطِ ويكتبُ أبحاثَه النظريّةَ وبعضَ الأدبِ. وهو منخرطٌ في همومِ الناسِ ومشاكلِ السوقِ والتعليمِ والكهرباءِ والمجاري، ورأيتُه يتكلّمُ عنها في البلديّةِ والنوادِي والجمعياتِ. فلمّا حضَرَ وقتُ كلِّ صلاةٍ لم أجدْهُ في مسجدِ القريةِ، ثم إني قرأتُ شيئاً من نصوصِه فوجدتُ فيها خروجاً بَيّناً عنِ الملّةِ الإبراهيميّةِ في حجابِ العبارةِ الفلسفيّةِ، فكلّمتُه فقالَ: نعمْ، قد حِدْتُ عن هذا الطريقِ لأني وجدتُ المؤونةَ في غيرِه. فلما غدوتُ إلى اطرابلس وجلستُ بالزاويةِ البستانيةِ رأتْ أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ أثرَ الحزنِ والانشغالِ على محيّايَ، فسألتْني وألحَّتْ. فأخبرتُها عن التلميذِ الذي صارَ أستاذاً، وهي تعرفُه قبلي، فقالتْ: فأنتَ تقولُ أنه تركَ الصّراطَ غيرَ أنه مازالَ يخدمُ الناسَ ويهتمُّ لحاجاتِهم ويمشي في مصالحِهم؟ قلتُ: نعمْ، هو كذلكَ. قالتْ: طوبَى لهُ! قد هجرَ الديانةَ التي ضاقتْ عنهُ، غيرَ أنه قبضَ علَى مُضغةِ الإيمانِ التي اتّسَعَتْ لهُ وللخلقِ. فهذا أمرٌ دُبِّرَ بقلبٍ، وتدبيرُ القلوبِ يا موسَى من تدبيرِ صاحبِ القلوبِ، فخلِّ بينَه وبين صاحبِ قلبِه، فإنه أرحمُ به وأقربُ إلى شغافِه منكَ.

وقالَ ليْ: هيئةُ البكاءِ هيبةٌ.

وقالَ ليْ: البكاءُ نهرُ رحمةٍ يمشي بكَ حتى تَصِلَ.[16]

وقالَ ليْ: النهرُ الذي يَصِلُ بك ينبغي لكَ أن تخوضَهُ.

وقالَ ليْ: الخائضونَ يمشونَ في اللّجّةِ التي هي نتجُ قلوبِهم وعيونِهم في مقارعةِ الحزنِ.

وقالَ ليْ: الخائضونَ يُرتِّبون جهاتَ البكاءِ، ويُسَوّونَ صفوفَ الدمعِ، ويَنْظِمُونَ ضفافَ الأملِ التي اختلطَ طينُها بطميِ الحزنِ.

وقالَ ليْ: الخائضونَ تبتلُّ قلوبُهم قبلَ مآقيهم لأنهُم يغرقونَ في جوانيّةِ الحزنِ ثم يظهرونَ إلى برانيّةِ الرثاءِ.

وقالَ ليْ: الخائضونَ في جوانيّةِ الحزنِ يصيرونَ هم جوانيّةً للحزنِ الذي لهُ هيبةُ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: الخائضونَ يطلعونَ إلى برانيّةِ الرثاءِ كي لا تتفتّتَ قلوبُهم من هولِ

---

[16] توحّشتُ وأنا تلميذٌ بأرضِ الغربةِ وجهَ أمّي فلمْ أقدرْ على نومٍ أو طعامٍ. وكانتْ رعاها اللهُ تحبني وتقدّمني على إخوتي لغُربتي وبُعْدِ دياري عنها، وأنا بِكْرِيُّها الذي حلمتْ به وهي بنتٌ صغيرةٌ. فلما بلغَ بي الشوقُ وأخذتني سِنَةٌ من النومِ جاءتني الحبيبةُ وجعلتْ تمشّطُ شعري بيديها وهي تُهدهدُني فقلتُ: أي أمّي إني توحّشتُ في هذي الديارِ ولا أراني إلا قتلَني الشوقُ إليكِ. فقالتْ: اجعلْ شوقَكَ في الدمعِ يا ولدي هو بركةٌ لكَ وطمأنينةٌ لقلبِكَ، ولا تُسْلِمْ بدنَكَ للجوعِ والسهرِ، إني أخافُ عليكَ ألا تبكِي. فأفقتُ من غفوتي فإذا الدمعُ نهرٌ جارٍ من مُقلتيَّ يغسلُ عن روحي وجعَ الغربةِ ويُطَيِّبُ قلبي بالرحمةِ. فأنا إلى الآنَ أجدُ طمأنينةَ ذلكَ الحلمِ، كلما هزّني الشوقُ توسّدتُه.

الجوانيّةِ.

وقالَ لِيْ: أهلُ الجوانيّةِ يُسلّمونَ علَى أهلِ البرانيّةِ الذين خرجوا قبلَهم يسألونَهم عن أدنَى سبيلٍ للدمعِ.[17]

---

[17] قال مَولاي تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: كنتُ وقتاً يابساً عنِ البكاءِ، قحطاً لا ينزلُ دمعي وإن تصدّعَ قلبي من الحزنِ. ولم أكُنْ آبَهُ لهذا أوّلَ الأمرِ لاعتبارِ الجُوّانِيّةِ عندي علَى البرّانِيّةِ. ففي صبحٍ باكرٍ أتيتُ الإمامَ أحمدَ وهو قاعدٌ علَى الترابِ تحتَ كرمةِ العنبِ التي تَلِي البئرَ الشرقيّةَ. فإذا هو يتأمّلُ شُجيرةَ برقوقٍ يافعةً لم تُجاوزْ قامةَ الطفلِ طولاً. وإذا دمعٌ هطلَ على لحيتِه وآخَرُ ترقرقَ في مُقلتيهِ حتّى أضاءَ وجهُهُ بحُمرةٍ طيّبةٍ للناظرينَ. قالَ: هي حُمرةُ الذين أجهشُوا في البكاءِ. قالَ: فقعدتُ بحذائِه ولم أسلّم هيبةً ثم قلتُ: يا أحمدُ، أراكَ مبتلاً بغمرِ الدمعِ؟ فقالَ الإمامُ: هذهِ البُرقوقةُ غرستُها من ثلاثةِ أعوامٍ فلمِ تُطلِع نُوّاراً ولا ثمراً، وقد رعيتُها وسقيتُها. فعزمتُ أن أجتثَّها وأزرعَ في موضِعها شُجيرةً تُبهجني وتسدُّ رمقَ الجوعِ. فلمّا هممتُ بها خطرَ عليَّ أنَّني في هذا الوقتِ الذي مضَى من الرعايةِ لها رَعَتني هيَ بالمقابلةِ. فزادَ، في هذي السّنينِ، مقدارُ الرحمةِ في قلبي، وتزوّدْتُ بالهواءِ الذي في محيطِها، وأمعنتُ في أحوالِها وأطوارِها، وانبثقتْ أفكارٌ ومعانٍ من جيرتِها. فإذا هيَ أينعتْ وأزهرتْ وأثمرتْ في قلبي كلَّ هذا الوقتِ وأنا أنظرُ أريدُ نُوّارَها السّافرَ وزُوَاقَها الظّاهرَ. فبكيتُ من حالِ غفلتي ورثاءً لهذا العالمِ الذي يشملُنا بالمحبّةِ ونحنُ لا نأخذُ بالَنا.

قالَ مولايَ تاجُ السرِّ: فواللهِ ما دريتُ إلا والدمعُ يترقرقُ بعيني بُرهةً، ثم ينزلُ مِدراراً. فلمّا رأَى الإمامُ هذا منّي تبسّمَ وقالَ: خرجتَ يا تاجَ السرّ إلى بَرّانِيَّةِ الرثاءِ؟ فلعلّكَ لا تعودُ إلى اليباسِ الذي كنتَ فيهِ، ولعلَّ هذه البرقوقةَ حين شملتكَ أنتَ مازالتْ أوسعَ ممّا كنتُ أحسبُها وأنا أبكي لها وأتزوّدُ العلومَ.

وقالَ ليْ: برانيّةُ الرثاءِ مقامُ البكاءِ، وجوانيّةُ الحزنِ مقامُ العملِ.

وقالَ ليْ: أهلُ الجوانيّةِ يتحشّمونَ أن يخرجوا للبرّانيةِ إلا وفي عيونِهم علاماتُ العملِ.

وقالَ ليْ: أهلُ البرانيّةِ استئنافٌ لأهلِ الجوانيّةِ لأنَّ الذي برزَ إلى ظاهرِ العالمِ ينبغي له أن يتّصلَ بالغمرِ الذي تغرغرَ به وهو في داخلِ العالمِ.

وقالَ ليْ: الاستئنافُ، الذي هو الصّلةُ بين قلبيّةِ الحزنِ وحدقيّةِ البكاءِ، يصيرُ عتبةً للعلومِ التي لا بدَّ أن تنهضَ من لجّةِ الدمعِ.

وقالَ ليْ: العلومُ التي من اللجّةِ تسندُك في السياقِ الذي أطلعَ اللجّةَ.[18]

وقالَ ليْ: العلومُ ليست حاصلاً للعالمِ فحسب بل هي إنشاءٌ لهذا العالمِ آخرَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الذي يَنْتُجُ عن العالمِ يعودُ فيُنتِجُ هذا العالمَ لأنّ هيئةَ الدائرةِ هي هيئةُ

---

[18] قالَ تلميذٌ: يا موسى، إنّكَ إذا عشقتَ بنتاً فأنتَ تتوجّعُ بها فتترقرقُ بالدمعِ. فيصيرُ لكَ من هذا علمٌ بحالِكَ، ومعرفةٌ بالسبيلِ الذي لكَ، وفهمٌ لأثرِ هذهِ البنتِ فيكَ. فهذا العلمُ والمعرفةُ والفهمُ تسندُك جميعاً في السياقِ الذي أنتَ فيهِ من البنتِ، سياقِ العشقِ. فمِن هذا فإنّ العاشقَ الذي يترقرقُ ويجهشُ يستعينُ، والعاشقُ اليابسُ يُغْلَبُ. قلتُ: كلامٌ معتبرٌ ولكن لا يَسُدُّ، ولو صحَّ هذا تمامَ الصحّةِ لما تلخبطَ عاشقٌ يبكي بعشقِه ولما حكمتْ بنتٌ في ولدٍ يجهشُ. فإنّ علومَ البكاءِ تحتاجُ إلى شيءٍ يَطلعُ بها فوقَ سياقِ الدمعِ، وإلا صارتْ من خِضَمّ هذا البكاءِ وزادتْهُ لجّةً فوقَ لجّتِهِ. قلتُ: هو القلبُ الذي له أن ينبثقَ بالعلومِ أو الشوقِ إلى خارجيّةِ السياقِ. وهذا أمرٌ لا يعرفُه أكثرُ الذينَ يتكلّمونَ في الوجدانيّاتِ والمادّياتِ عن السياقاتِ والعلومِ أيها يغلبُ ولا يذكرونَ القلوبَ. فخلِّ بالَك من قلبِك فإنه ربما كفى عنكَ ساعةَ الحاجةِ والعزمِ.

التكوينِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الدائرةِ مقارِبةٌ لهيئةِ الدمعِ حتى يصيرَ الدمعُ عتبةَ الدخولِ إلى شغافِ الإنسانيّةِ.

وقالَ لِيْ: الذين يبكونَ تشفُّ قلوبُهم أكلّمُهم على عتباتِ الشغافِ، والذينَ لا يبكونَ أناديهم من وراءِ الأبوابِ.

وقالَ لِيْ: الذي يَبكي كلَّ وقتٍ غلبَهُ الوقتُ، والذي يكادُ يبكي كلَّ وقتٍ صارَ لهُ الوقتُ.

وقالَ لِيْ: الذي هو في مُقامِ "يكادُ" يشرفُ من أفقِ الفهمِ علَى تخومِ الدمعِ.

وقالَ لِيْ: من صارَ في أوّلِ الفهمِ صارَ في أوّلِ الدّمعِ، ومَن ذهبَ في ذاك توغّلَ في هذا.

وقالَ لِيْ: الذي فهِمَ بكاؤُه يسندُ، والذي لم يفهمْ بكاؤُه ليسَ معونةً.[19]

وقالَ لِيْ: البكاءُ الذي يَطْمَئِنُّ لهُ قلبُك لا يَسُدُّ.

وقالَ لِيْ: من بكَى الخلقَ بعينِ محبَّتِه بكاهُمُ بعينِ جلالي.

وقالَ لِيْ: من بكَى الخلقَ ولم يبكِ نفسَه فاتَه معنىً من معاني البكاءِ عظيمٌ.

---

[19] قلتُ أنا موسَى: الفهمُ والبكاءُ أُخيَّانِ لا يحضرُ أحدُهما إلا استوحشَ الآخرُ حتى يكونَ معهُ. وقال بعضُ أصحابِنا: مِنَ الخلقِ من يَفهمُ ويُفَصِّلُ أحوالَ المظالمِ على منهجٍ وترتيبٍ حسنٍ ويستحي أن يبكِي مع مظلومٍ أنَفةً أو خوفاً على هيبتِه. ومنهم من يبكي ويَجهرُ كبعضِ الشعراءِ وأهلِ الخطابةِ وفهمُهُ لا يُجاوزُ عتبةَ الظلمِ إلى أصلِه وأسبابِه. فخيرُ الناسِ من جعلَ بيَن فهمِه وبكائِه وشيجةً تُلَطِّفُ الفهمَ برحمةِ البكاءِ، وتَشُدُّ أَزْرَ البكاءِ بقوَّةِ الفهمِ.

وقالَ لِيْ: الذي يَبكي على الخلقِ صارَ قلبُه من بعضِ قلبي.

وقالَ لِيْ: أنتَ تبكي علَى كلِّ شيءٍ وأنا أبكي عليكِ وعلى كلّ شيءٍ، فأنا عزاؤُك ولا عزاءَ لي.

وقالَ لِيْ: ما بيديَّ أهونُ ممّا بيديكَ.[20]

وقالَ لِيْ: الباكونَ يندبُونَ ما فاتَ وأنتَ تندبُ ما لا يفوتُ.[21]

وقالَ لِيْ: بكاؤكَ معَ الناسِ اتِّباعٌ، وبكاؤكَ عليهم رحمةٌ، وبكاؤكَ منهم ضعفٌ، وبكاؤكَ لهم خلافةٌ.

وقالَ لِيْ: الذي يبكي علَى الخلقِ بكَى عليَّ فأنا أُربِّتُ على ظهرِ حُزْنهِ حتى يُسَرَّ.

وقالَ لِيْ: الذي يَبكي عليَّ دونَ خلقي انشغلَ بي عنّي.

وقالَ لِيْ: الذي يَبكي عليَّ دونَ خلقي انشغلَ بالسدرةِ عنِ الوصولِ.

وقالَ لِيْ: الذي يَبكي على الخلقِ صرتُ عينَه التي تذرفُ، وقلبَه الذي يندبُ، وبَدَنَهُ الذي يكادُ يذوبُ.

---

[20] قلتُ: لأنّكَ تناوشُ العالمَ بالإنسانيّةِ والحقُّ يُدَبِّرُهُ بالسبحانيّةِ. فمن هذا ثَبُتَ أنّ ما يخوضُ فيه البني آدمُ من أوجاعِ العالمِ واشتراطاتِ الخلافةِ أشدُّ بأساً من إبداعِ المجرّاتِ وخلقِ الزمانِ وتفريقِ الكتابِ. وعليه يصحُّ البكاءُ.

[21] قالَ أستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ: "ما لا يفوتُ" الدنيا وأحوالُها التي بها سعادةُ الخلقِ وشقاؤُهم. وهي لا تفوتُ، على معنَى المجازِ، لأنها محيطةٌ بابنِ آدمَ في تمامِ عمرِه ومادّةِ بدنِهِ فكأنّها خَلَدَتْ قياساً إلى فنائِهِ. وأما "ما يفوتُ" فسَقَطُ المتاعِ من شهواتٍ عابرةٍ لا تخرقُ قلبَ الإنسانِ، ورغباتٍ وأوهامٍ لا تُسمنُ من حبٍّ. قالَ: ومثالُ ما لا يفوتُ ويصحُّ البكاءُ عليهِ أحوالُ الخلقِ، ومقاماتُ العشقِ، وغيباتُ الرجالِ.

وقالَ لِيْ: الباكونَ مياهٌ متفرّقةٌ فإذا اجتمعوا كانوا لجّةً واحدةً على عتبةِ سيلٍ غالبٍ.

وقالَ لِيْ: الباكونَ يجهشونَ مُفَرّقينَ كآياتِ الكتابِ وهم يصحُّ لهم أن يصيروا إلى دَفّتَي مصحفٍ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الباكونَ قلوبُهم في أغمدتِها تكادُ تخرجُ للمنازلةِ كلّما أجهَشوا، لا يردُّها غيرُ الصبرِ.

وقالَ ليْ: أنتَ بكاءٌ غالبٌ، ودمعٌ متواترٌ، ورثاءٌ عتيدٌ. كتبتُ علَى فؤادِك الفقدَ، وأشرعتُ كبدَك لصدأِ العالمِ، وغرستُ عروقَك في بهتانِ الأشياءِ. فوجعُك في الوريدِ، وأنينُك يصدرُ من معناكَ، وسَلواك لا تكونُ إلا بمرَاثي الأئِمّةِ. أنتَ شهقةُ الأملِ وحضرةُ العلومِ ونتجُ المنازلةِ. يجهشُ معك قومٌ تكادُ تخضعُ لهم رحمتي، يخوضونَ إليكَ الدمعَ يجتمعونَ في دارِ عزائِك يحلفونَ أن ينصروكَ. وتَبْتَلُّ عيونُ الذين بايعوا أنفسَهم بالسلطانِ، وشايعوكَ على الحزنِ، يُعَزُّونَ بعضَهم بعضاً ويبوسونَ جراحَك يكادونَ يصدعونَ بكَ. فتَنَزَّلُ عليهم طمأنينةٌ مني وسكينةٌ من لَدُنِّ ما بكَ من بأسٍ. حتى إذا هَنَوْا وطابُوا بكاءً أَرَقْتَ لهم مآقِيَ اللجّةِ التي غمرتِ العالمَ، فاتّخذوها سَكَناً لهم ولأحبّتِهم، ومرعىً لماشيةِ الحزنِ، وجِناناً لنُوّارِ الفقدِ العظيمِ.

15. موسمُ الصَّبرِ

(وهو التربُّصُ)

ومن أحوالِه الاجتماعُ ومحلُّ الحشمةِ والتربّصُ والوقتُ والغالبيةُ والمغلوبيّةُ
واصدعْ الأولَى والآخرةُ والإمكانُ والإمعانُ وعلومُ الفوزِ والإمامةُ والشوقُ

وفيه حدّثتُ نفسِي بالجزعِ والعويلِ، وأُذيقَ بعضي بأسَ بعضٍ، وكدتُ أن أُبدي. وكانتِ الزّروعُ مأجورةً، والضروعُ مرهونةً، والجباةُ واقفينَ بالأبوابِ. حتى إذا غَلَبَ المترفونَ على الأمرِ، رُبطَ على قلبي بالصبرِ، وعلى بدني بالرَّجاءِ. فمشيتُ في الأسواقِ أشدُّ من أزرِ حزني، وأَنْشُدُ الخلقَ من حالِ وحشَتي. فإذا رجالٌ ونساءٌ يتقلَّبونَ من الضيمِ، وعيالٌ وبناتٌ تكادُ تميّزُ غيظاً، وإذا الهواءُ يكادُ يسقطُ على الخلقِ من ثِقْلِهِ ووحشتِه. فجعلتُ يَدِيْ في جيب العلومِ وأخرجتُها فإذا هي لا بأسَ لها، فتكلّمتُ أرجو أن يهتكَ لفظي وحشةَ المقامِ، فعادَ إليّ الكلامُ خائباً.

فأتيتُ كلَّ بلاءٍ فأقمتُ وجهي عندَهُ[1]، وإلى كلِّ مَظلمةٍ فأحصيتُها عدداً. وأَنشأْتُ ديوانَ المظالمِ، عَيْنِيّها وكافيْها[2]، وأقمتُ عليهِ الحَفَظَةَ من لَدُنِّ قلبي. وخَطَطْتُ كتابَ الحزنِ العظيم، فجعلتُ فيهِ كلَّ مغصوبةٍ منهوبةٍ، وقيّدتُ كلَّ

[1] قالتِ العارفةُ بالله فاتنةُ بنتُ الواجدةِ بالله المهديّةِ: "أقامَ وجهَه عندَ البلاءِ" أي جعلَه بإزائِه حتى يشهدَه فلا يَعزُبُ عنه من أمرِه شيْءٌ، وهو فعلُ المقرّبينَ العارفيَن. وأشرفُه مراقبةُ الجوعِ على بَدَنٍ بُنَيّةٍ، أو التفرُّسُ في عينٍ من جُبِيَتْ أرضُه بغيرِ حقٍّ، أو الجلوسُ لمن أُدخِلوا في الطاعةِ بالسيفِ. وأوضَعُهُ السماعُ والخبرُ.

[2] قال أستاذي في علومِ المعيشةِ أبو العيال مُغيثُ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى: حُكْمُ المظالمِ كفايةٌ على وجهِ التعيينِ وتعيينٌ على معنَى الكفايةِ. فالذي سُرِقَ جَهْدُه إنما تعيَّنَ الظلمُ عليهِ فرداً، وعلى الأمةِ كلِّها جمعاً واحداً أنها تكفيهِ ولا تكفي عنهُ، ومن ظُلِمَ يَغضبُ ويُغضَبُ له فرضاً قائماً لا يسقطُ عن ابنِ آدمَ ما جرَى في عرقِه دمٌ.

حقٍّ مسلوب، وبعثتُ به إلى الديارِ المحكومةِ والبلادِ المباحة. فأخذ أناسٌ أقلامَهُم وكتبُوا أن الله مع الصابرينَ. فلمّا صارُوا إلى التمامِ أخذتُ الكتابَ[3] فجعلتُ منهُ الرّقاعَ وأقررتُه علَى المظلومينَ. وقلتُ اثبتُوا ورابطُوا، وشُدُّوا عليه بالقلوبِ، وأمسكُوا عن الدمعِ، حتى يأتي من بعدِ ذلكَ حكمٌ لكُم فيهِ تُغاثونَ وتَعصِرُون. فهاجَ الظالمونَ ومنعوا الخطَّ والمصاحفَ، وأخذُوا الحقَّ بينهُم بالباطلِ فدمغُوه، ودفعُوا الناسَ بالعسسِ وبأسٍ شديدٍ. فلمّا انتبهَ الناسُ وفهِموا مالَ الظالمونَ عن العُنوةِ إلى القراطيسِ، والأرزاقِ، والمنابرِ. فأُحيطَ بالمظلومينَ من كلِّ جانبٍ. وقيلَ لهم الصبرَ القعودَ، والجماعةَ الجماعةَ.[4] وقامتْ علومُ الدخولِ فصارتْ شاهدَ زورٍ لخاطرِ الحُكْرَةِ والأثرَةِ. ثمَّ عزَّتِ اللُّقمةُ فرابطَ لها الناسُ في الطُّرقاتِ يدفعون بعضَهم بعضاً لا ينوشُون الظالمينَ. وأُنْسُوا حظّاً ممّا ذُكِّرُوا بهِ من الدمعِ والتبسَ

---

[3] قال الإمامُ أحمدُ: هو حديثٌ يوقِعه الحقُّ في قلوبِ الصادقيَن من أهلِ المظالمِ فيَخُطُّونَهُ في صُدورِهم ثمّ يجعلونَه في مصاحفَ روحانيّةٍ يقرؤونَها وهم صابرونَ. قالَ: وفيهِ تفصيلُ الجوعِ والعطشِ، وترتيبُ الفقرِ والمذلةِ، ومآلُ الأمرِ كلِّهِ كيفَ يكونُ.

[4] بينما أنا في قطيرٍ من أقطارِ العربِ دخلتُ على شيخٍ صالحٍ من القومِ عرفتُهُ باسماً ضاحكاً فوجدتُه في حالٍ وحشةٍ، وإذا امرأتُهُ وعيالُهُ حولَهُ يرجونَ أُنسَهُ فلا يجدونَهُ. فحلفتُ عليهِ أن يقصَّ عليّ الخبرَ، فقالَ: أنا منذُ ثلاثةِ أيامٍ قلبي ذاهلٌ لا يقدرُ على عبادةٍ أو معاملةٍ. ذلكَ أني صلّيتُ خلفَ إمامِ السّلطانِ هذه الجمعةَ فدعا لهُ بطولِ البقاءِ فأمَّنتُ وأنا غافلٌ، فلم تزلْ وحشةُ ذاك الدعاءِ بقلبي حتّى هذهِ الساعةِ.
قلتُ: فكأنّه انتبهَ من غفلتِه فانتفضَ وخرجَ عنا إلى الشارعِ يَسُبُّ السلطانَ وأعوانَه. فأمسكَ به عبيدُ الدَّرَكِ فأخذوهُ فضربُوه وأوجعوهُ ثلاثَ ليالٍ كاملةً حتّى عادَ قلبُهُ صافياً ووجدنا أُنسَه وبركتَه.

عليهم القولُ، وطالَ عهدُهم بالقعودِ فذَهلوا عن القيامِ. فلمّا جئتُهم بالبيناتِ وممّا عرفتْ قلوبُهم قالوا تبتغي عرضاً من الحياةِ أو تريدُ نصيباً من الثرواتِ. فاستلُّوا شغافَهم للظلمِ ودخلوا في بيعةِ البهتانِ، وصارَ مقامُهم في الصّبرِ حبساً للعلومِ، ورهناً لأفعالِ المجاهدةِ، وقيداً للشوقِ الذي في القلوبِ.

فأتيتُ المصاحفَ التي خططتُها بيدِي فجعلتُها فوقَ الرؤوسِ. وكتبتُ للأصحابِ بالمناهضةِ، وأشرتُ إليهم بأحوالِ المناوشةِ، وأذِنتُ لهم بآلاتِ المنازلةِ. فلما أَوْرَثْتُهم الكتابَ جاؤوني تتجَافَى قلوبُهم عنِ المظالمِ يتكلَّمُون بالعصيانِ. فقلتُ إنَّ الثورةَ آتِيَةٌ أكادُ أتهجَّى أحوالَها وألفظُ معانيها وأبوحُ باسمِها الحسنِ.[5] فلمّا أردتُ أن أخوضَ بهم بحرَ المظالمِ وَجِلَتْ سيوفُهم، ولَوْ كَانَ نصراً قَريبًا وغنائمَ كثيرةً

[5] قالَ تلميذٌ: أفحلَ الظلمُ في البلدِ فدخلتُ منه إلى مقامِ الغضبِ، ومشيتُ أريدُ أفعالَ المناهضةِ وأحوالَ المنازلةِ. فلم يقدرْ قلبي أن يثبتَ للطريقِ ولا بدني أن يصمدَ لمظانِّ الشدّةِ والبلاءِ. فوقفتُ في متنِ السبيلِ لا أعرفُ أن أتقدّمَ أو أتأخّرَ. قالَ الشيخُ المتوقّدُ: أنتَ خلطتَ بينَ مؤونةِ النهوضِ إلى الطريقِ، ومؤونةِ المشيِ في هذا الطريقِ. ذلكَ أن المظلوميّةَ التي ناشتْكَ ابتداءً هي زادُ القيامِ إلى سِدْرَةِ المبتدَى. فحينَ تدخلُ منها إلى متنِ الطريقِ لَزَمَكَ أن تَتَقَوَّتَ من علومِ المظلوميّةِ فلا يَهِنُ قلبُك ولا يتبدّدُ بدنُك.
قالَ التلميذُ: فما علومُ المظلوميّةُ؟ قالَ المتوقّدُ: تريدُ أن تَلْقُمَ زادَ الطريقِ وأنتَ جالسٌ عندي؟ إنما هي معارفُ وحسبةٌ ومناهجُ ومراجعاتٌ، فإن أردتَ أشرْنا إليك بمظانِّها فتنهلَ منها وقتاً وتحملَها على ظهورِ الإبلِ، إبلِ القلبِ، فتكفيكَ حاجةَ الطريقِ وتَسُدُّ بإذنِ اللهِ. قلتُ: فلم يمضِ حولٌ واثنانِ إلا والتلميذُ صارَ من أئمّةِ علومِ السوقِ والاجتماعِ، وعارفِي الصُّفَّةِ الأولَى في أحوالِ الخلقِ، وأهوالِ الظلمِ، وأنساقِ النهبِ والاستئثارِ.

لَفزعوا فرحينَ بما لم يُؤْتُوا من قبل، ولكِن اشتدّ عليهِم النضالُ يحسبونَ مُقامَ الصبر هيناً. يقولون لو أَنَّ لنا بِكَ عتاداً من العلومِ أَوْ نأوي إِلى دمعٍ عتيدٍ. فلمّا استحكمَ الدمعُ أنزلتُ عليهِم من بعدِه صبراً يلمُّ أشلاءَ الإنسانِ ويضمُّ جراحَ المغلوبينَ يقولونَ "هل لنا منَ الأمرِ شيءٌ؟"، والأمرُ لهم من قبلُ ومن بعدُ. هم أولياءُ الحكمِ قائمونَ بالعرشِ، يحسبُهم الظالمُ سلاماً. وقالوا إمامَنا اربِط على قلوبِنا وَثَبِّتْ علومَنا، ولا تذَرنا للمكوسِ والحاكرينَ. فصيّرتُ لهم الإمامةَ من عندِ أنفسِهم، وأقمتُ فيهم عزمَ الأرضِ التي ارتَهِنتْ، ودخلتُ بهم مقامَ الصبرِ وسياقَ المكابدةِ وتخومَ التربُّصِ والجهادِ.

وأتتْ جماعةٌ من الإنسانِ لم يشهدوا الوجعَ، ولم يُظلَموا في أنفسِهم وأموالِهم خاصّةً، يحلفُونَ على الله بالحقِّ فيَبَرُّهم، يقولونَ بَرِئنا من عملِ الظالمين.[6] فكتبنا عليهم فلحاً وكدحاً من لَدُنِّ براءَتِهم. فلمّا اكتملَ نصابُ الذينَ معي انعقدَ الصَّبْرُ

[6] قالَ مُعلِّمي أبو العيال مُغيثُ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى: هذهِ طائفةٌ عجيبةٌ، وجماعةٌ من الخلقِ غريبةٌ. لم يمسسْهم ظلمٌ مخصوصٌ في أحوالِهم ومعائشِهم، ولم يكدّرهم جابٍ ولا مترفٌ إلا بمقدارٍ محسوبٍ دونَ الثورةِ. يأبونَ الضّيمَ على غيرِهم، ويسعونَ في الأرضِ إصلاحاً وتبديلاً. قالَ: ومنهم من يكونُ الظّلمُ من جهةِ بلدِه أو دينِه أو عُصبتِه فيفورُ دمُه للحقِّ ويخرجُ يتكلمُ به. وربما كانَ النهبُ والسطوةُ في العالمينَ سببَ بحبوحتِه في العيشِ أولَ الأمرِ. قلتُ: ومنهم بعضُ أهلِ أوروبّا في وقتِنا هذا فإني رأيتُهم يتكلّمونَ في نواديهم وجامعاتِهم ضدَّ قبائحِ بلدانِهم وشركاتِهم. وهذا هو حدُّ جهدِهم ومبلغُ جهادِهم لغلبةِ رأسِ المالِ علَى رأسِ البني آدمِ عندَهم. فهؤلاءِ، وإن كانت مناهضتُهم للظلمِ تخدشُ هامشَهُ دون مَتْنِهِ في غالبِ الأمرِ، من أهلِ الحديقةِ تُفتحُ أبوابُها وهم حاضرونَ.

أَوَّلُهُ بآخرِهِ، فحضرَ الذي مع الصابرينَ فقالَ لي:

الصابرونَ قلوبُهم تحسِبُ الوقتَ كأنّها آلاتُ الوقتِ،

مضبوطةً على سمتِ المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: قلوبُ الصابرينَ ترقبُ الوقتَ كأنّها إنِ الْتَفَتَتْ لم يكن وقتٌ.

وقالَ لِيْ: قلوبُ الصابرينَ فعلُ مراقبةٍ.

وقالَ لِيْ: قلوبُ الصابرينَ تَنْظِمُ وقتَ العالمِ ثم تخفقُ بوقتٍ أَجَلَّ من وقتِ العالمِ.[7]

وقالَ لِيْ: الصابرونَ يحيطون بالوقتِ لأنّهم ميقاتُ كلِّ وقتٍ.

وقالَ لِيْ: قلوبُ الصابرينَ منازلُ اسمِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الصبرُ استعادةٌ للزّمامِ.[8]

وقالَ لِيْ: الصبرُ استقواءٌ بقلبِك، وقتَ المناوشةِ.

---

[7] قلتُ: لعلّهُ وقتُ الخلافةِ، أو هو وقتُ الفداءِ الذي يكونُ في سبيلِ الخلافةِ أولاً. وكِلا الوقتين، الفداءُ والخلافةُ، يخفقُ بهما قلبُ الصابرِ لزوماً ولياقةً، وإلا كان غافلاً عن المقامِ الذي هو فيهِ.

[8] لوّثَتْ شركةٌ كُبرى نهراً يمرُّ بزرعِ الفقراءِ، وأفسدتْ أرضَهم بالنفاياتِ الصناعيةِ. فقاضَاها الكادحونَ فلمْ يكن شيءٌ. فأخذَ فلاحٌ من تلكَ النواحي علَى عاتقِه أن يفهمَ القانونَ الذي غلبَهم فيغلبَ بهِ. فظلّ يدرسُه 16 سنةً، يجيءُ لتاجرِ الكتبِ فلا يقدرُ علَى شرائِها، فيقايضُه بأكوازِ الذُّرةِ التي هي من فَلْحِهِ أن ينسخَ الكتبَ نسخاً باليدِ. فلمّا أكملَ الدرسَ وصارَ محامياً معتبراً غلبَ الشركةَ بالتقاضي، وألزمَها إزالةَ الفسادِ في الماءِ والأرضِ، قلتُ: فهذا من حكمةِ الجو–جوتْسُو الشرقية وهي أن تغلبَ الشيءَ بما يغلبُك به، فتَقْلِبَ الحِسبةَ لكَ وهي في مبدئِها عليكَ. وهذا يصلحُ في بعضِ الأحوالِ دونَ بعضٍ، وإلا فإنّ القوانينَ زواقٌ ظاهرٌ لبِنْيَةِ النهبِ الغالبةِ، فوجبَ التنبيهُ.

وقالَ لِيْ: الصبرُ نصلٌ في غَمْدِ القلوبِ العارفةِ.

وقالَ لِيْ: الصبرُ مُبادأةٌ للحزنِ، ومبادرةٌ إزاءَ الوَهَنِ، وإحاطةٌ بوقتِ المَغلوبيّةِ.

وقالَ لِيْ: وقتُ المغلوبيّةِ غالبٌ عليكَ، ومُقامُها يُناهضُك، وأحوالُها ترهقُ معانيكَ.

وقالَ لِيْ: وقتُ المغلوبيّةِ يَتعلّقُ بسياقِ الناسِ جميعاً، فأنتَ لا تخرجُ عنه وفي الأرضِ غالبٌ ومغلوبٌ.

وقالَ لِيْ: الغالبُ والمغلوبُ سردٌ يحصلُ عنهُ وعيٌ بكَ.[9]

وقالَ لِيْ: الوعيُ بكَ استشرافٌ للوعيِ بكلِّ شيءٍ.

وقالَ لِيْ: الوعيُ بكَ تكريسٌ لاسمِك وأثرِك وما تصيرُ إليهِ.

---

[9] لما خرجتُ عن داري صابراً متربّصاً إلى ديارِ الهجرةِ العربيةِ عرفتُ صانعَ فخّارٍ في السوقِ، ماهرٌ في صنعتِه ومعيشتُه حسنةٌ. غيرَ أنه لا يأبهُ لأحوالِ الخلقِ، ولا يهتمُّ للمظالِمِ، ولا تشغلُه المغالبةُ التي بين الناسِ والحاكرين. وكان يقولُ "فخارْ يْكسِّرْ بَعضه". فكانَ في سنةٍ أن احتكرَ نافذٌ مجالبَ الطينِ التي يعتمدُ عليها، واستأثرَ آخرُ بسوقِ الألوانِ والصبغاتِ، وأعطتِ السلطاتُ امتيازَ بناءِ مصنعٍ للفخّار لعُصْبَةٍ ذاتِ بأسٍ، دونَ مشورةٍ أو تقديمٍ لأهلِ الصنعةِ وأصحابِ الرزقِ في السوقِ. فثارَ صانعُ الفخّارِ، وصارَ يتكلمُ في الظلمِ، ويشرحُ بِنْيَةَ السّلعِ، ويُصنّفُ العرضَ والطلبَ، ويكشفُ عن طرائقِ النهبِ وحِيَلِ السلبِ والاحتكارِ. فعجبتُ لحالِه وكيف حَسُنَ فهمُه، واتّسَعَتْ عبارتُه، واشتدَّ قلبُه يريدُ الثورةَ لا أقلَّ! فقالَ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي: بعضُ الناسِ يلزَمُهم أن يقعوا في حبسِ الظلمِ خاصّةً، فيتوجّعون، فيفهمُون، فتَنْبَثِقَ قلوبُهم بكتابِ الثورةِ تخطُّه بدواةِ العلومِ المكينةِ. قلتُ: العلومُ المكينةُ علومُ السوقِ التي تُبَيِّنُ إزاءةَ الغالبِ والمغلوبِ، ولا تحجبُ شيئاً من طرائقِ الحكمِ والقهرِ والربحِ العتيدِ.

وقالَ ليْ: الغالبُ والمغلوبُ إزاءةٌ.

وقالَ ليْ: الغالبُ والمغلوبُ توغّلٌ في الإزاءةِ حتى ينفكَّ عنها اسمُها.

وقالَ ليْ: الغالبيّةُ والمغلوبيّةُ تستدعيانِ الانفكاكَ ضرورةً.

وقالَ ليْ: المغلوبيّةُ تمشي بالغالبيّةِ إلى محلِّ الانفكاكِ.

وقالَ ليْ: المغلوبيّةُ تقفُ بالغالبيّةِ إزاءَ اسمِها هي فلا تعودُ تقدرُ أن تكونَ بإزاءِ المغلوبِ.

وقالَ ليْ: الصبرُ إنتاجٌ لوعي النصرِ من ضَرْعِ المغلوبيّةِ.

وقالَ ليْ: الصبرُ معرفةٌ بأحوالِ العالمِ، وفهمٌ لإمكانِ الوقتِ، ووعيٌ باحتمالِ المنصُوريّةِ.[10]

وقالَ ليْ: إمكانُ الوقتِ من إمكانِك.

---

[10] قلتُ أنا موسى: أسلمتُ نفسي للدرسِ في سنةٍ من السنينَ، فاستعجلتُ الفتوحاتِ، فلما طَوّلَتْ عليَّ توهّمتُها وتعلّقتُ بأستارِ بيتِها أريدُ التصرّفَ في الكونِ، والحُكمَ، والإرجاءَ. فأحاطتْ بي خيالاتٌ باهرةٌ ورؤىً سافرةٌ أبدتْ عن أشياءَ وأشياءَ. فكتبتُ ما كتبتُ، ولم أَمْحُ شيئاً، حتّى صارَ لديّ لوحٌ محفوظٌ وكتابٌ عَلِيّ. فلما تَقَفَّيْتُ أثرَ خطّي لم أفهمْ كلامي وهو خرجَ مَشغوفاً من قلبي، واختلطَ المعنى.

ففزعتُ إلى الإمامِ أحمدَ فرمَى بي إلى أولِ ورشةٍ للبناءِ وقالَ: تكدحُ مع الكادحينَ حتى تخرجَ من الاستعجالِ الذي غلبكَ إلى الصبر الذي تغلبُ به. وإنما الإنسانُ شجرةٌ كلما أمعنتْ أوراقُها في فضاءِ العالمِ زادتْ جذورُها سَفراً في ترابِ الصبرِ، وإلا يَبَسَتْ واصفرَّ نوارُها وكان حالُها كحالِك الذي أنتَ عليهِ. قلتُ: فكنتُ في ورشةِ العاملينَ كالنبتةِ الذابلةِ سُقِيَتْ ماءً وأُحِيطَتْ بالرعايةِ حتّى اخضرّتْ ونَمَتْ. ثم عاودتُ اللوحَ المحفوظَ ففهمتُه وفهمتُ سياقَه وذهبتُ به إلى غايتِه ومنتهاهُ.

وقالَ لِيْ: الإمكانُ تمكينٌ.

وقالَ لِيْ: الإمكانُ تمكينٌ من جهةِ أنه شهودٌ لجميعِ الطرقِ المؤدّيةِ إلى المعاني.

وقالَ لِيْ: الصابرُ، حين يُمعن في مقامِ الصّبرِ، يَشْهَدُ الإمكانَ حتّى يصيرَ أمامَ عينيهِ وهوَ ألفُ شَيْءٍ.

وقالَ لِيْ: الصبرُ إمعانٌ في الشهودِ.

وقالَ لِيْ: الإمعانُ تحقيقٌ للاحتمالِ.[11]

وقالَ لِيْ: الذينَ يُمعنون في الصبرِ يُتاخمون أرضَ الذي لا يصبرُ أبداً.

وقالَ لِيْ: الذي لا يَصبِرُ أبداً إذا دخلتَ عليهِ يحلفُ أنه معَ الصّابرينَ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يصبرُ أبداً يتكلّمُ عن الساعةِ ثم يقولُ علمُها عِندي.

وقالَ لِيْ: الذي لا يصبرُ أبداً يُسَطِّرُ الكتابَ ثم يمحُوه ويأتي بكتابٍ جديدٍ.

وقالَ لِيْ: الذي لا يصبرُ وهو عندَه الزادُ والمعادُ يقولُ لكَ اصْبِرْ وأنتَ بلا زادٍ ولا معادٍ.

---

[11] كانَ الإمامُ أحمدُ الدريُّ يعتبرُ الإمعانَ في العلومِ والأحوالِ والأعمالِ، ويحثُّ عليهِ الأساتذةَ والتلاميذَ يقولُ: الذهابُ في كلِّ أمرٍ إلى آخرِه يكشفُ عن غايتِه ويَبِينُ عن احتمالِه ويحقّقُ الإمكانَ فيهِ. وغلطَ أستاذٌ في علمٍ مشَى فيهِ وقتاً فدَوّخَهُ. قالَ الإمامُ: أوغِلْ ثم تخلّى. قلتُ: أرادَ للأستاذِ أن يصلَ إلى أحراشِ هذا العلمِ البعيدةِ، حتى يرَى منها ما لم يَرَهُ غيرُه مِمّنْ لم يغلطْ، فهو يمعنُ ثم ينفكُّ عن هذهِ الأحراشِ فلا يُحبسُ فيها. وكذا يصحُّ للعاشقِ أو الصابرِ أو المناهضِ أن يُوغلَ فيفهمَ ثم ينفكَّ. وهذا يوجبُ الانتباهَ من الاطمئنانِ لأواخرِ العلومِ والأحوالِ والأعمالِ، مثلما يوجبُ الحثَّ علَى الإمعانِ فيها أولاً. فخلِّ بالَك.

وقالَ لِيْ: الذي لا يَصبِرُ هل يُصبرَ عليه؟

وقالَ لِيْ: الذي لا يَصبرُ كلِّمهُ يُفسِح لكَ الطريقَ.

وقالَ لِيْ: الصبرُ نَتْجُ الطريقِ لأنّهُ يَخرجُ كاللبنِ من ضرعِ المظلوميّةِ الماشيةِ في الوقتِ.

وقالَ لِيْ: ضرعُ المظلوميّةِ زادُ الصّابرينَ يَلقُمونها حتّى يَسِيلَ لَبَنُها علَى الشّفاهِ العطشى واللِّحَى الشُّعْثِ والصدورِ الناهدةِ.

وقالَ لِيْ: ضرعُ المظلوميّة موردُ علومِ العارفينَ، ومنهلُ الأغواثِ السّادرينَ، ومَظَنَّةُ عينِ اليقينِ.[12]

وقالَ لِيْ: ضرعُ المظلوميّةِ المنُّ والسلوَى.

وقالَ لِيْ: ضرعُ المظلوميّةِ ينبغي لك أن تَلْقُمَهُ فلا تتحشّمْ من هيئةِ اللقمِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ اللقمِ من هيئاتِ النهلِ من اللوحِ.

---

[12] استأجرَ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي، غوثُ السودانْ، وعارفُ قرنةَ وأسوانْ، الفتحُ الباهرُ، والنيل الغامرْ، وإمامُ الزمانِ الظاهرْ، رُكناً في دارِ امرأةٍ وعيالِها يدرسُ فيهِ ويكتبُ ويستخرجُ العلومَ والأسرارَ. فعجبتُ كيفَ يتركُ الدُّورَ الواسعةَ ويذهبُ يستقصي تخومَ العلومِ عند امرأةٍ ضعيفةِ الحالِ. فقالَ الأستاذُ: هذه امرأةٌ سُلِبَتْ حقوقَها ونُهِبَتْ في رِزقها ورزقِ عيالِها، فعندَها ضرعُ المظلوميّةِ الذي ينتجُ منهُ لبنُ العلومِ الوقتيّةِ. وفيهِ أسرارٌ جليلةٌ ومعارفُ خطيرةٌ لو فهمَها من ظلمُوها لغشُّوها في نَتْجِ ثدييها. قلتُ: وكيفَ يُغَشُّ في لبنِ المظلوميّةِ؟ قالَ: بماءِ العلومِ الكاذبةِ.

قلتُ: ومن العلومِ الكاذبةِ بعضُ الفلسفاتِ والآدابِ والفنونِ التي تحجبُ الإنسانَ وقلبَه وجسدَه فلا يعودُ يرَى أو يفهمُ غيرَ صفِّ الكلامِ فوقَ الكلامِ.

وقالَ لِيْ: ضرع المظلومية دَوَاةٌ لحبرِ اللوحِ.[13]

وقالَ لِيْ: ضرعُ المظلوميّةِ كوثرُ الصّابرينَ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يكرعُونَ من الكوثرِ يصيرُ لهم سَنَامُ العلومِ الفائزةِ.

وقالَ لِيْ: علومُ الفوزِ تُكلِّمُني بها فلا أعودُ أتلَكّأُ.

وقالَ لِيْ: علومُك تأخذُ في حسابِها ضراوةَ العالِم، غيرَ أن قلبَك يَتّقِدُ بأملِ

---

[13] قالَ شيخي سعيدُ العاقبةِ: استأجرتُ داراً عندَ امرأةٍ عاملةٍ من أهلِ فاسَ وقتَ درسي للعلومِ عندَهم. وهي محجوبةٌ عن ثرواتِ الأرضِ بالحُكرةِ والأصولِ ونسقِ السياسةِ كحالِ غالبِ أهلِ البلدِ. وكانت تعملُ في دكّانها الذي جعلتْه للأطايبِ تخبزُها في بيتِها مع بناتِها وهن عيّلاتٌ. قالَ: فهذا أولُ النهارِ تخدمُ به الصنايعيّةَ الباكرينَ. ثم تأتي الظهرَ ببعضِ الشطائرِ تبيعُها للتلاميذِ والتلميذاتِ الغادينَ إلى بيوتهم، ففي العشيّةِ تعودُ للأطايبِ وشيءٍ من الشايِ والقهوةِ لخاطرِ تجارِ السوقِ وعمالِ النظافةِ والعتّالينَ. فظلّتْ علَى هذا الحالِ من الكدحِ الذي تحبّهُ والصبرِ الذي تعلّق بها 20 عاماً ويزيدُ. ففي صبحٍ بعينِه جلستْ على كرسِيّها الذي جعلتْهُ في مكانها المعروف من الدكانِ، وقد كَبُرَتْ بناتُها وخرجنَ عنها للدرسِ والعملِ وصحبةِ الأولادِ. فأسندَتِ المرأةُ رأسَها، وأسدَلتْ عينيها، ومضتْ إلى السِّدرةِ لا تخرجُ منها أنّةٌ ولا تصدرُ شهقةٌ من شهقاتِ الوجعِ. فبكَاها الناسُ ورثَوها بالكلامِ الحسنِ، وتصدّقوا على المحتاجينَ إكراماً لعزائِها. ثم جعلوا ماءً سبيلاً في السوقِ صدقةً جاريةً من أمامِ دكّانِها الذي هو محلُّ الشهادةِ على كدحِها، وصبرِها، ومظلوميّتِها.

قالَ الإمامُ أحمدُ: لو برزتْ هذه الكادحةُ للحقّ وهو يُبَدِّدُ الكتابَ لأبطلَ الزكاةَ والأسهمَ لخاطرِها وجعلَ الأصولَ والثرواتِ مشاعاً لعيالِها وعيالِ الخلقِ. ولكنّهُ استعجَلَ الكلامَ في الغيرانِ وأبطأتْ هيَ عنهُ في الدكاكينِ.

الخلاصِ.

وقالَ لِيْ: علومُك تكشفُ لك عن جهاتِ مغلوبيّتِكَ غيرَ أن قلبَك يُسْفِرُ لكَ عن الغالبيّةِ التي ستؤولُ إليكَ.

وقالَ لِيْ: علومُ الفوزِ تُحِيلُ في مبدئِها إلى الصبرِ ثم تمشِي بك إلى نفادِ الصبرِ.

وقالَ لِيْ: نفادُ الصبرِ سِلوانُ القلوبِ الخارجةِ إلى متنِ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: نفادُ الصبرِ أن يَفرغَ قلبُك من زادِ التربُّصِ ويجدَ عندهُ من مؤونةِ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: نفادُ الصبرِ أن أدخلَ عليكَ للسّلامِ فلا أجدُ منكَ غيرَ فُتاتِ الزادِ الذي حَسِبْتُهُ يكفيكَ.

وقالَ لِيْ: نفادُ الصبرِ أن تَسْبِقَني إلَى السّوقِ فتمنعَ الجبايةَ وتردَّ الأجرةَ وتقسِمَ أصولَ الأموالِ وأنا أقولُ أينَ هذا البَنِي آدم؟[14]

وقالَ لِيْ: من ينفدُ صبرُهم في الوقتِ الصّالحِ بمؤونةِ العلومِ الكاشفةِ كأنّهم يمشونَ في الطريقِ من ألفِ عامٍ والناسُ يحسَبونهم قاعدينَ علَى المنِّ والسَّلْوَى.

وقالَ لِيْ: نافدُ الصبرِ نافذُ الأمرِ.

وقالَ لِيْ: الصابرُ متربّصٌ بي، وبالخلقِ، وبالوقتِ، فإن استوَتْ صفوفُ هؤلاءِ دخلَ هو إلى محلِّ الإمامةِ.

---

[14] قال الإمامُ أحمدُ: إن اجتمعَ عندك الفقراءُ المسلوبونَ يقولون "فَلْحُنا وغِلالُنا" فاضربْ بعودِكَ لحناً من ألحانِهم واجعلهُم يقولونَ بعامِّيَّتِهم ألفَ مرّةٍ: الله حيْ ما يحبِّ البِيْ، الله حيْ ما يحبِّ البِيْ. فإن فَتروا فاجعلها ألفَ مرّةٍ: الله حيْ ايْهِدِّ البِيْ، الله حيْ ايهدِّ البِيْ. فإن فَتروا فاجعلها ألفَ مرّةٍ: الله حيْ يِبّيني بِيْ، الله حيْ يِبّيني بِيْ. فإن تقوّتْ قلوبُهم بذلكَ فاخرُج بهم.

وقالَ ليْ: محلُّ الإمامةِ الوقوفُ على الحافّةِ الآخرةِ للسياقِ الذي فيه الصفوفُ.

وقالَ ليْ: محلُّ الإمامةِ يَلْزَمُهُ خطُّ الكتابِ قبلَ جمعِه، وإبراءُ العلومِ قبلَ ترتيبِها، وفقهُ الخوفِ الذي يليهِ الرجاءُ ثم التمكينُ.

وقالَ ليْ: الإمامُ يصحُّ له أن يلغو بغيرِ الكتابِ من جهةِ أن الكتابَ يمشي بالإمامِ إلى ما بعدَ الكتابِ.

وقالَ ليْ: الإمامُ يتلقّى عني وعن الخلقِ وعن الوقتِ فلا يضيعُ من الكتابِ شيءٌ.

وقالَ ليْ: الإمامُ يُسِرُّ بالكتابِ وقتَ الإسرارِ، ويجهرُ به وقتَ أن يَضِجَّ سياقُ اجتماعِكَ بالعلومِ.

وقالَ ليْ: اجتماعُك هو الحيّزُ الذي تكدحُ فيه، وتقدحُ العلومَ، وتتهيّأ لكَ الأشواقُ.

وقالَ ليْ: اجتماعُك هو محلُّ الفهمِ المعتبرُ، فكلُّ فهمٍ خارجَ الاجتماعِ لا يَتحصَّلُ.

وقالَ ليْ: اجتماعُك يُسْفِرُ عن معناكَ في سياقِ العالمِ، لأنّكَ خارجَ العالمِ لا تَنْتُجُ.

وقالَ ليْ: أنتَ الحاصلُ الذي ينبغي من كلِّ حسبةٍ في الاجتماعِ، والناتجُ الذي يجبُ عن كلِّ ترتيبٍ للعالمِ، فما لا تَطْلَعُ منهُ، كأنّكَ عددُه الآخِرُ، لا يكونُ.

وقالَ ليْ: اجتماعُك يحيطُ بكَ غيرَ مُضغةٍ في القلبِ تتشوّقُ بها لحرّيتِك.

وقالَ ليْ: الشوقُ حركةٌ في الصبرِ إلى جهتِك التي ينفدُ منها الصبرُ.

وقالَ ليْ: الشوقُ انبثاقٌ لسياقِ الاجتماعِ إلى الفضاءِ الذي يمتنعُ عليه بحكمِ الاجتماعِ.

وقالَ ليْ: الانبثاقُ غوايةٌ تباغتُ القلبَ الذي يرزحُ في الاجتماعِ.

وقالَ ليْ: الانبثاقُ توغّلٌ للشوقِ حتى يصيرَ هذا الشوقُ إلى حُمّى الخلاصِ.

وقالَ لِيْ: الشوقُ الذي في القلبِ يَحُمُّ الجسدَ كي ينهضَ إلى آخرِ جهةِ الصبرِ.[15]

---

[15] كانَ معنا أستاذٌ مُقَدّمٌ في علومِ المعيشةِ غيرَ أنّهُ لا تُصِيبُه الحمّى الواجبةُ للعلومِ. وكان يحسِبُ للمظلومينَ حسبةً باهرةً، ويكشفُ عن فسادِ الأسواقِ، وتناقضِ الوشائجِ التي بين الناسِ في الصناعاتِ والدكاكينِ. فجلستُ آخذُ منه وقتاً حتّى برزتُ عندَه، وخصّني بالمحبّةِ. فلمّا أتمَّ لنا درسَ عشيّةٍ من العشيّاتِ، نهضتُ إليه أعينُه علَى ترتيبِ الدفاترِ، وأحملُ عنهُ شنطةَ التدريسِ إلى دارِه. ففي الطريقِ قلتُ: أي أستاذي، إنك صاحبُنا في الحسبةِ المتعلّقةِ بالأرزاقِ، وهي معارفُ شديدةٌ فيها من المظالمِ، والأوجاعِ، وسفورِ الأذَى المنظومِ في الأنساقِ المعتبرةِ والبِنَى الحاكمةِ، ما يُثْقِلُ علَى قلبِ البني آدمِ، ويَحُمُّهُ حتى يَتَوَلَّهَ ويَهِيمَ، ولا يعودُ ينفعُه إلا الحضرةُ، حضرةُ التصوّفِ أو حضرةُ السلاحِ. قلتُ: فكأنِّي رأيتُ عينَهُ تترقرقُ ونحن نمشي في الزناقي الطرابلسيّةِ، فسكتُّ عنهُ. فبعدَ حينٍ قالَ: يا موسَى، هذا بلدٌ صغيرٌ، وإني أفهمُ أحوالَه على نحوٍ متعلّقٍ بالثرواتِ، والمعائشِ، والصناعاتِ، لا يفقهُه غيري. فليسَ لي نائبٌ يجلسُ في موضعي إن ناشتني الحمّى، أو بَدَلٌ يقومُ مقامي إذا أسلمتُ نفسي لحضرةِ الهيامِ أو حضرةِ الرصاصِ. فمن هذا جعلتُ حجاباً بيني وبين حاجةِ قلبي من هذه المؤونةِ اللازمةِ، وعزمتُ من عشرينَ سنةٍ علَى اثنتينِ – أن أجعلَ ما عندي في الكتبِ المنشورةِ فلا يضيعُ، ويُصْلِحُ العارفونَ من شأنهِ ويُمعِنون فيه وبهِ، وأنْ أُدرّسَ معارفَ السوقِ للتلاميذِ والأساتذةِ، فلا يتوجّعونَ بالمظالمِ، أو يرقصونَ في الحضرةِ، أو يتناوشُهم الرصاصُ دون علومٍ. قالَ: فإني قاربتُ على هذا التحقيقِ، فأنا في مقامُ التّسليمِ، تسليمِ العهدةِ والأمانةِ، وأرجو أن تُصيبني الحمّى أو الرصاصُ لا فرقَ. قلتُ: فصارَ حالُ الأستاذِ يتغيّرُ بعدَها شيئاً قليلاً. فنجدُه يغضبُ ويتوجّعُ ويَتَوَلَّهُ ويَشْغُفُ. حتّى كانَ وقتُ منازلةِ الناهبِ البرّانِيّ في البلدِ، فبرزَ لها الأستاذُ بالحُمّى الصوفيّةِ التي أَلَمَّتْ به، وفارقتْ خَلْقاً ولم تفارقْهُ، حتى سَكَنَ الرصاصُ في صدرِه الذي حوَى علومَ المظلوميّةِ، وصنَّفَ المعارفَ المعيشيّةَ، وتوجّعَ بالمنهوبينَ المسلوبينَ.

وقالَ ليْ: الشوقُ حافّةُ الصبرِ الذي يعتملُ في قلبِك وأنتَ في مقامِ الرجاءِ.

وقالَ ليْ: الصابرُ في مُقامِ الرجاءِ كالماءِ في مُقامِ الغيمِ، إنما هو اكتمالُ الدائرةِ.

وقالَ ليْ: الصابرُ في مقامِ الرجاءِ لا يصبرُ على الظلمِ ولكنْ يصبرُ على وقتِ الظُّلمِ.

وقالَ ليْ: الصابرُ في مقامِ الرجاءِ بين أن يخرجَ أو لا يكادُ يخرجُ.[16]

وقالَ ليْ: الصابرُ إمامُ مُقامِ "يكادُ".

وقالَ ليْ: "يكادُ" لا تعرفُها علومُ الذين ظاهَرُوا علَى الخلقِ بالظلمِ والبأسِ الشديدِ.

وقالَ ليْ: العلومُ الظاهرةُ تريدُ أن تَخِيبَ "يكادُ–كَ"، حتى تصيرَ غُفلاً عن المناهضةِ.

وقالَ ليْ: قبلَ أن تنبثقَ بالمناهضةِ، اللازمة عن آخر الصبرِ، تقولُ العلومُ الظاهرةُ أنها لا تصيرُ، فإن اتّقَدْتَ بها علَى الملأِ قالتِ العلومُ الظاهرةُ لم يكنْ منها بدٌّ.

---

[16] بينما أنا غريبٌ بناحيةٍ من نواحي الجزيرةِ المنهوبةِ إذ برجلٍ يُصلحُ نعالَ الناسِ على قارعةِ الطريقِ ويُحدّثُهم بكلامٍ غريبٍ أعجبني وإن لم أَفْهَمْهُ كلَّه، فيقولُ لواحدٍ "جعلَ الله نعليكَ من معدنِ قلبِك"، ولآخرَ "أثابَكَ الله بعملِ نعليكَ"، ولامرأةٍ رثّةِ الحالِ "أنعلَكِ الله عرشَه"، ولجماعةٍ اكفهرّتْ وجوهُهم من أثرِ الإيمانِ "نعالٌ فوقَ نعالٍ"، ولرجلٍ يعملُ عندَ السلطانِ "خابَ من كانَ نعلَ الظالمين"، ولفتاةٍ غايةٍ في الحسنِ مع رقّةٍ في الحالِ باديةٍ "جُعلتُ نعلَكِ وجُعلتِ نعلي، على الحالينِ من قولٍ وفعلٍ". فيأخذُه بعضُ العَسَسِ بالتقريعِ والأذى فلا يلبثُ أن يعودَ. فحدّثتُ عنه إمامي أحمدَ فقالَ: هو الصابرُ الحقُّ، ذلك أنّه يكادُ يخرجُ على الظلمِ ثمّ لا يخرجُ، لبَكارةِ الوقتِ، وهو إلى الخروجِ أوثقُ سبيلاً وأغلظُ ميثاقاً. قلتُ: هو سبيلُ المجاهدةِ، وميثاقُ التضحيةِ والفداءِ.

وقالَ ليْ: مُقامُ الصابرِ مُقامُ عشقٍ، وحالُه حالُ تربّصٍ، ومآلُه مآلُ مناهضةٍ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ هاجسٌ يمشي متسربلاً في حجابِ قلبِك يحثُّك علَى الطريقِ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ هاجسٌ يقترفُ الرعبَ في قلوبِ الناهبينَ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ تحشيمٌ لي بحالِ الصابرِ لأنه من حَبْسِ هذا الحالِ يريدُ أن يناهضَ، فلا يمكنني ألا أتحشّمَ.

وقالَ ليْ: الصابرُ مَحَلُّ حِشْمَتي في العالمِ.[17]

وقالَ ليْ: محلُّ الحشمةِ تجتمعُ عندَه ألويةُ النصرِ في هيئةِ البِشَارةِ التي هيَ من عندِنا.

وقالَ ليْ: محلُّ الحشمةِ يغلبُ بجاهِهِ عندِي.

وقالَ ليْ: محلُّ الحشمةِ يُلزِمني أسمائي.

وقالَ ليْ: الحشمةُ والأسماءُ واحدةٌ.

وقالَ ليْ: الحشمةُ تنبيهٌ لي إليّ.

---

[17] قالَ ماءُ السماءِ، وشارةُ الولاءِ، الشيخُ الطاهرُ بن الرّضا، بابُ العلومِ الآنيّةِ، ومِشكاةُ الأسرارِ الإماميّة، في البصرةِ والنجفِ وكربلاء: محلُّ الحشمةِ يُربِكُ الحقَّ من جهةِ أنّه يقيمُ عليهِ الحجّةَ وهو يَتلكّأُ بداعي الوقتِ وسُنّةِ الأمورِ وفروضِ الخلافةِ الإنسانيةِ. والصابرُ الذي فهمَ مبدأَ الظلمِ الذي آذاهُ، وتربّصَ بالمقامِ الذي يصحُّ فيهِ الخروجُ، وتعلّقَ بالأحوالِ التي تُقَوّي القلوبَ، يصيرُ في محلِّ الحشمةِ بهيئةٍ ربانيّةٍ عجيبةٍ، ورواءٍ سبحانيٍّ باهرٍ. قالَ: فإذا ما اجتمعَ علَى هذا خلقٌ كثيرٌ، أو ثُلّةٌ معتصمةٌ بحبلِ المظلوميةِ، صارتِ الهيئةُ غالبةً والرواءُ معقوداً به النصرُ علَى المستأثرينَ. وهذا كلّه من عملِ الحشمةِ التي لا يقدرُ الحقُّ أن يلفُتَ عنها وجهَهُ أو قلبَهُ أو يداهُ.

وقالَ لِيْ: الحشمةُ "اصدعْ" أُخرَى، وآخِرةٌ.
وقالَ لِيْ: اصدعْ الأولَى تابعةٌ لـ اصدعْ الآخرةِ.
وقالَ لِيْ: اصدعْ الأولَى حثّتْ قلبَك من الغارِ إلى السهولِ، واصدعْ الآخِرةُ تحثُّ يديَّ من العرشِ إلى السّهولِ.
وقالَ لِيْ: كلُّ اصدعْ تمشي إلى السّهولِ لأن السّهولَ هي أرضُ الخلافةِ.[18]
وقالَ لِيْ: أرضُ الخلافةِ مقامُ التربّصِ الذي يشهدُك ثم يشهدُني.

---

[18] سكنتْ جوارَنا مهاجرةٌ غريبةٌ من البرِّ الإفريقيّ كان زوجُها يُعَنِّفُها وعيالَها فنسمعُ صوتَ بكائِها في الأسحارِ ونحن في حلقاتِ الذكرِ. وكانتِ المسكينةُ حينَ تخرجُ إلى الشارعِ صابرةً تَبْسُمُ وتُسَلِّمُ بالكلامِ المكسَّرِ وتُرضِعُ ولدَها أمامَ الناسِ لا تفهمُ أن هذا مستنكرٌ عندَهم. فجاءَتْها التلميذاتُ الطرابلسيّاتُ وقلنَ لها: ما لكِ لا تخرجينَ عن هذا الزوجِ المُعَنِّفِ؟ قالتّ: إقامتي في هذا البلدِ غيرُ منظومةٍ بالقانونِ، ولا مالَ لي أرعَى به عيالي. فإن خرجتُ أُخْرِجْتُ من البلدِ وجُعْتُ وجاعوا، فأنا أصبرُ وأتربّصُ حتى أجدَ سبيلاً. قالتْ تلميذةٌ: إننا نَشُمُّ طبيخَك يدخلُ علينا من رواشنِ ديارِنا في الزاويةِ الصوفيّة وهو مُطَيَّبٌ ببهارٍ من بلدِكم لا نعرفُه ولكن نَشتهيه. فاصنَعي لنا منه طعاماً نُؤْجِرُكِ عليه وتَنفعين نفسَك وعيالَك. ففعلتِ المهاجرةُ وكَثُرَ طالبو أطايبِ طبخِها حتى تمكّنَتْ فخرجتْ عن زوجِها الظالمِ وفتحتْ كُشكاً للرزقِ تحتَ دارٍ تبيتُ فيها وعيالَها. ثم أعانَها الإمامُ أحمدُ على قانونِ البلدِ، وأخذَها فمشَى بها إلى كنيسةِ قومِها تحضرُ صلاةَ الأحدِ، وتستأنسُ بأهلِ مِلَّتِها، ويَنتظمُ عيالُها في مدارسِهم وبعضِ نشاطِهم. قالتِ المهاجرةُ البرانيّةُ: أنتم أهلُ الله والإنسانِ، قلوبُكم محبةٌ، وعقولُكم نورٌ، وأرواحُكم عدلٌ وإحسانٌ. قالتْ تلميذةٌ: بل أنتِ بُغيتُنا لأنكِ بابُ الدخولِ عليهِ، ونحن نتوسّلُ بكِ إليه حتّى لا نجلسَ على عتباتِ الربانيّةِ لا يُؤْذَنُ لنا ولا نقدرُ على الشوقِ الذي بنا.

وقالَ ليْ: الصابرُ في مُقامِ التربّصِ مقاربةٌ للعرشِ في مقامِ الشُّهودِ.

وقالَ ليْ: صبرُك مُتربّصاً خروجٌ في ثيابِ الدّخولِ، وجهرٌ في ثيابِ الإسرارِ، ويقظةٌ في رواءِ النعاسِ.

وقالَ ليْ: أنتَ المتربَّصُ بهِ، والمتربَّصُ لهُ، والمتربَّصُ فيه.[19]

وقالَ ليْ: التربُّصُ دخولُك بالصبرِ إلى عتبة الوقتِ.

وقالَ ليْ: الصبرُ وَقْفُ الفعلِ علَى الوقتِ، لا وَقْفُهُ بلا وقتٍ.

وقالَ ليْ: الصبرُ الذي يكونُ ثمَّ لا يكونُ، صبرٌ. والصبرُ الذي يكونُ فلا ينفدُ، حيلةٌ.[20]

وقالَ ليْ: صبرُكَ من طينِ الغضبِ يُخرِجُ زرعَ الثورةِ، وصبرُك من طينِ التسليمِ يَبِينُ عن عصفِ المذلّةِ.

وقالَ ليْ: طينُ الغضبِ ينفعُ للغلالِ التي يتربّصُ بها الجباةُ ويُحدِقُ بها الحاكرونَ.

---

[19] قالت أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ اللهِ بنتُ العالمينَ: "المتربَّصُ بهِ" من جهةِ الظالمينَ يريدونَ نهبَهُ وغلبتَهُ، و"المتربَّصُ لهُ" من جهةِ الحقّ أنُّه مددُه وسندُه، و"المتربَّصُ فيهِ" من جهةِ قلبِه أنه محلُّ الخلافةِ التي تقومُ بُكرةً بالخروجِ. قالَ شيخي المُجتبىَ: صَدَقَتْ، و"المتربَّصُ منهُ" لا يتمُّ الكلامُ بدونِه، وهو الذي يتربَّصُ منه الظالمونَ يخافونَ يومَ غضبتِهِ.

[20] كان بناحيتِنا ربُّ عملٍ ظالمٌ يخافَ اللهَ خوفاً شديداً، ثم يأمنُهُ بالصلاةِ والزكاةِ والحجِّ. وكان أناسٌ يحبّونَه ويُجِلّونَه لعبادتِه. قلتُ: ومبدأُ ظُلمِه أنه متّصلٌ بسلطانِ المالِ اتّصالاً شديداً ينهبُ من حقوقِ الناسِ ما لا يصحُّ له ثم يدعو لرأسِ المالِ بالدوامِ ولا يتكلّمُ عن رأسِ البني آدمِ، ويمنعُ الناسَ عن ذلكَ. وكانَ كثيرَ البناءِ للمساجدِ فكنّا نقفُ بأبوابِها ونكلِّم الخلقَ، بالمحبةِ والرحمةِ، أنّ القروشَ تؤولُ للكدحِ ولا يؤولُ الكدحُ للقروشِ. وهذا قلبُ علومِ المظلوميّةِ. فنحنُ على هذا إلى الساعةِ حتّى يكونَ أمرُ اللهِ.

وقالَ لِيْ: طينُ الغضبِ يحيلُ غلالَك التي تُنهبُ إلى المُهلِ والزّقُّومِ.

وقالَ لِيْ: الصّابرونَ معقودُونَ بالعلومِ الوقتيةِ التي أخرجُوها من رحمِ المظلوميَّةِ.

وقالَ لِيْ: الصابرونَ يَتَحَيّنُونَ الوقتَ، فإن دخلَ خرجوا.

وقالَ لِيْ: الصابرونَ الذي يتحيّنونَ الوقتَ بُغْيَةُ الأَئِمَّةِ.

وقالَ لِيْ: الصابرونَ يصبرون عنّي ولا يصبرون عليَّ.

وقالَ لِيْ: الذي يصبرُ عنّي لا أصبرُ عنه، والذي لا يصبرُ عليَّ أصبرُ عليهِ.

وقالَ لِيْ: صبرُهم عنّي انشغالُهم بصلاحِ العالمِ، وصبرُهم عليّ تجاوزُهم عن خذلاني لهذا العالمِ.

وقالَ لِيْ: الصابرُون قَلَقٌ في ضميرِ العالمِ الذي استوحشَ مني واستوحشتُ منهُ.

وقالَ ليْ: هلمّ إليّ، هلم إليّ، أيها القلب الصابرُ، والبدنُ المثابرُ، والعقلُ الذي لا يحيدُ. لا عليكَ، لا عليكَ، لأنّه، لا عليَّ لا عليَّ. ما أزهرَ وجعٌ إلا لجاهِك عندي، ولا انفتقَ جرحٌ إلا لكرامتِك وعُلُوِّ شانِك، ولا حلَّ بأرضِك حزنٌ إلا حلَّ بأرضي وحازَ جلالي وأحاطَ بوجهي. لكَ المغلوبيّةُ التي هي محلُّ الحشمةِ، والمظلوميّةُ التي ضرعُها يُلْقِمُكَ العلومَ، والإمعانُ الذي يشهدُ لكَ بالتربّصِ والمرابضةِ. أنتَ مقصدُ الإمامةِ التي صدعتْ بك أوّلَ الأمرِ، وغايةُ الخلافةِ التي تصدَعُ بها آخِرَهُ. فاثْبُتْ للنائباتِ السائباتِ، والهَجْ باسمِك تَلْقَهُ اسمِي، وتجافَى عنْ مضجعِك إلى مَضجعي، واقبضْ علَى جمرةِ الإنسانِ، والْتَحِفْ بكلامِه ومعناهُ. واهنأْ بوَهَنِك الذي يَنوشُ الكونَ، وبصبرِك الذي يغلبُ العالمَ، وقيامتِك التي ستكونُ.

16. موسمُ القَلَقِ

(وهُو المراجعةُ)

ومن أحوالِه الحريةُ والسؤالُ والدهشةُ والوسواسُ والجبّةُ والدواةُ

والإتيانُ والافتراضُ والافتراءُ وسلامُ العرشِ وفضاءُ الإمكانِ وصبحُ النبيِّ

وفيه لم يَخْلُصْ جمعٌ إلى حاصلِهِ، ولا قسمةٌ إلى ناتِجِها، وتعطّلتْ أُسَسُ الأعدادِ، وبَطَلَتْ جُذورُها. فاستحالَ تركيبُ الأشياءِ على الأشياءِ، وامتنعَ فصلُها على الجملةِ. فلمَّا رميتُ المقالاتِ ارتدَّتْ إليَّ خائبةً، وأَرْسَلْتُ الحُجَجَ فَضَلَّتِ السُّبُلَ تَجِدُّ فيها بلا هُدًى. وألقيتُ في ليلِ العلومِ رواسيَ أن يهيمَ بي، فمادتْ بي ميداً شديداً. فبينما أصولُ الفكرِ خاملةً نَهَلْتُ من غفلتِها فإذا أنا بآخرِ القلقِ، وإذا هُو يُدبِّرُ الكونَ بأوّلِه. فكلّما أنزلَ عليّ معرفةً نظرتُ بعضي إلى بعضٍ هل يراجعُنا من أحدٍ، أم أن الحسابَ الذي أجريناهُ من قبلُ لا يَصِلُ.[1]

فلمّا كلَّمتُهُ تصدّعَ جَبَلُ عِزَّتِهِ، وكادَ أن يخضعَ لسطوةِ القلقِ الذي غلبَ عليّ. فأرادَ أن يَسُدَّ في المقامِ الذي خارتْ فيه المعارفُ، وتبدَّدتْ منه العلومُ، فأرسلَ إليَّ يمدُّني بالغيثِ من لَدُنّه، فوقعَ بيننا الزَّرعُ حِصَصُهُ ومسَاقيهِ. فلمّا مشيتُ فيهِ، رأيتُ قمْحي قصيفاً بلا معنًى، وزيتُوني صائفاً بلا غايةٍ، وإذا الأرضُ تخرجُ عن

[1] يقومُ القلقُ عندَ الشيخِ بلخير الغدامسيّ علَى أربعةِ أصولٍ فريدةٍ ظاهرةٍ من الفقراتِ الأربعِ الافتتاحيّةِ لهذا الموسمِ: فأوَّلُها نقصانُ العلومِ والمعارفِ عنِ الكمالِ بفسادِ أَوَّلِيَّاتِها، ومن هذا قولُه "لم يخلصْ جمعٌ إلى حاصلهِ"؛ وثانيها البأسُ الشديدُ يصيبُ الناسَ والخلقَ بلا جريرةٍ مفهومةٍ أو وزرٍ معلومٍ، ومِن هذا قولُه "رأيتُ قمحي قصيفاً بلا معنًى "وقولُهُ أيضاً "فمرضَ العيالُ ووهنَ الرجالُ"؛ وثالثُها غلبةُ الباطلِ على الحقّ في أكثر الزمانِ والمكانِ، ومن هذا قولُهُ "فإذا المستأثرونَ نزلوا منزلَ الحُكْمِ"؛ ورابعُها اختلافُ أهلِ الحقِّ فيما بينهُم وتقاتُلهم، ومن هذا قولُه "وأتى كلٌّ بربّهِ شاهداً ووكيلاً". قلتُ: وهذه أصولٌ محيطةٌ بنا إحاطةَ الصدرِ بقلبِ ابنِ آدمَ، فلا يطمئنُّ، ويخلُو من القلقِ، إلا من كانَ غُفلاً عن العلومِ أو المحبّةِ أو كليهِما.

الطمأنينةِ من بابِ الزلازلِ، وتحيدُ عن السّكَنِ من جهةِ البراكينِ، وجاءتِ الشرورُ تحيطُ بالخلقِ من كلِّ بدٍّ، فمرضَ العيالُ ووهنَ الرجالُ وضاقَ النّسوةُ بالدمعِ.

فغدوتُ على المدنِ والأمصارِ أسألُ عن أحوالِها. فإذا المستأثرونَ نزلوا منزلَ الحُكمِ، والذينَ يكنِزونَ لهم البأسُ وليسَ بهم بأسٌ، وأصحابُ الأصولِ والسلطانِ في بحبوحةٍ من العيشِ لا يكادُ العرشُ ينوشُهم بالأذَى، وسمعتُ شهيقَ المظلومينَ دمُهم أرخصُ من لغوِ الجُباةِ، وإذا الفلوسُ والأرزاقُ والماعونُ بيدِ العصبةِ القليلةِ يحكِرونَ ويَحكُمون.

ثم افترقَ الذين يتشوّقونَ للحقِّ فاختلفوا، وذهبوا حزباً فحزباً. فتكدرتِ الدماءُ الجاريةُ في القلوبِ، وتصلّبتِ العقائدُ والشرايينُ، وضاقتِ الأوردةُ والأفئدةُ. فدفعَ خلقٌ كثيرٌ خلقاً كثيراً، وأتَى كلٌّ بربِّهِ شاهداً ووكيلاً. وأخذتُ أقلّبُ كتبَهم فلم أَصِلْ لمعنى، وأُفتّشُ منازلَهم فلم تُقابلني إشارةُ خيرٍ. فحِدْتُ عن أهلَ الحقِّ المزعومِ من كلِّ ملّةٍ، وهجرتُهم لمّا هجروا القلبَ وفارقوا محبّةَ الإنسانِ.

فلمّا دخلَ الليلُ كانَ مهيباً، ولظُلمتِه سطوةٌ وبأسٌ شديدٌ. فجلستُ على العتباتِ أرقبُهُ من حيثُ لا يراني، ومشيتُ في تخومِه العظيمةِ، حتى بلغتُ منتهاها وأنا ما زلتُ في صبحِ القلقِ[2]، فخرجتُ عنها إلى عتباتِ الاغترابِ، وجُوّانيّةِ السؤالِ.

[2] قالت شيخَتي خديجةُ بنتُ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ، مولاةُ المسرّاتِ، وصانعةُ البهجاتِ، صاحبةُ العلمِ والسناءِ، وسلطانةُ الوجدِ والرجاءِ، في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراءِ: مَن

فحاذتني ظلمةُ الشكِّ الأولِ حتى حجبتْ بصيرَتي، وأنهكتْ خَطْوي، وأصَابني منها خاطرُ قلقٍ عظيمٍ، عجبتُ لروعةِ حضورِهِ، وراعَني بهاءُ نورِهِ. فالتفتُّ عنهُ أريدُ غيابَهُ. فإذا هو قد نزلَ بأرضي، واستوَى على عرشِ فهمِي، وأنساني حظّاً مما ذُكِّرْتُ بهِ. فقلتُ أَرِنِي أنظُر إلى قلبي، فبرزَ للشغاف فلمْ أفهَم عنهُ. فأَرِني كيفَ أُحيِي المعاني، فأشارَ إلى اللّجَّةِ فلم يَكُنْ شيءٌ. فما حالُ المظالمِ والوجعِ؟ فكتبَ "حكمَتي وبلاؤُك". فنفد ما عندَه وبقي ما عندي. فرأيتُ فُلْكَهُ تجري في البحرِ بالأذَى، فأغرقتُها ومشيتُ علَى الماءِ. فتعلّقَ بي خلقٌ كثيرٌ، فنفضْتُ يديّ منهُم وجلستُ أندبُهُ.[3] فلما سألتُ أهلَ الذِّكر ذُهِلوا عن قلوبِهم، وإذا قلبي

قامَ عن فراشِ الطمأنينةِ إلى أولِ النهارِ فغمرتْهُ شمسُ الصباحِ، بتجلّياتها وأحوالِها، ثم تنفسَ هواءَ العالمِ، الذي يتقوّتُ به إزاءَ الأسرارِ والمسائلِ والقضاَيا، ربما وهو يمشي في طريقِ النهارِ أحسَّ بوخزةِ القلقِ، وأنّةٍ من أنّاتِ الارتباكِ الوجوديّ والولهِ الكونيّ. فإن كانَ، فإنّهُ ذو قلبٍ مجتَثٍّ من ترابِ "هل أتَى علَى الإنسانِ حينٌ من الدهرِ"، أو مقطوعٍ من شجرةِ "وإنّكَ بأعيننا". قالتْ: فالذي يَقلقُ هو في محلّ الإنسانِ الكاملِ ولا ينبغي له السكونُ إلى الأجوبةِ المعتبرةِ والعباراتِ المرتّبةِ والقراءاتِ المتواترةِ.

[3] صاحبتُ مُريداً أخذَهُ الحقُّ منّا، في مقامِ القلقِ، وهُو معَنا ببدنِه لا يفارقُنا. فرأيتُه مرّةً خرجَ سافراً من خَلوتِه يكادُ جسدُهُ يضيء من جمالِهِ، وقدْ وقفَ في صحنِ المسجدِ ساعةً ينظرُ إلى الأفقِ لا يكادُ يحيدُ ببصرِهِ عنهُ. فلما دنوتُ منه قالَ: أرادَ أن يراني فحالَ بيننا سقفُ المسجدِ فخرجتُ إليهِ حتى لا تكونَ لهُ عليَّ حجةٌ، ولا يكونَ بيننا حجابٌ، وأنا ذا أرقبُه أن يأتي. قلتُ: فعرفتُ أن المريدَ في حالٍ من الوجدِ لا ينبغي معه الكلامُ والجدلُ، وعجبتُ من حال الحقّ كيفَ يقيمُ أهلُ الطريقِ الحجةَ عليهِ أن يظهرَ لهم وهو لا يسفرُ لهم إلا حلماً أو شوقاً من عند أنفسِهم.

أوسعُ من كلّ الأسئلةِ. لِكُلٍّ نَبأٌ مُسْتَقَرٌّ ونَبَئِي جديدٌ أعيا كلَّ قديمٍ. فَجَاوزتُهُ حتى دَنوتُ دُنُوّاً شَديداً وأَشرفتُ على السِّدْرِ والقوائمِ. فلمّا أدركتِ الشمسُ القمرَ وسبقَ الليلُ النهارَ، أتْبَعْتُ بعضَهم بعضاً وجعلتُهم أحاديثَ، فجاءَنِي يَنْظِمُ شتاتَ الكلامِ فقالَ لي:

في القلَقِ معنى حُرِّيَّتِكَ، حيثُ الحريةُ بنتُ السؤالِ.

وقالَ لِيْ: في القلَقِ معنى إنسانِيَّتِكَ، حيثُ الإنسانيَّةُ غرسُ القلقِ.

وقالَ لِيْ: غرسُ القلقِ يُطلِعُ غِلالَ الزادِ الذي تقتاتُ منه وأنتَ تفلحُ الأرضَ.[4]

وقالَ لِيْ: لا تَحبِسني في تُخومِك فتذبلُ أسمائي وأسماؤُك، ولكنْ ناهِضني بالسؤالِ، وناوِشني بالقلقِ، واحشدْ عليَّ ألويةَ الدهشةِ والاغترابِ.

وقالَ لِيْ: السؤالُ والقلقُ وألويةُ الدهشةِ هي أرضُك التي يطلعُ منها زهرُ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: ألويةُ الدهشةِ تحشدُ لكَ الأسئلةَ حتّى تصيرَ لواءً واحداً مُعزَّزاً.

وقالَ لِيْ: ألويةُ الدهشةِ تمشِي بكَ إلى فتوحاتِ الاغترابِ.

---

[4] من كرامات العَارفةِ بالِله فاتنةَ بنتِ الواجدةِ بالله المهديةِ، عارفةِ فزّانَ، وفتنةِ الأبدانِ، والقائمةِ بالبرهانِ، وهي فلاحةٌ، أنها كانتْ تزرعُ قمحاً ودُخْناً لتُطعِمَ عيالَها وعيالَ الفقراءِ الذين يكدحونَ معها في الأرضِ. فبينما هي قاعدةٌ على ترابِ القحطِ ضربتْ يدَها فولجَتْ في جوفِ الأرضِ كأنها محراثٌ من معدنٍ ونارٍ. فلما أخرَجتْها صارتْ تتقاطرُ بالماءِ كأنما نزعَتْها من البحرِ المحيطِ، فعجبَ القومُ من الأمرِ فقالتْ: قد أجدبتِ الأرضُ فأصابَني الضعفُ والقلقُ ساعةً، فجاءَنِي هاتفٌ من قلبِ هذهِ الأرضِ، فأولجتُ يدِي أريدُ أن أَلْقُفَهُ، فابتلَّتْ ببحرِ العلومِ، وتغرغرتْ بماءِ المعارفِ، وغرقتْ في لجّةِ الرحمةِ العاملةِ. فلمّا أخرجتُها إليَّ تقاطرتْ منها الإشاراتُ الدالّةُ والعلاماتُ الموجِبةُ للتصديقِ. فاحفُروا ها هُنا فإنّ تحتَ هذا الرملِ الماءُ الذي بلَّ يدي. قلتُ: ففعلُوا ووجدوهُ كما قالتْ.

وقالَ لِيْ: فتوحاتُ الاغترابِ أفخمُ على قلبِك من فتوحاتِ البلدانِ.

وقالَ لِيْ: فتوحاتُ الاغترابِ مدائنُها القلوبُ، وأسواقُها الوساوسُ، وثغورُها الأجوبةُ التي تُفضي بكَ إلى الأسئلةِ.

وقالَ لِيْ: الأجوبةُ علامةُ العلومِ التي سكنتْ إلى قلبِك، والأسئلةُ إشارةٌ إلى المعارفِ التي تكدحُ هذا القلبَ.

وقالَ لِيْ: كدحُ القلوبِ فعلُ المعارفِ التي هي أوسعُ من دَفَّتَيِّ الكتابِ.[5]

---

[5] كنتُ عندَ أُستاذتي فاطمةَ ريحانةِ القلوبِ بنتِ حالِ الودِّ الفاتحةِ، من عابداتِ غدامسَ ودرجَ وسيناونَ والحمادة، إمامةَ المحبّة، وصاحبةَ اللواءِ والريادةِ، أقرأُ بعضَ النصوصِ وأتمرّنُ علَى المسائلِ، فكنتُ أتلعثمُ في بعضِ المواضعِ وربما ارتبكتُ وتلخبطتُ. قالتْ: كأنّكَ مجذوبٌ! (عَنَتْ جَذبني همٌّ أو شاغلٌ عن اتقانِ الدرسِ). قلتُ: كأني ولعلّي، فقدْ تشوّشتُ من بعضِ الأفكارِ والتهيّؤاتِ التي سنحتْ لي في ما مضَى من أيّامٍ فلا أقدرُ على نومٍ هانئٍ أو طعامٍ طيّبٍ. قالتْ: فأنتَ في مقامِ القلقِ؟ قلتُ: يظهرُ لي يا أستاذةُ. قالتْ: السّبُلُ فيهِ كثيرةٌ ولكني أسألُكَ هل لكَ صاحبةٌ؟ قلتُ: نعمْ، بنتٌ مليحةٌ دارسةٌ للعلومِ. قالتْ: فاذهبْ إليها من تَوّكَ واخضعْ لسانحِ العشقِ وانزلْ علَى أمرِه ومُرادِه. ثم اتركْ الدرسَ وقتاً بَيّناً واعملْ شيئاً من ملاهي الشبابِ والرياضاتِ، ثمّ إن قرأتَ فتناولِ الشعرَ والأدبَ وبعضَ الفنونِ البصريّةِ ولا تدرُسْها أو تقابِلْها بالسؤالِ والتحليلِ. فإنّ هذه جميعاً، العشقُ والرياضاتُ والفنونُ، سيوفٌ نَضِرَةٌ لم يتعوّدها قلبُك فإذا أنتَ تخرِقُ شِغافَهُ بنصلِ النّضارةِ. قالتْ: وهذا لا يناهضُ القلقَ وليسَ قصدُك ذلك علَى كلِّ حالٍ، وإنما هو أنّكَ تذوقُ العالمَ بشفاهِ القلقِ الذي أنتَ في لُجّتِهِ ولا تقعدُ إزاءَه كأنّك تتربّصُ به كما تربّصَ بكَ. قلتُ: ففعلتُ فإذا القلقُ فكرةٌ تمشي بي في سبيلِ الحياةِ لا حبسٌ يمنعني أن أتقدّمَ في الطريقِ.

وقالَ لِيْ: كدحُ القلوبِ فعلُ قلقٍ وأنتَ تركنُ إلى الأسماءِ المطمئنّةِ.

وقالَ لِيْ: أنا فعلٌ فلا تُسَمِّني.

وقالَ لِيْ: أنا والإنسانُ أفعالٌ هاجسةٌ وأنتَ تُريقُ الحبرَ، وتَصُفُّ الأوراقَ، تريدُ أن تُسَمِّيني وتُسَمِّيهِ.

وقالَ لِيْ: في الاسمِ يكمنُ قلقٌ آخرٌ.

وقالَ لِيْ: القلقُ الذي يأتيكَ عفواً من السؤالِ والانخراطِ في العالمِ، قلقٌ؛ والقلقُ الذي يحيطُ بك من المقولاتِ والفلسفاتِ الفخمةِ، ترفٌ.

وقالَ لِيْ: المقولاتُ الفخمةُ مسافةٌ بينَك وبينَ القلقِ الذي هو حَرِيٌّ بكَ.

وقالَ لِيْ: المقولاتُ الفخمةُ تُشَوِّشُ عليكَ بالكلامِ وأنتَ تريدُ تشويشَ المعاني، وارتباكَ العملِ، ودواخَ المراجعاتِ.

وقالَ لِيْ: الفكرةُ التي لا تمضِي كالسيفِ في قلبِكَ لا تليقُ بكَ.

وقالَ لِيْ: الفكرةُ القلقةُ بنتُ الحِسْبةِ القلقةِ ونتجُ المغامرةِ التي تُدشِّنُك في العالمِ.

وقالَ لِيْ: الحسبةُ القلقةُ على الطريقِ تصلُ ثم لا تصلُ.

وقالَ لِيْ: الحسبةُ القلقة هي أن تأتي بعلومِكَ ومَعارِفِك، التي اجْترَحَها قلبُكَ، ثمَّ تطرَحُها في غِمَارِ العالمِ تكدحُ بها كدحَ العاملِيَن، فتخشُنُ ويصيبُها ما يصيبُ العاملينَ من بأسٍ ومسرَّةٍ.

وقالَ لِيْ: الحسبةُ القلقةُ حسبةٌ قائمةٌ لا يكتملُ حاصِلُها حتى يكتملَ الطريقُ أو يرجعَ الإنسانُ عن الطريقِ.

وقالَ لِيْ: القلقُ يذهبُ في فعلِك وكلامِك فتَضِجُّ به في الفعلِ والعبارةِ والحلمِ.

وقالَ لِيْ: ما تَضِجُّ به زاخرٌ بكَ.

وقالَ ليْ: الذي يزخرُ بكَ يصيرُ الخِصْمَّ الأكبرَ.

وقالَ ليْ: الذي يزخرُ بك يُحيلك هاجساً في ضميرِ الأشياءِ تكادُ أن تنبثقَ بمعناها أو تضيءَ بالقلقِ الذي مشَى في تُخومِها.

وقالَ ليْ: القَلَقُ الذي يُداخلُ عبارتَكَ عبارةٌ أخرَى، والقَلَقُ الذي يداخلُ قلبَكَ قلبٌ آخرُ.

وقالَ ليْ: القَلَقُ حِرَاؤُكَ حتَّى تأتيكَ مني "اقرأْ".

وقالَ ليْ: اقرأْ هذه مناوشةٌ أخرَى.

وقالَ ليْ: القَلَقُ الذي يُدَاخِلُكَ غَمراً واحداً، يُصَيِّرُك غمراً.

وقالَ ليْ: القَلَقُ الذي يأتيكَ من جهتي هيِّنٌ وجليلٌ.

وقالَ ليْ: الذي يُداخلكَ في أمري أهونُ من الذي يُدَاخِلُكَ في أمرِ العالمِ.[6]

وقالَ ليْ: القَلَقُ أَثَرُ اتِّصالِكَ بتُخومي، فلا يخلو القَلِقُ منِّي أبداً.

وقالَ ليْ: القَلِقُ إذ لا يَخلو منِّي لا أخلُو منهُ، فمِنْ هذا صحَّ حديثُ الجُبَّةِ.

وقالَ ليْ: الجُبّةُ قلبٌ، وهم ينظرونَ إلى الصوفِ والكتّانِ من أي سوقٍ هوَ.

وقالَ ليْ: القَلِقُ خليفةٌ يتململُ على عرشِهِ يطلبُ سلامَ عرشَي.

وقالَ ليْ: سلامُ العرشِ فتورٌ في هيئةِ الطمأنينةِ، ومن هذا يَجُوزُه الذي يستوي

---

[6] فارقَ سبيلَ الملّةِ رجلٌ من رجالِنا بعدَ وجعٍ وأذىً عظيمينِ لو تكلّمنا فيهِما لما كَفَتْنَا الدَّواةُ والقرطاسُ. فبكَى أُستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليّ، أستاذُ العلومِ المعيشيّةِ في حلقاتِ الطريقةِ، ومعاهدِ بلدةِ العزيزية، وبكينا لحالِ الرجلِ وأهوالِه، ثم قالَ: قد نُزِعَ الكتابُ من قلبِه فهو لا يحفظُ منه غيرَ كلمةِ "والناسْ"، قلتُ: فإذنْ فارقَ الملّةَ ولم يُفارقِ السّبيلَ. ففهِمَها سيّدي كأنْ لأولِ مرّةٍ، واستبشرَ وبانَ عليهِ الفرحُ.

عليهِ.

وقالَ ليْ: الذي يستوي على العرشِ يتشوّقُ لما بعد العرشِ.

وقالَ ليْ: القَلِقُ روحٌ تضربُ في فضاءِ الإمكانِ تريدُ هتكَهُ حتى ينفضَّ عن بِكارتِهِ.

وقالَ ليْ: فضاءُ الإمكانِ أوسعُ من الغارِ وأحكمُ من اللوحِ وأزخرُ من المدادِ.

وقالَ ليْ: فضاءُ الإمكانِ قد يُمكِنُك من النبوَّةِ.

وقالَ ليْ: النبوّةُ قلقٌ فخمٌ.

وقالَ ليْ: كلُّ نبيٍّ سؤالٌ وكلُّ كتابٍ دهشةٌ وكلُّ هجرةٍ اغترابٌ.

وقالَ ليْ: النبيُّ قَلِقٌ صدعَ بسؤالِه ودهشتِه واغترابِه.

وقالَ ليْ: القَلِقُ شرط صحّةٍ للنبيّ.

وقالَ ليْ: القَلِقُ صبحُ النبيّ.[7]

وقالَ ليْ: القَلِقُ "وقالَ ليْ" في حاشيةِ اللوحِ لا يكادُ متنُ اللوحِ يفكُّ خطَّها أو يُحِيلُ إلى معناها.

وقالَ ليْ: الحاشيةُ ماشيةٌ حيثُ المتنُ يتوانَى عن المسيرِ.

وقالَ ليْ: الحاشيةُ يطمئنُّ بها المتنُ ثم يرتبكُ، ويستضيءُ ثم ينطفئُ، ويتقدّمُ ثم

[7] كانَ في جماعتِنا بُنَيَّةٌ دونَ العشرينَ مرتبكةٌ في ملبِسها وسائرِ شؤونِها، تمشي كأنّها تريدُ جهةً ثمَّ تحيدُ عنها إلى أخرَى، وتتكلّمُ بالشيءِ ثم ترجعُ عنهُ قبلَ أن يكتملَ على لسانِها، تنظرُ إليكَ بعينِ مُحِبٍّ ثم إذا هيَ تتلفّتُ عنكَ إلى كتابٍ، وتناديكَ باسمِكَ فإذا هو اسمُ غيرِك من التلاميذِ. فكانَ الإمامُ الدريُّ يبتسمُ من حالِها ويقولُ: يا لَها من شهابٍ! هي ابنةُ القلقِ الأوّلِ، والحسبةِ التي لم تكتملْ، والخفقةِ البكرِ لا تدري أيَّ دمٍ تدفعُ في عروقِها الفتيّةِ. قلتُ أنا موسَى: فكانَ يُعجبني ارتباكُها وأجدُ فيهِ لذّةً وإغواءً.

ينكصُ على معناهُ.

وقالَ ليْ: أنا أقرأ عليكَ المتونَ المطمئنّةَ وأنتَ تصدعُ بالحاشيةِ المكسورةِ والتأويلِ غيرِ المتاخمِ والشروحِ التي أرهقتْها المسافةُ.[8]

وقالَ ليْ: اقرأ كتابَك هذا بلا شروحٍ ثم خبّرني هلِ انشرحَ صدرُك أم ضاقَ بالكلامِ المبجّلِ؟

وقالَ ليْ: القراءةُ كتابةٌ.

وقالَ ليْ: القراءةُ مناهضةٌ للعالَمِ والكتابةُ مناهضةٌ للعالَمِ، فمِنْ هذا القلقُ.

وقالَ ليْ: المناهضُ الذي يصيرُ إلى زمامِ السطوةِ تمسكُ السطوةُ بزمامِه، فيضجُّ بهذي المناقضةِ التي طلعتْ من جُوّانيّتِهِ.

وقالَ ليْ: المناهضُ الذي يرثُ عرشَ العالمِ الذي ناهضَهُ يرثُ غوايةَ هذا العالمِ.

وقالَ ليْ: قلقُكَ يُلزمُك أن تتهافتَ بقوائمِ العرشِ حتّى لا يكونَ هناكَ عرشٌ تصيرُ منه السّطوةُ عليكَ أو على الأُمَمِ.

---

[8] تُوفِّيَ شابٌّ في ناحيتِنا عرفَ الناسُ عنهُ عزوفاً عنِ الديانةِ وأمورِ الغيبِ والجهرَ بذلكَ. فلم يحضرْ عزاءَهُ غيرُ أهلِ بيتِهِ الأقربينَ. فأمرَنا إمامُنا أحمدُ الدريُّ فذهبْنا فحضرْنا النواحَ عليهِ وتصدَّقْنا على فقراءِ الناحيةِ. فلمّا رجعنا رأى الإمامُ في أعيننا معنى السؤالِ فقالَ: كانَ فلانٌ، رحمَهُ اللهُ، مُتَّقِدَ القلبِ بالسؤالِ كأنّهُ قُدَّ مِنْ قلقٍ لا يَهِنُ. وكانَ يأتينا في مدرستِنا فيُكلِّمُنا ونُكلّمُهُ، ويقولُ أينَ الحقُّ، وما حالُ المظالمِ، وكيفَ علومُكم قَصُرَتْ عن الطمأنينةِ، وما نفعُ عِبادتِكم؟ ثمَّ يسمعُ ولعلَّهُ شَجَنَ وترقرقَ بالدمعِ، ويخرجُ ثمّ يعودُ. فهُو واللهِ صادقُ السريرةِ، مُنشغلٌ بالحقائقِ، منعقدٌ قلبُه بالخلقِ. أفإنْ ماتَ نَهْجُرُهُ وهو بينَ يديّ ربّهِ يتلقّى الأجوبةَ الكاملةَ بالرحمانيّةِ العاملةِ؟

وقالَ لِيْ: القَلِقُ مغامرةٌ في العالِمِ تكادُ تنفذُ منهُ من جلالِها.

وقالَ لِيْ: القَلِقُ عبارةٌ مُشْكِلَةٌ، وفعلٌ يُأَوَّلُ، ونيّةٌ مرتبكةٌ، وفكرةٌ بين أن تكونَ أو لا تكونَ.

وقالَ لِيْ: الذي يقلقُ قلبُهُ يَخْفُقُ بالعالِمِ كأنَّهُ والعالمَ دمٌ واحدٌ، ولسانُهُ يَلغو بالخلقِ كأنَّه ابتدأ الخلقَ أولَ مرَّةٍ، ويدهُ تقبضُ علَى نارِ المعاني كأنَّهُ جمرُها المتَّقد وحطبُها الذي بهِ تكونُ.

وقالَ لِيْ: الهاجسُ الذي يعتملُ في صدرِك علامةٌ مني للعالِمِ أن يغامرَ إليك، وللوقتِ أن يخوضَ بكَ، وللمعاني أن تكدحَكَ كدحاً.

وقالَ لِيْ: الهاجسُ يَقْتَرِفُكَ قبلَ أن تقترِفَهُ.[9]

---

[9] كانَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيُّ، رفيقُ الكادحينَ، وملجأُ المظلومينَ، إمامُ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمُ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، أشدَّنا قلقاً وأعمقَنا سؤالاً، وكانَ الناسُ يأتونَهُ يطلبونَ اليقينَ، وهو في مُقامِ الإمامةِ يضطربُ كالموجِ ويخفقُ كالشراعِ الذي تناوشتهُ الرياحُ. ورأيتُه مرّةً يسجدُ في السَّحَرِ ثم لا يقومُ عن سجدتِه إلى طلوعِ الشمسِ. ففزعتُ إليه وقلبي في حالِ الخوفِ وقلتُ: آ سيّدي وإمامي! فنهضَ بِهَوْنٍ وجلسَ في هيئةِ التشهّدِ، ورأيتُ الدمعَ يجري علَى خدّيهِ كنهرٍ غامرٍ. فوالله لقد بكيتُ من ساعتي ولا علمَ عندي لأيِّ شيءٍ رقَّ الإمامُ. فسلّمَ عن يمينِه ثمّ عن شمالِه وقالَ: سجدتُ يا موسَى وأنا في عينِ اليقينِ، فلمّا لامسَ خشمِي حصيرةَ الصلاةِ سُلِبتُ أسماءَه وصرتُ غُفلاً عن معنَى الرحمانيّةِ، فخِفْتُ أن أنهضَ من سجدتي فلا أعرفُ كيفَ أفعلُ من غيرِ اسمِ الرحمنِ. فلما سلّمتَ أنتَ عليَّ آنستَني بمعنَى الإنسانيّةِ، وهو قرينُ الرحمانيّةِ، فهَوَّنْتَ عليّ بلائي فاستويتُ قائماً.

قلتُ: فمِنْ هذا عَلّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها ليُؤْنِسَ بها الأوادِمَ.

وقالَ ليْ: الهاجسُ يهذرُ بك ويُتمتِمُ بعبارتِك ويتلعثمُ بمعناكَ.

وقالَ ليْ: الهاجسُ عطرُ العالِمِ الذي يَشغلُك عنِ الالتفاتِ إليّ.

وقالَ ليْ: الهاجسُ سوسنةٌ سنحَ لها اسمُكَ فاستباحتْ سبيلَك لسبيلِها.

وقالَ ليْ: من يقولُ لا للسَّوْسَنةِ؟[10]

وقالَ ليْ: هذهِ السّوسنةُ اقترافٌ لمعناكَ.

وقالَ ليْ: هذهِ السّوسنةُ تسلبُك من العالِمِ ثمّ تغمرُكَ به في عبيرٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: السّوسنةُ في آخرِ الأمرِ فكرةٌ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ تضربُ في أرضِ اليقينِ حتّى تحرثَها وتصيرَ بها مؤاتيةً

---

[10] حجّ الدرويشُ نافعُ بنُ سُكّرَ البهلولُ، بركةُ الأرضِ والسماءِ، ورحمةُ بوسليم والهضبةِ الخضراء، وبهلولُ اطرابلس والزهراء، القلبُ العاملُ، والمقامُ الكاملُ، فصمدَ إزاءَ البيتِ لا يتحركُ والناسُ من حولِه يطوفونَ. فكلّمهُ شيخٌ من أهلِ أغاديسَ يسألهُ عن حالِه. فقالَ نافعٌ: قد طفتُ حولَ البيتِ عامَ أوّلٍ، فأنا أرجُو أن يتأدّبَ معي فيَرُدَّ التحيّةَ هذا الموسمَ. فعرفَ الشيخُ بركةَ الرجلِ فقالَ: خلِّيكَ في وقفتِك أُكلّمُ البيتَ بحاجتِك. فذهبَ فوشوشَ الكِسوةَ كأنّهُ يسمعُ منها وتسمعُ منهُ. ثمّ جاءَ لدرويشِ بوسْليم فقالَ: قد بَيّنْتُ للبيتِ مقالَكَ فقالَ البيتُ: إني عرفتُ نافعاً وأردتُ أن آتيهِ فأطوفُ به أدباً معهُ لسابقِ فضلِه عامَ أوّلٍ، غيرَ أنَّ حولي ضُيوفي وأخشَى أن يُفتَنوا إنْ رأوني أحيدُ عن مُقامِ إبراهيمَ إلى مقامِ نافعٍ بن سُكّرَ، فإن تَكَرَّمَ سيّدي نافعٌ فرآني بعينِ قلبِه فإني أقومُ وأطوفُ ولا أَفْتِنُ الخلقَ. فأطبقَ السيّدُ نافعٌ عينيهِ واتّسَعَ قلبُه، فرأَى البيتَ يدورُ حولَه في مدارٍ عجيبٍ ورحمانيّةٍ شاملةٍ وربانيّةٍ كاملةٍ. ففرح الدرويش وصار يرقص ويقول: أنا المقامُ، أنا المقامُ. فشدَّه الشّيخُ من يدِه برفقٍ ظاهرٍ، وذهبَ به ركنِ الصلاةِ فأقعدَهُ وتَكلّمَ معَهُ وآنسَهُ.

للدهشةِ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ تسافرُ في قلبِكَ حتّى يصيرَ كأنَّهُ بعضُها وما هيَ إلا بعضٌ منهُ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ تختلطُ بيديكَ فلا تعرفُ كيفَ تُسَلِّمُ عليَّ، وبقدميكَ فلا تقدرُ أن تمشي معي، وبعينيكَ فلا تعرفُ تتلفّتُ إليَّ أمْ عنِّي.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلِقةُ لا طمأنينةَ لها إلا في القلبِ الذي جهةُ جذبِه شغافُ العالمِ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ تمعنُ في قلبِكَ حتّى تنزلَ في محلِّ الشغافِ والوشائجِ والأوردةِ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ يقظةٌ لا يقدرُ عليها الراقدونَ، وحلمٌ لا يطيقُهُ اليقظونَ.

وقالَ ليْ: الفكرةُ القلقةُ عتبةُ دخولٍ وخروجٍ في وقتٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: العتبةُ التي تَصِلُ بينَ التخومِ قد تصيرُ أفخمَ من الدُّورِ التي لا أعتابَ لها.

وقالَ ليْ: العتبةُ استشرافٌ للإنسانِ الكاملِ الذي إمّا دخلَ صحنَ الدارِ أو خرجَ إلى متنِ الطريقِ.

وقالَ ليْ: "إمّا" هذهِ تتصدّعُ لها الجبالُ.[11]

وقالَ ليْ: "إمّا" حديثٌ متلعثمٌ في فمِكَ يريدُ أن يقولَ الكتابَ كلَّهُ فلا يقدرُ إلا علَى بعضِه ثم يزيدُ من عندِه قالَ ليْ.

---

[11] قلتُ: صحنُ الدارِ، دارِه هو، أيِ الحقُّ. والطريقُ هنا ما يلي الدارَ لا ما يمشي إليها. قلتُ: ومن هذا تتصدّعُ الجبالُ.

وقالَ ليْ: في "إمّا" قلقُ المراجعةِ عليَّ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ عليّ أن أقولَ لكَ اقرأْ فتحلفَ أنّكَ لا تعرفُ فكَّ الخطِّ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ أن أكلّمكَ في الغارِ فتكلّمني في السّهولِ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ حالٌ شديدٌ من جهةِ أنها معاودةٌ للحسابِ، واقتفاءٌ للأثرِ، وقفولٌ عن المسيرِ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ الذهابُ بالقلقِ إلى عتبةِ الوعيِ بمعناهُ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ وعيٌ آخرُ.[12]

وقالَ ليْ: المراجعةُ مآلُ العارفينَ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ دخولُ الوقتِ الذي أنتَ بحضرتِه على الوقتِ الذي كنتَ بسبيلِه، فكأنّكَ لم تخرجْ عنهُ.

---

[12] قلتُ: من أسماءِ الإمامِ أحمدَ "المراجعُ"، ذلكَ أنه بلغَ في المعارفِ الروحيّةِ جهاتِها الآخرةَ، وذهبَ في العلومِ المدنيّةِ فقبضَ على أوارِها. حتّى جلسَ يراجعُ علَى نفسِه وعلى الأساتذةِ والتلاميذِ، فيُنَبِّهُ إلى تهافتِ المناهجِ، وتخلخلِ المبادئِ، وعوارِ الأصولِ. وهو في هذا المقامِ شديدٌ علَى الحسابِ رحيمٌ بالحاسبين. وجاءتْهُ بُنَيّةٌ مرّةً تقولُ له راجِع لي هذا القلبَ الذي لا يأبهُ في حبِّ فلانٍ ولا يتحشّمُ، حتّى ارتبكتُ منه وأحاطَ بي الهمُّ، وأقضَّ مضجعي قلقُ الجسدِ والوجدانِ معاً. قالَ الإمامُ: فأما قلقُ الجسدِ فهنيئاً لكِ به، هو أطيبُ من نومِ الغافلينَ. وأما قلقُ الوجدانِ فيشحذُ همّتَكِ في هذا العالمِ ويُصَيّرُكِ منتبهةً متيقظةً للمعاني. ولكن إن أردتِ راجعتُ معكِ مبدأ هذا العشقِ، وصيرورةَ هذا القلقِ، فنفهمُ وتفهمين الطريقَ الذي دخلتِ فيه، والهجرةَ التي خرجتِ إليها تطلبينَ هذا الصاحبَ من دونِ العالمينَ. قلتُ: فثَبَتَتْ البنتُ للمراجعةِ وثبتَ حبُّها وتبدَّدَ القلقُ الذي كان بها كما يتبدَّدُ النورُ.

وقالَ لِيْ: المراجعةُ زادُ ابنِ السبيلِ.

وقالَ لِيْ: المراجعةُ كشفُ حسابٍ يُحسَبُ له كلُّ حسابٍ.

وقالَ لِيْ: الذي يُراجِعُ يَرجعُ إليه الأمرُ.

وقالَ لِيْ: الذي يُراجعُ يحضرُ الوقتَ الذي فاتَ كأنّهُ لم يَفُتْهُ.

وقالَ لِيْ: الذي يراجعُ يُعقد له اللواءُ مرّتين.

وقالَ لِيْ: الذي يراجعُ مقامَه الأولَ يَصدقُ ظنُّه في المقامِ الآخِرِ.

وقالَ لِيْ: المراجعةُ فعلٌ لا يقدرُ أن يأتيهِ إلا من أتَى العالِمَ.

وقالَ لِيْ: إتيانُ العالِمِ فعلٌ يناهضُ القلقَ.

وقالَ لِيْ: إتيانُ العالِمِ يسندُ قلبَك كما يسندُ الخبزُ رمقَك ورمقَ أحوالِك.

وقالَ لِيْ: المراجعةُ وإتيانُ العالِمِ إنشراحُ الإنسانِ العاملِ في سياقِ الكدحِ.[13]

وقالَ لِيْ: المراجعةُ وإتيانُ العالِمِ ممارسةٌ للخلافةِ ومباشرةٌ لأعمالِ الحبِّ وتجديدٌ لبيعةِ الزرعِ والحديدِ.

---

[13]رأيتُ التلميذَ عبدَ الله التّوغولي، القلبَ المهاجرَ والبدنَ الصابرَ، من ديارِ لومي وأتاكبامي أرضِ البشَائر، وهو يُسَنْفِرُ النّحاسَ، ويَدُقُّ الفضّةَ، وبحذائِه كتبٌ عتيدةٌ، ودَوَاةٌ، وحبرٌ، وورقٌ يَخُطُّ فيه بعضَ الكلامِ الذي يتهيّأُ لهُ. فعجبتُ من حالِه، وكيفَ جمعَ بين النحاسِ والعلومِ في مقامٍ واحدٍ كأنّهما لا شيءَ. فقالَ لي، وهو يضربُ المعدنَ بدقّاتٍ مُوَقّعةٍ: أراجعُ على السّادةِ بعضَ مقولاتِهم، وأناظرُ بعضَ الكتَابِ، وأبارزُ شيئاً من الفكرِ الذي أقلقَني وأربكَ قلبي. فرأيتُ أنْ أكدَحَ في دكّاني فيَسْنُدُني العالِمُ بصَخَبِهِ، ويَمُدُّنِي الكدحُ بالمؤونةِ التي يحتاجُها قلبي. قلتُ أنا موسى: فظللتُ الصبحَ كلَّهُ أنظرُ إليهِ يقلقُ ويراجعُ ويدقُّ النحاسَ، كأنّهُ نبيٌّ من العاملينَ تَنَزَّلُ عليهِ العباراتُ، وتُكلّمهُ الرُّؤَى، ويجلسُ إليهِ الأُمّيُّونَ.

وقالَ ليْ: إتيانُ العالِمِ لذةٌ تُحيلُك إلى سِدرةَ المُبتدَى.

وقالَ ليْ: إتيانُ العالِمِ يحصلُ منه إتيانُ العالِمِ لكَ.[14]

وقال لي: إتيانُ العالِمِ مسرّةٌ غامرةٌ.

وقالَ ليْ: المراجعةُ خروجٌ عن جادَّةِ اليقينِ إلى سبيلِ السؤالِ.

وقالَ ليْ: اليقينُ استهزاءٌ بقلبِك.

وقالَ ليْ: قلبُك يتلفّتُ للأسئلةِ المكينةِ يطلبُ العلومَ الثاقبةَ واليقينُ يقولُ له انظرْ تحتَ موضعِ مداسِك.

وقالَ ليْ: اليقينُ حسابُ القلوبِ التي لا تحسِبُ.

وقالَ ليْ: اليقينُ يتّكِئُ علَى شهوةِ الوصولِ والقلقُ يسندُ رَوْعَهُ بعازاتِ الطريقِ.

وقالَ ليْ: اليقينُ في الطريقِ لا يتزوّدُ، والقلقُ يَلْقُمُ الإشاراتِ وينهلُ العلاماتِ ويبتلُّ بالأسئلةِ المعتبرةِ.

وقالَ ليْ: اليقينُ يكلمكَ بالعباراتِ المطفأةِ يقولُ لكَ هيَ وهجُ العالِمِ.

وقالَ ليْ: الذينَ يُوقِنونَ يُسَوُّونَ الطريقَ فلا تعودُ ترى علاماتِ الطريقِ.

---

[14] قال السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ، مثالُ التلاميذِ والمريدين في ورفلّةَ برِّ الرياحين: الذي يغرسُ شتلةً يصيرُ غارساً فهذا إتيانٌ في الاسمِ، والذي يُناوشُ العلومَ يصيرُ متعلماً وهذا إتيانٌ في الحالِ، والذي يهوَى حبيباً يصيرُ عاشقاً وهذا إتيانٌ في المعنَى. فكلّما اقترفتَ العالمَ اقترفَك هو فجدَّدَ خلْقَك، وكلّما أتيتَهُ بالأسئلةِ أتاكَ بالفتوحاتِ في هيئةِ الدهشةِ، وكلّما أمعنتَ فيهِ أمعنَ هو فيكَ جسداً وضميراً. قلتُ: فما حالُ الذين لا يأتونَ العالمَ؟ قالَ: يصيبُهم يبَاسُ الرّحمِ، رحمِ الحياةِ، فلا ينبثقُ في قلوبِهم معنًى ولا يتفجّرونَ هم من عيونِ الأرضِ التي لم يركضُوها بالقلقِ ولم يُخصِبوها بالولهِ والإلهامِ.

وقالَ لِيْ: الذين يوقنونَ لكَ يَئِدُونَكَ في رحمِ الدّهْشَةِ قبلَ أن تَلِجَ إلى أرضِ العلومِ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يُوقِنونَ يجلِسونَ تحتَ قوائمِ العرشِ وهم لم يمشُوا إلى العرشِ فإذا أتيتَهُم وجدتهم في هَجيرِ الشَّبَهِ.[15]

وقالَ لِيْ: الذينَ يُوقنون يَحلفون أنني في الغارِ وأنتَ تُقَلِّبُ الأرضَ تبحثُ عنّي في البِذرةِ النابتةِ.

وقالَ لِيْ: الذينَ يُوقنونَ يقولونَ هذا الكتابُ وأنتَ دَوَاتُكَ مازالتْ في أوّلِ الحِبْرِ.

وقالَ لِيْ: حبرُ الدَّواةِ غمرٌ لا يستطيعهُ الكتابُ.

وقالَ لِيْ: الدواةُ مدادُ القَلَقِ لأنّها ماءُ الأسئلةِ المخبوءةِ والعباراتِ التي لم تُقَلْ بعدُ والهذرُ الذِي قدْ يَهُدُّ حَيْلَ الكتابِ.

وقالَ لِيْ: حَيْلُ الكتابِ بعضٌ من حَيْلِك لا من حَيْلي.

---

[15] كانَ فقيهٌ يحفظُ شيئاً كثيراً لا نقدرُ علَى مثلِه، ثمّ أنه يستحضرُه في الكلامِ فتحدثُ له اتّقادةٌ وسطوةٌ عندَ الناسِ تعجبُه وتحبِسُهم. قالتْ أستاذتي هنيّةُ بنتُ بوبكر: لا يضيءُ، ولا سطوةَ له علينا. لأنه لم يعرفْ معنَى الشرارةِ الأولَى التي بها الوهجُ، وهجُ الأسئلةِ والوساوسِ والتهيّؤاتِ. فهو، في حفظِه للنصوصِ، كالذي جمعَ الحجارةَ الكثيرةَ الغُفْلَ في محلِّ الصّوانِ القليلِ الذي يقدحُ وينقدحُ، فيَفخُمُ منظرُه من عِظَمِ حجمِ الحجارةِ وهيَ وهو منطفؤونَ. فأما صاحبُ الصوّانِ، صوانِ القلوبِ لا النصوصِ، فيضِجُّ بالقلقِ، ويزخرُ بالشُّبهاتِ، ويعتملُ بالإشكالِ. فإن تكلّمَ أو أتَى بفعلٍ غيرِ محفوظٍ في صدورِ الرجالِ اتّقدتْ ضمائرُهم، واتّسعتْ أحداقُهم، وصاروا بعضاً من حلمٍ باهرٍ أو إلهامٍ رائعٍ تكونُ منهُ الفتوحاتُ للإنسانيّةِ كلّها. فاقبضْ، رعاكَ الله، علَى هذهِ النارِ التي أُسَمّيها لكَ ودعْ عنكَ رمادَ العلومِ الخائبةِ.

وقالَ لِيْ: الذي حَيْلُ الكتابِ يرجعُ إليهِ كيفَ يخشَى الكتبَ المعتبرةَ؟

وقالَ لِيْ: الكتابُ الذي لا تكتبُ فيه خَلّهِ في الغارِ وانزلْ عنهُ إلى السهولِ.[16]

وقالَ لِيْ: قراءتُك للكتابِ افتراضٌ.

وقالَ لِيْ: قراءتُك للكتابِ افتراءٌ.

وقالَ لِيْ: الذي تفترضُه وانتَ تقرأُ متّصلٌ بالذي تفترضُه وأنتَ تكتبُ.

وقالَ لِيْ: الذي تفترضُه من لدُنِكَ، فلِمَ تتكلّمُ عن لدُنِيّ؟

وقالَ لِيْ: الذي تفترضُه قد يفترضُك أولاً فتحصلُ عنهُ كما يحصلُ هو عنكَ.

وقالَ لِيْ: الذي يفترضُك أولاً يجعلُك في فاتحةِ الكتابِ.

وقالَ لِيْ: فاتحةُ الكتابِ ينبغي لها أن تمشي بكَ إلى خاتمةِ الكتابِ وإلا لا تحصلُ عنها الفتوحاتُ.

---

[16] قالَ تلميذٌ فيهِ رقّةٌ ظاهرةٌ: ما أفعلُ بصاحبِ الغارِ وهو يُراودني عن قلبي وأراودُه عن علومِه فيحصلُ شيءٌ ثم لا تحصلُ أشياءٌ؟ قالتْ خديجةُ الشنقيطيّةُ: ذلكَ أنّكَ تحبسُ قلبَك عندَهُ. وإنما هو كالمشكاةِ التي فيها مصباحٌ، تكشفُ لكَ وجهَك، وموضعَ مداسِك، وبعضاً من أوّلِ الطريقِ. فإن مشيتَ وأمعنتَ لَزِمَكَ نورٌ آخَرٌ متصلٌ بالمشكاةِ من بابِ الإضاءةِ، غيرَ أنّهُ منفكٌّ عنها من جهةِ الوهجِ. قالَ التلميذُ: وما جهاتُ الوهجِ؟ قالتْ خديجةُ: جهاتُ هذا العالمِ. قالَ التلميذُ: فإن تَوَحَّشْتُ في الطريقِ والمشكاةُ ليستْ معي؟ قالتْ خديجةُ: إما أن ترجعَ إلى سدرةِ المبتدَى التي يقتاتُ منها صاحبُك في ظلمةِ الغارِ فيذهبَ عنكَ الوَحَشُ غيرَ أنكَ لا تصيرُ ماشياً في الطريقِ، أو تقبسَ من المشكاةِ نوراً في قلبِك أولَ الأمرِ فحيثُ تمشي تَمَشي هي معكَ. قالَ التلميذُ: فإني كثيرُ التَوَحُّشِ يكادُ الشوقُ إليهِ أن يُبَدّدَني، فآخذُ من نورِه ما يَلزمُ ثم أُمعِنُ في الطريقِ.

قالتْ خديجةُ: أثرُ صاحبِ الغارِ في قلوبِ أحبَّتِه عجيبٌ، فيَصِحُّ لهم أن يَتَوَحَّشُوهُ.

وقالَ ليْ: فاتحةُ الكتابِ أولُ رابطةٍ بينَك وبين الكتابِ فإنْ أمكنَ لكَ أن تَخُطَّ من عبارتِها صارَ الكتابُ شِرْكَةً.

وقالَ ليْ: الكتابُ الذي هو مشاركةٌ محفوظٌ عن العسفِ الذي يَشينُ الكتابَ الذي هو استئثارٌ.

وقالَ ليْ: إقرأ الكتابَ حتّى تصيرَ القراءةُ كتابةً.

وقالَ ليْ: فعلُ القراءةِ كتابةٌ.[17]

وقالَ ليْ: فعلُ القراءةِ مناوأةٌ حاسرةٌ للكتابةِ.

وقالَ ليْ: هذا الذي يَقرؤُني أو يَقرؤُكَ يَبْهَتُ الكتابَ، ويُؤَوِّلُ المتنَ، ويغشُّ في الدواةِ، ويُنقِصُ منَ الحاشيةِ، ثم يقولُ فهمتُ.

---

[17] كانَ شيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ يقرأُ الفاتحةَ ثم يهذرُ ببعضِ الكلامِ الذي يَسنحُ له من جهةِ قلبِه. قالَ الإمامُ أحمدُ: ينبغي له، لأنّهُ واقفٌ في مقامِ القلقِ. قلتُ: عنَى الإمامُ أن الشيخَ إن لم يهذرْ بعدَ الفاتحةِ لعلَّ قلبَه يتصدّعُ من الوحشةِ التي به. فيَصِحُّ له الكلامُ المرسَلُ الذي يطمئِنُّ به قلبُه ويثبُتُ له وجدانُه. وأكثرُ السكينةِ التي تنشدُها، رعاكَ اللهُ، تكونُ في الحديثِ العفوِ الذي تُكلّمُ به الربانيّةَ، تشيرُ عليها بالوجعِ الذي بكَ، حتّى تأخذَ بالَها منكَ ومن قلبِك. وهذا منهجُ العارفينَ بالإنسانيّةِ المطمئنّينَ بالسّبحانيّةِ لا يتحشّمونَ منهُ ولا ينكصُونَ عنهُ.

وقالَ ليْ: أنتَ إتيانٌ للعالمِ، وافتراضٌ للنصوصِ، وافتراءٌ على اللوحِ الذي صدعتُ به لخاطرِكَ. أسميتَ نفسَك النبيَّ ثم تململتَ على العرشِ، وهو حريٌّ أن تَطمئنَّ عليهِ. وخضعتَ للسّوسنةِ التي وسوستْ باسمِك في متنِ الطريقِ، حتى صرتَ الهاجسَ الذي سكنَ ضميرَ الأشياءِ، والعبيرَ الذي هو غوايةُ العالمِ. فأينَ أنتَ من الكتابِ الذي يَخُطّون بأيديهم – علاماتُه محكمةٌ وعلاماتُكَ متشابهاتٌ، هو حفظتُهُ وأنتَ لم أحفظْكَ، هو أنزلتُهُ مشتَّتاً وأنتَ نزلتَ فكرةً واحدةً، هو تطمئنُّ القلوبُ إليهِ وأنتَ قلبُك قُدَّ من قلقٍ، هو كاملٌ وأنتَ تتجاوزُ نفسَك كلّ يومٍ، هو منّي وأنتَ لا أكادُ أعرفُك من أحوالِك، هو بين دَفَّتَي ورقٍ وأنتَ لا دفّةَ لك ولا ورقَ يَسُدُّ فضاءَك، هو أجوبةٌ وأنتَ حضرةُ الأسئلةِ، هو يُتلَى للعالمين وأنتَ سرٌّ لا يجوزُ البوحِ بهِ إلا إليّ، هو كلامٌ مرتّبٌ وأنتَ لغوٌ مبعثرٌ وهذيانٌ ساحرٌ وتخريفٌ خارقٌ لا يكادُ يَبينُ. فتعالَ، واقلقْ، واقتربْ.

17. موسمُ الغربةِ

(وهو الجنونُ)

ومن أحوالِه مضغةُ القلبِ والوحشةُ وشغافُ الجسدِ وسدرةُ الفتوحاتِ

والولايةُ والمناوأةُ وكثبُ المفارقةِ والصلةُ والسنبلةُ وضجّةُ العالمِ والمعرفةُ المسافرةُ

وفيه صرتُ إلى حافةِ الأشياءِ، وأشرفتُ على تخومِها، وناهزتُ حدودَها، وظهرَ لي أفقُ ما يليها من الأوهامِ العتيدةِ، وقد ضاقَ عني متنُ العالمِ، واتسعتْ كنايتي عن العلومِ. فلمَّا لاحَ لي أوَّلُ الوقتِ[1] تكلَّمتُ بالحقِّ قبلَ أن يَتِمَّ، وجهرتُ بأمرِ الخلافةِ وهي غضٌّ عودُها. فحشدَ عليَّ الناسُ وأنكَروني، ولم تعرفني عشيرةٌ أو تسلّم عليّ عصبةٌ ذوو حُبٍّ. وجعلُوا يقولونَ ما سمِعنا هذا من قبلُ، وما جاءَنا بهِ نبي، وما قرأناهُ في لوحٍ قويٍّ أو كتابٍ سَنِيٍّ. ففلقتُ البحرَ لأعيُنِهم، وأبحتُ الملكوتَ لأجلِ خاطرِهم، وأقدمتُ المعاني خاضعةً تقولُ بالبيعةِ والنُّصرةِ لهُم. فلمّا أَشْهَدْتُهُم عليهِ[2] وقفوا دونَ الأسرارِ، وقعدوا عن حاجةِ العلمِ والتشبيهِ، ولم يَقدروا على فَلْحٍ غير فلحِ الأجراءِ. فشَمِلَتْهُمُ المحبّةُ المبذولةُ، وضَمَّتْهُمُ الرحمةُ العاملةُ. حتى إذا رأوني في العشقِ جَحدوني، وأنكروا عليّ أحوالي، ورَغِبوا عني وعن مقاماتي جميعاً. فاستوحشتُ من وحدَتي وأنا بينَ شغافِهم، وغربتي وأنا فيهم قلباً واحداً. فأتيتُهم مُسَلِّماً وبُسْتُهُم في أعيُنِهم وعلى الأكتافِ. فرأيتُ فيهم

[1] قالَ الأستاذُ بَابِكرِ بنُ الفاتحِ النّوبي، وقد وعيتُ علوَم الأحوالِ على يديهِ: الوقتُ يدخلُ بالأذانِ الذي هو الجهرُ بالأسرارِ العُلويَّةِ على الملأ من الخلقِ. ويكونُ ذلكَ بالتكبيرِ مرّةً واحدةً وهو عتبةُ الأسرارِ، ثم بشرحِ حالِ الخلقِ مرَّتين وهو السرُّ الكريمُ، ثم بِجَيَّ على الغربةِ ما لِزَمَ من مرّاتٍ وهذا هو السّرُّ الأكرمُ. قالَ، وقد نُهبتِ البلدُ نهباً وضاعتْ في غوطِ الباطلِ: كلُّ أرضٍ مسلوبةٍ في وقتِ غربتِها غيرَ أنّ أذانَها لم يصدحْ به الرجالُ بعد.

[2] "عليه" أي على الحقّ وهو خلافةُ الناسِ، و"أَشْهَدْتُهُم" أي بيّنتُ لهُم بالعلاماتِ الكاملةِ والإشاراتِ التامّةِ أن أمرَ الخلافةِ واقعٌ وهذا وقتُه المرسومُ. وأخبرَ شيوخي أن الإشهادَ لزوميٌّ لا يكونُ خروجٌ أو تقومُ غربةٌ بدونِه، وعلَى هذا ثَبَتُّ وثَبَتَ معي المريدونَ.

وحشةً لا قِبَلَ لعاشقٍ بها، وخذلاناً تصدَّعُ لهُ أفئدةُ المحبينَ. فجالسْتُهم في الأسواقِ أطلبُ أُنْسَهُم، ولاعبتُهم في النوادي والدواوينِ، وعملتُ ممّا يعملونَ لهواً غافلاً، وشابهتُهم في شأنِهم فكأنَّهُ شأني. فأخذُوا عليَّ المواثيقَ الغليظةَ فلَزِمْتُها، وأكلتُ الطعامَ ومشيتُ في الطرقاتِ كأني ومُبْتَذَلَهُم مُقامٌ واحدٌ. وقعدتُ في حبسي زماناً، أطلبُ أُلفتَهم وصحبَتَهم، وأرجو وِدَّهم ووصلَهم، حتّى انعقدَ لسَاني عنِ الحقِّ، ورُبِطَ على قلبي بالهوانِ، وبَطَلَ جَهْدي وتعطَّلتْ رُوحي. فضاقَ بدني بالحالِ وأردتُ العلومَ التي منعوني عنها والمعارفَ التي توحّشوا منها. فما قدرتُ أن أنهضَ لها أو أمشِي في الطريقِ. وإذا الغلُّ ثابتٌ والقيدُ راسخٌ والحبسُ مَهيبٌ.[3] وإذا حُكْمُ الفتورِ الذي في العلومِ، غلبَ علَى دهشةِ الأشياءِ. فجلستُ أُعَاوِدُ قلبي وأجريتُ الحسابَ كلَّهُ كأنْ لم يكُنْ منهُ شيْ. وصرتُ في الطرقاتِ أتكلَّمُ بلسانِ التوبةِ، وألهجُ بلغوةِ المراجعةِ، وأهذُرُ بالمناشدةِ العتيدةِ. فمشَى ورائيَ الصبيانُ، وضحكتْ منّي النسوانُ، وحملَ عليَّ الرجالُ ثم عذرُوني، وتواصَوْا بي وقالوا هو مجذوبٌ إلى قلبِه. فذَهَلْتُ عنهم حيناً، وهِمْتُ في الأسواقِ، ونزلتُ المهجورَ من الديارِ، وأكلتُ من مشاعِ الأرضِ. حتى صارَ لي بأسٌ واشتدَّ قلبي

[3] حدّثتُ أنا موسى فقلتُ: شهدتُ وأنا فتىً أتقلّبُ بينَ الأحوالِ شيخي المهمومَ بالخلقِ، المسكونَ بالعالِمِ، الحارثَ بنَ الصادقِ، وقد أسنَّ وكلَّ بصرُه، يكلّمُ الناسَ والغلُّ في يديهِ ورجليهِ يصنعُه من الحديدِ والنحاسِ، والخلقُ يضحكونَ من حالِه. فرحمتُ شيبَتهُ وأخذتُ ألاطِفُهُ لأفهمَ عنهُ فقالَ: امشِ بي في الأسواقِ، الناسُ غِلُّهمُ في القلوبِ وأنا غِلّي في يَدَيّ. إنما أردتُ أن أمثّلَ لهُم قبلَ أن يُمثَّلَ بهم. قلتُ: عنَى قبلَ أن يغلِبَهم غلُّ القلبِ فيَختمَ عليهِم بالمذلّةِ.

فأطلقتُه في البَرِّيَّةِ غريباً يرعَى نبتَها، فعادَ إليَّ معقوداً بالمعارفِ التي لم يأذنْ بها الوقتُ. فنشطَ لساني إلى البيانِ، فأردتُ الخلقَ، فخرجتُ إليهمُ فإذا همْ في القوافلِ، وإذا هُم في كلِّ وادٍ يبيعونَ ويَمكُسون. فوقفتُ علَى رؤوسِهم وأذَّنتُ فيهم بالمحبةِ، فارتبكوا وتنادَوْا أنِ انْبُذُوهُ. فأذَّنتُ عليهم بالعقلِ فتشوّشوا وتَنادَوْا أنِ اهجُروه. فأذَّنتُ لهم بالخلافةِ فضجّوا وآذَوْني في قلبي وبدني معاً. فثَبَتُّ لهُم. فأشكلَ عليهِم حينَ رأوني قائماً في أرضِ الغربةِ أقرأ وأزيدُ في اللوحِ. وقالوا فتنةٌ فُتِنَّاها. فناوشوني بعلمِهم فتبدَّدَ، وبكتابِهم فأعجمتْ حروفُه، وبقلوبِهم فلقَمها قلبي. وقال الذين أعيُنُهم دمعٌ لولا أن يكلِّمَنا فنفهمَ عنهُ، تَقَطَّعُوا شوقي بينهُمْ شتَتًا. فَلماّ تركتُهم واقفينَ على عتباتِ الغربةِ انفضُّوا عنّي. علمِي غريبٌ وعلمُهم قائمٌ على الإيلافِ، يَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ فاترٌ بِالَّذِي هُوَ وهجٌ يكادُ يضيءُ لهم بينَ أيديهِم. فلمّا اشتدَّ عليَّ المُقامُ، وأمعنتُ في الحالِ، وخلصتُ إلى أرضِ الغربةِ التامّةِ، نُوديَ عليَّ بأبي المستوحَشُ في الأرضِ. فبينما أنا في الأسواقِ أبوحُ بالأسرارِ أتاني أمامَ الخلقِ ولم يروهُ.[4] فأصلحَ من شأني، وسوَّى ثيابي، وقوَّم نَعلي، وشَدَّ علَى يدي، وقالَ لي:

الغرباءُ أحبَّائي

وقالَ لِيْ: أنا الغريبُ الأوّلُ والغريبُ الآخِرُ، وما بينهُما سياقُ الدهشةِ الذي أدخلتُك إليهِ، وحيّزُ الغرابةِ الذي أقمتُ فيهِ العالمَ.

---

[4] كتبَ إليّ مُعلّمي أبو العيالِ مُغيثٌ بْنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى: "أتاني" أيْ حضرَ إليَّ في هيئَتِهِ القدسيّة وعلامةُ ذلك "ولمْ يروهُ". فكتبتُ إليهِ: فكيفَ يشدُّ على اليدينِ وهو في حالِ القدسيّةِ ؟ فقالَ: يا موسَى، لا يتقدَّسُ إلا ويَدُهُ بأيدي الغرباءِ.

وقالَ لِيْ: أنا الغريبُ لأنني أطلعتُ العالمَ من بينِ أسمائي ثم قعدتُ علَى كثبِ المفارقةِ.

وقالَ لِيْ: كثبُ المفارقةِ اتكاءةٌ علَى مرمَى دهشةٍ من العالمِ أريدُ أن يعرفني بغيرِ صلةٍ.[5]

وقالَ لِيْ: كثبُ المفارقةِ يربكُ العلومَ التي تريدُ أن تعرفَني ثم لا تجدُني في نواتجِ

---

[5] لما مضيتُ مع الإمامِ إلى برّ بينينَ الإفريقيِّ في عامٍ خلَى، دخلنا حِمَى قومِ "الفُونِ" وهم يتعبّدونَ الأرواحَ زُلْفَى في سبيلٍ يُسَمُّونَهُ الڤودوو. فبعدَ أيامٍ رأيناهم يُخرجون ما يُشبه الوثنَ عن موضعِه ويَنصبونَه في أرضٍ خلاءٍ علَى كثبٍ من الديارِ ثم يَرجعون إلى حِماهُم. فسألْنا رجلاً منهم ما بالُ القومِ أقاموا هذهِ الروحَ المتألّهَةَ في الشمسِ الشديدةِ وتركوها قائمةً، فقالَ: هذا أقنومٌ للروحِ التي تُسَيّرُ الكونَ، ونحنُ نرعاها بالتّمائمِ والطلاسمِ وبعضٍ من الغناءِ والرقصِ. وقد أصابَنا كما ترَى هذا القحطُ العجيبُ. فقالَ معلّمٌ من معلّمي الڤودوو: هذه الروحُ إما لا يبينُ لها ما بنا أو يبينُ ولا تهتمُّ لأمرِنا. فأَخرجوها إلى رامضةِ النهارِ حتّى تَنْظُرَ إلى حالِنا علَى كثبٍ وتفهمَه. فإن لم تَفزع لنا بالغوثِ لعلّها تفزعُ لنفسِها هي بالسحابِ والمطرِ حتى تَتّقِي أثرَ الشمسِ والحرِّ والجفافِ. قالَ صاحبُنا: وهذا لا شيءٌ، والمعتبرُ عندَنا في هذهِ النواحي أننا نسافرُ عبرَ هُياماتِ السحرِ وهلوساتِ الحضرةِ إلى مكامنِ الآلهةِ البعيدةِ، فنتّصلُ بها حتّى ينفكَّ عنها ما بها من غربةٍ، وينفكَّ عنا ما بنا نحنُ من وجعِ المفارقةِ. قالَ الإمامُ: صدقَ، فإن غربةَ الإنسانِ واللهِ تطلعُ من الكثبِ المفارقِ الذي يقفُ كلٌّ منهما عليهِ يُريدانِ التّواصلَ بالسحرِ والأوثانِ والأرواحِ والنبوّاتِ والألواحِ والتجسّدِ والتألُّهِ. فيصيرُ شيءٌ ولا تصيرُ أشياءٌ. ومن هذا نحنُ في سبيلِ التصوّفِ، وهم في سبيلِ الڤودوو، نرقصُ ونغنّي ونجذبُ ونتولّهُ ونهيمُ نريدُ أن ننهضَ عن كَثَبِنَا أو يَنزِلَ هو عن كَثَبِهِ. فتأمّلْ!

الحسابِ وضروراتِ المنطقِ وروابطِ الكلامِ.

وقالَ ليْ: كثبُ المفارقةِ يُشْكِلُ عليَّ لأنّني صلةُ كلِّ شيءٍ، ويُشكِلُ عليكَ لأنّكَ الصلةُ في كلِّ شيءٍ.

وقالَ ليْ: الصلةُ انعقادُك بالعالمِ في هيئةِ الوصالِ التي هي وجعٌ ولذّةٌ في وقتٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: هيئةُ الوصالِ تتصدّعُ إزاءَ الحالِ الذي أنتَ فيه من العالمِ، والعلومِ التي ركضتْ قلبَك، والأسئلةِ التي ناوءتكَ على الملأِ.

وقالَ ليْ: المناوأةُ تمشي بكَ إلى تخمِ الاغترابِ لأنها تحيلُ ألفةَ العالمِ إلى دهشةٍ مباغتةٍ.

وقالَ ليْ: المناوأةُ تُناوشُ طمأنينةَ العالمِ في قلبِك ثم تنزعُ عنهُ رواءَ السّكينةِ الأولَى.

وقالَ ليْ: السكينةُ الأولَى الحالُ الذي كانتْ عليهِ الأشياءُ في أوّلِ الوقتِ قبلَ أن يتكلّمَ الإنسانُ.

وقالَ ليْ: السكينةُ الأولَى غوايةُ العالمِ وهو مستلقٍ على حصيرةِ الغفلةِ الصباحيّةِ.

وقالَ ليْ: السكينةُ الأولَى راودتْك هي عن نفسِها لأنّ في حضورِك لذّةُ الفضِّ الأوّلِ.

وقالَ ليْ: الفضُّ الأوّلُ غربتُك الباكرةُ حين انتهكتَ طمأنينةَ العالمِ وانبثقتَ إلى تخومِ الغرابةِ.

وقالَ ليْ: الإنسانُ إزاءةٌ للطمأنينةِ ومقابلةٌ للسكينةِ وضِدٌّ علَى أُلفةِ العالمِ.

وقالَ ليْ: ألفةُ العالمِ زهرةٌ بشُبّاكِ دارِك أو عشبٌ علَى عتبةِ الخروجِ أو تغريدةٌ متحشّمةٌ في وقتِ الصبحِ.

وقالَ لِيْ: أنتَ ضدٌّ علَى الأزهارِ.[6]

وقالَ لِيْ: الذي بإزاءِ الزهرةِ غريبٌ، لأنه بإزاءِ زهرةٍ.

وقالَ لِيْ: أنتَ الغريبُ الذي تَشْغُفُ به الأزهارُ وهو يمشي في تخومِ اليَباسِ يطلبُ سِدرةَ الفتوحاتِ.

وقالَ لِيْ: الغربةُ سِدرةُ الفتوحاتِ التي تتقوّتُ عليها فيما يَلي الأزهارَ.

وقالَ لِيْ: سدرةُ الفتوحاتِ تسندُ قلبَك بِنَسْغِ العلومِ الغريبةِ.

وقالَ لِيْ: سدرةُ الفتوحاتِ المؤونةُ التي تنبغي لكَ كي لا تتبدّدَ علَى الطريقِ.

وقالَ لِيْ: الذين يتبدّدونَ في الطرقاتِ اتّسعوا عنْ جادّةِ النصوصِ.

---

[6] قلتُ: الغدامسيُّ يحتفِي بأُلفةِ النوّارِ يُقيمُها إزاءَ الغرابةِ التي في العالمِ والمفارقةِ التي تكونُ بين القلبِ والأشياءِ. وهذا قريبٌ من أحوالِ شيخي الحارثِ المتوقّدِ. فإنه لما ذهبَ إلى منتهَى السفرِ في عشرِ سنينَ، جابَ فيها البلادَ البعيدةَ والأقاليمَ الغريبةَ، عادَ إلى دارِه الطرابلسيّةِ بالزنقةِ التي إزاءَ مسجدِ الطريقةِ. فبلغَ إلى عتباتِها أوّلَ الصبحِ الباكرِ والناسُ لم يخرجوا إلى العملِ والدرسِ والمعائشِ. فإذا ياسمينةٌ، وقيلَ سوسنةٌ وقيلَ أقحوانةٌ، قائمةٌ على عتبةِ دارِه، فباغتَتْهُ بعبيرِها علَى سبيلِ التحيّةِ. فأُخِذَ المتوقّدُ بحضورِها، وقعدَ جوارَها يتأمّلُها ويفهمُ عنها. فبعدَ ساعةٍ خرجتْ أمُّ عيالِه من الدارِ تريدُ الرزقَ فوجدتْهُ على هذا الحالِ غافياً في ظلِّ زهرةٍ. فقعدتْ عندَ رأسِه تمسحُ عليهِ وهي تشتاقُه من حينِ خرجَ عنها قبلَ سنينَ عدداً. فلمّا أحسَّ بها قامَ فعانقَها عناقَ الوحشةِ وقالَ: يا رفيقةُ، أنا من زمنٍ أمشي في أركانِ الأرضِ أريدُ الجمالَ أو المعارفَ أو الأرزاقَ، وهذه الياسمينةُ قائمةٌ علَى عتبةِ داري، عبيرُها ومَيسمُها وبتلاتُها، تَلُمُّ العالمَ في حضرةٍ واحدةٍ. وهي تزيدُ عليهِ بالألفةِ التي لها هي حصراً، من جهةِ أنها ببابِ داري التي فيها عيالي وفراشي وحصيرةُ درسي. فإني أجلسُ في جوارِها وجوارِك حتّى يطيبَ القلبُ ويهنأَ بهذه الألفةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: الذين يتبدّدونَ صاروا غربةَ المعاني، ووحشةَ الأسماءِ الحسنةِ، وهجرةَ المقاماتِ التي حسِبتَ أنها محلُّ إقامتِك.

وقالَ ليْ: الذين يتبدّدونَ يُشرعون قلوبَهم لوجعِ العالمِ لأنهم يصيرونَ بلا هيئةٍ خارجةٍ.

وقالَ ليْ: الهيئةُ الخارجةُ تتصدّعُ لأن الغرباءَ يتّقدونَ بالمعرفةِ التي أحالتْهم إلى ضوءٍ مباغتٍ.

وقالَ ليْ: الهيئةُ الخارجةُ جسدُك الذي أَعْيَيْتَهُ بالعلومِ وأرهقتَه بالفتوحاتِ ثم قلتَ له اطمئنّْ.

وقالَ ليْ: الجسدُ الذي يتّسعُ لقلبِك يتبدّدُ من أثرِ هذا القلبِ.

وقالَ ليْ: قلبُ الغريبِ تصيرُ له حاكميّةُ العلومِ ثم الولايةُ على الجسدِ العاملِ.

وقالَ ليْ: الولايةُ رابطةٌ مرتبكةٌ لأنّ المولَى يستبدُّ ويخضعُ في آنٍ واحدٍ.

وقالَ ليْ: الولايةُ تعسفُ بالجسدِ.

وقالَ ليْ: الولايةُ لا ترعَى حُرمةَ الإمكانِ، فتَخرجُ بجسدِك إلى أرضِ المنازلةِ القلبيّةِ.

وقالَ ليْ: الولايةُ تجعلُ شغافَ القلبِ شغافاً للجسدِ الذي لا يعرفُ هل يأكلُ ويمشي في الأسواقِ أم يخفقُ بالمعاني ويتوهّجُ بالعلومِ.

وقالَ ليْ: شغافُ الجسدِ تحيلُك قلباً واحداً وأنتَ في عازةِ يديكَ وقدميكَ تريدُ أن تمشي إلى الديارِ، وتَلْقُمَ الأطايبَ، وتستوي علَى الأرائكِ.

وقالَ ليْ: الغربةُ تنبثقُ بك من الشغافِ إلى العرشِ فمن هذا لا يجدُ العالمُ ألفتَك.

وقالَ ليْ: جسدُك في الغربةِ ينادي علَى قلبِكَ حتّى ينتهي إليهِ يبكي المعارفَ

وينشدُ العلومَ ويتنفّسُ الكراماتِ.[7]

وقالَ ليْ: الغريبُ معرفةٌ مسافرةٌ.

وقالَ ليْ: الغريبُ تجتثُّ المعارفُ اسمَهُ عن الوطنِ وجسدُه أوّلَ الطريقِ قاعدٌ لا يتزحزحُ، فَمِنْ هذا تكونُ غربتُهُ.

وقالَ ليْ: الاجتثاثُ فعلُ المعارفِ الغريبةِ في القلوبِ المطمئنّةِ أولاً.

وقالَ ليْ: إذا سافرَ قلبُكَ بعلومِهِ تركَ وراءَهُ جسداً يتوجّعُ ويرعَى شؤونَك، يراهُ الناس يحسبونَكَ هو، وأنتَ لا هو، ولا هوَ أنتَ.

---

[7] قالَ مُعلِّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى، معلمُ المقاماتِ وأسرارِها، في باديةِ سرتَ وما حولَها: دخلتُ الطريقةَ وأنا رجلٌ بينَ الشبابِ والكُهولةِ، فلمّا قابلتني الأسرارُ ذهبَ فيها قلبي حتّى وصلَ السِّدْرَةَ أو ما شابَهها، فتلَفّتُّ فإذا بدَني ليسَ معي، وإذا هو يطلبُ أطايبَ الطعامِ، والوطءَ الكثيرَ، والدِّعَةَ، ومسالمةَ السلطانِ. فجئتُ الإمامَ فقلتُ: يا أحمدُ، إنّ قلبي يغرقُ في بحرِ العلومِ بينما بدَني ينجو ويَتْخَمُ ويطلبُ السِّلَعَ. فقالَ الإمامُ: أنتَ رحلتَ بقلبِك علَى ظهورِ الإبلِ الحجازيّةِ، في الفيَافي النجديّةِ، تريدُ الديارَ السِّدْرِيّةَ، ثم انتبهتَ فإذا بَدَنُكَ لم يزلْ ينيكُ العبيدَ في مضاربِ قريشَ. فإنْ أردتَ أن يلحقَ هذا البدنُ بالقلبِ الربّانِيّ الذي لكَ فعليكَ بالإبلِ الصمديّةِ. قلتُ: وما الإبلُ الصمديّةُ؟ قالَ: المجاهدةُ، والكدحُ، والمكابدة. قالَ مُعلّمي: فذهبتُ فضربتُ أعناقَ الميريكانِ في الفلّوجةِ، ثم كدحتُ فدادينَ الزيتونِ في حضرَموتَ، فرجعتُ بعد هذا كلِّهِ أكابدُ في الزاويةِ الطرابلسيّةِ، بالصومِ والخَلوةِ والصّلاةِ. فهذه إبلي تامَّةٌ. فقامَ بدني إلى بحرِ الربانيّةِ، فمشَى علَى صفحةِ الماءِ، ثم نزلَ إلَى موضعِ القلبِ من اللُّجَّةِ، وجاورَهُ في مقامِ العلومِ والأسرارِ. فكنتُ أولاً مُتَوَهِّجَ القلبِ منطفأَ البدنِ، فصرتُ متوهِّجَ القلبِ والبدنِ معاً.

وقالَ ليْ: قلبُ الغريبِ وجسدُه مفارقةٌ.[8]

وقالَ ليْ: قلبُ الغريبِ يهاجرُ بالعلومِ والمعارفِ وجسدُه بين الخلقِ يمزحُ ويلغُو ويتململُ بالنبوّةِ.

وقالَ ليْ: قلبُ الغريبِ غالبٌ.

وقالَ ليْ: غالبيّةُ القلبِ هي جهةُ الغربةِ التي تصيرُ إليها كلُّ جهاتِك.

وقالَ ليْ: غالبيّةُ القلبِ إيلافٌ للهجرةِ التي تجتثُّك وفتحٌ لمدائنِ الاغترابِ.

وقالَ ليْ: مآلُ جسدِ الغريبِ إلى قلبِه.

وقالَ ليْ: الجسدُ الذي لا يهذي بفتوحات القلوبِ الغريبةِ بدنٌ خائبٌ.

وقالَ ليْ: الجسدُ الذي لا يَسمعُ حِداءَ القلوبِ لا يصلُ إليَّ.

وقالَ ليْ: حداءُ القلوبِ أغنيةٌ تحصلُ عنها رحلتُك.

وقالَ ليْ: الجسدُ الذي يحيدُ عن رحلةِ القلبِ يحيدُ عن معناهُ.

---

[8] قالتْ أستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ، من عابداتِ غدامسَ ودرجَ وسيناونَ والحمادة، إمامةُ المحبّة، وصاحبةُ اللواءِ والريادةِ: بدنُ الإنسانِ معتبرٌ عندنا من جهةِ أنّهُ سدرةُ القلبِ، وآلةُ العقلِ، وحاملُ البأسِ والأذَى الذي يَلزمُ في الطريقِ. فإنه إذا مشَى القلبُ، وأوغلَ العقلُ، في مقاماتِ الأسرار، شَهِدا وجعاً وحزناً وسطوةً للعلومِ والمجاهداتِ، فيتلقّاها جميعاً هذا البدنُ، ويختلطُ بها، ويجمعُ آثارَها، وتتّصلُ هي بهيئتِه ونَسْغِه وعروقِه. فمن هذا يذبلُ بدنُ العاشقِ، ويشتدُّ جسدُ المناهضِ للظلمِ، ويتبدّدُ بدنُ الفقيرِ المسلوبِ. فمن أرادَ أن يَصِل إلى القلوبِ والعقولِ ربما وجدَها معجونةً في الأبدانِ، أبدانِ الخلقِ. وقد يتبدّلُ حالُ هذا البدنِ إذا ما صارَ له العدلُ والأمنُ والحريةُ فيتبدلُ معه حالُ الجوانيّةِ القلبيةِ فتُبَدِّلُهُ هذه الجوانيةُ عوداً على بدءٍ. قالتْ: ولذا فإن تحقيقَ الأبدانِ عندنا كتحقيقِ القلوبِ، كلاهُما يَلْزَمُ الإنسانيةَ وينبغي لها.

وقالَ لِيْ: معنَى الجسدِ في مُضغةِ القلبِ.[9]

وقال لِي: مضغةُ القلبِ مشكاةٌ من نورٍ تضيءُ من جوانيّتِها علَى برانيةِ العالَمِ.

---

[9] كانَ في الورشةِ التي تقابلُ الزاويةَ شابٌّ ذو إعاقةٍ غالبةٍ على معظمِ بدنِه. فهو يتحرّكُ بمقدارٍ ويتلفّتُ بمقدارٍ ويتكلّمُ بصوتٍ مجهَدٍ. غيرَ أنّهُ تعلّمَ في وقتٍ أن يضبطَ بعضَ آلاتِ الورشةِ ضبطاً رقمياً، ويُشرفَ علَى وجهٍ من وجوهِ الشُّغلِ بالحاسوبِ. قلتُ: وكانَ يأكلُ الطعامَ المدقوقَ وأنواعَ الحساءِ لتصلُّبِ رقبتِه وضعفِ فكِّهِ عن الحركةِ الكثيرةِ. فكانَ في مشهدِه من جهةِ اجتماعِ الإعاقةِ والعملِ عندَهُ دهشةٌ وهيبةٌ. فبعدَ وقتٍ طلَبني علَى التخصيصِ وقالَ: يا موسَى، أنتَ تعرفُ النحوَ والإملاءَ فأَصلِحْ لي هذا.

فإذا هو قد كتبَ بالحاسوبِ كلاماً كثيراً فيه ضعفٌ في ظاهرِ اللغةِ وارتباكٌ في تركيبِ الفقراتِ. فلمّا رأيتُ النصوصَ كثيرةً استأذنتُه أن أحفظَها عندي وأُصلِحها، ثم أرجعُ بها إليهِ. فلمّا جلستُ إليها أياماً وجدتُ فيها فكراً ومعانيَ واستلهاماتٍ ليستْ مما نألف في كتاباتِ الشبابِ وخواطرِ الهواةِ.

فقالَ الإمامُ: عرفتُه وتكلّمتُ معهُ في أحيانٍ متباعدةٍ. هو اتّخذَ من غُربةِ جسدِه سبيلاً إلى غربةِ قلبِه، وهذا عجيبٌ! لأنّ الغربةَ التي نعرفُها ويتكلّمُ عنها الأساتذةُ إنما تنبثقُ في القلبِ أولاً ثم تستولي علَى الجسدِ الذي يُلَبِّي نداءَ القلبِ ويفزعُ له بالوجعِ والمجاهداتِ. أما هذا الفتَى فإن غربةَ جسدِه بالإعاقةِ ابتداءً فتحتْ لهُ إمكانَ الغربةِ القلبيّةِ بعدَ ذلك. قالَ: لأنه تَهيّأ لهُ العالمُ من تخومِ الإعاقةِ، وناوشَ الحياةَ بآلاتِ النقصِ، ومضَى بين الناسِ بهيئةِ العرجِ أو الالتواءِ أو التَصَلُّبِ. فصارَ جسدُه محلاًّ للمبارزةِ الخاصّةِ، والتجربةِ الاستثنائيّةِ، والمغالبةِ اليوميّةِ للعجزِ. وهذا جالبٌ للعلومِ الجديدةِ المؤدّيةِ للغربةِ الثاقبةِ خيراً من كثيرٍ من المجاهداتِ المفتعلةِ افتعالاً عندَ من استوَى جسدُه واستقامتْ آلاتُه الخارجةُ. قلتُ: فظللتُ مع الفتى ذي الإعاقةِ أقرأُ وأدرسُ وآخذُ عنهُ بعضَ الغرابةِ والمعاني مما لم أجدْهُ عندَ غيرِه من الناسِ.

وقالَ ليْ: اتصالُ مشكاةِ القلبِ بزيتِ العقلِ يوقدُ برانيّةَ العالمِ، وجُوّانِيّتِكَ.

وقالَ ليْ: العقل الذي يُسْلِمُ زمامَهُ للقلبِ الغريبِ يُسلمُ زمامَهُ لمعارفَ وعلومٍ لَدُنيّةٍ لا قِبَلَ للعقولِ الغافلةِ بها.

وقالَ ليْ: العقلُ الذي يُسْلِمُ وجهَهُ لقلبِكَ مُسْلِمٌ.

وقالَ ليْ: العقلُ الذي يَفزعُ للقلبِ كرامةٌ لكَ منّي في أوّلِ الأمرِ كلِّهِ.[10]

وقال لي: كراماتي لغةٌ في المحبةِ.

وقالَ ليْ: كراماتي حيلةٌ كي أَسْنُدَ قلبَك بماءِ النبوءَاتِ وزادِ الرؤَى المتوهّجةِ.

وقالَ ليْ: كراماتي ذودٌ عن حياضِك أن يَسْلُبَها المطمئنُّونَ.

وقالَ ليْ: العقلُ الذي يذودُ عن القلبِ يذودُ عن المضغةِ الربانيةِ التي جعلنَاها لكَ.

وقالَ ليْ: العقلُ الذي يسقطُ على عتباتِ القلوبِ الغريبةِ شهيدٌ.

وقالَ ليْ: عتباتُ القلوبِ الغريبةِ أرضُ المنازلةِ التي أوجبْتَها علَى نفسِك.

وقالَ ليْ: عتباتُ القلوبِ الغريبةِ فواتحُ للكتبِ المحفوظةِ عندَ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: عتباتُ القلوبِ الغريبةِ إغواءٌ للعقلِ المتّقدِ بالعالمِ.

[10] قالتْ أستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ: هذا من أثرِ الميثاقِ الأولِ، وبركةِ العهدِ الربّاني، والبيعةِ الآدميةِ البكرِ. قلتُ أنا موسَى: الميثاقُ الأوّلُ انْعَقَدَ حينَ صارَ بنو آدمَ كلُّهم من أهلِ "بَلَى" التي نطقُوا بها لما سألَهم ربُّهم "وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدمَ من ظهورِهم ذُرِّيَّاتِهم وأشهدَهم علَى أنفسِهم ألستُ بربِّكم؟ قالوا بلَى". فكلُّ رحمةٍ في قلبِ ابنِ آدمَ، وكلُّ كرامةٍ ونيّةٍ طيّبةٍ أو فعلِ خيرٍ يأتي بهِ أو يخطرُ عليهِ هو من ميراثِ ذلكَ الجوابِ الشاملِ الذي اشتركَ فيهِ، بنصِّ الكتابِ، كلُّ الإنسانيّينَ.

وقالَ ليْ: العقلُ الذي يتلقَّى علومَ القلوبِ، قلبٌ آخَرٌ.[11]
وقالَ ليْ: العقلُ الذي يقفو أثرَ القلوبِ، قلبٌ آخِرٌ.
وقالَ ليْ: العقلُ الغريبُ يطلع العلوم الغريبة من سياق الوحشة التي أحاطت به.
وقالَ ليْ: الخلافةُ، في آخرِ الأمرِ، انفكاكٌ عن سياقِ الوحشةِ في هذا العالمِ فهيَ باللزومِ انفكاكٌ عن علومِ هذا السّياقِ.
وقالَ ليْ: سياقُ الوحشةِ هيئةُ الظلمِ والحزنِ التي ظاهرتْ عليكَ.
وقالَ ليْ: سياقُ الوحشةِ حاصلٌ عفواً عن مَشْيِكَ في الطريقِ أو هو عسفٌ للطريقِ من جهةِ الظلمِ أو الحزنِ اللذين يَطرآنِ عليهِ.
وقالَ ليْ: القلوبُ الغريبةُ تطلبُ شمسَ الخلافةِ قبلَ صُبحها الزاهرِ، وتلغُو بالعلومِ قبلَ أوانها المرسومِ، وتخفقُ بالمحبّة التي لم يظهرْ نجمُ سعدِها في الكونِ.
وقالَ ليْ: القلوبُ الغريبةُ فضاءٌ مادَّتُهُ أنا، فحينَ يصيرُ قلبُك غريباً تجدني فيهِ.
وقالَ ليْ: القلوبُ الغريبةُ تُسْفِرُ عنّي قبلَ أن أكونَ في العالمِ، وأكشفُ عنها قبلَ أن تكونَ هيَ في الملكوتِ.

---

[11] كنتُ كلّما أتيتُ إمامي أحمدَ، ولم يكنْ بين العامّةِ أو التلاميذِ، واطَيْتُ فأخذتُ يدَهُ وبُستُها ظاهراً وباطناً، فلا يَقبلُ منّي يخشَى علَيَّ مظنّةَ الاتّباعِ وفقدانَ البصيرةِ. فكنتُ أقولُ لهُ: يا إمامُ، إنما أبوسُ قلبَكَ الذي هو محلُّ غربتِك وفتوحاتِكَ، وعقلَك الذي يفضُّ العالمَ في حسبةٍ واحدةٍ. وإنما بدنُك الذي يَعْرُضُ لي وهمٌ أتعلَّقُ بهِ وقد صارَ تَرجُماناً لقلبِكَ فكأنّهُ قلبٌ آخرٌ، وتمثُّلاً لعقلِك فكأنّه عقلٌ يركضُ الأرض حتى يُخرِجَ ماءَها الذي غاضَ. فيضحكُ الإمامُ ويقولُ: تريدُ أن تخضعَ للحبِّ فتُركّبُ الكلامَ على الكلامِ يا موسَى.

وقالَ لِيْ: القلوبُ الغريبةُ قُدَّتْ من حقٍّ مُستعجلٍ.[12]

وقالَ لِيْ: القلبُ الغريبُ إمامُ القلوبِ التي تتوجّعُ بِي، فإن سَهَى ارتبكتِ القلوبُ ولم يعرفْ أهلُها أيسجدونَ أم يُسَلِّمُون.

وقالَ لِيْ: القلبُ الغريبُ اسمي جلسَ بين أضلاعِك يتقوّتُ من غوايةِ العلومِ وفتنةِ المعارفِ والأسرارِ.

وقالَ لِيْ: القلب الغريب يحيدُ عن طمأنينةِ الديارِ إلى ولهِ الغرابةِ وعنِ النصوصِ القريبةِ إلى الفتوحاتِ الآخرةِ.

وقالَ لِيْ: الفتوحاتُ الآخرةُ غُربةُ الذينَ أحبُّهم خاصةً، والنصوصُ القريبةُ غربةُ الذينَ أحبُّهم عامّةً.

وقالَ لِيْ: ما بينَ الفتوحاتِ الآخرةِ والنصوصِ القريبةِ ما بينَ دخولِك إلى الغارِ

---

[12] كان تلميذٌ يصلّي في المسجدِ، وفي المحرابِ الإمامُ يقرأُ ويَدْرُسُ. ففي وسطِ صلاتِه تكلّمَ التلميذُ كأنّهُ يخاطبُ الإمامَ فقالَ: أريدُ الصلاةَ. قالَ الإمامُ: أنتَ في متنِها يا فتَى. فدخلَ في السجودِ ونهضَ فقالَ: أريدُ الصلاةَ. فقالَ الإمامُ: أنتَ في متنِها والله. فركعَ التلميذُ وقالَ: أريدُ الصلاةَ، ثمّ هوَى علَى الأرضِ وهو محمومٌ يخرجُ منه الزّبَدُ ويهذِي بكلامٍ. ففزعَ إليهِ التلاميذُ من حلقةِ الدرسِ وأحاطوُا به حتّى هدأ واطمأنَّ ووعَى ما حولَه. قالَ تلميذٌ: عندَ الأربعةِ أنّكَ تعيدُ الصلاةَ. قالَ الإمامُ: خَلُّوهُ. هو يريدُ أن يخوضَ بحرَ الوصالِ، والشعيرةُ تحبسُه عندَ ساحلِه لا تكادُ تَبُلُّ قلبَه إلا بماءِ الوضوءِ. وهذي الحُمّى التي تشهدونَها علَى بدنِه يمشي بها على صفحةِ اللُّجَّةِ، وهذي الغرغرةُ هي من علاماتِ الغرقِ أي الوصولِ.

قلتُ: فأمّا قولُه "أريدُ الصلاةَ" فهو يخاطبُ بها الحبيبَ الأكبرَ يقولُ له إنّ ظاهرَ هذه الشعيرةِ لا يكفي عنهُ، والإمامُ ظنّهُ أولاً يُكلِّمُه بها، فتأمّلْ.

وجلوسِك في السوقِ توزّعُ السَّبْيَ والغنيمةَ.

وقالَ ليْ: أنتَ غريبُ الغارِ والسوقِ معاً غيرَ أنّكَ في الغارِ تصدعُ بالأمرِ وفي السوقِ تردُّ الغنائمَ إلى أهلِ الأمصارِ الذين سُلِبوا مدائنَهم.

وقالَ ليْ: غربةُ الغارِ تتوقّدُ بكَ في ظلمةِ السّياقِ، وغربةُ السوقِ تحولُ بينَك وبينَ سطوةِ التمكينِ.

وقالَ ليْ: أنتَ في الغارِ لا تعرفُ ان تقرأَ كلامي، وفي السوقِ تُبْطِلُ الحسابَ الذي في الدكاكينِ.[13]

وقالَ ليْ: غربةُ الغارِ وغربةُ السوقِ اسمٌ واحدٌ بهيئتينِ متجاورتينِ.

وقالَ ليْ: الغريبُ يتجاوزُ الحيّزَ الذي فيه السلعُ والعلومُ، ثم يتجاورُ مع الحيّزِ الذي فيه اسمُ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: بين المجاوزةِ والمجاورةِ تطيرُ رؤوسٌ وتتفتّتُ قلوبٌ وتسيلُ دماءٌ علَى النطوعِ.

---

[13] قالتْ سمرُ الزمانِ المهديُّةُ: يَلزمُ للعارفِ المهمومِ بالخلقِ، المشغولِ بشؤونِ الخلافةِ، أن يعقدَ بين غربةِ الغارِ وغربةِ السوقِ في قلبٍ واحدٍ. فإنّهُ حينَ لا يقرأُ في الغارِ أولاً يبينُ عن فداحةِ الأمرِ الإلهيّ، ويسفرُ عن الغرائبيّةِ التي في الكتابِ، ويضيءُ بالعجائبيّةِ القلبيّةِ المشغوفةِ بالغيبِ. ثم حين يُبطِلُ الحسابَ في السوقِ يُعطّلُ نسقَ المعائشِ، ويفكّكُ بِنْيَةَ الأرزاقِ، ويَفُضُّ روابطَ الاجتماعِ. قالتْ: فهذا جميعاً يصلُ بالعارفِ إلى منتهَى الغربةِ القلبيّةِ والسياقيّةِ، ولا يعودُ شيءٌ يقدرُ أن يسطو عليه بفعلِ الألفةِ أو من أثرِ الاعتيادِ والخضوعِ. لأنّ الوحشةَ، عندَ العارفينَ، مقامُ حريّةٍ. قالتْ: ولا يقدرُ على هذا الهولِ إلا الأئمّةُ والخلفاءُ، وبعضُ المجانينِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتجاوزُ لا يذهبُ عن، بل يذهبُ في.

وقالَ لِيْ: الذي يتجاوزُ يوغلُ في المعيشةِ حتى يصيرَ هو خبزَ المعيشةِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتجاورُ مع الاسمِ يحفظُ حقّ الجيرةِ أولاً ثم يقتحمُ هذا الاسمَ.

وقالَ لِيْ: لا تَصِحُّ غربتُكَ إلا وخلقِي غايتُكَ التي إليها تصيرُ، ومقصِدُكَ الذي إليهِ منتهاكَ. فإنْ جلستَ في مُقامِ الاغترابِ لا تتزحزحُ، أبطلَ جلوسُكَ غربتَكَ.[14]

وقالَ لِيْ: الذينَ أحبُّهم غرباءُ يجدونَ علاماتِ محبّتي في قلوبِهم ووجوهِهم، فيعرفونَ أنفسَهم وأسماءَهم من بينِ الخلقِ، ويأتونَ للزيارةِ والسؤالِ عن الحالِ.[15]

وقالَ لِيْ: لا تذهبْ في الأرضِ تقولُ "أنا الغريبُ عرفتُ الحقَّ فأنكرُوني" بل اثْبُتْ بينَ أهلِكَ حتى آذَنَ لكَ. فإذا جاءَتْكَ الإشارةُ اخرجْ إليهِم، فإن جَحدوكَ اخرُجْ عنهُم، فإن غصبوكَ عن الحقِّ فاخرجْ عليهِم. خروجُكَ إليهِم محبّةٌ، وخروجُكَ

---

[14] كُنَّا في بيتِ جمَاعتِنا نعتكفُ في حجراتٍ للخَلْوَةِ أسابيعَ لا نكادُ نرَى فيها بشراً، وهو من لوازِمِ مُقامِ الغربةِ وأحوالِ الانقطاعِ المُطيِّبةِ للقلبِ. فلمّا قرأَ الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ كلامَ بلخير هذا قالَ: اكتبُوا عبارةَ الشيخِ بخطوطِكم واجعلُوها علَى سقفِ كلِّ خَلْوَةٍ. ففعلنَا.

[15] كانَ شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى يأتي القِحَابَ اللاتي هَرِمْنَ فكَسَدَتْ بضاعَتُهُنَّ، فيجلسُ إليهِنَّ، ويؤانسُهنَّ، ويقضي حوائجَهُنَّ، وحوائجَ عيالِهنَّ. ثم يُخْرِجُ من مالِهِ شيئاً ومن مالِ جماعتِنا شيئاً فيتصدَّقُ به عليهِنَّ ويقولُ: نحنُ في غربةِ العلومِ وهنّ في غربةِ الحالِ، فهذه شِركةُ الغرباءِ. وأنا ألتمسُ بركتَهُنَّ علَّها تُزيلُ ما عَلِقَ بعمَلي وعَملِكم من كِبْرٍ في سياقِ الألفةِ الظاهرةِ. قلتُ: فكُنَّا نراهُ متَّصِلاً باسمِ السُّبحانيّةِ من بابِ القِحَابِ، ولا نقدرُ نحنُ أن نأتيهنَّ خوفاً وجُبناً من عندِ أنفسِنا.

عنهُم رحمةٌ، وخروجُكَ عليهِم خلافةٌ لهم.

وقالَ ليْ: الغرباءُ أمّةٌ لا تجتمعُ إلا علَى وجعٍ من أوجاعِ الإنسانِ الكاملِ.

وقالَ ليْ: أنتَ الغريبُ، لا اسمَ لكَ إلّاهُ، ولا فعلَ عداهُ، فإن جئتَني في ثيابِ الألفةِ لم أعرفْكَ.

وقالَ ليْ: الغربةُ أُلفةُ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: غربتُكَ في العالمِ حديقةٌ يطلعُ نوّارُها من قلبِك غيرَ أنها تزهرُ في الأرضِ التي تمشِي عليها.

وقالَ ليْ: الغريبُ قريبٌ، لأنه إذ يوغلُ في الأرضِ يصلُ أولَ الدائرةِ بآخرِها فيتاخمُ المبتدأَ.

وقالَ ليْ: بينَ الغريبِ وبينَ الولايةِ مُقامُ الصّبرِ، وبينهُ وبينَ النبوّةِ مقامُ الثَّباتِ، وبينَهُ وبينَ الخلافةِ أن يخرجَ إلى الأسواقِ فيتكلّمُ.[16]

وقالَ ليْ: الغريبُ يعرفُ من علومِنا ما لا يكونُ لغيرِهِ، ومن معارفِنا ما لا يصحُّ

---

[16] كانتْ مَولاتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالميَن، مولاة العملِ والمجاهدةِ في مساجدِ الأصابعةِ العابدةِ، صاحبةَ أذانِنا. فبينما نحنُ على سفرٍ دخلَ وقتُ صلاةٍ، فقامتْ تريدُ الأذانَ، فارتَجَّ عليها، فكأنّها لم تُنادِ بالحقِّ قطّ. فعلمنا أنّها في مقامٍ لا يَسَعُهُ أذانٌ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هو مُقامُ الغربةِ، وهي دخلتْهُ من وقتِ أن تكلّمتْ في الذاتِ والأسماءِ، ذاتِ العدلِ وأسماءِ المظلومينَ. قلتُ: فأشفقتُ عليها فقمتُ إليها أريدُ جلوسَها، فما أخذتْ يدي يدَها حتى تزلزلتْ كأنَّ بها مسّاً، ثمَّ رمتْ عنها إزارَها ومشتْ أمامَنا، سافرةً إلا من الشغفِ، وهيَ في همهمةٍ وإشارةٍ عجيبةٍ حتى وقفَ بسبيلِها بعضُ الجُهّالِ يريدون أذاها فحجبنَاها عنهُم.

لسواهُ، ومن أسرارِنا ما لا يباحُ.

وقالَ ليْ: الغريبُ هيئةٌ لا تعرفُها هيئاتُ الخلقِ، إن كلَّمُوهُ بالباطلِ ارتجَّ بالغضبِ، وإن حَدَّثوهُ بالحقِّ ذابَ حتى استحال ماءً جارياً.

وقالَ ليْ: الغريبُ هيئةٌ بين أن ترتجَّ أو تستحيلَ ماءً، يخشاهُ أهلُ الديار ويخشَى عليهِ أهلُ الأسفارِ الموغلةِ.

وقالَ ليْ: مقامُ الغربةِ يُرهقُ هيئتَكَ الإنسانيّةَ حتّى تكادُ تنفكُّ عنها وتنعقدُ بهيئةِ الجنونِ الكاملِ.

وقالَ ليْ: مقامُ الغربةِ يمشي بكَ إلى أرضِ الهيامِ، وتخومِ الجنونِ الذي يُفَتِّتُ الكتابَ وتتهافتُ له الألواحُ.

وقالَ ليْ: الجنونُ علامةُ الغرباءِ الذينَ أمعَنوا في المسيرِ.

وقالَ ليْ: الجنونُ إمعانٌ.

وقالَ ليْ: الجنونُ شرفةُ الرُّؤى، والوجعِ بالعالمِ، معاً.[17]

---

[17] من وقفَ بآخرِ التخومِ يشهدُ معانٍ جديدةً ورؤىً عجيبة وأحوالاً هائلةً. ذلكَ أنّ نهاياتِ المكانِ، والأطرافَ الغائرةَ للزمانِ، تأخذُ العاداتِ والحساباتِ إلى أقصَى غايتِها فتتصدّعُ هذهِ بِمِحَكِّ الظرفِ، وتتهافتُ بزلزالِ السّياقِ التي هي فيهِ. قالَ شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ: فانظرْ إلى من كانَ من الناسِ على حوافِّ الأشياءِ تَجِدْهُ يَشهد من الفكرِ والغيبِ ما لا طاقةَ لابنِ آدمَ به، ومن هذا يزيدُ علمُه ووجعُه في وقتٍ واحدٍ. فأما من كان مقامُه متنُ الأشياءِ دونَ أطرافِها فتفوتُه معارفُ الحافّةِ وفتوحاتُها العظيمة، غيرَ أنه، برضُو، يَسلمُ من أوجاعِها والرّهَقِ الذي تنالُ به القلبَ.

وقالَ ليْ: الجنونُ إزاءَ منطقِ العالِم الذي أحكمَهُ الاجتماعُ والفلوسُ والعلومُ.
وقالَ ليْ: الجنونُ إفلاتٌ من فخّ المتنِ إلى فضاءِ الشروحِ والحواشي والاستدراكِ.
وقالَ ليْ: الجنونُ كسرٌ للقيدِ الذي انتظمتْ عليهِ الأشياءُ.
وقالَ ليْ: الجنونُ على كاهلِك.[18]

---

[18] أتيتُ الإمامَ أحمدَ في عشيّةٍ فوجدتُه جالساً علَى عتبةِ دارِه يتأمّلُ الطريقَ. فسلّمتُ عليهِ فإذا هو في حالٍ طيّبةٍ وتأمُّلٍ. فقلتُ: يا إمامي، حدِّثني عن مُقامٍ لم تدخلْهُ، وحالٍ لم تنجذبْ إليهِ، وأرضٍ لم تهاجرْ فيها. فأصلحَ الإمامُ من جلستِه ثم نظرَ إلى أفقٍ قريبٍ وقالَ: هو مقامُ الجنونِ الكاملِ، وحالِ الانجذابِ التامّ، وأرضِ الغيبةِ الكبرى. قلتُ: قد سافرتَ في أرضِ الغربةِ سنينَ طويلةً حتّى يئِسَ منكَ التلاميذُ والأساتذةُ أن تعودَ. فكيفَ لم تدخلْ منها إلى أفقِ الجنونِ وهو يُتاخِمُها فدّاناً بفدانٍ؟ قالَ: نعمٌ، وقد كنتُ أرَى بوادرَ الجنونِ، وإشاراتِ اللاوعي، وبشاراتِ المجذوبيّةِ، وأسمعُ ما أسمعُ من هلوساتٍ وهذيانٍ فخمٍ. فأقولُ إني أقومُ الصبحَ مجذوباً لا عقلَ لي إلا ما كَمَنَ في ضميري، وسكنَ وراءَ حجابِ هذا العالِم. فحينَ يظهرُ الصبحُ يقفُ على رأسي جائعٌ ينشدُ كسرةَ الخبزِ، أو يحضرُ علمٌ يطلبُ المراجعةَ، أو يسنحُ حقٌّ يَنْدَهُ بالمنازلةِ لخاطرِه. فأَلْفُتُ قلبي عن أفقِ الانجذابِ وأنشغلُ في هذه المناهضةِ التي تتهيّأ لي في مقامِ الغربةِ. قلتُ: فهل بقيَ في قلبِك يا إمامي شيءٌ من تلكَ المتاخمةِ البعيدةِ بين الغربةِ والجنونِ؟ قالَ: نعمٌ، شهقةٌ تحضرُ في الوقتِ بلا ترتيبٍ، فتُسْلِمُني لبعضِ الغناءِ والرقصِ والمجاهداتِ العجيبةِ التي يراها الناسُ فيحسَبونني في مقامِ الفرحِ أو الحضرةِ الصوفيّةِ أو ما شابَه ذلكَ، وأنا قلبي يمشِي حِذاءَ تخمِ الجنونِ لا يعرفُ أن يقتحِمَهُ، ولا يقدرُ الجنونُ أن يَخْطُفَهُ إليهِ خطفاً.
ثم اتّكأَ الإمامُ علَى بابِ دارِه وقالَ: وهذه شهقةٌ نُحِبُّها ونرهبُ جانبَها في وقتٍ واحدٍ. ولعلّها تملكُ علينا أمرَنا في صبحٍ من إصباحاتِ هذا العالِم.

وقالَ لِيْ: الجنونُ انخراطٌ في ضجّةِ العالَمِ حتى تَلْتَبِسَ الضجّةُ به فلا تَعودُ تَغلِبكَ.

وقالَ لِيْ: الجنونُ شغفٌ بالثورةِ التي تناوشُ ضجّةَ العالَمِ.

وقالَ لِيْ: شَغَفُكَ بالثورةِ هو شغفٌ بالطمأنينةِ التي تَلي الثورةَ.

وقالَ لِيْ: شغفُكَ بفرطِ عِقْدِ الظلمِ في رَاهِنِيَّتِهِ هو ولهٌ بنظمِ عِقْدِ العدلِ الذي يطلعُ بعدَ الحينِ الراهنِ.

وقالَ لِيْ: شغفُكَ يصيرُ في الراهنيّةِ غيرَ أنّ لهُ البِشارةَ التي يعبرُ بها تخومَ الراهنيّةِ.

وقالَ لِيْ: الجنونُ الذي ينخرطُ في العالَمِ يقرؤهُ بأبجديةٍ لا نحوَ لها، ولا شواهدَ تحيلُ إليها، ولا حجرَ رشيد.

وقالَ لِيْ: من جُنَّ بالعالَمِ فهمَهُ فهماً جديداً، وذاقَ ما بهِ من وجعٍ، ولامسَ ما عليهِ من جراحٍ.

وقالَ لِيْ: من جُنَّ بالعالَمِ ارتهَنتْ له إشاراتُه الموغلةُ وغرغرتُه الآخرةُ.

وقالَ لِيْ: الغرباءُ يتغرغرونَ بالجنونِ كما تتغرغرُ السمكةُ بالماءِ، أو الطائرُ بالأغنيةِ التي تخرجُ عنهُ عفواً كلَّ صباحٍ.

وقالَ لِيْ: الغرباءُ بِرَسْمِ الجنونِ مثلما أنا برسمِ الولهِ.

وقالَ لِيْ: الغرباءُ يُجَنّونَ لكي ينفرطَ عِقدُ الوحشةِ، فإذا هم بوحشةٍ جديدةٍ تُضيءُ وتَتّقِدُ.

وقالَ لِيْ: وحشةُ الجنونِ ألفةٌ للقلوبِ التي شِغافُها مع الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: وحشةُ الجنونِ كامنةٌ في قلبِك كما القمحةُ راقدةٌ في السُّنبلةِ.

وقالَ لِيْ: وحشةُ الجنونِ قمحةٌ خارجَ السنبلةِ.

وقالَ لِيْ: الذي هو خارجَ السنبلةِ أليسَ به وحشةٌ؟

وقالَ لِيْ: الذي هو خارجَ السنبلةِ أليسَ غريباً.[19]

وقالَ لِيْ: الجنونُ مَنْسَأَةُ الغريبِ.

وقالَ لِيْ: الجنونُ يستحثُّ ذوي الألبابِ لكي يَقْدِمُوا علَى دارِ الغربةِ فإذا عقولُهم لا تعرفُ المسيرَ.

وقالَ لِيْ: الإبلُ التي لا تسيرُ لِمَ تَحدُو بها؟

وقالَ لِيْ: ذوو الألبابِ لا يركضونَ الأرضَ فمِن هذا لا ينبثقُ تحتَ حوافرِهم ماءٌ.

---

[19] كانَ في ناحيتِنا فتىً عاشقٌ قلبُه من جمرِ الغضَا، والناسُ حولَهُ منطفؤونَ بالبيعِ والشراءِ، وبعضٍ من الديانةِ، وطلبِ السلامةِ للقلبِ والبدنِ. قلتُ: هو حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ، الصّدِّيقُ بن عبدِ الله السّاقي، جليسُ العاشقين، وأنيسُ المحبين، بنواحي الجِمِيل ورِقدالين. فكانَ الفتَى يدخلُ السوقَ كأنَّهُ بُعِثَ لِتَوِّهِ من العرشِ، يقولُ الشعرَ، ويضربُ العودَ، ويتكلمُ بأخبارِ العشقِ ومصارعِ العشاقِ. فيتلخبطُ بعضُ الناسِ وينوشُهم بارقٌ من إلهامٍ، غيرَ أنّ أكثرَهم ينهرُه ويضحكُ من حالِه. وجاءَ في يومٍ ومعهُ بُنَيَّةٌ شَغَفَهَا حُبّاً. فشغَّلَ حافظةَ موسيقَى ثمَّ رقصَ ورقصتْ في ساحةِ الدّكاكينِ وهو يقولُ: هذا التانجو يا قومُ. ثمّ استدارَ بها ورقصَ شيئاً آخرَ وهو يقولُ: هذا الفلامينكو رعاكُم الله. ثمّ اشتدَّ بهِ وبها الولهُ وصارَ يَكْتَحُ الرّملَ وهي تضطربُ بجسدِها اضطراباً وحشيّاً وهو يقولُ: وهذا الكِشِكْ الليبيّ يا أهلَنا. فيَظَلَّانِ علَى هذا الحالِ حتّى يسقُطانِ من التعبِ، تعبِ الحبّ. ولهما حصيرةٌ يضطجعانِ عليها. ورأيتُ مُراقبَ السوقِ يأتي فيَنْهَرُهما ويُخرِجُهُما، والناسُ يتفرجونَ يجحدونَ لأنفسِهم الأوارَ الذي قَدَحَهُ الفتَى والبنتُ في قلوبِهم، يخشونَ عاقبةَ العشقِ والشطحِ.

قالَ الإمامُ أحمدُ: فهَذَانِ، الفتَى والبنتُ، كالبذرةِ التي خرجتْ من السُّنبلةِ بأشواقِها وأوجاعِها وعلومِها، فصارتْ غريبةً بها وحشةُ الجنونِ، وإلهامُ الهُبُلِ الدراويشِ.

وقالَ ليْ: ذوو الألبابِ نداؤُهم حيلةٌ.[20]

وقالَ ليْ: ذوو الألبابِ يتحشَّمونَ أن يدخلُوا عليَّ بقلبٍ قلقٍ فيقعُدون بحذائي فلا نعرفُ كيفَ نتكلّمُ فيخرجون عنّي بلا زادٍ.

وقالَ ليْ: الذينَ يُهَمْهِمُونَ بالفكرِ، ويُتَمْتِمُونَ بالأنساقِ، ويَهذُرونَ بالقضَايا، يمشونَ أمامَ داري فلا يتذكَّرُون أنْ يدخلُوا عليّ، فإن ناديتُ عليهِم تلفَّتُوا إلى ديارِ علومِهم يحسَبونَني أطلعُ منهَا.

وقالَ ليْ: الذين أنادي عليهم يُنادونَ عليَّ ويَبْدَؤونَني بالسلامِ، ثم يُحَشِّمُونني بالشوقِ، ويَسْتَحْيُونَ مني، فأخضعُ لهم وأُسْلِمُ وجهي إليهم، يحتجِبونَ عن مادّةِ

---

[20] قال مَولاي تاجُ السرّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ، مولَى المعارفِ والحقائقِ في صحراءِ الطوارقِ: عرفتُ علَى الطريقِ رجالاً لهم قلوبٌ وانجذاباتٌ للحقّ. فكنتُ أنظرُ بعدَ حينٍ فلا أجدُ واحداً منهم علَى التعيينِ. فأتفقَّدُه فإذا هو جالسٌ علَى ناصيةِ الطريقِ تحتَ شجرةِ "ذوي الألبابِ"، لا يمشِي استحياءً أن يُقالَ خلّى لُبَّهُ وذهبَ يحطِبُ بليلٍ. ثمّ أنشُدَ آخرَ كانَ يُعجِبني ركضُهُ للعلومِ فإذا هو واقفٌ بزَنْقَةٍ من زَنْقاتِ التقليدِ يقولُ تحشّمتُ أن أفارقَ المعلّمينَ الأوّلينَ إلى غربةِ قلبي. فأطلبُ ثالثاً كانَ يَضِجُّ بالأسرارِ فإذا هو يُسَوّي شَعَثَ النصوصِ العتيدةِ يخشَى عليها أن تتهافتَ بإزاءِ الكشوفاتِ اليانعةِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هؤلاءِ سَلّمُوا قلوبَهم للنداءِ الفخم الواردِ في الكتابِ، وهو حيلةٌ في رواءِ التودُّدِ. كالذي ينهضُ للمناهضةِ الواجبةِ فتقولُ لهُ "يا رجل! يا ذا اللبّ! أنتَ طيّبٌ ابنُ أبوينِ طيّبينِ ولكَ فهمٌ وحكمةٌ، فما لكَ وهذا السّفرَ البعيدَ؟"، فيذهبُ ما بهِ من نُصرةٍ للحقّ ويقعدُ علَى تِيْنَتِهِ مع القاعدينَ. فخلُّوا عنكُم، أيها التلاميذُ والأساتذةُ، أسماءَ الملاطفةِ الربانيّةِ، وامشُوا إلى حيثُ تُنادي القلوبُ، واركضوا الطريقَ إلى غايتِه، وأَسفِروا عن الفتوحاتِ، وادخُلوا أرضَ الغُربةِ، وأوغِلوا.

العالِمِ التي تُثْقِلُ حضرتَهم بغِلالَةِ الجنونِ.

وقالَ لِيْ: أهلُ الجنونِ حضرةُ أهلِ الغربةِ عندَ السدرةِ.

وقالَ لِيْ: من وقفَ عندَ سدرةِ الجنونِ صارَ إلى عتبةِ الدهشةِ الكاملةِ.

وقالَ لِيْ: سِدرةُ الجنونِ عبورٌ بالغربةِ إلى وطنِ الاسمِ.

وقالَ لِيْ: سدرةُ الجنونِ وقفٌ علَى قلبِك هل ضجَّ بالغربةِ حتى صارتْ وطناً فتَضِجُّ هيَ بهِ.

وقالَ لِيْ: القلبُ الذي يلوكُ الغربةَ، كاللّقمةِ التي لا تَسُدُّ الرّمَقَ، يَلْزَمُهُ أن يَقْضِمَ من سدرةِ الجنونِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتقوّتُ من سدرةِ الجنونِ لا يجوعُ ولا يعرَى إلا تشبيهاً وفتنةً للناظرينَ.

وقالَ لِيْ: الذي يتقوّتُ من سدرةِ الجنونِ أُنزلتْ عليهِ المائدةُ وهو مطمئنٌّ أنها الجائزةُ.

وقالَ لِيْ: أهلُ الجنونِ عشيرةٌ يَنْظِمُها دمُ العلومِ المسفوكِ بسيفِ الدهشةِ.

وقالَ لِيْ: أهلُ الجنونِ يهتكونَ أسرارَ المعارفِ بالجلالِ الذي انبثقَ عن غربةِ القلوبِ.

وقالَ لِيْ: قد يَنْكُصُ الغريبُ بقلبِه إلى تخومِ ما قبلَ الغربةِ، ولا قوافلَ تحملُ قلبَ من جنَّ إلى وطنٍ.

وقالَ لِيْ: الذي لا قوافلَ له لمن إيلافُه؟

وقالَ لِيْ: إيلافُ المجنونِ الغربةُ التامّةُ.

وقالَ لِيْ: المجنونُ يحدو بالعلومِ يريدها أن تَبْرُكَ عندَ قُبائي، وبالمعائشِ يحثُّها أن

تنفضَّ عن سياقِها، وبالإنسانِ يُغويه بالحريّةِ.[21]

وقالَ ليْ: هم يتغرّبون لخاطري وأنتَ تتغرّبُ بخاطري، وهم يُجَنُّونَ لي وأنتَ تُجَنُّ بي، وهم يتلفَّتون يريدونَ أسمائي وأنتَ تُحدّقُ في وجهي تريدُ أسماءَك التي لم أُعلِّمْها

---

[21] لم نعرفْ في جماعتِنا وناحيتِنا من جازَ الغربةَ إلى الجنونِ. قالَ الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبِي، غوثُ السودانِ، وعارفُ قِرنةَ وأسوانَ، الفتحُ الباهرُ، والنيلُ الغامرُ، وإمامُ الزمانِ الظاهرِ: كانَ في أرضِنا مُعلّمٌ بَيّنُ الصلاحِ يحبُّهُ الخلقُ ويعتبرونَه، غيرَ أنّه كانَ ينجذبُ في الحالِ، وهو بين الناسِ في القريةِ أو السوقِ، ثم يعودُ يتصبّبُ بالعرقِ يكادُ لا يقدرُ على النَّفَسِ. فيستوحشُ منهُ جماعةٌ ويرحمُه جماعةٌ. فجاءَ بعدَ وقتٍ وقالَ: إني السبيلُ إليهِ، فمَن مشَى في المواقفِ التي جعلتُها عليّ، أي علَى السبيلِ، وصلَ. ثم أبطلَ الشعائرَ يقولُ القلبُ يقومُ ويسجدُ وليسَ للأبدانِ معنى الخضوعِ. وأباحَ الملذّاتِ من جهةِ أنّها استعجالٌ للجائزةِ والمستعجِلُ للجائزةِ أقرَّ لها وآمنَ. وأشركَ الناسَ في الأصولِ والعملِ والنَّتْجِ لأنّ من استأثرَ بشيءٍ من الدنيا اُسْتُئْثِرَ عنهُ بجميعِ الآخرةِ. وأدخلَ في الكتابِ كلاماً كانَ يَخُطُّهُ وهو في حالِ المجذوبيّةِ، فسمّاهُ الذين مشوا وراءَهُ "آياتِ الحالِ"، و "كتابَ الحالِ"، و "لوحَ الحالِ". فلمّا اشتدَّ عليهِ الناسُ خرجَ بجماعتِه، وهم دونَ السّبعين رجلاً وامرأةً، فانتبذوا أرضاً على أطرافِ الطَمْيِ وجعلوا يتألّهُونَ، ويخرقُون الغيبَ، ويتكلّمون بالنبوءاتِ، حتّى ثبتوا جميعاً في مقامِ الجذبِ وصارتْ أرضُهم أرضَ تيهٍ وجنونٍ. قالَ الأستاذُ بَابِكِر: فاشتدّتْ عليهم الكشوفاتُ التي تَهيُأتْ لهم، فصاروا يذبلونَ كأعرافِ الشجرِ من أثرِ الانجذابِ وأحوالِ الولهِ ونشوةِ الإلهامِ، فإنّ أبدانَهم لم تقدرْ علَى ما شَالَتْهُ قلوبُهم. فلم تَكُنْ عشرةُ أعوامٍ إلا وقد قضَوا جميعاً بالحُمّى، وانبلاجِ القلبِ، واندثارِ النَّفَسِ. فدَفنوا بعضَهم بعضاً في أرضِهم التي هاجروا إليها حتى سمّاها الناسُ "جِنَانَ المجذوبِينَ".

لكَ.

وقالَ لِيْ: الذي يُحَدِّقُ في وجهي، ثمّ لا يتصدّعُ، تدثّرَ بعباءةِ الغربةِ، وتقوّتَ من سدرةِ الجنونِ، وانبثقَ في عينيهِ اسمُ الدهشةِ الغامرةِ.

وقالَ لِيْ: مالذي ينبثقُ الآنَ في عينيكَ؟

وقالَ ليْ: أنت سيّدُ الغرباءِ، وإمام المجنونينَ، ووجهةُ سفرِ المنبوذينَ. قلبُكَ وجعٌ بأسمائي وأحوالي، وجسدُك مضغةٌ من ولهِ الكونِ، وعقلُكَ صلةٌ تتبدّدُ بينكَ وبينَ الأشياءِ. أجلسُ منكَ علَى كثبِ المفارقةِ، فتجيئُكَ منّي معارفُ بكرٌ وعلومٌ غضّةٌ تهتكُها قبلَ أوانِها، وتجتمعُ عليكَ رؤىً وأحلامٌ لمْ تَصِحَّ لغيرِكَ. أنكرَكَ الخلقُ وأنت فيهم فردٌ صمدٌ، وكذَّبكَ الرُّسُلُ وأنتَ أوّلُ من تكلّمَ في الغارِ، وتبرَّأتْ منكَ الكتبُ وهي من لغوِكَ ولغوِ الغرباءِ. فلا تَلْفُتْ قلبَكَ حينَ تُمعِنُ في السفرِ وتوغلُ في وحشةِ العلومِ. أنتَ سنبلةُ الغرابةِ، وسِدرةُ الفتوحاتِ، والولايةُ التي أَشكلْتَ بها علَى الكونِ. ولا تحزنْ، لأني الدارُ التي تَلي تخومَ الغربةِ، والألفةُ التي تطلعُ من رحمِ الدهشةِ، والزهرةُ التي تضمُّكَ في وحشةِ البساتينِ.

18. موسمُ الفكاهةِ

(وهو المؤونةُ)

ومن أحوالِه اللطفُ والاتكاءةُ والبهجةُ والروقانُ والشيوعُ وكاهلُ الضحكِ
واستعادةُ الزّمامِ وإماطةُ اللثامِ ومصحفُ الفكاهةِ واتساعُ ما بينَ حديدِ الحبسِ

وفيه أعيَاني الفلحُ والبذرُ، وكدحِي قائماً تراودُني الأرضُ. فمشيتُ إلى ظلٍّ قريبٍ بَرَدَ حتى لذَّ، وتنفَّسَ حتى طابَ. وقعدتُ أرقبُ الأشياءَ العتيدةَ، وأتأمّلُ المعاني الوطيدةَ. فانكشفَ لي سعيُها في المكانِ، وأسفرَ لي كدحُها في الوقتِ. وظهرَ من أسرارِها ما ظهرَ. وانكشف لي تباينُها واختلافُ مبادئِها، وتناقضُها وتضاربُ عواقبِها. فرأيتُ في أمرِ الكونِ سياقاً للضّحكِ ومبدأً من مبادئِ الفكاهةِ. فعَجِبْتُ من سُنَنِ الحوادثِ وعاداتِ الوقتِ، وكيفَ أني فرحتُ بالمخالفةِ فاستُخلِفتُ، وأمعنتُ في البدعةِ فأبدعتُ. ثم تفكّرتُ في هذي الحديقةِ التي غرستُها فأينعتْ بي، وكيفَ غِبْتُ زمناً عن معنايَ حتى مشيتُ في المواسمِ فمشتْ فيّ، وكلّمَني الحقُّ فقالَ ليْ، فنسخَ ثم أحكمَ العباراتِ التي هيَ مني. فعرفتُ أن ضَحكي في الكونِ علامةٌ بالعلومِ، وفكاهَتي إشارةٌ بسبرِ الروابطِ التي عقدَتِ الأشياءَ بعضَها ببعضٍ. وكُشِفَ لي من هذه المؤونةِ معنىً لطيفٌ لم أتبيَّنْهُ في العالمِ من قبلُ، وأخذتُ منها وجهَ حكمةٍ لا عهدَ لي بها في زمانِ تجهُّمي. وانفرجتْ أساريرُ نفسي بعدَ غُمّةٍ، وغَمَرَهَا وعيٌ وقوّةٌ. وصرتُ كلّما فهمتُ شيئاً ضحكتُ لتدبيرِه، فإنْ فاتَني فهمُهُ ضحكتُ من حالِ جهلِي فيهِ. وتفكّرتُ فإذا أنا الضّاحكُ في الكونِ لا شريكَ لي، وإذْ بالأشياءِ عجزٌ عن الطرافةِ. فقلتُ علّ في الفكاهةِ شيئاً منْ خلافَتي، فلهذَا وُقِفَتْ عليّ. فحملتُ أوزاري كاملةً وقهقهتُ بها، فاهتزّتْ أركانُها وكادتْ أنْ تَسْقُطَ عنّي جملةً. فجعلتُها من طرائفِ الدّهرِ، وأخبرتُ عنها. فصارَت نكتةً في صفحةِ الكونِ ونادرةً من نوادرِ الإنسانِ.

ثم خشيتُ أنْ أضحكَ من كلِّ شيءٍ فيذهبَ عنهُ معناهُ، ويَفْسَدَ عزمي على

العملِ. فأردتُ أن ألبسَ ثيابَ التجهُّمِ وقتاً علَّني أَثْبُتُ بها في سبيلِ الخلافةِ. فمَا ازدادَ الكونُ جوهراً، ولا اتّسَعَ معنًى من معاني العالمِ، ولا أسفرَ سرٌّ من الأسرارِ. بل ثَقُلَ الكونُ وبَهتَ حضُورُ الأشياءِ وتَبَدّدَ أثرُ النورِ. فعاودتُ نفسي علَى الضَّحكِ فما قدرتُ عليهِ، وإذا قلبي مُنقبضٌ وروحي مطفأةٌ وعقلي يريدُ المعاني فتحيدُ عنه. فبينما أنا كذلكَ إذ برجلٍ يُضحِكُ الناسَ في السوقِ بحركةٍ وكلامٍ، وغمزٍ ولمزٍ، ونقدٍ ونقضٍ. فوقفتُ أسمعُ منهُ، فإذا حديثُه حقٌّ في ثيابِ الهذرِ، وجِدٌّ في رُواءِ اللهوِ، ومناهضةٌ في إهابِ الخضوعِ. فكأنّهُ نظرَ إلى أحوالِ الناسِ ومعائشِها، وتدبيرِ الأمورِ ومقاصدِها، والمناهجِ التي عليها انتظمَ القومُ وقسَموا الرزقَ بها والسعادةَ. ففضحَ فسادَها بالنكتةِ الخارقةِ، وكشفَ عن تهافُتِها بالعبارةِ الطريفةِ، وهتكَ حجابَ وقارِها بالضحكةِ السافرةِ. فقلتُ إنَّ في ضَحِكِهِ لآيةً ولسانَ مناهضةٍ من عندِ قلبٍ مكينٍ.[1] فتبِعْتُهُ في الأسواق يَبُثُّ النُّكتةَ البارعةَ ويَبِينُ عن المفارقةِ السافرةِ. فجلجلتُ وراءَه بالضحكِ الذي جرَى في عروقي حتى انشرحَ صدري من أثرِ الفرحِ الناقدِ، وخفّتْ روحي من فعلِ المفارقةِ الفاكهةِ،

[1] حينَ اجتمع علَى البلدِ الفرنسيسُ والإنجليزُ وبعضٌ من الأعرابِ وأهلُ الغفلةِ صِرنا نجاهدُ بيضاءَ النهارِ حتّى يدخل علينا الليلُ فقالَ الإمامُ أحمدُ: يا أوادم! من أعرفُكم بالنُّكاتِ، ومن يَقْدِرُ أن يُرَكِّبَ الحالَ الذي نحنُ فيه على طُرْفَةٍ؟ فقالَ بعضُنا: إنما نعرفُ كيفَ نسبُّ ونشتمُ ونضربُ، وهذا وقتُ غضبةٍ وفزعةٍ. فقال الإمامُ: الضحكُ لا يصحُّ للقاعدينَ، فأما الخارجونَ المجاهدونَ فلهُم أشداقُ الفكاهةِ يُرَوّحونَ بها عن قلوبِهم، ويُسفِرونَ عن ترتيبِ الأشياءِ على الأشياءِ. فاذهبوا وانظروا في أحوالِ الظلمِ وروابطِ الزيفِ وعجائبِ البُهتانِ، فمن أضحكَنا منها صارَ إمامَنا في اللُّطفِ والمناهضةِ الساخرةِ.

وسرَى الدّمُ في عروقي زكيّاً لا خثرَ فيه. ولولا أن أَبهجَ الفؤادَ لقد كدتُ أركنُ إلى الحزنِ شيئاً قليلاً. فلمّا رأى الحقُّ ضحكي منعقداً بفهمي هشَّ إليَّ باسماً وقالَ لي:

الفكاهةُ التي تكشفُ حالَ المعيشةِ

تسفرُ عن أرضِ المنازلةِ الواجبةِ.[2]

وقالَ ليْ: الفكاهةُ تُشكِلُ على الظلمِ بالابتسامِ.

وقالَ ليْ: الفكاهةُ إراقةٌ باسمةٌ لسطوةِ المحتكرينَ.

وقالَ ليْ: في الفكاهةِ معنَى أن تُشيعَ المرحَ، والشيوعُ ضدٌّ علَى الحُكْرَةِ.

وقالَ ليْ: الشيوعُ، في المرحِ أو العلومِ أو أصولِ الأرزاقِ، وشيجةٌ بين الفكاهةِ وبينَ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الشيوعُ يحيلُ الضحكةَ المفردةَ إلى تلاوةٍ جامعةٍ لسورةِ المناهضةِ.

وقالَ ليْ: الشيوعُ إشاعةٌ لمعناكَ في سياقِ العالمِ، والحُكْرَةُ حبسٌ للمعنَى والسياقِ

---

[2] قلتُ: هذا يُلزِمُ الفكاهةَ بحملِ السلاحِ. قالَ السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ، زادُ القلوبِ الصابرةِ، وسندُ المواجهةِ الحاسرةِ، العارفُ العابدُ، وزادُ المجاهد، في أريحا والجليلِ والناصرة: بل يُلزِمُ صاحبَ الفكاهةِ، فأمّا الفكاهةُ الثاقبةُ فتشيرُ إلى أرضِ المعركةِ تحثُّ قلبَك أن يمشي إليها. فمِن هذا كانتِ النكتةُ المدرِكةُ لواقعِ الحالِ تغييراً كامناً لهذا الحالِ وهي في أشداقِ الضحكِ.

قلتُ: أفيكونُ الإدراكُ فعلاً وهو اسمٌ مقيّدٌ؟ قال: نعمْ، إذا وقعَ هذا الإدراكُ في قلبٍ منحازٍ صارَ القلبُ فضاءً للانخراطِ في العالمِ بعد أن كان حيّزاً لوجدانِ الاسمِ. قلتُ: هذا إلزامٌ شديدٌ، وماظننتُ قبلَ الآنَ أنّ الفكاهةَ تفعلُ هذا، فإنْ شاءَ اللهُ نصنعُ النّكاتَ ونبثُّها في النواحِي حتّى تقومَ بها القلوبُ.

معاً.

وقالَ لِيْ: الشيوعُ أن يكونَ للإنسانِ مقاليدُ الأمرِ فكلُّ شيوعيٍّ في هيأتِه كانَ إنسانياً في جوهرِه.

وقالَ لِيْ: الشيوعُيُّ جوهرُ الإنسانيةِ لأنّهُ زِمامُ المعاني التي يقومُ بها الإنسانُ وتحفظُه منَ الارتهانِ.[3]

وقالَ لِيْ: الفكاهةُ استعادةٌ للزِّمامِ.

وقالَ لِيْ: الذي يستعيدُ الزِّمامَ يُمْكِنُهُ أن يسيرَ علَى مطايا العلومِ.

وقالَ لِيْ: الذي يُمسكُ الزمامَ بيمناهُ يقدرُ أن يتكلّمَ ويشيرَ إلى الطريقِ بيُسراهُ.

وقالَ لِيْ: الذي يمسكُ بالزّمامِ ينعتقُ وهو يبتسمُ لأن الحبسَ لا يتّسعُ لمطيَّتِه أو ضحكتِه.

وقالَ لِيْ: الفكاهةُ اتساعُ ما بينَ حديدِ الحبسِ.

وقالَ لِيْ: الفكاهةُ إماطةٌ للثامِ النقائضِ التي انتظمَ عليها السياقُ الذي أنتَ فيه.

---

[3] قالَ شَيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ، شيخُ السياحةِ والأسفارِ، من تمبكتو إلى تاورغاءَ بلادِ الأحرارِ: المشاعيُّ في العلومِ، والجهدِ، والمسرّاتِ من فنونٍ وفكاهةٍ، أوثقُ رابطةً بالبني آدم من الموقوفِ على العُصْبةِ القليلةِ، أو الثُّلَّةِ ذاتِ البأسِ. قلتُ: لمَ؟ قالَ: لأنّ الذي يُحْبَسُ عن الخلقِ، ويُحازُ عن العاملينَ الذين أنشأوهُ، ويُسَيَّجُ عن فرحِ العالمِ، ينتهكُ معنَى الإنسانيّةِ، ثم معنَى العدلِ، ثم معنَى الواحديّةِ. قلتُ: فالأرضُ مشاعٌ؟ قالَ: بين أهلِها. قلتُ: فالنتجُ مشاعٌ؟ قالَ: بينَ المنتجينَ. قلتُ: فأسرارُ العلومِ مشاعٌ؟ قالَ: بين طالبِيها، والكاشفينَ عنها، ومن تنوشُ بآثارِها. قلتُ: فهي تنوشُ كلَّ آدميٍّ وحوائيّةٍ. قالَ: فهيَ مشاعٌ بينهم علَى الكُلّيَّةِ، لأنها تتصلُ بهم جميعاً، وإلا تهافتَ منطقُ الأشياءِ، وخلَا الكونُ من المعنَى.

وقالَ ليْ: إماطةُ اللثامِ تصحُّ بالنكتةِ المباغتةِ، أو المعرفةِ الحاسرةِ، أو الثورةِ.

وقالَ ليْ: في الفكاهةِ نَصْلُ المعرفةِ ونصلُ الثورةِ، غيرَ أنها لها طعمَ المَنِّ والسَّلوَى.

وقالَ ليْ: النصلُ الذي هو لك، ثمّ تجدُ له حلاوةً غالبةً من جهتِك، ينفعُ لأن تُناوئَ به من جهتِه الآخِرةِ.

وقالَ ليْ: الفكاهةُ نقدٌ لأنساقِك ثمّ نقضٌ لهذه الأنساقِ، فمن هذا تكونُ المناوأةُ.

وقالَ ليْ: الفكاهةُ شرحٌ لأنساقِ العلومِ والمعائشِ بلطفِ الضحكةِ السّافرةِ.[4]

وقالَ ليْ: الفكاهة شرحٌ فلهذا تصيرُ انشراحاً.

وقالَ ليْ: الفكاهةُ فاكهةُ الغَلَابا.

وقالَ ليْ: الفكاهةُ خبزُ الإنسانِ في مُقامِ المناهضةِ.

وقالَ ليْ: مقامُ المناهضةِ سياقٌ حَسَنٌ للفكاهةِ.

---

[4] حضرتُ درسَ علومِ المعيشةِ مع الأستاذِ قرلصَ العامليّ عشرَ سنينَ. فكانَ يتكلّمُ في الأسواقِ والسلعِ والمكوسِ، ويشرحُ الأموالَ والمصارفَ والأسهُمَ. ثم هو، في وسطِ الكلامِ، يُظهِرُ إلى التلاميذِ رسمةً ساخرةً تَبِينُ عن معنًى من المعاني الناقدةِ التي بَيّنَها في الدرسِ. قلتُ: وغالبُ هذه الرسومِ يضحكُ من حِيَلِ المترفينَ، وفسادِ نظامِ الربحِ، وغرابةِ ترتيبِ الأرزاقِ للعاملينَ، وفداحةِ النهبِ. فيجدُ التلاميذُ في هذا عوناً علَى الفهمِ، واستئناساً بالطرافةِ، وخوضاً لغمارِ العالمِ من شرفةِ الابتسامةِ الواعيةِ. قلتُ: والأستاذُ يأتي إلينا بالرسومِ من أسواقِ العالمِ جميعاً، فيترجمُها ويذكرُ فنّانَها ويشرحُ سياقَها. ولو أنّ أهلَ العلومِ الجادّةِ، والمعارفِ الشديدةِ، اتّبعوا هذا السبيلَ في الخلطِ بين المنهجِ الصلبِ والفكاهةِ الكاشفةِ لنفعوا التلاميذَ، وحثُّوهم على الفهمِ الناقدِ، والتحليلِ السافرِ عن قلبِ الأمورِ. ولكنَّ الخوفَ على الهيبةِ، والهزءَ من الفكاهةِ، والانفكاكَ عن سياقِ العالمِ، يمنعُ أكثرَهم من خوضِ هذا الطريقِ.

وقالَ لِيْ: المناهضُ قد يَفهم بالفكاهةِ ما لا يقدرُ علَى فهمِه بالتجهّمِ.
وقالَ لِيْ: المناهضُ ليسَ استثناءً علَى الفكاهةِ.
وقالَ لِيْ: الفكاهةُ التي تقصدُ المناهضَ قد تَبِينُ لهُ عن غلطٍ يشوبُ مقامَ المناهضةِ.
وقالَ لِيْ: الفكاهةُ التي تبينُ عن باطلٍ خالطَك مراجعةٌ فخمةٌ في غوايةِ النكتةِ المبتذَلةِ.
وقالَ لِيْ: النكتةُ المبتذلةُ مراجعةٌ فخمةٌ.
وقالَ لِيْ: النكتةُ المبتذلةُ تضحكُ فيها على فعلِك أو علومِك أو سياقِك فتحفظُك عن غوايةِ الطغيانِ.[5]
وقالَ لِيْ: النكتةُ إزاءَ طغيانِك أنتَ.
وقالَ لِيْ: طغيانُك يراودُك عن العدلِ ويُغويك عن معنَى الجماعةِ فيكَ.
وقالَ لِيْ: طغيانُك مسألةُ وقتٍ فيلزمُك أن تناوِئهُ بالمبادرةِ.
وقالَ لِيْ: الطغيانُ الذي يكونُ منكَ أشدُّ وقعاً على قلبِك من الطغيانِ الذي

[5] كانَ ضَحَّاكٌ في ناحيتِنا يضحكُ من طريقتِنا ومنهجِنا في الدرسِ والذكرِ والعملِ، ويكشفُ عن غراباتِنا وتناقضِ أحوالِنا. فغضبَ منه التلاميذُ وأرادوا زجرَه وردعَه فنهاهُم الإمامُ أحمدُ الدرّي عن ذلك وقالَ: الفكاهةُ مِحَكٌّ ينكشفُ به معدنُ الفكرِ والعملِ، وينقدحُ به زَنَدُ المراجعةِ. وإني والله قد انتبهتُ لبعضِ غرابةِ الطريقِ الذي نحنُ فيه من أثرِ فكاهةِ هذا الضاحكِ. فراجعتُ نفسي وعَجِبْتُ من أحوالي وفهمتُ ما كانَ محجوباً عني بي. فاسمعوا له واضحَكوا علَى أحوالِكم كي لا تكونَ لكُم الأَثَرةُ بالعلومِ، والمغالبةُ بالمعارفِ، والأذَى الذي يحصلُ عنِ المقاماتِ الفاخرةِ.

يكونُ عليكَ.[6]

وقالَ لِيْ: الطغيانُ منعقدٌ بالجلالِ فلهذا تَجْرَأُ عليهِ النكتةُ بالابتذالِ.

وقالَ لِيْ: طغيانُك يطمئنُّ بتجهُّمِك الذي يليقُ بالجلالِ.

وقالَ لِيْ: الذينَ لا يَطمئِنُّونَ فِي مقامِ طغيانِهم قلوبُهم قُدَّتْ من محبّةٍ ضاحكةٍ.

وقالَ لِيْ: فِي الفكاهةِ مَظَنّةُ سطوةٍ لأنّها غلبَةٌ بسيفِ معرفةٍ من المعارفِ.

وقالَ لِيْ: الفكاهةُ ليستْ استثناءً علَى الحسابِ من جهةِ أنّها معرفةٌ.

وقالَ لِيْ: حسابُ النكتةِ عندي أشدُّ من حسابِ الحكمةِ، لأنَّ النكتةَ أمضَى

---

[6] اجتمعَ خلقٌ كثيرٌ على منهجِ جماعتِنا فِي التصوّفِ والعلومِ والعملِ، وجاءَنا التلاميذُ من أطرافِ الديارِ، ومن البلادِ البرانيّةِ، وصارَ لنا مُحِبُّونَ ودارسونَ يتكلّمونَ بكلامِنا وهم ليسُوا فِي صَفّنا وخِرقَتِنا. ففرحَ بهذا التلاميذُ وقالوا: علمٌ ونورٌ من لَدُنَّا للعالمينَ. قالَ الإمامُ أحمدُ: أخشَى علَى نفسي وعليكُم مظنّةَ السلطانِ. قالَ التلاميذُ: من أين لنا السلطانُ ونحنُ دراويشُ فِي هذي الزاويةِ ليسَ لنا غيرُ العلومِ والكلامِ وشيءٍ من المكابداتِ والغناءِ. قالَ الإمامُ: إن للمعارفِ سطوةً على القلوبِ، وسلطاناً على الأفعالِ، ومظنّةَ تواطؤٍ مع الشؤونِ الحاكمةِ، والطرائقِ الآمرةِ لأحوالِ الخلقِ. فإن دخلَ الناسُ فِي قيدِ معرفةٍ بعينِها، وآمنوا بها، وسَلَّمُوا لها، صارَ سلطانُها عظيماً، وأثرُها حاكماً، وكاتبُوها سَدَنَةً يحفظونَها عن الخلقِ بإرغامِ الفكرِ والتقليدِ. قالَ التلاميذُ، وقدْ وَجِلَتْ قلوبُهم: فما نفعلُ؟ قالَ الإمامُ: راجعوا معارفَكم، ولا تَطْغَوْا بعلومِكم، ولا تعقدِوها بسطوةٍ من السّطواتِ الحابسةِ للناسِ، ولا تستأثروا بمبادئِ الفهمِ أو سُبُلِ التعلّمِ، وأفسِحوا لمن يناهضُكم أفقاً من السمعِ والنظرِ والتفكّرِ، حتّى يَبِينَ عوارُكم ويظهرَ فسادُ نظامِكم. واعلمُوا أنَّ كلَّ علمٍ سلطانٌ، وكلَّ سلطانٍ مَظَنَّةُ قهرٍ. قلتُ: فمِن هذا غلبَ على حالِنا المراجعةُ، والوضعُ على المِحَكِّ، والضحكُ من شأنِنا معَ المعارفِ والكشفِ والتَجَلِّياتِ.

من الحكمةِ، والحكمةُ متجهّمةٌ تحاسبُ نفسَها وتُثْقِلُ كاهلَ صاحبِها بالمراجعةِ.
وقالَ لِيْ: الحكمةُ تُؤخَذُ وتُرَدُّ والنكتةُ تدخلُ قلوبَ الناسِ بلا أخذٍ وردٍّ.
وقالَ لِيْ: الفكاهةُ التي تَتّكِئُ علَى سطوةِ مالٍ أو حكمٍ أو معرفةٍ تؤولُ إلَى ما تَتّكِئُ عليهِ.
وقالَ لِيْ: الفكاهةُ التي تَجْتَرُّ كلامَ السّطوةِ مُطَيّبَةً بالبهجةِ الخاضعةِ خيانةٌ لقلبِ البهجةِ المنحازةِ.
وقالَ لِيْ: البهجةُ المنحازةُ مسرّةٌ مُسَرْبَلَةٌ في ثيابِ المواجهةِ.[7]

[7] عُرِفَتْ عن رجلٍ في ناحيتِنا براعةٌ في النُّكتةِ ومهارةٌ في الإضحاكِ، غيرَ أنّهُ كانَ مُسِفّاً يسخرُ من ألوانِ الناسِ أو لَغَواتِهم أو معايبِ أجسامِهم. وكانَ الناسُ يضحكون له ويُسَرُّونَ. فدعاهُ الإمامُ الدريُّ أن يحضُرَ بعضَ الصلاةِ والدرسِ والحضرةِ الصوفيّةِ وقرأَ عليهِ بعضاً من طرائفِ الأساتذةِ وعجائبِ الأولياءِ. فلانَ قلبُ الرجلِ وأعجبَه حبُّنا للفكاهةِ وقالَ: لم أكنْ أظنُّ بكم أهلَ الديانةِ مرحاً. فقالَ له الإمامُ بعد حينٍ من زيارتِه وصُحبتِه لنا: يارجل! أنتَ تسخرُ من هيئاتِ الناسِ وما هو أصلٌ فيهم لا يستطيعونَ تبديلَه كالعنصرِ واللّغْوَةِ والإعاقةِ. فهلّا دللتُك علَى مواطنَ كريمةٍ للفكاهةِ. قالَ الرجلُ: اِفعَل فإنّ قلبي اتّقَدَ بصُحبتي لكم. قالَ الإمامُ: انظرْ إلى الظلمِ الذي يقعُ بجهةِ كذا، والنهبِ الذي ينوشُ ناحيةَ كذا، وتناقضِ الأحوالِ عندَ قومِ كذا، وهؤلاءِ الذين عقدُوا قلوبَهم بطيزِ الطاغوتِ الغربيِّ يحسَبُونَه نورَ الحجازِ، وأولاءِ ظُلِموا بالمبادرةِ فظَلَموا بالاستئنافِ من هم دونَهم بأساً. فإن في هذا كلّه من مظانّ العجائبِ ومواضعِ الغرابةِ ودواعِي الضحكِ ما لا تَسُدُّهُ الأقلامُ والصحفُ. قالَ الضاحكُ: نعمْ يا إمامُ، فهلّا علمتُموني ألفْباءَ العلومِ حتى أعرفَ كيفَ أفُكُّ خطَّ كتابِ هذه الغرابةِ التي ربطتِ العالَمَ في الأغلالِ. قالَ الإمامُ: نعمْ، نفعلُ يا ضاحكَ القلبِ واللسانِ وصانعَ البهجةِ والسرورِ.

وقالَ لِيْ: البهجةُ المنحازةُ علمٌ ثاقبٌ يكشفُ العالمَ ويَعْقِدُ الجهاتِ ويُؤوِي الإنسانَ.

وقالَ لِيْ: المنحازونَ بالبهجةِ لهذا العالمِ ينحازون بهذا العالمِ إلى أفقِ الخلافةِ القائمةِ بالمسرّاتِ.

وقالَ لِيْ: البهجةُ استسقاءٌ لماءِ العلومِ إزاءَ الجدبِ الذي يَنهبُ قلبَك.

وقالَ لِيْ: ماءُ العلومِ مددٌ يطلبُه قلبُك إزاءَ اصطفافِ الطغيانِ.

وقالَ لِيْ: البهجةُ تتقدّمُ الصفوفَ أمامَك كي تحملَ عنكَ أوّلَ وجعِ المنازلةِ.

وقالَ لِيْ: البهجةُ إذ تخوضُ بكَ في العالمِ يتّسعُ أفقُ هذا العالمِ قُدّامَ قلبِك.

وقالَ لِيْ: البهجةُ إضاءةٌ للعالمِ من جُوّانيّةِ هذا العالمِ.

وقالَ لِيْ: الذي يستضيءُ بالبهجةِ ويسردُ الفكاهةَ ويُفَكّكُ سطوةَ العالمِ يفهمُ هذا العالمَ بالعلومِ الضاحكةِ.

وقالَ لِيْ: العلومُ الضاحكةُ نَتْجُ الوقتِ الذي ناوشْتَ أوجاعَهُ بالابتسامِ.

وقالَ لِيْ: الذي يفهمُ سياقَ الوقتِ الذي هو فيهِ يتهيّأُ له سياقُ الوقتِ الذي يَلِي.

وقالَ لِيْ: الذي يفهمُ الحُكْرَةَ التي أحاطتْ به، يقدرُ أن يُفكّك روابطَها فتتهيّأ له الشّرْكَةُ التي تَليها.

وقالَ لِيْ: بعضُ الضحّاكينَ أعلمُ من بعضِ العالِمينَ من جهةِ أنّهم يَفُكُّونَ حبلَ العلومِ، ويَنْفَرِطُ بأيديهم عِقْدُ السّطوةِ، ويتهافتُ لهم ترتيبُ الظالمينَ للأمرِ.

وقالَ لِيْ: ترتيبُ الظالمينَ للأمرِ محلُّ انتهاكِ الضاحكينَ.

وقالَ لِيْ: ترتيبُ الظالمينَ للأمرِ ينفرطُ بالحديدِ الذي بأيدي المظلومينَ، غيرَ أنّ

الفكاهةَ تشحذُ هذا الحديدَ.

وقالَ ليْ: حديدُ الفعلِ يَثْلُمُ بالغضبِ الذي لا يختلطُ بالضحكِ الواجبِ، وينبُو عن موطنِ الضربِ إن لم يَفزِع له ميزانُ الفهمِ والعلومِ.

وقالَ ليْ: الضحكُ الواجبُ يَلْزَمُكَ من حيثُ هو اتّكاءةٌ للقلبِ المناهضِ، وأريكةٌ للعقلِ الذي لا ينقطعُ عن الحسابِ، وفراشُ الجسدِ الذي يحضنُ الجراحَ كأنها نُوّارُ البساتينِ.

وقالَ ليْ: الاتكاءةُ الضاحكةُ قد تصيرُ الاتكاءةَ الرابضةَ للمنازلةِ.[8]

---

[8] لم أرَ في الأساتذةِ أكثرَ حبّاً للاتكاءةِ والتفكُّهِ من العارفِ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي، السلطانِ الآسرِ، والمددِ العامرِ، بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائرِ. وكانَ جُلُّ مجاهداتِه في معونةِ الكادحاتِ اللاتي يجلسْنَ في بعضِ المشاغلِ اليدويّةِ علَى الحصائرِ يعملنَ في الحياكةِ، وهو يقولُ من كلام الحديقةِ الغدامسيّةِ الذي حققتُه وقرأتُه عليهِ: "الذينَ لا يحيكونَ خيطاً يُحَاكُ لهم الأمرُ، والذينَ يحيكونَ كلَّ خيطٍ يُسلبونَ أمرَهم". فجئتُه مرّةً وهو بينهُنّ أطلبُه للدرسِ. فسمعتُ جلجلةَ ضحكِه وأنا مازلتُ بالبابِ. ثم رأيتُه جالساً مُتّكِئاً علَى آلةٍ من الآلاتِ، ورجلُهُ ممدودةٌ يشدُّ الكتّانَ للحائكاتِ، ويحفظُ لهنّ بعضَ الخيوطِ، ويتكلّمُ معهنَّ بالطُرفةِ والنُّكتةِ المحتشِمةِ. فلمّا انتبهَ قالَ: تعالَ يا مُوسى شُدَّ إليكَ هذه القماشةَ تقطعُها أختُك فلانةٌ، واسمعْ هذهِ الطّرفةَ من أختِك علّانة فإنها صاحبةُ نكتةٍ وعبارةٍ وتلميحٍ. قلتُ: فإذا أنا توسّطْتُ الحائكاتِ أُعِينُهُنَّ وأضحكُ من حَكْيِهِنّ الساخرِ. قلتُ للعارفِ بالخلقِ: جئتُ أطلبُك للعلومِ فأوقَعْتَني في الحياكةِ والنِّكاتِ. قالَ: بعضُ علومِ المَلازِمِ والقراطيسِ باردٌ لا آنِيَّةَ لهُ ولا راهنيّةَ. فأمّا علومُ الشّغلِ والفكاهةِ الثاقبةِ فابنةُ وقتِها وسليلةُ حالِها. ولو أني جلستُ عندكم، وحُبِسْتُ عن هؤلاءِ من أهلِ الحياةِ والحرارةِ، لركدَ قلبي وأسِنَ عقلي عن المعارفِ الواجبةِ.

وقالَ لِيْ: الاتكاءةُ الضاحكةُ تحثُّ القلبَ علَى الفرحِ الذي ينبغي لمؤونةِ الجسدِ المناهضِ.

وقالَ لِيْ: الاتكاءةُ هيئةٌ تليقُ بالضاحكينَ لأن فيها معنَى المددِ، ومعنَى الرَّوَقَانِ الذي يحثُّ على النُّكتةِ.

وقالَ لِيْ: من يروقُ بالنكتةِ الكاشفةِ يروقُ بالمنازلةِ الحاسرةِ.

وقالَ لِيْ: الرائقونَ يروقونَ للنُّكَتِ فتَقْدُمُ عليهم طائعةً تطلبُ قلوبَهم قبلَ أفواهِهم.

وقالَ لِيْ: الرائقونَ في دارِ الفكاهةِ حالٌ من أحوالِ الغاضبينَ في أرضِ المنازلةِ.

وقالَ لِيْ: الرائقونَ يتهيّؤونَ للعلومِ فيَلْزَمُكَ أن تقصِدَهم بالفتوحاتِ والحثِّ والمبادرةِ.

وقالَ لِيْ: الرائقونَ يذوقونَ حلاوةَ العلومِ من شجرةِ الفكاهةِ فلا يملُّون المؤونةَ.

وقالَ لِيْ: الرائقونَ يمكنُ لهم أن يُرَوِّقُوا فمن هذا هم مشغولونَ عفواً بمؤونةِ الخلقِ من فكاهةِ القلوبِ.

وقالَ لِيْ: فكاهةُ القلوبِ لا تتهافتُ لأنّها مضمومةٌ بشغافِ العلومِ المكينةِ.

وقالَ لِيْ: فكاهةُ القلوبِ فاكهةٌ للخلفاءِ الذين ينبغي لهُم التزوّدُ.

وقالَ لِيْ: التزوّدُ فعلُ مناهضةٍ لأنّه إعلانُ نيّةٍ للخروجِ إلى الطريقِ.

وقالَ لِيْ: التزوّدُ ينبغي لكَ، فحينَ تصيرُ ضاحكاً تصيرُ كاملَ الزادِ.

وقالَ لِيْ: زادُ الضاحكِ يسدُّ الرمقَ لأنّه يقفُ بكَ علىَ مواطنِ الإزاءةِ، ومظانِّ التَضَادِّ، وتخومِ الغرابةِ الفادحةِ.

وقالَ لِيْ: مواطنُ الإزاءةِ كالعملِ والأصولِ، ومظانُّ التضادِّ كالمظلوميةِ والظالميةِ،

وتخومُ الغرابةِ كارتهانِ الناسِ قلوبَهم لمن سلبَهم الدرهَمَ، وغشَّهم في الأجرةِ، وحاكَ دونَهم الأمرَ.[9]

وقالَ لِيْ: زادُ الضاحكِ علومٌ في ثيابِ الرّياضةِ، وخلافةٌ في إهابِ البهجةِ، ومناوشةٌ في ثيابِ التسليمِ.

وقالَ لِيْ: المناوشةُ التي تأخذها على كاهلِ الضحكِ تُربِكُ من يحسَبونَ المناوشةَ ترهقُ كاهِلَك.

وقالَ لِيْ: كاهلُ الضحكِ ينوءُ عنكَ بثقلِ المناوشةِ المدجّجةِ بالعلومِ والفداءِ.

وقالَ لِيْ: كاهلُ الضحكِ ينافحُ وعثاءَ الطريقِ عن قوائمِ العرشِ الذي هو بآخرِ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: كاهلُ الضحكِ يحملُ مؤونةَ القوافلِ الماشيةِ تريدُ العلومَ المكينةَ والمعائشَ الكافيةَ لكَ وللخلقِ.

---

[9] قالتْ أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ، قدوةُ العاشقِ والمريدِ، في جبالِ ترهونةَ ووديانِ بني وليد: الوقوفُ على الإزاءةِ، والتضادِّ، والغرابةِ، اللاتي في نسقِ الأمورِ، وترتيبِ الأحوالِ، ونظامِ المعيشةِ، هو علامةُ العلومِ الصحيحةِ وختمُ المعارفِ الحقانيّةِ. قالتْ: فإنّ الإزاءةَ تسفرُ عن الرابطةِ – بالمقابلةِ، والتضادَ يُسفرُ عن التعلُّقِ – بالمدافعةِ، والغرابةَ تسفرُ عن الاتصالِ – باللامعقوليُةِ. قلتُ: عَنَتْ، رعَاها الله، أن المقابلةَ تربطُ العملَ بأصولِ المالِ في سياقِ الإزاءةِ التي تُسفرُ بهذا عن علومٍ مكينةٍ لا يصحُّ الفهمُ بدونِها، والمدافعةَ تُعلّقُ الفقرَ بالترفِ في سياقِ التضادِّ الذي يُسفرُ بهذا عن معارفَ غامرةٍ لا يكونُ وعيٌ بغيرِها، واللامعقوليّةَ تصلُ قلوبَ الناسِ بمن ارتهَنَ رزقَهم في سياقِ الغرابةِ التي تُسفِرُ عن كشوفاتٍ باهرةٍ لا يكونُ إدراكٌ بسواهَا.

وهذا كلُّه تتاخمُه الفكاهةُ المنحازةُ وتستشرفُهُ وتشيرُ إليهِ.

وقالَ لِيْ: كاهلُ الضحكِ يسندُ صدرَك وأنتَ تَتلقَّى العلومَ أو الرّصاصَ، سِيّانِ.

وقالَ لِيْ: الضّحكُ مناوشةٌ بالمسرّةِ لخاطرِ أن تقومَ المسرّةُ.

وقالَ لي: الضحكُ الذي يوجعُ سلطان المالِ أو الحكمِ أو العلومِ مسرّةٌ لمن نُهِبَ المالَ أو الحكمَ أو العلومَ.

وقالَ لِيْ: الضحكُ للسلطانِ حالُ الداخلينَ، والضحكُ عليهِ حال العاملينَ، والضحكُ منه حالُ العارفينَ.

وقالَ لِيْ: الضحكُ من السلطانِ ينالُ من وجاهةِ السّلطانِ عندَ الرعيّةِ، ويزيدُ من وجاهةِ الضاحكِ عندي.[10]

وقالَ لِيْ: الضاحكُ بالعلومِ المكينةِ يُضْرِمُ نارَ المعرفةِ في هشيمِ العالمِ وهو في هيئةِ الابتذالِ.

وقالَ لِيْ: هيئةُ الابتذالِ تمويهٌ عن فخامةِ الموقفِ من العالمِ.

وقالَ لِيْ: الضاحِكُ بالحقِّ يلهُو بجلالِ السلاطينِ، ويلغُو بشرائعِ العبيدِ، وينكّتُ

---

[10] أرادَ صاحبُ نكتةٍ أن يصاهرَ شيخاً من شيوخِنا في بُنَيَّةٍ له هَواها وهَوَتْهُ. فكَرِهَ الشيخُ منهُ ذلكَ خوفاً علَى هيبتِهِ من شهرةِ الفتى بالضحكِ والخفةِ. فتكدّرَ الفتى حولاً حتّى لم نَعُدْ نجدُ قهقهتَهُ ونكاتَهُ. فعَلِمَ الإمامُ الدريُّ بأمرِهِ فأدنىَ إليه الشيخَ وقالَ: يا أخي، أيُّ ضاحكٍ هوَ؟ فقالَ الشيخُ: يخلطُ الحقَّ ببعضِ الباطلِ وينزعُ هيبةَ الظالمينَ من قلوبِ المظلومينَ، غيرَ أنَّ فيهِ خفّةً لا أرضاها. قالَ الإمامُ: فإن خفّتَهُ غلبَها الكدرُ من حالِ شوقِهِ لابنتِكَ وصدّكَ إيّاهُ. فكلّمْهُ يجعلِ الحقَّ نُكْتَتَهُ الثاقبةَ، والفضحَ غايتَهُ المقصودةَ. فإنْ رأيتَ منهُ علامةَ قبولٍ فزَوِّجْهُ تَكُنْ هيبةُ ضَحِكِهِ بالحقِّ هيبةً جديدةً لكَ ولأحفادِكَ. ففعلَ الشيخُ.

بأحوالِ الخلقِ، ويروّحُ عن قلوبِ الكادحين.

وقالَ لِيْ: الضاحِكُ بالحقّ فعلُ فضحٍ يكشفُ عن أسبابِ المظالِمِ، وانعقادِ السُّلطانِ بالفسادِ، وارتهانِ الشرائعِ لأحوالِ المعائشِ التي فيها نبتتْ ومنها صَدَرَتْ.

وقالَ لِيْ: للضاحِكِ بالحقِ حضورٌ يجلسُ علَى عرشي فلا يكادُ يتحرّكُ لهُ العرشُ من خفَّتهِ ولطفِهِ.

وقالَ لِيْ: النكتةُ التي يُرْسِلُ في إثرِها السلطانُ، تعوذُ بقلوبِ المظلومينَ، فيتبدّدُ السلطانُ وهي عرشُها على شفاهِ المظلومينَ يتواترُ.

وقالَ لِيْ: النكتةُ التي تفضُّ زيفَ الناهبينَ الحاكرينَ ينفضُّ عنها الناهبونَ الحاكرونَ وينتسبُ إليها المناهضونَ المناوؤونَ.

وقالَ لِيْ: النكتةُ التي مقصدُها المناهضةُ، عِلمٌ من علومِ هذه المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: علومُ المناهضةِ تَتَّسِعُ للفكاهةِ لأنها فهمٌ يُفْهَمُ به.

وقالَ لِيْ: النكتةُ التي تقولُكَ تُسَمّيكَ حيثُ اسمُك سُلِبَ منكَ واسْتَلَّهُ الظالمونَ للنهبِ.

وقالَ لِيْ: النكّاتونَ يُكتَبُ كلامُهم في اللوحِ كأنّه منهُ وما هو منهُ، فإذا أتيتَ تقرأُ صرتَ تَضحكُ والناسُ يقولونَ درويشٌ يتلُو الألواحَ.

وقالَ لِيْ: الذي يضحكُ وهو يقرأُ اللوحَ يُعيدُ جمعَهُ في مصحفِ الفكاهةِ ثمّ يَبُثُّهُ مفرّقاً في صدورِ الثّقاةِ من المناهضينَ والمناهضاتِ.

وقالَ لِيْ: مصحفُ الفكاهةِ ينسخُ الكلامَ الذي يطمئنُّ به المترفونَ ويُحكِمُ آياتِ الكنزِ التي بدّدَها السدنةُ الحافظونَ.

وقالَ لِيْ: مصحفُ الفكاهةِ يَلْزَمُ القائمينَ من أهلِ الصُّفَّةِ يتربّصونَ بالخراجِ الذي سلبَهُ الحاكرونَ، ويرقبونَ بيتَ المالِ هل وُقِفَ علَى الناسِ أم نَهَبَهُ المستأثِرونَ.[11]

وقالَ لِيْ: القائمُ الذي يتربّصُ ويرقبُ ينبغي له أن يضحكَ حتّى لا يَهِنَ أو يتبدّدَ حزناً.

وقالَ لِيْ: أنا المُضحكُ ركّبْتُ الكونَ علَى مبدَأِ الفُكاهةِ، وأرسلتُ المعَاني علَى مجرَى المفارقةِ. وقدْ جعلتُ في كلِّ رابطةٍ نكتةً، وفي كلِّ عُقدةٍ مُلْحةً. إن فهمتَ نُكتي ومُلَحي فككتَ الروابطَ وحللتَ العُقد، حتى يَسْهُلَ الكونُ علَى قلبِكَ، وتصيرَ الخليفةَ الباسمَ.

وقالَ لِيْ: ما آخِرُ نِكَاتِكَ؟

[11] قالتْ العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ: اللوحُ عندَ أكثرِ الحُفاظِ شيءٌ خطيرٌ وهو عندَنا هَيّنٌ. قالتْ: هو كلامٌ ابْتُدِأَ بهِ الأمرُ كلّهُ، فيهِ شدائدُ ومعارفُ وأسرارٌ لا يسعُ قلبُ ابنِ آدمَ أن يجمعَها. فانتبهَ الحقُّ فأرسلَ في اللوحِ معنَى الرحمةِ وفي قلبِ ابنِ آدمَ معنَى الكدحِ. فاهتزَّ جلالُ اللوحِ وصارَ زاداً للخلقِ يتقوّتون به في أيامِ خلافتِهم. قلتُ أنا موسَى: فاللوحُ المحفوظُ من لَدُنِّ عملِ الإنسانِ المتصلِ باسمِ الرحمةِ الحسنِ. وهذا مقامٌ لو دخلنا فيهِ لانهدَّ حيلُ الكلامِ، وانقطعَ حبلُ المعاني، واتُّهِمْنا في كثيرٍ من أمرِنا، فلا أزيدُكَ.

إشارة غدامسيّة

وقالَ ليْ: الخفةُ واللطفُ لواءانِ من لَدُنّي، يَمشي تحتَهما الخلفاءُ ضاحكينَ، يَرمُونَ بالنِّكاتِ العموميّةِ في المقاماتِ المشاعيّةِ، وعلى وجوهِ العاملينَ المسرّةُ. فإذا الظالمونَ بلا هيبةٍ، والمحتكرونَ بلا وطأةٍ، والحاكمونَ بلا فخامةٍ. كلُّ نكتةٍ تكشفُ غطاءَ الباطل، وكلُّ طرفةٍ تَنْزِعُ زواقَ الزيفِ، وكلُّ قهقهةٍ تهزُّ عرشَ المالِ. فافتحْ للفكاهةِ سبيلَ الضحكِ على أحوالِك، والعُجْبِ من أضدادِك وإزاءاتِك. حتى يتسعَ ما بينَ حديدِ الحبسِ. ثم تعرفُ نفسَك بنصلِ النكتةِ، وتضيءُ مقامَك بزيتِ السخريةِ، وتَتّقِدُ علَى مِحَكِّ الابتسامةِ العارفةِ. واقصُدْ مظانَّ الفكاهةِ، وظُنَّ بها خيراً، واسندْ قلبَها الباسمَ بفهمٍ غيرِ جهمٍ، وأوثقْ أطرافَ الطرافةِ بالمعاني المنحازةِ، وفَكّكْ خيوطَ الكلامِ، وانقضْ نسيجَ الحكيِ المسبوكِ. ثم استندْ على جهةِ الضحكِ، واتّكئْ علَى الاختلافِ الذي جعلوهُ في نظامِ الأشياءِ، والتضادِّ الذي أقاموا عليهِ الأمورَ، والغرابةِ التي نَتَجَتْ كاللبنِ من ضرعِ السنبلةِ! حتى إذا ناءَ بالضحكِ كاهلُ الضحكِ، انفرطَ عِقْدُ الظلمِ عن عنقِ المظلومينَ، وذهبتْ نكاتُهم إلى آخرِ العلمِ، ودخلتْ إلى أفقِ الفعلِ، وصارتْ بفمكِ الساخرِ فتحاً، وبلسانِك الفاكهِ فرحاً وطمأنينةً للكادحينَ.

19. موسمُ الدارِ والعيالِ

(وهو الصداقةُ المطمئنّةُ)

ومن أحوالِه الفضاءُ والحَجَرُ ووحشةُ العالمِ وشهقةُ الحبِّ وسديمُ التكوينِ والمعمارُ والحبسُ والذكرُ والأنثَى واتساعُ الهويّةِ والطمأنينةُ وأريكةُ الإباحةِ

وفيه طابَ ليَ المقامُ وحلَى الزّمانُ، فكأنَّ وقتيَ الإصباحُ ومنازلي مرابعُ التيسيرِ. وكانَ جَهدي في الزّرعِ عظيماً، وقد صَحِبَتْني الشمسُ والريحُ، وأصابَني الحرُّ والبردُ. وكنتُ أعوذُ بظلِّ الشجرِ حيناً، ويَعُزُّ عليَّ حيناً. فرأيتُ أن أتَّخِذَ لي دارَ خيرٍ، وظلَّ هناءٍ، حَسَنَةَ الهيئةِ، طيِّبَةَ البِنْيَةِ، موزونَةَ الضَوْءِ، مُعتدلَةَ الهواءِ. نوافذُها عناقُ المستورِ للمنثورِ، وأبوابُها لقاءُ السرِّ بالجهرِ، وأروقتُها مساربُ الأبدانِ والأرواحِ. رسمتُ أفنيتَها قبلَ حوائطِها، وخططتُ فضاءَها قبلَ أسوارِها. وجعلتُها من صُلبِ الأرضِ التي هي علَيها، وعادلتُها علَى ميزانِ شمسِها، وسوَّيتُها على قَدْرِ رِيْحِها. وآلفتُها للزرعِ التي هي منهُ، فلم أَعْدُ علَى شَجَرةٍ أخذتْ زينتَها، ولا نبتةٍ أخرجتْ نُوّارَهَا. وكشفتُ وسطَها لأفلاكِ السّماءِ، وأجريتُ فيها الماءَ سواقيَ خيرٍ. فكأنَّها زرعٌ جديدٌ ثمارُه الظلُّ والدِّعةُ، وأطيابُه اللهوُ والراحةُ، وعُروقهُ السِّلمُ والأمانُ. فلمّا أقمتُها قعدتُ فيها. فَنَظَمْتُ فضاءَها بين مبذولٍ وممنوعٍ، وجعلتُ لي فيها سرّاً لا يُجْهَرُ بهِ لأحدٍ، وجَهراً لا يُسَرُّ بهِ عن أحدٍ. وكان في أمنِها سَمَري، وفي ظلّها خَمْري، وفي سترِها عَبَثي واضْطِرابي.

وفي ليلِها توسّدتُ فاطِمَتي، واتّقدَتْ كَرْزَتَايَ ودَالِيَتي، واتّسعَتْ حقولُ القمحِ وتكدَّستْ بيادرُ الولَهِ، ودخلَ رائدُ الحبِّ ديارَ الوطنِ. فانبثقتْ أجيالٌ من الرّحِمِ المَسْقِيّ بماءِ الرجولةِ، ودبّتْ أقدامٌ ضئيلةُ الوقعِ، وقامتْ ضحكاتٌ وهدهداتٌ ودهشةٌ آسرةٌ. وأحاطَ بي الولدُ والبنتُ، إرثاً من لَدُنِّ الحبِّ، وأبوّةٌ رَحْبَةٌ وأمومةٌ غامرةٌ. وصرتُ أُسمّيهم بأسماءَ أشتَهي نداءَها، وأهذرُ معهُم وألهو، كأنَّ الوقتَ لا ساحلَ له يَنتهي إليهِ، وكأنّ الدّنيا حارثٌ وحسنٌ وسمرقندُ وضوءٌ. فصارتِ الدارُ

بستاناً من عندِ محبّتِنا، وملاذاً قائماً من طينِ الشّغَفِ، وأمناً غافياً وأُنساً كثيراً.

وفي ضُحاها جاءَ الصاحبُ الصدوقُ، تسبقهُ إليّ عيونُ الشوقِ، وبقلبي فجرُ لهفةٍ فاتنةٍ. وصارَ يسألُ عني وعن حاجاتي، ويسمعُ لَغْوي وحِكاياتي، ويَهْذُرُ بي وبأشيائِي. وأعانَني على همِّ الليلِ وكدحِ النهاراتِ، وشربَ لخاطري خمرَ الدالياتِ، وأومأَ إليّ بالحبِّ، وأجهزَ علَى قلبي بشغفٍ باهرٍ. فازدانتْ به الدّنيا، واشتعلتْ حقولُ الفرحِ، وأضاءتِ الروحُ، وتَضَوّعَ نُوّارُ المكانِ.

وفي عشيَّتِها أبحتُ أبوابَها للزائرينَ. وجلستُ إليهِمُ فقمتُ عليهِم بالخيرِ والزادِ، وتكلمتُ فيهِم بالسؤالِ عنِ الصحّةِ والحالِ. وعرفوا منزلِي ومنزِلَتي، وداري ومدَاري، بيتاً طيّباً يَخرجُ معناهُ بإذنِ رَبّهِ فرَحاً ومسرَّةً. رَبِّ اجْعلْ هَذي داراً آمِنةً وارْزُقْ أهلَها الدّعةَ والسّعةَ، وبحبوحةً من حالٍ لا يستحيلُ. فصارتْ لي عُقْبَى الدَّارِ الأولَى والآخِرةِ كرامةً وجائزةً للزارعينَ الساكنينَ.

فبينما أنا بفنائِها ألهُو استأذنَ عليَّ، فأصلحتُ من شأني وأذِنتُ لهُ. فدخلَ فلما صارَ في صحنِ الدارِ قالَ لي:

دارُكَ مَوئِلُ العاملينَ، وظلُّ قائلةِ المُتعبينَ، وروضةُ الأولياءِ الكادحينَ.

وقالَ ليْ: منْ دخلَ دارَكَ فهُو آمنٌ، ومن دخلَ مضجعَك فهو آسِرٌ، ومن دخلَ فؤادَك فهو وليٌّ حبيبٌ.

وقالَ ليْ: الدارُ التي لا يَجري إليها ملهوفٌ، ولا يستجيرُ بها متعبٌ، ولا يرجو

خيرَها جائعٌ، لا تصحُّ للخلفاءِ العاملينَ.[1]

وقالَ لِيْ: ديارُ العاملينَ منوطٌ بها فرحُ العاملينَ.

وقالَ لِيْ: ديارُ العاملينَ من مادّةِ قلوبِهم ثم أيديهم فلهذا ينبغي لها فرحُ العاملينَ.

وقالَ لِيْ: ديارُ العاملينَ أسماؤُهم الحسنةُ في مُقام العِمارةِ.

وقالَ لِيْ: مقامُ العِمَارةِ يحثُّ أسماءَكَ الحسنةَ أن تتهيّأَ في الحجرِ.[2]

وقالَ لِيْ: مقامُ العمارةِ غوايةُ الحجرِ لكَ بالعملِ ثم الكسلِ ثم الاطمئنانِ كي لا

---

[1] أتيتُ شَيخي الحسنَ بنَ الغريبِ الواحديّ للزيارةِ والسؤالِ عنِ الحالِ فإذا هو سكنَ داراً طيبةً ببلدةِ تاورغاءَ جعلَ سورَها من شجرٍ متداخلٍ لا حجرَ فيهِ، ثمَّ جعلَ علَى خارجِ السورِ سقيفةً من عنبٍ تُظِلُّ العابرينَ، وأقامَ لهم ماءً جارياً يشربونَ منهُ وموضعَ جلوسٍ في آخرِ جهةِ البناءِ. فبينما أنا واقفٌ علَى بابِ دارِهِ أستأذنُ رأيتُ عيّلًا يشربُ من الماءِ، وعجوزاً تستريح من المشيِ، وعمالاً يسيرونَ في ظلِّ السُّورِ الأخضرِ يتنفَّسونَ هواءً لمْ تلفحْهُ شمسُ الظهرِ. فقلتُ: عجباً لكَ يا شيخي، تجلسُ في دارِكَ مطمئنّاً وهيَ تكدَحُ لكَ عندَ ربّكَ بالخيرِ والحسناتِ الكثيرةِ. قالَ: ياموسى، هذا كدحي لوجهِ الخلقِ الذين هم أهلُ هذي الأرضِ، وهو حقُّ الناسِ علينا في الظلِّ والماءِ والطريق، فلا نمنعُهم عنه وإلا صِرنا من المانعينَ الذين لا يحبّهم الله.

[2] أقعدتْ علةٌ غيرُ ذاتِ بأسٍ تلميذاً عن الخروجِ إلى الدرسِ. فمشَى إليهِ الإمامُ أحمدُ يعودُه. فإذا دارُ التلميذِ كئيبةٌ ألوانُها، مغلقةٌ نوافذُها، مظلمةٌ لا تكادُ تَبينُ عن فرحٍ. فقامَ الإمامُ ففتحَ شبابيكَها، وأشرعَ أبوابَها. ثمَّ كلَّمَنا فزوَّقْنا جدرانَ الدارِ في يومينِ ووضعنا فيها أزهاراً ونباتاً ورسوماتٍ بهيجةً وجعلنا في وسطِها مُشَغِّلَةَ موسيقَى وأغانٍ. فكأنَّ التلميذَ تنفّسَ هواءً جديداً فقامَ في نهارٍ واحدٍ لا يجدُ من علّتِهِ شيئاً. قالَ الإمامُ: هذا من فعلِ الدارِ الطيبةِ والبهجةِ الآمنةِ واللهوِ الحسنِ.

يتبدّدَ جسدُك وأنتَ في الطريقِ إليّ.

وقالَ ليْ: معمارُ الدارِ قلبُها الذي ينبثقُ منه معناها ويؤولُ إليهِ نفعُها لكَ.

وقالَ ليْ: معمارُ الدارِ يشيرُ إليكَ من جهةِ علومِك كما يشيرُ إلى الدارِ من جهةِ الحجرِ والرملِ.

وقالَ ليْ: معمارُ الدارِ علومُك في هيئةِ الحجرِ.

وقالَ ليْ: كلُّ حجرٍ تقومُ به دارُك حجرُ رشيدِ العلومِ التي أقمتَ بها هذي الدارَ.

وقالَ ليْ: ديارُ بعضِ الناسِ من حجرٍ لا قلبَ لهُ، ودارُك من قلبٍ تهيّأَ في الحجر.

وقالَ ليْ: معمارُ دارِك من مادةِ الأرضِ ثم من وشيجةٍ بين الأرضِ والفضاءِ.

وقالَ ليْ: الفضاءُ اتساعٌ لجسدِ الأرضِ.

وقالَ ليْ: الأفنيةُ والأروقةُ والمساربُ فضاءُ الدارِ الذي يأخذُك بالعِتْقِ، ويَضُمُّكَ بالفرحِ، ويطلقُك في سياقِ الامكانِ.

وقالَ ليْ: فضاءُ الدارِ يَصِلُ حجرَ الدارِ بكَ ثمّ بالزرعِ الذي يَلي هذه الدارَ.

وقالَ ليْ: الدارُ التي تَلي الزرعَ ويَليها زرعٌ مستأنفٌ.

وقالَ ليْ: إن أرهقتْ دارُك زرعَكَ أرهقتْ معنىً من معَاني الإنسانيّةِ الشاملةِ.[3]

---

[3] قال تاجُ السرّ عليُّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: هو معنَى الميزانِ وهو من أصولِ المعاني الكونيّةِ وأشرفِها موضِعاً. وفي مقامِهِ لا يطغَى شيءٌ علَى شيءٍ في الكون، ولا يُنقِصُ شيءٌ من مقدارِ شيءٍ، حتّى ترَى الميزانَ مستوياً يقومُ بهِ كلُّ شيءٍ. وقالَ الصدّيقُ وليُّ القلوبِ: بل هو معنَى الائتلافِ والمشاركةِ التي تكونُ بين الإنسانِ والعالمِ، ومنهُ شِرْكَتُهُ في الدارِ للحيوانِ والنباتِ وغيرِه حتّى يقومَ الحبُّ بينهمُ جميعاً. قلتُ أنا موسَى: ولعلَّ "الميزانَ" و "الائتلافَ والمشاركةَ" معنىً واحدٌ في هيئتينِ مختلفتينِ.

وقالَ لِيْ: إن غُلِبَ زرعُك غُلِبْتَ، وإنْ أقمتَ ألفَ دارٍ غالبَةٍ.
وقالَ لِيْ: الدارُ الغالبةُ على وجهِ التحقيقِ بأسُها من بأسِ الزرعِ لا إزاءَه.
وقالَ لِيْ: دارُ الزرعِ هي الدارُ الأولَى والدارُ الآخرةُ لأنها تحضرُ معك أوّلَ الحرثِ ثمّ آخرَ الغلالِ.
وقالَ لِيْ: آخرُ الغلالِ هو أوّلُ الحرثِ معجوناً برائحةِ الوقتِ.
وقالَ لِيْ: وقتُ الدارِ استثناءٌ مطمئنٌّ على الوقتِ الذي يستعجلُك وأنتَ خارجَ الدارِ.
وقالَ لِيْ: الذي يَجهَدون خارجَ الدارِ ينبغي لهم أن يسكنُوا إلى اسمِ الدارِ.
وقالَ لِيْ: اسمُ الدارِ سكينةٌ.
وقالَ لِيْ: كيفَ يسكنُ من لا دارَ لهُ، ولا فراشَ يطمئنُّ فيه، ولا أرائكَ يسندُ عليها عبيرَ العرقِ الذي غمرَهُ في برانيّةِ العالمِ؟
وقالَ لِيْ: من لا دارَ له يحلفُ السّدَنةُ الحافظون أنّ لهُ الغيبَ، ودارُه علَى مرمَى ثورةٍ منهُ.
وقالَ لِيْ: من لا دارَ له تَلزمُه الديارُ القريبةُ لأنّ وجعَ العالمِ في هذا الوقتِ.
وقالَ لِيْ: الديارُ القريبةُ البيتُ الذي يجبُ للإنسانِ وهو علَى الطريقِ.
وقالَ لِيْ: البيتُ إشارةٌ للمضجعِ الذي تدخلُ إليه تُضمّدُ جراحَك، ثم تخرجُ عنهُ تضمّدُ جراحَ العالمِ.
وقالَ لِيْ: البيتُ الذي تقيمُه علَى الطريقِ يصيرُ من عتادِ الطريقِ فالذي لا بيتَ له لا عتادَ لهُ.
وقالَ لِيْ: الذي بيتُه على الطريقِ يطمئنُّ ويمشي، والذي بيتُه قارعةُ الطريقِ يَشِيهُ

وينعقدُ عن المشيِ.

وقالَ لِيْ: الذي بيتُه قارعةُ الطريقِ يَنبغي لهُ الطريقُ إلَى آخرِه.[4]

---

[4] كنتُ مع صاحبٍ لي في حاضرةٍ من حواضرِ الاستئثارِ العالميّ والنهبِ والتراكمِ، أدرسُ الفلسفةَ. ففي ليلةِ الميلادِ المجيدةِ رأينا مشرّداً ينتفضُ من البردِ علَى مقعدٍ مجاورٍ لمعبدٍ من المعابدِ الباذخةِ. فبينما نحنُ نُسَلِّمُ عليهِ، جاءَ خادمٌ من خُدّامِ المعبدِ المبجّلينَ بالألقابِ المعتبرةِ فدخلَ به إلى دفءِ المكانِ يُطعِمُه، وربما أعطاهُ مبيتاً لليلتِه وهو يتودّدُ إليهِ بالكلامِ.

قلتُ لصاحبي: هذا حسنٌ. فقالَ: بل شَيْنٌ. قلتُ: لمَ يا سبحانَ اللهِ؟ قالَ: المشرّدونَ من أهلِ هذا البلدِ، فلهُم فيهِ من أصولِه وحاصلِه ما للساكنينَ. وجُلُّ المشرّدينَ من أصحابِ الأمراضِ العقليّةِ، أو العللِ النفسيّةِ الخفيّةِ والظاهرةِ. وكثيرٌ منهم مُعَنَّفٌ، أو مضطهدٌ، أو مسلوبُ الطفولةِ، أو محرومُ العائلةِ، مما لا يتوجّعُ به أغلبُ الناسِ. قالَ: فتزعمُ هذه المعابدُ أنها ترعاهُم، فيُستثنونَ من الضرائبِ وهي كثيرةٌ، ويأخذونَ المنحَ الحكوميّةَ وهي سخيّةٌ، ويَكرعون التبرعاتِ العموميةَ بما يُغنيهم غنًى فاحشاً. فيجعلونَ من ذلك البناءاتِ الفخمةَ والمعابدَ الشهيرةَ، ثم تصيرُ لهمُ السطوةُ الروحيّةُ والسياسيّةُ الحاصلةُ عن المالِ ضرورةً. قالَ: فهذه الثرواتُ التي يَلقُمونها ويُراكمونها هي للناسِ أولاً، فيصحُّ أن تُجْعَلَ لهم بالمباشرةِ يعالجون بها أمراضَهم، ويُصلحونَ أحوالَهم، ويُعينون ضعيفَهم، من غيرِ واسطةِ المعابدِ الدينيّةِ والهيئاتِ الروحيّةِ. ومن غريبِ الأمرِ أن مصلحةَ هذه الهيئاتِ هي في ازديادِ المشرّدينَ لا في انحسارِهم، لأنهم مصدرٌ من مصادرِ ثرواتِها وامتيازاتِها الضريبيّةِ والأخلاقيةِ. قلتُ: هذا نسقٌ عجيبٌ للاستئثارِ وترتيبٌ لسوقِ القيمِ وانتظامٌ للهيمنةِ الروحيّةِ لم نقرأْهُ في دروسِ الفلسفةِ.

قالَ صاحبي: لأنّ من تقرأُ لهم وتُجِلُّهُم متواطؤونَ مع أهلِ المراكمةِ لا معَ أهلِ البلدِ، فتَحَشّمْ يا موسَى!

وقالَ ليْ: الذي بيتُه قارعةُ الطريقِ من أهلِ الصُفَّةِ الذين تَجِبُ لهم السّقيفةُ.

وقالَ ليْ: الذي بيتُه قارعةُ الطريقِ ينبغي له بيتُ المالِ.

وقالَ ليْ: بيتُ المالِ إضافةٌ مبتورةٌ تنفعُ الحاكرينَ.[5]

وقالَ ليْ: ديارُ الحاكرينَ حيازةٌ عن العاملينَ الذين نُهِبوا ديارَهم وغلالَهم علَى الملأِ.

وقالَ ليْ: ديارُ الحاكرينَ إذنٌ لك بما تكرهُ.[6]

وقالَ ليْ: ما تكرهُ هو شغفٌ تتحشَّمُ منهُ.

وقالَ ليْ: ما تكرهُ يُطلِعُ ما تحبُّ.

وقالَ ليْ: شغفُك بخرابِ ديارِ الحُكْرَةِ هُيامٌ بعمرانِ الديارِ الجامعةِ للخلقِ.

وقالَ ليْ: الديارُ الجامعةُ محفوظةٌ عن معنَى السّلبِ والحيازةِ والحبسِ فيصحُّ لي أن أستاذنَ عليكَ فيها.

وقالَ ليْ: الديارُ الجامعةُ لا يُحبسُ بها ذكرٌ أو أنثَى، ولا يُغَلُّ ابنُ آدمَ، ولا يُحجبُ قلبٌ.

---

[5] قلتُ: عنَى عبدُ الرحمنِ الغدامسيُّ بيتَ مالِ الناسِ. وهو أوردَهُ بهذهِ العبارةِ الكاملةِ والإضافةِ الصحيحةِ في نصٍّ آخرَ من النصوصِ الرحمانيّةِ، لا يتعلّقُ بالحديقةِ، خطّهُ الشيخُ في مراكشَ عامَ 1882م، وصلتنا منه أوراقٌ كُتِبَ في أوّلِها وبرسمٍ كبيرٍ "ميزانُ السوقِ فيما بين السّلعِ من فروقٍ". قلتُ: فإن شاءَ اللهُ نحقّقُ هذا الكلامَ المرّاكشيَّ وآخرَ كثيراً من النصوصِ الرحمانيّةِ في الوقتِ والمكانِ الذي يُقَدِّرُهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالَى.

[6] إشارةٌ إلى الكلامِ المعروفِ حيثُ نزلَ الإذنُ الأوّلُ في حسبةِ هذا الكلامِ نفسِه، فأمّا الإذنُ الأوّلُ على وجهِ التحقيقِ فحصلَ عفواً عندَ حصولِ أوّلِ الظلمِ في العالمِ.

وقالَ ليْ: الدارُ التي تحبسُ فيها ذكراً أو أنثَى، تحوّلتْ عن معنَى الدارِ إلى معنى الحبسِ.
وقالَ ليْ: ديارُ الحبسِ تتوجّعُ بالمحبوسين حتى يصير وجعُها مناشدةً لربّانيتي.[7]
وقالَ ليْ: ديارُ الحبسِ لا تصحُّ للخلفاءِ الكادحينَ الذين تخرجُ الأرضُ عن حبسِها لأجلِ عملِ أيديهِم، وتنبثقُ البذرةُ من قيدِها حبّاً وكرامةً لهم.
وقالَ ليْ: ديارُ الحبسِ ديارٌ موتورةٌ ليسَ بيني وبينَها صلةٌ.[8]
وقالَ ليْ: ديارُ الحبس خذلانٌ لمعنَى حريتكَ، لأنّ حُريتَك لا ذَكَرَ فيها ولا أنثَى.
وقالَ ليْ: الذي يُذَكِّرُ الحريّةَ يسلبُها رَحِمَ الانعتاقِ.

---

[7] كانَ شيخٌ من أهلِ النصوصِ لهُ هيبةٌ ولباسٌ فخمٌ يسكنُ داراً كبيرةً تحدُّ دارَ جماعتِنا من جهةِ الجنوبِ. فكنَّا نرَى من فناءِ دارِنا خيالَ بُنَيَّةٍ لهُ خلفَ شُبَّاكِ حجرتِها لا تكادُ تحيدُ عن مكانِها ليلاً نهاراً. فعرفنا أنّها محبوسةٌ عنِ الحياةِ، وهو كثيرٌ في البلدانِ المحكومةِ بالشرائعِ والنصوصِ. فكلّمَ إمامي بعضَ التلميذاتِ فدخلنَ عليها وخفَّفْنَ عنها حبسَها وأخرجْنَها إلينا بداعي الصلاةِ، فحضرتْ معنا دروسَ العلمِ وبعضَ الفرحِ. قالَ إمامي: فهذهِ تأتي شاهدةً علَى من حبسَها يومَ لا ذَكَرَ يحكمُ والأنثَى شهادَتُها بألفِ ألفِ رجلٍ مما يعدُّونَ.

[8] قلتُ أنا موسى: "الموتورُ" الذي لا يتّصلُ بالخلقِ فلا سبيلَ لأن يتّصلَ بالخالقِ. فمن جعلَ دارَه محبساً انقطعَ حبلُه عن الناسِ فوُتِرَ عن خالقِ الناسِ. قلتُ: ومن هذا صحَّ أن الصلاةَ والعبادةَ المؤدَّاةَ في دارِ الحبسِ لا تصلُ لوقوعِها في مقامِ الموتورِ. قالَ شارةُ الولاءِ الطاهرُ بنُ الرّضا: عيْن الحقّ! ومنَ الدورِ الموتورةِ ما يرتفعُ فيها الأذانُ العموميُّ مرّاتٍ في اليومِ الواحدِ ثمَّ لا تجدُ فيها مُدخلاً لأنثى يقولُ الذكورُ "أنتِ سُنّةٌ ونحنُ فرضٌ"، كأنَّ الإنسان ليس واحداً وهو واللهُ واحدٌ وإن شُبّهَتْ لهمُ التثنيةُ.

وقالَ ليْ: الذي يُذَكِّرِكَ يَبْتَسِرُ معناكَ، ويحبسُ جهاتِك، ويَغُلُّ أسماءَك حتى تصيرَ غُفلاً عن إنسانيّتِك.

وقالَ ليْ: الذي يُذَكِّرُكَ يَسْلِبُني منكَ لأنني لا أسكنُ الذكورةَ.

وقالَ ليْ: الذي يُذَكِّرُكَ يأخذُك من أفقِ الإنسانِ إلى حيازةِ الوقتِ.

وقالَ لي: الذي يُذَكِّرُكَ يَفصلُك عن اللّدُنِّ الذي جعلتُك منهُ روحاً واحدةً.

وقالَ ليْ: اللَّدُنُّ الذي انبثقتَ عنهُ أوّل الأمرِ هو الدارُ الجامعةُ لكَ ذكراً وأنثَى.

وقالَ ليْ: اللّدُنُّ الأوّلُ دارِي، فحينَ وقفتَ علَى العتبةِ الخارجةِ منها إلى العالمِ صرتَ في أوّلِ الطريقِ.

وقالَ ليْ: من وقفَ بعتبةِ داري علَّقتُ عينيّ عليهِ حتّى يَدخُل عليَّ أو يخرجَ عنّي إلى العالمِ.[9]

---

[9] واعدَ الأستاذُ بَابِكِرِ بنُ الفاتحِ النّوبي أحداً من برِّ النيلِ أن يحضرَ درساً من دروسِنا، ثمّ قالَ للجماعةِ: يدخلُ عليكُم الآنَ رجلٌ من الذينَ يدفعُ اللهُ عن الأرضِ بهم، ويَنزلُ الغيثُ لخاطرِهم. فاهتزّ القومُ وتَطلّعوا فإذا رجلٌ عاميُّ الهيئةِ لا هيبةَ له ولا علامةً من علمٍ أو نحوِه، فسلّمَ وسمعَ الدرسَ ثم خرجَ. قالَ الأستاذُ: إنّهُ لا يفهمُ كثيراً من كلامنا، ولكنّه يأخذُ من لقمتِه ومن مَلبسِ ضناهُ فيمرُّ بعيالِ الطرقاتِ فيَكسيهم، ويُطعمهم ليومِهم، ويُعلُّمُهم الحروفَ والعدد، وقد يأخذُ أحَداً منهم لبعضِ الورشِ والصنائعِ ليتعلموا أكلَ العيشِ. فمِن هذا أحبّهُ اللهُ وتعلّقتْ عينُه به، وصارَ له عندَ اللهِ خاطرٌ.

قلتُ: فأصحابُ الغوثِ هم أفذاذٌ من عامةِ الخلقِ، واقفونَ على عتباتِ الربانيةِ، وجودُهم بركةٌ مستترةٌ، وحضورُهم مددٌ خفيٌّ، وأثرُهم في الكونِ جليٌّ. يُغيثونك بالمحبّةِ التي تَشملُك، وبالإنسانيّةِ التي تَضُمُّكَ، وبالجمالِ الذي يُظهِرونَه من جُوّانِيَّتِهم حتّى يُصبحَ جُوّانيتَك أنتَ.

وقالَ لِيْ: عتبةُ داري يصحُّ لكَ أن تقفَ بها، أو تمشي منها، أو تجلسَ في ركنِها الذي أطلعَ النوّارَ وصارَ غوايةَ العشيّةِ المطمئنّةِ.

وقالَ لِيْ: من وقفَ ببابي وقفتُ ببابِه فيدخلُ عليّ بإنسانيّتِه وأدخلُ عليه بربّانيّتِي.

وقالَ لِيْ: الدخولُ بالإنسانيةِ تنبيهٌ للربانيةِ.

وقالَ لِيْ: من طرقَ بابَ دارِ الربانيةِ صارَ في اقتضاءِ الدارِ، وصارتِ الدارُ في مقتضاهُ.

وقالَ لِيْ: ما تقتضيهِ داري هو ما يلزمُ عنها، وما تقتضيهِ أنتَ هو ما يَترتَّبُ عنكَ.

وقالَ لِيْ: لو عرفتَ[10] مايلزمُ عن ربانيتي لما جُعْتَ ولا عَرَيْتَ ولا بردتَ.

وقالَ لِيْ: ما يلزمُ عن ربانيّتي نجاتُكَ.

وقالَ لِيْ: ما يلزمُ عن إنسَانِيَّتِكَ نجاتي.

وقالَ لِيْ: دارُك موطنُ هجرةٍ في حجابِ الوطنِ.

وقالَ لِيْ: دارُك راحلةٌ لا حاديَ لها، ومَطيّةٌ مُوَشّاةٌ بالكسلِ، وقوافلُ تكادُ أن تقصدَ جهاتِ الأرضِ فإذا بها عندَ جهتِك أنتَ.

وقالَ لِيْ: جهتُك وأنتَ في دارِك متاخمةٌ للسفرِ لأنّ معنَى السفرِ فيكَ لا فيهَا.

وقالَ لِيْ: أنتَ السفرُ الذي يقضُّ مضجعَ العالِمِ.

وقالَ لِيْ: المضجعُ الذي تركنُ إليهِ وأنتَ تكدحُ في الأرضِ محَلُّ طُمأنينةٍ مستحقّةٍ.

---

[10] قرأتُها وقرأَها القومُ بالفتحِ غيرَ أني سمعتُ مولايَ الحسنَ بنَ عبدِ الملكِ الحضرميّ يُسِرُّ بها بالضمِّ، فلم أقدرْ علَى هذا لشدَّتِه وجلالِه، وأثبَتُّها ها هنا بالفتحِ المبينِ. وهذا كثيرٌ في الحديقةِ الغدامسيّةِ لايراهُ غيرُ المتمهلِ الحاذقِ بمناهجِ القومِ في الكلامِ والإشاراتِ والعلاماتِ.

وقالَ ليْ: المضجعُ سياقُ الحلمِ.[11]

وقالَ ليْ: المضجعُ يقظةُ الطمأنينةِ.

وقالَ ليْ: الزوجةُ والعيالُ شركاؤُك في الحبّ والوطنِ والطمأنينةِ.

وقالَ ليْ: الأسرةُ أسرٌ من جهةِ المسافةِ، وإطلاقٌ من جهةِ الطمأنينةِ.

وقالَ ليْ: الأسرةُ سرٌّ من أسرارِ الربانيةِ بمُقتضى التقابلِ.

وقالَ ليْ: الأسرةُ استنهاضٌ لهمةِ الكدحِ، وشهودٌ على الرزقِ، وغلبةٌ في مقامِ الأمانةِ.

وقالَ ليْ: الأسرةُ دارُك في حالِ الإفرادِ، والناسُ جميعاً دارُك في حالِ الجمعِ.

وقالَ ليْ: زوجتُك وعيالُك تنبيهٌ لك بالغيرِ الذي أنتَ هو وهو أنتَ، فمِن هذا

---

[11] كان شَيخي المهمومُ بالخلقِ، المسكونُ بالعالمِ، الحارثُ بن الصادقِ المتوقّدِ، شيخُ الرؤَى والبشائرِ، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر، لا ينامُ إلا الساعةَ والساعتينِ في المرّةِ الواحدةِ من اليومِ والليلِ يجعلُها في الضُّحى والعَشِيّ وأوّلِ السَّحرِ. وكنتُ أدرسُ عندهُ بعضَ الكلامِ الشديدِ فيقولُ: اسمحْ لي. فيتّكِئُ على الحصيرةِ كأنّهُ يتأمّلُ ثم يَسْبُلُ عينيهِ ويغفُو. فسألتهُ عن هذا الحالِ الذي هو فيه فقالَ: لما كنتُ فتىً صغيراً أعنتُ والدي علَى فلحِ الأرضِ وبيعِ الغلّةِ في الدّكانِ الذي كانَ لنا. فبعدَ حينٍ من الجهدِ أتوسّدُ كَوْزَ رملٍ في البستانِ، أو سلّةَ برتقالٍ في الدكانِ، وتأخذُني سِنَةٌ وأنا على حالٍ من الفكرِ والخيالِ. فتحضرُ إليّ أحلامٌ وتجلّياتٌ أحبُّها وتحبُّني، فينشطُ قلبي للدروسِ وبدني للعملِ ويتّسعُ أفقُ انعقادي بالعالمِ. فصرتُ من ذلك العهدِ أُنْقِصُ من أطرافِ نومِ الليلِ وأزيدُ في غفوةِ النهارِ حتّى وصلتُ إلى هذا الحالِ الذي تراني عليه. قلتُ: وهذا يصلحُ لمن هم علَى أطرافِ المعاني وحوافّ الأسماءِ يمشونَ بين آناءِ المعيشةِ وحدودِ التخييلِ. أما غالبُ الناسِ فنومُ الليلِ تاماً ينفعُ لهم وينبغي بالصحّةِ والوجوبِ.

هُوُيَّتُك الجامعةُ.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ والعيالُ سقايةٌ لشجرةِ الربانيةِ في قلبكَ، وتهذيبٌ لنَبْتِ الفردانيةِ.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ استقصاءٌ لتخومِ الشِرْكةِ في اسمِك واسمِها.[12]

وقالَ لِيْ: الزوجةُ عبورٌ بكَ إلى سديمِ التكوينِ.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ خصوبةُ القلبِ في مقامِ الجسدِ.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ رفقةٌ يتحدّدُ طريقُها ببوصلةِ المحبةِ والحلمِ والعملِ.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ اتّساعٌ لهويّتِك وعبورٌ بك إلى تخمِ الجماعيةِ.

---

[12] كانَ الأستاذُ ساسي بن نايل يقولُ: إن المشاركةَ التي تكونُ بين الزوجِ والزوجةِ هي من المقاماتِ الواسعةِ التي تنشأُ عن سياقِ الحياةِ في يوميّتِها العابرةِ، وعُموميّتِها الغامرةِ، على السواءِ. فأما يوميةُ المشاركةِ فتكونُ في تفاصيلِ الجسدِ وأحوالِ الروحِ وتشوّقاتِ العقلِ. وأما عُموميُةُ المشاركةِ فتنبثقُ من التقاءِ اسميهِما علَى تخومِ المعنَى الإنسانيّ الذي حَضَراهُ من جهةِ الآدميةِ والحوائيةِ. ولهذا فإنّ المحبّةَ والرفقةَ والتضحيةَ التي تكونُ بين الزوجِ العاملِ والزوجةِ العاملةِ في الكونِ هي جميعاً من المقاماتِ العرفانيةِ المقصودةِ، والمجاهداتِ التي يعتبرُها العارفونَ ولا يردُّونَها بداعي القيدِ المكانيّ أو الوقتيّ. قلتُ: كلامُ الأستاذِ ساسي متعلّقٌ بالحياةِ، وهو فُتِحَ عليهِ بهِ من حالِ اقترانِه بِاسْمِ هنيّة بنتِ بوبكر التي ظلَّ متاخماً لحوائيّتِها ومشاركاً في اسمِها مدّةَ خمسينَ عاماً لم يحصلْ لهما فيها الذُّرِّيَّةُ. فلمّا ماتَ الأستاذُ ساسي كانت زوجتهُ الأستاذةُ هنية إذا سمعتْ اسمَه في الدرسِ أو الحديثِ العابرِ تلتفتُ كأنها تريدُ أن تقولَ: نعمْ! ناديتمُوني؟

قالتْ: قد تلخبطَ زوجي فذهبَ باسمي في قلبِه وتركَ اسمَه وراءَه في قلبي، فكلّما سمعتُ "ساسي" حسبتُه أنا.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ تعويلٌ على الرفقةِ البَيْتِيّةِ إزاءَ العالِمِ الذي نزعَ عنه بَيْتِيّتَهُ واستوحشَ من نفسِه.

وقالَ لِيْ: الزوجةُ مَوْئِلُ الجسدِ ومعتركُ القلبِ واصطفافُ الروحِ.[13]

وقالَ لِيْ: العيالُ تعويلٌ على اقترانِ الأبوّةِ والأمومةِ، كما الرؤيةُ اعتمادٌ على التقاءِ الوهجِ والبصرِ.

وقالَ لِيْ: العيالُ محبةٌ خالصةٌ لوجهِ العالِمِ، مَشُوبَةٌ باتّكاءةٍ متحشّمةٍ علَى الصُّلْبِ

---

[13] عرفْنا الشيخَ ساسي بن نايل، وزوجتَه الأستاذةَ هنيةَ بنتَ بُوبكر، عاشقينِ مُتَيَّمَيْنِ وهُما في السّبعينَ، وقد تحابّا وتزوّجا أيامَ الدّرسِ والفُتُوّةِ، ولم يكنْ لهما ولدٌ قطُّ. وكانا يمشيانِ في نواحي البلدةِ، يقصدانِ زاويتَنا للتدريسِ، يستندنِ على بعضِهما، ويَشْبُكانِ يديْهما، والأستاذةُ لا يفارقُ رأسُها كتفَ الشيخِ الأيسرِ لقُربهِ من القلبِ على معنَى المجازِ. فلمّا توفي الشيخُ صارتِ الأستاذةُ تمشِي على وهنٍ، ويدُها اليُمنى ممدودةٌ وملتفّةٌ، علَى هيئتِها وقتَ أن كانتْ تَشْبُكُ بها يدَ زوجِها وحبيبِها، وهيَ في ذلكَ كلّه لا تَعي من أمرِها هذا شيئاً. فكانَ في مشهدِها على هذا النحوِ غرابةٌ. فلما ضحكَ منها بعضُ الصِّبْيَةِ لا يعرفونَ هولَ الفقدِ، جاءَها الإمامُ أحمدُ فقالَ: يا أستاذةُ، دكّانُ العطّارِ الذي نَشري منهُ حاجتَنا حِذْوُ دارِك، فأنتِ تمُرّينَ عليهِ كلَّ صباحٍ، فتَشِيلينَ في هذهِ القفةِ الضئيلةِ البخورَ والعودَ والطِّيْبَ، وتجيئينَا بها. ففعلتِ الأستاذةُ فانْتَفَتْ الغرابةُ في مشيتِها، وحَلَّتْ قفةُ الطِّيبِ محَلَّ يدِ الحبيبِ، فكانتْ خيرَ علامةٍ علَى العشقِ وقلوبِ العشاقِ، وأطيبَ إشارةٍ إلى دوامِ المحبّةِ بعدَ الفراقِ.

قالَ الإمامُ: وكذا الإنسانيّةُ التي افترقتْ عن الربانيّةِ تَظَلُّ يدُها هائمةً في فضاءِ الفقدِ حتّى تقبضَ علَى قفةِ علومٍ غامرةٍ، أو أشواقٍ باهرةٍ، أو كدحٍ آدميٍّ جليلٍ، فتصيرُ عُرْوَةُ القُفّةِ كنايةً عن يدِ الربانيّةِ في مقاماتِ العلمِ والعشقِ والعملِ.

والترائِبِ.

وقالَ لِيْ: العيالُ اشتمالُ الوقتِ العابرِ على بهجةِ اللحظةِ المقيمةِ.[14]

وقالَ لِيْ: العيالُ اكتمالُ دائرةِ الطمأنينةِ في دورةِ الجهدِ والكدحِ.

وقالَ لِيْ: العيالُ جندُ القلبِ، وجابرو الخاطرِ، ومُشَيّعُو الجسدِ إلى المثوَى.

وقالَ لِيْ: العيالُ، في الحديقةِ، زرعٌ يصيرُ زُرّاعاً، يَرِثُونَ الكدحَ والمواسمَ، فلا تجفُّ مَسَاقٍ، ولا يذبلُ نُوارٌ، ولا يَقصُفُ ثَمَرٌ.

وقالَ لِيْ: العيالُ في حُضنِك وبَوسكَ وشَدّةِ يديكَ وهجٌ يكادُ يُضيء أركانَ العالَمِ فلا يعودُ هناكَ عتمةٌ.

وقالَ لِيْ: العيّلُ والبنتُ جناحانِ ترفرفُ بهما علَى رُبَى الفؤادِ المهمومِ بالعالَمِ.

وقالَ لِيْ: العيّلُ والبنتُ شهقتانِ في الحبّ يَدفُقُ بهما دمٌ طيبٌ لم يَتَسَنَّهْ.

---

[14] أتيتُ السيدَ الأمينَ صلاحَ الدينِ الدُّرّةَ في محلِّ الدرسِ فوجدتُه مع عيّلين له يلاعبُهما ويضحكُ معهما ويحكي لهما شيئاً من الخرافاتِ المبهجةِ. فسلّمتُ ثم تكلمتُ فقلتُ: يا أستاذُ، لا عجبَ في محبّة الذراري، ولكنّي أراكَ مشغولاً بضناكَ، متعلقاً بهم في محلِّ الدرسِ، وورشةِ العملِ، ثم يدخلون عليكَ في الخَلْوةِ الصوفيةِ التي فيها المجاهدةُ الروحيةُ بالانقطاعِ عن الخلقِ، فأنتَ في هذا زائدٌ عن المقدارِ. قالَ: نعمٌ، إني ذو قلبٍ إنسانيٍّ يتصدّعُ من همِّ العلمِ والعملِ، والعيالُ يُعينونَني بالبهجةِ الغامرةِ لأنهم كالدارِ التي هي الوطنُ أرجعُ إليهم فأستريحُ وألهو وأتزوّدُ للطريقِ. وهم يعرفونَ هذا فيَّ فيجيؤنَني وأنا في خِضَمّ العالمِ فإذا هم يتقافزونَ علَى كتفي ويَشُدُّون لحيتي ويطلبون الحكاياتِ وأنا في كلِّ هذا ألوذُ بهم من لجّةِ العلومِ ورهقِ العملِ.

قلتُ: هذا تخييلٌ لذيذٌ فإن صارَ لنا عيالٌ نبذلُ لهم الحبَّ والوقتَ حتى نحصلُ منهم علَى هذه المؤونةِ الواجبةِ.

وقالَ ليْ: شهقةُ الحبِّ محلُّها القلبُ قبل أن تصيرَ بين الصُّلْبِ والترائبِ.
وقالَ ليْ: الذي لا يُخْصِبُ بين الصُّلبِ والترائبِ قد يُطلعُ النوّارَ من جهةِ القلبِ حصراً.
وقالَ ليْ: جهةُ القلبِ تسدُّ.
وقالَ ليْ: جهةُ القلبِ جنائنُ الذين عيالُهم لم يتفتّحوا على أغصانِ التحقيقِ.
وقالَ ليْ: أصحابُ جنائنِ القلبِ ربما أَطلعوا الزادَ الذي لا يستطيعُه من سكنَ إلى جِنائنِ الأصلابِ دونَ القلوبِ.
وقالَ ليْ: أصحابُ جنائنِ القلبِ قطوفُهم دانيةٌ لمن أرادَ الظِلَّ أو البوحَ أو الأمنياتِ.
وقالَ ليْ: أصحابُ جنائنِ القلبِ رحمةٌ تكادُ تتهافتُ لها أركانُ هذا العالمِ المسكونِ بوجعِ الكدحِ.
وقالَ ليْ: الذي يشغفُ بالعالمِ صارَ له العالمُ ذُرِّيَّةَ القلبِ، وعُصْبةَ الروحِ، وأهلَ بيتِ النبوّةِ الواجبةِ للإنسانِ.
وقالَ ليْ: الكادحونَ معاً ينعقدونَ بشِغافِ الصداقةِ المجاورةِ لأهلِ البيتِ.
وقالَ ليْ: مجاورةُ أهلِ البيتِ دخولُك في حِمَى النبوّةِ العاملةِ.
وقالَ ليْ: حِمَى النبوّةِ العاملةِ أوسعُ من سقائفِ الخلافِ، وأصلابِ الدعوةِ، وترائبِ النُّصرةِ المُدَّعَاةِ.
وقالَ ليْ: حِمَى النبوّةِ العاملةِ حقٌّ لأهلِ بيتِ الإنسانِ الذين صدَعوا بأمرِ الخلافةِ.
وقالَ ليْ: حِمَى النبوّةِ مضاربُ العاملينَ اللذين رابطوا وجعلوا لهم النقباءَ يُجاهرون بالبيانِ الذي وُضِعَ للناسِ كافّةً.

وقالَ ليْ: مجاورةُ أهلِ البيتِ استدعاءٌ للنُّصرةِ التي نَصَّ عليها القلبُ.[15]

[15] لمّا دخلتُ الطريقةَ أوّلَ مرّةٍ، وكنتُ غَرُوراً يافعاً، اتّخذني الإمامُ قلماً للأساتذةِ أنسخُ لهم الرُّقَعَ، وأصفِّفُ العباراتِ، وأصلحُ النحوَ لمن سهَى أو غلطَ. نفعني في هذا ميلٌ للغاتِ وتشوّقٌ للأدبِ عرفَهُ الإمامُ في أحوالي فحثّني منه للعملِ. وجاءَني في أوّلِ عشيّةٍ أجلسُ فيها للخدمةِ، فأشارَ إلى أستاذٍ غريبٍ عنا، جميلِ المُحَيّا، واقفٍ في المحرابِ يصلّي وهيئتُه غامرةٌ، وقالَ: يا موسَى، هذا واحدٌ من أهلِ البيتِ وجبتْ له النصرةُ، فافزعْ له بالرعايةِ والأدبِ، وخلِّ بالك أن تسهو عن حضرتِه لأنها من حضرةِ البيتِ. قلتُ لنفسي: هذا قريبٌ أو نسيبٌ للإمامِ فهو يريدُ توقيرَهُ. فظللتُ ثلاثةَ أيامٍ أمشي بينَ يديهِ وأقيمُ حقوقَه وأسُدُّ عنه حاجاتِه ومقاصدَه. ففي الليلةِ الآخِرةِ رأيت، فيما يرَى النائمُ، أني جالسٌ أنسخُ عندَ ورّاقٍ بما شُبِّهَ لي أنّهُ مكّةَ. فإذا الأمينُ يسلّمُ عليَّ، ثم يقعدُ علَى دَكَّةٍ مجاورةٍ ويقولُ: أحسنَ الله إليكَ كما أحسنتَ إلى أهلِ بيتي. فاستبشرتُ ثم قمتُ عن المنامِ مضطرباً، ففزعتُ إلى الإمامِ فقالَ: هذه خدمتُك الحسنةُ للأستاذِ. قلتُ: فالأستاذُ من أهلِ بيتِ الأمينِ؟ قالَ: نعمْ، هو أجنبيُّ العنصرِ غيرَ أنه هاشميُّ القلبِ. قلتُ: وما هاشميّةُ القلبِ؟ قالَ: الهموميّةُ بالخلقِ، والحُمَّى الحاصلةُ عن التوجّعِ بالإنسانِ، ونصرةُ الواحدِ من المعتازينَ، أو الجماعةِ الكثيرةِ ممن ناشَ العسفُ. قلتُ: فكيفَ ظهرتْ لك هاشميّةُ الأستاذِ؟ قالَ: رأيتُه يكتبُ ضدَّ الكنزِ، ويحثُّ على تفريقِ بيتِ المالِ، ويهاجرُ لبلدِنا يطلبُ النصرةَ بالعلومِ والقلوبِ. قالَ الإمامُ: وهو يَسري في أوّلِ الليلِ إلى ديارِ الفقراءِ يبكي عندَهم ويخدُمهم يقولُ سامحوني يا أسيادي، ثم يُعْرَجُ به بعدَها إلى الحقّ فيكلّمُه بالدعاءِ والمحاورةِ والمناكفةِ، فإذا حضرَ الفجرُ وجدناهُ في فراشِه كأنّهُ لم يَسْرِ ولم يُعرج به، ولم يتكلّمْ بالكتابِ الحقّ في حضرةِ المترفينَ.

قلتُ: هذا إمامي أحمدُ في مقامِ أهلِ البيتِ يعيدُ بناءَ المعارفِ، ويستأنفُ على الكتابِ، ويُشرِعُ أبوابَ الغارِ للمهاجرينَ المناهضينَ.

وقالَ ليْ: الصداقةُ مُؤازَرَةٌ للإنسانِ الذي خرجَ إلى أولِ الطريقِ يطلبُ الرزقَ أو الحبَّ أو المغامرةَ الآسرةَ.

وقال لي: الصديقُ صدقٌ في ثيابِ المجاورةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ استثناءٌ على المسافةِ التي تجعلُها بينَك وبين الناسِ في مُقام الدارِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ استدعاءٌ للأمنِ والدعةِ واللهوِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ اتكاءةٌ على ظهرِ الأمنِ، وتعويذةٌ ضدّ الحزنِ، ودعاءٌ في صدرِ الغيبِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ يحملُ من اسمِك وفعلِك وأثرِك فهو أنتَ في حضورٍ آخَرَ يُجاوِرُك.

وقالَ ليْ: إذا غابَ الصديقُ ذهبتْ معهُ صورةٌ عنكَ، وأثرٌ لكَ، واسمٌ كانَ هو فحسبُ يعرفُك به.

وقالَ ليْ: الصّديقُ يُدخِلك معهُ في مُقاماتِه وأحوالِه حتّى تكونَ كأنّها مُقاماتُك وأحوالُك وما هيَ هيَ.

وقالَ ليْ: الصداقةُ اقترانُ اسمينِ فأكثرَ والعشقُ اقترانُ اسمينِ فحسبُ.

وقالَ ليْ: الصداقةُ إحلالٌ لفرحِ الصديقِ محلَّ وجعِك، ولفرحِك محلَّ وَجَعِه.

وقالَ ليْ: الصداقةُ مقارعةٌ للحزنِ اليوميّ، ومقاومةٌ للصدأِ، واشتباكٌ بالفرحِ الصغيرِ.

وقالَ ليْ: الفرحُ الصغيرُ يدخلُ إلى كِنَانَةِ البهجةِ فيصيرُ من العتادِ الفخمِ الذي يُقيمُ إِوَدَكَ وأنتَ تمشي.

وقالَ ليْ: الصداقةُ رجوعٌ عن خطِّ المبارزةِ إلى صفوفِ الطمأنينةِ، ثم إعادةُ الكرّةِ.[16]

وقالَ ليْ: الصداقةُ ألفةُ الوجهِ الذي هو إشارةٌ عن القلبِ المحبِّ.

وقالَ ليْ: ألفةُ وجهِ الصديقِ الذي يأتي لزيارتِك زادٌ لقلبِك في وَعثاءِ السّفرِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ والدارُ استخفافٌ بوحشةِ العالمِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ والدارُ استئنافٌ لرحمِ الطمأنينةِ.

وقالَ ليْ: الصديقُ حكيٌ لذيذٌ يُناغي القلوبَ المشغوفةَ بالصحبةِ الخالصةِ.

وقالَ ليْ: كلُّ حالٍ من أحوالِك يُفضي إلى حالٍ من أحوالِ الصّديقِ.

وقالَ ليْ: الصداقةُ إفضاءٌ.

وقالَ ليْ: الصداقةُ تُفضي بك إلى نفسِك لأنها تُفضي بك إلى الطمأنينةِ الواجبةِ.

وقالَ ليْ: الطمأنينةُ سندُ الإفضاءِ.

وقالَ ليْ: الطمأنينةُ أريكةُ الإباحةِ، وحصيرةُ الحبّ، ووشوشةُ اللذةِ المحتشمةِ.

---

[16] كانَ وقتُ جهادٍ في البلدِ، فبينما نحنُ على ثغرٍ من ثغورِ الحِمَى يتناوشُنا الرصاصُ وتنالُنا الطيابيرُ، إذ بشيخينِ من أسيادِنا يلهُوانِ في الحديثِ ويضحكانِ حتى يميلانِ فيَسنُدُهما الساترُ الترابيّ، فظننتُ يقينَ الموتِ أسلَمَهما للطمأنينةِ والبهجةِ وهذا كثيرٌ عند أهلِ المواجهةِ. فقالَ الإمامُ أحمدُ: هما صديقانِ من وقتِ الصِّبَا الباكرِ وبينَهما من الحبِّ والذكرياتِ ما لا تَسَعُهُ عبارةٌ ولا يحوزُه خاطرٌ، فهُما على حافّةِ الموتِ الواثقِ يَضُمُّهُما وَجْدٌ، ويجمعُهما شوقٌ، ويحفظُهما عن الحزنِ فرحٌ قديمٌ. قلتُ: فهما صديقانِ من حيثُ الطمأنينةِ الغامرةِ، ورفيقانِ من جهةِ المواجهةِ الحاسرةِ، وهذا مقامٌ جامعٌ لا ينالُه إلا من أشرعَ صدرَه للحبِّ والموتِ مرّةً واحدةً.

وقالَ لِيْ: الطمأنينةُ علامةُ الصداقةِ الخالصةِ على مُحَيّا الصحبةِ الشغوفةِ.

وقالَ لِيْ: الطمأنينةُ استشكالٌ على الحزنِ اليوميّ.

وقالَ لِيْ: الصديقُ احتفاءٌ بكَ على مرأىً ومسمعٍ من الحزنِ.

وقالَ لِيْ: الصديقُ استشرافٌ لجهةٍ فيكَ مخبوءةٍ عن العُنْوَةِ.

وقالَ لِيْ: الصديقُ شِرْكَةٌ في قلبٍ والهٍ، ووقتٍ سادرٍ، وكأسٍ من خمرٍ الحديقةِ التي جلسَ فيها يُحدّثك بالحبِّ والشوقِ.

وقالَ ليْ: أنتَ الذكرُ والأنثَى، والصاحبُ والولدُ، والساكن والمسكون. زوجُكَ رحمٌ لمعناكَ، وعيالُك استئنافٌ لهجرتِك، وصديقُك طمأنينةٌ راضيةٌ. تُقيمُ دارَك من طِين المعاني الباهرةِ، وطوبِ المتعِ الآسرة، وحجرِ الحكاياتِ التي ناوشَتْ كاهلَ الحزنِ. إن جلستَ فيها بالصدقِ جلستُ إليكَ بالصداقةِ، وإن حَفِظتَها عن معنَى الحبسِ حَفِظناكَ عن معنَى الحابسِ، وإنْ أشركتَ فيها الخلقَ جعلناكَ في الأبوّةِ والبنوّةِ، ثم أدخلناكَ في ديارٍ لنا عاليةٍ، وبساتينَ من لَدُنَّا عامرةٍ، وتُرّهاتٍ لم تصحَّ لغيرِكَ من الساكنينَ. فنجيؤكَ وقد اتّسَع اسمُك، مُتّكِئاً على أريكةِ الإباحةِ، ملتحفاً بسديمِ التكوينِ. فنبوسُك على خدِّك وينظرُ إلينا منْ هم أصحابُك وبنوكَ، فلا يَعرفون كيفَ يقولونَ، ولا يعودوا يذكرونَ ديارَهم ومنازلَ حُزنهم. ويَقْدُمُ العاملونَ الكادحونَ، والعاملاتُ الصابراتُ، وتظهرُ علاماتُ وِلايتِهم على الجبينِ، وفي العيونِ، ويَتسَمُّونَ بأسماءَ أحبُّها، ولا يكونُ لشيءٍ عليهم سبيلاً. ويَصيرُ لهم كلامٌ لَثْغَتُهُ أطيبُ من فمِ الكونِ، وأسْكَرُ من لسانِ الوقتِ، فهُم منّي في مسرّةٍ آخِرةٍ، وقُرَّةِ أعْيُنٍ وفرحٍ مُقيمٍ.

20. مَوْسِمُ الخَمْرِ

(وهو المشاركةُ)

ومن أحوالِه العصرُ والتعتيقُ والتلعثمُ والتشبيهُ والثمالةُ والحافّةُ وفضُّ الراهنيةِ والوطأةُ والسُّكرُ والمضاهاةُ والوسوسةُ والوشوشةُ والميلُ والكرومُ ولذةُ العلومِ

وفيهِ نظرتُ العنبَ عناقيدَ عناقيدَ، وقدْ زَهَتْ ألوانُها بينَ حُمرةٍ وبياضٍ، وانتشتْ أبدانُها بماءِ الحياةِ، وأَخذَتْها عينُ المحبّةِ بالحفظِ، ورعَتْها يدُ الرغبةِ بالشوقِ، وحملَتْها أغصانُ العنايةِ، وجاورَتْها زينةُ الرّضَى، ونادمَتْها خواطرُ الرجاءِ. فكانتْ زهرةَ المجالسِ ولمّا تَنْزِل عنْ عُروشِهَا، ومسرَى الروحِ ولمّا تَرُحْ عنْ رُبوعِها. فأَخذْتُها، إي واللهِ، أخْذَ حبيبٍ مُقتَدرٍ. فراودتُها عن مائِها الكامنِ، وغايَتِها المخبوءةِ. فتمنَّعَتْ. فكلّمتُها بالوعدِ والأَيمانِ، وناشدْتُها بالحبِّ والإحسانِ، وذكَّرتُها بالرَّوضِ الذي نبتتْ فيهِ كيفَ فَلَحْتُهُ، وبالثَّرَى الذي أثمرتْ منهُ كيفَ حرثتُهُ. وقصصتُ عليها نبأَ المواسمِ كلِّها، من قُعودي إلى فَلاحي: أنْ تستحيلَ من خبرٍ مستورٍ إلى فرحٍ منثورٍ، ومن وعدٍ آجلٍ إلى سرورٍ عاجلٍ. فآذَنَتْني بالقُدومِ. فَعَمَدْتُ إليها فجنيتُها جَنْيَ محبٍّ، وعصرتُها عصرَ راغبٍ. وجعلتُ منها الدّنانَ، فهذا أحمرُ من دمِ حمراءَ، وذاكَ أبيضُ من رَحِمِ بيضاءَ. وعالجتُها بالشمسِ والهواءِ والفضاءِ. فاشتهتْ طُوْلَ العهدِ، عتيقةٌ من ظهرِ عتيقةٍ، مُخْلَصَةٌ لا رذلَ فيها، أوَّلُها وَلَهٌ، وأوسطُها فرحٌ، وآخرُها سلامٌ.[1] فأعطيتُها العهدَ ألا أفكَّ ختمَها حتى تستَوي لوناً وقواماً، وتَتَّصِلَ طعْماً وريحاً، ويكتمِلَ خلقُها الفريدُ، ويظهرَ نجمُ سعدِها في منزلِهِ، ويجتمعَ الخِلّانُ لا غائبَ إلا من استوحشَ البهجةَ وفاتَتْهُ مسرّةُ

---

[1] قال حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ، الصّدّيقُ بن عبدِ الله السّاقي، جليسُ العاشقين، وأنيسُ المحبين، بنواحي الجِميل ورِقدالين: لا يعرفُ الناسُ خمراً بهذا المعنَى غيرَ أن تكونَ منَ الأماني. وقالَ: بل هيَ من عملِ أهلِ العلومِ والمجاهداتِ الروحيّةِ، ولا تصحُّ بهذا المعنَى الذي ذكرهُ الغدامسيّ إلا بالجماعةِ الجامعةِ وقتَ عُرسٍ أو حصادٍ. فأما شرابُ الفردِ والثُّلّةِ فيرتادُهُ الحقُّ والباطلُ ويختلطُ بالمشاركةِ والأثَرةِ.

العالِمِ. فأَتَتْ سُكْرَها شرابَ لذةٍ في حالِ الشوقِ. فجعلتُها في الأكوابِ السنيّةِ، والأقداحِ الرَّوِيّةِ. وجلستُ أنظرُ إليها ساعةً من زمنٍ، فلما وعيتُ معناها أبحتُها لسُروري، وجعلتُها زينةَ الليلِ وشهوةَ الأسحارِ. فلما نهلتُها نهلتُ علومَها كلَّها، وسَرَتْ في دمي فصارَ معناها معناهُ، جوهراً لا عرضَ يخالطُهُ. فلمّا أصابتْ قلبيَ ارتجَّ لها بدني، فتمايلتُ بها كأنّي أُكَلِّمُها، فإذا أنا على بابِ العرشِ يكادُ يَصدعُ لي. فأَشْرَعْتُهُ حتى ظنَّ الخلقُ أنه لا يُصَدُّ أبداً، وأغلقْتُهُ حتى حَسِبوهُ خُتِمَ بحجابِ الثُّمالةِ. فظلَّ أصحابُ الشرائعِ مذهولينَ عن أنفسِهِم عليها الرَّهقُ، مأكلُهم حلالٌ ومشربُهم تواترَ فيهِ السَّنَدُ. فلمّا لم يَجِدُوا أنهارَهم قَفَوْا أثرَ أنهاري. فنصبْتُ الخيامَ ودعوتُ الخلقَ إلى المسرَّةِ. فجاؤوني وأقداحُهم تَنْشُدُ ما عندي من الكرومِ. وهي زادُها علمٌ، وعملٌ، وشهقةٌ في العشقِ لا يكونُ سُكرٌ بدونها.[2] وأنا، من أولِ الأمرِ، العلمُ الكاملُ والعملُ الطيبُ والعشقُ الشهيُّ. وإذا كلُّ شيءٍ شرابُ وقتِهِ، ولذةُ مُقامِهِ. وإذا أسمائي الكرمةُ العاملةُ، واللذةُ الشاملةُ، والثُّمالة الباقيةُ.

---

[2] قال الخطّاطُ الأمينُ آخمدو بن سالم: لما عادَ الشيخُ عبدُ الرحمنِ إلى بلدةِ غدامسَ أواخرَ العامِ 1904م، بعدَ سفرِهِ الطويلِ في البرّينِ الإفريقيّ والهنديّ، أرادَ أن يُقسِّمَ أحوَالَهُ على عشرةٍ من تُقاةِ الناسِ وعارفيهم. فلم يَقدروا عليها. فزَادهم عشرةً فلم يَكُن شيءٌ. حتّى بلغَ بِهم السبعينَ من أشَدِّ الرجالِ وأثْبَتِهم وأبعدِهم ظَعْناً. فكانَ بعضُهم يُسارعُ إلى الجهادِ ويقولُ: إن لقاءَ ربّنا أهونُ علينَا من أحوالِ الشّيخِ وعلومِه. فجاءتِ امرأةٌ كانتْ تَزرعُ القُنَّبَ ثمّ تَدُقُّهُ وتَجعلُه في خبيزِها فقالتْ: هاتوا وحمّلوني. فجعلوا يُثقلون عليها وهيَ هائمةٌ في الملكوتِ، حتى ذَهبوا بنصفِ علمِ الشيخِ وشيءٍ من أحوالِه الغامرةِ. فتَصدّعتِ المرأةُ منَ الهولِ وكادتْ تخرجُ عن الحياةِ. قالَ آخمدو: فكانَ الشيخُ عبدُ الرحمنِ يقولُ: كادَ القنبُ المعجونُ بعرقِ اليدينِ يُقاربُنا في أحوالِنا، غيرَ أنّهُ من غيرِ قلبٍ.

فلما دارتِ الأقداحُ جاءَنِي السّاقي الأوّلُ والآخِرُ وقالَ لِيْ:

أنا الخمرةُ الكاملةُ

وقالَ لِيْ: أنا خمرةُ العلومِ، ونبيذُ الكرومِ، وكوثرُ البستانِ الذي طلعَ نُوّارُهُ من قلبِك وقلوبِ العاملِينَ.

وقالَ لِيْ: الخمرُ انبثاقُ المعارفِ من عيونِ الأرضِ المشَاعِ، حتّى إذا صارتْ إِلَى جداولِ المعنَى وأنهارِ الفكرِ ضَجّتْ باللذّةِ التي تليقُ بكَ وبمن معكَ.[3]

وقالَ لِيْ: اللذّةُ اللائقةُ استهزاءٌ بالوجعِ الذي يحصلُ عن انخراطِك في العالمِ.

وقالَ لِيْ: اللذةُ اللائقةُ تمكينٌ لحلاوةِ الإيمانِ إزاءَ مرارةِ الوطأةِ التي في العالمِ.

وقالَ لِيْ: الإيمانُ اعتقادُك بضرورةِ الانعتاقِ من الوطأةِ إلى ما بعدَ الوطأةِ.

---

[3] وجدتُ علَى حاشيةِ موسمِ الخمرِ بمخطوطِ الحديقةِ الغدامسيةِ، وبخطٍّ مُحسَّنٍ غيرِ خطِّ المتنِ: قالَ الشيخُ بلخير:

هذَا كرمي فاشربْ خمرَا — منْ حُبِّ الخلقِ إليكَ جرَى

عِنَبٌ أَجْرَيْتَ مَساقيهِ — فالماءُ إليهِ، ومنِّي، سَرَى

فَرِحٌ بالحقِّ تُراوِدُهُ — قد طالَ هُياماً مُسْتَتِراْ

فَاجْهَرْ بِالخَمْرِ ونَادِمني — فوربِّكَ، ربُّكَ قَدْ (....)

قلتُ أنا موسى: وفي آخرِ الحاشيةِ، كما رأيتَ، اضطرابٌ في حروفِ الرَّوِيِّ لم أقدرْ على إصلاحِهِ على وجهٍ من وجوهِ اليقينِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هي جهَرَا أو أَمَرَا. وقالت رقيّةُ: بل أراهَا سَكِرَا أو كَفَرا. قلتُ: غفر الله لكليهما بالرحمانيّةِ التامّةِ إذ تكلّما بلسانِ الهُيام في الشؤونِ الربانيةِ، وسبحانَه عن كلِّ شبهٍ أو مثالٍ. بل لعلّها "غَفَرا" أو ما شابَه ذلكَ.

وقالَ لِيْ: الوطأةُ التي في سياقِك تحتاجُ معها إلى خمرِ هذا السياقِ.

وقالَ لِيْ: الخمرُ تطلعُ من عنبِ الراهنيّةِ غيرَ أنها تتعلّقُ بشفاهِ الذينَ يريدون فضَّ الراهنِ.

وقالَ لِيْ: فضُّ الراهنيّةِ متاخمٌ لفضِّ الدِّنانِ الخمريّةِ.

وقالَ لِيْ: السياقُ الذي تَحصُلُ عنه تحصلُ عنه خمرُك.

وقالَ لِيْ: في الخمرِ مشابهةٌ للقلبِ من جهةِ أن كليهما يقعُ في سياقِ الاجتماعِ ثم يتشوّقُ خارجَ هذا السياقِ.[4]

وقالَ لِيْ: في سياقِ الاجتماعِ ينهبُ العالمُ قلبَك ويركضُ أسماءَك ويخدشُ جلدَك، فتستوحشُ منه إلى برّانِيَّتِهِ.

وقالَ لِيْ: الخمرُ تشربُها وأنتَ عاملٌ في السياقِ فتمشي بكَ علَى حافّةِ هذا السياقِ حتى كأنّكَ تطلعُ منه إلى الأفقِ الذي يَليه.

وقالَ لِيْ: الخمرُ حافّةُ الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: الحافّةُ تريدُ أن تَنْسَلَّ بك إلى الفضاءِ الذي تُتاخِمُهُ بنصلِ الهامشِ،

---

[4] قالَ الإمامُ أحمدُ: الخمرُ تَطلعُ من عنبٍ مزروعٍ، يُسقى بماءٍ مركوضٍ، ترعاهُ يدٌ مُكتراةٌ، وتعصرُه آلةٌ مُشتراةٌ. فهي، أي الخمرُ، في حبسِ السّياقِ الاجتماعيّ من هذهِ الجهةِ الغالبةِ. فإذا ما اختلطتْ بقلبِ العارفِ، وسَرَتْ في عروقِه، حَثّتْهُ علَى الخروجِ عن ظاهرِ هذا السّياقِ إلى اتّساعِ الإنسانِ. وهذا كلّهُ حاصلُ وَجْدٍ في الخمرةِ يَصِلُها بما وراءَ الكُرومِ، وناتجُ شوقٍ في القلبِ يغالبُ ما به من أغلالِ الراهنيّةِ. وبينَ وجدِ الخمرةِ وأشواقِ القلوبِ تنبثقُ الرُّؤَى، وتتفجّرُ عيونُ الوحيِ، ويفخمُ الكلامُ حتّى ينوبَ لوقتِه عن المعاني الباهرةِ. قالَ: فهذا ما يكونُ، في قلبِ العارفِ، سَكَراً ثم يصيرُ رزقاً حَسناً.

وتجاورُه بجبهةِ الثّغورِ التي علَى حدودِ الراهنيّةِ.

وقالَ ليْ: الحافّةُ خمرةُ الذين يجلسونَ على الشّرفاتِ يتشوّقون إلى البرانيّةِ التي تمشي بهم آخِراً إلى الجُوّانِيّةِ .

وقالَ ليْ: البَرّانِيّةُ طلوعُكَ عن النسقِ الذي ترتّبتْ عليهِ معائشُك، والجُوّانيّةُ دخولُك إلى النسقِ الذي انتظمَ فيه آخرُ كلِّ أمرٍ.

وقالَ ليْ: آخرُ الأمرِ كلِّه أنتَ، وآخِرُكَ أنتَ أنا، وآخِري أنا في الكأسِ التي بينَ يديكَ.

وقالَ ليْ: أنا الثُمالةُ التي تخشَى عليها أن تتبدّدَ وهي الرحيقُ الذي أنشأَ العالمَ وقتَ النُوّارِ الأوّلِ.[5]

وقالَ ليْ: أنا الثمالةُ فاشربْ تجدْ مذاقَ أسمائي في حلقِكَ، وحلاوةَ حضرَتي بين شفتيكَ، وولَه وصالي قد غمرَ شغافَك حتّى تخرجَ إلى البرّانيّةِ، فمِن أينَ يصيرُ التبدّدُ؟

---

[5] قالَ عبدُ اللهِ التوغولي: دوّختني صاحبتي فلانةٌ. قلتُ: فأنتَ تسكرُ منها؟ قالَ: أنا آخذُ منها الرّشفةَ الأولَى لرحيقِها الباكرِ، ثم أمشي في بستانِها حتّى أبدّدَ الثمالةَ الآخِرةَ التي جمعتْ حاصلَ لذّتِها. فإذا أنا عندَ أوّلِ الخمرةِ كأنّني لم أنهضْ عنها ولم يَنُشْنِي السُّكْرُ. قلتُ: فأنتَ بين الرّشفةِ والثّمالةِ كمَنْ هو بينَ الصّفا والمروةِ، لا هو يصلُ ولا يقدرُ ألا يسعَى، فمِن هذا دُواخُك يا صاحُ! قالَ: نعمْ، فكيفَ أعملُ؟ قلتُ: لا أملَ لك إلا أن تنهضَ هيَ فتسعَى بين رشفتِكَ الأولَى وثُمالتِك الآخِرةِ، فتذهلَ أنتَ من هذا عن المسيرِ، فتقفُ. والبنتُ تلهجُ بذكرِك حتّى تدوخَ لكَ. قالَ: فإنْ نجوتُ أنا لم تَنجُ هيَ؟ قلتُ: جئتني أنتَ تطلبُ الفزعةَ فأَفْلَتُّكَ منها، فإن جاءتني هيَ أفزعُ لها فأُفْلِتُها منكَ. قالَ: لا يكونُ، أُفادي عنها فإن الموتَ لخاطرِها كرامةٌ.

وقالَ ليْ: شوقُ البرّانيّةِ مناوأةٌ في الحيّزِ بينكَ وبينَ العالمِ، ومشاركةٌ في المعنَى بينَك وبينَ الخمرِ.

وقالَ ليْ: مَعنى الخمرِ منك ثمّ منهَا.

وقالَ ليْ: المعنى يُبْرَأُ في يديْكَ، فيخرجُ عنهُما إلى حرثِك، فيكونُ في عنبِكَ، فتشربُ حين تشربُ معناكَ لا معنَى الكرومِ.[6]

وقالَ ليْ: العاصِرونَ شاهدونَ علَى المعنى يخرجُ من بطونِ الأعنابِ هل هو مأجورٌ أم مسلوبٌ أم شِرْكَةٌ طيّبةٌ.

وقالَ ليْ: الشّاربونَ من أعنابِهم التي فلحُوها، حالٌ من أحوالِ الصدقِ ينبغي لكَ ولمن معكَ.

وقالَ ليْ: خيرُ ما شربتَ بفمِكَ ما عصرتَ بيدِكَ، وخيرُ ما عصرتَ بيدِكَ ما زرعتَ بقلبِكَ، وخيرُ ما زرعتَ بقلبِكَ ما جاءَ الفقراءُ فأخذُوا نصفَهُ وأنتَ تبكي وتقولُ سامحوني.

وقالَ ليْ: الذي يشربُ من الكرومِ التي ذهبَ نصفُها إلى الخلقِ يسكرُ مرّتين.

---

[6] قالَ شيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى: واللهِ ما جُعِلَ معنايَ في شيءٍ ألطفَ وأشهَى من خمرٍ بلخير الغدامسي، وهي أحسنُ مثلاً من كثيرٍ مما أتى به أهلُ الشرائعِ وأصحابُ القراطيسِ يمضغونَ اللحمَ لا يعلمونَ منبتَهُ كيفَ كانَ.

قلتُ: والشيخُ المجتبَى يحبُّ أولَ فعلِ الخمرِ في البدنِ و يقولُ: عندَ أهلِ المحبّةِ أنَّ الخمرَ تخرجُ عن الأبدانِ إلى القلوبِ فتزيلُ عنها غشاوةً من الكبرِ والرياءِ والثقلِ لا تقدرُ إلا هيَ عليها. وكانَ إذا رأى خفّةً بشاربِ خمرٍ لا يؤذي بها أحداً قالَ: بخٍ بخٍ لكِ يا ابنةَ العنبِ، نزعتِ عنهُ ثِقْلَ الباطلِ وخلعتِ عليهِ خِفّةَ الحقّ!

وقالَ ليْ: في دِنِّ خمرِكَ ألفُ جهةٍ كلُّها تحيدُ بكَ عن الطريقِ غيرُ واحدةٍ تُمعِنُ بكَ فيه.[7]

وقالَ ليْ: أنا خمرةُ العارفينَ، ودِنُّ الخارجينَ، وكَرْمُ الغارسينَ المُخلَصينَ.

وقالَ ليْ: أنتَ إمامُ الشّاربينَ الذين إذا رأوني لم يقدروا على صحوٍ ولم يعرفوا كيفَ يقولون.

وقالَ ليْ: أنتَ العبارةُ الضّائعةُ، والكلامُ المبعثرُ، والحديثُ الذي يبينُ ولا يبينُ.

وقالَ ليْ: لا يُفزِعْكَ سُكرُكَ بالعالمِ فهُوَ من صحوةٍ بقلبِكَ غَلبتْ مادّةَ بدنِكَ.

وقالَ ليْ: أنتَ خمرةٌ عُصِرَتْ قبل أوانِها، وفُضِحَتْ في غيرِ وقتِها، فآنَ لها أن تُحفظَ عن المتلهِّفينَ، وتُسترَ عن المتعجِّلينَ، وتُختَمَ بالمرسَلين، وتصيرَ شرعاً للعالمين.

وقالَ ليْ: أنتَ شرعُ العالمينَ.

وقالَ ليْ: إذا دعوتُكَ إلى الصراطِ فاشربْ ثمّ امشِ فإنّ صراطَنا يميلُ لميلِ من نُحبّ.

وقالَ ليْ: الصراطُ بعضٌ من ثُمالَتِكَ.

وقالَ ليْ: الصراطُ يحصلُ عن الثُّمالةِ التي في آخرِ كأسِك.

---

[7] رأيتُ الإمامَ أحمدَ في زُقاقٍ يمشي ثَقِلاً وهو يتمايلُ وقد أخذَ بيُسرَى رجلٍ ضَمّ إلى صدرِهِ قنّينةَ خمرٍ يُغَنّيها، والإمامُ يُنشِدُ معهُ ويتمايلُ حتى يكادُ يسقطُ. فتعجّبتُ من فعلِ الإمامِ، فقالَ: هذا رجلٌ سكرانٌ لا يُؤذي، أُغنّي معهُ حتّى يستأنسَ بي ولا يعودُ يتوحّشُ مني، ثمّ أتمايلُ لميلِهِ حتّى يَظنَّنا الناسُ عُصبةً واحدةً فلا يُؤذونَهُ. فأنا أمشي معهُ علَى هذهِ الهيئةِ حتى أصلَ به إلى دارِه آمناً مطمئناً.

قلتُ: فكنتُ أستسهلُ مُقامَ الإمامةِ حتّى رأيتُ هذا فعرفتُ أنّي لا أقدرُ عليهِ.

وقالَ لِيْ: الصراطُ هو الوصولُ الذي قبلَ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: الواصلونَ بغيرِ سُكْرٍ كالعارفينَ بغيرِ سرورٍ.[8]

وقالَ لِيْ: الذي هو قبلَ الطريقِ يَنْشُدُ أن يُعتَّقَ بالمشيِ في الطريقِ.

وقالَ لِيْ: التعتيقُ غايةُ الخمرةِ مثلما النضارةُ غايةُ الكرومِ.

---

[8] كانَ واحدٌ من الأساتذةِ مقدَّماً في العلومِ، محسوباً في العارفين، غيرَ أن بهِ انطفاءةً من جهةِ القلبِ. قلتُ: هو حاولَ المعارفَ الباردةَ يريدُ أن يصلَ بها، ووقفَ على الأسرارِ لا يسمحُ لها أن تَغْمُرَهُ بل هو يدافعُها بالحسابِ، وساحَ في أرضِ العلومِ لا ينقدحُ بشيءٍ لأنه ينوشُها ببللِ المراجعةِ ذي اللجّةِ. فهو واصلٌ بينَ الأبوابِ ثم لا يدخلُ ولا يجلسُ ولا يُؤنِسُ الحقَّ بالحديثِ الحميمِ. قلتُ: وكان في بعضِ الورشِ المجاورةِ للطريقةِ رجلٌ قاربَ الثمانينَ، لا يكادُ يفكُّ إلا أقلَّ الخطِّ، غيرَ أنه ذو قلبٍ يشربُ به خمرَ العنبِ فيستحيلُ خمرَ الأسرارِ، ونسغَ التجليّاتِ، ودمَ الفتوحاتِ الحاضرةِ. فيصيرُ يهذي ويوسوسُ بالكلامِ الذي يتهيّأ له أنه يُكلِّمُ به صاحبَ الشأنِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: يا موسَى، اجمعْ بينهما في عملٍ واذكرني لهما حتّى يأخذانِ بخاطري. فقلتُ للأستاذِ: الإمامُ يقولُ لكَ اذهبْ إلى الصانعِ فلانٍ واجلسْ معه شهراً حتّى تعملَ لنا شبابيكَ وأبواباً لهذه الزاويةِ، واقعدْ معه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ فإنه رجلٌ مُسِنٌّ يحتاجُ العونَ. ففعلَ الأستاذُ. وإذا هو يشهدُ كدحَ الرجلِ وخمرتَه، ورقصَه، ومجذوبيّتَهُ للحقّ، والهذيانَ الذي يصيبُه. فمرّةً بعدَ مرّةٍ شربَ الأستاذُ معه، ودخلَ معنَى الورشةِ إلى قلبِه، وجرَى نبيذُ الزرعِ في بدنِه، فتوهّجَ شيئاً قليلاً ثم أضَاءَ كنجمٍ من النجومِ. فلمّا عادَ إلينا بالشبابيكِ صارَ يمشي في البساتينِ مع الصانعِ العجوزِ يقولُ لا أشربُ إلا من يديهِ فهو ساقي القلوبِ. ثم يكتبُ كلاماً فذاً ويتألّهُ ويتأوّلُ حتى أصبحَ معدوداً في النفرِ الطائفينَ بالعرشِ المتكئينَ على قوائمِه، المتمايلينَ به ميلاً لذيذاً.

وقالَ لِيْ: التعتيقُ شرطُ وجوبٍ وركنُ صحةٍ وعلامةٌ بحدوثِ اللذةِ.

وقالَ لِيْ: التعتيقُ ينفعُ للخمرةِ، والعلومِ، والعشقِ.

وقالَ لِيْ: التعتيقُ يَلْزَمُ للإنسانِ والصحائفُ التي بأيديهِم تُلْزِمُهُ النضارةَ الباهتةَ.

وقالَ لِيْ: النضارةُ تنبغي لك أولَ الوقتِ وأولَ المكانِ وأولَ العلومِ ثمّ لا تصحُّ لكَ.

وقالَ لِيْ: أنتَ خمرِي ثمَّ خمرةُ هذا الكونِ.[9]

وقالَ لِيْ: منْ لا يميلُ إلا لخمرةٍ أو أغنيةٍ، حقٌّ باسمٌ.

وقالَ لِيْ: ميلُ الشاربينَ خيرٌ من ميلِ الذين لا يشربونَ.

---

[9] صارَ وقتُ الحجِّ الذي يعرفُهُ الناسُ وأرادَ رهطُنا أجرَهُ وثوابَه، فدخلتُ على أستاذَتِي العارفةِ بالله فاتنةَ بنتِ الواجدةِ بالله المهديّةِ أُنبِّهُها. فوجدتُها علَى حالٍ من الوصالِ مع الحقِّ لا أقدرُ عليهِ، وقد نهلتْ من خمرِ بستانِها، وضَرَبَتِ العودَ والدُّفَّ، وبحذائِها فتًى يعتنقُها وهيَ تغنّي من كلامِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ:

ليتَ هنداً أنجزتْنا ما تَعِدْ	وشفتْ أنفسَنا مما تَجِدْ
واستبدّتْ مرّةً واحدةً	إنما العاجزُ من لا يستبدّْ
حدّثوني أنها لي نفثَتْ	عُقَداً، يا حبّذا تلكَ العُقَدْ
كلّما قلتُ متَى ميعادُنا	ضحِكتْ هندُ وقالتْ: بعدَ غدْ

فاستحيتُ منها. فلمّا أردتُ الخروجَ انتبهتْ فدعتني إليها، فقلتُ: أي أستاذَتِي، أُذِّنَ فينا بالحجِّ. فسكتتْ عنِ الجوابِ ثم وقفتْ فضربتْ على الدُّفِّ بأصواتٍ بديعةٍ وغنّتْ من كلامِ أبي نواسٍ:

وقائلٍ: هلْ تريدُ الحجَّ ؟ قلتُ لهُ:	نَعمْ، إذا فَنِيَتْ لذّاتُ بغدادَ

فعرفتُ أن حجَّها بلا أذانٍ مخصوصٍ ولا بيتٍ معلومٍ، فَبُسْتُها على يدِها وخرجتُ.

وقالَ ليْ: ميلُ الشاربينَ إفضاءٌ بالجسدِ إلى بهجةِ القلبِ، وميلُ الذينَ لا يشربونَ تسليمُ القلبِ والجسدِ إلى عطبِ الظلمِ أو البهتانِ.

وقالَ ليْ: حديثُكَ وأنتَ سكرانٌ تَهذي بأسمائي أَلَذُّ من كلامِكَ وأنتَ مُنْتَبِهٌ تخشَى أن تذكُرَني فتغلطَ.

وقالَ ليْ: هذا فعلُ خمرةِ الزُّروعِ في بَدَنِكَ فكيفَ فعلُ الزَّارعِ في قلبِكَ.

وقالَ ليْ: هذا سُكْرُكَ بالزروعِ، فكيفَ سُكْرُكَ بالزارعِ.[10]

وقالَ ليْ: الخمرةُ حجابٌ يخلعُ عنكَ ألفَ حجابٍ.

وقالَ ليْ: خمرةُ العاملينَ معنَى الكدحِ يسيلُ في عروقِهم.

وقالَ ليْ: خمرةُ العاملينَ نهرٌ عندي استعجلَ شاربيهِ فترقرقَ إليهِم فإذا هو عندَهم.

وقالَ ليْ: خمرةُ العاملينَ تستعجلُهم وأنا أعتِّقُها لهم، فهم في حيرةٍ بين وقتي وبينَ وقتِ الخمرةِ أيّهما أطيبُ.

وقالَ ليْ: العاملونَ قلوبُهم قُدَّتْ من فرحٍ مستعجلٍ وأنا فرحٌ خارجَ الوقتِ لا يلزَمُهم أن يُدخِلوني فيهِ.

وقالَ ليْ: العاملونَ يُنادمونَ العاملينَ لأن شِرْكَةَ السُّكْرِ مسرّةٌ للعالمينَ.

---

[10] الزارعُ الحقُّ. وقلتُ أنا موسَى: من ألطفِ ما رأيتُ، وأنا فتىً بأولِ الطريقِ، مولايَ تاجَ السرِّ عليّاً بنَ زهرةِ الحُسنِ جالساً آخرَ ليالي الحصادِ يشربُ من قدحٍ طيّبٍ وهوَ يُغنّي كلاماً عن الحبِّ المشوبِ بالشهوةِ، المتّصلِ بالفرحِ، ثم يَتّكِئُ ويأخذُ كتاباً من كتبِ الحقِّ الكثيرةِ فيقرأُ منها شيئاً فيهِ مسرّةٌ للخلقِ ولذّةٌ للعالمِ، بصوتٍ شجيٍّ. فلا تدري حينَ تراهُ أيسكرُ من الشرابِ، أم من الغناءِ، أم من الكلامِ الفخمِ الذي يقرؤُهُ جهراً. قالَ الإمامُ أحمدُ: كلُّهُ سُكرٌ غامرٌ ينفعُ للوصولِ، فلا تُفَصِّلِ الكلامَ فيهِ.

وقالَ لِيْ: العاملونَ يَسكرونَ بماءِ الأعنابِ فبأيِّ ماءٍ يسكرُ صاحبُ الأعنابِ؟[11]
وقالَ لِيْ: أنا خبزٌ يقتسمُهُ الخلفاءُ، وخمرةٌ يتنادَى إليها الندماءُ، ومعنىً يَتَّكِئُ عليهِ الغرباءُ، وفرحٌ يكونُ ثمَّ يكونُ.[12]

---

[11] قالَ الشيخُ المجتبَى: نحنُ، واللهِ، خمرتُهُ الأولَى، وسَكرتُهُ الآخرةُ، وزرعُه الذي وسمَ بهِ الكونَ قبلَ أن يكون. قلتُ: فكيفَ يصيرُ لهُ أن يسكرَ بنا؟ قالَ: يشهدُنا ونحنُ نركضُ العالمَ بقلوبنا، ونقدحُ صُوّانَ الأرضِ بفؤوسِنا، ونجهدُ للعدلِ، ونناهضُ الظلمَ. فتأخذُه نشوةُ الربانيةِ التي قامتْ على الإنسانيةِ، وينهلُ من نهرِ الكادحيّةِ التي أحيَتِ المعاني وأقامتْ خلافةَ الإنسانِ. قلتُ: كلامٌ لذيذٌ. قالَ: أنتَ ذقتَ في هذا الكلامِ من خمرتِه التي يَسكرُ هو بها فوقَ الكلامِ.

[12] لما قرأتُ هذه المحاورةَ على الإمامِ ترقرقتْ عيناهُ بالدمعِ وأطرق ملياً. فقلتُ: أي إمامي! أراكَ تبدّدتَ شجناً. فقالَ: يا موسَى، هو محبّةٌ خالصةٌ، والذين قيلَ لهم اصدعوا يتكلّمونَ عن الجبروتِ حتى أعيوا أنفسَهم وأرهقوا العالمَ. ولو فهمَ الخلقُ قلبَ الغدامسيّ هذا لنسخُوا به ما بين أيديهم، وقدِموا به علَى الحضرةِ العاشقةِ، فشملتْهُم بالرحمانيّةِ الظاهرةِ بعد أن غمرتْهُم في أوّلِ الدهرِ بالسّبحانيّةِ الكامنةِ. ولكنّ النصوصَ العتيدةَ، والأحوالَ المُطّرِدَةَ في الوقتِ، وأنساقَ المعيشةِ والاجتماعِ، ختمتْ على قلوبِ كثيرٍ من العالمينَ، لو قلتَ لهم انهَلُوا من خمرِ العلومِ، والأسرارِ، والمجاهداتِ، لحادُوا عنكَ إلى أغلالِ القراطيسِ الفخمةِ، والرواياتِ المتواترةِ، والمذاهبِ الحاكمةِ. فليتَ اقرأْ الأولَى لم يَتْبَعْها من الكتابِ غيرُ والناسِ الآخِرةِ، حتى تكونَ التلاوةُ التامّةُ "اقرأْ، والناسِ". فيكونُ الكونُ كلُّهُ معرفةً يخوضُها القلبُ بالأَحَدِيّةِ التي هي في مُفردِ القراءةِ، وبالجماعيّةِ التي هيَ في لفظةِ الناسُوتيّةِ. قلتُ: فأكتبُ هذا في الشّروحِ؟ قالَ: نعمْ، فإنَّ الأسرارَ قد انبثقتْ وظهرتْ علَى لجّةِ الماءِ، وإنّ الأذانَ ينهضُ ثم يخفتُ حتّى خَشِينا أن يفوتَ الوقتُ.

وقالَ لِيْ: العاملونَ شركاءُ في الزرعِ، شركاءُ في الخمرِ، شركاءُ فِيَّ.

وقالَ لِيْ: أنا شِركةُ العاملينَ.

وقالَ لِيْ: أنا فرحٌ يكونُ.

وقالَ لِيْ: خمرُك التي يتنادَى إليها الخلفاءُ يُورِثُونها لكَ خالصةً يومَ يَعُزُّ المورِثونَ.

وقالَ لِيْ: خمرُك التي تُشركُ فيها خَلْقي تُشركُني فيها.

وقالَ لِيْ: خمرُك لا سُكْرَ فيها إلا سُكْرُ المشاركةِ، ولا غيبةَ إلا غيبةُ الحالِ، ولا ميلَ إلا ميلُ الفرحِ.

وقالَ لِيْ: الذي خمرتُه مشاركةٌ خلافتُهُ لا تَصِحُّ إلا مشاركةً.

وقالَ لِيْ: المشاركةُ تدشينٌ لمعنَى الجماعةِ فيكَ.[13]

وقالَ لِيْ: المشاركةُ اختلاطٌ في اسمِك الخالصِ، واجتماعٌ في معناكَ الفردِ، وتعديدٌ لحالِك الواحدِ.

وقالَ لِيْ: المشاركةُ وشيجةٌ تصلُ جسدَك بأجسادِ الخلقِ حتى يكونَ العالمُ جسداً واحداً، بخمرةٍ في العروقِ لا تَتَسَنَّهُ.

وقالَ لِيْ: المشاركةُ قلبُ العالمِ الذي سَكِرَ بالخلافةِ الواحدةِ، غيرَ أنّ شغافَهُ من كلِّ جهةٍ.

---

[13] يعقدُ عبدُ الرحمنِ الغدامسيّ بين الخمرِ والشِرْكَةِ عَقداً يبينُ فيه عن معنى الفرحِ الذي هوَ اجتماعُ الخلقِ بالمحبّةِ، واختلاطُهم بالشهوةِ، واعتمالُ الشوقِ في أبدانِهم وأرواحِهم جمعاً واحداً متصلاً بمعاني الفرديةِ العاملةِ. قالَ حادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ الصّدّيقُ بنُ عبدِ اللهِ السّاقي: فالخمرُ تُفلَحُ وتُبذَرُ وتُعصرُ لسرورِ الناسِ فمتَى خرجتْ عن ذلكَ إلى أذاهم بَطَلَ معنَاها الطَّيِّبُ وصارتْ خَبَثاً وحزناً كبيراً.

وقالَ لِيْ: المشاركةُ التي تحيلُ العالمَ جسداً واحداً تَلُمُّ شتاتي إليكَ.
وقالَ لِيْ: المشاركةُ التي تَلُمُّ شتاتي إليكَ تصيرُ بها إمامَ الموحِّدين.
وقالَ لِيْ: الذي يُشْرِكُ في الخمرِ يحفظُ لي معنَى الوحدانيّةِ.
وقالَ لِيْ: المشاركةُ التي تقترفُها في الخمرِ تقترفُك هي في الخلافةِ.
وقالَ لِيْ: هذا حالُك وأنتَ تشربُ معهُم، فكيفَ حالُك وأنتَ تشربُ معي؟
وقالَ لِيْ: هذا حالُك وأنتَ تشرُبُ معي فكيفَ حالُك وأنتَ تشربُ مني؟
وقالَ لِيْ: هذا حالُك وأنتَ تشربُ مني فكيفَ حالُك وأنتَ تشربُ بي؟[14]
وقالَ لِيْ: الخمرُ يُشَبِّهُ الأحوالَ لديكَ، ويفترضُ المقاماتِ، ويُقاربُ الفتوحاتِ الجليلةَ.
وقالَ لِيْ: ما يُشَبَّهُ لكَ في مقامِ الخمرِ مُضاهاةٌ لِكُلِّ مُقامٍ لا خمرَ فيهِ.
وقالَ لِيْ: الخمرُ مضاهاةٌ غالبةٌ.

---

[14] قالت أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ، قدوةُ العاشقِ والمريدِ، في جبالِ ترهونةَ ووديانِ بني وليد: هذه أربعةُ مقاماتٍ متّصلةٌ يحسَبُها المريدونَ مترتّبةً من الأدنَى للذي هو أبعدُ غوراً. فيشربونَ مع الخلقِ، ثم مع الحقِّ، ثم منهُ، ثم بهِ. والثابتُ عندَ العارفينَ أن هذهِ المقاماتِ مقترنةٌ بعضُها ببعضٍ في هيئةِ الدائرةِ، حتى يتماهَى كلُّ مقامٍ بالذي يليهِ، بلا أوّلٍ ولا آخرٍ. قالتْ: فالذي يشربُ بالحقّ يجدُ قلبَهُ في معيّةِ الخلقِ الذين هم مقصدُ الحقّ وشغافُه. والذي يجلسُ إلى العاملينَ والعاملاتِ ينادِمُهم بخمرِ البساتينِ التي زرعُوها، يصلُ إلى أن ينادمَهم به هو، وهم ينظرونَ، فيُشَبَّهُ لهم أنه إنما يشربُ من عنبِ الكرومِ، وما هو كذلك. قلتُ: ومن هذا فإنّكَ ترَى العارفينَ الكبارَ يمشونَ بين هذهِ الأحوالِ العجيبةِ في اليومِ والليلةِ، فإن تقفَّيْتَ أثرَهم صُعِقْتَ من هولِ السّفرِ، وجلالِ الطريقِ، وغمرةِ الفتوحاتِ المكينةِ.

وقالَ لِيْ: مضاهاةٌ – من يشربُ خمرَ البساتينِ هلْ يصيرُ صاحبَ النُّوارِ؟[15]
وقالَ لِيْ: مضاهاةٌ – الساقي الذي يشربُ ما في الأقداحِ من سقَاهُ؟
وقالَ لِيْ: مضاهاةٌ – الكأسُ الذي تشربُ منهُ هل يَسكرُ؟
وقالَ لِيْ: مضاهاةٌ – الشاربُ الذي تُعصرُ له الكرومُ كيفَ يسكرُ بلا الكرومِ؟
وقالَ لِيْ: مضاهاةٌ – العاصرُ الذي لا يجلسُ إليه الشاربونَ هل عصرَ؟

---

[15] كانتْ مُريدَةٌ تجيءُ للدرسِ عندَنا علَى حالٍ وسطٍ من الملاحةِ وفيها غفلةٌ ظاهرةٌ عن أوارِ العلومِ. فلما شَهِدَتْ معنا الحضرةَ الصوفيةَ، وشيوخي والمريدونَ في حالٍ من الوجدِ والهبَلِ، تَحَشَّمَتْ أولَ أمرِها. ثم سَرَتِ الأسرارُ في قلبِها، فتَلَوّنَتْ خدودُ البنتِ بحُمرةٍ لذيذةٍ، واتّسعتْ حدقتاها كأنّها تشهدُ البستانَ الذي تُعصرُ منهُ خمرُ التجلياتِ. وتَضَوّعَتْ عطراً من عرقٍ وبخورٍ ونُوّارٍ. ونزلَ شعرُها عن قرنَيها وتمايلَ جسدُها بإيقاعٍ فيه بطءٌ وهيامٌ. فكانتْ علَى هيئتِها تلكَ بين حالِ الحوّائيةِ وحالِ السِّدْريّةِ. قالَ الأستاذُ العارفُ بالخلقِ العرْبي بن مهيدي: كنتُ أكتبُ الشعرَ يُلهِمني صاحبُ البستانِ ويحرّكني نُوّارُه. فصرتُ لا أضطربُ إلا بالبنتِ! وقالتْ شيخَتي خديجةُ بنتُ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ: كنتُ كلما قرأتُ أحوالَ العارفين يتهيّأ لي الشيوخُ والرجالُ الأشدّاءُ فصرتُ لا أرَى في عينِ خيالي غيرَ هذه البنتِ ووجدِها وتَشَوُّقِها.

قالَ الإمامُ أحمدُ: هي شرِبتْ من خمرِ البستانِ الربانيّ حتى صارتْ هيَ صاحبتَه التي ترعاهُ وتعصرُ نوارَه. فلمّا اسْتَوَتْ علَى العرشِ وجدتِ الأستاذَ ومولاتَنا يَقْتَاتَانِ منهُ فلم تقطعْ أرزاقَهما وأَجْرت عطاياهما كما هي ولم تمنعها عنهما. قالَ الإمامُ: وهي أرزاقُ الإلهاميّةِ وعطايا التجلياتِ العُلويّةِ.

قلتُ: كلُّ هذا والبنتُ تدخلُ الحضرةَ لا تعلمُ أنها إنما تُعطَى البستانَ وتجلسُ على العرشِ وتُجري معائشَ السّادةِ وأقواتَهم.

وقالَ لِيْ: العاصرونَ معقودونَ بالشاربينَ.

وقالَ لِيْ: العاصرونَ الذين يشربونَ أَحَدُّ معنىً من الشاربينَ بلا عصرٍ.

وقالَ لِيْ: العاصرُ يعصرُ قلبَه قبلَ أن يدخلَ على الكرومِ، لأن عصيرَ القلبِ إشارةٌ باكتمالِ الثّمرِ.

وقالَ لِيْ: قلبُ العاصرِ علامةٌ للعالِمِ بانبلاجِ خمرِ الوقتِ.

وقال لي: قلبُ العاصرِ غيمةٌ متشابهةٌ وأنتَ تريدُ الغيمَ الذي أُحْكِمَ في الكتابِ.[16]

وقالَ لِيْ: التشبيهُ مقاربةٌ، وكلُّ مقاربةٍ احتمالٌ.

وقالَ لِيْ: الاحتمالُ لذّةُ الخمرِ ولذّةُ العالِمِ في نشوةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: ما يُشَبَّهُ لكَ مصلوبٌ علَى خشبةِ التّسميةِ، وأنتَ تنظرُ لفوقَ تَرجو صُعُودَه إلّي.

---

[16] كانَ مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملكِ الحضرميّ، أستاذُ الطريقة، وصنوُ الحقيقة، صاحبُ البهاء، وضوءُ السماء، في حَضْرَمَوْتَ، وديارِ عدنَ وصنعاء، يمزجُ المقاماتِ في شرابٍ من مُكابدةٍ ونورٍ، ويَشْبُكُ أحوالَ العارفينَ في عجينِ المجاهدةِ والانشراحِ، ويخلطُ الرؤَى الجليلةَ، والنبوءاتِ المتوهّجةَ، في أقداحِ الخمرِ المعتقةِ. فيَسْكَرُ كلُّ من كانَ في حضرتِه، ويَهيمون في الوديانِ، ويَغيبون عن الأثرِ. حتى تَشُوبَ وجوهَهم حُمْرَةُ السُّكْرِ، وأبدانُهم تميلُ كأعوادِ النوارِ، يقولونَ الشعرَ، ويَحِيكُون الآياتِ، ويُراجعون الكتابَ كأنهم هم أنزلُوهُ ثم ضَيّعوهُ. ومولايَ في كلِّ هذا ثابتُ الفؤادِ، حاسرُ الرأسِ، يُنَاوِرُ عن الغواياتِ، ويَشُدُّ من أزرِ الأرواحِ، ويُؤاسي أصحابَ الدياناتِ والمللِ. قالتْ سيدتي الواجدةُ باللهِ: الحضرميُّ يعصرُ لنا الكرومَ الإلهيةَ يَسقيها في كؤوسِ الوَجْدِ، فيُذْهَلُ بها العاشقونَ المتيّمونَ لا يعودُوا يَعرفون أرائِكَهم من سُنْدسِ العرشِ، ثم يقولُ: ياجماعة، ما بكم؟

وقالَ ليْ: ما يُشَبّهُ لكَ يُشرِعُ بإزائكَ أبوابَ الغوايةِ بالأشياءِ ويفتحُ الشبّاكَ الذي أزهرَ تحتَه نوارُ العالمِ.

وقالَ ليْ: ما يُشَبّهُ لكَ يُشبِهني.

وقالَ ليْ: ما يُشَبّهُ لكَ يُشبِهكَ.

وقالَ ليْ: الخمرُ وشوشةٌ في أذنِ الوقتِ، وإضاءةٌ في عتمةِ المكانِ، وتمتمةٌ في حضرةِ الربانيةِ المُسرفةِ.

وقالَ ليْ: إسرافُ الربانيةِ إمعانُها في مُقامِ الرّحمانيةِ.

وقالَ ليْ: الإمعانُ إمكانُ القلبِ من زمامِ العرشِ.

وقالَ ليْ: زمامُ العرشِ قد يصيرُ إليكَ.

وقالَ ليْ: قدْ عندَك احتمالٌ، وعندَ سُبحانيتي تحقيقٌ.

وقالَ ليْ: الخمرُ تشبيهٌ للعرشِ.

وقالَ ليْ: الخمرُ كِنايةٌ عن وسوسةِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الموسوسُونَ قدْ يَصِلونَ.

وقالَ ليْ: الموسوسونَ على الطريقِ تُضِلُّهُم التُّرهاتُ وتَتناوشُهم الرؤَى وتُنهِكُهم مصائرُ العنبِ والحنطةِ المعتَّقةِ.

وقالَ ليْ: الموسوسُونَ يشربونَ من لُجّةِ المعاني في أقداحِ الضلالةِ المكينةِ، والناسُ يَحسَبون أنهم يَغرقونَ.

وقالَ ليْ: الموسوسونَ يعرفونَ العالمَ بهذيانِه وسَكْرَتِهِ، والموقنونَ يقفونَ على العتباتِ يتربّصونَ بالبراهينِ العتيدةِ والآياتِ المحكَماتِ لكيْ يعرفُوهُ.

وقالَ لِيْ: الموسوسُونَ يَرَوْنَ علاماتي علَى الطريقِ فيُخربِشون عليها ويَجْرُونَ.[17]

وقالَ لِيْ: الموسوسُونَ عيالُ الربوبيةِ الذين يَلهونَ بأسمائِي وأحوالِي ثم يقولونَ لم نفعلْ.

وقالَ لِيْ: الوسوسةُ لذّةُ القلبِ الذي يَهذي بالأسرارِ والناسُ يقولون تَحَشَّمْ هذي معانٍ جليلةٌ لا تجوزُ لكَ.

وقالَ لِيْ: الوسْوَسةُ تجاورُ الوشوشةَ.

وقالَ لِيْ: الوشوشةُ كلامُ الكأسِ وهي تتاخمُ فمَك، والوسوسةُ حديثُها وهي اختلطتْ بدمِك وسكنتْ شغافَ فؤادِك.

وقالَ لِيْ: أنتَ بينَ وشوشةِ الخمرِ ووسوستِها كالعاشقِ بين نَفَسِ المحبوبِ وريقِه.

وقالَ لِيْ: الوشوشةُ مقاربةٌ بينَك وبين الكأسِ، والوسوسةُ صيرورةُ الكأسِ فيكَ

---

[17] قلتُ: كنتُ في وقتٍ فاترٍ أقلّبُ الكتبَ فلا أجدُ شيئاً. فقالَ الإمامُ أحمدُ الدريّ: انظرْ ما يفعلُ المُتَوَقِّدُ، يعني شَيخي المهمومَ بالخلقِ، المسكونَ بالعالِم الحارثَ بن الصادقِ المتوقِّدِ، شيخَ الرؤَى والبشائر، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر. فدخلتُ عليه ركنَه من المدرسةِ، فوجدْتُه مُتَرَبِّعاً على الحصيرةِ يُخربشُ بالفحمِ على ورقٍ فخمٍ مجلّدٍ ومطبوعٍ بالكلامِ الجليلِ المعروفِ على أحسنِ ما يكونِ، وبحذاهُ كتابُ طوقِ الحمامةِ وفيه ما فيه من أخبارِ العشاقِ وصبواتِ المحبينَ. فعجبتُ كيفَ جمعَ بين الكتابين، وماذا يُخَرْبِشُ فيهما، فقالَ: أراجعُ هذا على ذاكَ، وأستأنفُ لهذا من ذاكَ، ومراتٍ أبادرُ من خارجِ هذا وذاكَ. فتلخبطتُ ولم أعرفْ كيفَ أقولُ، وكنتُ حينَها في أولِ الطريقِ، فقالَ الإمامُ أحمدُ: هذي مُقاماتٌ بعيدةٌ، وأحوالٌ شديدةٌ، وتُرّهَاتٌ وأوهامٌ لا تجوزُ إلا للعارفينَ. فارجعْ عنها إلى وقتِك الفاترِ حتى يحينَ لك أوارٌ أو قدحٌ أو تَتَّقِدَ اتقاداً بالمعاني والأسماءِ.

قلتُ: فمن هذا سمّاهُ الإمامُ "المتوقّدَ" ولم يُسَمِّني بعد.

وصيرورَتُك في الكأسِ.[18]

وقالَ لِيْ: الذي يشربُ بقصدِ المحبّةِ يصيرُ الشرابَ ذاتَه، والذي يتغرغرُ بخمرةِ المعرفةِ تحيلُ إليه العلومُ والمعارفُ.

وقالَ لِيْ: الناسُ يُكَنُّونَ بالخمرِ وأنتَ تُكَنّي عنِ الخمرِ.

وقالَ لِيْ: الذي يُكَنّي عنِ الخمرِ فهمَ بالعلومِ حتّى توسَّلَها إلى شرابِ اللذّاتِ.

وقالَ لِيْ: الذي يتوسَّلُ إلى الخمرِ بالعلومِ قد يتوسَّلُ إليَّ بهذه الخمرِ.

وقالَ لِيْ: الذي يشربُ قد يجدُ رائحةَ الياسمينِ وهو خارجَ البستانِ.

وقالَ لِيْ: اسمي الذي يظهرُ لكَ وأنتَ تشربُ يصيرُ إليكَ.

---

[18] كانَ تلميذٌ معنا يكتبُ الشعرَ يُطَيِّبُهُ بالغيبِ والكناياتِ وبعضٍ من أشواقِ المتصوّفةِ. أخذَ هذا عن تُرجُمانِ الأشواقِ الذي حفظَهُ وأَوَّلَهُ وزادَ فيهِ، ثم نسخَهُ علَى الورقِ مرّةً ومرّةً. فبعدَ وقتٍ فَتَنَتْهُ بنتٌ يافعةٌ تسكنُ داراً مجاورةً لنا، فسَكِرَ بها التلميذُ بعد أن كانتْ خمرتُه من كلامِ العارفينَ حصراً. فصارَ لشعرِه رائحةٌ وحضورٌ جديدٌ. فلمّا سمِعَهُ الإمامُ في عشيّةٍ قالَ: يا موسَى تلميذُنا تركَ سِدْرَ العارفينَ وجلسَ تحتَ كرمةِ بُنَيَّةٍ يشربُ. فعجبتُ من فراسةِ الإمامِ في العشاقِ. فبعدَ وقتٍ آخَرٍ أغوتْهُ بنتٌ أخرَى كانتْ تبيعُ النُّوارَ في السوقِ. فإذا التلميذُ يُسِرُّ بها في أشعارِه ويجاورُ بينها وبينَ صاحبتِه الأولَى. فلمّا سمِعَهُ الإمامُ يقرأُ من نظمِه قالَ: وهذهِ كرمةٌ أخرَى يعصرُ منها التلميذُ ويدوخُ. فواحدةٌ توشوشُ له بخمرِ الفتنةِ والأخرَى توسوسُ له بخمرِ الغوايةِ، فلا نجاةَ لهُ. قلتُ: خفّفْ عليهِ يا إمامي. قالَ: الخمرُ تذهبُ فيها حتّى الثمالةَ فعندَها ربما تخرجُ عنها إلى ما يَليها من أحوالٍ فتنجو. أما الذين هم قبلَ الثمالةِ فمغلوبونَ بالوشوشاتِ اللذيذةِ والوساوسِ الجليلةِ، وهذا حالُ صاحبِك بين البنتينِ. قلتُ أنا موسَى: فحلفتُ أن أَصِلَ في كلِّ خمرةٍ إلى ثمالتِها طلباً للنجاةِ لا غيرَ.

وقالَ لِيْ: أسمائي التي تصيرُ إليكَ لا أعودُ آخذُها منكَ.

وقالَ لِيْ: البستانُ الذي تدخلُ إليه ثملاً بالياسمينِ يسألُك من أينَ لك الياسمينُ.

وقالَ لِيْ: الذي يثملُ بالياسمينِ قد يصيرُ منَ الياسمينِ.

وقالَ لِيْ: الذي يفتتحُ الكتابَ بالكرومِ ثم يتكلّمُ آخرَهُ عن الياسمينِ ربما شربَ حتى ثمالةِ البستانِ.

وقالَ لِيْ: الكرومُ فاتحةُ الكتابِ وأنتَ تعصرُ الذي تشابهَ من الكلامِ.

وقالَ لِيْ: الياسمينُ خاتمةُ الكتابِ وأنتَ تريدُ أن تسكرَ بينَ دَفَّتَيِّ الورقِ.

وقالَ لِيْ: هاتِ واشربْ واقتربْ.

وقالَ ليْ: أنتَ ولهُ الآدميةِ البكرِ، وشوقُ الحوائيةِ في أولِ عهدِها بالمعاني، وهذرُ الربوبيةِ التي شُبِّهَتْ لكَ بين الكرومِ. زرعُكَ من شجرةٍ غيرِ مسلوبةٍ، ورزقُك من حُبٍّ ثم حَبٍّ لم يَمْسَسْهُ حَكْرٌ. وحرثُكَ الذي هو غوايةُ الأرضِ يصيرُ مُشاركةً لخبزِ الغلالِ، وخمراً للعاملينَ الوارثينَ. ثم ذا أنتَ في لهفةِ السُّكْرِ تميلُ للحبِّ حيثُ يميلُ. تَهذي بالمسرّاتِ، ويَلثغُ لسانُك بالكلامِ الفخمِ، وتَطيبُ عروقُك بنبيذِ المضاهاةِ وخمرِ الوسوسةِ. فالآنَ تجلسُ إليكَ الأغاني، وتوشوشُك الشّهواتُ، وتتلعثم بك الآياتُ. ثّم لا يصيرُ حزنٌ في أرضِك، ولا جوعٌ في قلوبِ أوليائِك، يَعصرونَ الثمرَ الجافَّ وعنبُكَ بمنالِ أيديهم. هذي خمرٌ طيّبةٌ، وقمحٌ حسنٌ، وجسدٌ يَسُدُّ الرمقَ ويُؤوي المتعبينَ.

21. موسمُ الغناءِ

(وهو قوتُ القلوبِ)

ومن أحوالِه الإشكالُ والتخييلُ والكنايةُ عنكَ والإيغالُ والبهجةُ والمحاكاةُ
والإشارةُ والنبوّةُ وأسماءُ الإنسانِ وضجّةُ العالمِ والغوايةُ وموسيقَى الأشياءِ

وفيه راودَتني أُغنيةٌ عنْ فمِي، وسَرَتْ غِوايَتُها في دمي، وأينعَ عطرُها في صوتي، واختلطَ لفظُها بلسَاني. وإذ برُوحي المتعبةِ طربُ حَيِيٍّ، وشَهوةُ نبيٍّ، وخِفّةُ عاملٍ كادحٍ. فجاهدتُ عن نفسي هذا المقامَ الجليلَ، والحالَ الذي أعيَا من هُمْ أثبتُ مني وأربطُ جأشاً. فلمَّا غُلِبْتُ مَلَكَ الغناءُ علَى فَهْمِي، وأصبح عِلْمِي منْ بعضِ تَقَاسِيمِهِ، وعملي من أصلِ قَرارِهِ وجَوابِهِ، وصارتْ حديقتي نشيدَ كدحٍ وفرحٍ، ومغنى طُيوبٍ ومرحٍ. فأتيتُها وهي سافرةٌ جامحةٌ، فزيّنتُها بالمعَاني الباهرةِ، والألفاظِ المنحازةِ، والأفعالِ الوازرةِ. ونادَمْتُها ببدنِ الوترِ، وجعلتُ أتمرّغُ في ثَراها الرطبِ، وقد غلبتني الرغبةُ بالإثمِ الطيّبِ، وتقلّبتُ على كلّ جنبٍ بالمعصيةِ الربّانيةِ. فضجّتِ السّماءُ والأرضُ بالغناءِ، وظهرَ أوّلُ الزلزلةِ. فعجبتُ لانبثاقِ العالمِ على أيّ صوتٍ يكونُ.[1] فانتهتْ إليّ موسيقى الأشياءِ، وخالطتْ بدني فكأنّها منهُ، وقلبي فكأنّهُ منهَا. وصدرتْ عني ألحانُها ومقاماتُها، وفاضَ إليَّ شجوُها وزهوُها. ودندنتُ الويلاتِ ويلاً فويلاً، ودوزنتُها صعوداً ونزولاً. فوصلتُ أوّلَ

[1] الصوتُ، عندَ أهلِ اللّهوِ والخلافةِ، مقامٌ يكونُ فيه الغناءُ على درجةٍ معروفةٍ، ونحوٍ موصوفٍ. ومن مشهورِهِ الصَّبا، وهو رقيقٌ، والراستُ، وهو أشدُّ، والنهاوَندُ والبياتي. ورهطُنا لا يصحُّ عندَهم علمٌ ولا يطيبُ عيشٌ إلا بهذهِ الأصواتِ وسماعِها على مُقتضى الحالِ، ويُسمّونها "قوتَ القلوبِ". وكانَ لبعضِ الأساتذةِ والأستاذاتِ أصواتٌ جميلةٌ واستطاعةٌ علَى العزفِ والتّرنيمِ. فكانوا يُقسِّمون فنَّهم بين التلاوةِ الواجبةِ، والحضرةِ الصوفيّةِ، وبعضِ الغناءِ المختلطِ بالغوايةِ والإنسانيةِ. وهم يَتحشَّمون من الجهرِ بالطربِ والولهِ بالموسيقَى، غيرَ أنهم في جلساتِ الذّكرِ، وفي الاجتماعِ المخصوصِ بالعارفِينَ، ينطلقون بلا قيدٍ كأنهم أرواحٌ حُبِسَتْ، فتوجَّعتْ، فتولّهتْ بالغيبِ والبِشاراتِ الأولَى. قلتُ: فإن سنحتْ لكَ حضرةُ الغناءِ، غناءِ العارفِينَ، فتقدّمْ في التخومِ لعلّكَ تصلُ.

"ليلِها" بآخرِه، وبرأتُ لمقاماتِها إشاراتٍ مكتوبةً، وعلاماتٍ منصوبةً. فذُهِلَ كلُّ شيءٍ، وأنكرَتْني الثوابتُ وما عرفتْ أترقصُ أم تحجمُ. فذهبتُ في الدندنةِ فأوغلتُ، وراقبتُ فعلَ الوجودِ في عادَتِهِ، وانتبهتُ لسكنتِهِ ونَفْضَتِهِ. فَهَمْهَمْتُ خروجَ الثمرةِ من الزهرةِ، والزهرةِ من الغصنِ، والغصنِ من الشجرةِ. ووَزَنْتُ نغمتي على وقعِ الريحِ والمطرِ، وحاكيتُها على نبضِ الموتِ واليقظةِ. فصارتْ ميزانَ الكونِ، وغدا الوقتُ عندي إيقاعاً، وقَدرتُ علَى فهمِه. فأعجلْتُهُ وأبطأْتُهُ، وشَحنْتُه وأفرغْتُه، وهدّأتُ من روعِهِ وأَقلقتُه، وأسميتُه الراستَ والصّبا، ووسمْتُهُ بالحركةِ والسكونِ. فبُهِتتِ الكائناتُ من فعليْ، وأعجبَها فهمي للوقتِ. فلمّا رأيتُ فيهم الفتنةَ من غنائي باغتُّهُم بهِ. فمَا دروا إلا ولحني بأيديهِم، فتشبّهوا به.[2] وأخرجتُ منهم أهلَ العشقِ، ومَن صوتُهُ حسنٌ فقدَّمتُهُ. فألقيتُ في رَوعِهم لَغْوي وهوَ الحقُّ. فوجدوهُ خَيالاً لا يقدرُ الجِنُّ أن يأتي بمثلِهِ، فيهِ أحوالٌ وأشغالٌ أَعْيَتِ القائلينَ، وعليهِ حُلّةُ الغناءِ من قَبْلِ أن يُجعَلَ في الأصواتِ. فصَدحوا به

[2] جاءَ رجلٌ يلهثُ إلى الإمامِ أحمدَ ومعهُ ابنٌ لهُ يقودُه قوداً شديداً، فقالَ: آسيّدي! خُذ ولدي هذا معكَ فعلّمهُ الكتابَ كلَّهُ لا ينقصُ منه شيءٌ، علَّ كلَّ حرفٍ يكونُ لهُ خيراً وبركةً. قالَ الإمامُ: بل أعلِّمُهُ رُبْعَهُ والرُّبْعُ كثيرٌ، وأزيدُ عليهِ غناءً وبعضَ الموسيقَى. فغضبَ الرجلُ وظنَّ بالإمامِ هُزؤاً وقالَ: هو واللهِ نجيبٌ أريبٌ، فجرّبهُ. فضحكَ الإمامُ، وكانَ يرحمُه اللهُ ضاحكاً باسماً، وقالَ: ما أردتُ هذا وإنما لكلِّ نفسٍ جهدٌ وطاقةٌ فإن أقعدْتَ ابنكَ للحفظِ كلِّهِ فاتَهُ خيرٌ كثيرٌ من علومِ الدنيا وفنونِها وهيَ أسبابٌ لا ينبغي أن تفوتَ هذا الخلقَ اليافعَ من الأمّةِ. فلمْ يفهمِ الرجلُ وخرجَ بابنِه، ولعلَّهُ أخذَه لِمَحْبِسِ حفظٍ فأقعدَهُ فيهِ.

بأمْري وأنا ربُّ النشيدِ أُخرِجُهُ للبريّةِ جذلاناً فيَبهتُ الباطلُ. فلما صارَ شَدْوُهُم واحداً فرَّقْتُهم على الأغاني، وقلتُ اهبطوا كلٌّ لهُ صوتٌ وكلامٌ وآلةٌ يعملُها. فلمّا نزلوا ديارَهم نَشزوا وألحنُوا وخَلطوا الحقَّ بالباطلِ، ذاهلونَ لأيديهِم قولٌ لا تعرفُهُ ألسِنتُهم. فلمّا صارَ غناؤُهم في الأفواهِ لَفَظَهُ أهلُ الحقِّ، فقرَّ في قلوبِ الغافلينَ. فحُجِبُوا بهِ عن أحوالِهم فلمْ يَفهمُوها، وعنْ مآلِهم فلمْ يَعرفُوه. وأباحَ السُّلطانُ لَهْوَ الحديثِ، فباعَهُ الناسُ واشتروهُ، واجترُّوهُ اجترارَ الأنعامِ. فطلعتُ عليهِم من بُستاني ساعةَ زرعٍ، فغنَّيتُ الحقَّ بيديَّ يكادُ يكونُهما. فرَجَّعَهُ الثّابتونَ والثّابتاتُ، العاملونَ لوجهِ الحصادِ، ألسنتُهم من شَدوٍ يَفُلُّ الحديدَ، وحناجرُهم مددٌ لا يخيبُ.[3] فلمّا ارتفعَ صوتُ الغناءِ تهافتَ صوتُ الباطلِ، حتى انقطعَ وجيبُهُ، فجاءَني سيدُ المغنّينَ، تُبشّرُ بهِ دندنةٌ لا قِبَلَ لظالمٍ بها، فقالَ لي:

موسيقاكَ في كفّةٍ وضجَّةُ العالمِ في كفَّةٍ

وقالَ ليْ: موسيقاكَ لَهْوُ العارفينَ، ولَغْوُ الأولياءِ، وقد جَلَسَ هؤلاءِ إليكَ في حَضْرتي، وسلَّمُوا عليكَ بتحيَّتي، وأنتَ منهُمُ عينُ الغناءِ الذي هوَ أنا، ومعنى الكونِ الذي هُو هُم. فقُمتَ كريماً إلى دِنِّكَ فأدنيتَهُ، وإلى عُودِكَ فعَاوَدْتَهُ. فكأْسُكَ إكرامٌ، وصوتُك إكرامٌ، ورقصُكَ إكرامٌ.

[3] مرّت أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالميَن في الصباحِ برجلٍ يعملُ في كنسِ الشوارعِ من القذارةِ وهو يغنّي بصوتٍ شجيٍّ، وفي خطوهِ ما يُشبه الرقصَ، فقالتْ: لله درّهُ كأنّه وليٌّ أو بعضُ نبيٍّ! يكنسُ بيدِه قُبحَ الطريقِ، وبصوتهِ صدأَ القلوبِ، وبخطوهِ كسلَ الأبدانِ. ثم جاءتهُ فسلّمتْ عليهِ وشكرتْ له فعلَه في صباحِها وصباحِ الخلقِ. ففرحَ الرجلُ من كلامِها ودعَا لها.

وقالَ لِيْ: ضجّةُ العالِمِ إزاءَ أغنيتِك لأنّ الذينَ يُغنّونَ يُشْكِلُونَ علَى العالِمِ وهو في مُقامِ الوجعِ اليوميّ.[4]

وقالَ لِيْ: الذي يُشْكِلُ علَى العالِمِ لا يقدرُ العالمُ أن يَحبِسَهُ أو يَرهنَ معناهُ.

وقالَ لِيْ: الإشكالُ جهةٌ من جهاتِ الانعتاقِ.

وقالَ لِيْ: الإشكالُ لا يخضعُ للنسقِ الذي أنشأهُ العالمُ فلا يعرفُ العالمُ أن يُفَكِّكَهُ أو يُطيحَ بهِ.

---

[4] **تَوَغّلَ تلميذٌ في الدرسِ والعلومِ حتّى صارَ يومُه مناوشةً للنصوصِ، وليلُه استئنافاً ومراجعةً. فإذا خرجَ عن حالِه هذا دخلَ إلى تخومِ المناهضةِ، ورَفْضِ المظالِمِ، ومُناوأةِ الظالمينَ. حتّى يكادُ يتفتّتُ قلباً وبدناً، ويتصدّعُ اسماً ومعنًى. فبعثَ وراءَه الإمامُ، والتلميذُ يُنازلُ العلومَ والمظالمَ في دورةٍ واحدةٍ، فقالَ لهُ: يا فتًى، الحوتُ العظيمُ، في لجّةِ المحيطِ الأكبرِ، يَلْزَمُهُ أن يخرجَ عن الغمرِ إلى صفحةِ الماءِ للنفَسِ اللازمِ للحياةِ. فحينَ يَتَقَوّتُ منهُ يعودُ فيغوصُ إلى الغَوْرِ العميقِ كأنْ لا شيءَ. فبعدَ وقتٍ مديدٍ يصيرُ واهناً من فعلِ السنينِ وتعاقبِ الأيامِ، فلا يقدرُ أن يحملَ بدنَه من قلبِ اللجّةِ إلى وجهِ الماءِ ليحصلَ علَى النفَسِ الواجبِ. فيَثْقُلُ بدنُه وينزلُ رويداً رويداً إلى قاعِ المحيطِ، وهو يغرقُ متغرغراً بالماءِ الذي كان سياقَ حياتِه، وجهةَ أشواقِه، وفضاءَ مغامرتِه في هذا العالِمِ. وأنتَ، يا بني، كهذا الحوتِ في أحيانِ فُتُوَّتِهِ، يَلْزَمُكَ أن تَطْلَعَ من المتنِ الشديدِ الذي أنتَ فيهِ إلى صفحةِ الغناءِ والخمرِ وبعضِ المرحِ، فتَتَقَوّتَ منها ما يجبُ لعلومِك ومناهضتِك في هذا العالِمِ. وإلا صرتَ كهذا الحوتِ في أحيانِ الموتِ، ثَقُلَ بدنُه فتغرغرَ وغرقَ واستقرَّ في عمقِ الظلمةِ الغالبةِ.**

قلتُ: فاهتزَّ التلميذُ لكلامِ الإمامِ، وصارَ يرقصُ ويغنّي ويسكرُ ماشاءَ له النفَسُ اللازمُ للعلومِ والمناهضةِ الحاسرةِ.

وقالَ ليْ: الغناءُ إشكالٌ من جهةِ أنّكَ حينَ تغنّي لا تخضعُ لحيّزِ الهذرِ المعتادِ فلا يعرفُ العالمُ كيفَ يَطَأُكَ بصخبِه.

وقالَ ليْ: الغناءُ يُدَجِّجُكَ ضدَّ صخبِ العالمِ.

وقالَ ليْ: الغناءُ إشكالٌ في الرياضةِ التي هي العددُ، وفي العلومِ التي هي المعاني، وفي البهجةِ التي هي المسرّةُ الظاهرةُ.

وقالَ ليْ: الغناءُ يُشاكِلُ إيقاعَ الكلامِ المرسَلِ لأنّ البهجةَ يلزمُها الإشكالُ علَى الحديثِ اليوميّ.

وقالَ ليْ: البهجةُ استدعاءٌ لرحمِ الغناءِ أن يزخرَ بكَ وبأشيائِك وأحوالِك.

وقالَ ليْ: الغناءُ جهرٌ باسمِك الذي كادَ أن يتهافتَ تحتَ سطوةِ الأسماءِ المناوئةِ.

وقالَ ليْ: الغناءُ تلبيةٌ تقصدُك أنتَ.

وقالَ ليْ: الغناءُ طوافٌ حولَ كعبةِ الحزنِ ثم إفاضةٌ عنها إلى شعائرِ العملِ.

وقالَ ليْ: الذينَ يطوفونَ ثم لا يَفيضونَ لم يُغنُّوا ولكنْ شُبِّهَ لهُم.

وقالَ ليْ: الغناءُ الذي ينبغي لك ينبثقُ في سياقِ العالمِ، صوتُه ونغمتُه وأثرُه في القلوبِ، فمِن هذا لا يُشَبَّه لكَ.

وقالَ ليْ: الغناءُ أن تغرسَ يدَك في طينِ الزرعِ، أو زيتِ الآلاتِ، أو دَواةِ العلومِ، فيفزعَ لها قلبُك وموسيقاكَ بالمعاني الساندةِ والكلماتِ المبهجةِ.[5]

وقالَ ليْ: الغناءُ السانِدُ كلامٌ يقولُكَ ابتداءً فتقولُهُ استئنافاً.

---

[5] قال الإمامُ أحمدُ: تكلمتْ حرثاً ومجاهدةً. فقالتْ أُستاذتي زينةُ العالميَن: حرثاً للأرضِ ومجاهدةً للمظالمِ التي تُنقِصُ من أطرافِ هذه الأرضِ، فإنّ المجاهدةَ صِنْوُ الحرثِ وكلاهما مادةُ الغناءِ الموجبِ للطربِ.

وقالَ لِيْ: القولُ المستأنَفُ استعادةٌ لبَكارةِ الابتداءِ وتوغّلٌ في أحراشِ المعنَى الذي بدرَ منكَ أولاً.

وقالَ لِيْ: خمرُكَ وغناؤُكَ، وفأْسُكَ بيدِك، أفخمُ من صلاةِ الداخلين في حكمِ الظاهرِ.[6]

وقالَ لِيْ: غناءُ الإنسانِ ربانيّةُ الأزهارِ في بستانِ الوقتِ الذي كدحتَهُ لها.[7]

---

[6] كنا نحرثُ البستانَ فصلّتْ بنا أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمِيَن. فقرأتْ فأبكتْنا، ثمَّ قرأتْ فأرسلتْ فينا الرجاءَ. فلمّا أتمَّتْ وسلَّمتْ كنا أرواحاً هائمةً في الملكوتِ. فقلتُ: غنّينا يا أستاذةُ صوتاً يناسبُ مقامَ الحرثِ الإنسانيّ والهيامِ الإلهيّ الذي نحنُ فيه. فشدّتْ حبيبةُ اللهِ علَى فأسِها وأنشدتْ كلاماً طيّباً ذكرتْ فيهِ الحقَّ والخلقَ وأحوالَ المحبّةِ والجسدِ. فواللهِ ما درَينا أيّهما اتّصلَ بالربانيّةِ قبلَ الآخرِ: حرثُها أم صلاتُها أم غناؤُها. قال تلميذٌ: هي جميعاً مطيّةٌ واحدةٌ لبُراقِ القلبِ الذي يَسري ثم يُعْرَجُ به في طُرفةِ حبٍّ.

[7] قلتُ: الوقتُ يكادُ يستغرقُ الغناءَ تعريفاً لأنّ الغناءَ، عندَ أهلِه العارفينَ بهِ، ضبطٌ لإيقاعِ الحركةِ اللحنيّةِ، ودوزنةٌ لشدّةِ الصوتِ أو فخامتِه، وتناغمٌ للآلاتِ المتعدّدةِ في اتّساقٍ واحدٍ. وهذا كلُّه متّصلٌ بالوقتِ الذي يُسمُّونَه الزمنَ الموسيقيَّ. والغدامسيُّ هنا يقيمُ رابطةً عجيبةً بين وقتانيّةِ الغناءِ ووقتانيّةِ الربانيّةِ. قالَ شَيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصورٍ ،شيخُ الغناءِ والبرهانِ، في بساتينِ سلوقَ وزوايا البِطنان: هذا لأنّ الربانيّةَ هي السبحانيةُ التي دخلتْ إلى الوقتِ فأحبّتِ العالمَ، حتى صارتْ متعلّقةً بسياقِ الوقتِ وأحوالِ الحركةِ وأبعادِ الحدوثِ والصيرورةِ. فمن هذا يصحُّ القولُ أن السبحانيةَ مفارقةٌ غيرَ أنَّ الربانيّةَ مسألةُ وقتٍ. قالَ: فأنتَ حين تغني تتحيّنُ في الوقتِ. وهو، أي الربُّ، حين يحبُّ يتحيّنُ في الوقتِ. فربما تلتقيانِ عندَ نغمةٍ باهرةٍ أو نقلةٍ موسيقيّةٍ مباغتةٍ أو لذّةٍ من لذّاتِ النهاوندِ والصّبا، فَخَلِّ بالَك.

وقالَ لِيْ: مُقامِ الربانيةِ، كالغناءِ، مسألةُ وقتٍ.

وقالَ لِيْ: صوتُكَ وأنت تغنّي في مقامِ الكدحِ كصوتي وأنا أتكلّمُ في مقامِ الغارِ، غيرَ أنِيّ في حالِ الربّانيّةِ أَفْخَمُ منكَ في حالِ الإنسانيةِ، أو هكذا "قالَ لي".

وقالَ لِيْ: صوتُكَ في حالِ غنائِكَ مُقامُ فهمٍ تشهدُه أسمائي، ومجلسُ علمٍ تُهْرَعُ إليهِ أحوالي.

وقالَ لِيْ: هذا الغناءُ الذي يصدرُ عن قلبِك اسمُك أنتَ في الكونِ.[8]

وقالَ لِيْ: غناءُ العارفِينَ استئذانٌ عليَّ بالدخولِ، وطربُهم إفساحٌ لهم في مَجلسي.

وقالَ لِيْ: غناءُ العارفِينَ وَقْعُ معارِفِهم علَى قلوبِهم فَخُروجُها إلى أصواتِهم.

وقالَ لِيْ: غناءُ العارفِينَ معرفةٌ في ثيابِ البهجةِ الغامرةِ.

وقالَ لِيْ: العارفُ الذي يُغنّي يحيلُ قلبَه إلى الموسيقَى ثم يجلسُ علَى أريكةِ الإباحةِ يربكُ العالمَ بالأسرارِ التي سنحتْ لهُ.

وقالَ لِيْ: العارفُ المغنّي زيادةٌ في اللفظِ غيرَ أنّهُ كفافٌ في المعنَى.

وقالَ لِيْ: العارفُ لا بدَّ له من الغناءِ.

وقالَ لِيْ: موسيقاكَ جماعُ العلومِ التي فاضتْ عن قلبِك ثم يديكَ.

---

[8] كانتْ رقيّتُنا، بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ، تعرفُ لطافةَ حضورِها وحلاوةَ صوتِها ووقعَهُ على القلوبِ. فكانتْ تخرجُ لعمّالِ الناحيةِ، وفيهم الصيّادونَ والبناؤونَ والحمالونَ، فتغنّي لهُم فيفرحُ أكثرُهم ويؤذيها بعضُهم بكلامٍ يقولونَ هذهِ بنتُ هوىً تَفْسُقُ على الملأ. فتأتينَا تبكي تقولُ: الغناءُ اسمي الذي لي، فكيف أفعلُ بلا اسمٍ؟ واللهِ لا أعودُ. قلتُ: ثمّ تعودُ! وهذا حالُ الطيباتِ المجاهداتِ، يبذرنَ الفرح في أرواحِ الحزانَى وأجسادِ العاملينَ المتعبينَ. فكأنّ البهجةَ بأيديهِنّ، والمسرّةَ بأصواتِهنَّ، والمنَّ والسلوَى بقلوبِهنَّ وأثدائِهنَّ.

وقالَ لِيْ: موسيقاكَ تشيرُ إليكَ.

وقالَ لِيْ: موسيقاكَ جلجلةُ فرحِ الأشياءِ، وشجنُها.

وقالَ لِيْ: موسيقاكَ متاخَمةٌ لصوتي، كي لا يذهبَ كلامي سدًى.[9]

---

[9] كنتُ عندَ الشيخِ الحضرميّ أذاكرُ بعضَ الدرسِ، وأعرضُ عليهِ شيئاً من الأبحاثِ التي عملتُها في بابٍ جليلٍ. فبينَما نحنُ في أوارِ العلومِ وقد وقفنا عندَ مسألةٍ بعينِها قالَ الشيخُ: قُمْ بِنا. فأخذَني إلى سطحِ دارِه، فإذا هو مستورٌ بسياجٍ مرتفعٍ بقامةِ الإنسانِ، والزرعُ والنوّارُ علَى حوافِّه وفي متنِه الواسعِ. فجذبَني الشيخُ إلى ناحيةِ الدّارِ المتاخمةِ ثم قرأَ عبارةً من الكتابِ بصوتٍ حسنٍ. فبعدَ وقتٍ سمعنا صوتَ بُنَيَّةٍ من تلكَ الدارِ المجاورةِ تتلُو ما قرأَ الشيخُ أحسنَ تلاوةٍ. فلمّا أتمّتْ سكتتْ برهةً ثم صدحتْ تغنّي بَيْتَيْنِ من الشعرِ أحسبُ أنُهما لابن زيدونَ. فرَجَّعَ الشيخُ البيتينِ في غناءٍ مقاربٍ لغناءِ البنتِ، وكأنّهُ يأخذُ عنها علمَها كما أخذتْ هي عنهُ علمَه. كلُّ هذا ونحنُ لا نراها وهي لا ترانا من وراءِ السياجِ والشجرِ المتطاولِ. فنزلَ بِي الشيخُ بعدَها إلى ركنِ الدرسِ الذي كنا فيه، فقلتُ: خبّرني. فقالَ: هي بنتٌ محبوسةٌ في هذه الدارِ، لا نعرفُها ولا نعرفُ حابسَها. وقد سمعتني أقرأُ قبلَ حولٍ فقرأتْ ورائي، ثم غنّتْ فغنّيتُ في إثْرِها، وصِرنا على هذا الحالِ إلى اليومِ، حتى أكادُ أُتِمُّ لها الكتابَ، وتكادُ هي تُتِمُّ لي مقاماتِ الغناءِ. قلتُ: عجيبٌ، وما أعجَلَك إليها هذهِ الساعةَ ونحنُ في الدرسِ؟ قالَ: قد وقَفنا عندَ مسألةِ الربانيّةِ والإنسانيّةِ وكيفَ يصيرُ بينهما. فخطرَ لي أن أُشَبِّهَ لك الأمرَ. فإني كنتُ أَلْقُمُها الكتابَ وهي كانت تَسقِيني الغناءَ. فإنها شَمِلتني بالإنسانيةِ، وأنا ربما أحطتُها بالربانيّةِ.

قلتُ: شيخي، فهل ارتبكتَ من صوتِها قطُّ؟ قالَ: لا بدَّ للربانيّةِ أن ترتبكَ بالإنسانيّةِ، وإلا غفلتْ عن معناها، وسَهَتْ عن اسمِها، وانحجَبتْ عن الصّيرورةِ الواجبةِ. قلتُ: وما الصيرورةُ الواجبةُ للربانيّةِ؟ قالَ: أنا، وهيَ.

وقالَ لِيْ: لا تحزنْ، إن الغناءَ معنَا.

وقالَ لِيْ: الذي يغني ثم يرقصُ يتهيّأ له ديوانُ الخلافةِ وهو إزاءَ الخرابِ الذي في العالِم.

وقالَ لِيْ: ديوانُ الخلافةِ الذي لا يليقُ بكَ أن ترقصَ به لا يَلزمُك.

وقالَ لِيْ: موسيقَى الأشياءِ أسماؤُها التي لم أعلِّمْها لكَ فاقترفْتَها أنتَ علَى قدِّ غوايتِك.

وقالَ لِيْ: موسيقَى الأشياءِ إظهارٌ لمعناها الكامنِ الذي لا تستطيعُهُ لغةٌ جليلةٌ، ولا يقدرُ عليهِ عددٌ مكينٌ، ولا تبيُن عنهُ فلسفةٌ مرقومةٌ.

وقالَ لِيْ: موسيقَى الأشياءِ كلامُها لكَ في مقامِ البهجةِ ترجُو أن تنتسبَ إليكَ.

وقالَ لِيْ: غناءُ العارفيَن علومُهم معجونةً بموسيقَى الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: غناءُ العارفيَن زادٌ من فرحٍ تتقوَّى به قلوبُ العاملينَ فإذا أبدانُهم تخفُّ للكدحِ كأنَّها لم تكدحْ من قبلُ ولم تشقَى.[10]

---

[10] لما حكمَ أهلُ الغفلةِ والظلمِ خرجتْ أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّة مع ملأٍ من أهلِ البلدِ إلَى أرضِ جوارٍ وقُربَى تطلبُ الأمنَ والكرامةَ. وكان أهلُ الجوارِ أصحابَ حيوانٍ من حميرٍ وبقرٍ وطيرٍ يعلفونَ ويركبونَ ويأكلونَ. فاستقرَّ بها المقامُ في قريةٍ يطحنُ أهلُها حبوَبهم بالبغلِ والثورِ يدورُ بياضَ يومِه. فإذا أستاذتي تذهبُ فتقعدُ أمامَ الحيوانِ العاملِ وتغنّي بصوتِها نغماً سهلاً كريراً يكادُ البغلُ والثورُ أن يغنّيهِ من حلاوتِه وسلاستِه. فلم يفهمْ عنها أهلُ القريةِ بدءً وظنّوا بها نقصاً في الذهن. فخلّوا بينها وبين صحبتِها لبغالِ وثيرانِ المطاحن حتى اشتُهر أمرُها وصارتْ عندَهم مباركةً شريفةً. قال شيخٌ حسنُ القلبِ من أهلِ أرضِ المهجرِ: غناؤُها فرحٌ للبغالِ، ومن أسعدَ البغالَ أسعدَ خالقَ البغالِ، فهي السّعيدةُ المُسعِدةُ لا ينوشُها حُزنٌ إلا وله فرحٌ معقودٌ به بإذن الله .

وقالَ ليْ: غناءُ العارفِيَن يُخْرِجُ معارفَهم عنهُم حتى يكادَ علمُهم كلُّهُ يكونُ في الغناءِ.

وقالَ ليْ: غناءُ العارفِيَن فرحٌ في الكلامِ يربكُ الكلامَ، ومسرّةٌ في القلوبِ تهشُّ لها القلوبُ، وشهوةٌ في الأبدانِ تضطربُ بها الأبدانُ.[11]

وقالَ ليْ: غناءُ العارفِيَن متّصلٌ بأولِ أفقِ كلامي، ثم يختلطُ به فلا تعودُ تعرفُ كلامي من غنائِهم.

وقالَ ليْ: كلامي غناءُ العارفِينَ الكاملِ.

وقالَ ليْ: إمّا كلامي غناؤُهم، وإما غناؤُهم كلَامي.

وقالَ ليْ: غناءُ العارفِيَن أحدُّ نصلاً من أفعالِ الذينَ لم يَعرفوا.

وقالَ ليْ: العارفونَ الذين يَعرفونكَ وليسَ الذين يَعرفونني.

وقالَ ليْ: الذين يَعرفونكَ يعرفُونني ضرورةً.

وقالَ ليْ: الذين يعرفُونكَ إذا غنّوا كنتَ غناءَهم، وإذا فعلُوا كنتَ مقصدَ فعلِهم،

---

[11] كانتْ مولاتي وصاحبةُ أمري جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ تبدأ ليلتَها التي تُجيزها للغناءِ بسماعِ مُحمّد حَسن، والشيخِ إمام عيسى، وناسِ الغيوانِ، وبعضٍ من فيروزَ، وفرقِ المتصوّفةِ. قلتُ: فإذا طربتْ وابتهجتْ سمعت بِيتْ سِيجَرْ Pete Seeger ، ثم لوك كِيلي Luke Kelly، وربما أخذَها المقامُ إلى جانيس جوبلن Janis Joplin أو الهيامُ إلى نينا سِيمون Nina Simone. حتى إذا بلغ بها الوجدُ أفقَ السُّكْرِ جلستْ فسمعتْ يُوهان سَبستيان بَاخ J.S. Bach أو بُروس سبرينجستين Bruce Springsteen، حتى يهدأَ خاطرُها أو يجيشَ. قلتُ: فكنتُ أتربّصُ بها عشقاً حتى إذا دخلتْ مقاماتِ الغوايةِ وغابتْ عن نفسِها قمتُ فرقصتُ معها وشطحتُ حتى أُذْهَلَ عن ذاتي وذاتِها. وأغلبُ سفري في الحديقةِ من هذا الهُيامِ الذي دوَّخَني ودوَّخَها تسعةَ عشرَ عاماً تَزيدُ فنَزيدُ.

وإذا خرجوا جعلوكَ لواءَهم، وإذا جلسُوا يستريحون كنتَ أرضَهم وظلَّهم وماءَهم.

وقالَ ليْ: الذي لا يعرفُ كيفَ يغنِّي؟

وقالَ ليْ: الذي يعرفُ كيفَ لا يُغنِّي؟[12]

وقالَ ليْ: كلُّ الخلقِ أصحابُ معارفَ، وليسَ كلُّ واحدٍ منهم عارفٌ أو له أثرُ العارفِ.

وقالَ ليْ: كلُّ واحدٍ من الخلقِ عنده مقامٌ معرفيٌّ من العالمِ، وليسَ كلُّ واحدٍ منخرطاً

---

[12] زارَنا يُوحنّا سابَاسْتيان، وهو صانعُ موسيقَى من بَرّانِيّةِ البلدِ كانَ له حبلُ وِدٍّ بأُستاذَتي رقيّةَ بنتِ الحبيبِ الرضيّة، قدوةِ العاشقِ والمريد، في جبال ترهونة ووديانِ بني وليد. فجعلَ يعزفُ علَى آلاتِه ألحاناً من إرثِنا ومن إرثِ البُلدانِ البعيدةِ. قالَ: إن صوتَ الموسيقَى التي في سماعِكم، والحضرةَ الموسومةَ عندكَم، هو وشيجةٌ تعقِدُنا علَى اختلافِ سياقِ الاجتماعِ بيننا. قلتُ: وشَهِدَ معنا، وقتَ زيارتِه، ساعةً عصيبةً لمّا وقعَ البلدُ بأيدِ الأوغادِ، فكأنّنا في ظُلمةٍ حالكةٍ أحاطتْ بنا في كهفٍ مسدودٍ حتى أيْقَنَّا بالهلاكِ.

قالتْ سيِّدتي رقيةُ: عجزَ الفكرُ والعملُ عن المعونةِ، فهَبْنَا المنَّ يا يوحنّا، هَبْنَا المنَّ.

فجلسَ الرجلُ فعزفَ وصدحَ بـ "كيفَ لي ألّا أغَنِّي؟ ***How Can I Keep From Singing?***"

فكأننا غمرَنا شعاعُ نورٍ دخلَ علينا من مشكاةٍ. فعزفَ وغنّى: "سألتقيكَ مجدداً علَى امتدادِ هذا الدربِ ***I'll Meet You Further On Up The Road***" فبانتِ السماءُ ورأينا الطيرَ يَحُومُ وشَمِمنا نُوّارَ المكانِ. فعزفَ "آلامُ مَتَّى ***Matthäus-Passion***" فأضاءتِ العتَمةُ واتَّقَدْنا.

فلمْ نَلبث حتى خرجنا أفواجاً من المحبوسينَ وقد انفكّ قيدُنا، وانفرطَ غِلُّنا، وصِرنا أقربَ إلى الأرواحِ والرياحينَ.

قالت رقيّةُ: هذه ظلمةُ القلبِ يقدحُها وَهَجُ الكمنجةِ، فأمّا ظلمةُ البلدِ فلا يَنفعُ معَها غيرُ الحديدِ والرجالِ.

بهذا المقامِ في العالمِ.

وقالَ لِيْ: الغناءُ الذي لا يُغويك، غوايةٌ؛ والغناءُ الذي لا يلغُو بكَ، لغوٌ؛ والغناءُ الذي لا يُسمِّيك غُفْلٌ عن الأسماءِ والمعاني.[13]

وقالَ لِيْ: الغناءُ الذي يُسقطكَ من حسابِه، سَقَطٌ، والغناءُ الذي لستَ متاعَهُ الكاملَ، متاعٌ.

وقالَ لِيْ: الغناءُ الذي يجترُّ المعاني اجتراراً لا يهتكُ أفقاً، ولا يفضُّ بَكارةً، ولا يبرؤ فرحاً جديداً، لا يَصِحُّ لكَ.

---

[13] جئتُ الحضرةَ الصوفيّةَ والقومُ في حالٍ من الفتورِ وضعفِ الهمّةِ. فلمّا جلستُ إذ برجلٍ قاعدٍ أمامي علَى هيئةٍ مجذوبةٍ وقد مدّ ساقيهِ مدّاً مُبتذلاً. فتأذّيتُ منه فهتفتُ به: يا بني آدم، ضُمّ إليكَ ساقيكَ فقد عاوَرتَنا! فنظرَ الرجلُ إليّ وهو مندهشٌ يكادُ يصعقُ من شدّةِ الهولِ وهو يقولُ: ساقانِ! أنا لي ساقانِ! يا ويلي ما عرفتُ إلا السّاعةَ. فنهضَ وصارَ يركضُ المكانَ برجليهِ ويرقصُ وهو في حالٍ من الفرحِ العجيبِ يقولُ: ما دريتُ والله، ما دريتُ والله. حتّى أثارَ أشجانَ القومِ فانجذبوا وشُغِفوا بالحالِ وغابوا في الرقصِ والوجدِ. قالَ ماءُ السماءِ، وشارةُ الولاءِ، الشيخُ الطاهرُ بن الرّضا، بابُ العلومِ الآنيّةِ، ومِشكاةُ الأسرارِ الإماميّة، في البصرةِ والنجفِ وكربلاء: هو غابَ عن وجودِه العينيّ بشدّةِ الحضرةِ والذهولِ عنِ الحالِ. فلمّا نَبّهْتَهُ أنتَ إلى أثرِ ساقيهِ تَنَبَّهَ إلى أنه يقدرُ أن يَجْذُبَ ويرقصَ حتى يصمدَ للوجدِ الذي تمكّنَ من قلبِه. قلتُ: آها. قالَ الشيخُ: ولو كنتَ قلتَ لهُ "ضُمَّ إليكَ قلبَك"، لربما انهدَّ حيلُ الرجلِ، وماتَ من وقتِه، لِوَعْيِهِ بقلبِه بغتةً حتّى لا يعودُ يعرفُ كيفَ كانَ الدّمُ يجري في عروقِه، ونَفَسُ الحياةِ يَسري في آلةِ بدنِه. قلتُ: فصرتُ أَحْذَرُ من مخاطبةِ الواجدينَ ولم أَعُدْ أكلّمُ المجذوبينَ إلا بالألفاظِ المعتبَرةِ.

وقالَ لِيْ: الغناءُ الذي لا يُخَيِّلُ لكَ، ولا يُوهِمُكَ، ولا يُكَنِّي عن أحوالِك، ولا يَغمضُ حيناً ويَبِينُ حيناً، ولا يُربكَ فهمَكَ بالعباراتِ المراوغةِ، غناءٌ خائبٌ.

وقالَ لِيْ: الكنايةُ عنكَ إحالةٌ إليّ.

وقالَ لِيْ: الكنايةُ عنكَ انحيازٌ.

وقالَ لِيْ: الكنايةُ عنكَ استهلالٌ للكلامِ بخصوصِ الكونِ.

وقالَ لِيْ: الكنايةُ عنكَ إيغالٌ في الإنسانيةِ المشتبكةِ بالربانيةِ.

وقالَ لِيْ: الغناءُ يوغلُ في التخومِ المجاورةِ للربانيةِ فيشرفُ عليَّ في داري.

وقالَ لِيْ: تخومُ الربانيةِ مُتّقِدَةٌ بموسيقَى الوجدِ الإنسانيّ حيثُ الوجدُ بِشارةٌ بالخلافةِ الكاملةِ.[14]

وقالَ لِيْ: الذي يتّقدُ بالموسيقَى يَتّقِدُ بمغامرةِ الإنسانِ في المجرّةِ.

---

[14] الاتقادُ بالفنونِ لازمٌ للخلافةِ الكاملةِ من جهةِ أنه يضيُ الطريقَ الذي أنتَ عليه من جوانيّتِكَ. قلتُ: ومنه أن الرسمَ، والنقشَ، والنحتَ في الرخامِ و الحجرِ على هيئاتٍ مختلفةٍ، من أحوالِ العملِ المعتبرةِ عندَنا في الطريقةِ. وقد كانَ أخي حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ الصّدِّيقُ بن عبدِ الله السّاقي، جليسُ العاشقين، وأنيسُ المحبين، بنواحي الجميل ورقدالين، يُزَيّنُ الكتبَ بِمُنَمْنَمَاتٍ بديعةٍ، وتصاويرَ عجيبةٍ، وخطوطٍ من أحسنِ ما يكونُ. ويخرجُ إلى ناحيةِ الزرعِ، أو زناقي البلادِ، فيرسمُ الناسَ والشجرَ والحيوانَ ثم يبيعُ لوحاتِه ويعيشُ منها. وكان لهذا، حفظَه الله، يدرسُ الفنونَ البرانيةَ من أساليبِ الصينِ واليابان، إلى وسائطِ الهندِ وأهلِ الملة المحمديةِ، ثم معارفِ الأوروبِّ وآدابهم العليةِ. وكانَ يتحسّرُ ويقولُ: لو أن هذه الديانةَ وافقتِ الفنونَ لانفكَّ عن الناسِ بعضُ الأغلالِ المترتّبةِ عن الغفلةِ وانطفاءِ الخيالِ، ولاتَّقَدُوا كمَا يَتّقِدُ الحجرُ الذي يقدحُه الحجرُ، وهلِ النحتُ غيرُ ذلكَ؟

وقالَ ليْ: الذي يتقدُ بالموسيقَى تشتعلُ شرايينُه بالنبوءاتِ المخبوءةِ.

وقالَ ليْ: الذي يتقدُ بالموسيقَى يصيرُ بوتقةَ المعاني الباهرةِ.

وقالَ ليْ: النُّبوءاتُ الكامنةُ في قلبِك أشدُّ اتقاداً منَ النبوّاتِ الخارجةِ من الكهوفِ والمدائنِ المنورةِ.

وقالَ ليْ: نُبوءاتُكَ حجةٌ على النبوّاتِ.

وقالَ ليْ: أنت نبيُّ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: أنتَ خبيئةُ الأنبياءِ.

وقالَ ليْ: الموسيقَى خبيئةُ قلبِك من جهةِ أنها صوتُ الأشياءِ الكامنةِ فيكَ.

وقالَ ليْ: الموسيقَى وعيُ الكونِ بكَ من جهةِ أنها تَوَهُّجٌ لحجرِ الأشياءِ على صوانِ القلبِ.

وقالَ ليْ: توهّجْ بكَ وبالأشياءِ يَكُنْ صوتُ اشتعالِك موسيقَى الإنسانِ.

وقالَ ليْ: مالذي صنعَ موسيقَى الكونِ غيرُ يديّ؟

وقالَ ليْ: في آخرِ الأمرِ أنتَ نغمةٌ.

وقالَ ليْ: موسيقاكَ في أطرافِ الكونِ تُلامسُ شِغافَ تُخومِه القُصوَى.

وقالَ ليْ: موسيقاكَ تتقدمُ عبرَ تخومِ الكونِ إلى جهاتٍ ليسَ فيها تخومٌ.[15]

وقالَ ليْ: موسيقاك ابتداءٌ لفعلِ الخلقِ.

---

[15] غنّى في مجلسِنا فتىً ذو صوتٍ حسنٍ، فذهبَ في المعاني مذهباً بعيداً فأرهقَنا ولمْ نفهمْ عنهُ، وكانَ يقولُ: أنا أجرّبُ الكلامَ وأعملُ فيهِ علَّ تَخْماً يظهرُ أو ظلمةً تنقشعُ، فاتركوني. قال تاجُ السرِّ عليُّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: صدقَ. ذلك أن عقولَنا لا تطيقُ بعضَ المجاهلِ فلا حرجَ أن يتقدّمَ غناءُ الفتى فيستطلعَ لنا بصوتِه.

وقالَ لِيْ: موسيقاكَ استئنافٌ لفعلِ الخلقِ كي أعجنَ قلوبَ الخلقِ بطينِ الولهِ.[16]
وقالَ لِيْ: الأشياءُ التي انبلجتْ بموسيقَى الإنسانِ أنا ربُّها؟

---

[16] عرفنا في الناحيةِ تاجراً للقناديلِ والإضاءةِ منطفئاً عن المعاني، مُبتذلاً في إنسانيّتِه، غُفلاً من الأشواقِ. وكان يُظهِرُ هذا في كلامِه وفعلِه وحالِ معيشتِه. وهو يحضرُ الصلواتِ في المسجدِ، ويسمعُ التلاواتِ، ويذهبُ للحجِّ والعمرةِ، فلا يَشُفُّ له قلبٌ، ولا يَتولّهُ جسدٌ، ولا يتغيّرُ مقامُ الحياةِ الذي هو فيهِ. فمِن هذا لم نكنْ نأبهُ به في الشؤونِ الروحيّةِ على قُرْبِ دارِه ودكّانِه من جماعتِنا الصوفيّةِ. فكانَ في ليلةٍ أوّلَ السّحَرِ أن دخلَ إلى صحنِ مدرستِنا مع عاملٍ له يريدُ أن يَنْصُبَ بعضَ القناديلِ، ويُصْلِحَ دوائرَ الكهرباءِ التي كنا شريناها من عندِه فتعهّدَ بحفظِها عن العطلِ وصيانتِها. قلتُ: فكنّا في هذا الوقتِ من آخرِ الليلِ في خِضَمّ الحضرةِ الصوفيّةِ، وأُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ تُغَنّينا من قولِ عباسِ بنِ الأحنفِ:

أَيا لَكِ نَظرَةً أَودَت بِقَلبي — وَغادَرَ سَهمُها جَسدي جَريحا
فَلَيتَ أَميرَتي جادَت بِأُخرى — فَكانَت بَعضَ ما يَنكا الجروحا
فَإِمّا أَن يَكونَ بِها شِفائي — وَإِمّا أَن أَموتَ، فَأَستَريحا

فدخلَ علينا حضرتَنا عاملُ التاجرِ مفزوعاً وهو يقولُ: الحقُوا التاجرَ فلاناً فقد هلكَ. قلتُ: فخرجنا تحتَ جُنْحِ الظلامِ، فإذا الرجلُ بين الإغماءةِ والإفاقةِ يهذي ببعضِ كلامِ ابن الأحنفِ الذي كنّا نُغنّيه، ويقاربُ اللحنَ يكادُ نَفَسُه ينقطعُ، وقلبُه ينبثقُ من صدرِه. فرَعيناهُ وذهبنَا به إلى دارِه. فبعدَ أيامٍ جاءَنا وقتَ النهارِ، وهو بين أن يكونَ في هذا العالمِ أو يصيرَ خارجَهُ، فقالَ: إن ما سمعتُه منكُم نفذَ في قلبي حتى صارَ هذا القلبُ من هاتيكَ الساعةِ ينتسبُ إليكم لا إليّ، فزيدوني. قلتُ: فوجّه الإمامُ أحمدُ إلى الأستاذةِ رقيّةَ أن تُدْخِلَ الرجلَ معها في مقاماتِ الغناءِ والسّماعِ الصوفيّ. ففعلتْ وتمادتْ حتّى اتّسَعَ قلبُ هذا الإنسانِ وكادَ أن يَضُمّ الحياةَ في شهقةٍ واحدةٍ.

وقالَ لِيْ: الأشياءُ التي وصلَها غناؤُك قبل أمري تَؤولُ إليك أم إليّ؟
وقالَ لِيْ: الأشياءُ التي اجترحَها غناؤُك ولم أكلّمْها بعدُ تُلزِمُني باستئنافِ الكتابِ.
وقالَ لِيْ: غناؤك أشهَى من كلّ النصوصِ الغُفلةِ عن اللحنِ، لحنِ الموسيقى ولحنِ الكلامِ.
وقالَ لِيْ: موسيقاكَ تُفجّرُ الأشياءَ من جُوّانيتِها ونُصوصي تقاربُ تخومَها البرانيّة.
وقالَ لِيْ: موسيقاك تأتي مُلطخةً بمغامرةِ العالمِ، موصومةً بأثرِ التجربةِ، محمومةً برهقِ المسيرِ إليّ.
وقالَ لِيْ: كلُّ أغنيةٍ تقترفُها تقترفُك في دورةِ الخلقِ والمَعادِ.
وقالَ لِيْ: الأغنيةُ التي بإزاءِ الخنوعِ من عتادِ القلبِ.
وقالَ لِيْ: الأغنيةُ التي يَتَمَتْرَسُ خلفها القلبُ المناوشُ ساترٌ ترابيٌّ من موسيقَى الأشياءِ الجليلةِ.[17]
وقالَ لِيْ: الأغنيةُ التي تَحضُرك حينَ المبارزةِ تميمةٌ تَقي قلبَك الوهنَ، وتُناوِشُ عن

---

[17] قلتُ: إنّ في خطابِ الحديقةِ الغدامسيّةِ العامِّ، ولفظِها الواحدِ، إشاراتٌ إلِى سياقاتِ الوقتِ والمكانِ التي عاشَ فيها الشيخُ بلخير عبدُ الرحمن الغْدامسيّ. وتجد هذا مفصّلاً في السيرةِ الرحمانيةِ آخرَ هذه الطبعةِ. ومن هذا المعنَى إحالاتُ الشيخِ في النصّ إلى غبارِ المعارِك، والسواترِ الترابيّةِ، والمواجهاتِ الواجبةِ، التي خاضَ غمارَها من أرضِ الجزائرِ إلى السودانِ فليبيا، في أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرَ إلى منتصفِ القرنِ العشرين. إن لغةَ الشيخِ تنبثقُ من الحياةِ التي عاشَها، والمكابداتِ التي توجّعَ بها، والمجاهداتِ التي تقدّمَ لها حاسرَ القلبِ والجسدِ. وفي هذا اعتبارٌ للكاتبِ والدارسِ وصاحبِ الصنعةِ الفنيّةِ الذي يَلزمُه أن يصيرَ شاهداً على وقتِه وزمانِه، فتتَجلّى إنسانيّتُه الفردُ في فضائِها التاريخيِّ المثقَلِ بالقضايا والأسئلةِ والإشاراتِ.

جسدِك وسوسةَ الخنوعِ.

وقالَ ليْ: كلُّ حديثي عَجينةٌ لغنائِك فتربَّصْ بالكلامِ الفخمِ، وحدِّقْ في الكلماتِ المبجَّلةِ، وتفرَّسْ في الألفاظِ العتيدةِ.

وقالَ ليْ: الأغنيةُ حَرِيٌّ بها أن تُشَكِّلَ أشواقَك، وتَعْجِنَ وساوسَك، وتُفجِّرَ أسئلتَك، لا أن تُحاكيها.

وقالَ ليْ: الأغنيةُ التي تُحاكي أشياءَك لا بأسَ بها غيرَ أنها لا تَسُدُّ.

وقالَ ليْ: المحاكاةُ تمويهٌ وأغنيةُ الإنسانِ إشارةٌ.

وقالَ ليْ: المحاكاةُ تمويهٌ عن المعنَى وأغنيةُ الإنسانِ إشارةٌ عليهِ.

وقالَ ليْ: الإشارةُ في أغنيةِ الإنسانِ من رحمِ كُنْ.

وقالَ ليْ: أغنيةُ الإنسانِ نبوءةٌ متّقدةٌ في زمنِ الرسالاتِ المنطفئةِ.

وقالَ ليْ: بعضُ المغنينَ أنبياءٌ يصدعونَ بأغنياتِ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: بعضُ المغنينَ يعرفونَ الإنسانَ كمعرفتي بهِ غير أنهم لم يركُنوا إلى الكتابِ وأنا لم يسنحْ لي اسمُ الغناءِ بعدُ.

وقالَ ليْ: إن سنحَ لي اسمُ الغناءِ ربما كنتَ أنتَ أوّلَ الأغنياتِ الإلهيّةِ.

وقالَ ليْ: الغناءُ يسنحُ للمناهضينَ لخاطرِك فيصيرُ الغناءُ كلُّه لخاطرِك.

وقالَ ليْ: بعضُ المغنينَ يُلزِمونَكَ بالمناهضةِ كما يُلزمُك بعضُ الحبُّ بالمقاومَةِ الباسلةِ.

وقالَ ليْ: مَن أَلزمَكَ بالمناهضةِ افتضَّ ختمَ الولايةِ لكَ وسمّاك الخليفةَ.

وقالَ ليْ: مَن أَلزمَك بالمناهضةِ قَدّمَكَ للموتِ أو الحريةِ.

وقالَ ليْ: من ألزمَك بالمناهضةِ غرسَ زهرةَ الموسيقَى في شَعرِك ثم حثَّك إلى الحبِّ

أو الموتِ، لا فرقَ.

وقالَ لِيْ: من ألزمَك بالمناهضةِ انحازَ إليكَ فقدّمكَ إلى صفوفِ البِشَارةِ.[18]

وقالَ لِيْ: الأغنيةُ التي تَتَرَنَّمُ بها لحظةَ الموتِ تصيرُ نَعْيَكَ الذي يصدحُ في الأرضِ باسِمك حتّى تدخلَ عليّ في مجلسِي فأعرفُك بها.

وقالَ لِيْ: الأغنيةُ التي أعرفِكُ بها هيَ اسمٌ لكَ.

وقالَ لِيْ: الأغاني أسماءُ الإنسانِ الحسَنةُ.

---

[18] قالَ الإمامُ أحمدُ الدريُّ: من ألزمَ الإنسانَ بالمواجهةِ من أهلِ الموسيقَى والآدابِ فعلَ هذا من جهةِ الكلامِ، والمعاني، والهيئةِ السماعيّةِ. فأمّا الكلامُ فينبغي له أن يكونَ ملَهماً متّقداً يكادُ يضيءُ العالمَ بعدَ أن أضاءَ القلوبَ. وأما المعاني فيجبُ لها الانحيازُ لجوهرِ هذا الإنسانِ ومناوشةُ الأسئلةِ والقضايا. وأما الهيئةُ السماعيّةُ فيَحْسُنُ لها الغنائيّةُ الجوانيّةُ، والإغواءةُ البرانيّةُ، حتى تصيرَ ترنيمةً للقلبِ، أو هدهدةً للجسدِ الذي اتّبعَ هذا القلبَ إلى أرضِ المنازلةِ. وأكثرُ المُغنّينَ عندنا يغلطون في الكلامِ، والمعاني، والهيئةِ، لأنّهم لم يتّصِلوا بشغافِ الحياةِ بل وقفوا عندَ تُخومِها الخارجةِ عن جوهرِ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: أنتَ آخرُ تخومِ الغناءِ، وأولُ أرضِ الولايةِ، ومطلعُ صبحِ الإمامةِ. في موسيقاكَ أسمائي وأحوالي، ولصوتِكَ حَضرتي وجَلالي. وقد أصغَى إليكَ الأولياءُ والنبيُّونَ، ورقصَ علَى وقعِ آلاتِك العاشقونَ، وهامَ الخلفاءُ العاملونَ. فكلُّ أغنيةٍ هي لكَ، وكلُّ وَتَرٍ قُدَّ من قلبِك، ولا يَكونُ وَلَهٌ إلا بعبارتِك. فأنتَ قمحُ الكلامِ الفخمِ، وحِنطةُ القَوافي المبعثرةِ، وبيادرُ القصائدِ الجليلةِ. أشكلتَ على العالمِ بالكنايةِ، وأربكتَ الأشياءَ بالمحاكاةِ والتخييلِ، وأوغلتَ في المعاني حتّى وقفتَ إزاءَ النبوّةِ التي لم تصدعْ بالأمرِ. فاجلسْ إلى من يُحبُّونني ويحبُّونك، ويَحلفونَ بي ويسألونَ بجاهِك، ويَبكونَ عندي يَطلبون وجهَك. واعْطِهم مؤونةَ يومِهم، أغنيةً من لَدُنِّ الإنسانِ، يُقيمونَ بها فرحاً كثيراً ومسرَّةً. يَعرفونَني بعلامةٍ أجعلُها لهم. فيُومِئونَ إليّ بأَعْيُنِهم من سطوةِ الشوقِ، يكادُون أن يتبَدَّدُوا، لولا رحمةٌ من ربّكَ، وموسيقى، وشعرٌ كريمٌ.

22. موسمُ الصومِ

(وهو تجديدُ الخلافةِ)

ومن أحوالِه العادةُ والزَّبَدُ ومقدارُ الكفايةِ وظاهرُ العالمِ والانفكاكُ والاستهلاكُ وشحذُ الآلةِ والاستبسالُ واليقظةُ وصُوّانُ الجسدِ وبهجةُ العالمِ وخبيئةُ البستانِ

وفيه تمكّنتُ في الأرضِ الطيّبةِ، والدارِ الوارفةِ، وأُبيحتْ لي يَومُها كَلَيْلِهَا، فهتكتُها لذّةً واحدةً، وأقمتُ عليها حُكمي، وأَثْبَتُّ وِلايتي، وقد صارَ إليَّ خراجُها، ودارتْ علَى شهوتي شهواتُها، ودانتْ لي كرومُها وأعنابُها. فأخذتُ من الطيّباتِ بلا حِسْبةٍ، ونهلتُ من الزادِ بلا ميزانٍ. فإذا أترفتُ ترفاً شديداً، وأربعتُ مربعاً عتيداً. وارْتَخَتْ آلةُ بدني، وأصابَني خدرُ الشّبعِ، وغطّى علَى بصَري حجابُ الارتواءِ. وتَبدَّلتُ الخبيثَ بالطيّبِ، واتّبعتُ الشهواتِ ومِلْتُ ميلاً عظيماً. فذُهِلتُ عن المعاني البريئةِ، وسهوتُ عن أمرِ الخلافةِ اليانعةِ. وثَقُلَ بدَني حتى أقعدَني عنِ الكدحِ، وأُحبطَ سعيِي في الزرعِ، وصرتُ أغفُو وتأخذُني السِّنَةُ والنومُ، فلا يَتِمُّ لي فلحٌ، ولا يهنَا حرثٌ. وغابتْ عني أحوالُ الخلقِ، فلمْ أفهمْ عنهُم ولم يفهمُوا عني. وكَرَّتِ الأيامُ فتشابهتْ معنىً وغايةً، واتّصلتْ فكراً وحديثاً. فركدَ نهرُ معرفِتي، وعطنَ ماءُ المُلْكِ. وإذا طعامي كَسَلٌ وشَرابي مللٌ، ونومي كَرُورٌ. ففزعتُ أيّما فزعٍ، وجاهدتُ أن أقومَ إلى زرعِي فلمْ يَصِحّ لي، وإلى غَدي فلمْ أجُزْ يومي الذي أنا فيهِ. فلمّا أردتُ التفكُّرَ في حالي وَهَنْتُ عنهُ فلم أقدرْ على ترتيبِه. وإذا أنا حديثٌ خائبٌ، وفكرٌ واهنٌ، وفعلٌ رتيبٌ. فخرجتُ أطلبُ الخلقَ فوجدْتُهم وحالُهمُ الخدَرُ، ومُقامُهم الكسلُ، يمشونَ في الطرقاتِ كأنّهم سِنَةٌ من باطلٍ، أو غفلةٌ في عينِ الزمانِ. فعجبتُ للأمرِ كيفَ ينزلُ بهم جميعاً وفي القومِ الشبعانُ والجوعانُ، والراتعُ والكادحُ، وذو البأسِ وذو العيالِ. فأردتُ أن أَجُبَّ العلمَ من مَنْبَتِهِ، فدخلتُ بين الخلقِ أنظرُ كيفَ شابَهوا بعضَهم على خلافِ مبادئِهم، ومن أينَ لحالي أن يكونَ منهُم وأنا صاحبُ الحديقةِ وربُّ الدارِ ومولى فاطمةَ.

فَبينما أنا في إحدَى الساحاتِ رأيتُ فتىً كالسيفِ، عيونُه فرحٌ، ومِشيتُهُ رقصٌ، ورداؤُهُ أشكالٌ من غيرِ ما يعرفُ الناسُ. وقد جعلَ شعرَه ألواناً كقوسِ السّماءِ، ورسمَ على عاتقِه زهرةً بريّة يكادُ عطرُها يَصِلُني. وتدلّتْ من أُذنِه أقراطٌ من فضّةٍ وعاجٍ، ومَدَاسُهُ بهيجٌ كمثلِ ربيعٍ عابرٍ. فكأنهُ حينَ مشَى بيننا حُلمٌ أشفُّ من يقظتِنا، ووهمٌ أرقُّ من أثوابِنا، وفكرةٌ أمضَى من شرائعِنا. فخفقَ قلبِي إليهِ، ومشَى بدني وراءَه ينشدُه. فإذا هو يغنّي صوتاً مرحاً بمعانٍ كالنارِ، ويضحكُ في وجوهِ الناسِ، وهُم لا يرضَونَ منهُ ملبسَه وزينتَه، ولا يعجبُهم مرحُه وغناؤُه. فقلتُ هوَ حرٌّ منْ ظهرِ فكرةٍ حرّةٍ. فأحببتُ أن أنتسبَ إليهِ، وأفهمَ عنهُ. فجلستُ في سبيلِه وقلتُ: يا سائبْ! أيُّ فكرةٍ أبدعتْكَ، وأيُّ خيالٍ أنشأكَ علَى هذا الحالِ؟ فانتبهَ لمجلسي، فجاءَنِي وقعدَ عن يميني، ثمَّ وضعَ يدَه على كتفِي وقالَ: "يا بستانيّ، ليسَ أثقلُ على قلبِ ابنِ آدمَ من الاتّبَاعِ، ولا أملُّ من المعاودةِ، وإنّما الحياةُ ابتداعٌ وجِدّةٌ، ونبذُ قديمٍ طالَ به العهدُ. وإني كنتُ من الحُفّاظِ لا أعدُو حفظي أبداً، حتى أصابَنِي الوهنُ أظنُّهُ القوّةَ، والركودُ أحْسَبُهُ الحركةَ، والعقمُ أراهُ الخصبَ والخيرَ. فعَلِقْتُ، وأنا على هذا الحالِ، فتىً كشعاعِ الشّمسِ، لا أراهُ إلا نبيّاً أو بعضَه. فذهبَ بي عشقُه من أدنىَ الأرضِ إلى مُنتهاها. فما دريتُ إلا وأنا قد نفضتُ عن بدني رداءَ النومِ، وعن عقلِي رُواءَ الحفظِ، وعن قلبي حجابَ العاداتِ. فصُمْتُ عنها جميعاً، فكأنّي لم أُمَتَّعْهَا قطُّ. وصارَ حالي إلى ما أنا عليهِ من ابتداعٍ، أمشي في الأرضِ وبين الناسِ بالجِدّةِ، لا أعاودُ فكراً، ولا أجْتَرُّ فهماً، ولا أحفظُ شرعاً. وجعلتُ علامتي هذي الألوانَ تراها ببدَنِي، وتلكَ الأقراطَ بأُذني، والمغاني يصدحُ بها لسَاني، قائماً قاعداً.

فحمدْتُ للفتى صبوتَهُ وثورتَهُ، وصيامَهُ عن العادةِ وقيامَهُ بغيرِها. فأخذتُ العهدَ علَى بدني بالجوعِ والعطشِ، وعلى رُوحي بالجَهدِ والكدحِ، وفكّرتُ أنّ كفاحَ العاداتِ خيرٌ، وقَصْمَ ظهرِها أفلحُ. وثَبُتَ في قلبي أنّ الماءَ، والظلَّ، والطيباتِ مما أنزلَ اللهُ أو جَرَتْ بهِ الفصولُ أو خرجَ من الأرضِ، مَواطِنُ غفلةٍ، ومنازلُ نسيانٍ. ورأيتُ كيفَ عجزي عنِ الفكرِ المُلهَمِ بغلبةِ العادةِ التّليدةِ، وعنِ الفعلِ البديعِ باستحكامِ السُّنَّةِ المتّبعةِ.[1] فعرفتُ الدواءَ بكشفِ الداءِ. فكانَ الصّيامُ مَقصدي وسَعيِي. فنظرتُ فإذا الإشارةُ في الفَلَكِ، فتَرَقَّبْتُها علَّ نورَها يؤاذِنُني، فنزلَ الكوكبُ المنيرُ منزلَ الميلادِ، وأخذَ صورةَ البداياتِ، وشابهَ عهدَ البَكارةِ الأُولَى، فدخلَ بي إلى وقتِ الأذانِ، فعقدتُ النيّةَ، فجاءَني وقالَ لي:

الصومُ دخولُ جسدِك إلى سِدْرَةِ القلوبِ

وقالَ ليْ: الصومُ اعتمالُ جسدِك في العالمِ كأنّهُ قلبُ هذا العالمِ.

وقالَ ليْ: سدرةُ القلوبِ تتزيّنُ بنُوّارِ الزادِ الذي ينبغي للجسدِ الصائمِ عن الطيّباتِ.

---

[1] حدّثتنا العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ أنها سمعتْ أباهَا وهيَ صغيرةٌ تلعبُ يقولُ لمن حضرَه: من ذهبَ في يومِه فقامَ وقعدَ، وأكلَ وشربَ، ودخلَ الخلاءَ وكلّمَ الناسَ، فلم يهتكْ قلبَه نداءٌ، ولم ينفذْ في جنبيهِ سؤالٌ، ولم تُغيّر حالَهُ فكرةٌ خارقةٌ، وقفَ مَلَكُ الأشواق، تشبيهاً، على رأسِهِ، جناحُه الأيمنُ من طينِ الدهشةِ والأيسرُ من معنَى المغامرةِ، فبكَى عليهِ ورثاهُ حتّى يُكتَبَ في الكونِ أنه ميّتٌ وهذا بدنُه صارَ كفَناً لقلبِه. قالَ: فإنْ تطلّعَ لمعنًى جديدٍ أو ناشَهُ علمٌ أو شِعرٌ أو جمالٌ بُعِثَ إلى الحياةِ وتنفّسَ هواءَ الوجودِ.

وقالَ لِيْ: الجسدُ الصائمُ عن لذّةِ العالَمِ محاكاةٌ للقلبِ.[2]

---

[2] لما نزلتُ بمِصرَ، مهاجراً عنِ البلدِ الذي ضاعَ في غوطِ الباطلِ، استأجرتُ داراً بناحيةٍ يقالُ لها عِزبةَ الهجّانةَ. فعرفتُ فيها بنتاً دونَ العشرين كانت تخبزُ الكعكَ في عُشَّتِها ثم تخرجُ به أوّلَ الصبحِ إلى عُمّالِ الحيِّ تبيعُه بقروشٍ قليلةٍ. قلتُ: وهي في بعضِ الأيامِ تجعلُ مع الكعكِ القهوةَ أو الينسونَ مما يشربُ أهلُ هذا البلدِ الطيّبِ ويشتهونَ. فلمّا استعملتُ بعضَ النجّارينِ يصنعونَ لي مكتبةً وطاولةً للدرسِ، شَهِدْتُ البنتَ وشَرَيْتُ منها عملَ يديها، وتكلّمتُ معها على أيامٍ عدّةٍ في ورشةِ النجارةِ. فإذا هي تعرفُ الكتابَ وتتلوهُ تلاوةً حسنةً، وتحفظُ نصيباً من الرواياتِ المُسْنَدَةِ وتَتَفَقَّهُ، وهي في هذا كلِّه صائمةٌ في غالبِ أيامِها. فظننتُ جازماً أن الفقرَ قعدَ بينها وبين الدرسِ والعلومِ، وأفضَى بها إلى عجنِ الدقيقِ وغَلْيِ الشايِ والكركَدي. فقالتْ: لا يا غريبَ الدارِ، قلبي فعلَ وانتصرَ له بدني. قلتُ: ها؟ قالتْ: هذا القلبُ متعلِّقٌ بالوساوسِ الفخمةِ، متّصلٌ بالأشواقِ الغامرةِ، مجذوبٌ إلى هُياماتٍ خارقةٍ للعادةِ. فكلّما حاولتُ أن أَثْبُتَ للدرسِ خذلَني بدَني وانتسبَ لقلبي وتهَيُّؤاتِه. قلتُ: ما يفعلُ؟ قالتْ: يحاكي قلبي محاكاةً تامّةً. فحيثُما أردتُ علماً أو آيةً من كتابٍ تصدَّعَ بدني أمامَ الأساتذةِ، أو تبدّدَ في حضرةِ الجلالِ، أو تهافتَ كالثلجِ من غيمِ الولهِ. قلتُ: فأنتِ تُصْرَعِين أو يأخذُك الإغماءُ أو يَزْبُدُ فمُكِ أو تبيضُّ عيناكِ؟ قالتْ: هذا علَى الظاهرِ. أما عينُ اليقينِ فإن بدني يلحقُ بقلبي، فيتوسوسُ ويتشوَّقُ وينجذبُ. وهو لا شِغافَ له ترعاهُ كشغافِ القلبِ، ولا علومَ تسندُه كعلومِ الغيبِ، ولا حجابَ يحفظُه عن شهودِ الخلقِ كهذا الصدرِ الذي ضمَّ القلبَ فسترَهُ وتحشَّم به.

قالَ الإمام أحمدُ: هذي تَكَنَّى بدنُها بقلبِها، في مقامِ الصيامِ والعملِ معاً، فاتّسعتْ إنسانيّتُها، وانتظمتْ في سياقِ الولهِ الواحدِ، والمحبّةِ الواحدةِ، والوجعِ الواحدِ. وإني أجدُ قلبَها قد فهمَ من بدنِها علوماً وأحوالاً كما فهمَ بدنُها من قلبِها أوّلَ الأمرِ، حتى صارتْ هذه البنتُ إشارةً إلى المحاكاةِ القلبيّةِ البدنيّةِ الشاملةِ، فتأمّل رعاكَ اللهُ.

وقالَ ليْ: جسدُ الصائمِ قائمٌ بالميزانِ مثلمَا العالمُ قائمٌ بالميزانِ.

وقالَ ليْ: جسدُ الصائمِ صدقٌ في ثيابِ الاتقادِ.

وقالَ ليْ: الاتّقادُ وهجٌ يفيضُ عن صُوّانِ الجسدِ الصائمِ عفواً.

وقالَ ليْ: صُوّانُ الجسدِ الصائمِ مَظَنَّةُ وهجٍ لأنّهُ لا يبتلُّ بالزادِ.

وقالَ ليْ: صوانُ الجسدِ الصائمِ يتوهّجُ بمعناكَ الذي محلُّهُ في أغلبِ الحالِ قلبُك.

وقالَ ليْ: جسدُ الصائمِ حاسرٌ كأنّهُ في مَحَلِّ المبارزةِ.

وقالَ ليْ: جسدُ الصائمِ يتزيَّنُ في هيئةِ المبارزةِ ليدخلَ دارَ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: دارُ الخلافةِ حريٌّ بها أن تجتمعَ عندَها المعاني، وتستبيحَ إيوانَها الفتوحاتُ، ثم تجلسُ في دواوينِها العلومُ والمعارفُ البالغةُ.

وقالَ ليْ: دارُ الخلافةِ محفوظةٌ عن البغيِ الذي يكونُ في استهلاكِ الطيّباتِ بلا ميزانٍ.

وقالَ ليْ: دارُ الخلافةِ تُغالِبُ الاستهلاكَ علَى ثغورِ الغوايةِ المترَفةِ.

وقالَ ليْ: الاستهلاكيُّ يَنوشُ الثمرةَ في معناها لأنّهُ يُحيلها إلى الترفِ لا إلى الحاجةِ.

وقالَ ليْ: الاستهلاكيُّ إمعانٌ في الهلاكِ حيث يؤولُ بك إلى ما تستهلكُ لا إلى ما هو جوهرٌ فيكَ.

وقالَ ليْ: الاستهلاكُ ضِدٌّ على اسمِك.

وقالَ ليْ: الاستهلاكُ استهلالٌ لدخولِك على العالمِ من بابِ العطبِ الذي يصيبُ البستانَ، لا من بابِ النضارةِ.

وقالَ ليْ: الاستهلاكُ تدشينٌ لوقتِ الهلعِ ثم إمعانٌ فيه فلا تفوتُه إلى وقتِ الطمأنينةِ.

وقالَ لِيْ: الاستهلاكُ استهزاءٌ بقلبِ العالِمِ لأنه تجاوزٌ عن حاجاتِ القلبِ إلى ابتذالِ هذا القلبِ لظاهرِ العالِمِ.[3]

وقالَ لِيْ: ظاهرُ العالِمِ يحجبُ قلبَك عن شغافِه، وبدنَك عن عروقِه، وزرعَك عن نسغِ الحياةِ فيه.

وقالَ لِيْ: ظاهرُ العالِمِ حجابٌ عن معنَى العالِمِ الذي تريدُ أن تنبثقَ فيهِ كالسّنبلةِ الخارجةِ من رحمِ البذرةِ.

وقالَ لِيْ: ظاهرُ العالِمِ يروقُ لمن يريدُ استهلاكَ العالِمِ لأن الظاهريَّ برسمِ التبدّدِ.

---

[3] قالَ الأستاذُ مرقصُ: من أركانِ الترفِ الاستهلاكُ وهو جعلُ الحاجاتِ اللازمةِ للحياةِ سِلَعاً، واستخدامُ البني آدم تحتَ سطوةِ هذه السّلعِ، ثم إحالةُ القيمةِ السوقيّةِ والمعرفيّةِ لكلِّ سلعةٍ إليها بدلَ العملِ الذي أطلَعها والعاملِ الذي كدحَها. فتصيرُ الفلوسُ والعلومُ والقلوبُ تدورُ في فَلَكِ العرضِ والطلبِ حتى إذا تكلمتَ عن الإنسانِ ظهرتْ في كلامِك الغرابةُ. قالَ: ومن هذا تجوعُ أممٌ، وتَتْخُمُ عُصْبَةٌ، وتُنهبُ المناجمُ، وتُسلبُ الأصولُ، وتقومُ الحروبُ على آبارِ الزيتِ وحُفَرِ الغازِ. ثم يهذرُ الشعراءُ بوساوسِهم الباذخةِ، والمفكرونَ بهواجسِهم الفخمةِ، ويقولُ الناسُ بغلبةِ السوقِ علَى العاملينَ فيه لأنّ الأصولَ أسبقُ علَى العرَق وأوسعُ من العروقِ. قلتُ: الأستاذُ يتكلّمُ في مُقامِ الصومِ عن المعائشِ والأرزاقِ وقد ناشَهُ غضبُ الصائمينَ، وهذا من بركاتِ المجاهدةِ القلبيّةِ. وإلا فإنَّ الحقَّ ظاهرٌ في بعضِ العلومِ المدنيّةِ، والفنونِ والآدابِ المشغولةِ بالإنسانِ. والناسُ، متفرّقينَ ومجتمعينَ، يجَهَدون للحقوقِ ويفهمون شيئاً من أصولِ العدلِ. قلتُ: غيرَ أنّ كلامَ الأستاذِ عن السّلعِ وسطوتِها حقٌّ يَلزمُه البيانُ. لأنّ عمومَ الخلقِ يريدونَ مناوأةَ الظلمِ ثمّ لا يفهمونَ الأصولَ السّوقيّةَ لهذا الظلمِ فلا يقدرونَ أن ينوشُوه بالأذَى الواجبِ. فمن هذا صحَّ الانتباهُ.

وقالَ لِيْ: الصومُ غالبيّةُ القلبِ، والجسدِ، على ظاهريةِ العالمِ.
وقالَ لِيْ: ظاهريةُ العالمِ ترتبكُ إزاءَ عروقِ الجسدِ الذي برزَ للجوعِ والعطشِ.
وقالَ لِيْ: عروقُ الجسدِ إيلافُ العالمِ إلى قلبِك محمّلاً بالطيباتِ واللذّةِ المفرَطةِ، فحينَ تقطعُ طريقَ الإيلافِ بالصومِ يرتبكُ العالمُ.
وقالَ لِيْ: العروقُ تصيرُ طرائقَ الروحِ إلى تخومِ الجسدِ.[4]
وقالَ لِيْ: العروقُ الصابرةُ مجرَى الدمِ الذي لا يتسنّهُ في دورتِه حينَ كدحِ الإنسانِ.

---

[4] كان ناجِي بنُ الشِّتيوي تلميذاً في طريقتِنا به تخمةٌ، وكسلٌ ظاهرٌ عن العلمِ والدرسِ والمكابداتِ. ولم تَكُنْ تَشْغُفُهُ بِنتٌ، ولا يُلهِمه شعرٌ، ولا تَقْدَحُهُ فكرةٌ. فأصابَته الحُمّى عاماً فأصبحَ جسدُه يَذْبُلُ، وشحمُه يذوبُ، وعروقُه تَظهرُ وَلم يكن لها هيئةٌ قبلَ ذلكَ. فصارَ التلميذُ من وهنِ المرضِ يطلبُ أن نقرأَ له النصوصَ، ونتلُو الأشعارَ، ونتَناوشَ الأفكارَ والأعدادَ والأمنياتِ. وهو في كلِّ هذا يسمعُ ويَبْسُمُ ويستزيدُ، ولم يَكُن هذا حالُه من قبلُ. فلمّا أحسَّ ببعضِ العافيةِ قامَ بما تبقّى من جُثمانِه، وقد شَفَّ حتى صارَ كعودِ القصبِ، فمشَى إلى قبرِ وليٍّ صالحٍ مسافةَ ثلاثةٍ وثلاثينَ يوماً وليلَة يقولُ أريدُ أن أُسَلّمَ عليهِ. فلمّا وصلَ سَلّمَ الوَلِيُّ عليهِ بالمبادرةِ، وعَلّمَهُ من الرُّؤَى والتّجَلّياتِ ما لم نَجِد مَكتوباً في أوراقِنا. وتَكلّمَ التلميذُ بعدها بإلهامٍ عجيبٍ ونبوءةٍ غريبةٍ. قالَ الإمامُ الدريّ: اكتبوا عنه فإنه روحٌ خالصةٌ، وقلبٌ محضٌ، وعقلٌ باكرٌ، وإني لا أراهُ يقيمُ عندَنا لغلبةِ الإنطفاءِ على وقتِنا. قلتُ: ففي تمامِ الحولِ وجدنا جثمانَه مُتَّكِأً علَى بابِ دارِ القحابِ وقد تعلّقَ قلبُه ببنتٍ منهنَّ، وفي حُضْنِهِ شعرٌ لامرئِ القيسِ وبعضُ تُرّهاتِ العاشقينَ، وفي يدهِ نبيذٌ أحمرُ. فذهبنا به ودفنّاه تحتَ داليةِ عنبٍ وصلَّينا عليهِ جماعةً وبكيناهُ.
قالَ الإمامُ أحمدُ: بل حَرِيٌّ بنا أن نَبكي على قلوبِنا التي لم تَقدر علَى هذا التَّجلِّي، وعقولِنا التي لم تعرفْ ذاكَ الوهجَ، وأجسادِنا التي لم تَقْدَحْها تلكَ الاتِّقَادَةُ الباهرةُ.

وقالَ ليْ: عروقُ الصائمِ جائزةٌ للقلبِ المناوئِ للترفِ.

وقالَ ليْ: عروقُ الصائمِ طرقٌ إليّ لا يقدرُ عليها أصحابُ العاداتِ، والمترفونَ.

وقالَ ليْ: عروقُ الصائمِ تخومٌ تستشرفُ الخليفةَ الذي فيك.

وقالَ ليْ: عروقُ الصائمِ من جداولِ الحديقةِ.[5]

وقالَ ليْ: جداولُ الحديقةِ التي تلمُّ العروقَ في غمرٍ واحدٍ سقايةٌ زائدةٌ عن مقدارِ الكفايةِ.

وقالَ ليْ: الذي يزيدُ عن كفايَتِكَ يَستحضِرُ الشِّرْكَةَ إلى سياقِك فتصيرُ أمّةً.

وقالَ ليْ: الزائدُ عنِ الكفايةِ من عفوِ الصومِ، أما الترفُ فيلقمُ الكفايةَ ثم يبدِّدُ ما يزيدُ عنها حتّى ييبسَ الزرعُ وتجفَّ الجداولُ وتخلو الضروعُ.

---

[5] قلتُ أنا موسَى: كلّمْتُ من أهلِ التقليدِ شيخاً كنتُ أريد أنَ أكتريهِ لقراءةِ الحديقةِ الغدامسيّةِ وتسجيلِها بتقنيةِ الواحدِ والصفرِ. فلمّا نظرَ إلى المتِن ذهبَ به فغاب دهراً حتى ظننتُ أنه انقطعَ عنا بقلبِه مثلمَا انقطعَ ببدنِه. ثمّ عاد إلينا فتلا موسمَ الصومِ وصوتُه بين البكاءِ والفرحِ حتىّ أتىَ علَى آخرِه. قالَ الشيخُ: قد وجدنا رحمةً عندكم لم نجدها فيمَا يلينا من أصحابِنا وأهلِ العلمِ فينا، وقابلتنا ريحٌ طيّبةٌ من كتابِكم غلبتْ علَى ما عندنا في الكراريسِ المعتبرةِ والأحبارِ والأخبارِ. وإني كنتُ توجّعتُ بميلِ نفسي وبدني إلى ما لا يُطيقهُ مذهبي في العبادةِ والفهمِ، وأصابني منه حزنٌ شديدٌ كادَ يذهب بي. فلما دخلنا بستانَك هذا وجدنا شجرَهُ دانياً، وظلَّهُ وارفاً، وماءَه زُلالاً لا يتكدَّرُ لمن هم مثلي. فجلستُ، وتفيّئتُ، ورحتُ وغدوتُ. حتى كان لي فيها بستانٌ ودوحٌ وشجرٌ هو من عَملي وفَهمي وحاجاتي. قلتُ: فأين كان مجلسُك من الحديقة؟ قالَ: موسمُ الصومِ، وهو ما قرأتُ الآنَ بحضرتِك فهو لي لا لك، فاخلع ثوبَه عليّ. قلتُ: هو لك ولأصحابِك حباً وكرامةً. فبكَى وبكيتُ.

وقالَ لِيْ: الزائدُ عنِ الكفايةِ يفزعُ لك بالعتادِ الروحيّ الحاصلِ عن التخلّي.
وقالَ لِيْ: التخلّي أن تُسْلِمَ غلالَك للمحتاجينَ، وأنتَ قبلاً أشركتَ فيها العاملينَ.
وقالَ لِيْ: الزائدُ عنِ الكفايةِ يُصَيِّرُكَ مدجَّجاً للمُنازلةِ الواجبةِ إزاءَ العالمِ.
وقالَ لِيْ: الزائدُ عنِ الكفايةِ، مِن أحوالِ المنازلةِ، يُلْزِمُكَ أن تغلبَ لخاطرِ العالمِ.
وقالَ لِيْ: خاطرُ العالمِ قلبُه الذي يتوجّعُ بكَ ويتشوّقُ إليكَ ويسألُ عنكَ.[6]
وقالَ لِيْ: خاطرُ العالمِ مناشدةٌ للخليفةِ الذي في البستانِ ألا يحبسَ الخلافةَ في

[6] كتبَ إلي تلميذٌ ببعضِ النواحي الطرابلسيّةِ، وأنا حينَها في وقتِ الصيامِ أركضُ البرَّ الإفريقيَّ فلا شيءَ: تمكّنَ البرّانيُّ من الجُوّانِيّ، فلمّا توسّطنا شهرَ الصيامِ والمجاهدةِ جاءَ الإمامُ الأساتذةَ والتلاميذَ وهم في الحضرةِ في حالٍ من الجذبِ الرّوحيّ يكادونَ يَتَّقِدُونَ. فصارُوا يَتواجدونَ بحبِّ المبعوثِ الأمينِ وهم يَنشُدونَ البِشَارَةَ اليثربيّةَ العتيدةَ "طلعَ البدرُ علينا". فدخلَ معهُم الإمامُ في هذا المقامِ الطيّبِ وقتاً. ثم كأنّهُ انتبَهَ للحالِ الذي عليهِ البلدُ، فنفضَ عنهُ وعنهم رداءَ الوجدِ، وتدثّرَ بلحافِ الهِمّةِ المتعلّقةِ بالصومِ ووجعِ العالمِ. فإذا هو يجذبُ بغناءٍ أتَى بهِ مُرتَجلاً فهو ابنُ ساعتِه، جعلَه علَى صوتِ "طلعَ البدرُ"، فكأنّهُ تَتِمَّةٌ طرابلسيّةٌ للمُبَادَأةِ اليثربيّةِ:

هُوَ ذا سِفرُ المظالمْ حِبْرُهُ دمُّ الغَلابَهْ
علمُ أحوالِ المعيشَه فرضُ عينٍ لا إنابَهْ
اتْلُهُ فجْراً ورتّلْ "آيَةَ الإذنِ" المُهابَهْ
أنْ أُذِنتُمْ بالخروجِ جمعُكم جمعُ الصحَابَهْ

قالَ التلميذُ: فاتَّصَلَ النورُ الذي طلعَ من ثَنِيّاتِ الوداعِ بالنورِ الذي أضاءَ قلوبَ الأساتذةِ والتلاميذِ في زناقي اطرابلسْ، حتّى ظننّا أن الحجازيّةَ المحمّديةَ تستضيءُ بهم كما أضاءَتْ لهم شيئاً كثيراً.

نُوّارِ البستانِ.

وقالَ ليْ: خاطرُ العالمِ انتشالٌ لجسدِك من بين ركامِ الثمرِ، وأنقاضِ الزهرِ، وزَبَدِ الماءِ الذي يجري في فروعِ السقايةِ.

وقالَ ليْ: فروعُ السقايةِ النّسغُ الذي يَلْزَمُ للبستانِ ثم تحولُ بينَك وبينَ البستانِ حينَ يغلبُ زَبَدُها على مائِها.

وقالَ ليْ: الصومُ يفكُّ ما بينَك وبينَ الزبدِ الذي علَى الماءِ ثم يَنوشُكَ بِبَلَلِ هذا الماءِ.

وقالَ ليْ: الانفكاكُ عن زبدِ الأشياءِ يعقدُ بينَك وبينَ متنِ الأشياءِ الذي هو ضدٌّ علَى الترفِ.

وقالَ ليْ: الذي ينوشُه ترفُ البساتينِ لا يعودُ يعرفُ معنى البساتينِ.

وقالَ ليْ: الترفُ يحبسُك في الاتّساعِ الذي يُشَبَّهُ لكَ.

وقالَ ليْ: الاتّساعُ الذي يُشَبّهُ لكَ خواءٌ لأنّهُ غيرُ متعلّقٍ بحاجاتِك وأشواقِك.

وقالَ ليْ: الاتّساعُ الذي يُشَبّهُ لكَ إما استيلاءٌ على الحيّزِ اللازمِ لغيرِك أو دخولٌ بك إلى خواءِ المعنَى.

وقالَ ليْ: الترفُ يقذفُ بكَ إلى الخواءِ الذي في تشبيهِ البستانِ فلا تصيرُ تعرفُ طعمَ الحرثِ أو مذاقَ الثمرِ أو رائحةَ القائلةِ التي تحتَ الكرمِ المزروعِ.

وقالَ ليْ: ما تحتَ الكَرْمِ أثرُ الرِّجْلِ العاملةِ التي ركضتِ الأرضَ فأطلعَتْ هذا الكَرْمَ أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: الصومُ يناوئُ الترفَ لأنّه ينبثق بك عن تشبيهِ البستانِ إلى خَبيئةِ هذا البستانِ.

وقالَ لِيْ: خبيئةُ البستانِ المؤونةُ الطيبةُ التي لا تحجبك عن وجعِ العالمِ أو شوقِه.
وقالَ لِيْ: خبيئةُ البستانِ عطرُ الثمَرةِ التي تَسُدُّ الرمقَ، وثمالةُ الكأسِ التي تنفعُ للغناءِ، وحصيرةُ القعودِ التي تغفُو عليها وقتَ الضُّحَى.[7]
وقالَ لِيْ: خبيئةُ البستانِ موطئُ القلبِ الذي يريدُ أن يمشي كي لا يصيرَ محبساً لهذا القلبِ.

[7] جلستُ في حلقةِ درسِ السيدِ الأمينِ صلاحِ الدّينِ الدرّةِ وقتاً، فإذا واحدٌ من التلاميذِ شديدُ الصخبِ قد شُغِفَ بظاهرِ كلِّ شيءٍ حتّى شُغِفَ بهِ ظاهرُ كلّ شيءٍ. فهو في الأدبِ يحفظُ الأشعارَ الفخمةَ، وفي المعارفِ يخضعُ لهيبةِ العلومِ المشهورةِ، وفي البناتِ يدوخُ بالرّيقِ الذي يسيلُ بين اللسانِ والشفتينِ. فقالَ لهُ الدرّةُ: أخشَى يا ولدي ألا تذوقَ الحلاوةَ التي تَلي الظاهرَ، فهي الخبيئةُ التي في بستانِ العالمِ تحثُّكَ أن تُمعنَ ولا تَقِفَ على التخومِ الخارجةِ. فقالَ التلميذُ: لا يَبِينُ لي إلا ما أنا مأخوذٌ به من لذّةِ الأشياءِ، فما أصنعُ؟ قالَ الدرّةُ: خُذْ فخامةَ الشعرِ، وهيبةَ العلومِ، وريقَ البنتِ الذي تمصُّهُ كأنّهُ رحيقُ الياسمينِ، فاجعلها جميعاً في قلبٍ مشغولٍ بالعالمِ، وعروقٍ غامرةٍ بالإنسانِ، ثم انظرِ الغَلَّةَ كيفَ تكونُ. قالَ التلميذُ: أنتَ تقولُ أني مشغولٌ بالظاهرِ ثم تُشَبّهُ لي الخبيئةَ بالكناياتِ التي لا طريقَ إليها، فقاربْ لي المعنَى يا أستاذُ. قالَ الدرّةُ: صدقتَ، فصُمْ عن ظاهرِ البستانِ وقتاً ووقتاً مُتّصِلا، ثم إن أردتَ ريقَ البنتِ فأَبْدِلْهُ بالحديثِ مع قلبِها، واقرأ شعراً لا وزنَ له ولا قافيةَ تعجبُ السامعينَ، وادخلْ إلى علمٍ كاسدٍ لا زُواقَ عليهِ فاقعدْ له بينكَ وبينَهُ ولا تتعمَّمْ به أمامَ الناسِ، ثم انْظُرِ الغَلّةَ.
قلتُ: ففعلَ التلميذُ وما كادَ. فحضرتُه بعدَ حولينِ كاملينِ وهو تقوَّتَ من الغِلَالِ الداخلةِ، ولقمَ من الحصادِ الذي في قلبِ السنبلةِ، ونهلَ من الخبيئةِ التي هي لذّةُ العالمِ الحقّ.

وقالَ ليْ: الصومُ يقدحُ البستانَ بصوّانِ القلبِ فيتوهّجُ المعنَى الذي تؤولُ أنتَ إليهِ.

وقالَ ليْ: قدحُ البستانِ قدحٌ لجسدِك لضرورةِ المشابهةِ في الحالِ والمقامِ.

وقالَ ليْ: جسدُ الصائمِ كنايةٌ أُولَى عن البستانِ وإشارةٌ آخِرةٌ عن قلبِه.

وقالَ ليْ: الجسدُ والقلبُ والبستانُ اصطفافٌ ضدَّ الترفِ.

وقالَ ليْ: الترفُ في آخرِ الأمرِ عادةٌ اِلْتَبَسَتْ بكَ فلا تعودُ تعرفُ كيفَ تُوغِلُ في العالمِ.

وقالَ ليْ: العادةُ غِلٌّ شديدٌ وقيدٌ يحبسُ اسمَك عن أن يتقدّمَ في الطريقِ.

وقالَ ليْ: للقلبِ والجسدِ عاداتٌ إذا تمكّنتْ أطفأتْ وهجَكَ، وأوهنتْ بأسَك، وسلبتْ بريقَ اسمِكَ.

وقالَ ليْ: الصومُ الذي تعتادُه لا يُعتدُّ بهِ.[8]

وقالَ ليْ: الصومُ الذي لا ينفضُ عنكَ غبارَ العادةِ، عادةٌ أشدُّ.

---

[8] كُنا في وقتِ الصومِ المفروضِ والناسُ لا يأكلونَ ولا يشربونَ. فدخلَ علينَا رجلٌ أجنبيٌّ ليسَ من أهلِ ملَّتِنا، لهُ معَ بعضِ أصحابِنا عملٌ وتجارةٌ، فسلَّمَ بتحيَّتِنا ثمَّ قالَ: في أيِّ حالٍ أنتم وأهل بلدِكم؟ قلنا: نحنُ في وقفةِ الصومِ المباركةِ ثلاثينَ يوماً نهارُنا قُربَى وليلُنا زُلْفَى. فقالَ الرَّجُلُ: فما بالُ قرباكُم كسلٌ ورهقٌ، وزُلفاكم ترفٌ وتُخمةٌ. قلنا: هذا حالُ بعضِ القومِ وأكثرُ الناسِ تُصيبُهم بركةُ الصيامِ تصفُو قلوبُهم وتشتدُّ أبدانُهم. فقالَ الرجلُ: فإني في بلدِكم من أيامٍ أريدُ أن أبني كذَا وأشتري كذا وأعملَ في كذَا، فلمّا دخلَ الصومُ تعطّلَ عملي وعملُكم، وارتبكتْ مهنَتي ومهنَتُكم، وخسرتُ وخسرتُم مالاً وخيراً كثيراً فأينَ هيَ البركةُ؟ قُلنا: هيَ في معنَى الصومِ وإن خابَ الصائمُ.

قالَ الرجلُ: عجيبٌ.

وقالَ لِيْ: صومُك عن عاداتِ القلبِ أشدُّ مُقاماً من صومِك عن عاداتِ الجسدِ.
وقالَ لِيْ: العادةُ آفةُ القلبِ تَسْتَغْرِقُهُ حثيثاً كمَا تَستغرقُ دورةُ الوقتِ جسدَ الإنسانِ والطيّباتِ.
وقالَ لِيْ: صومُكَ في الوقتِ كقلبِك في العالَمِ: كلاهُما قصمٌ لظهرِ العادةِ الغالبةِ.
وقالَ لِيْ: إن خطرَ علَى قلبِك أنّكَ تصومُ فتجوعُ فتفهمُ عن الجَوْعَى جاءَك أولاءِ فأبحتُ لهم بستانَك.
وقالَ لِيْ: صومُك موقوتٌ مرهونٌ، وصومُهم غلبَ الوقتَ والرَّهْنَ. فأنتَ تغزلُ الخيطَ الأبيضَ من الأسودِ، وهُم بلا مغازلَ.[9]
وقالَ لِيْ: الصائمُونَ خارجُونَ علَى جهةِ القلبِ، داخلُونَ بمقتضَى الحالِ، فهُم من أهلِ بينَ بينَ حتى تَغْلِبَ جِهاتُهم أحوالَهَم.
وقالَ لِيْ: الصائمونَ قلوبُهم معلّقةٌ بالخلقِ لا تبرحُ مساكنَهم ولا تعدُو مَواطنَ همِّهم، يقولونَ لهُم بالخلافةِ، ولأنفسِهم بالاتّباعِ.
وقالَ لِيْ: الصائمونَ وطؤُهم لا يكادُ، خَفّ حملُهم فأسرعوا في الطريقِ.

---

[9] كنتُ في بعضِ السنواتِ مُسافراً ببلدٍ حتى نزلتُ بيَن فقرائِه المُعسِرينَ. فحضرَ وقتُ الصومِ المعروفُ فقمتُ لا آكُلُ ولا أشرَبُ والنهارُ قيظٌ كأنّهُ مقطوعٌ منْ جهنَّمَ. فداخلني العُجْبُ من صَبري وبأسي علَى الجوعِ والعطشِ معَ حالِ سفري، وقلتُ: كأنّي وهؤلاءِ في مُقامٍ واحدٍ. فلما مَالَتِ الشَّمسُ إلى الغربِ عَلا صوتُ الأذانِ فهُرِعْتُ إلى الماءِ أكرَعُهُ والطعامِ أبلَعُهُ بلعاً. فانتبهتُ فإذا الفقراءُ في مُقامِهم من الجوعِ والعطشِ لم يخرجُوا عنهُ وإذا أنا عابرُ جوعٍ. فاستحيتُ منهمُ وهُم لا يعرفونَ من أمري شيئاً. فكأنَّ الغدامسيَّ أبا الخيرِ رآني من بينِهم وأخبرَ عني في كلامِهِ هذا.

وقالَ ليْ: الصائمونَ أوّلُ الواصليَن إليَّ، وآخرُ الخارجينَ عنّي.
وقالَ ليْ: الصائمونَ أوّلُ الواصلينَ إليَّ من جهةِ أنهم يمشونَ ولم يُحَمِّلُوا ظهورَ الإبلِ، وآخرُ الخارجينَ عني لأنهم يجلسونَ عندي ينتظرونَ الزادَ الذي من بُستاني.
وقالَ ليْ: الصائمُ يشفُّ فهمُه كما يشفُّ جسدُه حتى تبيَن فيه مبادئُ العلومِ، وثمرةُ المجاهدةِ والمكابدةِ.[10]
وقالَ ليْ: الصائمُ يقومُ على أمرِ جسدِه بالمجاهدةِ، فأقومُ على أمرِ قلبِه بالرحمانيّة.
وقالَ ليْ: الصومُ فعلٌ للقلبِ وفكرةٌ ثاقبةٌ في العروقِ إن قُمْتَ بها قامتْ بك كأنّك ابنُ الفجرِ الباكرِ لم تَتْرَفْ ولم تَتَسَنَّه.
وقالَ ليْ: من يصومُ لا يَثْلُمُ جسدُه، بل يصيرُ حادّاً كالآلةِ العاملةِ.
وقالَ ليْ: الصومُ الذي يُجهِدُ جسدَك آلةٌ تشحذُ آلةً.
وقالَ ليْ: شحذُ الآلاتِ ترتيبٌ لأوضاعِ المنازلةِ.

---

[10] قال مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ: جئتُ طميَ النيلِ في بعضِ أسفاري وقتَ الصيامِ المعروفِ. فوجدتُ عندَهم رجلاً يقالُ له عبدُ المولَى كانَ يأخذُ التمرَ القليلَ الذي يتقوُتُ بهِ علَى الكدحِ في السوقِ فيجعلُ حبّةً في سلّةِ الفقراءِ التي بالمسجدِ ويقولُ "هذهِ للمولَى"، ثم يمضغُ حبّةً أخرَى ويقولُ "وهذهِ لعبدِ المولَى". ويظلُّ هكذا حتى يأتي علَى حفنةِ التَّمرِ التي بين يديهِ. فضحكَ عليهِ بعضُهم ونَبّهَهُ آخرونَ يقولونَ له: ما هكذا الصيامُ يا رجل! فقالَ عبدُ المولَى: هو يجدُ عندي ما يُلْقِمُهُ لبطونِ عيالِه الذين قذفَ بهم إلى الجوعِ، وأنا أشدُّ أزرَ بدني ببعضِ اللُّقيماتِ كي أقدرَ أن آتيهِ بهذا التمرِ أولَ الأمرِ. وإلا جعتُ فجاعَ هو وعيالُه، وهذه أوجاعٌ لا نقدرُ ولا يقدرُ هو عليها. قال الحضرميّ: فعرفتُ أن عبدَ المولَى مجذوبٌ، وجهةُ جذبِه الخلقُ. فجلستُ إليه وأخذتُ منه أحوالَ القلبِ ومقاماتِ العلومِ التي لم يَنُشْها بهتانُ الاتباعِ الظاهرِ.

وقالَ لِيْ: شحذُ الآلاتِ عَقدٌ لنيّةِ المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: شحذُ الآلةِ ينبّهُ العالمَ أنك تقصدُه.

وقالَ لِيْ: شحذُ الآلةِ يُصَيّرُ نصلَها نافعاً للتقدّمِ بين الصفوفِ.

وقالَ لِيْ: شحذُ الآلةِ يطمئنُ قلبُك أنكَ مدجّجٌ للمحاورةِ أو المبارزةِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ استبسالُك إزاءَ الحاجاتِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ رابطةٌ بينَك وبيني تقيمُ العالمَ إزاء العازةِ فتحفظُه أن يتصدّعَ.

وقالَ لِيْ: الذي يمكنُ له أن يربطَ بينك وبيني يصيرُ محلًّا حسناً للعلومِ.

وقالَ لِيْ: الصائمونَ تجتمع قلوبُهم وأجسادُهم وبساتينُهم في حِرَاءٍ واحدٍ فتَتنزَّلُ عليهم علومٌ لا تَنبغي لمن لم يكنْ لهُ حِرَاءٌ جامعٌ.

وقالَ لِيْ: علومُ الصائمين رقةٌ ولطافةٌ من لَدُنِّ الخفّةِ التي تكونُ لفعلِ الصومِ.

وقالَ لِيْ: علومُ الصائمينَ معجونةٌ ببركةِ الجوعِ والعطشِ تجري في دمِهم الذي لم يغلبْ عليهِ الترفُ.

وقالَ لِيْ: علومُ الصائمينَ مبتلّةٌ بالمعارفِ الوافرةِ وعروقُهم يابسةٌ من الظمأِ.

وقالَ لِيْ: علومُ الصائمينَ بللٌ آخِرٌ تسكنُ له العروقُ التي تلقّتْ عنهُم جبهةَ اليَباسِ.

وقالَ لِيْ: اليباسُ يُعينك على اليقظةِ التي تليقُ بالعلومِ.

وقالَ لِيْ: يقظةُ الصائمِيَن تكشفُ عن صدأ العلومِ، وتفضحُ عطبَ المعارفِ، وتُسفرُ عن فسادِ الكلامِ.

وقالَ لِيْ: يقظةُ الصائمينَ تمنعُك عن النعاسِ الذي يُثقل عليكَ، وتُفضي بكَ إلى غفوةِ القائلةِ المُعينةِ علَى الكدحِ والفهمِ والبهجةِ.

وقالَ لِيْ: يقظةُ الصائمينَ تعبرُ بك من حزنِ الترفِ إلى بهجةِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ اتّصالٌ بالبهجةِ التي وراءَ الترفِ وانعقادٌ بالمسرّاتِ الأولَى.

وقالَ لِيْ: المسرّاتُ الأولَى ناضرةٌ لم تتسنّهْ بالعطبِ الذي يطلعُ من ترفِ الأشياءِ.

وقالَ لِيْ: المسراتُ الأولَى كالعلومِ الناضرةِ، والكأسِ العاجلةِ، واللقمةِ البكرِ، جميعُها تُفضي بكَ إلى بهجةِ العالمِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ يستعيدُ رابطتَك ببهجةِ العالمِ كما يستعيدُ أفقٌ طلعةَ الشمسِ كلَّ صباحٍ.[11]

وقالَ لِيْ: بهجةُ العالمِ مسرةٌ قيدَ الممارسةِ اليومية.

وقالَ لِيْ: بهجةُ العالمِ تقومُ بالصومِ الذي محلُّه القلبُ والجسدُ معاً.

---

[11] لما كانَ وقتُ مجاهدةٍ للظالمينَ في العالمينَ رأيتُ أستاذتي زُهرةَ حبيبةَ الله وهي في لباسِ المنازلةِ تمشِي بين الدرسِ والسّاترِ التُّرابِيّ كأنْ لا شيء. وكانتْ بها مسرّةٌ ظاهرةٌ وخفةٌ في المشيِ وطربٌ في الفكرةِ والعبارةِ. فإذا أنا لا أقدرُ علَى حالِها من البهجةِ والبلدُ في سياقِ المناهضةِ الواجبةِ. فسألتُها أن تَمُدَّني بعلومِها حتّى تكونَ لي طمأنينةٌ كالتي عندَها فقالتْ: يا موسَى، هذا من بركةِ الصيامِ بالغفلةِ. قلتُ: لم أفهمْ. قالتْ: كنتُ وقتَ الفُتُوّةِ مع فلانٍ وفلانٍ من الأساتذةِ بأرضِ جهادٍ من بلادِ العربِ متاخمةٍ لفلسطينَ عشرَ سنينَ تامّةً. حتى فتَرَتْ هِمّتُنا من أثرِ اليأسِ، ثم التخاذلِ الذي أحاطَ بنا من قِبَلِ أنظمةِ السطوةِ والاتّباعِ. فأُبْنَا إلى هذا البلدِ المطمئِنّ وجلسنا نقرأُ ونتوظّفُ ونتزوّجُ 25 عاماً من أعمارِنا. فكانَ هذا صيامَ الغفلةِ عن المجاهدةِ لأننا لم نقترفْهُ بالإرادةِ القلبيّةِ. فلمّا فاجَأَنا هذا الوقتُ من المعركةِ الواجبةِ في بلدِنا هذا عُدْنا إلى بهجةِ العالمِ التي هي عندَنا منازلةُ الظالمينَ ومناهضةُ الناهبينَ. قلتُ: يا أستاذةُ، هذه معانٍ لم نقرأْها في كتابٍ ولا ينتبهُ إليها أكثرُ الناسِ. قالتْ: قلبُ البني آدم أوسعُ من الكتابِ يا تلميذُ.

وقالَ لِيْ: الصومُ قَيُّومٌ علَى بهجةِ العالِمِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ مناكفة لبهجةِ العالِمِ كي تظلَّ البهجةُ في فجرِها الأوّلِ.

وقالَ لِيْ: مناكفةُ البهجةِ بهجةٌ.

وقالَ لِيْ: الذي يناكفُ البهجةَ يعجنُها بقمحِ المغالبةِ، ويدقُّها بحديدِ المباغتةِ، ويَحيكُها بِنَوْلِ البَكارةِ، فمِن هذا لا تنفدُ.

وقالَ لِيْ: البهجةُ صنعةُ الإنسانِ العاملِ.

وقالَ لِيْ: من يصنعِ البهجةَ يُفَجِّرُ مادّةَ الربانيةِ في أَتُونِ الإنسانِ.[12]

وقالَ لِيْ: صانعو البهجةِ عمّالُ اليوميّةِ الذين عُقِدَتْ لهم دورةُ الوقتِ كلِّه.

وقال لي: صانعو البهجةِ عمالُ ورديّةِ الصّباحِ الإنسانيّ، والعشيةِ والليلِ.

وقالَ لِيْ: الصائمُ يعرفُ بهجةَ العالِمِ من رائحةِ القمحِ الذي يصيرُ خبزاً وحلوَى.

وقالَ لِيْ: رائحةُ القمحِ استباقٌ لفضِّ الزادِ.

---

[12] خرجنا في موسمِ الحصادِ نُعِينُ فلّاحي الناحيةِ علَى الغَلّةِ بأُجرةٍ حسنةٍ. فتعجّبَ أحَدُهُم من خروجِنا عن الدرسِ للفدادينِ فقالَ: ما تفعلونَ وأنتمْ فتيةٌ صغارٌ بهذه الفلوسِ! قلنا: نَقْسِمُها على حاجاتِ الدرسِ، ومعاشِ التلاميذِ، وبعضٍ من الخيرِ والصدقاتِ والمبادرةِ. قالَ: تُبادرون بِشِنُو؟ قلنا: نفتحُ أبوابَ رزقٍ لبعضِ المحتاجينَ، كالورشِ والصنائعِ والحرفِ، فلا يعودونَ يحتاجونَ. قال المزارعُ: هذا حسنٌ، وإني لا أشارُكُكم الفكرَ والكلامَ الذي أنتمُ فيه، ولكنّي أريدُ ان أشارَكَكم في مؤوونةِ المبادرةِ. قلتُ: فلم نعرفْ كيف نقولُ. فقالَ الإمامُ أحمدُ الدرّي: أَدْخِلُوهُ في المؤونةِ فيرى ناتجَ فكرِكم، ويجدَ في عبيرِ الغلالِ أثرَ عملِكم، فيفهمَ ما فهمتُموه، فيزيدَ في علمِه وعلِمكم. ولعلّه يُبَيِّنُ لكم عن معانٍ جديدةٍ لم تعصرُوها من كرومِكم. قالَ: مَن كانَ الفعلُ سبيلَه إلى المعرفةِ كانَ أوثقَ سبباً إليها من صاحبِ الدواةِ والقراطيسِ.

وقالَ لِيْ: فضُّ الزادِ فضٌّ تالٍ لفضِّ الأرضِ الباكرِ.

وقالَ لِيْ: الصومُ تسويةُ تربةِ القلبِ لزرعِ المجاهدةِ.

وقالَ لِيْ: زرعُ المجاهدةِ يَصِلُكَ بالعالمِ في هجيرِ الوقتِ.

وقالَ لِيْ: زرعُ المجاهدةِ زادُ الذين يمشونَ في القِفَارِ لا يسألونَ أينَ المَنُّ والسَّلْوَى.

وقالَ لِيْ: زرعُ المجاهدةِ سِدْرُ القلبِ الذي تقفُ عندَه الشرائعُ لا تقدرُ أن تَجُوزَهُ، ويقتاتُ منه الحبُّ والإنسانُ.

وقالَ لِيْ: زرعُ المجاهدةِ مؤونةُ القلبِ الذي لَفَحَتْهُ شمسُ العالمِ.

وقالَ لِيْ: شمسُ العالمِ اسمٌ ظاهرٌ لمعاني المواجهةِ التي تَرَتَّبَتْ علَى دخولِك إلى بستانِ الإنسانِ.

وقالَ لِيْ: الذي يصومُ وهو في البستانِ يفهمُ من معنَى البستانِ شيئاً لا يستطيعُه الذي يَلْقُمُ الثّمرَ ويَكْرَعُ اللّبَنَ ويَعجِنُ الحَبَّ العديدَ.

وقالَ لِيْ: الذي يصومُ تَشْتَدّ معرفتُه ببستانِه، وينتبهُ لجريانِ دمِه، ويُصغي لانقباضِ عروقِه، فإذا أخذَ لقمةً من زادِ العالمِ دخلَ بها علَى قلبٍ عارفٍ وجسدٍ ثاقبٍ.

وقالَ لِيْ: الذي يصومُ يتهيّأُ للمعرفةِ.

وقالَ ليْ: جسدُك حيّزُ الحرثِ، ورقعةُ الخَدْشِ والنَوْشِ، وعُشبٌ لماشيةِ الأرضِ. قد شَغفناهُ كدحاً، وأرهقناهُ صُبحاً، وأعَدْنا خَلْقَهُ علَى بَدءٍ جديدٍ. فهُو الآلةُ العاملةُ، والأفقُ المفتوحُ على الزادِ، والعاجنُ المعجونُ بملحِ الأشياءِ. صومُك انفكاكٌ عن عاداتِ العيشِ، واستبسالٌ إزاءَ العازاتِ، ومناهضةٌ للترفِ. فكلُّ عطشٍ يُصيبُك تَشِفُّ له عروقُك، ويَجري به دمُك، وتُزهِرُ مسامُك. وكلُّ جوعٍ مقامٌ لأهلِ الولايةِ، واحتفاءٌ بالكراماتِ، واستنادُ الأوتادِ والأبدالِ. فخُذ بيديكَ رغيفَ الربانيةِ، لأنّ مِن صومِك يكونُ في العجينِ علامةٌ خاصةٌ لكَ، يعرفُك بها أهلُ السّدرةِ، ويَنكرُك المترفونَ الذين لا سِدْرَةَ لهم غيرَ زرعِ الأجراءِ. وشُدَّ إليكَ وثاقَك وعِصابةَ رأسِك، لأنّ الناسَ يجيئونَ إليكَ يطلبونَ شحذَ الآلةِ، ومقدارَ الكفايةِ، وخبيئةَ البستانِ. فَهَبْهُمِ المُضغةَ التي في الصدرِ، وادخلْ بهم من بابِ الصائمينَ، وألقِمهُم الجوعَ حتّى يصيرَ الجوعُ مؤونةً، ثمّ اعمَلْ لهم من سنابِلهم خُبزاً ودُهناً وتَحليةً، وخيراً كثيراً.

23. موسمُ المعرفةِ

(وهو الوجعُ)

ومن أحوالِه الحسبةُ الوالهةُ والخيالُ وتخومُ الرُّؤَى والاستثناءُ والفتوحاتُ والسؤالُ والحشمةُ والجرأةُ والعنوةُ والإيلافُ والسطوةُ والمشاعيّةُ والغارُ ودهشةُ السهولِ

وفيه أتيتُ الناسَ وهم أمّةٌ واحدةٌ[1]، ففرّقتُهم بالقضَايا، وألّبْتُهم بالفكرِ، وأوجعتُهم بالسؤالِ. فجاؤُوني بالكتبِ العُلويّةِ ينافحونَني بها، والأسفارِ القُدسيّةِ يدافعونني عنها. فرتَّلْتُها عليهم جميعاً كأني خططتُها بيميني. فبُهِتُوا وهم على الأعتابِ لم يُجَاوُزوها إليَّ. فلمّا دخلوا فُجِعوا في علومِهم المسنودةِ، وأخبارِهم المعهودةِ، وأحاديثِهم المتواترةِ.[2] فجلستُ إليهم أراجعُهم فإذا هم غُفْلٌ عن الحسابِ والأصولِ التي تترتّبُ عليها المعارفُ، لا يعلمُونَها إلا أمانيّ وبعضاً من الظنّ، إن الظنَّ لايغني عن القلبِ شيئاً. فبكيتُ عليهِم وأنا منهمُ، حتى أخرجْتُهم من بطونِ أمّهاتِهم لا يعلمونَ شيئاً، وجمعتُ حولي الأمّيينَ، وأقمنَا العزاءَ، يرثي بعضُنا علمَ بعضٍ لا نكادُ نقدرُ أن نحسبَ أو نرتّبَ من الفكرِ شيئاً.

فحضرَ الراسخُونَ وقالوا نحنُ نعلمُ. فكلَّمتُهم بالعددِ فبرزوا بالكلامِ المرسَلِ،

[1] لا تكونُ الناسُ أمةً واحدةً إلا على جهةِ الإنسانيةِ اللازمةِ عن الصمديّةِ. قال الشيخُ الفتحُ المُجتبَى: فخارجَ هذا السياقِ فإنّ اختلافَ الناسِ حقٌّ لا يكونُ خيرٌ إلا بهِ. وهو غيرُ خلافِهم الذي يَغلبُ بهِ بعضُهم على بعضٍ بالحكمِ أو العلومِ أو أصولِ الأموالِ. قالَ: فينبغي لكَ أن تَحتفي بالاختلافِ وتُناوئَ الخلافَ بينَ العالمينَ.

[2] كان إمامي أحمدُ لا يُحَدِّثُ قَطْ، وما سمعتُهُ مرةً يقولُ "عن فلانٍ أن فلاناً قالَ". فعابَ عليهِ ذلكَ بعضُ علماءِ الروايةِ فقالَ: عجبتُ لرجلٍ يريدُ المسيرَ يربطُ يدَه بيدِ فلانٍ ربَطَ يدَه بيدِ فلانٍ آخرَ بيدِ فلانٍ آخرَ لِمَ لا يَعقدُها بالحقّ رأساً، من جهةِ قلبه وعقلِه، فتشتدّ يدُه ويهتدي هُوَ إلى الطريقِ؟ وإنما هؤلاءِ رجالٌ لم نطّلعْ على قلوبِهم، ولم نشهدْ أعمالَهم، ولم نعرفْ أوقاتَهم وحواضرَهم التي فيها أسواقُهم وسلاطينُهم، فلا يُلْزِمُنَا كلامُهم بشيءٍ. قلتُ: وكنّا في جماعتِنا على هذا المنهجِ لا نتحوّلُ عنهُ فكراً أو مقالاً.

فكشفتُ لهم البرهانَ فمالوا إلى القياسِ المعطِّلِ والمقاربةِ الذاهلةِ. فلمّا انتبذتُ علماً قصيًّا ومعرفةً نائيةً تربّصوا وقالُوا أَرِنَا ما أُعطيتَ. فقرأتُ عليهم علاماتِ البحث، وأنفذتُهم لأقطارِ السؤالِ، فقالُوا ما عندَنا خيرٌ وأبقَى، يقينٌ نتقوَّتُ به. فذهبُوا فتفرّقوا أحزاباً يُؤذونَ قلوبَ بعضِهم بعضاً، معارفُهم حَكْرٌ، وأرزاقُهم مَكْسٌ، وسَبيلُهم جِبايةٌ في العلومِ. فلما أُرهِقوا وتَصدّعوا من الوجعِ أرسَلوا يقولونَ إمّا أن تأتِي فتُعزّينا وإمّا أن نأتيكَ. فَصِرْتُ إمامَ الجاهلينَ.[3]

ثمّ علّقتُ علَى كلِّ زيتونةٍ خبَري، وكلّمتُ الناسَ بالصبرِ على الشدّةِ، وأخذتُ الصبيانَ من نَواصيهم وقلتُ احرثُوا وانظرُوا وخبِّرُوا. فحَملُوا فؤوسَهم وقعدُوا يتفكّرونَ في أمرِ الخلقِ الظاهرِ، ومجرَى المرئيّاتِ والمحسوساتِ، وأحوالِ الأعيانِ فيما هيَ عليهِ من كونٍ وصيرورةٍ. وكتبُوه في مُصحفٍ شديدٍ، ثم جاؤُوني به فقعدتُ أدرسُه ألفاً فألفاً. فأمرتُ به أن يُنْسَخَ في الرِّقاعِ، ويُقرأَ على الأشهادِ،

---

[3] كتبَ إليَّ تاجُ السرِّ عليّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: هو رجلٌ أو امرأةٌ يجودُ به الوقتُ مرّةً على رأسِ كلِّ مئةٍ. تَلْقَحُهُ المعائشُ والتدافعُ وأنساقُ العلومِ. فيذهبُ في الناسِ بالسؤالِ الباكرِ والبحثِ الجديدِ والمنهجِ المبدِّدِ لليقينِ. فيبرزونَ إليهِ بالمقالاتِ المغلوطةِ والمعارفِ العتيدةِ. فإذا هو جالسٌ على حصيرةِ الدرسِ يكشفُ لهم تهافتَ النُّظُمِ الفكريةِ وتبدُّدَ السياقِ الذي أطلعَ اللغةَ التي اتخذُوها حجاباً. ثم يُثْبِتُ هذا في ألواحِهم وأوراقِهم، بعد أن ناوشَ بها القلوبَ والعقولَ. قال: ويكونُ من ذلك تغيّرٌ في هيئاتِ الحسابِ، وتبدّلٌ في بِنَى العلومِ حتّى تحيَن مئةٌ أخرَى فأخرَى، فلا يَتَسَنَّهُ دمُ الإنسانيةِ ولا يفسدُ هواءُ الأرضِ الذي نتنفّسُهُ. قلتُ: ولعلَّ بلخيرْ الغدامسيّ كانَ هذا الرجلَ في مِئَتِهِ ولكنَّ سياقَهُ لم يَسمح.

فحفظَهُ الناسُ وزادُوا عليه من واقعِ أحوالِهم، ومجرَى معاشِهم، فَثَبُتَتْ به العلومُ المحسوسةُ.[4]

فنقصَ هذا عن الغايةِ، والْتبسَ على الخلقِ ترتيبُ النظرِ، وتدبيرُ مبادئِ الفكرِ. فأخذتُ أقيسُ وأركِّبُ، وأُثبّتُ وأنفي، وأقولُ هذا أوّلٌ وهذا يَلي، ولعلَّ هذا من أصلِ ذاكَ، وتلكَ فرعٌ لذانِكَ. فلمّا آذَنَتِ الألفُ خططتُها في مُصحفٍ عليٍّ، وأسميتُه كتابَ المقاييسِ، فلا يُحْكَمُ على معنىً بدونهِ ولا يكونُ فهمٌ بغيرِهِ. فامتحنَهُ الناسُ فوجدوه حقاً في المعاييرِ والحسابِ الذي لا يقومُ علمٌ إلا به. فكتبوا أنّي مُعلّمهُم، وثَبُتَتْ بهِ أصولُ العلومِ كلّها، فقامت المعارفُ الحقُّ كأنها ابنةُ هذا الصباحِ. وبلغَ الناسُ من العلمِ مُقاماً شديداً، فإذا هم على عتباتِ العناصرِ

4 قالتْ أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ، من عابداتِ غدامسَ ودرجَ وسيناونَ والحمادةِ، إمامةُ المحبّة، وصاحبةُ اللواءِ والريادةِ: في أولِ أيامِ دَرْسِنَا ودخولِنا في الطريقِ، وكنا حينَها صبيةً صغاراً، جمعَنا الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدُّرّيُّ فقالَ: إنّ العلمَ لا يكونُ بالنظرِ والفهمِ دونَ العملِ، وأنتم فتيةٌ وبناتٌ كزهرِ الرُّمّانِ الطيّبِ لا بدَّ لكم من ثمرةِ عملٍ ومكابدةِ. قالت أستاذتي: فقلتُ من بين أهلِ الإرادةِ (وهم المريدونَ) – خذ بأيدينا يا إمامُ فإن قلوبَنا عندَك من ساعةِ دخلنا عليكَ أوّلَ مرّةٍ. قالَ: نعمْ يا بنيّةُ، نُقيم ورَشاً للحدادةِ والنجارةِ وإصلاحِ النعالِ والسّباكةِ والكهرباءِ، فتتعلّمُونها وتعمَلونَ بها ساعاتٍ من اليومِ تَشُدُّ من عزمِكم، وتمتَحنُ إرادتَكم، وتَصِلُكم بالخلقِ من خيرِ طريقٍ: القلبُ فالساعدُ فاليدُ هكذا (ورسمَ بيُسراهُ خطاً من أوّلِ قلبهِ حتى طرفِ يُمناهُ). قالتْ: فعقدْنا العزمَ على الأمرِ في ذلكَ العهدِ القديمِ، وصِرنا أهلَ صنعةٍ وحرفةٍ وعلومٍ بإذنِ الله.

يقرعونَ أبوابَ الأشياءِ. فلما دخلوا إلى حُرماتِها ضربوها فانفطرتْ نصفينِ نصفينِ، فتعطّلتْ أصولٌ وفَسَدَتْ مبادئُ واختلطتْ مفاهيمٌ.[5] فارتبكَ القومُ وقالُوا "ما بالُ الحقِّ صَلَحَ هنا وتعطَّل هناك؟ وما حُكمُ الغلطِ يصيبُ حِسابَنا ونحنُ منتبهُون؟ وكيفَ صارَ كلُّ شيءٍ فتمَّ؟ وما رتَّبَ هذا علَى ذاكَ وأَخَّرَ ذاكَ عن هذا؟ وهل لنا في علمٍ تامٍّ وفهمٍ لا ريبَ فيهِ وترتيبٍ يَسَعُ الكونَ كلَّهُ صغيرَهُ وكبيرَهُ، مفصولَه وموصولَه؟". فغِبتُ ألفاً وطلبتُ مفاتحَ الغيبِ، فأُنْكِرَ عليّ. فَثَبَّتُّ نفسي على الطريقِ، ودخلتُ في المقاماتِ والمنازلِ، في كلّ حالٍ ألبثُ ألفاً. فتقوَّتْ مداركي، واشتدَّ فهمِي، واتَّسعتْ رُؤيتي، وكُشِفَ عني فإذا بَصري حديدٌ، وقلبي من نارٍ تكادُ تضيءُ كلَّ شيءٍ. وصرتُ بعدها إلى سدرةِ الخيالِ، فكُلّمتُ بالعددِ، وأُعطيتُ مفاتحَ الغيبِ فحضرَ كرامةً، فعلمتُ ما سكنَ البرَّ والبحرَ، وقالتْ لي كلُّ ورقةٍ أنها تسقطُ، وكلُّ يابسٍ أو رَطِبٍ. فلم أقدرْ أن أكتُبَ هذا. فلهجتُ به فَشَابَهُ النُّقصانُ، فقاربتُه بالشّطحِ والجنونِ وكلامِ الهائمينَ. فتاخَمْتُهُ ولم أصِلْ. فلما سمعَ الناسُ عُلومي الجديدةَ أنكرُوني. فبكيتُ لحالي فيهم، وقلتُ خذُوا ما آتيتُكم من الوهمِ والخيالِ. فجلسُوا مجالسَ العلمِ الثابتِ الذي

[5] قلتُ: في هذا ترتيبُ علومٍ منَ المنطقِ، والرّياضةِ، والفيزياءِ، وإشاراتٌ من مُقامِ النسبيّةِ، والكَّمِّ، والذرّةِ، كانَ الخليفةُ الغدامسيُّ يعرفُ منها ما يعرفُ وهو الذي جابَ البُلدانَ وتكلّمَ بألسنةِ الأوطانِ. وأربكتْ بعضُ هذهِ المعارفِ العصريةِ أهلَ العلومِ وعامّةَ الخلقِ حتى خرجَ من خرجَ عن ربقةِ الدينِ والفلسفاتِ الأولَى. وبعضُ هذه العلومِ العصريّةِ كالفيزياءِ الدقيقةِ لم يخرجْ إلى الناسِ إلا قبلَ أن يُتوفّى صاحبُنا الغدامسي بعقدينِ من السنينِ، فتأمَّلْ.

علّمتُهم إياهُ أولَ الأمرِ وقالُوا: ما لنا قوّةٌ نتهيّأ وراءَ ذلكَ فكرةً أو معنىً أو وجوداً. فخشيتُ عليهم حبسَ العلمِ الظاهرِ يحسبونَه العلمَ كلّهُ من سطوتِه وترتيبِه. فركّبْتُ لهم الأوهامَ فنوناً من الشّعرِ والرّسمِ والحَكيِ تخييلاً ورؤيا. فكأنني اتّصلتُ بهم وكأنّهم تاخموا أرضي. فبينما أنا في مُقام الكنايةِ جاءَني في غمامةِ المجازِ وقالَ لي:

الخيالُ بابٌ من أبوابِ العلمِ لا يَلِجُه إلا الحاسبونَ الواهون.[6]

وقالَ ليْ: الحسبةُ الواهةُ اتّكاءَةٌ على أريكةِ العددِ غيرَ أنّكَ تشربُ من ثمالةِ الشوقِ الذي أطلعَ العالَمَ أوّلَ مرّةٍ.

وقالَ ليْ: الحسبةُ الواهةُ ليست انفكاكاً عن العددِ بل دخولٌ به إلى سياقِ الشوقِ الذي يغلبُ من جُوّانِيّتِهِ.

وقالَ ليْ: الحسبةُ الواهةُ لا تصحُّ للذين لم يعرفوا الحسبةَ أو لم يتولّهوا.

---

[6] تاخمَ الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ، مُقامَ المعرفةِ الكاملةِ من بابِ الخيالِ. فذُهِلَ عنْ كلِّ شيءٍ، وصارَ يَهذي في الأسواقِ بعدَ أن كانَ يخطبُ علَى المنابرِ الفاخرةِ. وخلعَ إزارَه ومداسَهُ وراحَ يقولُ: خلّوا بيني وبينَ ربي، قدْ طوّلتُم الطريقَ إليهِ! فانفكَّ قيدُه حتى صارَ حراً كيومِ ولدتهُ أمّهُ، ولم يَعُدْ يعرفُ منَ الكتابِ غيرَ "ونَاديناهُ"، ولا يقدرُ علَى صومٍ أو صلاةٍ عدا وهمٍ يخطرُ ببالِه فيكفيهِ. فإذا حضرَ الصبحُ يطوفُ حولَ نفسِه يقولُ أنا كعبةُ إبراهيمَ. ثم يأخذُ حاصلَ زرعِه فيجعلُهُ في الشكائرِ ويرمي به علَى قارعةِ الطريقِ الذي يمرُّ به العمّالُ يقولُ هم زكاتُهم صاعٌ وأنا ما يبقَى عندي صاعٌ.

قلتُ: "ما يبقَى عندي" أي لا يكونُ عندي صاعٌ، أو الذي يكونُ عندي بعدَ هذا صاعٌ، وكلاهُما، في مقامِ الخيالِ الواهِ، من أفعالِ المهابيلِ الذين يحبُّهم ربِّي.

وقالَ لِيْ: الحاسبونَ يتولَّهونَ لأنهم يَشغُفون بالعددِ من جهةٍ وبالعالِمِ من جهةٍ، فكيفَ أتيتَهم وجدتَهم في حالِ الشوقِ.

وقالَ لِيْ: الحاسبونَ الواهونَ على أعنّةِ الخيالِ يكادونَ يهتكونَ حِسبتَهم والعالمَ في بَكارةٍ واحدةٍ.[7]

---

[7] قلتُ: دخلتُ علَى شيخي الحسنِ بنِ الغريبِ الواحديّ في ركنِ دارِه، فإذا هو أقعدَ في حِجْرِهِ أصغرَ عيالِه، وهو ولدٌ في الخامسةِ لا يزيدُ عنها، يُهَدْهِدُهُ للنومِ ويترنّمُ في صوتٍ جميلٍ:

اذهبْ في العلمِ ولا تَقْفُ — أثرَ الماضين، فمَا عرفُوا

إنْ جاءَكَ باسمي ألفُ دَعِيٍّ — يَروُونَ فلا تأبَهْ واجْفُ

عِلْمَاك حسابٌ في ثَبَتٍ — أو حُلْمٌ دُرِّيٌّ رَجِفُ

هَـذي أسمـاؤُك تَخْلِقُهـا — تُمعِنُ في الكونِ وتقترِفُ

فقلتُ: ياشيخي، أهذهِ هَدْهَدَةٌ للأطفالِ؟ لو كنتَ غنّيتَ له خرافةً من الخرافاتِ لكانَ ألذَّ علَى قلبِه وسمعِه. فضحكَ الشيخُ وقالَ: هو واللهِ كما قلتَ، غيرَ أني دخلتُ علَى الولدِ يرسمُ في كرّاسِه فإذا هو جعلَ الشمسَ والقمرَ بازغينِ في منزلٍ واحدٍ، والشجرَ مقلوباً رأسُه في الأرضِ وجِذْرُهُ في الهواءِ، والياسمينَ يتدلّى من قبّةِ السّماءِ، والثّورَ عَقَدَ النَّيْرَ برقبةِ إنسانٍ يحرثُ لهُ. فسألتُه عنها فقالَ: هكذا أحسَن! ثمّ وضعَ رأسَهُ علَى رُكبتي وأسدلَ عينيهِ كأنّهُ يستريحُ من فعلِ الخلقِ، خلقِ عالمِه هذا. فهَدْهَدْتُهُ بما سمعتَ من كلامٍ كتبتُه أقصدُ به العارفينَ أوّلَ الأمرِ، فلمّا رأيتُ خيالَ الأطفالِ علمتُ أنهم عارفونَ من هذهِ الجهةِ الساحرةِ. قلتُ أنا موسى: هذا العَيّلُ يحاولُ العلومَ في عهدِ الطفولةِ الباكرةِ، ففَرِحَ الشيخُ أنه غيرُ محبوسٍ في منطقِ العالمِ الظاهرِ، وترتيبِ الحسابِ المطفَأ، بل هو منعقدٌ بالخيالِ الغرائبيّ الذي مشَى به في الطريقِ، ونفذَ بِنَصْلِهِ في قلبِ الأشياءِ.

وقالَ ليْ: الخيالُ انعقادُ أحوالِ العالمِ بقلبِك حتى تكادُ تراهُ كَرّةً أُخرى.

وقالَ ليْ: الخيالُ اتصالُ أسمائي بك حتى تمشي في الطريقِ تتأوَّلُها وتتأوَّلُك.

وقالَ ليْ: الخيالُ فضاءٌ للمعارفِ يمشي فيهِ العارفونَ والذين هم في ابتدائِهم يريدونَ أن يَعرفوا.

وقالَ ليْ: الخيالُ قلبٌ تدخلُ به على علومٍ منتظمةٍ لم تَسُدَّ بها رمقَ الأسئلةِ الآخرةِ.

وقالَ ليْ: الأسئلةُ الآخرةُ إمعانٌ في الدهشةِ التي أطلعتْ أولَ السؤالِ.

وقالَ ليْ: الأسئلةُ الآخرةُ استئنافٌ علَى الأجوبةِ التي ركنتَ لها.

وقالَ ليْ: الأسئلةُ الآخرةُ استشرافٌ لما بعدَ سدرةِ العلومِ.

وقال لي: الأسئلةُ الآخرةُ ربما أينعتْ في قلبٍ مجاورٍ.[8]

وقالَ ليْ: القلبُ المجاورُ يتّسعُ بأسئلتِك ثم يُسمِّيها بأسماءَ لا تعرفُها تجدُ لذّتَها ناضرةً كأنّ لم يمسَسْها جوابٌ.

---

[8] قالَ تلميذٌ: كنتُ، هذا الضُّحَى، أقرأُ الكتابَ بصوتٍ حسنٍ فجاءَتْني صاحبتي للزيارةِ الواجبةِ عن الشوقِ. فتلخبطتُ ولم أعرفْ هل أُهْرَعُ إليها كرامةً للحبِّ أم أظلُّ عندَ النصوصِ أداولُها وأتحشّمُ منها. قالَ الشيخُ الحارثُ المتوقّدُ: ما تجدُ عندَ كلِّ واحدٍ منهُما في حالِ الوصالِ؟ قالَ التلميذُ: الكتابُ يمدُّني بالعلومِ والبنتُ تَسُدُّ رمقَ القُبُلِ. قالَ الشيخُ: هذانِ، العلومُ والقبلُ، أسئلةٌ يمشي بها قلبُك في فضاءِ الإمكانِ، غيرَ أن القبل أدنى تخوماً وأنضج ثماراً وأطيب كأساً، فمِن هذا كانتْ لذّةُ البنتِ أطغَى عليكَ في ضُحَى الزيارةِ من لذّةِ الكتابِ. ولولا هذهِ الطغيانِ ما تلخبطتَ وجئتَ تنشدُ العذرَ منا في صورةِ السؤالِ. قلتُ: فهَرَعَ التلميذُ إلى البنتِ يقولُ الشيخُ المتوقّدُ حثَّني إلى القُبَلِ في عبارتِه فلا حرجَ عليَّ ان أبوسَ بعدَ الآنِ.

وقالَ ليْ: القلبُ المجاورُ "وقالَ ليْ" تمشي معكَ في أرضِ المعارفِ فلا تستوحشُ من السؤالِ أو الخيالِ.

وقالَ ليْ: الخيالُ الذي تدخلُ به على محلِّ العلومِ مدخلُ مراجعةٍ، ومحلُّ نظرٍ، وموضعُ حسابٍ.

وقالَ ليْ: الخيالُ آلةٌ تُشحذ وتُفَلّ، وتُقبل وتُردّ، كحالِ آلاتِك جميعاً.

وقالَ ليْ: العلمُ ترتيبُ معارفِكَ بالحسابِ المكينِ، والخيالُ فضٌّ للحسابِ وتبديدٌ لنسقِ الفكرِ.

وقالَ ليْ: الذي يفضُّ ويبدِّدُ ينخرطُ ضرورةً فيما فضَّ وبدَّدَ.

وقالَ ليْ: الخيالُ نسَقٌ وفكرٌ يحتجبُ وراءَ الدهشةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: العلومُ آخرُ المعارفِ التي أطلعتَها وراجعتَها واستعملتَها، وأولُ عتباتِ الخيالِ الذي لا تدري كيفَ انبثقَ منكَ ولا كيفَ ترتجِعُه وتستعمِلُه.

وقالَ ليْ: الخيالُ سبيلٌ غامرٌ، فإن أرهقتكَ المسائلُ وضاقتْ بك العلومُ تهيّأ الطريقَ وأمعنْ في تخومِ الرُّؤى.

وقالَ ليْ: تخومُ الرؤى أرضُ الشجرِ الذي لم تغرسْهُ العلومُ المكينةُ والحسابُ المعتبرُ.

وقالَ ليْ: تخومُ الرؤَى الأرضُ التي تمشي بها وأنتَ في سِنَةٍ من الحسابِ العتيدِ.

وقالَ ليْ: تخومُ الرؤى إيلافُ القوافلِ المتوجّسةِ من العلومِ.

وقالَ ليْ: إيلافُ القوافلِ يحدو بها العارفُ الذي نفضَ قلبَهُ من زادِ العلومِ.

وقالَ ليْ: إيلافُ القوافلِ توغّلُ القلبِ في أرضِ المجازاتِ المرسلةِ، والكناياتِ السائبةِ، والاستعاراتِ التي تُقحِمُكَ في الخيالِ.

وقال لي: إيلاف القوافل عندي.[9]

وقالَ ليْ: الذين لا يريدونَ لك الخلافةَ يترصّدونَ الإيلافَ كي يقطعُوا عليكَ طريقَ الرؤى المدهشةِ.

وقالَ ليْ: الذين لا يريدون لك الخلافةَ قُطّاعُ طرقٍ.

---

[9] قالَ تلميذٌ: هذا الفضاءُ رحبٌ لا نقدرُ أن نتخيّلَهُ، والضوءُ لا ينفذُ في سوادِه الغالبِ. ونحنُ علَى قشرةِ هذهِ النقطةِ الزرقاءِ، السّابحةِ في الخواءِ الأعظمِ، نقولُ العلومُ تذهب بالإنسانِ إلى العرشِ، والعملُ والحبُّ يُدخلانِه على الحقِّ الكاملِ. وهذا معتقدٌ عجيبٌ، وآمالٌ لا تسندُها الرياضةُ والحسابُ. قلنا: مثلُ ماذا؟ قالَ التلميذُ: إنّ وجودَنا في هذا الكونِ كرمشةِ العينِ في ما يقاربُ الأبديةَ من الزمنِ، فكيفَ يسنحُ لنا العرشُ أو قوائِمُه أو سِدرتُه وهو على حافة هذه الأبدية وأطرافها القصوى. قالَ مَولاي تاجُ السرِّ عليُّ بنُ زهرةِ الحُسنِ: أنتَ تحفظُ للقوافلِ إيلافاً قريباً وهي إيلافُها من بعدِ هذا شيئاً كثيراً. قالَ التلميذُ: ما عرفتُ. قالَ تاجُ السرِّ: إنكَ وقفتَ على حدٍّ من حدودِ العلمِ وإن غارَ وذهبَ بعيداً. فإنّ وراءَ هذا الحدِّ الرياضيِّ والحيّزِ الحسابيِّ أسرارٌ تهتكُ مادةَ العالمِ، ورحمةٌ تنفذُ في جوهرِه الفذِّ، ومحبةٌ تحيطُ به علماً ومعرفةً. وهذا لهُ مثالُه من الفيزياءِ الفلكيّةِ نفسِها. قالَ التلميذُ: مثلُ ما؟ قالَ مولايَ: انظرْ إلى الثقوبِ السوداءِ وكيفَ تنقلبُ فيها قوانينُ الوجودِ، وتتلاشَى الأعدادُ والجداولُ، وتتهافتُ الحدودُ ويتّسعُ فضاءُ الإمكانِ. حتّى إنّ الزمانَ والمكانَ يصيرانِ شيئاً واحداً يتصلُ ثمّ ينفصلُ عن ذاتِه، وتصيرُ السنواتُ الضوئيّةُ كالخطوةِ والخطوتينِ، والمجرّاتُ الهائلةُ بعضاً من قلبِ المسافرِ عبرَ الكونِ. قالَ مولايَ: فإن أردتَ فـ "كُنْ" ربما كانتْ ثقباً أسودَ أو اتحاداً للزمانِ والمكانِ يلُمُّ الفيزياءَ والرياضياتِ في نفحةٍ واحدةٍ من نفحاتِ الروحِ الربانِيّ.

قلتُ: فكادَ التلميذُ أن يترقرقَ من جلالِ الفكرِ لولا حشمةُ الفتوّةِ والكبرياءِ.

وقالَ ليْ: لا تقفْ في الطريقِ علَى "مَاذا" ولكنْ علَى "كيْف". فإنَّ في مَاذا ارتواءٌ ظاهرٌ وفي كيفَ عطشٌ لماءِ الأسرارِ.

وقالَ ليْ: العطشُ لازمٌ للارتواءِ، والارتواءُ يُفضي إلى العطشِ.

وقالَ ليْ: اللزومُ والإفضاءُ رابطتانِ في العددِ.

وقالَ ليْ: العددُ لازمٌ بذاتِه ثم يُفضي إلى ما يليهِ، وهذه من قيّوميَّةِ الكونِ.

وقالَ ليْ: العددُ محلٌّ واحدٌ، ومحلّانِ، وعديدُ المحلّاتِ. فمِن هذا يمكنُ لكَ أن تجمعَ الكونَ في العددِ.

وقالَ ليْ: يمكنُ لك أن تَلُمَّ شتاتَ الأشياءِ في العددِ غيرَ أنّه لا يَسُدُّ رمقَك كمَا تَشتهي.

وقالَ ليْ: أنتَ تقتاتُ من العددِ كما تقتاتُ من كِسرةِ الخبزِ، تقيم إوَدَكَ ولكنها ليستْ خمرَ الكُرومِ.[10]

---

[10] قلتُ لأستاذتي زينةِ العالمينَ راويةِ بنتِ جميلٍ: الغدامسيُّ يتكلّمُ عن كِسْرةِ الخبزِ التي هي العددُ، فما خمرُ الكرومِ؟ قالتْ: خمرُ الكرومِ الشعرُ والسردُ والغناءُ والرسمُ والفلسفاتُ والروحانياتُ والأعمالُ والمجاهداتُ. فهي جميعاً سبلٌ للمعرفةِ وطرائقُ للعلمِ بهذا العالمِ. وإنما العددُ يُوَطِّنُ قدميكَ في طينِ الأرضِ فتنهضُ قائماً تمشي في التخومِ، وخمرُ الكرومِ يُهَيِّأ لكَ ما وراءَ الطينِ وما يَلي هذي التخومَ، وما هو لا طينَ له ولا تخومَ. قالتْ: يقفُ عند العددِ من يقتاتُ علَى كسرةِ الخبزِ التي هي لازمةٌ للحياةِ، ولكنّ الإنسانَ الكاملَ يمشي بين الخبزِ والكَرْمِ حتى يرَى ويرَى مرّةً أخرَى، وإلا حبسَ عقلَهُ في حيّزِ النظرِ الأوّلِ. قلتُ: فالذي يسكرُ ولا يقتاتُ؟ قالتْ: يُشَبّهُ له عالمٌ علَى قَدْرِ سَكْرَتِهِ، وهذا ليسَ شيئاً ذا بالٍ لأن العالمَ أوسعُ من هذا وأشدُّ غمراً. قلتُ: نقتاتُ إذن ونسكرُ يا أستاذتي، نقتاتُ ونسكرُ.

وقالَ لِيْ: بين كسرةِ الخبزِ اللازمةِ للرمقِ، وخمرِ الكرومِ التي تليقُ بقلبِك يتصدّعُ الجبلُ الذي حَسِبْتَهُ قائماً إزاءَك أو إزائي.

وقالَ لِيْ: خبزُ الأعدادِ قد يُسْكِرُ صاحبَ القلبِ الذي تَهيّأَ للمجلسِ وتزيّنَ لزيارةِ الندماءِ.

وقالَ لِيْ: خبزُ الأعدادِ يحفظُك أن تنفصلَ عن البناءِ الذي تركّبتَ عليهِ، والمعمارِ الذي انبثقتَ منه في العالمِ، والرابطةِ التي ثبتَ بها اسمُك عندي.

وقالَ لِيْ: أُسْلُبِ الشيءَ أسماءَهُ يحتجبْ عنكَ، واسْلُبْ أعدادَه يتهافتْ قدّامَك، فبين الاحتجابِ والتهافتِ حيّزُ الجهلِ كلُّه.

وقالَ لِيْ: العددُ كمُّ الأشياءِ وأنتَ تريدُ كمَّها وكيفَها معاً.

وقالَ لِيْ: كَمِّي أصلُ كَيْفي، وكيفي أصلُ كَمِّكَ وكيفِك.[11]

وقالَ لِيْ: في العددِ الأمنُ والمُكْنَةُ، وأنتَ علومُك مغامرةٌ، ومعارفُكَ مقامرةٌ، وحكمتُكَ وهمٌ وتشبيهٌ.

---

[11] قلتُ: لم أفهمْ هذهِ فقال الإمامُ أحمدُ: "كَمّي" أي كوني واحداً فرداً لا كُفؤَ لي هو أصلُ "كيفي" أي كوني موصُوفاً بالخلقِ الأولِ والقدرةِ الكاملةِ والمحبّةِ الشاملةِ وغيرِها. وكيفي هذا أصلُ عددِكَ وأسمائكَ وكلِّ ما لزمَكَ، من ضرورةِ أنكَ مخلوقٌ من قِبَلي. قلتُ: فما أصلُ كمِّهِ هو الذي ابتدأَ به كلُّ شيءٍ؟ قالَ الإمامُ: معنًى بين قلوبنا وهذا العالمِ لم نقفْ عليهِ فيما فاتَ، فإن وصلْنا نرسلُ إليكَ إشارةً ونُكلّمك بالجوابِ. قلتُ: وهل من يصلُ يتكلّمُ؟

قالَ: إن عَلِمَ أنه وصلَ تَبَدّدَ فلم يَكُنْ، وإن لم يعلمْ لم يَطلبْ كلامَ الوصولِ لعدمِ حاجتِه إليهِ. ولكن نحنُ نشيرُ إليكَ إن تاخَمْنا وقاربْنا، فلا يصحُّ عندَنا حبسُ العلومِ. ثم قالَ: ولعلّكَ تصلُ قبلنا فتشيرُ إلينا كما قصدنا أن نُشيرَ إليك.

وقالَ لِيْ: في العددِ أنّكَ إن مشيتَ تغيّرَ حالُ الكونِ لتغيّرِ حالِ عددِك فيه.

وقالَ لِيْ: ليسَ العددُ معنىً وإنما هو عَلامةٌ علَى المعنى.

وقالَ لِيْ: في العددِ يظهرُ لكَ الاحتمالُ والإمكانُ، والحدُّ والعجزُ، وبعضُ الذي يُعقلُ والذي لا يُعقلُ.

وقالَ لِيْ: في العددِ حدُّ الإمكانِ بالعقلِ، وعتبةُ الإمكانِ بالقلبِ.

وقالَ لِيْ: الإمكانُ في العددِ غوايةٌ فمن هذا يكونُ الدواخُ بالعددِ.

وقالَ لِيْ: إذا وقفتْ بكَ العبارةُ كلّمني بالعددِ.[12]

وقالَ لِيْ: العددُ والعبارةُ والخيالُ غِيرانٌ للمعرفةِ التي ينبغي لكَ أن تتوجّعَ بها.

وقالَ لِيْ: كلُّ معرفةٍ تقترفُها هي "اصدعْ" لقلبِك أمامَ الخلقِ.

وقالَ لِيْ: الذي ينزلُ عن الغارِ لا بدَّ له من الحُمّى، والذي يصدعُ بالعلومِ لا بدَّ أن يتصدّعَ بها.

وقالَ لِيْ: الذي يطلعُ للغارِ لا بدّ أن ينزلِ بعلومِ الغارِ.

وقالَ لِيْ: الغارُ الذي تنزلُ منه بعلومِه ينبغي لكَ أن تقدَحه بدهشةِ السّهولِ.

وقالَ لِيْ: دهشةُ السهولِ صُوّانٌ يقابلُ صوّانَ الغارِ فيحصلُ القدحُ.

وقالَ لِيْ: دهشةُ السّهولِ إزاءَ علومِ الغارِ.

وقالَ لِيْ: دهشةُ السّهولِ استدعاءٌ لعلومِ الغارِ.

---

[12] قالَ شيخي المُجتبَى: "كلِّمْني" أي ادخُل عليّ، و "بالعددِ" أي قلْ هُوَ الله أحدٌ. وقالَ الحارث المتوقد: "كلِّمني بالعددِ" أي تأمّلْ معنى وحدانيَّتي ومعاني تعدُّدِكَ فيظهرُ لكَ من ذلكَ خيرٌ كثيرٌ يَرِقُّ له قلبُك وتصيرُ "قابلاً كلَّ صورةٍ". قلتُ: تعدّدُ الإنسانِ يمنعُ عنهُ السطوةَ في العلومِ والمعائشِ والروحانيّاتِ ويُثبِتُ له معنَى الاختلافِ والمشاركةِ، فتأمّلْ.

وقالَ ليْ: دهشةُ السّهولِ أوسعُ من علومِ الغارِ.[13]

وقالَ ليْ: المسافةُ بين السّهلِ والغارِ يحصلُ عنها الوجعُ.

---

[13] كانَ الإمامُ أحمدُ الدرّيُّ يَنْظِمُنا في الخلواتِ الصوفيّةِ التي عندنا في الزاويةِ البستانيّةِ بحاضرةِ اطرابلس البهيّةِ. وقد يوجّهنا، في بعض الوقتِ، إلى غيرانِ الجبلِ الغربيّ ننشدُ العزلةَ القلبيّةَ والتأمّلَ الروحانيَّ. وكانَ يقولُ: "تشبّهوا" – يعني بصاحبِ الغارِ الأولِ. وكانَ رعاهُ اللهُ يحثُّنا على دخولِ الخلوةِ بالقلبِ الذي تشوّقَ لها، والإنسانِ الذي تَطَلّعَ لمقامِها، لأنّ هذا الشوقَ، وهذا التطلّعَ، هما سنبلةُ العلومِ، والنسغُ الذي يجري في عروقِ المعارفِ.

قلتُ: ودخلتْ تلميذةٌ إلى محرابٍ لعبدٍ صالحٍ نتبرّكُ به في ناحيةِ العُربانِ من بلادِ الجبلِ، وظلّتْ تخدمُه وتخدمُ زُوّارَهُ من الأمهاتِ والأولادِ ساعاتِ النهارِ، ثم تخلُو بنفسِها مدّةَ الليلِ كلّهِ تقرأُ وتصلّي وتتأمّلُ. فأطالتِ البقاءَ شهوراً، فطلبناها، فقالتْ: حصلتْ لي علومٌ ها هنا أوسعُ من علومِ الدرسِ عندَ الشيوخِ. قلنا: كيفَ سنحتْ لكِ؟ قالتْ: يجيءُ الضعيفُ، والمسكينُ، والخائفُ، والراجي، يشتكونَ بلهجاتِهم، ويحدّثون بقلوبِهم، ويصلُّون ويعملُون بعلِومهم، وهم جميعاً في مُقامٍ رحمانيٍّ شَفَّتْ فيه أنفسُهم وتَرَوْحَنوا وتَوَجْدَنوا، أي غلبتْ عليهم الروحُ والوجدانُ. وأنا قلبي منعقدٌ بالخلقِ قبل دخولي إلى الضريحِ المباركِ، فاجتمعَ الشوقُ الذي بقلبي بالعلومِ التي من جهةِ الخلقِ، فأضَأْتُ واستضأتُ. وهذا لم أجدْهُ في الدرسِ المعروفِ والنصوصِ المحفوظةِ عندكم.

قالَ الإمامُ: هي فاطمةُ؟ قلنا: نعمْ، فكيفَ حدستَها؟ قالَ: رأيتُها عندنا تتركُ درسي، وتُكلّمُ عمّالَ النظافةِ والسّباكةِ بالزاويةِ البستانيّةِ تسألُهم عن الحقّ، والاسمِ، والصفاتِ، ثم تقولُ ما مقدارُ أُجرتِكم؟ وهل لكُم ضمانٌ؟ وكم ساعةً تعملونَ؟ قالَ الإمامُ: تفعلُ هذا في عبارةٍ واحدةٍ كأنّ اسمَ الحقِّ وأجرةَ العمّالِ شيءٌ أحدٌ. ففهمتُ أنها صاحبةُ حبٍّ للعلومِ وتشوّقٍ للخلقِ. فلمّا ذكرتُم هذا عنها عرفتُها في ساعتِها.

وقالَ لِيْ: الذي بين السهلِ والغارِ يحثُّك علَى التخلِّي. [14]
وقالَ لِيْ: التخلِّي يستأنفُ لك العلومَ والوجعَ معاً.

---

[14] تعلّق قلبي بمعلّمٍ من المعلمينَ الأفذاذِ أعجبَني علمُه وسِعَةُ حفظِه وترتيبُه للمعارفِ الكثيرةِ، وهو لا يحارُ جواباً وفيهِ طمأنينةٌ غامرةٌ. وكنتُ وقتَها علَى أولِ الطريقِ أدخل فيه ثم أخرجُ منهُ متوحِّشاً من الدروسِ والمجاهداتِ. فوجدتُ المعلّمَ في صبحٍ يربطُ البردَعةَ والخُرُجَ الواسعةَ على ظهرِ بغلةٍ مكينةٍ كنتُ رأيتُه يَشريها من السوقِ قبلَ يومين. ففزِعتُ إليه أعاونُه في حزمِ المؤونةِ وتحميلِ الزادِ وعلَفِ الدابّةِ. فلمّا رأيتُه يمسكُ بزمامِ الحيوانِ ويستشرفُ آخرَ الشارعِ قلتُ: يا معلّمي أراكَ متعلّقاً بأفقٍ بعيدٍ؟ قالَ: نعمْ، أريدُ الجبلَ في مسيرةِ أيامٍ ثم العلومَ في مسيرةِ شهورٍ ولعلّها تزيدُ عن هذا شيئاً كثيراً. قلتُ: فأنتَ صاحبُ علوم فتطلبُ علوماً؟ وما عندَك يمشي بكَ في المعيشةِ وبينَ أهلِ المذاهبِ الحاكمةِ فلا يخذُلك. قالَ: جِرابي ملآنٌ ولكنْ بالأجوبةِ، وهذا يجلبُ الطمأنينةَ وقتاً فإذا اضطربَ القلبُ من ناحيةِ حالٍ ربانيّ أو انعقادٍ إنسانيّ لمْ تَسُدَّ رمقَهُ علومُ الجوابِ وإن كانتْ خِضَمّاً كخضمّ البحرِ، فعندَها يصيرُ وقتُ الأسئلةِ. قلتُ: فناشَك حالٌ ربانيٌّ أو انعقادٌ إنسانيٌّ يا مُعلّمي؟

قالَ: نعمْ. كنتُ أقرأُ "وعلّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها" فخطرَ لي أنّهُ اشتركَ معهُ في معرفةِ الأسماءِ وهذا تجويزٌ للشِّرْكَةِ، فتهافتتْ قراءَتي وصُعِقْتُ من الهولِ. ثم أني غُوِيْتُ بنتاً كنتُ أذاكرُ لها الدروسَ فقالتْ لي في عشيّةٍ: هل تجدُ في قلبِك ما أجدُ؟ قلتُ: نعمْ. قالتْ: وفي بدنِكَ؟ فلمْ أجِدْ في جرابِ العلومِ شيئاً ينفعُ لهذا السؤالِ. فكلّمتُ الإمامَ أحمدَ بنَ محمدٍ بنِ إبراهيمَ الدرّي فقال "وقعتَ بينَ ربّكَ والبنتِ!"، ثم وجّهني بالتّخَلّي، وشراءِ البغلةِ، والسفرِ إلى الجبلِ.

قلتُ: التَخلّي، عندَ القومِ، أن تأخذَ بجماعِ العلومِ التي عندَك، أو الأموالِ أو المراتبِ الدنيويّةِ، فتنفضَها عنكَ حتى تصيرَ خالياً من أثرِها فيك وتقدرَ أن تستأنفَ الطريقَ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ ضرورةٌ عن قلبِ الإنسانِ لأنه سياقُ الدهشةِ والتشوّقِ في العالمِ.

وقالَ ليْ: المعرفةُ هي الوجعُ الكاملُ، فكلُّ وجعٍ هو من هذا الرّحمِ الأوّلِ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ إشارةٌ لَدُنيَّةٌ لكَ بالإمعانِ في الطريقِ.

وقالَ ليْ: الذي نشيرُ له يتوجّعُ؟

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ منعقدٌ بالأسئلةِ المرتبكةِ لا بالأجوبةِ الفخمةِ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ معرفةٌ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ متّصلٌ بالربانية بوشيجةٍ من الإنسانِ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ عقلُ العارفِ يتلقّى جلال الأسئلةِ، وقلبُهُ ينوءُ بحملِ المحبّةِ الكاملةِ.

وقالَ ليْ: الّذي لا يُوجِعُ لا تحصلُ منهُ معرفةٌ صحيحةٌ.[15]

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ فرحٌ كامنٌ لكَ وللعالمِ غيرَ أن هيأتَه مُوحِشةٌ لمن يطلبُ الأمانَ.

---

[15] كانتْ أستاذةٌ لنا تحبُّ الوصالَ المعروفَ حباً شديداً. قلت: عرفتُ هذا من بعضِ أشواقِها في الشعرِ ثم في كلامِها الفلسفيِّ الذي اتخذتْهُ حجاباً. قالَ الإمامُ أحمدُ: هذا من أثرِ المجاهدةِ. ذلكَ أن الإنسانَ كلما صعدَ في مدارجِ الروحِ ازدادتْ سطوةُ الجسدِ وطغيانُ الشوقِ بهِ. قالتِ الأستاذةُ: إنه ليوجِعني وجعاً لا يقدرُ العالمُ أن يَكفِيه، فيحصلُ لي منهُ علمٌ ببدني، وفهمٌ لإنسانيَّتي، وإدراكٌ لرحمِ الحياةِ في داخلي. قالتْ: وكلُّ هذا كلامٌ! والوصالُ الذي يُشَبَّهُ لي ياموسى معرفةٌ أوسعُ من هذا. قلتُ: ضننتُ باسمِها للزومِ الحشمةِ.

وقالَ ليْ: وجعُ المعرفةِ وجعُكَ بي آخِراً.

وقالَ ليْ: هذا وجعُكَ بي فكيفَ وجعي بكَ.[16]

وقالَ ليْ: وجعُكَ بمعرفتي أشدّ من وجعِكَ حينَ لا تعرفني.

وقالَ ليْ: وجعُكَ بمعرفتي يُفضي بكَ إليكَ.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ شرطٌ لازمٌ للمعرفةِ لأنك تقفُ على الشيءِ أولاً ثم تَمشي منهُ إلى ما يَلزمُ عنهُ.

وقالَ ليْ: المعرفةُ إفضاءٌ، فالذين يقفون بلا وقتٍ يعبرونَ فيهِ يتعطّلونَ عن العلومِ.

وقالَ ليْ: المعرفةُ تستندُ على العملِ، الذي هو في الوقتِ، لأن العملَ يسبرُ مبادِئها، ويراجعُ عليها، ويذهبُ بها إلى مُنتهاها.

وقالَ ليْ: العملُ يُطلِعُ عفواً الأسئلةَ التي تَحُثُّ المعرفةَ لزوماً.

وقالَ ليْ: المعرفةُ تقتاتُ من بيادرِ الأسئلةِ العاملةِ.

وقالَ ليْ: من وَلَهَ قلبُه بالأسئلةِ شَغَفَتْ به معارفُ لدنيةٌ، وعلومٌ ربانيةٌ، وأسرارٌ تحيلُك إلى السّبحانيّةِ.

---

[16] عرفتُ مسكيناً بالبرّ الإفريقيّ المتاخمِ للبلدِ يجوعُ ويصقعُ ويعرَى عامّةَ يومِه ثم يقولُ: الحمدُ لله، لم أشهدْ يوماً طيباً كهذا النهارِ، الجوعُ يُذْهِبُ عني التُّخمةَ، والبردُ حافزٌ للجسمِ، وهذي الخِرَقُ الباليةُ علامةُ بركةٍ ظاهرةٍ. فظننتُ به سفاهةً في العقلِ، فَعَلِمَ ما في خاطري فقالَ لي: إنما أُخَفّفُ عليهِ وجعَهُ بي، لأنّهُ إن رآني هكذا وعرفني في مقامِ الجوعِ والبردِ لم يقدرْ أن يصبرَ، ولعلّهُ جرَى في البريّةِ يبكي أو يُهيلُ الترابَ على أسمائِه وصفاتِه. قلتُ: ومنهجُ هذا الرجلِ غريبٌ، والمعتبرُ عندنا تحشيمُهُ بالمعرفةِ حتى يتخذَ البكاءَ وإهالةَ الترابِ وربما تصدّعَ قلبُه، أو عرشُه، من الحزنِ سِيّان.

وقالَ لِيْ: ليسَ الجوابُ قضيّتَكَ بلِ السُّؤالُ.[17]

وقالَ لِيْ: السؤالُ رَحِمُ سؤالٍ آخَر، وإلا صارَ جواباً في حجابِ الأسئلةِ.

وقالَ لِيْ: علومُ السؤالِ تدخلُ بها عليَّ في مجلسي، وعلومُ الجوابِ تُفضي بكَ إلى الجوابِ الذي عندَك.

وقالَ لِيْ: علومُ السؤالِ متينةٌ بحبالِ الدهشةِ، وعلومُ الجوابِ تتهافتُ من وهنِ الطمأنينةِ.

وقالَ لِيْ: الذي يُدهشِه العالمُ يصيرُ زهرةً مفتوحةً على احتمالِ النُّوّارِ.

وقالَ لِيْ: احتمالُ النوّارِ الثمرُ والبساتينُ والخمرةُ الكاملةُ.

وقالَ لِيْ: احتمالُ النوّارِ معارفُ أوّلُها عندَ الزهرةِ وآخرُها خارجَ البستانِ.

وقالَ لِيْ: احتمالُ النوّارِ غوايةٌ للزهرةِ أن تتفتّحَ للندَى اللازمِ عن أوّلِ الصبحِ.

وقالَ لِيْ: الندَى الأوّلُ يسبقُ مطرَ المعارفِ البالغةِ فيُهيِّئُك، أو يُهَيِّءُ الزهرةَ، للهطولِ.

---

[17] قلتُ: من مناحي الفكرِ الفلسفةُ، وهيَ من طرائقِ الحسابِ المعتبَرةِ وهيئاتِ الكشفِ الموافقةِ للمقصودِ. قلتُ: ومقصودُ الفلاسفةِ السؤالُ دونَ الجوابِ، إلا أنّ أكثرَهم يجيبُ! وكانت أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ مشتغلةً بتدريسِ الفلسفةِ مدةً من الوقتِ ثم مالتْ إلى علومِ السوقِ والبيعِ والشراءِ وانتاجِ السلعِ من جهةِ أنها كاشفةٌ للحالِ خيرٌ من الذُّهَانِ الفلسفيّ. قالتْ: أكثرُهم، أي الفلاسفةُ، مُنْفَكّونَ عن الخلقِ، ذاهلونَ في الكلامِ، كادوا أن يصيروا غثاءً لولا رحمةٌ من ربي. وقالتْ أيضاً: ونصيبُ أهلِنا منها غيرُ معتبرٍ لغلبةِ الشريعةِ عليهم. أما القضايا الجليلةُ التي تَقْدَحُها الفلسفةُ والأسئلةُ المكينةُ فأجوبةُ النصوصِ الشرعيةِ عليها متهافتةٌ لا تكادُ تروي ظمأَ القَطُّوس. وكانتْ تقولُ: زيدوا الفلسفةَ في دروسِكم تظهرُ لكم تخومٌ.

وقالَ ليْ: العلومُ التي تحصلُ عن الندَى الأوّلِ مبتلّةٌ بلذّةِ الغرابةِ.[18]

وقالَ ليْ: لذّةُ الغرابةِ أفخمُ من السّكينةِ التي تُراوِدُك عن العلومِ.

وقالَ ليْ: أنتَ في صبحِ العلومِ لذّةٌ، لأنّ العالمَ يريدُ أن يعرفَك، وأنا أريدُك أن تعرفني، وكلا الحالين غوايةٌ تتعلّقُ باسمِك وصيرورتِك.

وقالَ ليْ: السؤالُ غوايتُك العتيدةُ لأني، والعالمَ، نريدُك أن تكلِّمنا بلغةِ النقضِ وخطابِ المراجعةِ.

وقالَ ليْ: النقضُ والمراجعةُ أصلٌ من أصولِ العلومِ ومقامٌ من مقاماتِ المعارفِ البالغةِ.

وقالَ ليْ: المعارفُ التي تبرزُ حاسرةً فتثبتُ تحتَ سنابكِ النقضِ وفي غبارِ المراجعةِ صحيحةٌ لوقتِها.

وقالَ ليْ: الذي هو صحيحٌ لوقتِه قد يَغلطُ به وقتٌ آخرٌ لم يَحسب حسابَه.

وقالَ ليْ: المعارفُ الصحيحةُ أن ترَ العالمَ في وقتِه كما هو، ثم تخبرُ عنهُ كما هو.

---

[18] كانَ فتيةٌ صغارٌ يأتونَ مولايَ الحسنَ بنَ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ، أستاذَ الطريقةِ، وصنوَ الحقيقةِ، صاحبَ البهاءِ، وضوءَ السماءِ، في حضرَموتَ، وديارِ عدنَ وصنعاء، عشيةً يطلبون منهُ علومَ اللغةِ والفقهِ يَتقَوَّونَ بها على امتحانِ المدارسِ. فيجدُ فيهم بلادةً، وكسلاً عن الفهمِ، لا يراجعونَهُ في حديثٍ، ولا يسألونهُ من أينَ عِلْمُهُ، ولا لهم مُعارضةٌ لطيفةٌ أو شديدةٌ. فذهبَ وجلسَ معهم علَى مقاعدِ الدرسِ في معاهدِهم شهراً لا يكادُ يبرحُها. ففجعتْهُ المصيبةُ. فصارَ يَعْرِضُ للتلاميذِ والتلميذاتِ بأبوابِ المدارسِ يكشفُ عوارَها لهم ويُحرّضُهم علَى مناهجِها ومعلّمِيها. فاشتكَى الناسُ أمرَهُ للعسسِ فأُخِذَ ونُبِّهَ على أمرهِ في الإذاعةِ والصحيفةِ المحلية. قالَ الإمامُ أحمدُ: هذا حالُ العارفين، غُرباءُ أوّلِ الأمرِ أصحابُ آخرِه.

وقالَ لِيْ: حجبُ حقيقةِ العالَمِ، نسقُه وروابطُه ونتائجُه، هو حجرُ زاويةِ الغلطِ الذي أنت فيه والزيفِ الذي تتوجّعُ به.

وقالَ لِيْ: بعضُ الغلطِ لازمٌ عن الإشكالِ الذي هو أنتَ.

وقالَ لِيْ: أنتَ تُشكِلُ علَى العلومِ لأنك استثناءٌ على الحسابِ الذي ينفعُ في غالبِ الوقتِ.[19]

وقالَ لِيْ: أنتَ استثناءٌ باهرٌ لا تقدرُ العلومُ أن تأتي بمثلِه، ولا يسعُ الوقتَ أن يقاربَهُ، ولا ينبغي لمبادئ الحسابِ أن تُحيطَ به.

---

[19] نزلَ نفرٌ من الشيوخِ بلدتَنا من جهةِ البحرِ، وكانوا يريدونَ جماعتَنا. فغلَطوا ودخلوا دارَ فقيرةٍ تسكنُ في جوارِنا، لها عيالٌ تكدحُ في خدمتِهم. ففرحتْ بالشيوخِ وأطعَمتْهم حتّى تحشّموا منها. ثم قامتِ المسكينةُ للصلاةِ في رُكنِ عُشَّتِها، فإذا هيَ لا تأتي بشيءٍ من عملِ الصلاةِ التي نعرفُها، وإنما تقفُ بحيثما اتفقَ لها ثم تصيرُ تقولُ "مِيمُونَهْ تِعْرِفْ ربِّي، وربِّي يِعْرِفْ مِيْمُونَه" ثم تُسلّمُ وتمضِي لشأنِها. ففزعَ لها الشيوخُ أياماً كثيرةً وعلّموها الأركانَ والشروطَ، وحفّظوها النصوصَ العتيدةَ. ثم خرجوا في البحرِ بعد تمامِ زيارتِنا قاصدينَ بلدَهم. فإذا مَيْمونةُ تريدُ الصلاةَ بعدَهم فلا تقدرُ علَى شيءٍ من السُّوَرِ والحفظِ الكثيرِ والحركاتِ المتتابعةِ. فارتبكَ قلبُها. فصارتْ تجري نحو السفينةِ، والسفينةُ في عُبابِ البحرِ الغامرِ، حتى وصلتْ فوجدتِ الشيوخَ على الدَّكَّةِ يَتذاكرونَ، فقالتْ: يا أسيادي، أراني نسيتُ ماعلَّمْتُمُوني من أمرِ الصلاةِ الشرعيةِ، فأَعيدوها عليَّ فأحفظُها ولا أعودُ أنسَاها. فذُهِلَ أهلُ العلمِ من المرأةِ الواقفةِ علَى لُجَّةِ الموجِ تُكلّمُهم وكأنْ لا شيءَ. فقالوا لها: بلْ تُصلّينَ يا ميمونةُ صلاتَك التي كنتِ عليها! وتَزيدي فتُعلِّمينا هذا القلبَ الذي سعَى بكِ علَى صفحةِ الماءِ! فتَحَشَّمَتِ المسكينةُ وتَذَكَّرَتْ عيالَها يطلبونَ القوتَ وقتَ القائلةِ فجَرَتْ إليهِم من وقتِها والشيوخُ ينظرونَ.

وقالَ لِيْ: إما أنك استثناءٌ على العالِمِ فتصحُّ لك علومُ السرِّ، أو العالمُ استثناءٌ عليكَ فيصحُّ عليه الحسابُ المعروفُ.

وقالَ لِيْ: الاستثناءُ انقطاعٌ من جهةٍ واستئنافٌ من جهةٍ أخرَى.

وقالَ لِيْ: علومُك استثناءٌ لأنها استئنافٌ علَى معرفتِي.

وقالَ لِيْ: معرفتِي مقرونةٌ بالربوبيةِ، ومعرفتُك معقودةٌ بالإنسانيةِ.

وقالَ لِيْ: ما يقترنُ بالربوبيةِ يَحتشمُ أن يتبدّلَ إلا لخاطرِك، وما ينعقدُ بالإنسانيةِ لا يحتشمُ.

وقالَ لِيْ: حِشمةُ المعرفةِ ربانيةٌ، وجرأةُ المعرفةِ إنسانيةٌ.

وقالَ لِيْ: جرأةُ المعرفةِ إماطةٌ لحجابِ التوقيرِ.

وقالَ لِيْ: جرأةُ المعرفةِ إماطةٌ.

وقالَ لِيْ: جرأةُ المعرفةِ حلولٌ بأرضِ العلومِ دونَ إذنٍ من صاحبِ العلومِ.[20]

وقالَ لِيْ: صاحبُ العلومِ لا يجدرُ به أن يمنعَك علومَه.

---

[20] كانَ نافعُ بن سُكّرَ البهلولُ درويشاً في ناحيتِنا من البلدةِ وبه بساطةٌ نحبُّها وبهللَةٌ نتبرّكُ بها. فجاءَ وامتشقَ سيفاً ودرعاً من لعبِ الأولادِ ودخلَ خَلوةً في زاويتنا. فتعجَّبنا من أمرِه فقالَ: إنما أردتُ مقامَ المعرفةِ. وقد سمعتُ الإمامَ أحمدَ يقولُ إن تخومَها عصيّةٌ. فأخذتُ سَيفي أضربُ به بحارَ العلمِ، ودرعي أتّقي بها الأوهامَ والأباطيلَ. قُلنا: فكيفَ تعرفُ العِلْمَ من الوهمِ. قالَ: بسيطة ياجماعة! إنِ انشقَّ عن أسئلةٍ مكينةٍ كانَ علماً، فإن تساقطَ عليَّ أجوبةً ومقالاتٍ مرتّبةٍ عرفتُ أنهُ وهمٌ. قلنا: فمِن أينَ فهمتَ هذا؟ قالَ: رأيتُه مرقوماً على عاتقِ بنتٍ أنه من رَشَفَ ريقي فظماً فقد فازَ، ومن رشفَهُ فارتوَى فقدْ خابَ.

وقالَ لِيْ: صاحبُ العلومِ صاحبُك وأنتَ تقولُ يا سيّدي![21]

وقالَ لِيْ: صاحبُ العلومِ يُسَيِّرُ إليكَ العلومَ علَى مطايا الدهشةِ.

وقالَ لِيْ: مطايا الدهشةِ جيادُ الفتوحاتِ الإلهيةِ.

وقالَ لِيْ: الفتوحاتُ عنوةٌ، وأنتَ تطلبُها بالتدلُّلِ.

وقالَ لِيْ: الفتوحاتُ تمكينٌ لقلبِك في أرضِ العلومِ.

وقالَ لِيْ: الفتوحاتُ خوضٌ في غمارِ الأسرارِ.

وقالَ لِيْ: الفتوحاتُ مناوشةٌ رابحةٌ.

وقالَ لِيْ: أسرارُ المعرفةِ حَرِيٌّ بها أن تُفَضَّ عُنوةً.

وقالَ لِيْ: العُنوةُ أليقُ بالمعرفةِ.

---

[21] رأيتُ العارفَ بالخلقِ العرْبِي بن مهيدي يمشي في ساحةِ المدرسةِ وقتَ السحرِ وهو يهذي ويَخرجُ من فمِه الزَّبَدُ. وهذا فعلُ الشيوخِ في أحوالِ المذاكرةِ الشديدةِ والعلمِ الجليلِ والحضرةِ الصوفيةِ. فقلتُ: ها شيخي، أخدُمك؟ فقالَ وهو يتمتمُ الكلامَ: كنتُ عندَه أتبسّطُ معه في الحديثِ فلا تأخذُه سِنةٌ، فإني أردتُ أن أفهمَ منه مسألةً لا أراها إلا من بعضِ أفعالِه. قلتُ: ما؟ قالَ: الموتُ. قلتُ: فإن وَسِنَ وأنتَ تسألُه؟ قالَ: أخرجُ عنه بكلامي أدّعي أنه كلامُه فلا يقدرُ أن يقولَ أخذَني النعاسُ أمامَ الخلقِ. قلتُ: في أيِّ مقامٍ أنتم يا شيخَنا؟ قالَ: وما أدراني؟ ولعلّي في مقامِ المعرفةِ، غير أني نَطِّيتْ من على السورِ ولم أطرقِ البابَ. فضحكتُ، فقالَ الشيخُ: نعم تضحكُ عليّ، فلزمني أن أعتذرَ عن سوءِ أدبي معَه وأنا في حضرتِه. قلتُ: أوكنتَ في حضرتِه؟ قالَ: نعمْ. ولكنّي هذرتُ وخرّفتُ وجِئتُه بكتابِه أحلفُ له أنه كتابي فلمْ يعبأ بي.

قلتُ: والتخريفُ من أعلَى أحوالِ مقامِ المعرفةِ ولا يَصِحُّ إلا للعارفينَ الكبارِ، فلا تُخَرِّفْ بشيءٍ قبلَ أن تدخلَ عليه بكتابِه تحلفُ له أنه كتابُك لا يرفُّ لكَ جفنٌ!

وقالَ ليْ: العُنوة إشهادٌ.

وقالَ ليْ: العنوةُ إخراجٌ للقلوبِ الغُفلةِ عن مقامِ الانطفاءِ إلى وهجِ الغرابةِ.

وقالَ ليْ: الذين تخشَى عليهم سَطْوَةَ المعارفِ قد يَسْطونَ على تخومِك بنقصِ معارفِهم.

وقالَ ليْ: سطوةُ المعارفِ ألذُّ من سطوةِ الغفلةِ.[22]

وقالَ ليْ: سطوةُ المعارفِ ينبغي لها الشِّرْكَةُ وإلا صارتْ سطوةً في السّلطانِ.

وقالَ ليْ: العلومُ التي لها السّطوةُ في حينٍ من الأحيانِ هي علومُ أهلِ السطوةِ في ذلكَ الحينِ.

وقالَ ليْ: أهلُ السطوةِ همُ الحاكرونَ المستأثرونَ بالقروشِ وبالبأسِ.

وقالَ ليْ: سطوةُ المعارفِ هيبتُها في قلوبِ العارفينَ، ثم هيبتُها عليهِم.

---

[22] كانتْ لنا عقيدةٌ في الإمامِ أحمدَ بنِ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّيّ، رفيقِ الكادحينَ، وملجأِ المظلومينَ، إمامِ الجماعةِ البستانيّة، ومعلمِ الطريقةِ المشاعيةِ، بحاضرةِ اطرابلس البهيّة، نحبُّهُ ونراهُ من الأقطابِ الذين تنجذبُ إليهم أرواحُ الخلقِ وتصيرُ بهم مسرّةُ العالمِ. فأبغضَهُ بعضُ علماءِ الهيئاتِ وشيوخِ المجالسِ واجتمعوا على عداوتِه. فلمّا ثبَتنا على الحبِّ قال واحدٌ منهم علَى الملأِ: كيفَ يكونُ قطباً عندَكم تعقدونَ عليه قلوبَكم ونحنُ لم نرَهُ يطيرُ في السماءِ، أو يغوصُ في لجّةِ البحرِ، أو يقطعُ البلدانَ في الخطوةِ والخطوتينِ، على ما يزعُم تراثُكم. قالَ مولايَ السيّدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ: هو يطيرُ بعقلِه في سماواتِ العلومِ الموجبةِ للمصالحِ العموميّةِ، ويغوصُ بقلبِه في بحارِ الأسرارِ التي ينبثقُ عنها فرحُ الخلقِ، ويقطعُ ببدنِه تخومَ الأعمالِ والمجاهداتِ التي تُبَدِّلُ من حالِ العالمِ الذي أنتَ فيه زائدٌ عن الحاجةِ.

ثم انتبَه مولايَ الدرّةُ إلى غِلْظةِ عبارتِه فاعتذرَ للرجلِ وطلبَ السّماحَ.

وقالَ لِيْ: "الهيبةُ في" تحثُّكَ على المحبّةِ، و "الهيبةُ علَى" تدفعُك إلى الخضوعِ.

وقالَ لِيْ: الذي يدفعُك إلى الخضوعِ يضطرُّك إلى المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: المعرفةُ التي تحثُّك على المحبّةِ لا يَلزمُها ضرورةً أن تصيرَ آلةً تحفرُ لك أو تِقَانةً تستقلُّ بها مطايا الرياحِ.

وقالَ لِيْ: المعرفةُ مشاعٌ بين القلوبِ الإنسانيةِ لأن هذه القلوبَ تقعُ تحتَ سطوةِ المعارفِ والعلومِ.

وقالَ لِيْ: الذي له سطوةٌ يسطو عليكَ، فيلزمُ لك أن تُبادِأه بالمشاعيّةِ.[23]

وقالَ لِيْ: المشاعيّةُ تحيلُ السطوةَ زائدةً عن الحاجةِ فتتبدّدُ دونَ مناهضةٍ ظاهرةٍ.

---

[23] لما أرادَ الإمامُ أحمدُ أن يقيمَ الزاويةَ البستانيّةَ، وهو في وسطِ الشبابِ، جعلَها علَى أثرٍ من آثارِ المدارسِ الصوفيّةِ القديمةِ، وفي جانبٍ منهُ خزانةُ كتبٍ كانتْ تحتَ شيخٍ كبيرٍ هو قيّمُ المكانِ وحارسُ هذا التراثِ. فلمّا اطّلعَ عليها القومُ وجدوا فيها العقائدَ التي كان يخضعُ لها غالبُ أهلِ التصوفِ في النواحي، والعلومَ التي يتقفّاها المريدونَ لا يحيدونَ عنها، والآدابَ الموجبةَ للاتباعِ في جميعِ الأحوالِ. قلتُ: وفي الأوراقِ الكثيرةِ هياماتٌ وأسرارٌ يتحشّمُ منها الناسُ ويرتبكون لها. فأشارَ الأساتذةُ أن تُحفظَ هذه الكتبُ والرُّقَعُ عن عامّةِ الخلقِ كي لا يُفتنوا بالمتونِ. قالَ الإمامُ: هذهِ متونٌ يسيرُ عليها الألفُ والألفُ من المريدينَ والتابعينَ في هذا البلدِ. وهم على هذا في زمنٍ متطاولٍ. فينبغي لعلومٍ لها هذهِ السطوةُ على الناسِ أن تستباحَ بينهم فينظرونَ في منهجِها، ويسبرونَ مبادِئها، ويراجعونَ سياقَها الذي خرجتْ منه فلا يَنوشُهم منها أذَى الغفلةِ. قلتُ: فصارَ من دروسِ الطريقةِ وحلقاتِ نقاشِها علَى سنينَ طويلةٍ تحقيقُ هذه الخزانةِ النفيسةِ، ونشرُ ما بها من معارفَ وتجليّاتٍ، وفهمُها ونقدُها، حتى صارَ السلطانُ المعرفيُّ الذي كان لها مشاعاً للناسِ يشتركونَ فيه ولا يَحْكِرُونَهُ بشهوةِ الأَثَرةِ والسّطوةِ المؤذيةِ للعالمِ.

وقالَ لِيْ: الذين يقولونَ بمشاعِ العلومِ لا بدّ لهم من مشاعيّةِ السلطانِ والخزائنِ والبأسِ.

وقالَ لِيْ: العلومُ عمودُ السلطانِ، وركيزةُ الخزائنِ، ومادّةُ البأسِ الشديدِ.

وقالَ لِيْ: الذين يقولونَ للعلومِ أهلُها يَعنُونَ السلطانَ.

وقالَ لِيْ: الذين يقولونَ للعلومِ أهلُها يؤجِرُهم السّلطانُ.

وقالَ لِيْ: مقامُ العلومِ قلبُك، وآلتُها عقلُك، ومثابتُها العالمين.

وقالَ لِيْ: الذي مثابتُه العالمين يُقَلِّبُ وجهَه أنى شاءَ فيَصِلُ.

وقالَ لِيْ: مثابةُ العالمين تُلزمك بمناوأةِ الأثَرةِ ومناهضةِ الحُكْرَةِ التي في الفلوسِ أو العلومِ.

وقالَ لِيْ: مثابةُ العلومِ العالَمونَ لأنّ الذي لا يثوبُ إلى العالمين لا يقدرُ أن يَعرفَ، ولا يصحُّ أن يُعرفَ.

وقالَ لِيْ: علومُ العالمينَ تمشي بكَ ضرورةً إلى مناهضةِ ما يسوءُ العالمينَ.

وقالَ لِيْ: بلا علومِ المناهضةِ لا تكونُ مناهضةٌ.

وقالَ لِيْ: علومُ الإنسانِ بمبادئِها وأصولِها تؤولُ إلى فهمٍ واحدٍ – يلزمُك أن تناهضَ.

وقالَ لِيْ: علومُ المناهضةِ تخدمُ المظلوميةَ وتُفكّكُ الظلمَ وإلا صارتْ علوماً للخضوعِ.

وقالَ لِيْ: درسُك لعلومِ المناهضةِ ليسَ للمِرانِ واللهوِ، بل لتتلمّسَ الطريقَ إلى الخروجِ.

وقالَ ليْ: السلامُ عليكَ يا سِدرةَ العلومِ، ومِشكاةَ المعارفِ، وصراطَ الأسئلةِ والأجوبةِ. اسمُكَ سرُّ الكونِ الأكبرِ، وقلبُك حيّزُ الدهشةِ والفكرِ، وخيالُك الفتوحاتُ. قد ذهبَ وقتُ أن تَفهمني وجاءَ وقتُ أن تَفهم بي. ها صرتَ صاحبَ المقالاتِ الباهرةِ، وسيدَ المفاهيمِ الفاخرةِ، ووليَّ القولِ والحسابِ. كأنّ علَى رأسِك الولهَ. يرتدُّ إليكَ الفؤادُ ثقيلاً من سطوةِ العلمِ، حتّى تجدَ معنايَ في حافرِ السؤالِ، وقصدَك في تخومِ الخيالِ، ومدَدي عندَ بئرِ المراجعةِ. قد انفرطَ عِقدُ "وقالَ لي" وانتظمَ عِقدُ الدَّوَاةِ. فإن أَتَتْكَ القضايا حاسرةً استلَّ لها سيفَ الصدقِ، ونُشْها بفأسِ العزمِ، واهتُكها بآلاتِ السبرِ العظيمِ. ثم اجعلْ علمَك شِرْكَةً بينَ الناسِ، واكشفْ عنهُم غُمّةَ الجهلِ، وعاودْهم، واجْبُرْ كسرَ العلومِ، حتى تَجْبُرَ العلومُ بخاطرِك. وامشِ عندَها في تخومِ الرُّؤى، وتَوَهَّجْ بدهشةِ السّهولِ التي اتّسَعَتْ بكَ، وابذُلِ المعارفَ الواجبةَ لمشاعِ الإنسانِ. ثم تَعالَ، واكتبْ، وانتسبْ!

24. موسمُ الخروج

(وهو الرفقةُ المتّقِدَةُ)

ومن أحوالِه المناهضةُ والمبادأةُ والاشتراكُ والإحالةُ وسياقُ الولهِ والجلالُ والحكمُ والإفضاءُ والعسفُ وأحيانُ الإنسانِ والمجاورةُ والتضرُّجُ وخبزُ المقاومةِ

وفيه حملتُ أوزاري كاملةً[1]، ووضعتُ عنّي الموازينَ، وشهدتُ الظلمَ في كلِّ أرضٍ سُلِبَتْ أو حُكِرَتْ، وأحصيتُ مقدارَ الجبايةِ، وقيّدتُ أسماءَ الماكِسينَ، وما هو حاجةٌ وما هو سِلعةٌ، وما كان مَشاعاً وما جُعِلَ أَثَرَةً لذوي البأسِ. واختلفتُ إلى أهلِ المغاربِ المظلمةِ والمشارقِ المعتمةِ، وسلّمتُ على المكدودين من كلِّ ملّةٍ، ودعوتُ ربّي "إنّي منهوبٌ فافزعْ". فذهبَ عنهُ الحبُّ وآذنَني بالأذَى.[2] فقمتُ وقعدتُ ألفَ مرّةٍ، في كلِّ مرّةٍ أُطيحُ بألفِ رأسِ مالٍ ظالمةٍ. وجئتُ الأسواقَ فأَحَلْتُها للصنّاعِ الذين تَشَقَّقَتْ قلوبُهم يَنظِمون عِقدَها، وتَصدّعتْ أيادِيهم يَغزِلون خيطَها. وأتتْ للظالمينَ كلُّ بلدٍ تجادلُ عن فلوسِها، وتطلبُ زيتَها

[1] كتبَ إليَّ السالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ: الأوزارُ، يا موسَى، ثلاثٌ: الهمُّ، والعجزُ، والهوانُ. فأمّا الهمُّ فمبدؤهُ اختلالُ أمورِ المعيشةِ عن حسبةِ العدلِ بين الخلقِ، وأما العجزُ فنقصانُ الفؤادِ عن كونِه آلةَ الخروجِ، وأما الهوانُ فثباتُ هذا الهمِّ والعجزِ في قلوبِ الرجالِ والنساءِ. فمَن نفضَ عن نفسِه هذه الأوزارَ خرجَ. قالَ: الخروجُ هو الثورةُ.

[2] قالَ الحسنُ الواحديُّ: "آذنني" هي نزولُ شيءٍ مثلُ "أُذِنَ للذينَ يُقاتَلونَ بأنّهم ظُلموا"، أو صعودُ شيءٍ مثلُ "خَرابِين يا وِطِنْ". قلتُ: الإذنُ الأوّلُ من الكلامِ المعروفِ، أما الثاني فاستهلالُ القصيدةِ الشعبيةِ اليتيمةِ لفاطمةَ بنتِ عثمانَ، أصيلةِ واحةِ هُون الليبيةِ. أجهشتْ بها في شبابِها اليافعِ يوم 28 من شهرِ نوفمبرَ عام 1928م حين رأتْ، من نافذةِ دارِها، المشانقَ الطليانيةَ تُنصبُ لتسعةَ عشرَ مجاهداً من أبناءِ بلدتِها، بعدَ معركةِ "قارة عافية" الشريفةِ. قلتُ: وهذا الإذنُ سواءٌ بذاكَ، وهو من الأحيانِ التي يصيرُ فيها كلامُ العامّةِ من اللوحِ. وقد عاشتِ الفتاةُ المكلومةُ حتّى حضرتْ برابرةَ الطليانِ مُنَكَّسي الرؤوسِ مُخْزِيّينَ بما قدّموا من عملٍ وهم يُخْرَجُونَ عن هذا الوطنِ الذي جعلوهُ "خَرابِين"، يومَ السّابعِ من أكتوبرَ عامَ 1970م.

وحديدَها. ونفختُ في القلوبِ من معنى الثورةِ، وفي كلّ عقلٍ غافلٍ أو جسدٍ مكدودٍ. ونزلتُ إلى القاعدينَ تحتَ سطوةِ النهبِ فقبَّلتُ أياديهم ثم دسستُ فيها البيانَ. وقالَ الغلابا "أتى أمرُنا فلا تستعجلُوهُ فإنا نصير غُلّابا". فأخذَ الظالمينَ الكِبْرُ يقولونَ "وأنتمُ أجراءُ؟". فاحتسَبنا أجورَنا عندَ أنفسِنا وجئنا إلى نَتْجِ عملِنا كلّه فإذا هو جِنانٌ من خمرٍ وأعنابٍ. فبعثَني في العاملينَ فتلوتُ عليهِم الآياتِ وعلَّمْتُهم الحبَّ والشدّة. وخرجَ المحزونُونَ عن مآتمِهم ومشوا جماعاتٍ لا يخشَون الجُباةَ. وأنكرَ رُقّادُ الرّيحِ أحوالهَم، فهبَّتْ رياحُهم فالتفَّتْ علَى الحُكْرِ، حتى كادَ أن يتبدَدَّ. ففزعَ أهلُ النهبِ في العالمينَ، وجاؤوا في آلاتٍ من حديدٍ وبأسٍ شديدٍ، يريدونها أثَرةً ونريدُها حباً وعدلاً وميزاناً. فلمّا ناوشنَاهم بالقلوبِ، وناهضناهم بالعلومِ، جاءَ الذينَ أفواهُهم حُشِيَتْ بالدنانيرِ فأخذُوا المنابرَ والمعاهدَ وصارُوا يقولونَ "أصولُ المالِ والمواريثُ وإقطاعُ الأرضِ والثرواتُ". ففزعَ إليَّ الناسُ غُفلاً يريدون النُّصرةَ. فجعلتُ لهم الأفواهَ والألسنةَ، وحشوتُها باللعناتِ وألقَمْتُها الأسئلةَ، وأجريتُ في كراريسِهم نقضَ السّياقِ الذي فيه الظُّلْمُ. فتكلّمُوا يُفكّكُونَ بِنْيَةَ السَّلبِ والترتيبَ الذي عليه الناهبونَ. ونادوا بالحرثِ وهوَ الحصادُ من لَدُنِ الأسواقِ.[3] وخرجتُ بهم علَى أنفسِهم فشققتُ عصَا الجمَاعةِ، وقصمتُ

[3] قلتُ للأستاذِ قرلصَ: كيفَ يكونُ الحرثُ هو الحصادُ؟ فقالَ: لأنّ ما نتجَ عن اليدينِ يَلْزَمُهُ أن يؤولَ إلى هذينِ اليدينِ، وإلا تهافتَتْ كلُّ رابطةٍ في الكونِ وخلا الإنسانُ من المعنَى الذي ينبغي له. قالَ: فمآلُ النّتْجِ إلى المنتجِ هو عندنا في مُقامِ الصّمديّةِ، إن حفظتَهُ وقمتَ به حفظَك هو عن الظّلمِ وقامَ بكَ إلى ديوانِ الخلافةِ. قلتُ: فنستولي علَى القروشِ التي هي لنا فنصيرُ الخلفاءَ؟ قالَ: القروشُ والعلومُ يا موسَى، ومن هذا

ظهرَ الأممِ. وجئتُهم بهِ مُتشابهاً، وأنكرتُ المعلوماتِ بالضرورةِ، وأثْبتُّ المسائلَ بلا برهانٍ. وأبحتُ دمي لرقّادِ الرّيحِ، فجلسُوا يبكونني، فقمتُ بالعزّةِ فهدَّمتُ خيامَهم، وخرَّبتُ أعشاشَهم، وأكبرتُ في مُهَجِهم النارَ. وقلتُ ادخلُوا في الحبِّ كافّةً، وأَذّنْتُ فيهم به، فاستبشرَ المحبّونَ وقالوا "لا عليكَ، لا عليكَ، نحن رفاقُك اليومَ ترانا حولَ خيامِ عزائِك نَبْكِيك، وقُدّامَ كتائبِك نُفادي عنكَ، فخُذ ما آتيناكَ بحبٍّ إنّكَ بأعينِنا وبينَ الضلوعِ".

وصرتُ في الساحاتِ أجلسُ إلى الرّفقةِ المتقدةِ بالجهادِ، المتوهّجةِ بالفداءِ، المعجونةِ بطينِ الوعيِ الثاقبِ. فأحدّثُهم بألفاظٍ من محبّةٍ ويُكلّمُونني بمعانٍ من عِلمٍ وبرهانٍ. فبينما أنا في سبيلِ الموتِ إذ بجسدٍ ليسَ لي يُناوشُني، وقلبٍ خارجَ صدرِي يُتاخِمُ قلبي، وعقلٍ لم أحرثْ أرضَه يَقدحُ صُوّانَ الفكرِ فتَشتعلُ حُقولي. فجئتُهُ متّكأ على الحبِّ، معتمداً علَى الفداءِ، متوشّحاً بغبارِ المعاركِ. فرأيتُه يَعْقِدُ الأحزانَ بحبلِ المواساةِ، ويَنْظِمُ الفرحَ بعِقْدِ المُشاركةِ، ويُكلِّمُني بالإمامةِ الكاملةِ. فكلّما ذهبَ سيفٌ في دمي سالَ دمُه، وكلّما احتواني موتٌ صارَ موتَه، وكلّما انبثقتْ دَفقةُ الحياةِ كان هو دورتَها الكاملةَ. فقلتُ يارفيقُ هل لكَ في المواجهةِ الحاسرةِ؟ فضحكَ حتّى ظهرتْ جروحُه وقالَ: هذا اسمِي يُسَمِّيكَ، فارمي إليَّ سيفاً وبعضاً من الخمرِ الطّيبِ، ثم أَلْقِمْني ريقَ الثّورةِ الآسِرةِ. فضَمَمْتُهُ إلى كتائبِ

كتبَ الغدامسيُّ هذه الحديقةَ التي تقرأُ منها وتسألُ. فهذا كتابٌ يَحُثُّكَ، في إنسانيّتِك العاملةِ، أن تحوزَ ما هو لكَ، القروشَ والعلومَ، حتى لا يكونَ هناك سطوةٌ غيرُ سطوةِ الحبِّ ويكونَ الكونُ كلّهُ للإنسانِ.

الحبِّ، وألحقَني بألويةِ الشغفِ، وجموعِ العاشقينَ. ثم مشيتُ إلى الممالكِ وجمعتُ حولي الرفقاءَ، وناديتُ فيهِم يا مسلوبينَ ويا مظلومينَ فيمَ كنتُم؟ فقالوا كنّا مُستضعفينَ في الأرضِ.[4] فقلتُ ألم تكنْ أرضُ الإنسانِ حُبْلَى فتُطلِعُ لكم علومَ المناهضةِ وسُبُلَ العدلِ المكينِ. فقالُوا "إلى أيِّ حينٍ منْ أحيانِ الإنسانِ؟". فكلّمتُهم بالخروجِ ألفاً، وأقمتُهم علَى عهدِ الحبِّ ألفاً، وبلوتُهم بالخوفِ والجوعِ ألفاً. فاستوتْ سواعدُهم، وصَلُبَتْ أبدانُهم، وثَبُتَتْ مُهَجُهُمْ. فعرفُوني كمَا يعرفُونَ أبناءَهم، فقصَدُوني رجالاً وعلَى كلِّ ضامرٍ، واستخلَفُوا أنفُسَهم علَى أنفُسِهم، ونبذُوا عنهم الأخبارَ وأحاديثَ الرجالِ، وتكلّمُوا بالكتابِ الذي جعلوهُ من عندِ أيديهم، وحضروا في ظُلَلٍ من المعارفِ والعلومِ، واستوفوا نصابَ الثورةِ، وقُضِيَ الأمرُ، فجاءَني وقالَ لي:

إن خرجتَ فتمكّنْتَ أقمتَ دارَ الخلافةِ،

وإن خرجتَ فتمكّنوا منكَ أقمتَ معنَى الخلافةِ.

وقالَ لِيْ: معنى الخلافةِ كامنٌ في فعلِ المناهضةِ كما السنبلةُ كامنةٌ في فعلِ الحرثِ.
وقالَ لِيْ: معنَى الخلافةِ يتحقّقُ في الوقتِ الذي أنتَ فيهِ، ثم يَسري منهُ إلى كلِّ وقتٍ يليهِ.

[4] لا يَخرجُ إلا من ظُلِمَ، غيرَ متّكئٍ على الظالمينَ. وقال الشيخُ المُجتبَى: الظلمُ لا يكونُ إلا علَى الخلقِ حصراً، فلا يكونُ الخروجُ إلا لهم، أما من خرجَ لِله فقد ألزمَ نفسَه ما لا يطاقُ ولا يُعرَفُ صدقُه من كذبِهِ. وقالتْ رقيّةُ تشرحُهُ: نحنُ نخرجُ في سبيلهِ ولا نخرجُ لهُ. ذلكَ أن سبيلَه الخلقُ وحوائجُهم، أما هو فشيءٌ لا نقدرُ عليهِ ولا نصبرُ لهُ ولا نزعمُ معرفتَه.

وقالَ ليْ: معنَى الخلافةِ يدخلُ رحمَ الإمكانِ ساعةَ ينوشُ فأسُكَ جسدَ الأرضِ، فإذا أمعنَ الفأسُ أمعنَ الإمكانُ.

وقالَ ليْ: معنَى الخلافةِ ينبثقُ من سياقِك غيرَ أنّهُ يجُوزُه إلى اسمِك الذي هو أوسعُ من هذا السياقِ.

وقالَ ليْ: لهذا اسمُك عندي الخليفةُ.[5]

وقالَ ليْ: معنى الخلافةِ مؤونةٌ يرثُها الذين يناهضونَ بعدَك فيجدونَ ما يَسُدُّ الرمقَ.

وقالَ ليْ: الناهبونَ يورِثونَ أنفسَهم القروشَ التي افتكُّوها من دمِ الأجراءِ، والعروشَ التي سلبوها من عندِ العاملينَ، وأنتَ تُورِثُ الأجراءَ العاملينَ علومَ المناهضةِ وأسرارَ المنازلةِ الحاسرةِ.[6]

---

[5] قلتُ: اسمُك الخليفةُ وأنتَ أرضُك منهوبةٌ ورزقُك محكورٌ وكدحُك مأجورٌ. فإن جلستَ على سُدّةِ الحكمِ، حكمِك، وملكتَ ناصيةَ أمرِك، وآلَ إليكَ خراجُ البلادِ شِرْكَةً، تحقّقَ هذا الاسمُ وصارَ يناديكَ به الناسُ جهراً بعد أن عرفَك بهِ الحقُّ في سرِّ الأسرارِ. قلتُ: فيجدرُ بمن يراكَ علَى قارعةِ الطريقِ تخيطُ النّعالَ، أو بالورشةِ تدقُّ النحاسَ، أو بالسوقِ تبيعُ الخرداوتِ، أن يَهابَك ويخضعَ لسلطانِك. فواللهِ ما هيَ إلا خروجُك إلى الطريقِ فإذا بكَ تأمرُ وتنهى، وتملكُ الأصولَ وترثُ الأموالَ، ثم إليكَ ترجعُ دُخولُ الأعمالِ.

[6] لما أرادَ الظالمونَ أن يدخُلوا للبلدِ بالحديدِ والطياييرِ خرجْنا عليهِم في الطرقاتِ نكشفُ ظُلمَهم وندعو الناسَ للجهادِ عليهم وعلَى من والاهم من قومِنا. وأردنا أن يدخلَ معنا رجلٌ عظيمُ الأثرِ في الناسِ، فكلَّمْنا شيخَنا تاجَ السرِّ عليَّ بنَ زهرةِ الحُسنِ أن يكلِّمهُ لسابقِ ودٍّ بينَهُما. فاستمهَلَنا الشيخُ حتّى قَطعنا منهُ الأملَ وظننّا أنّ بهِ خوفاً أو هيبةً من الرجلِ أن يُكلِّمَهُ. فلما ذهبَت ثلاثةُ أشهرٍ كلَّمَهُ ونحنُ مازلنا في مُقامِ الثّورةِ، وحرّضهُ على

وقالَ لِيْ: المناهضةُ حالٌ موقوفٌ علَى الظلمِ، ومُقامٌ مُرتهَنٌ بحاجاتِ الناسِ، وسانحٌ منعقدٌ بقلبِك ثم دمِك.

وقالَ لِيْ: ثمَّ دَمِكَ.

وقال لي: الذي ينعقدُ بقلبِك في سبحانيّةِ الذي نَعْقِدُهُ نحنُ لكَ.[7]

وقالَ لِيْ: الذي ينعقدُ بقلبِك لا ينفكُّ عنكَ إلا إذا انفكَّ قلبُك عن اسمِك، وهذا لا أجدُه في اللوحِ.

الخروجِ. فعجِبنا من الأمرِ فقالَ: إني كنتُ مُفرَداً بلا عيالٍ، فاستحيتُ أن أكلّمَ ذا عيالٍ أن يخرجَ على الظالمينَ حتّى أفعلَ قبلَه، وكانتِ امرأتي حاملاً فصبرتُ حتّى صارتْ لي منها بُنَيّةٌ أخشَى عليها بعدي، فأخذتُها على كتفي وهي رضيعةٌ وجئتُ الرجلَ وسألتُه أن يخرجَ للجهادِ ففعلَ.

[7] حُمّ تلميذٌ من أثرِ الدرسِ والسُّكرِ وبعضٍ من العشقِ والصيامِ والمجاهداتِ، فعُدناهُ فإذا هو علَى الحصيرةِ يَهذي ويَخرجُ الزّبَدُ من فمِه فسلّمْنا عليهِ فقالَ: خ و ض. قلنا: ليسَ هكذا، إنما هي ألم أو كهيعص وغيرُها. قالَ وهو مُوهَنٌ يتوجّعُ: لا أراها قُدّامَ عينيّ إلا خ و ض فأعيدُوا النظرَ علّكُم تجدونَها. قلنَا: يا سبحانَ اللهِ، الكتابُ نحفظُه في صدورِنا ونحملُه في الأسفارِ ولا نجدُ حروفَك فيهِ. قالَ الإمامُ: خَلُّوه، هو خاضَ في لجّةِ العلومِ، وتوغّلَ في مقاماتِ العشقِ، وهامَ بين الكرومِ الخمريّةِ، فزادَ في الكتابِ ما تهيّأ لقلبِه هو لا لقلوبِكم، وهو يَلْزَمُهُ ولا يَلزمُكم. فلا تَعرِضوا بينَه وبينَ خاءِ واوِ ضادِه وإلا تَبَدّدَتْ ألفُ لامِ ميمِكم أنتُم وصارتْ غُفْلَةً عن معنَى المجاهدةِ الإنسانيّةِ والمحبّةِ الآدميّةِ الحوائيّةِ.
قلتُ: وكانَ الإمامُ يجمعُ في السنينِ الطويلةِ هُياماتِ التلاميذِ واستشرافاتِهم التي تخرجُ عنهم عفواً في ورقٍ كثيرٍ سَمّاهُ "كتابَ التلاميذِ" وقد يقرأُ لنا منهُ في ساعاتِ المجاهدةِ الشديدةِ، وحين نرتبكُ من الفتوحاتِ، أو نتوجّسُ من التجليّاتِ التي تظهرُ لنا في الطريقِ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ استدعاءٌ للجمعِ في اسمِكَ.

وقالَ ليْ: المناهضةُ اشتراكٌ في الموقفِ من العالمِ بين الذين ينبغي لهم هذا الاشتراكُ.

وقالَ ليْ: الذين يَنبغي لهمُ الاشتراكُ في المناهضةِ استأثرَ الحاكرونَ بالخلافةِ عنهم أوّلَ الأمرِ، فمن هذا صَحّتْ لهم الاشتراكيّةُ.

وقالَ ليْ: المناهضونَ يشتركونَ.[8]

وقالَ ليْ: الاشتراكُ في المناهضةِ يُقيمُها بإزاءِ الاستئثارِ الذي في الظلمِ.

وقالَ ليْ: الاشتراكُ الذي في المناهضةِ يليقُ بسياقِك كلِّه، ولكنَّ علومَ الاستئثارِ تُشَبِّهُ لكَ الحُكْرَةَ حتّى تحسَبَ أنها من عندي أو مِن عندِ الأشياءِ في صُبحِها الأوّلِ.

وقالَ ليْ: الاشتراكُ يقترفُ المناهضةَ ثمّ يمشي بها إلى صيرورتِها الجامعةِ.

---

[8] قالَ الإمامُ أحمدُ: المشاركةُ نهرٌ غامرٌ من جهاتٍ ثلاثٍ. فالغمرُ الأوّلُ الإنسانيةُ لأن المناهضينَ يشتركونَ في العنصرِ والقلبِ والجسدِ، ذكراً وأنثى، فهي اسمٌ واحدٌ لألفِ هيئةٍ. ثمّ غمرُ الأصولِ الظاهرةِ والثرواتِ الباذخةِ التي في رحمِ الأرضِ وعلى صدرِها قوتاً طيباً للعالمينَ لا تصحُّ فيهِ الحيازةُ أو الاستئثارُ. ثم غمرُ العملِ الذي يُطلِعُ النتجَ والغلالَ والآلاتِ والعلومَ فيَعْمُرُ العالمُ أمامَ أعينِنا ويصيرُ حَسناً. قالَ: فإن هذا جميعاً يُصَيِّرُ الأرضَ حضارةً واحدةً متفرقةً بالمشاركةِ في قلوبِ العالمينَ. فيُمْكِنُ للناسِ أن يتقدّمُوا ويُمعنوا في الفضاءِ الواسعِ أو الذرّةِ الضئيلةِ سِيّانِ. فأمّا المنافسةُ والمدافعةُ والمحاكرةُ والمضاربةُ والمغالبةُ فتمشي بنا رميةَ حجرٍ ثم تقفُ، ثم يَدْمُغُ هذا الحجرُ قلوبَ الخلقِ ألوفاً ألوفاً، بالحربِ والسطوةِ والنهبِ والسلطانِ وعلومِ البأسِ الشديدِ. قالَ: فكلُّ مناهضٍ للظلمِ يَنبغي له أن يَقصِدَ المشاركةَ، ولو حُلماً وتشوّقاً، حتى يأتي عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ بالاشتراكِ ويَعصرون كرومَ الإنسانيّةِ الجامعةِ.

وقالَ ليْ: الاشتراكُ في المناهضةِ يُفضي بها إلى سياقِ العلومِ والمعائشِ والسلطانِ.
وقال لي: الذي بإزائكَ ليسَ الاشتراكُ أو الاستئثارُ، ولكن الاشتراكُ أو صدأُ العالمِ.
وقالَ ليْ: الاشتراكيُّ يناوئ الاستئثارَ، فيُشيعُ مَعنى الإنسانِ في الأحوالِ التي نَهبتها الأثرةُ، والمقاماتِ التي سَلبتها العازةُ.
وقالَ ليْ: الذي يُشيعُ معناكَ يُحيلُكَ إلى جوهرِك الفردِ ومآلِك الجَمْعِيّ.
وقالَ ليْ: الإحالةُ إشارةٌ علَى الاسم الذي يبقَى في الشيءِ حين يتبدّدُ عنه كلُّ شيءٍ.[9]

---

[9] **كانت تلميذةٌ تدخلُ الحضرةَ فتغيبُ، فبعدَ وقتٍ خافتْ واشتدَّ عليها حالُها، فجاءتِ الإمامَ أحمدَ فقالتْ: إني أذهبُ في الذِّكْرِ مذهباً وعِراً حتى أصيرُ في آخرِ الأفقِ الذي يبينُ للناظرِ، ثم أمضي وراءَ ذلك شيئاً شديداً، وإني كنتُ أستلذُّ هذا، غيرَ أني قرأتُ للسادةِ يُنبّهون علَى التلاميذِ أن يَضِلّوا يحسَبون قلوبَهم في متنِ الطريقِ، فأعِنّي. قالَ الإمامُ: ما تفعلينَ وأنتِ في الحضرةِ؟ قالتْ: أظلُّ أندهُه باسمِه "هُوْ، هُوْ، هُوْ" ساعةً من الزمنِ، حتى ينشغلَ بي، فيخرجَ من وراءِ حجابِ الاسمِ ويسمحَ لي فأنظرَ إليه، فعندَها أصيرُ وراءَ أفقِ الناظرين حتى لا ينكشفَ أمامَهم. قالَ الإمامُ: فما يكونُ من حالِ "هُوْ" عندَها؟ قالتِ التلميذةُ: أتلفّتُ فإذا هي "هُمْ". قالَ الإمامُ: فكيفَ يكونُ تَلَفُّتُكِ؟ قالتْ: بقلبي، فإذا الخلقُ قد حضروا معي مشهدَ الرؤيةِ ورقصُوا وسُرُّوا سروراً بالغاً. قالَ الإمامُ: فحينَ تبدّدَ كلُّ شيءٍ بقيَ هؤلاءِ الخلقُ يرقصون؟ قالتْ: نعمْ يا إمامُ؟ قالَ: فأنتِ في غَيبتِك أحلتِ هُوْ إلى هُمْ، وهذه إحالةٌ باهرةٌ فلا يضطربْ قلبُك لشيءٍ لأنّهُ والله على الطريقِ، ولو ظلّت هُوْ تحيلُكِ إلى هُوْ لخشِينا عليك الزيفَ والبطلانَ. قلتُ: فمضتِ البنتُ تحضرُ فتغيبُ فتذهبُ بـ هُوْ إلى هُمْ ما شاءَ لها شوقُها والولهُ الذي بها إزاءَ العالمِ.**

وقالَ ليْ: الإحالةُ هيَ ما يعنيكَ من الأشياءِ.

وقالَ ليْ: الإحالةُ هي ما يُعِينُك من الأشياءِ.

وقالَ ليْ: الإحالةُ هي السّابرةُ للزبَدِ الذي يحجبُ لجّةَ المعنَى.

وقالَ ليْ: الإحالةُ مناهضةٌ من داخلِ المعنَى ضدَّ صدأِ المعنَى.

وقالَ ليْ: المناهضةُ لا بُدّ أن تُفضِي بكَ إلى المنازلةِ.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ إلى المنازلةِ تسليمُ قلبِك إلى الصفوفِ الأولَى.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ فعلٌ لازمٌ عن المناهضةِ، من جهةِ المعنى الذي يبقَى في المناهضةِ حين يتبدّدُ كلُّ ما تعلّقَ بها من أسماءٍ وأحوالٍ.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ إفاضةٌ بجسدِك عن تخومِ المصابرةِ إلى ثغورِ المرابطةِ.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ أن تقفَ على قارعةِ الطريقِ حاسراً إزاءَ السطوةِ المدجّجةِ.

وقالَ ليْ: الإفضاءُ الكاملُ اجتماعُ قلبِك وجسدِك علَى الجبهةِ التي تراودُها المنازلةُ عن طمأنينتِها.

وقالَ ليْ: الذي يراودُك عن طمأنينتِك يريدُ لكَ أن تنبثقَ عن سياقِ الولهِ إلى سياقِ الإتيانِ.

وقالَ ليْ: إتيانُ العالمِ شأنُك.

وقالَ ليْ: سياقُ الولهِ شغفُك بالعالمِ من حيثُ هو مظنّةُ حبٍّ.

وقالَ ليْ: سياقُ الولهِ التفاتُك إلى مواطنِ الفتنةِ في جسدِ العالمِ ثم لا تقدرُ أن تغضَّ بصرَك.

وقالَ ليْ: سياقُ الولهِ لا يقدرُ أن يحملَ مظنّةً من مظانِّ القبحِ الذي يريدُ أن ينوشَ العالمَ.

وقالَ لِيْ: مظانُّ القبحِ التي ينوءُ بها الولهُ النهبُ والعسفُ والحُكْرَةُ.[10]
وقالَ لِيْ: سياقُ الإتيانِ مناهضةٌ، ومناوشةٌ، ومنازلةٌ كاملةٌ.
وقالَ لِيْ: الذي لم يتولّه بالعالمِ كيفَ يكشفُ عن قلبِه للمنازلةِ التي هي لخاطرِ

[10] كان معنا معلمٌ هو غايةٌ في اللطفِ والرقةِ هيئةً ومشيةً وكلاماً. وكان محباً للفنونِ السمعيّةِ والبصريّةِ يأخذُها عن أهلِها الذين احترفُوها، ويقترفُها هو بالهوايةِ اقترافاً موجباً للعَجَبِ واللذّةِ الطيبةِ. وكانَ حالُه في الشغفِ بالجمالِ والحسنِ الذي في العالمِ موضعَ ابتسامٍ وغبطةٍ عندَ الأساتذةِ والتلاميذِ. وهو إلى ذلكَ دائمُ الحديثِ عن الألوانِ، والأشكالِ، والأصواتِ التي في الشارعِ، والحيّ السّكنيّ، والورشِ الصناعيّةِ، يُقحِمُها في العلومِ والدروسِ والمجاهداتِ، ونحنُ مشغولونَ بالأفكارِ الفخمةِ والمعاني المبجّلَةِ. فلمّا جلسَ إلينا الأستاذُ قرلصُ بن مرقصَ العامليّ يتكلمُ عن المظالمِ وهيئاتِ النهبِ وسُبُلِ الجباياتِ والحُكْرَةِ والسطوةِ الحاكمةِ، قالَ المعلمُ: يا جماعةُ، كلامُكم زَيْنٌ، ولكنّكم لا تتكلّمون عن القبحِ الذي يميّزُ الظلمَ، والشَّينِ الذي يظهرُ ببناءِ العسفِ، وكيفَ تُحيل السطوةُ الحاكمةُ الحياةَ إلى وجودٍ شاحبٍ، وهيئةٍ فاترةٍ، وكينونةٍ بلا جمالٍ أو جلالٍ. قالَ قرلصُ: زِدْ. قالَ المعلّمُ: فإن البني آدم مجبولٌ علَى حبِّ الجمالِ والانحيازِ له، ومُضادّةِ القبحِ ومناهضتِه، فإن جعلنا بعضاً من دروسِنا وعلومِنا عن جمالِ العدلِ وقبحِ الظلمِ لمالتْ إلينا قلوبٌ، وناصرتنا عقولٌ، وطربتْ لمنهجنِا جموعٌ من الناسِ ملُّوا بشاعةَ الظالمين واشتاقوا للذّةِ الخلافةِ وألوانِها وأشكالِها. قالَ قرلصُ: هذا حسنٌ، نجعلُه في معارفِنا. غير بس خلُّوه لي أرتِّبهُ في المنهجِ الفكريّ، وأنظِمُه في النسقِ العلميّ الذي نتّكأُ عليه. فتبسّمَ المعلّمُ وقالَ: هذا شأنُك يا أستاذَنا في منظوماتِ الفكرِ، أما أنا فقدْ سبقتُكم وجعلتُ الجمالَ والقبحَ ميزاناً عتيداً في الفنونِ التي أحبُّها والآدابِ التي أَشْغُفُ بها وأُشْغِفُ بها الخلقَ.

هذا العالمِ؟

وقالَ ليْ: الحبُّ ركنُ الثورةِ.

وقالَ ليْ: الحبُّ تبريرٌ لتقدُّمِكَ الصفوفَ لأنكَ من وقتِك في لباسِ المنازلةِ.

وقالَ ليْ: الذين هم في لباسِ المنازلةِ من جهةِ الحبِّ تصيرُ عنهم المناهضةُ عفواً.

وقالَ ليْ: الحبُّ منطقُ الثورةِ.

وقالَ ليْ: المحِبّونَ الذين يناهضونَ الظلمَ مُدجّجون.

وقالَ ليْ: الذين لا يتململونَ لا يتوجّعونَ بالأغلالِ التي في أرجلِهم، والذين لا يحبُّونَ لا ينتبهونَ للقيدِ الذي حبسَ قلوبَهم.

وقالَ ليْ: المحبّونَ مُشركون ضرورةً لأنهم يتولّهون بأنفسِهم وبالعالمِ في هيئاتِه الكثيرةِ.

وقالَ ليْ: بينَ المشاركةِ والشِّرْكِ الحيلةُ التي بين الحكمِ الذي هو لكَ والحاكميّةِ التي هيَ لي.

وقالَ ليْ: الحاكميّةُ البراءةُ الأولى للعالمِ، والحُكمُ استلامُك لمقاليدِ الأمرِ من بعدُ.

وقالَ ليْ: الحكمُ يَلِي الحاكميّةَ وقتاً، ويُواليها محبّةً، ويتولَّى عنها الأمرَ لزوماً.

وقالَ ليْ: الحكمُ يُعفي الحاكميّةَ من رهقِ العالمِ ثم يتّصلُ بها علَى سُدّةِ العرشِ آخِراً.

وقالَ ليْ: الحكمُ يدخلُ على الحاكميّةِ بالعالمِ الذي أصلحَ له شأنَهُ، فتفرحُ الحاكميّةُ ويفرحُ العالمُ بالدخولِ.

وقالَ ليْ: الدخولُ يلزمُه الخروجُ قبلاً.

وقالَ ليْ: الخروجُ، في لغةِ الحُكمِ، اسمٌ لابتداءِ الدخولِ.

وقالَ ليْ: مُقامُكَ حينَ خروجِك المناهضةُ، فإن ثَبَتَّ فالصِّدِّيقيَّةُ، فإن ثبتَّ

فالخلافةُ الكاملةُ.

وقالَ ليْ: أربعٌ لا يكونُ خروجٌ إلا بهنّ: النظرُ الكافي في أمورِ الخلقِ وعلامتُه السؤالُ، ودخولُ الوقتِ وعلامتُه الفهمُ، وانشراحُ القلبِ وعلامتُه المحبةُ للخلقِ، وثباتُ العزمِ وعلامتُه المناوأةُ لأهلِ النهبِ والأثَرةِ.

وقالَ ليْ: أربعٌ يفسدُ بهنَّ اسمُ الخروجِ: تعطيلُ النظرِ وعلامتُهُ كَفُّكَ عن المراجعةِ، واستباقُ الأذانِ وعلامتُه نقصانُ الفهمِ، وتحويلُ القصدِ إلى غيرِ المُستضعفينَ، ومناوشةُ الظلمِ بالظلمِ.

وقالَ ليْ: للخارجينَ، حين خروجِهم، هيئةٌ تقضُّ مضاجعَ الباطلِ، وتهزُّ عروشَ الظالمِين، وتحثُّ قلوبَ الغافلينَ.

قالَ ليْ: الخروجُ لا يكونُ إلا بعلومِ الهتكِ، وأفعالِ الفضِّ، ونياتِ المشاركةِ.

وقالَ ليْ: الخروجُ كتابٌ لا يجدرُ بغيرِكَ جمعُهُ وحفظُهُ، ولا يَصِحُّ لغيرِكَ شرحُهُ وبيانُهُ.[11]

وقالَ ليْ: الخروجُ جمعٌ لا مُفْرَدَ لهُ.

---

[11] لما ثبتَ أهلُ الحقّ في البلدِ، والطيابيرُ تدكُّ البيوتَ وتذبحُ العوائلَ، مجاهدينَ صابرينَ على الظّلمِ والبهتانِ، كانت تلميذةٌ معنا تكتبُ في مُدوّنتِها علَى الإنترنت عن أخبارِ الغضبِ ويومياتِ الحزنِ ووقائعِ المقاومةِ، وكانت تخرجُ بمُصَوّرَتِها فتلقُطُ بها وجوهَ الناسِ ورائحةَ الأمكنةِ وملمسَ الأشياءِ كأنّها تريدُ أن تحفظها منَ النسيانِ. فقالَ لها الإمامُ أحمدُ: أنتِ، واللهِ، في مقامِ الجامعةِ الحافظةِ، والكاتبةِ المُوثِقَةِ، والشاهدةِ الكاملةِ الشهادةِ. وإنما اللوحُ المحفوظُ هامشٌ من علمِ الرحمنِ وافقَ متنَ الإنسانِ المجاهدِ، فاكتبي وصوّري وانشُري حتى لا يكونَ نسيانٌ ويكونَ الأمرُ كلُّهُ للإنسانِ.

وقالَ لِيْ: خروجُ المفردِ أن يمشِي في الزّناقي[12] فيطرقَ أبوابَ الخلقِ يحثُّهم عن عتباتِ بيوتِهم إلى أصلِ الطريقِ.

وقالَ لِيْ: عتبةُ الخروجِ سدرةُ خلافتِكَ لأنها تشرفُ على العرشِ الذي يستوي عليه الناسُ.

وقالَ لِيْ: خروجُكَ في الرفقةِ الغامرةِ من الناسِ دعوةٌ لي بمصاحبتِك.

وقالَ لِيْ: دعوتُك وأنتَ خارجٌ بألويةِ المحبَّةِ لا تُرَدُّ.

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ تَفَقَّدِ الفقراءَ والمظلومينَ وأُولِي الحبِّ في جمعِكَ، تجدْني بينَهم.

وقالَ لِيْ: اذا خرجتَ جمعاً تلفّتْ حتّى لا تَشْرُدَ عنِ الجمعِ الذي خرجَ معكَ، وإذا خرجتَ فرداً تَلَفّتْ حتى لا تَشْرُدَ عنِ الجمعِ الذي تخرجُ إليهِ.

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ لا تتكلَّمْ باسمي ولكنْ باسمِك.

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ تقدّمتَ عني وأنا أرسلُ وراءَكَ أسمائي تناوشُ عنكَ.

---

[12] قالَ الإمامُ أحمدُ: الزّناقي السُّبُلُ الضيّقةُ التي تكونُ في حاراتِ المدنِ بين الحواشينِ والدكاكينِ، وهي على خلافِ الشوارعِ الفسيحةِ والطرقِ المتباعدةِ. قالَ: وفي الزّناقي حميميّةٌ بالغةٌ وجيرةٌ حسنةٌ وترابطٌ بين الناسِ والحيوانِ، والورشِ والأسواقِ، مما لا يكونُ فيما يَليها من أنحاءِ المدنِ. ومن هذا يَحسُنُ بالذي يقصدُ الخلقَ في مقامِ الثورةِ أن يمشي في الزّناقي يتكلّمُ مع الشبابِ والشّيابين، ويسمعُ للفتياتِ والعجائزِ، ويجلسُ على عتباتِ المعاملِ والمشاغلِ، ويحضرُ جلبةَ أسواقِ الجمعةِ والثلاثاءِ. فيفهمُ من كلّ هذا شيئاً من سياقِ الزنقةِ، ويدخلُ هو عليها بعلومِ الثورةِ التي تجد محلاً حسناً في المجاورةِ والرفقةِ المدنيّةِ.

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ دخلَ العالمُ كلُّه مُقامَ الثورةِ.

وقالَ لِيْ: فِي مقامِ الثورةِ تقفُ بجسدِك محموماً علَى أرضِ المعركةِ، وقلبُك على العرشِ يطمئنُّ بالنصرِ.

وقالَ لِيْ: فِي مقامِ الثورةِ أمدُّك بكراماتٍ لا تصحُّ لكَ وأنتَ لم تتهيّأ للمنازلةِ.

وقالَ لِيْ: فِي مقامِ الثورةِ اكشِفْ عن علومِك للخلقِ، ومعارفِك للعالمِ، حتّى لا يقولوا خرجَ بلا زادٍ.[13]

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ أَخْرِجْ معكَ مواسِمَك كلَّها تَشهدُ لكَ بالكدحِ وتُقِرُّ لكَ بالحسابِ المكينِ.

وقالَ لِيْ: حينَ الخروجِ تَكلّمْ بلسانِ المراجعةِ حتّى يقولوا "الخارجُ المراجعُ".

وقالَ لِيْ: إذا خرجتَ اجْرِ الحسبةَ كلَّها كأنّ لم تكنْ حسبةٌ من قَبْلُ.

وقالَ لِيْ: الخروجُ اسمٌ حتّى يكونَ لهُ فعلٌ، وفعلٌ لا يَسْبِقُ اسمَه أبداً.[14]

---

[13] أرادَ بعضُ أهلِ الغفلةِ أن يخرجوا على مظالمَ كانتْ عليهم، فاستعملهم بها قومٌ من أصحابِ الأموالِ، والمناهجِ الفاسدةِ، ووالاهم عليها أهلُ الاستكبارِ فِي العالمين. فقلتُ للإمامِ: أهذا خروجٌ؟ قالَ: لا يكونُ، وليس خروجَنا، ذلكَ أنّهم يقومونَ بالظالمينَ ونحنُ نقومُ علَى الظالمينَ، هم فِي حلفٍ مع أصحابِ الظلمةِ الكاملةِ ونحن فِي حلفٍ معَ الحقِّ وإن ناشَهُ الوهنُ، هم أخرجَتْهم الضغينةُ ونحنُ تخرجُنا المحبّةُ، وهم يريدونَ السلطانَ يستأثرونَ بهِ، ونحن نريدُه للناسِ. ففهمتُ واستبشرتُ.

[14] قلتُ: "الخروجُ اسمٌ" فِي مقام الفكرِ الذي يكونُ فيهِ الفهمُ الإنسانيُّ والتدبّرُ وفضحُ المظالمِ وسفورُ الحقائقِ عن معانيها، و "الخروجُ فعلٌ" فِي مقامِ الكدحِ الذي يكونُ فيه العملُ والثورةُ وقلبُ الأمورِ. قلتُ: قلبُ الأمورِ هو قلبُها أي جوهرُها. وعندَ الشيخِ

وقالَ ليْ: الخروجُ ركنُ الخلافةِ المتعيّنُ بإحرامِ الفهمِ.

وقالَ ليْ: الخروجُ صلاتُكَ جماعةً في مسجدِ الفهمِ وقتَ أذانِ الثورةِ.[15]

وقالَ ليْ: أخرجْ عنكَ ومنكَ وإليكَ.

وقالَ ليْ: أُخرجْ عنّي ومنّي وإليّ.

وقالَ ليْ: فداحةُ الخروجِ من فداحةِ المظلوميّةِ حينَ العَسْفِ.

وقالَ ليْ: حينُ العسفِ إبطالٌ لأحيانِ الإنسانِ.

وقالَ ليْ: حينُ العسفِ يُخْرِجُ الناسَ عن الوقتِ، فلا صلاةَ تقومُ ولا مناسِكَ تجبُ ولا وضوءَ يَسُدّ.

وقالَ ليْ: صلاةُ العسفِ لا تَسُدّ.

بلخيرِ أنَّ مدارجَ الفهمِ ومسالكَهُ تسبقُ فضاءَ الفعلِ بدرجةٍ لا تكادُ تقاسُ فكأنّها أولُ أفقِ الفعلِ وكأنَّ الفعلَ أقصَى أفقِ الفهمِ. قالَ الإمامُ الدريّ: والفهمُ والفعلُ من رحمٍ واحدةٍ يلدانِ بعضَهما في دورةٍ كاملةٍ غيرَ أنَّ الفهمَ فجرٌ صَبوحٌ والفعلَ صبحٌ فاجرٌ.

[15] رأيتُ وأنا مهاجرٌ في أرضِ الجزيرةِ المرتَهَنة عمالاً برانيّين بالأجرةِ يبوسونَ الأرضَ التي يمشي عليها ربُّ العملِ، ويدعونَ له بالمالِ والرجالِ وطِيبِ البالِ، وكان لي فيهِم صاحبٌ أعرفُه، فسألتُه عن الأمرِ هل هو إرغامٌ، فقال: لا، بل ذِلّةٌ أورثوها، وجهلٌ استحكَم فيهم، وانكسارٌ بقلوبِهم من توالي الطغيانِ. قلتُ: سبحانَ الله! وهلِ الإرغامُ إلا هذا؟ قالَ: أيشِ تقول؟ والله ما وضعَ أحدٌ سيفَه على رقابِنا. قلتُ: نعمْ لأنَّ الرقابَ أحناها الظلمُ المتواترُ وأوطأَها الجهلُ المقيمُ، فهذا فعلُ غَصْبٍ ومظنّةُ قهرٍ عتيدٍ. قالَ: نعمْ، فما نعملُ؟ قلت: الفهمُ ثم رصُّ الصفوفِ ثم الخروجُ.

قال: هذا سيرٌ عسيرٌ وسلاطينُ هذي الديارِ مجرمونَ مُترفونَ، ولكن نبدأُ إن شاءَ اللهُ هكذا – ومدَّ كراعَهُ خطوةً يُمَثِّلُ بها عنْ حالِ الحراكِ إلى الأمامِ. قلتُ: على بركةِ العاملينَ.

وقالَ ليْ: أحيانُ الإنسانِ سياقاتٌ للفعلِ المترتِّبِ علَى ظرفِ الوقتِ.[16]

وقالَ ليْ: أحيانُ الإنسانِ مفارقةٌ لأحيَاني.

وقالَ ليْ: أحيانِي صادرةٌ عن أسمائي الحسنةِ، وأحيانُك صادرةٌ عن أحوالِك السادرةِ ومعائشِك الصائرةِ.

وقالَ ليْ: المعيشة ضرورةٌ في الإنسانيةِ لأنكَ مجبولٌ علَى الحاجةِ.

---

[16] جئتُ مع الإمامِ أحمدَ بعضاً من البرِّ الإفريقيِّ الذي طلبَنا تلاميذٌ فيه أن نُدرّس لهم العلومَ الروحانيةَ والنصوصَ الصوفيّةَ، فوجدناها كحالِ الكثيرِ من البلادِ التابعةِ للناهبينَ في العالمينَ قد حُبِسَتْ في سياقِ السطوةِ، وغُلّتْ في نسقِ التبعيّةِ، ومُنِعت، بضرورةِ السوقِ والاجتماعِ المشوّه التي هي فيه، من أن تمشي في طريقِ العلومِ أو الآدابِ أو انعتاقِ الفردِ والجماعةِ. قلتُ: هذا كلامٌ تعلّمتُه من الإمامينِ أحمدَ وقرلصَ وفهمتُه وفهمتُ به. قالَ الإمامُ أحمدُ: الظلمُ والنهبُ يغلبُ على سائرِ أحوالِ البني آدم فيَلْزَمُهُ أن يلجأَ إلى قلبِه الذي فيه نورُ الإنسانيّةِ الأوّلِ، وإلى المناهضةِ التي منها يصيرُ أولُ أفقِ الانعتاقِ، حتى يقدرَ علَى بعضِ الوعي بحالِه وسياقِه، ويمكنُ له أن يغلبَ الغالبين، وإلا فإن القهرَ في السوقِ أو العلومِ أو الحكمِ يعسفُ بالإنسانِ في جوهرِه الفردِ ومعناهُ الجامعِ.

فقلتُ للإمامِ: هذا يؤولُ إلى كلامِ الغدامسيّ. قالَ: حينَ يقولُ ماذا؟ قلتُ: في محاورةِ بموسمِ الخروجِ أن حينَ العسفِ إبطالٌ لأحيانِ الإنسانِ. قالَ الإمامُ: نعمٌ، والغدامسي رأى ما رأينا حينَ جابَ العالمينَ وناهضَ الناهبينَ قبل 100 عامٍ و يزيدُ. قلتُ: فهلْ نقدرُ أن نحثَّ هذي القلوبَ التي بهذا البرِّ المحبوسِ؟ قالَ: نعمٌ، لو جعلنا هذا الطريقَ الذي نحنُ وهُمْ فيهِ، يعني التصوفَ، مدجّجاً بالعلومِ الكاشفةِ للحالِ، والفنونِ السافرةِ عن السياقِ، ونُورثُها لهم، فتُعِينُهم على قدحِ الليلِ الذي هم فيه، وتَسنُدُ قلوبَ المناهضينَ منهم، وتزيدُ في مؤونَتِهم ومؤونةِ الثورةِ. قلتُ: نفعلُ يا إمامي، نفعلُ بإذنِ الله.

وقالَ لِيْ: المعيشةُ سطوةٌ لكَ في ثيابِ الحاجةِ لأنّ المعيشةَ تمشي بكَ في أرضِ العملِ والعلومِ والمناهضةِ.

وقالَ لِيْ: سياقُ المناهضةِ يسبقُ مناهضتَك كما تسبقُ الأرضُ البذرةَ التي انغرستْ فيها.

وقالَ لِيْ: لا تقومُ المناهضةُ إلا في سياقِ المناهضةِ، غيرَ أن سياقَ المناهضةِ لا يمشي بكَ ضرورةً إلى المناهضةِ.

وقالَ لِيْ: طرائقُ المناهضةِ تطلعُ من متنِ الموقفِ الذي أنتَ فيه تجاهَ العالمِ.

وقالَ لِيْ: سياقُ المناهضةِ اجتماعُك وعلومُك وأحيانُك.

وقالَ لِيْ: الفعلُ المُتَحَيّنُ في الوقتِ صادقٌ.

وقالَ لِيْ: صِدقيّةُ الفعلِ تَعَلُّقُهُ بِبِنْيَةِ السّياقِ الذي هو فيهِ.

وقالَ لِيْ: الفعلُ المُتَحَيّنُ في الوقتِ كادَ يصيرُ عَفواً.

وقالَ لِيْ: الفعلُ المُتَحَيّنُ في الوقتِ قد يُمْكِنُكَ من الوقتِ.

وقال لي: الفعلُ الذي يُمْكِنُكَ من الوقتِ يذهبُ بكَ ضرورةً إلى وقتٍ جديدٍ.

وقال لي: التمكينُ من الوقتِ تمكينٌ في الوقتِ.[17]

وقالَ لِيْ: التمكينُ في الوقتِ بسطٌ لنفوذِ القلبِ على أقاليمِ العلومِ والمعائشِ.

وقالَ لِيْ: نفوذُ القلبِ غالبيّةٌ للإنسانِ الجامعِ لمعاني المحبةِ والثورةِ.

وقالَ لِيْ: فعلُ التمكينِ عبورٌ من سطوةِ الطريقِ المُوحشِ إلى غمرِ الرفقةِ المتقدةِ.

---

[17] قلتُ: من تمكّنَ من الوقتِ أي فَهِمَ ظروفَ الزمانِ الذي هو فيهِ وعرفَ المظالمَ والحاجاتِ والسِّلَعَ والأفكارَ، تمكّنَ في الوقتِ أي صارَ له استطاعةٌ أن يُمعِنَ في هذي الظروفِ فيُبدّلَها ويقلبَ أحوالَها حتى يَبِينَ لهُ فجرُ وقتٍ جديدٍ.

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ تضيءُ وجهَك وأنتَ في لحظةِ الفداءِ.[18]

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ تستأثرُ بقلبِك لتُبِيحَ جسدَك للثورةِ.

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ مُجاوَرةٌ بين فضاءِ الحبِّ وتخومِ الفداءِ.

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ مبارزةٌ بسيفينِ من غِمْدٍ واحدٍ.

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ إزاءةٌ بين قلبِك وبينَ قلبِ العالمِ الذي يُناوشُ بك.

وقالَ لِيْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ انبثاقُ الماءِ من صُوّانِ المعاركِ الواجبةِ.

---

[18] قال السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ، قوتُ القلوبِ الصابرةِ، وسندُ المواجهةِ الحاسرةِ، العارفُ العابدُ، وزادُ المجاهد، في أريحا والجليلِ والناصرة: ضربَ برابرةُ الصهاينةِ البيوتَ والعوائلَ كفعلِهم ومنهجِهم الذي جُعِلُوا لأجلِه. فاستُشهدَ من شبابِنا ولدٌ دونَ العشرينِ كان يرمِيهم بالحجرِ فيدمغُهم في أرواحِهم الخربةِ، وينوشُ قلوبَهم التي صدأ معنى الإنسانيّةِ فيها. فوجدتُ ولداً آخرَ يبكيهِ بكاءً حاراً لا يكادُ يقدر معهُ علَى النفسِ اللازمِ للحياةِ. فكلّمتُه بالصبرِ والثباتِ فقالَ: يا أستاذ! هذا الولدُ كان رفيقي وقتَ النّزالِ، وقد اقتسَمنا الزادَ والسّاتِرَ الترابيَّ والضحكاتِ، فلما أصابتْهُ الرصاصةُ الغادرةُ حضنتُه وهو يترجّلُ رويداً عن صهوةِ الحياةِ، فأضاءَ اسمُه بنورِ الفداءِ حتى رأيتُ وجهي علَى صفحةِ وجهِه، يشتركُ في ملامحِه، ويتوحّد مع قسماتِه، ثم يكادُ يصيرُ هُوَ هُوَ. فحينَ انطفأ العالمُ في عينيهِ انطفأتُ أنا وانسحبَ وجهي من تخومِ وجهِه، وصرتُ منفصِلاً عن معنايَ، منقطعاً عن سياقِ الرفقةِ المتّقدةِ، فلهذا الوجعِ العظيمِ بكيتُ. قالَ الدرّةُ: فعرفتُ أن الولدَ وصلَ إلى سِدرةِ الإنسانيةِ الكاملةِ، فهو تحتَها يتوجّعُ بالمعاني الباهرةِ، والمقاماتِ الغامرةِ التي لا يمكنُ لأولئكَ البرابرةِ أن يعقِلوا وجودَها. فصارَ له عندي جلالٌ وهيبةٌ وصرتُ كلما رأيتُه رأيتُ رفيقَه فيه، فهو الفادي الذي يمشي بيننا في الأسواقِ، والحيُّ الذي جلسَ على الأرائكِ المخصوصةِ بالشهداءِ المنصورينَ بالموتِ، والرفقةِ المتّقدةِ.

وقالَ ليْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ احتسابُ قلبِك عندَ صدرٍ مجاورٍ.[19]

وقالَ ليْ: الرفقةُ المُتَّقِدَةُ استقواءٌ بصانعِ بهجةٍ ضدّ حزنِ العالِمِ.

وقالَ ليْ: الرفقةُ المتّقِدَةُ مُبادَأةٌ لمعنَى الشِّرْكَةِ التي قمتَ تناهضُ لخاطرِها أوّلَ الأمرِ.

وقالَ ليْ: المبادأةُ أليقُ الأحوالِ بالمناهضةِ، لأنها تباغتُ سياقَ الظلمِ وتبادرُ بأحوالِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: الذين أحوالُهم في المناهضةِ تاليةٌ في كلِّ وقتٍ للأحوالِ التي تنوشُهم بالأذَى قد لا يفلحونَ، فمِن هذا تلزمُكَ المبادأةُ.

وقالَ ليْ: المبادأةُ ينفعُ لها التزوُّد من مجاورةِ المناهضينَ.

وقالَ ليْ: المجاوَرةُ في أحوالِ المناهضةِ اشتباكٌ لأسماءِ الخلفاءِ وقلوبِهم حتى لا تكادُ

---

[19] كنتُ خلفَ السّاترِ مع الإمامِ أحمدَ، وثُلّةٍ من الرجالِ، وبنتٍ كانتْ تُمَوّنُ المدفعَ الرشّاشَ وتُهَيِّءُ قواذفَ الثلاثةِ–والعشرينَ والمائةِ–وستّة وهي تُهمهمُ بشيءٍ لعلّه لفيروز. فشُغِفَ قلبي بحضورِها، وارتبكَ جسدي كلُّه لا علَى التخصيصِ. فلمّا حانتْ زخّةٌ من رصاصِ الأوغادِ وشيءٌ من قنابِلهم، أمسكَ بي الإمامُ وأنا أمعنُ النظرَ في البنتِ التي انتبذَتْ ركناً تُصلحُ من شأنِ السلاحِ الذي بيدِها، فقالَ: أعِرْنِي يا موسَى صدرَك أُسْكِنُهُ قلبِي، لعلّهُ يتمترسُ خلفَ سواترِ الغوايةِ التي أحاطتْ بكَ هذهِ الساعةَ، والموتُ أشدُّ إحاطةً. فتحشّمتُ من الإمامِ واعتذرتُ فقالَ: لا يلزمُكَ (أيِ الاعتذارُ)، ولو ذهبتْ رصاصةٌ في صدرِك، وهذه البنتُ فيه من بابِ الغوايةِ، لكُتِبْتَ أنتَ شهيداً من جهةِ الموتِ، وكُتِبَتْ هي شهيدةً من جهةِ أنها شَهِدَتْ موتَك من جُوّانِيّةِ القلبِ الذي أَغْوَتْهُ وقتَ حضورِ الرصاصِ.

قلتُ: فعجبتُ كيفَ يربطُ الإمامُ المعاني يعقِدُها بفهمٍ جديدٍ ويَنْظِمُها بحبلِ الفكرِ والثورةِ.

تعرفُهم من بينِ أنفسِهم.

وقالَ ليْ: المجاورةُ في أرضِ المنازلةِ إبراءُ ذمةِ القلبِ عن التولّي.

وقالَ ليْ: الرفيقُ يُجاورُك فيتضرّجُ قلبُه بدمِك قبلَ أن يسيلَ من عروقِك علَى ترابِ المناوشةِ.

وقالَ ليْ: الرفيقُ قطرةُ المطرِ المجاورةُ حين تسافرانِ في جسدِ الماءِ المنهمرِ من سحابِ الربانيةِ.[20]

وقالَ ليْ: الرفيقُ توقُ المجاورةِ حينَ يصدحُ رصاصُ المواجهةِ ويقدحُ زنادُ المعركةِ الواجبةِ.

وقالَ ليْ: الرفيقُ مأوَى الجسدِ المحمومِ بإرهاصِ الموتِ الذي دخلَ حيّزَ التحقيقِ.

---

[20] ذهبَ تلميذٌ في مدارجِ المجاهدةِ والعلومِ والعملِ شيئاً كثيراً. وكان يرجعُ من كلّ سفرٍ مرهقاً يكادُ يتبدّدُ من أثرِ الفتوحاتِ وما أسفرَ لهُ من أسرارٍ وظهرَ له من تجلّياتٍ.فلمّا سمعَ منهُ الإمامُ مرّةً ومرّةً ليفهمَ عنهُ، وجدَ فتوحاتِه باردةً، وأسرارَهُ فيها انطفاءٌ، وتجلّياتِه واهنةً. فلمّا أمعنَ الإمامُ في السؤالِ فهمَ من التلميذِ أنه يمشِي في الطريقِ دائباً بجوهرِهِ الفردِ ووحدانيّتِه الفريدةِ، وأنّه لا فرقَ عندَه دخلَ علَى مقامٍ في العلومِ أو حالٍ من أحوالِ العملِ في الحديدِ أو الزرعِ، فإنّهُ يتوغّلُ فيهِ بالصّمديّةِ التي هيَ لهُ.

قالَ الإمامُ: الطريقُ طريقُك أنتَ فينبَغي لكَ أن تمشي فيه بالأصالةِ لا بالنيابةِ، غيرَ أن الرفقةَ لا تنوبُ عنكَ ولا تَحُلُّ محلَّك، وإنما هي "تقابلُك"، و "تجاورُك"، و "تشاركُك". فأما المقابلةُ فتقيسُ بها أحوالَك بمبدأِ الإزاءةِ، وأما المجاورةُ فتحوزُك عن الوحشةِ وضعفِ الهمّةِ، وأما المشاركةُ فتكشفُ لكَ عن معنَى الأشياءِ ومعناكَ. فيكونُ من هذا كلّهِ توهّجٌ للفتوحاتِ والأسرارِ لا يَتَحَصَّلُ لكَ وأنتَ غُفْلٌ عن الرِّفْقَةِ. فإذا مشيتَ في الطريقِ، طريقِ خلافتِك، يلزمُك أبوبكرُك وتنبغي لك خديجتُك.

وقالَ ليْ: الرفيقُ خوضٌ لغبارِ العالمِ مَشُوبٌ برائحةِ المشاركةِ الغامرةِ.

وقالَ ليْ: الرفيقُ مشاركةٌ في معنَى الموتِ، واقتسامٌ لخبزِ المقاومةِ اليابسِ.

وقالَ ليْ: خبزُ المقاومةِ يحُثُّكَ إلى مذاقِ القمحِ الذي حرثتَهُ أولَ الأمرِ، فنُهِبَ منكَ في رائعةِ النهارِ.

وقالَ ليْ: خبزُ المقاومةِ مؤونةُ الرفيقِ الذي يقتاتُ من خاطرِك ما يَسُدُّ الحبَّ.

وقالَ ليْ: خبزُ المقاومةِ كلُّ ما شدَّ أزرَك حينَ المبارزةِ – القِيَمُ والرفقةُ والشعرُ.

وقالَ ليْ: خبزُ المقاومةِ إسنادٌ لفعلِ المقاومةِ.

وقالَ ليْ: فعلُ المقاومةِ يستفحلُ في قلبِك حتّى يصيرَ قلبَك، وفي يديكَ حتى يكونَ يديكَ، وفي معناكَ حتى يصبحَ اسمَك وعلامَتَك وإشاراتِكَ.[21]

---

[21] كانت مَولاتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمِيَن، مولاة العملِ والمجاهدةِ في مساجدِ الأصابعةِ العابدة، مناهضةً لعسفِ المالِ واحتكارِ السوقِ والأَثَرَةِ بالسلطانِ، ومن شأنِها أنها تجعلُ شعرَها قصيراً كالأولادِ، وتنتعلُ المداسَ الخفيفَ، وتتزيّنُ بثيابِ الفتيانِ، وتَنْظِمُ عِقداً من الحديدِ الفولاذِ حولَ عاتقِها تَتَبَرّكُ به لمعنَى الكدحِ عندَها. ثم تخرجُ حاسرةَ الوجهِ والرأسِ تكلمُ الناسَ في النوادي والأسواقِ، وتُوَثّقُ بعضَ المظالِمِ، وتكشِفُ عن فسادِ الفكرِ والعملِ. قلتُ: فسمّاها الإمامُ الدريُّ "الحاسِرة". فكانتْ تفرحُ بالاسمِ تقولُ: نعمْ، أناهضُ الظلمَ حاسرةً إلا من قلبي ويدَيّ. ثم كان وقتُ مجاهدةٍ في البلدِ فقامتْ تُنَاوِشُ أهلَ الاستكبارِ في العالمينَ ومن والاهُم فقتلُوها وشَنّعوا بها في صحائِفِهم وسَمُّوها "الخاسِرة". فأخَذها الإمامُ بثيابِ الفتيانِ وقد تضرّجتْ بالدمِ وقالَ: لا تغسِلوها ولا تجعلُوها في الأكفانِ، بل خلُّوها تقابلُ ربّها في هيئةِ المواجهةِ. قلتُ: فكنتُ حينَ دَفَنّاها أنظرُ إلى شعرِها القصيرِ، ومداسِها، وعِقْدِ الفولاذِ في عاتقِها، فلم أشهدْ جلالاً كجلالِ الإنسانِ في مقامِ الفداءِ والمناهضةِ.

وقالَ لِيْ: الاستفحالُ توغّلُ الفعلِ فيكَ حتّى يتّخذكَ حيّزاً أصيلاً للأثرِ الذي ينتجُ عنهُ.

وقالَ لِيْ: الاستفحالُ إمعانُ الفعلِ إلى غايتِه التي تحصلُ عنهُ عفواً فيؤولُ بكَ إليها.

وقالَ لِيْ: الاستفحالُ صيرورةُ الفعلِ اسماً.

وقالَ لِيْ: الاسمُ اطمئنانُ الفعلِ في هيئةٍ تصلحُ للنداءِ والمناشدةِ.

وقالَ لِيْ: الاسمُ اصطفافٌ بالفعلِ على تخومِ المواجهةِ التي حسمتَ أمرَك إزاءها.

وقالَ لِيْ: الاسمُ تسويةٌ للصفوفِ حينَ الصلاةِ القلبيّةِ، أو حينَ المنازلةِ التي انبغتْ لك آخرَ الزرعِ الذي يطلبُه الجباةُ حثيثاً.

وقالَ لِيْ: الإسمُ هو الثورةُ.

إشارة خامسية

وقال لي: أَمْعِنْ في الكونِ، واستفحِلْ في العالمِ، وامتشِقْ نداءَ الإنسانِ. وها أنا أدخلُ عليكَ في جُبّتِي التي تعرفُها، وأتَّخِذُ مكاني في مَجْلِسِك، وأسامرُ أصحابَك الذين يعرفونَ جراحَك كمعرفتِهم قلوبَهم. وأُسفِرُ عن أسمائي وأسماءِ الذين يُفادون عنكَ. فإذا أنتَ أمّةٌ، وإذا أنا في ثيابِ المناهضةِ، أبُوسُكَ أمامَ الناسِ، ولا يعودوا يُكلّمُونني إلا باسمِك. وأمشِي معكَ في الدُورِ، لحافُك من جَلالي، ومَداسي من محبَّتِك. يفزعُ منكَ الجُبَاةُ، ويَفِرُّ الحاشيةُ، وترتعدُ السلاطينُ. وإذا أسمالُك من حريرٍ غيرِ منهوبٍ، وتاجُك من عرقٍ غيرِ مأجورٍ، وعرشُك من كدحٍ عتيدٍ. حتّى ينعقدَ لك الأمرُ، ويصيرَ إليك الحكمُ، وتكونَ لك المشورةُ. أنتَ صاحبُ الفَلْحِ والخراجِ، ومالِكُ ديوانِ المالِ، لا يُحازُ زرعُك، ولا تُسْبَى بناتُك، ولا يصيرُ حرثُك سهماً للفاتحينَ. فاصدعْ بأحيانِ الإنسانِ، وتضرّجْ بدماءِ الحبِّ، واعسِفْ بالحاكرينَ. فإن انْبَثَقَ الصبحُ صِرْتَ فرداً أحداً، وجمعاً صمَداً، وقلباً مَكِيناً في العالمينَ.

زَمَنُ الخِلافَة

ومن أحوالِه الكينونةُ والصيرورةُ ووعثاءُ السفرِ والانعقادُ والعرشُ
والفرديّةُ والجماعةُ والوصولُ وشوقُ الرحلةِ وسياقُ العبورِ وما بعدَ العرشِ

وفي تمامِ المواسمِ حانَ الحَصَادُ، وطابَ الثّمَرُ، وآذنتِ الخلافةُ، واستقرَّ الأمرُ على الخلقِ.[1] فتَمّتِ الحديقةُ معنىً وغايةً، وحضرتْ مقاصدُ الأشياءِ، وظهرتْ سُنَنُها المرسومةُ في العلاماتِ، ومصائرُها المتحوّلةُ في الإشاراتِ. حتى جاورَ قلبي كريمَ الجوارِ، وساكَنهُ في الملكوتِ، وشارَكهُ في العرشِ العتيدِ. ثم رأيتُ الناسَ إخواناً، وإذا رَحِمُ الإنسانيّةِ يَلُمُّ شتَاتَهم، وهم في كثرتِهمْ فردٌ واحدٌ، وفي واحدِيَّتِهم كأنهم لا يُعَدُّونَ. ففهمتُ المقصودَ، وخطرتْ على قلبي غايةُ الكونِ.[2] فتحوَّلتُ عنِ الكلامِ إلى الغناءِ، وعنِ المشيِ إلى الرقصِ، وعنِ الخبرِ إلى المشاهدةِ.

فعمدتُ إلى الحقِّ فاستأذنتُهُ في الفرحِ، فَأَذِنَ ألا أحزنَ أبداً. وسمّاني الخليفةَ العاملَ. ونُوديَ بالأمرِ في السمواتِ والأرضِ. وَوَسَمَني بشَارةِ الهناءِ، وجعلَ على قلبي ختمَ محَبَّتِهِ، وخلعَ على عقْلي لباسَ علمِهِ. وأَسْلمني قِيادَ الأعدادِ وأشباهِهَا، فأثبتُّ بها خلافتي علَى السلامِ. واختصرَ لي نورَهُ في مشكاةِ الحبِّ، فأفضتُهُ على الخلقِ

[1] قالَت أُستاذتي زِينةُ العالمِيَن راويةُ بنتُ جميلٍ النَوراني: "آذنتِ الخلافةُ" أي اكتملَ نصابُها الفرديُّ وهو ظهورُ عينِ الحقِ في فعلِ واحدٍ من الخلقِ، فإن فَعَل الخلقُ كلُّهمُ قيلَ "قامتِ الخلافةُ"، أي قامَ بها كلُّ شيءٍ. قلت: وبينَ إيذانِ الخلافةِ وقيامِها يتصدّعُ شيءٌ من العالمِ ويتهافتُ شيءٌ آخرُ وينفرطُ العِقدُ الذي انتظمتْ عليهِ الأشياءُ، فتَجَهّزْ.

[2] قال مُعلّمي أبو العيالِ: "المقصودُ" هو العدلُ، و "غايةُ الكونِ" الخلافةُ الجماعيّةُ. وقالتْ سيّدتي الواجدةُ باللهِ سمرُ الزمانِ المهديّةُ: بل "المقصودُ" هو المحبّةُ و "الغايةُ" متّفقٌ عليها، أما العدلُ فهو آلةٌ وجهدٌ. وقالَ الصّدِّيقُ بن عبدِ اللهِ السّاقي: "المقصودُ" هو الإنسانُ وإنما العدلُ والمحبةُ جناحاهُ، فأما "الغايةُ" فالخلافةُ أجمعُ لفظٍ لها ومِن معانيها السّعادةُ والعملُ الصالحُ والجهادُ والغناءُ.

دونَ حسابٍ. وأقدَمَ عليَّ الذكرَ والأُنثى، فَزَوَّجْتُهُمْ على الرفقةِ، وأقمتُ بيوتَهُم بالمسرّةِ.[3] فجاؤوني بالذّرَاري وهمْ غُفْلٌ، فقلتُ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزِّينَةِ. فعلّمْتُهُم الأسماءَ كلَّها، فعرفُوها وقالوا إنّا نظنُّ أنَّا مُلاقُوكَ. وجاءتني كلُّ نفسٍ تجادلُ عنْ خلافتِها، فأخرجتُهُم إلى ظاهرِ الأرضِ، وقلتُ اعملوا علَى مكانتِكُم إني عاملٌ. فآمنُوا وصدَّقوا وأخذوا عهدَهُم ميثاقاً ألّا يكونَ بعضُهم لبعضٍ عدواً، ولا يملكُ من هو منهُم عليهِم، بل يملكونَ جميعاً، وأن يكونَ الأمرُ شِرْكَةً في العملِ والعلومِ. وذهبُوا في الأرضِ أفذاذاً وجماعاتٍ، وأخذوا منها بالميزانِ، ودخَلُوا في المواسمِ، فَسَعَوْا فيها سَعْيَهُم، واختلفوا في جَهدِهِمْ ومَبلغِهِمْ. وابتلاهُم ربُّهم بالأثرةِ والمراكمةِ ونقصٍ من المقاماتِ، فَثَبَتُوا. فَبُشّروا بالفلاحِ، وصارتِ الأرضُ بهيّةً بهِمْ، وأغناها اختلافُهم. فأتمّوا حدائِقَهُم المخصوصَةَ، وأكلوا منها رَغَداً حيثُ شَاؤوا. وخرجُوا عنها ونظروا إلى الكونِ فإذا هو البُستانُ الشّاملُ، والمقامُ الكاملُ، والوقتُ الموعودُ.

وفي صبحِ يومٍ مباركٍ توضّأتُ وناديتُ الخلقَ بأسمائِهم. فعرفُوا أذانَ المحبّةِ. فتركوا

[3] قالت أستاذتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمَيَن: "المسرَّةُ" جِماعُ أربعيَن ليلةٍ معلومةٍ صَفَتْ من الكدرِ وخَلُصَتْ من الهمِّ، فمن كانَ فيهنَّ وجبتْ له السعادةُ ومن أخطأهنَّ فاتَه خيرٌ كثيرٌ. قالتْ: ولا يكونُ هذا إلا في بستانِ الخلافةِ أو في أوّلِ الزرعِ الذي يُفضي إلَى هذا البستانِ، لأنَّ الجِماعَ في غيرِه باهتٌ. قال الإمامُ أحمدُ: هي واللهِ وجماعُ أربعيَن ليلةٍ في بستانِ الخلافةِ شيءٌ واحدٌ، وتزيدُ عليهِ لذّةً من وراءِ ذلك لا يقدرُ عليها الكلامُ ولا تحوزُها اللغةُ.

معاوِلَ حَرْثِهِمْ ومناجلَ حَصْدِهِم، وجاءوني رجالاً وعيالاً، ومَشَتْ إليّ الماشياتُ، وسارتِ السّائراتُ، وسلّمتْ عليَّ الثّواكلُ، وصافحَني المحزونونَ، ونادوني يا وليُّ ويا حبيبُ. فقلتُ من أنصاري إلى الحبّ؟ فتَلوا الآياتِ أنْ نحنُ الأنصار. وأخذنا الميثاقَ لا نحكِرُ خراجاً ولا نُفرِدُ حكماً ولا نستأثرُ بآلةٍ أو علمٍ. فتمّتْ كلماتُهُم صدقاً، فَبُهِتَ كلُّ وَثَنٍ، وأُسْقِطَ في يدِ الأصنامِ جميعِها. وبَعثتُ منهُمُ النُّقباءَ ففلَقوا الحجارةَ وأخرجوا ماءَها، فاليومَ أُحِلَّ لكمُ العرشُ وجاءَكُم برهانٌ ونورٌ مُبينٌ. فدخلتُ بينهمْ وآذَنْتُهُم بالسرورِ. فصَلُّوا الفرحَ حاضراً، وأخذَ كلُّ رجلٍ امرأتَهُ، وباستْ كلُّ امرأةٍ رجلَها. وجاءتْ فاطمةُ تنشدُني وهيَ تقولُ "هوَ وليُّكُم عامةً ووليّ خاصةً، هو حبيبُكم عامّةً وحبيبي خاصّةً". فمِلْتُ إليها فقَبّلْتُها، وناديتُ أن هذي حديقةُ الرِّضى، ودارُ القبولِ. فدخلتْ علَى الأرضِ الطيبةِ فَفَلَحَتْهَا فاسْتُخْلِفَتْ فيها، وصارتْ قرينتي في الجهدِ والشهواتِ.[4]

وفي عشيّةِ حضرتُ فاستويتُ على كرسيّ الخلافةِ، فسِيقَ إليّ الظالمونَ في القيودِ، وقيلَ احكُمْ بينَهُم بالعدلِ. فنظرتُ فإذا همْ ذاهلونَ من خشيةِ المظلوميّةِ، وإذا

[4] عندَ أهلِ الخلافةِ العاملةِ، أن الذكرَ والأنثى كاملانِ ومخصوصانِ باسمِ الرحمةِ الأكبرِ، وهو من معنَى الكونِ وغايتِه. ومن هذا، أي من الكمالِ والمخصوصيةِ، صارتِ الخلافةُ من بعض شأن الرجلِ وبعض شأنِ المرأة. أما من قالَ بوقفِها على الذكورِ فقد انقطعَ عنه وجيبُ الإنسانيةِ، وانفصلَ عن شغافِ الأنوثةِ، ولم يَمسسهُ وهجُ العشقِ، فهو في ظُلمةٍ حتى تنيرَ له الطريقَ بنتٌ من بناتِ الياسمين. قلتُ: وكلامُنا هذا زائدٌ عن الحاجةِ غيرَ أننا نُدفعُ إليه دفعاً من أثرِ النصوصِ العتيدةِ والعلومِ المستبدّةِ بالإنسانِ.

أكادُ أنفطرُ من الغَضَبِ. فاعتذروا بكلامٍ، فإذا أفعالُهُم التي عَمِلُوها بأيديهِم أشدُّ بلاغاً مِنهُم: فرأيتُ دماءَ الذرَاري تسيلُ على الترابِ، يُضربونَ بحديدٍ وبأسٍ شديدٍ، والمظلومينَ يُسلبونَ جماعاتٍ جماعاتٍ، وعرقَ الأجراءِ يجفُّ فلا يُؤجَرونَ إلا نصيباً، وخيرَ الأرضِ يُنهبُ نهباً بلا مقدارٍ، وثَمَرَها يحوزُهُ أولو العُصبةِ فلا يَأْلونَ، جبّارونَ بأيمانِهِم العبيدُ يقولونَ حلالٌ من عندِهِ وإماءٌ كُثُرٌ، ومقعدَ السلطانِ بأيدي الآحادِ منَ الناسِ يقولونَ الجماعةَ الجماعةَ، والجوعَ والعطشَ والبردَ تُصيبُ أقواماً غِلالُهم بأيدِ الأغيارِ. فأخذتُ الظالمينَ بما قدّمُوا من عملٍ، يَجحدونَ وُجُوهَهُمْ وَقلوبَهم، يطلبونَ اسمي فلا أَبْذُلُهُ لَهُم، ووجهي فأشيحُ به عنهم، حتى تحيطَ بهم ظلمةُ العالمِ ويقبضَ عليهِم خَواءُ الغيبةِ الكاملةِ. فلمّا خرجتُ عنهُم ربي لا تَذَرْنِي فرداً وأورثني أمةً، نتخذْ مَقاعِدَ صِدْقٍ عندكَ، هذا يومُ الجائزةِ وموسمُ الدعةِ والبحبوحةِ، خالصةً لمن كانَ من المناهضين. يومَ تَرَى المناوشينَ والمناوشاتِ، أهلَ الغربةِ والصومِ، المتقلبين علَى أجنابِ المحبةِ، المسكونيَن بالفرحِ يَسعَى نورُهُمْ بين أيدِيهِمْ كأنّهُ منّي، وهو منهُم، بُشْراكُمُ اليومَ خلفاءَ لا يصيبُكم حزنٌ ولا تُظلمون.

ثم أنيّ توحّشتُ مَسيري إلى دارِ الخلافةِ، وخطرَ علَى قلبي غيبتي ومجاهدتي، ومواسمي ومُكابدَتي. وإذا أنا الرحلةُ والوصولُ، والذهابُ والقفولُ، والمَطِيّةُ والسبيلُ الذي مشيتُ فيه فانعقدَ بمعناي. وأخذَني حنينٌ غامرٌ، وشوقٌ عامرٌ. وقعدتُ علَى عتبةِ الدارِ أنادِي علَى رفاقِ الطريقِ، وأحدّثُ عن أيامِ السفرِ، وأتهيّأُ الجراحَ التي كانتْ بجسدِي، والفرحَ الذي لامسَ قلبي. فكان هذا الخاطرُ

سنداً لذاتي، ومدداً للخلافةِ، وبأساً وقوّةً من عند قلبٍ مكينٍ. وصارتِ الرحلةُ من الدارِ، والدارُ من الرحلةِ، والإنسانُ هو الإنسانُ.

ثم أنّ العلومَ اتقدت عفواً من مشكاةِ القلبِ، والتجلّياتِ انبثقت عن مخبئِها الكامنِ وراءَ دارِ الخلافةِ. وإذا أنا أوغِلُ في الفضاءِ الجديدِ، وأكتشفُ المجرّاتِ وأرتقي مدارَ الأكوانِ.[5] وإذا الحياةُ أوسعُ أفقاً والكونُ أعمقُ إبحاراً، وما بعدَ الخلافةِ لذّةٌ خارقةٌ، ودهشةٌ على العتباتِ التي تخرج بي وراءَ العرش العظيم.

---

[5] كانتِ الأستاذةُ العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ، جوليُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ، العارفةُ بالإشارات، الموغلةُ في المسافات، وإمامةُ برِّ أوباري وغات، تمشي معَ الناسِ يتكلّمونَ في شؤونِهم وتُكلّمُهم، أو تجلسُ أمامَ بابِ المسجدِ تَخِيطُ النّعالَ وتهذرُ مع السّابِلَةِ، أو تشهدُ جمعاً من العاملاتِ يَتَقَوّتْنَ علَى الجهدِ ببعضِ الزادِ فتُسَلِّمُ عليهِنّ وتحدثُهُنّ. فإذا الأستاذةُ، علَى حينِ غِرّةٍ من الكونِ، تهمهمُ بعبارةٍ فذّةٍ من كلامٍ جليلٍ يصعقُ العارفينَ من السّامعينَ، أو تنطقُ بآيةٍ لم تنزلْ في الكتابِ، أو تشيرُ إلى علامةٍ خارقةٍ لم يأتِ بها أحدٌ من الأقطابِ أو يشهدْها غوثٌ أو نبيٌّ. ثم تمضي في شأنِها مع الناسِ كأنْ لم يَكُنْ شيءٌ، وكأنَّ تلكَ الدفقةَ الإلهيّةَ حلمٌ أو بعضُ إلهامٍ خفيٍّ. وكانت لا تكتبُ عبارتَها ولا تستعيدُ انبثاقاتِ هذا القلبِ الغريبِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: هي أشرفتْ علَى تخومِ المابعدَ، فتأتيها علومُ المابعدَ عفواً لا طلبَ فيه ولا سَعْيَ. وهذا بحرٌ وقفَ الأنبياءُ بساحلِه، وخَشِي خوضَهُ الأئمةُ. فجاءتْ هذه البنتُ فكأنّها مشتْ في أول غمرِه حافيةً يغسلُ الماءُ قدميها، ثم تعودُ مطمئنّةً إلى أمنِ اليابسةِ. قلتُ: فكنتُ كلّما سمعتُها تنطقُ بشيءٍ خارقٍ تهيَّأتْ لي أنها تلعبُ في عُبَابِ بحرِ المابعدَ ثمّ تعودُ إلينا ضاحكةً لاهيةً. فأحببتُها لذلكَ حُبّاً جمّاً.

وأنا ذا عبدُ الرحمنِ بنُ محمّدٍ بنِ عبدِ السّلامِ البستانيّ الغدامسيّ في هذي الدارِ الطيبةِ من هذي الساعةِ من العشيّةِ، وبحذاي لِلّا فاطمةُ تغنّي من كلام العارفين، وآحمدو يسمعُ مني فيكتبُ على الرّقعةِ ما يكتبُ. فأمّا غْدامِسْ فإنها بلدةُ القلبِ، وموطئُ الجسدِ، وموطنُ الروحِ الأمينِ. جعلَها اللهُ داري في الملكوتِ، والرّكْنَ الذي أتّكِئُ عليهِ من قوائمِ العرشِ، والسِّدرةَ التي أشرفُ منها علَى نهرِ الإنسانِ.

فإذا أنا في سَوْرَةِ الفرحِ الغدامسيِّ جاءني فقالَ لِيْ:

الخلافةُ حاصلُ الحرثِ، وجائزةُ الجهدِ،

ومثوَى الآدميّةِ التي حرثتْ، والحوائيةِ التي كدحتْ أرضَ الإنسانِ.

وقال لي: الخلافةُ اشتراكٌ في المعنَى بين العاملينَ الذين أطلَعوا هذا المعنَى.

وقالَ لِيْ: الذين يشتركونَ في العملِ يتشاركونَ في نتجِ هذا العملِ، لأنّ هذا حَسَنٌ وغيرُه لا ينبغي في حِسبةِ العدلِ.

وقالَ لِيْ: الذي يعملُ يجدُ نتجَ عملِه وإلا لا تُمكِنُ لهُ الخلافةُ.

وقالَ لِيْ: الخلافةُ نزعُ الحجابِ عن وجهِك حتى يبينَ الخليفةُ الذي عجنتُه في جسدِك، وأسكنتُه قلبَك، وأطلقتُه في بريّةِ العقلِ يرعَى شياهَ الربانيّةِ.

وقالَ لِيْ: شياهُ الربانيّةِ وقفٌ من أوقافِ الجلالِ وفيءٌ من أفياءِ السّوادِ التي جعلتُها تامّةً لأهلِ هذا السّوادِ.

وقالَ لِيْ: شياهُ الربانيّةِ فكرٌ ناضرٌ، وخيالٌ باهرٌ، ومعارفُ لا تصحُّ لها الكتبُ ولا تنبغي لها الدواةُ التي عندَ السّدنةِ الحافظينَ.

وقالَ لِيْ: الخليفةُ لا إرغامَ له لأنّهُ بلا رعيّةٍ، ولا حكمَ لأنه بلا سلطانَ، ولا مُلْكَ

يتنازعُه لأنه والكونَ في معنَى الشِّرْكَةِ لا معنَى الاستئثار.[6]

وقالَ لِيْ: الخليفةُ وقفٌ علَى المشاركةِ لأن المشاركةَ اتّساعٌ لأفقِ الإنسانِ ودخولٌ به إلى تخومِ الجماعيّةِ.

وقالَ لِيْ: الخليفةُ جوهرٌ فردٌ في سياقِ الجماعةِ، ومعنًى جامعٌ في فضاءِ الفردِ، فإنِ ابْتَسَرْتَهُ انفرطَ عِقْدُهُ عن أسمائِه التي يتسمَّى بها وصارَ غُفْلاً عن ذاتِه الكاملةِ.

وقالَ لِيْ: الفرديّةُ فضاءٌ والجماعةُ سياقٌ والانعقادُ بينهما من مبادئِ الخلافةِ التي تمشي إليها في صفوفِ العملِ.

وقالَ لِيْ: الخلفاءُ عناصرُ الكونِ الأولَى. تَتَشَكّلُ بهم الرّؤَى الجليلةُ في أَتونِ المعاني الباهرةِ يقدحُونها بالآدميةِ البادئةِ والحوائيةِ الباكرةِ.

وقالَ لِيْ: الخلفاءُ استدراكٌ علَى الربانيّةِ التي تستأنفُ حضورَها في رواءِ الإنسانِ، حتى إذا استوحشَ الكونُ فزعتْ ذاتي لهُ بأسماءِ الخليفةِ الحُسنَى.

وقالَ لِيْ: الخلفاءُ روحٌ واحدةٌ وأسماءٌ شتّى فإذا ناديتَ عليهِم أجابَك أدناهُم إليكَ

---

[6] السلطانُ، في المالِ والحكمِ والعلومِ، من مظانِّ الفسادِ الكبيرةِ، وإن كانَ صاحبُ السلطةِ مُرسلاً من عندِ قوائمِ العرش فإنّهُ يختلطُ بشيءٍ من السّطوةِ، والغلَبةِ، والمدافعةِ بالبأسِ الشديدِ، مما يلزمُ عنه الظلمُ. قالتْ شيخَتي خديجةُ بنتُ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ، مولاةُ المسرّاتِ، وصانعةُ البهجاتِ، صاحبةُ العلمِ والسناءِ، وسلطانةُ الوجدِ والرجاءِ، في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراءِ: لا يحوزُ آدميٌّ شيئاً منه، أي من السلطانِ، إلا وحازَ ظُلمةً في قلبِه ويديهِ وإن توضّأَ ألفَ مرّةٍ في اليومِ وأضاءتْ لهُ ألفُ مشكاةٍ فيها مصباحٌ. قلتُ: ولأننا أهلُ علومٍ، فإنَّ من مبادئِنا بذلُ المعارفِ، وشِرْكَةُ الحسابِ، ونشرُ الدروسِ، حتّى لا نَحْكِرَ شيئاً لأنفسِنا نتسلّطُ به علَى الخلقِ، ومن فعلَ صارَ العلمُ السلطانَ الذي يُغَلُّ فيه قلبُه ويداهُ.

كأنه هُو ومَا هُو هو.[7]

وقالَ لِيْ: الخليفةُ الذكرُ والأنثَى، ومابينهما وما وراءَ ذلكَ، استواءٌ بالقلبِ علَى عرشِ الكرومِ التي غرستَها فجنيتَها فعصرتَها وأنتَ على كثبٍ منّي.

وقالَ لِيْ: الذي يستوي بقلبِه على العرشِ يجب له الاستواءُ بجسدِه التامِّ على وجهِ التحقيقِ فلا يُنْهَبُ العرشُ ولا يُشَبَّهُ له الاستواءُ.[8]

وقالَ لِيْ: الاستواءُ التامُّ يحفظُ العرشَ عن الحاكرينَ ويبذُله للإشتراكيينَ.

---

[7] كانَ الإمامُ أحمدُ يَحُثُّنَا إلى العلومِ والحضرةِ الروحيةِ، جماعةً وأفذاذاً، يقولُ: امضوا فيها قدرَ جهدِ كلِّ واحدٍ منكم ونصيبِه من الترقّي والإلهامِ. فمن صارَ منكُم عارفاً علّمَنا من جهةِ الأسرارِ الجليلةِ، ومن انقدَحَ بالنبوَّةِ أضاءَ علينا الغارَ الذي نحنُ فيهِ، ومن سالَ كالشّعرِ أو بعضِ الكتابِ غمرَنا من اللّجّةِ التي صدعتْ لأمرِه. وهذه كلُّها سُبُلٌ فيها من معنَى الجماعةِ والرفقةِ ما فيها، غيرَ أنّ الفردَ الجوهرَ يبرؤُها في قلبِه، ويُنشِؤها من أشلائِه، ويحتملُ معانيها في عقلِه. قلتُ: وكانَ الإمامُ من هذا يُسَمّينا بحسبِ تجليّاتِنا وغرائبِ عملِنا. فهذا الفتَى هو"الفتحُ القريبُ"، وتلكَ البُنَيّةُ "البُراقُ"، وذاكَ السيّدُ "ظِلُّ السِّدْرَةِ"، وهذي العارفةُ "معراجُ القلوبِ". ولم أرَهُ في عِشرتي له يُنقِصُ من رحلةِ تلميذٍ أو سفرِ مُريدٍ في مُقاماتِ الترقّي، ما دامَ القلبُ هو مبدأَ الخروجِ ومعادَ الغائبينَ.

[8] قالَ الأستاذُ قرلصُ: تشبيهُ الاستواءِ حيلةٌ من حِيَلِ أهلِ الاستئثارِ في العالمينَ مشوا بها شيئاً كثيراً. فأنتَ تجدُهم يكنزونَ الثرواتِ، ويَحْكِرُونَ العلومَ، ويحكمونَ في مصائرِ العبادِ بالحربِ والمسالمةِ ثم يُوهِمونَ أقوامَهم في الإعلامِ الزائفِ والفنونِ المشتراةِ أنهم هم أهلُ السلطةِ وأصحابُ الرأيِ وعصبةُ العرشِ المكينِ. قالَ: فشبّهوا لهمُ العرشَ بالصندوقِ، والمشاركةَ بالأجرةِ، والحكمَ باتّباعِ الأحزابِ والهيئاتِ الحاكرةِ. ومن هذا تجدُ هذه الأقوامَ لا تفقهُ سياقَ اجتماعِها ولا تغضبُ لمظلوميّتِها أو مظلوميّةِ غيرِها إلا قليلاً. فخُذْ بالَك.

وقالَ لِيْ: الاشتراكيونَ ينهضونَ بالأمرِ إلى آخرِه فتحصلُ لذّةُ الحكمِ الآخرةُ.

وقالَ لِيْ: آخرُ الأمرِ لهُ لذّةٌ كلذّةِ آخرِ كلِّ أمرٍ، والمشابهةُ يعرفُها العاشقونَ.[9]

وقالَ لِيْ: آخرُ الأمرِ يصدعُ بأوّلِ الأمرِ من منتهاهُ إلى مبتداهُ فتحصلُ اللّذّةُ.

وقالَ لِيْ: آخرُ الأمرِ إزاءةُ رِدّةٍ لـ "كُن" حتى تجهرَ باللذّةِ التي تُخصِبُ العالمَ.

وقالَ لِيْ: الإنسانيةُ تعبيرٌ عن الكونيّةِ لأنّها الوعيُ بضميرِ الأشياءِ، والعلمُ بقلبِ الحاجاتِ، والمعرفةُ البارئةُ بروحِ العناصرِ الأوليّةِ.

وقالَ لِيْ: الإنسانيةُ حجابٌ واتصالٌ في وقتٍ واحدٍ لأنّها إذ تَغُلُّكَ في أحوالِ الغفلةِ البادئةِ تَتَّقِدُ بكَ في مقاماتِ العملِ والعلومِ.

وقالَ لِيْ: الإنسانيةُ التي تضطربُ وتعتملُ في سياقِ الكونيةِ تحيلُ هذا السياقَ إلى معناهُ الذي نشأَ من الانعقادِ.

وقالَ لِيْ: الانعقادُ رابطةٌ والرابطةُ لا بدّ أن تؤولَ بك إلى جهاتِها.

وقالَ لِيْ: انعقادُ الإنسانيّ بالكونيّ مناشدةٌ للربانيّةِ بالدخولِ إلى ضميرِ العالمِ،

---

[9] كانَ معنا تلميذٌ به شوقٌ لكتابةِ الشعرِ. قالَ شيخي سَاسي بن نايل: وهو شوقٌ عجيبٌ لأنه ينتهبُ القلبَ انتهاباً، ويُفَجّرُ آلةَ الجسدِ، وينبثقُ كالرؤَى من متنِ الليلِ الحالكِ. قلتُ: وكانَ التلميذُ يهابُ القصيدةَ ولا يدخلُ عليها من سطوتِها وشدةِ حالِها. فيظلُّ يهيمُ بها أياماً ثم يعودُ يستكينُ كأن لم يكن شيءٌ. ووجدتُه مرةً في السَّحَرِ قد أوقدَ ناراً في صحنِ الزاويةِ الصوفيّةِ يُحَرِّكُ الجمراتِ ويتمتمُ بكلامٍ، فسلّمتُ عليه، ففزعَ ثم اطمَأنَّ فقالَ: كتبتُ كلماتٍ من قصيدةٍ راودتني عن قلبي زمناً. فغمرَتْني لذّةٌ أخذتْ بي فحملَتني إلى تخومٍ باهرةٍ. فلمّا وصلتُ هدأَ خاطري كهدوِّ العاشقِ الذي نالَ الوصالَ كلّهُ. وجلستُ ها هنا أتدفّأُ بالنارِ وأهمهمُ بوساوسِ القصيدةِ التي نِلْتُ من جسدِها ما نلتُ. قلتُ: فلم أعرفْ أيهما انتهبَ الآخَرَ واستباحَهُ، الفتى أم القصيدةُ؟

واجتثاثُ القلبِ العاملِ من حبسِ الغيبةِ.[10]

وقالَ ليْ: الذي يُجْتَثُّ بيدِ الربانيّةِ يصيرُ زرعاً مستأنفاً في ترابِ الكونيّةِ الشاملةِ.

وقالَ ليْ: الخلافةُ هي الاجتثاثُ الذي اكتمَلتْ أركانُه، والزرعُ الذي أزهرَتْ أغصانُه وأثمرَ نوّارُه، حتى إذا رأيتَ الخليفةَ في ديوانِ الخلافةِ عرفتَ أن الربانيّةَ

---

[10] زادَ مقدارُ الظلمِ في البلدِ حينَ نزلتْ تحتَ حكمِ الأوغادِ، فاستمكنَ بعضُ الظالمينَ في النواحي بالرزقِ والبيعِ والزادِ. فلم نكُن نرى فيهم غيرَ الظُّلْمةِ التي هم فيها. قالَ شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى، حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ، بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ: اقعدوا لفلانٍ الظالمِ، فاحسبوا له مقدارَ ظُلْمِهِ، واحصُوا عليه نواتجَ عدوانِه في العوائلِ والولايا والعيالِ، وأكثِروا من سردِ الوقائعِ، وترتيبِ الأحوالِ المُبَيِّنَةِ للمظالمِ. ففعلنا وأرسَلنا بها للرجلِ كلَّ أيامٍ مرةً. فمضَى حولٌ ولم يكن شيءٌ. فقالَ الأستاذُ: فاقعدُوا لفلانٍ الآخرَ واحسِبوا له. ففعلنا وأرسَلنا له حولاً فلم يكُن شيءٌ. فقالَ الأستاذُ: فاقعدُوا لفلانٍ وافعلُوا معهُ فِعْلَكُم مع الأوّلَين. ففعَلنا فلم يمضِ موسمٌ من مواسمِ البيعِ حتّى بعثَ وراءَنا فقالَ: قد توجع قلبي بحسابِكم، وما علمتُ قبلاً أني ظالمٌ. إنما هيَ حالُ البلدِ وحُكْمُ الأجنبيّ وعمالةُ المحليِّ. قالَ الأستاذُ: هذا حجابُك الذي نزعناهُ عنكَ بالحسابِ والتقييدِ والكشفِ، فصرتَ صاحبَ علمٍ يُخْرِجُكَ بإذنِ اللهِ عن غلِّ الظلمِ إلى أفقِ العدلِ. قالَ الرجلُ: فأنتم كلّمتُم فلاناً وفلاناً، فما بالهما لم يَنُشْهُما ما ناشَني من معرفةٍ وتوجعٍ. قالَ الأستاذُ: لأنّ قلبَك أشدُّ بأساً من القروشِ والسلطانِ. وهذا فيه كرامةٌ من عندِ اللهِ وجدارةٌ من عندِ نفسِك. قالَ الرجلُ: فكيفَ أحفظُ هذا القلبَ الذي هو أشدُّ سطوةً من شهوةِ العالمِ. قالَ الأستاذُ: بحبِّ الخلقِ، والتعلّقِ بالخالقِ، وتحصيلِ العلومِ الصحيحةِ. فانجذبَ الرجلُ للأستاذِ وجلسَ معنا يسألُ ويفهمُ.

علَى مرمَى حجرٍ منكَ.[11]

---

[11] قالَ مولايَ السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ: كنتُ منطفئاً في أولِ شبابي، ولم يكن يعتملُ في قلبي شيءٌ. فمررتُ بناحيةِ بوسليم من البرّ الطرابلسيّ، فرأيتُ عاشقينِ يختلسانِ قُبْلَةً بِرُكْنِ السّوقِ المعروفِ. فإذا البنتُ تمشِي بعدَها خَطوتين عن صاحِبها تريدُ أن لا ينتبه أحدٌ إلى الحبِّ الذي غلبَه وغلبَها. فلمْ تَحمِلها قدمَاها فألقتْ بجثمانِها على أرضِ السوقِ وهي ترتجفُ من فعلِ الوصلِ الجليلِ، فاجتمعَ عليها الناسُ لا يعلمونَ ما بها. فاخترقَ الولدُ العاشقُ صفوفَهم، فلما رأَى أثرَ الحبِّ على البنتِ خرَّ صاعقاً بحذائِها، فصارَ مَشْهَدُهما وهما على هذي الحالِ كشهيدينِ سَرْبَلَهُما الرصاصُ أو قاطعَي طريقٍ صرعتْهُما النّبالُ. فلم يعرفْ أحدٌ غيري مبدأَ أمرِهما وكيفَ سطتْ عليهِما القبلةُ وسطَ السوقِ والناسُ يبيعونَ الماعونَ ويشترونَ الزبيبَ والجرجيرَ. فعجبتُ من حالِ قلبيهِما وكيفَ توحَّدا في مقامِ المغلوبيّةِ، مغلوبيةِ الحبِّ. ثم أن البنتَ فتحَت عينيها وهي لا تدري أين مقامُها. فطمأنتُها بكلامٍ، ثم ضممتُ الولدَ إليَّ أختبرُ نفسَهُ هل هو بين الأحياءِ، فتململَ ثم تمتمَ يقولُ من كلامِ عروةَ بنِ حزامٍ:

وما هوَ إلاّ أن أراها فُجَاءةً فَأُبْهَتُ حتى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

وما عَجَبِي مَوْتُ المُحِبِّينَ في الهوَى ولكنْ بقاءُ العاشقينَ عجيبُ

فلما كَثُرَ هرجُ الناسِ وارتابوا أخرجْتُهما عن السوقِ وأودعْتُهُما أمانَ الطريقِ. قلتُ أنا موسىَ: ثم ماذا؟ قالَ مولايَ صلاحُ الدينِ الدرّةُ: انقدحَ قلبي بمعنَى الحبِّ الذي شهدتُه ولم تكن لي حبيبةٌ بعينِها. فأصبحتُ عاشقاً فريداً أمشي بين العشاقِ في العرشِ وهم لا يرونَ معي محَلَّ العشقِ الذي أدخلَني عليهِم لأنني بلا امرأةٍ. فعثرتُ بالإمامِ أحمدَ بينهُم فضحكَ من مَشهدي وقالَ: إنكَ الغرابةُ والعجائبيّةُ التي لم نعرفها. ثم قدَّمَني إلى الشّعرِ والفنونِ وصحبةِ البناتِ والعلومِ، حتّى صارَ قَدْحُ القلبِ ذاكَ نوراً يُضيءُ ما وراءَ قلبي في جهةِ العالَمِ، وكانت لي سِعدةُ وعاتكةُ وإلينور!

وقالَ لِيْ: الخلافةُ الكامنةُ الوهجُ الذي في الحجرِ قبلَ دخولِه إلى مقامِ القدحِ، فإذا دخلَ اتّقدَ بجوهرِه وأضاءَ بمعناهُ الذي طرأَ عليهِ.

وقالَ لِيْ: الخلافةُ الكامنةُ "إقرأْ–" كَ قبلَ أن ينزلَ عليك الكتابُ، وغارُك وأنتَ لا تعرفُ أن تَفُكَّ الخطَّ، وخديجتك وأنتَ لم تَنُشْكَ حُمَّى النبوّةِ ولم تطلبْ عونَ الحبِّ والرفقةِ.

وقالَ لِيْ: لأيِّ شيءٍ أُكلّمُكَ وقدْ وصلتَ؟

وقالَ لِيْ: العرشُ الذي استويتَ عليهِ لم يَصِحَّ لي لأنّهُ حاصلُ الكدحِ وأنا لا كدحَ لي، وآخرُ الزرعِ وأنا لا زرعَ لي، واحتفاءٌ بالشِرْكَةِ وأنا لا شريكَ لي.

وقالَ لِيْ: العرشُ الذي تَسْنُدُ رأسَك علَى قوائمِه، تَستحي منّي أن تأخذَهُ، هو لكَ من وقتِ أن قعدتَ تحسِبُ في أولِ الحديقةِ.

وقالَ لِيْ: عرشُ الإنسانِ بعد سِدْرَةِ المُنتهَى لأنّها مُتعلّقةٌ بالاحتمالِ وهو متعلّقٌ باليقينِ.

وقالَ لِيْ: يقينُ العرشِ من عفوِ العملِ.[12]

---

[12] أقامَ في بلدتِنا رجلٌ غريبٌ كانَ يزرعُ فدّاناً من الأرضِ ثم يأخذُ قمحَه وشعيرَه فيطحنُه ويبيعُه، ويعصرُ من بعضِ الشجيراتِ زيتاً، ويجني تمراً من نُخيلاتٍ لهُ، وبعضاً من العسلِ من بيتِ نحلٍ. ثم يمضي وقتَ العصرِ فيُعلِّمُ التلاميذَ شيئاً من علومِ النباتِ والزرعِ. فإذا جاءَ الليلُ جلسَ فضربَ علَى العودِ وغنّى. قالَ الإمامُ أحمدُ: هو صاحبُ الإنسانيّةِ حيثُ ركضَ الأرضَ بفأسِه، ورفيقُ الربانيةِ حين علّمَ الآدميينَ ما لم يعلموا، وأهلُ الخلافةِ لما استوَى علَى العرشِ يُهمهم ويغنّي. وكلُّها، أي الإنسانيّةُ والربانيّةُ والخلافةُ، تصدرُ عنِ العملِ الذي ينبثقُ فيها جميعاً عفواً لا تكلفاً، لأنه من ضروراتِ القيوميّةِ، قيوميّةِ العالمِ.

وقالَ ليْ: عفوُ العملِ ما يلزمُ عنه ضرورةً من جهةِ أنه رابطةُ القلبِ بالكونِ.

وقالَ ليْ: عفوُ العملِ لا يعوزُك أن تطلبَهُ لأنه يأتيكَ عن طيبِ خاطرٍ وأنتَ في سَوْرَةِ الجَهْدِ تَتَضَوَّعُ بزَفْرَةِ الأرضِ والعرقِ.

وقالَ ليْ: العرشُ يأتيكَ عن طيبِ خاطرٍ آخرَ الأمرِ، أما سِدْرُ المُنتهَى فأنتَ تَقِيلُ تحت أعرافِه كلَّ نهارٍ تكدحُ فيه.

وقالَ ليْ: الذين لا يكدحونَ ثم يَنهبُون ويَحكِرون ويَستأثرُون ليسَ لهم بساتينُ، ولا يَعْرِفُهم العرشُ، ولا يُظِلُّهُم شجرُ السِّدْرِ.

وقالَ ليْ: الذين يعرفهم العرشُ تنفتحُ لهم علومٌ لم تنبغي لهم قبلَ وقتِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: علومُ الخلافةِ أحوالٌ ومقاماتٌ ومعارفُ تحصلُ عن سياقِ الخليفةِ الذي صارَ إنساناً كاملاً.

وقالَ ليْ: علومُك تطلعُ من السياقِ الذي يحيطُ بكَ.

وقالَ ليْ: قبلَ وقتِ الخلافةِ لا تقدرُ عيناكَ أن ترَى علومَ وقتِ الخلافةِ، ولا قلبُك أن يعرفَ أسماءَها، ولا عقلُك أن يحسِب أصولَها.

وقالَ ليْ: إذا دخلتَ إلى وقتِ الخلافةِ سقطَ عنكَ حجابُ السبيلِ، وأسفرَتْ لكَ أسمائي التي لم تَعْلَمْها، وصارَ الوصولُ صحنَ الدارِ الذي تطلعُ منه علَى الكونِ وأنتَ جالسٌ تخيطُ نعلَ المداسِ.

وقالَ ليْ: نعلُ المداسِ إشارةٌ إلى سُبُلِ الخلافةِ التي تحصلُ عنها علومُ الخِلافةِ.

وقالَ ليْ: نعلُ المداسِ أثرٌ من الوقتِ الذي نزلتَ فيه عَجِلاً من الغارِ قبلَ أن تحفظَ الكلامَ أو تُصلِحَ من شأنِ العباراتِ أو تتهيّأَ للسّهولِ.

وقالَ ليْ: الذي ينتعلُ مداسَ الخلافةِ يقومُ عن العرشِ ويمشي في أرضٍ ما بعدَ

العرشِ.[13]

وقالَ لِيْ: ما بعدَ العرشِ أرضٌ بقمحٍ غيرِ قمحِك الذي تعرفُه، وعناصرَ لم ترتِّبْها جداولُك، وأعدادٍ لا تقومُ علَى صفرِك وواحدِك، وخيالٍ لا يستطيعُه وهمُك وهذيانُك.

وقالَ لِيْ: ما بعدَ العرشِ تجدُني أخيطُ نعلَ مَداسي.

وقال لي: ما بعدَ العرشِ تجدُني أتزوّدُ للمسيرِ.

وقالَ لِيْ: لو كشفتُ لكَ ضوءً من أضواءِ ما بعدَ العرشِ لانهدَّ العرشُ الذي أنتَ تنظرُ إليهِ وتقولُ هو الحقُّ كلّهُ.

وقالَ لِيْ: الذي يمشي في ديارِ ما بعدَ العرشِ يفهمُ ما لا يَنبغي لكَ فهمُه وإن كنتَ مستوياً علَى العرشِ.

وقالَ لِيْ: ما بعدَ العرشِ لا تَسُدُّهُ حديقتُك وأنتَ جالسٌ ببلدتِك تشربُ وتقولُ

---

[13] كان شيوخي وأساتذتي أكثرَ الناسِ انشغالاً بالمداسِ حتى تحسَبُهم من أهل المظاهرِ وما هُم بذاكَ. وإنما كانوا يرونَ في النّعْلِ إشارةً إلى الطريقِ، وعلامةً علَى السّفَرِ، وأثراً من المشيِ الرُّوحانيِّ. فهم لهذا يَقعدُونَ للدرسِ غالبةَ النهارِ يَخِيطونَ كنادرَهم، ويُصلحون السبابيطَ، ويُزَيّنُونَ وجوهَ الأحذيةِ. وكانَ بعضُهم يتّخِذُها حرفةً زائدةً علَى المعاشِ لما فيها من أدبِ التعَلُّقِ بالخلقِ، ومِرانِ اليدينِ، والقربِ من الأسواقِ. وللإمامِ أحمدَ رسالةٌ جليلةٌ في خياطةِ النعالِ، يُعطيها لطلابِ العلمِ مع كُتبِ السادةِ في الإلهيّاتِ، يقولُ حتى لا يختالوا يحسَبون أنهم يعلمونَ كلامَ السادةِ وهم لا يُحسِنونَ أن يَجلسوا في صحنِ المسجدِ، أو علَى ناصيةِ طريقٍ، يُصلحونَ نِعالَ الخلقِ ونعالَهم. قلتُ: وتجدُ بيمينِ الإمامِ، إذا سلّمتَ عليهِ، أثرَ الإبرةِ والخيطِ وبعضاً من حبرِ الكتبِ يتجاورانِ علَى يدهِ، كما تجاورا في قلبِه من قبلُ.

لغلامِك اكتبْ.[14]

وقالَ لِيْ: مسيرُ ما بعدَ العرشِ لا تقدرُ أن تكتبهُ بقلبِك هذا، ومِدَادِك هذا، ببلدتِك هذي.

وقالَ لِيْ: ما بعدَ العرشِ يكشفُ لك عن عبارتِك التي أوصلتْك إلى العرشِ.

وقالَ لِيْ: ما بعدَ العرشِ لا صِفْرُكَ صفرٌ، ولا واحدُك واحدٌ، وما بينهُما يسعُ

---

[14] على حاشيةِ هذهِ الورقةِ والورقةِ التي تليها من المخطوطِ، وبخطٍّ رائقٍ لاشكَّ أنّهُ لآخمدو،كلامٌ عن لِلّا فاطمةَ، زوجةِ الشيخِ بلخير وحبيبتِه في عمرِهما المديدِ. تقولُ العبارةُ:

دخلتُ على مولاتي اللِلّا فاطمةَ، هذا الضُّحَى، وهي جالسةٌ تقرأُ وتكتبُ تحتَ كرمةِ العنبِ التي في جهةِ البستانِ المتاخمةِ للنوارِ البرّي. فسَلمتُ عليها وقلتُ: أيْ لِلّاي، شَيخي ينشدُكِ. قالتْ: هو ينشدُني السّاعةَ وأنا في إِثْرِهِ من يومِ كلّمَني في ورشةِ الحدادةِ، أضربُ الحديدَ، لم أبلغِ السابعةَ عشرةَ! قلتُ: هو يقرأُ عليّ الحديقةَ وأنا أخطُّها خطّاً حَسناً. قالتْ: في أيِّ وقتٍ أنتُما؟ قلتُ: بلغنا زمنَ الخلافةِ. قالتْ: فأنتُما تتبوّءانِ العرشَ، فامضِ إليه وقُلْ له تُقْرِؤُكَ لِلّايَ الحبَّ وتقولُ لكَ:

ادخُلْ بستانَكَ في جمعٍ مَنْ كانَ مَعِيَّكَ فَهُوَ مَعِيْ

وأَقِمْ عُرْساً أَوَّلُهُ سَنِيَ آخِرُهُ أنِّي إليكَ سَعِيٌّ

فَإذا جئنَاكَ علَى عرشٍ خُذْ عرْشي حِلاًّ منْ مُتَعِي

فاجلسْ وتمنّ علَى حبِّ أنتَ الحبُّ المنشـود فَعِ

فمضيتُ ببشارةِ الشوقِ إلى الشيخِ ففرِحَ بها وقالَ: اكتبْ هذا السردَ علَى يمينِ الكلامِ وشِمالِه وزيّن خَطّه وامضِ به ما لَزِمَكَ من حاشيةٍ. أما أنا فأنهضُ إلى مقامِ الحبِّ الذي تحتَ الكَرْمَةِ في البستانِ.

العالمَ والسِّدْرَةَ والعرشَ.[15]

وقالَ لِيْ: العرشُ سبيلُ ما بعدَ العرشِ فلا يصحُّ لكَ أن لا ترتقِيه.

وقالَ لِيْ: اسمُكَ ما بعدَ العرشِ قد يختلطُ باسمِ غيرِك، وحَسْبُ.[16]

وقالَ لِيْ: اسمُك الخليفةُ من طلعةِ الصبحِ الأولِ في الكونِ، وأنا أكلمُك عن اسمِ غيرِك!

وقالَ لِيْ: العلومُ التي لا تصلُ بك إلَى سُدَّةِ الخلافةِ لا تَلْزَمُكَ ولا تَنبغي لكَ.

وقالَ لِيْ: العلومُ التي لا تَفُضُّ لك ختمَ الخلافةِ اعْلَمْ أنها تَفُضُّ لغيرِك ختمَ الاستئثارِ.

---

[15] قالَ السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ، مثالُ التلاميذِ والمريدين في ورفلّةَ بَرِّ الرياحين، وهو تلميذٌ للعلومِ الطبيعيّةِ: لما درسنا قامَ عِلمُنا علَى أنّ الواحدَ والواحدَ إثنانٌ، وأن الهويّةَ لا تتضادُّ مع ذاتِها، وأنّ الأوّلَ يأتي قبلَ الآخِرِ. فمشَى بنا هذا الفهمُ سفراً طويلاً حتى فلَقنا به الذّرّةَ، ودخلنا علَى عرشِ فيزياءِ الدقائقِ، فاستَوينا عليه أو هكذا شُبِّهَ لنا. فلمّا نظرنا حولنا لم نرَ إثنين الواحدِ والواحدِ، وإذا الشيءُ يكونُ كتلةً ويكونُ موجةً في آنٍ، وإذا الوقتُ يُسرِعُ ويُبطِئُ ويَنْكُصُ، وإذا حسابُ العظائمِ لا ينفعُ في الدّقائقِ. فاضطربْنا اضطراباً شديداً، وانكشفَ لنا ترتيبُنا وكلامُنا الذي أنزلَنا هذا المنزلَ. وبانَ لنا أنّ المطايا التي اتّخذناها بلغتْ مُنتهَى الجهدِ وغايةَ الطريقِ الذي يُمكِنُ لها. فنزلْنا عنها وعن كثيرٍ من تصنيفِ العقولِ، واستخراجِ المنطقِ، ومشينا حاسري الرؤوسِ. ونحنُ والعلماءُ مازلنا لا ندري أينَ مقصِدُنا ولا ما يُفْتَحُ به علينا. قلتُ أنا موسى: فلعلَّ هذا تشبيهٌ لما بعدَ العرشِ أو كنايةٌ عن أفقِ الاستئنافِ بعدَ الوصولِ.

[16] قلتُ للإمامِ أحمدَ: يحسنُ ألا نجعلَ هذه في طبعةِ الكتابِ العموميّةِ. قالَ: بلِ افعلْ، فهذا وقتُ بوحٍ، وفي العبارةِ غموضٌ يُنَافِحُ عنها.

وقالَ لِيْ: علومُ الاستئثارِ تنفعُ المستأثرينَ وعلومُ الشِّرْكَةِ تَلزمُ الشّركاءَ.
وقالَ لِيْ: العلومُ التي أوصَلتك إلى دارِ الخلافةِ تَلزمُك في دارِ الخلافةِ.
وقالَ لِيْ: الذي يَصِلُ بكَ، يَلزمُك.
وقالَ لِيْ: الذين يَصِلون ينزِلون عن مطاياهُم ثم يربطُونها إلى بابِ الدارِ ويدخلون عليهم ريحُ المطيّةِ ووبَرُها وزينتُها.
وقالَ لِيْ: الذين يَصِلون يَنفُضون عن قلوبِهم وعثاءَ السفرِ، ويضطجعونَ في ظِلِّ الراحةِ، وينتظرونَ الجائزةَ، وأنتَ تَتَلَفَّتُ والعرشُ أمامَ عينيكَ لم يَتَحَوَّلْ.
وقالَ لِيْ: وَعْثَاءُ السفرِ تتعلّقُ بقلبِك لأنها بركةُ الرحلةِ التي أَدخلتْك عليّ.
وقالَ لِيْ: وعثاءُ السفرِ كبَلَلِ الوضوءِ كلاهُما يقولانِ لك قد استأذنتَ فادخلْ إليه.
وقالَ لِيْ: الذي خرجَ عليه وعثاءُ السفرِ ولم يُمْكِنْ له الدخولُ فإنّهُ في سياقِ العبورِ.
وقالَ لِيْ: حين تخرجُ عن سياقِ الظلمِ والأَثَرةِ ولا تدخلُ إلى سياقِ العدلِ والمشاركةِ، لأنّ ضرورتَهُ لم تكتمل بعدُ، فإنّكَ تقفُ في سياقٍ من البأسِ والشدائدِ والوجعِ العظيمِ.
وقالَ لِيْ: سياقُ العبورِ يكونُ بينَ بينَ، فلا تعرفُ أيّ علومِك أليقُ بهِ وأيّ أفعالِك تلزمُه وأيّ قلبٍ يقدرُ عليه.
وقالَ لِيْ: سياقُ العبورِ سياقٌ في الوقتِ والعلومِ والقلوبِ فمِنْ هذا سطوتُه.
وقالَ لِيْ: سياقُ العبورِ يَحُثُّكَ على أن تصدعَ بعلومِ المناهضةِ حتى تدخلَ بها أولَ سياقِ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: سياقُ العبورِ يُلزِمُك أن تتقدّمَ الصفوفَ إلى جهةِ الخلافةِ الجامعةِ.[17]

---

[17] قلتُ في درس العشية: ما سياقُ العبورِ عندَ الغدامسيّ، فإننا لم نسمعْ به عندَ أهلِ الطريقةِ، ولم نقرأْهُ في كتبِ العارفينَ، ولم نشهدْهُ في أحوالِ الخائضينَ؟ قالَ الإمامُ: نعمْ، بلخير يأتي في حديقتِه بالمعاني الناضرةِ والأفكارِ الباكرةِ التي تحثُّ القلبَ علَى السؤالِ والمنازلةِ. فأما سياقُ العبورِ هذا فيصيرُ قدّامَ أَعْيُنِنَا ولم نَخُطَّهُ في عبارةٍ حتى وجدناها عندَ صاحبِنا هذا. قلتُ متعجّلاً الإمامَ، وهو الشوقُ الذي بالدارسينَ للفهمِ: مثلُ ماذا وماذا؟ قالَ: هذا الأستاذُ فلانٌ المقدّمُ في علومِ السوقِ، قد أسفرَ له قلبُه وسياقُه المعيشيُّ عن فسادِ علومِه التي تخضعُ لهذا السوقِ، وتخدمُ السّدَنَةَ الواقفينَ ببابِه، فتصدّعَ وتصدّعتْ علومُه. غيرَ أنه لم يصلْ بعدُ إلى العلومِ الجديدةِ الكاشفةِ التي تأخذُ موضعَ العلومِ القديمةِ الخاضعةِ فينجو. وانظرِ الصانعَ فلاناً فإنّهُ كانَ غافلاً تحتَ حكمِ الأجرةِ، فلمّا سُرِّحَ من عملِه بلا ضمانٍ أو حقوقٍ فَهِمَ أنّ نسقَ عملِه كان ظلماً شديداً، غيرَ أنه لم يقعْ على نسقٍ جديدٍ يعملُ فيه فيطمئنُّ إليه. ثمّ انظُر إلى فلانٍ الذي سهَى عن أحوالِ القلبِ عُمراً، فإنه سكنَ أولاً ثم تململَ قلبُه من حالِ الخواءِ وطلبِ الأشواقِ ولذّةِ الحبّ. فتهافتَ ما كانَ فيهِ من سكينةٍ غافلةٍ غيرَ أنه لم يدخلْ إلى حالٍ جديدٍ من العشقِ الغالبِ. فهؤلاء جميعاً هم في سياقِ العبورِ من جهةِ أن السياقَ القديمَ الذي كانوا فيه فسدَ وتفكّكتْ بِنْيَتُهُ، غيرَ أن السياقَ الجديدَ اللازمَ لهم لم تتهيّأ أركانُه الكاملةُ بعدُ. قلتُ: فهُم في بأسٍ؟ قالَ الإمامُ: امضِ إليهم وشاهدْ أحوالَهم، تَجِدْهُم في اضطرابٍ وحزنٍ يَبينانِ للعارفِ الذي يتصلُ بهم وينشغلُ بأمرِهم. قلتُ: فكيفَ تكونُ الفزعةُ لهم؟ قالَ الإمامُ: لا علمَ لي، فإنّ أمماً تدخلُ إلى هذا السياقِ زمناً حتى تتفتّتَ قلوبُ أبنائِها لا يقدرونَ أن يرجعوا للقديمِ، ولا يعرفونَ أن يُقيموا الجديدَ. قلتُ أنا موسَى: لعلَّ هذا يقعُ على عاتقِ المناهضينَ الذين هم في أوّلِ الصفوفِ، يحثُّونَ أنفسَهم والخلقَ أن يُقيموا علومَ السياقِ الجديدِ، ويَنْظِموا أوّلَ السبيلِ إليه، ويُصلِحوا من شأنِ عتبتِه التي يقفُ عليها الناسُ من ورائِهم ثم يدخلونَ.

وقالَ لِيْ: الذي يصلُ جهةَ الخلافةِ يَتَشَوّقُ الرحلةَ الذي وصلَ بها.
وقالَ لِيْ: أنتَ في آخرِ الأمرِ شوقٌ ركضَ الطريقَ إليَّ.
وقالَ لِيْ: الشوقُ الراكضُ يُطلِعُ الزهرَ والعلومَ والخلافةَ ثم يَضِجُّ به قلبُك كأنّكَ مازلتَ في أوّلِ الطريقِ.
وقالَ لِيْ: الشوقُ الراكضُ يحفظُ للرحلةِ عبيرَ البكارةِ الذي تضوّعْتَ به حينَ دخلتَ الطريقَ أوّلَ مرّةٍ.
وقالَ لِيْ: شوقُ الرحلةِ حنينُك إلى اسمِك الذي كُنْتَهُ، ورِفقتِك التي أحاطتْ بك، وحكاياتِك التي سَردتْها فأخبرتْ هي عنكَ.
وقالَ لِيْ: من يشتاقُ إلى الرحلةِ الذي وصلَ بها، وصلَ مرّتين.[18]
وقالَ لِيْ: من دخلَ على العرشِ فتوحّشَ سبيلَه، ورفاقَه، واسمَه، رَقَّ له العرشُ

---

[18] دخلَ جماعتَنا أنيهو يولوغي وهو رجلٌ من أرضِ التوغو كانَ يعبدُ اللهَ علَى منهجِ أسلافِه، فيجعلونَ للشجرِ روحاً، وللحيوانِ روحاً، وللريحِ والمطرِ والضوءِ والظلمةِ. فتسمّى بِاسمِ عبدِ الله. فبعدَ سنينٍ سمعَه تلميذٌ يبكي في آخرِ الليلِ بصوتٍ شجيٍّ وهو في دارِه بزاويتِنا. فكلّمَ الإمامَ أحمدَ فدخلَ على التوغوليّ وحلفَ عليهِ أن يخبرهُ بحالِه، فقالَ الرجلُ: قد خطرَ عليّ قومي في أرضِ التوغو، ولغوتَنا، وملبسَنا، وزينةَ أجسادِنا، وتذكّرتُ محافلَنا وأعيادَنا، فتوحّشتُ وأنا بأرضِكم، وهي غاليةٌ عليّ ولا تَحِلُّ محَلَّ أرضِ آبائي. فرقَّ الإمامُ لحالِه وقالَ له: فهلّا صنعتَ شيئاً من تماثيلِكم، أو زينتِكم، أو خطوطِكم، فآنسَتْكَ في هذي الدارِ، وعرفْنا نحن شيئاً من آدابِكم وفنونِكم وروحانيَّاتِكم؟ فطربَ الرجلُ للفكرةِ وصارتْ دارُه بعدَ وقتٍ تذكاراً لحضارةِ القومِ، ومشاهدِهم، وتجلياتِ قلوبِهم. وتعلّمَ تلاميذٌ منا زُخرفتَهم وبعضَ خطِّهم وحسابِهم. حتّى سمَّينا دارَ الرجلِ "التّوغو" فصرنا نغدو إلى التوغو ونروحُ عن التوغو ونتسامرُ في التوغو.

حتى يستوي له قبلَ أن يَستوي هو عليهِ.

وقالَ ليْ: الوحشةُ إشارةٌ بالقلبيةِ الغامرةِ لأنّها تُحِيْلُ إلى الشّوقِ الذي هو اشتباكُ الفردِ بالعالمِ، واختلاطُ الجماعةِ بالأشياءِ، والتباسُ المعاني بالأسماءِ.

وقالَ ليْ: الإنسانُ الفردُ خليفةٌ باسْمِه الأحدِ ومعناه الجامعِ، فلا الجماعةُ تَبْتَسِرُهُ ولا هو يَطغى بجوهرِه الفريدِ.

وقالَ ليْ: الفرديّةُ نداءُ التخومِ والجماعيةُ نداءُ السُّبُلِ والشّعابِ.

وقالَ ليْ: التخومُ أوسعُ رؤيةً من الشعابِ غيرَ أن الشّعابَ أشدُّ توغُّلاً.

وقالَ ليْ: التخومُ غوايةُ الحريةِ، والشعابُ نداءُ الكدحِ والعدلِ والرفقةِ.

وقالَ ليْ: الحكمُ أن تحكمَ أمرَك لا أمرَ غيرِك، والخلافةُ أن تُستخلفَ في نفسِك ثمّ في الكونِ.

وقالَ ليْ: الذين يظنّونَ أن الخلافةَ في الكونِ أولاً لم يكلِّموا الأشياءَ، ولم يفهمُوا عن العناصرِ، ولم يروا المعاني والأسماءَ.

وقالَ ليْ: حرثُك في الأرضِ، وكدحُك في الحديدِ، هو مجاهدةٌ في قلبِك قبلَ أن يكونَ مكابدةً في جسدِ الكونِ.

وقالَ ليْ: الخليفةُ الحقُّ خليفةُ نفسِه لأنّ من امتلَك زمامَ أمرِه انقادَ له العالمُ.

وقالَ ليْ: الذي يصيرُ في قلبِك وأنتَ تحرثُ الأرضَ هو الخلافةُ.

وقالَ ليْ: حرثُ الأرضِ وكدحُ الحديدِ توسُّلٌ إلى الخلافةِ التي تَتّقِدُ في صُوَّانِ قلبِك.

وقالَ ليْ: الذين يَبنون الممالكَ، ويُعمّرون المدائنَ، ويُنشؤونَ الحواضرَ، ثم لا تَتّقِدُ الخلافةُ في قلوبِهم لم يَشتبكوا مع الكونِ ولكن شُبِّهَ لهم.

وقالَ ليْ: الذين يريدون اتّقادَ الخلافةِ في قلوبِهم دون أن يركُضوا الأرضَ بأقدامِهم، ويخترقوا الفضاءَ بعلومِهم، لم يتّقدوا ولكن شُبِّهَ لهم.[19]

وقالَ ليْ: اتّقادُ القلبِ العاملِ دخولٌ به إلى أرضِ الخلافةِ عفواً لا جائزةً.

وقالَ ليْ: اتّقادُ القلبِ العاملِ اتّساقٌ لهيئةِ الكونِ وانتظامٌ لعِمارةِ الإنسانِ.

---

[19] كنا في الطريقةِ نخلطُ العلومَ بالعملِ والمناهضةِ اللازمةِ لإقامةِ الخلافةِ في الكونِ. فنفوزُ وقتاً ونَخيبُ وقتاً ووقتاً. قالَ تلميذٌ في أوّلِ الطريقِ: أصيرُ خليفةً في نفسي ثم أنشغلُ بالكونِ. فانقطعَ عنا سنينَ يقرأُ ويعملُ ويمشي بين الأحوالِ مشياً طيباً، حتى أحسَّ في نفسِه حضرةَ الخلافةِ. فتعمّمَ بها وجاءَنا فقالَ: الآنَ انخرطُ. فلمّا قدمناهُ لخلافةِ الكونِ ظهرَ له استعدادٌ في حاجاتٍ بعينِها متعلقةٍ بما تمرّنَ عليه في وقتِ انقطاعِه. قلتُ: وهذا مثالُ فهمِه النظريّ لروابطِ الظلمِ، وهيئاتِ الاجتماعِ، وحسابِ الحركةِ والتاريخِ. غيرَ أن التلاميذَ الذين فارقَهم، وظلُّوا يخوضونَ في خلافةِ الكونِ وخلافتِهم في وقتٍ واحدٍ، صاروا أعرفَ منه بالحوادثِ المتعيّنةِ، والخصوصياتِ الاجتماعيّةِ، وصيرورةِ الحركةِ في سياقِ اليومِ الواحدِ عندَ الناسِ. فبعدَ وقتٍ فهمَ التلميذُ بالشهودِ أنه متأخّرٌ في المشيِ في غالبِ الطريقِ. فكلّمَ الإمامَ فقالَ: يا إمامُ، إني تجهّزتُ وأعددتُ العدّةَ وتمكّنتُ من نفسي، ثم جئتُ التلاميذَ وهم لم ينقطعوا كما انقطعتُ، فلم أجدْ في نفسي سبقاً عليهم بل هم السابقونَ.

قالَ الإمامُ: لأنّكَ لم تفهمِ الرابطةَ بينَ خلافتِك في نفسِك "ثم" خلافتِك في الكونِ فظننتَ "ثُمَّ" هذهِ قاطعةً، وإنما هي في هيئةِ الدائرةِ المتصلةِ. ومثالُ ذلك اتصالُ اسمِك وفعلِك. فإنّ اسمَك الإنسانيَّ يبادرُك إلى الفعلِ في العالمِ، ثم هذا الفعلُ يقيمُ اسمَك الذي يستأنفُ فعلَك في دورةٍ كاملةٍ. فأنتَ تصيرُ خليفةً في نفسِك باتصالِك بخلافةِ الكونِ التي تعودُ فتقيمُك خليفةً في قلبِك قبلَ أن تجلسَ على عرشِ الأرضِ أو تحكمَ في الغلالِ والبساتينِ.

وقالَ ليْ: الذين يتّقدون بالعملِ في القلبِ، وهو محلُّ الحبِّ، أضاءَ لهم الكونُ كلّه من جهةِ أنّهُ محلُّ الشّوقِ والوصلِ والوطءِ.

وقالَ ليْ: أنتَ اتّقدتَ في المواسمِ فعقدتَ الحبَّ بالعملِ، ووصلتَ قلبَك بيدِك، وأسندتَ جوهرَك الفردَ إلى سياقِك الجامعِ، وأشركتَ اسمي في أسمائِك الحسنَةِ.

وقالَ ليْ: كلُّ مواسِمك اتقادٌ للبيادرِ التي أنضجتْ خبزَ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: المواسمُ التي أَتَتْ بكَ إلى حصادِ الخلافةِ من الخلافةِ، والجهدُ الذي اختلطَ ببدنِك لا يفارقهُ حين تدخلُ إيوانَ الخلافةِ.

وقالَ ليْ: المواسمُ الخارجةُ تكدحُها فتدخلُ قلبَك فتصيرُ بعضاً منكَ، حتّى إذا وصلتَ كانت هيَ معجونةً بك لا تَنْفَكُّ عنكَ وأنت في دارِ الوصولِ.

وقالَ ليْ: أخبرْ عن مواسِمك التي كدحتَ، وعلومِك التي حرثتَ، ومقاماتِك التي دخلتَ، واقرأ عليّ عبارتَك التي نَتجَتْ عن قلبِك كما ينتجُ القمحُ عن السّنبلةِ.

وقالَ ليْ: اصدعْ بحديقتِك لأنّكَ الآنَ تقولُ الكلامَ الجليلَ الذي لم تقدرْ عليه من قبلُ، وتُحَدّثُ بالمعاني الفخمةِ التي لا يعرفونَها إلا وهماً وتشبيهاً، وتتنزّلُ كالرُّؤَى الباهرةِ وهم مأخوذونَ بالعباراتِ المطفأةِ والمجازِ المبتذَلِ.

وقالَ ليْ: اجمعْ حولَك الأحبةَ الذين عرفوا الكتابَ كأنفسِهم وانتظمُوا في عِقْدِ النُّبُوَّاتِ، واحتمَلوا قلوبَهم بين أسِنّةِ الحبِّ، وقالوا اتلو علينا الكتابَ الذين صنعتَه من الكدحِ، واعرُجْ بنا علَى السِّدْرَةِ، وادخل بنا إلى العرشِ، وشَبِّهْ لنا ما بعدَهُ، وهَبْ لنا من جسدِك مُضْغَةً نتقوّتُ بها، ومن قلبِك شهوةً تَغْلِبُنا، ومِنَ اسمِك حُكماً وعِلماً وسَكَراً طيباً، تجذْنا نؤولُ إلى جوهرِك الفردِ، وتُحيلُ إلى معنانا الجامعِ، فيكونُ من ذلك فرحٌ ومسرّةٌ للخلفاءِ الحاكمينَ.

وقالَ ليْ: الأحبّةُ الذينَ يعرفونَ الحديقةَ يجمعونَ الكتابَ في الصَّحائفِ ومن الرِّقاعِ يقولونَ هو بأيدِينا. ويُكلِّمون الناسَ باللّوحِ الذي أخرجوهُ من تربةِ الأرضِ يقيمونَ الصّلاةَ التي مَحَلُّهَا القلبُ. ثم يُسَلِّمُونَ علَى الشِّيَاهِ، ويبوسونَ جبينَ الإنسانِ، ويعملونَ خبزاً ولبناً وعسلاً. حتى إذا انتظمَ الخلقُ في عِقْدِ المشاركةِ انبثقُوا إلى تخومِ الهجرةِ يريدونَ حُبّاً، وبَعضاً من الشّوقِ، ووَصْلاً، وشيئاً شديداً.

***

وفي ليلةٍ مباركةٍ، بعدَ يومٍ جهيدٍ، أخذَنا سمرٌ طيّبٌ، فاجتمعَ حولي الأحبّةُ، وأكلُوا من زادي هَنيئاً، وشَربوا منْ خمري مَريئاً. وحَلفوا عليّ إلا قصصتُ عليهم الخبرَ، وكيفَ كانَ منْ أمرِ غيبتي وسَعيي وفَلاحي. فنظرتُ إليهم فإذا همُ محبّةٌ خالصةٌ، وإنسانيةٌ عاملةٌ، وإذا عيونُهُم سلامٌ، وأيديهمُ صدقٌ، وكلامُهُم شوقٌ، وإذا هُمْ أجملُ من كلِّ معنًى، وأجلُّ منْ كلِّ عملٍ، وأحْلى من كلِّ حديثٍ. فحمدتُ الرحمنَ وصلّيتُ عليهم جميعاً، وتوكّلتُ على الإنسانِ الأوّلِ، وسبّحتُ اسمَ الإنسانِ الآخرِ، وقلتُ:

"فيْ الصّبحِ الأوّلِ منْ زمنِ الغَيْبَةِ، خرجتْ الشّمسُ محتجبةً بغبار الأشياءِ،
وقد تشقّقَ أديمُ الأرضِ من عطشٍ، وصافَ نباتُها من جوعٍ.."

فالحمدُ للهِ على هَنِيّ العَطَاءِ، أَجْزَلَهُ بالعملِ، وأجراهُ بالعدلِ، وأثبتَهُ بالمحبّةِ. والعزّةُ لمن بيدهِ الأمرُ. هو الإنسانُ العاملُ بلا أجرةٍ، الكادحُ بلا ربٍّ، الشغّيلُ بلا جِبايةٍ أو مُكوسٍ. وسبحانَ الله الرحمنِ الرحيمِ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ.

تمّ في ليلةِ التاسع والعشرينَ من وقتِ
ربيعٍ الثاني لعام ثلاثةٍ وسبعينَ وثلاثمايةٍ
وألفٍ لهجرةِ النبيِّ العربيِّ الموافقة لليلة
الرابعِ والعشرين من شهرِ ديسمبر سنة
1954 لميلادِ عيسى بن مريم. بالمسجدِ
العتيقِ، بواحةِ غدامسَ السالمةِ، حفظَ
اللهُ أهلَها، وباركَ في حرثِها ونسلِها،
ودفعَ عنها كلّ بلاءٍ. خطّهُ بيدِه العاملُ
الفلاحُ آخمدو بن سالمٍ، على مبدءِ
السّماع من شيخِه الخليفةِ بلخير، وهو
عبدُ الرحمن بنُ محمّدٍ بن عبدِ السلام
الغدامسيّ. اللهمّ اجعلهُ في كتابِ حسناتي.

الرسالة اليمانيّة
في أوّل عمارِ غدامسَ البهيّة

خَبرٌ عَجيبٌ تَقدّمَ عَلى أمْرِ الحَديقةِ الغدامسيّةِ، ضَنَنْتُ به مِنْ قَبْلُ، وأخرجَه من صَدري صاحبٌ يَنْشُدُ العِلْمَ فاستحيتُ منهُ

قال أبو الحارثِ موسى:

سَمعتُكَ، حفظكَ الله، تقولُ: "ما جمعكَ ببلدةِ غْدَامَسَ هذهِ، فشددتَ إليها الرِّحالَ، وعلّقتَ عليها الآمالَ، حتى نزلتَ مسجدَها، وأدّيتَ فرضَها، وشَهِدْتَ مواسمَ حجِّها وصومِها، وهيَ أرضٌ بَعُدَ مَطلُوبُها، وأَوحَشَتْ دروبُها، واشتدَّ حرُّها، وقرَّ بردُها، فلقيتَ الأستاذَ الغدَامِسِيَّ ذاكَ، فاستضافَكَ في دارِهِ، وأطعمَكَ من زادِهِ، فكانَ ما كانَ من حديثِ المخطوطِ العجيبِ، وأمرِ الحديقةِ الغريبِ، وأحوالٍ لم تَصِلْنَا عنْ غيركَ، وأخبارٍ لم تحفَظها صدورُ الثُّقاةِ منَ الرِّجالِ".[1]

فأقولُ إنّ هذا، عافاكَ اللهُ، منْ حالِ جهلِكَ بأحوالِ البُلدانِ، وغفلتِكَ عن بركاتِ الأعمالِ والمُجاهدةِ. فغْدامِسْ بلدٌ طيّبُ الهواءِ، حَسَنُ البناءِ، أهلُها كرمٌ باذخٌ، وشيوخُها عِلمٌ راسخٌ. فأمّا حالُ اجتمَاعي بها فإن لهُ خبراً هُوَ أعجبُ ممّا ذهبَ منْ أخبارٍ، وأغربُ من ترتيبِنا لما سَلَفَ، فاسْمَعْهُ تَفهم سرَّ هِجرَتِي الأولَى للبلدةِ الطيِّبةِ في الشّهرِ المُباركِ، لعلَّ بابَ خيرٍ يُفتَحُ لكَ من حيثُ فُتِحَ لي، وطريقَ فلاحٍ يستبينُ لكَ كما استبانَ لي. فإنِ استغلقَ عليكَ الحديثُ عاوِدْهُ، ولا يَكُنْ مُقامُ جهلِكَ أَثبتَ على قلبِكَ مِن مُقامِ علمِكَ، أيّدكَ الله بعلمٍ منْ لَدُنْهِ وفيضِ عَطائِهِ.

[1] راجعْ، حفظَك الله، أوّلَ هذا الكتابَ، عندَ البابِ الذي أسميتُه عتبةَ الحديقةِ، لتَنْظُرَ حكايتي مع الأستاذِ بشيرٍ بنِ ضوءٍ بنِ خيرِ الدينِ وكيفَ وجدتُ عندَه مخطوطَ الحديقةِ الغدامسيّةِ وبعضاً من أخبارِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ الغدامسيّ.

قالَ أبو الحارثِ موسَى:

كنتُ شاباً غِرّاً، ذا صحّةٍ وجمالٍ، وصولةٍ وخيالٍ، وصرعةٍ وفُتوّةٍ. وقد فَرشتْ لي الدنيا بساطَ الأملِ، وأرختْ عِنانَ اللذاتِ. فوالله ما يَهمُّ قلبي شيءٌ يَهُمُّ الناسَ، ولا يُكَدِّرُ حالَهُ أمرٌ من أمورِهم، وقد أخذَني الزّهوُ بالباطلِ، والخُيلاءُ بالغُرورِ. فلمْ أفقهْ علّةً لمعيشَتي، أو معنىً لجهدي وقوّتي. وكنتُ قبلها درستُ علومَ القومِ حيناً من الدهرِ، أحوالاً ومقاماتٍ وأسراراً، فحفظتُ شيئاً وضيّعتُ شيئاً كثيراً، فلم يَتّقِدِ القلبُ ولم يتوهّجِ الاسمُ، اسمي أو اسمُهُ هو.

حتّى كانَ رمضانُ المباركُ عامَ **1418** لهجرةِ النبيّ، الموافقِ للعامِ **1998** افرنجيّة، فألَمَّ ببدني داءٌ عُضالٌ، حيَّرَ الأطباءَ، وقَصرَ دونَه الدّواءُ. فظللت أياماً طريحَ الفراشِ، واهنَ القِوَى، حتى استبدّتْ بيَ الحمَّى، واشتدَّ الألَمُ، وظننتُ أني بَلَغْتُ أجلي ووَفَّيتُ أيامي.

وفي ليلةِ السابعِ والعشرينَ منهُ دَنتْ منِّي أمي، أطالَ الله في عمرِها وأدناها من الجنةِ، فقبّلتني في جبينيَ المحمومِ وقالتْ: أيْ ولدي! أرى الداءَ عليكَ اشتدَّ، والعِلَّةَ فيكَ استقرَّت، وقد سلَّمَ الطبيبُ بالعجزِ، وأنتَ علَى ما أنتَ عليهِ، فإنْ رأيتَ أن تسمعَ قولَ أمّكَ أشرتُ عليكَ بما فيه الشفاءُ، والبرءُ منَ الداءِ إنْ شاءَ الله، دعاءُ أمٍّ أدعوهُ، وكلامٌ كريمٌ أتلوهُ، وشرابُ خيرٍ تحسُوهُ فتقومُ مُعافَى، وهو علَى الِله هَيِّنٌ.

فلما ابتسمتُ مشفقاً عليها، وأومأتُ بالقبولِ إليها، قامتْ، رعاها الله وقدَّرَني على بِرِّها، فجاءتْ بوُرَيقاتٍ مخطوطةٍ، وأعوادٍ زكيةٍ، وشرابِ زهرٍ جعلتْهُ في كأسٍ صغيرٍ. فرأيتُها وقد أَوقدتِ البخورَ، ونثرتْ عليَّ حظاً منَ الشرابِ وسَقتني حظاً، وغطّتْ جبيني وصدري بالورقِ المكتوبِ، ثمّ طفقتْ تُمهمهُ بكلامٍ مُبهمٍ اختلطَ قرآنُهُ بدُعاءٍ، وترتيلُهُ بما أشبهَ الغناءَ.

فما وَعيتُ بعدَها شيئاً حتى الفجرِ. فكأنّي حينَ نفضتُ عنْ بدني رداءَ النومِ، لبِستُ رداءَ العافيةِ، وإذا أَنا في أتمّ صحةٍ وأحسنِ حالٍ. فبينما أنا أتضوّعُ طيبَ البخورِ، شاكراً فضلَ الرّحمانِ، أخذني الفضولُ إلى تَفَقُّدِ هذهِ الأوراقِ المسطورةِ، والصحائفِ المنثورةِ، فإذا هيَ بعضُ مخطوطٍ قديمٍ تآكلتْ أطرافُهُ، وبَهَتتْ سطورُهُ، وامّحتْ كلماتُهُ. تقارَأْتُهُ فعصَى عليَّ متنُهُ، والتبستْ عبارتُهُ. فناديتُ أمي وقلتُ:

أيْ أمي! إني قدْ أمسيتُ عليلاً، وأصبحتُ كأنْ لمْ يمسسني ضُرٌّ! فكيفَ ذاكَ؟ وما حالُ هذيْ الصحائفِ وأنتِ لا تقرئينَ؟

فرأيتُها تلهجُ بحمدِ اللهِ على سلامتي وقدْ اغرورقتْ عيناها الرحيمتانِ بالدّموعِ، ثمّ قالتْ، الصادقةُ سليلةُ الصادقين:

أيْ بُنَيّ! لمّا أَوقعَ الله بين أراذلِ الرُّومِ فتقاتلوا[2]، أفسدوا على الناسَ أرزاقَهم

[2] عَنَتْ بذلكَ، حفظَها اللهُ، الحربَ العالميةَ الثانيةَ (1939–1945م).

ومعائِشَهم، فأصابَ أهلَكَ، ببادية "سِرْتَ" المجاهدة، شرٌّ عظيمٌ. فعزَّ الطعامُ، وعمَّ المرضُ، وماتَ خلقٌ كثيرٌ. وكانَ أبوكَ، رحمهُ اللهُ، فتًى في الرابعةِ عشرةَ، فاستولَى عليه داءٌ عضالٌ أوهنَ بدنَهُ، وأجهدَ قلبَهُ، حتى ظنَّ القومُ أنه بلغَ أجلهُ ووفّى أيامَهُ. فبينما هو كذلكَ إذْ مرّ بالنجعِ رجلٌ صالحٌ من أهلِ بلدةِ غْدامِسَ، بَيّنُ التقوَى، جليُّ العلمِ، عليهِ ختمُ الولايةِ، وسيماهُ المرابطينَ، قد قاربَ الثمانينَ أو زادَ، فلمّا علمَ أهلُ أبيكَ أنّ الشيخَ جاهدَ الرومَ في الهاني وملاطِمِ القُرضابيّةِ وتاقْرِفتْ، وهو في وقتِه آيبٌ منَ الحجِّ، هتفتْ بهِ جدّتُكَ أنْ يا شيخَ الجهادِ السَّنِيّ، وزائرَ النبيّ العربيّ، أَدرِكِ ابني ببركاتِ أعمالِكَ.

فأخذَ الرجلُ الصالحُ يقرأُ على رأسِ أبيكَ القرآنَ، ويسقيهِ الشرابَ يصنعُه بيديه من النُّوارِ، ويأمرُ له بالتمرِ والعسلِ حتى شفاهُ بإذنِ اللهِ. فتهلّلَ له قومُ أبيكَ وأحبُّوه وأكرموهُ. ثمّ أنّ الشيخَ استطابَ البقاءَ في النَّجْعِ فلازمَ أهلك وَقتاً، أَمَّ فيهِ الصلاةَ، وعلّمَ الصبيانَ، وآلفَ القلوبَ، وحلّتْ بركتُهُ في النّجوعِ والوديانِ. وكانَ رحمَهُ الله يقولُ: هذا بلدٌ طيّبٌ ورحمٌ طيّبٌ يكونُ منها الخيرُ بإذن الله.

فلمّا أتمَّ العامَ هتفَ به منادي الرّحيلِ فأجابَهُ، وذَكَرَ لِلَّا وعيالاً له بغدامسَ ومسجداً وطلابَ علمٍ. فبكَى لذلكَ الرجالُ، وذَهَلَتِ النّسوانُ، وقامَ القومُ جماعاتٍ جماعاتٍ فمشوا معه ثلاثةَ أيامٍ، وحلفُوا عليهِ أن يأخذَ ناقةً شديدةً كانتْ لجدِّكَ، فمضَى بها، ولم يُسمَع له خبرٌ بعدَها. وذهبَ ما تركهُ من أوراقِ علمٍ إلهيّ، وأذكارِ حمدٍ ربانيّ إلى جدّكَ فأبيكَ فأمكَ.

وإني واللهِ رأيتُ أباكَ يَتَطَبَّبُ بهذي الأوراقِ المباركةِ المرّةَ بعدَ المرّةِ فيكونُ منها البرءُ والشفاءُ، وذهابُ الداءِ، وهو فَضْلُ العلمِ الطيّبِ، وحَاصُلُ المجاهدةِ الصَّادقةِ.

سألتُ: فهل تعرفينَ اسمَ الشيخِ ونسبَهُ يا أمّ الخيرِ وأصلَ البركةِ؟ فقالتْ: كان أبوكَ يقولُ أنهم كانوا ينادونَهُ بالشيخِ عبدِ الرحمنِ، وبعضُهم كان يُكَنّيهِ بـ "بلخير".

فكان هذا أوّلَ عهدي بالشيخِ الجليلِ، ومبدأَ تفكّري في أمرِهِ، وتدبُّري في أحوالِه. فأخذتُ الأوراقَ الشافيةَ وهيَ لا تزيدُ على خمسٍ، فإذا أولُها الإخلاصُ والعصرُ، ثم كلامٌ منثورٌ، اختلطتْ خطوطُهُ، والتبستْ كلماتُهُ، وتباينتْ عباراتُهُ. فعقدتُ العزمَ على فهمِه، وأثبتُّ النيةَ على شرحِه. فاجتمعَ حولٌ ثم انصرمَ، فكانَ مما كُشفَ لي وقَدرتُ على ترتيبهِ "الرسالةُ اليمانيةُ[3] في أوّلِ عَمَارِ غدامسَ البهيّةِ"، ما كدتُ أفهمُها حتى نهضَ بي شوقٌ لزيارتِها، وتوقٌ لرؤيتِها.

قلتُ: فوافقَ تمامي من المخطوطِ صيامَ العامِ التاسعِ عشرَ من هذهِ المائةِ الهجرية (سنة 1999م)، فقصدتُها من بلدةِ سِرْتَ أولَ الشهرِ الكريمِ في مسيرةِ يومٍ أو جُلِّهِ وهي مني على بُعْدِ ألفِ ألفِ مترٍ. ولزمتُ مسجدَها العتيقَ أسألُ الناسَ

[3] أسماها اليمَانيّةَ لأنّ شخصيّةَ الحكايةِ الأساسيّةِ تبدأُ رحلتَها تجاهَ أرضِ واحةِ غدامس من أرضِ اليمنِ السعيدِ نصرَهُم اللهُ، وناصرَهُم، ونصرَ بِهم.

عن الشيخِ عبدِ الرحمنِ وأخبارِه، ورسائِله وتصنيفاتِه، وتلاميذِه وحوارِيّيِهِ، حتى كانَ ما كانَ من خبرِ مخطوطِ الحديقةِ الغدامسيةِ والأستاذِ بشيرٍ بنِ ضوءٍ بنِ خيرِ الدينِ الذي استضافَني وسلفَ ذكرُه صَدْرَ هذا الكتابِ.

وهذا تحقيقُ الكلامِ في أوّلِ عَمارِ هذهِ البلدةِ المباركةِ، الذي داوتني به أمّي أولَ الأمرِ، ومازلتُ واللهِ كلّما قرأتُهُ شاقَني هواؤُها وظلُّها، وكدتُ أن أقومَ عن زوجتي وعيالي إليهَا:

"الرسالةُ اليمانيةُ في أَوّلِ عَمارِ غدَامِسَ البهيّة"

قالَ السيّدُ المهاجرُ، الخالصُ المحبَّةِ للخلقِ، الرّاجي الرحمةِ من اسمِ الرحمةِ، العارفُ باللهِ الشيخُ بِلخير عبدُ الرحمنِ بنُ محمدٍ بنِ عبدِ السلامِ البستانِيّ الغدامسيّ، المعروفُ بالخليفةِ:

اعلم، حفِظكَ الله، أنّ أولَ عَمارِ هذه البلدةِ الطيّبةِ، والقريةِ المباركةِ، كانَ منْ نسلِ رجلٍ يقالُ لهُ أبو سَلْمَى غيثٌ بنُ رَواحٍ، من المتنِ اليمانِيّ. وخَبَرُهُ أنه ما باتَ يوماً في محلٍّ أصبحَ فيهِ. فكان يجوبُ الأرضَ بعدَ الأرضِ، ويطوي المفازةَ بعدَ المفازةِ. فظلَّ علَى حالِهِ هذا ثلاثينَ حولاً ونيفاً، لا يُرفعُ لهُ بيتٌ، ولا يُقامُ حجرٌ، ولا يجرؤ علَى رأسِهِ سقفٌ. فجازَ الحجازَ وسيناءَ وأرضَ النيلِ وصحراءَ

سيوةَ وباديةَ سرتَ والسوداءَ[4] حتى حلَّ بأرضِ الجبلِ[5]، ونزلَ عنهُ يريدُ برَّ السودانِ.

فبينما هو يسيرُ في الحمراءِ[6] أَخذتْهُ ريحٌ شديدةٌ، أقامتِ الرّملَ، وحجبتِ الطريقَ، وأَفزعتِ الرّاحلةَ فطارتْ بما حملتْ من زادٍ وآلةٍ، وقدْ تعلّقَ الترابُ بالجوِّ بلا نزولٍ، واستمسكَ بلا فصالٍ. فأصابَهُ من ذلك كربٌ عظيمٌ. وأدركَ الرجلُ أنّهُ هالكٌ لا محالةَ، وأنهُ لا يصبرُ على الماءِ يومينِ، معَ غيبةِ الوجهةِ، وامّحاءِ الأثرِ.

فإذا هو بالرمقِ دعا ربّهُ أنْ نّجني بما قدمتُ. فخرجَ له ملاكٌ أسودُ البَشْرةِ، أخضرُ الثيابِ، بهيُّ الزينةِ، اسمُهُ أسيرم بنُ أمروي، فقال: يا حبيبَ اللهِ، فأين سِدرتُك؟[7] فقال أبو سَلمى: إنما أنا رجلٌ سيّار.[8] فقالَ الملَكُ: فإنّا نُسيّر إليك ما لمْ ترهُ عينُكَ، ولا سمعتْ به أُذُنُكَ، ولا خَطَرَ بقلبِكَ قطّ، فانظرْ ما ترَى. فإذْ بالغبارِ يجلو عن صفاءٍ، والريحِ تكشفُ عن هُدُوّ. وإذْ بالأفقِ واحةٌ ظليلةٌ، ونخلٌ بهيٌّ، وماءٌ طيبٌ، وحيوانٌ كثيرٌ. فأعجبهُ ما رأى، وأثنَى على الرحمانِ. وقرَّ أن يبيتَ

---

[4] لعلّها جبالُ السوداءِ شمالي واحات الجُفرةِ الليبيةِ.

[5] لعلهُ الجبلُ الغربي جنوبي اطرابلس.

[6] هي الحمادةُ الحمراءُ الممتدّةُ جنوبَ الجبلَ الغربيّ في طريقِ القوافلِ إلى برِّ السودانِ، الذي هو النيجرُ وتشادُ، عبرَ غْدامِس.

[7] إشارةٌ إلى سدرةِ المنتهَى. يسألُه أيّ أرضٍ يريدُ وأينَ مُنتهى تجوالِه.

[8] يشيرُ بذلكَ إلى الآيةِ القرآنيّةِ "قلْ سيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ بدأَ الخلقُ".

ليلتَهُ تلكَ حيثُ أصبحَ بالمكانِ الغُفل. ففعلَ. وفي صُبحِها ألقَى العصَا، واستثقلَ حملَها. فاستبطأَ نفسَه يومين، شربَ فيهما من ماءِ الواحةِ، وأكلَ من رُطَبِها، واستظلّ بفَيئِها، وتنفّسَ ريحَها قِبليّاً و بحريّاً.

فبينما هو يُسَوِّفُ ويستمهلُ إذْ بالقوافلِ تغدو وتروحُ، فيبيعُ الناسُ ويشترونَ، ويُعرِسونَ ويندبونَ، ومنهمْ من يبيتُ ليلةً ، ومنهمْ من يبيتُ جمعةً. فرأى أبو سَلْمَى أن يُظِلَّ نفسه بصُفّةِ نخلٍ، ففعلَ. ثمَّ رأى أن يُقوّيها بالطينِ يجعلهُ على هيئةِ القالبِ. ثمّ بدا لهُ أن يحفظَ سرَّهُ عنِ العابرينَ بصُفّةٍ أخرَى جعلَها من حجرِ الرّملِ. فما درَى إلا والدارُ ارتفعتْ، والحوائطُ انتصبتْ. فتعجّبَ من حالِه وكيفَ تبدّلَ.

وفي حولِه مرضتِ امرأةٌ بقافلةٍ، فظنّوها هالكةً يومَها ذاكَ، اسمُها تالَه بنتُ تمدورت. فداواها ابنُ رَواحٍ بما عرفَ من تطبيبِ الأعرابِ، وعلمِ الأعشابِ، حتى شفَاها الله على يديهِ. فلما قامتْ، وكانتْ سيّدةً في قومِها ونفسِها، وَهَبَتْهُ نفسَها ورَواحلَها بما حملنَ. فكانَ أنْ دَخلَ بها من لَيْلَتهِ تلكَ. وجعلا منْ ذلكَ مبدأَ معاشٍ وتجارةٍ، وزينةٍ وعمارٍ، فأنسَلا ستّةَ صبيانٍ وتسعَ بناتٍ. وتكاثرَ خِلْفُهما واختلطَ معَ من جاءَ الواحةَ مُستسقياً أو مستظلاً، وحدثَ من ذلكَ خلقٌ وعمرانٌ عظيمينِ.

وفي تمامِ الثلاثينَ حولاً رأى أبو سَلمَى، فيما يرى النائمُ، الملَكَ الكريمَ وقد أتاهُ

للزيارةِ والسؤالِ عن الحالِ، فجعلَ يُحادثُه بحديثٍ طيّبٍ كانَ ختامُهُ أنْ أنشدَ المبعوثُ الربانيُّ: إيهِ أبا سَلْمَى:

هَوَيْتَ الرَّحيلَ حتَّى اهتَدَى
بكَ النَّجمُ ، واسْتَوحَشَ الإنْسُ
وَذُقْتَ القُعودَ حتَّى استَوَتْ
لكَ الدَّارُ، والزَّرعُ، وَالكَدْسُ
لِكُلٍّ حمَلتَ حِيْناً هَوىً
فَإنْ رَاحَ مَسٌّ ، غَدَا مَسُّ

فقامَ أبو سَلْمَى وهو يلهجُ بين الفزعِ والفرحِ:

غَدَا مَسٌّ، غَدَا مَسُّ.[9]

فكانَ من ذلكَ ما كانَ، وأضحتِ الوّاحةُ زينةَ الدّنيا، ودُرّةَ العالمينَ. ولنا في ذلكَ تفصيلٌ وتأويلٌ. وسبحانَ المريدِ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ.

---

[9] فَإنْ رَاحَ مَسٌّ، غَدَا مَسُّ: أي إن راحَ عنكَ مَسُّ الترحالِ، غدَا عليكَ مَسُّ القُعودِ والتوطُّنِ، فغْدامس إذن تعني "مَسَّ القُعودِ وهَوَى التوطّنِ ووسواسَ الوطنِ"، وهي عن حقٍّ مقصدُ المسافرِ، وغايةُ الرَّاحلِ، ومُنتهَى المهاجرِ.

السيرةُ الرحمانيّةُ

مسردٌ زمنيٌّ بحياةِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ الغدامسيّ،

ومخطوطِ كتابِ الحديقةِ الغدامسيّةِ،

وإشاراتِه، وشروحِه، وطبعاتِه.

قلتُ أنا موسَى: هذا مسردٌ زمنيٌّ ميلاديٌّ، لحياةِ وعلومِ ومكابداتِ الشيخِ بلخيرِ عبدِ الرحمنِ الغدامسيّ بين الديارِ الليبيّةِ، والمغربِ العربيّ، وبلادِ السّاحلِ والقرنِ الإفريقيّينِ، حتّى نفورِه إلى القارّةِ الهنديّةِ، وتخومِ الصينِ الغربيّةِ، والبرّ الفارسيّ، ثم عروجِه إلى العراقِ والشامِ وأرضِ الجزيرةِ فدخولِه مصرَ وإيابِه للبرّ الليبيّ. وفيه ترتيبٌ لحكايةِ مخطوطِ هذا الكتابِ، كتابِ الحديقةِ الغدامسيّةِ، وإشاراتِه الخاتمةِ، وشروحِه التي رسمَها الشيوخُ والتلاميذُ، وطبعاتِه المتعجّلةِ والمطمئنّةِ.

وقد جمعتُ هذا المسردَ جمعاً ثقيلاً من أخبارِ الشيخِ المتفرّقةِ في الكتبِ والمخطوطاتِ والأوراقِ المبعثرةِ، وبعضٍ من كلامِ خطّاطِه الأمينِ آخمدو بن سالم الذي نَثَرَهُ علَى حواشِي الحديقةِ الغدامسيّةِ ونصوصٍ أخرى. وقد أخذَ المسردُ من الجمعِ والرّبْطِ وعناءِ الترتيبِ وقتاً امتدَّ لعِقدينِ من السنينِ حتّى صارَ بهذا الحالِ المتّسِقِ الذي هو عليهِ.

فأمّا المقالاتُ الفخمةُ، والرسائلُ الجليلةُ، والأبحاثُ الواسعةُ التي كتبَها الشيخُ في عُمْرِه المديدِ، فهي مقرونةٌ في المسردِ بتواريخِها التي صدرتْ فيها، وحواضِرِها التي خرجت منها. وإننا عَثَرْنا في تِرحالِنا في 22 عاماً على كثيرٍ من أوراقِها ونُسَخِها وشروحِها، في البلدانِ التي زُرناها، إما اتّفاقاً أو قصداً، نسعَى وراءَ آثارِ الشيخِ وإشاراتِه العُلْويّةِ. ولعلّنا ننشرُ منها القَدْرَ الذي نستطيعُ تحقيقَه وضبطَه ومراجعتَه، إن كُتِبَ لنا بقيّةٌ من عُمْرٍ وصحةٍ وعزمٍ، وإلا فإنَّ أحداً من التلاميذِ تَلْزَمُهُ هذهِ الأمانةُ في قادمِ الأيامِ.

بسمِ الله والحمدُ لله

1862م – مولدُ الشيخِ بِلخير، عبدِ الرحمنِ بنِ محمدٍ بنِ عبدِ السّلامِ الغدامسيّ، أوائلَ هذه السنةِ الميلاديّة، الموافقةِ للثامنِ عشرَ من رجبَ لعامِ 1278 هجريّ، ببلدةِ غدامسَ بولايةِ اطرابلس لأسرةٍ متصوّفةٍ عالمةٍ عاملةٍ.

1868 – في سنِّ السادسةِ يبدأُ في تلقّي علومِ القومِ في كُتّابِ اغْدامِس وزاويتِها القادريّة.

1874 – في الثانيةِ عشرَةَ يُتِمُّ حفظَ القرآنِ وبعضاً من كتبِ العارفينَ ويأخذُ الخِرْقَةَ الخضراءَ من شيخهِ جمالِ الدينِ بنِ نصرٍ بنِ الحُسَينِ بنِ الخليلِ، ويتّخِذُ خديجةَ وأبا ذرٍّ إمامين.

1878 – في السادسةِ عشرَةَ يخرجُ لزيتونةِ تونسَ ويجلسُ بها قرابةَ العامينِ، فيأخذُ منها علوماً، ويردُّ علوماً، ويَشْغُفُ بأرضِها وفنونِها وبناتِها.

1879 – يعودُ لغدامس ويكتبُ أوّلَ ما نعرفُ من آثارِه "الإشاراتُ الحوائيّةُ من مقامِ الربوبيّةِ".

1880 – يخرجُ للجزائرِ فيزورُ أضرحةَ أوليائِها، ويقعدُ في المدينةِ العاصمةِ عاماً ونيفاً للدرسِ، ويتعلّمُ النجارةَ وتصليحَ البنادقِ وبعضاً من شؤونِ الحيوانِ والنباتِ.

1881 – يجتمعُ بالشيخِ الصّوفي الثّائرِ محمّدٍ بنِ العربي بوعْمَامة فيُقَبّلُ يديهِ ويقرأُ عليهِ من كُشوفاتِه الفَتِيَّةِ، فيُحِبُّهُ الشيخُ المجاهدُ ويعزمُ عليهِ أن يضربَ رؤوسَ الفرنسيسِ، فيحضرُ الغدامسيُّ تحتَ إمرتِه موقعةَ صْفيصيفة السّعيدةَ ويشهدُ ذلَّ الباغينَ، فيفرحُ ويقولُ: بارودُ بوعْمامة خيرٌ من أحبارِ العارفينَ.

1881 – يرسلُه بوعمامة في بعثةٍ لأهلِ المغربِ وشنقيطَ بعدَ مؤتمرِ مدريدَ الذي تقاسمتْ فيه القُوَى الأوروبيّةُ النفوذَ في ديارِ المغربِ، واغتصبتْ زرعَ البلادِ وضَرْعَهَا في وقتِ السلطانِ الحسنِ الأولِ. فيخرجُ الغدامسيُّ عن طريقِ الصحراءِ إلى فاسَ ومراكشَ ويقيمُ بهما عاماً يكلّم الناسَ عن فتوحاتِ بو عمامة وأنصارِه.

1882 – يكتبُ نصوصاً مُعَلَّلةً يقرأُها علَى أهلِ المغربِ وصلَنا منها أوراقٌ مفرّقةٌ أكملُها "البَيّنَةُ الحَسنيّةُ في ردِّ المظالِمِ الإسبانيّة" و"ميزانُ السوقِ فيما بين السّلعِ من فروقٍ" وهو أولُ مانعرفُ من اهتمامِ الشيخِ الشابِّ بأمورِ الصناعاتِ والأسواقِ. قالَ أحمدو الخطاطُ: تعلّمَهُ بتونسَ من آثارِ ابن خلدونَ في العمرانِ.

1882 – ينهضُ إلى أرضِ شنقيطَ، ومنها إلى بلادِ الساحلِ: تُمبكتو، فباماكو، فأغَاديسَ، في ترحالِ ثلاثِ سنينَ.

1883 – يجتمعُ بأنصارِ حاجْ عُمر بن سعيد طَعْل الذي كان أسّسَ سلطنةَ تكرور الصوفيّةَ التّيجانيةَ بأرضِ السنغالِ ومالي، فيُعجَبون بعلمِه وعربيّتِه فيُقَدِّمُونَهُ للدرسِ في المسجدِ الجامعِ بحاضرةِ سيغو بعد أن جلسَ للدرسِ بتمبكتو، فكانَ يقولُ كلَّ جمعةٍ "إن لم تجتمعْ سيغُو وتمبِكتو، فإن پارِي تغلبُ عليهِما للتَّوْ".

فلا يمرُّ حولٌ إلا ويكونُ كمَا قالَ.

1884 – يجلسُ في أغاديسَ بأرضِ النيجرِ تحت حُكمِ كانُم وبُرنو وقد بهتتْ أنوارُهما وتباعدَ عهدُهما ويكتبُ "رفيقُ العالِمِ في بَرِّ كانُم: رسالةٌ في أممِ السودِ الحاضرةِ وعلومِهم وبلدانِهم العامرةِ".

1885 – في الثالثةِ والعشرينَ يعودُ لغدامس بعد غيابِ 5 سنين. فيجد أهلُها

عندَهُ علوماً شديدةً ومعارفَ، فيقدِّمُونَهُ للصلاةِ والدرسِ. يقولُ الخطّاطُ الأمينُ آحمدو بن سالمْ: وفيها، أي في هذه السنةِ، جلسَ الشيخُ لتصنيفِ العلومِ، وتبويبِ المعارفِ التي فتحَ اللهُ بها عليهِ في عهدِ سفرِه وترحالِه، فبينَما هو في أُهبةِ الفكرِ وقعَ على رسالةِ "الحدادةُ وضربُ الحديدِ لمن رامَ الصّناعةَ من شيخٍ أو مريد"، وهي حديثٌ في منهجِ العملِ، وسبيلِ الكدحِ، وشؤونِ اللحامِ وأشغالِ الفضةِ والنُّحاسِ. فذُهِلَ الشيخُ الشابُّ من إلهامِ الكلامِ وجِدّةِ العلمِ والربطِ الذي فيهِ بين صهرِ المعادنِ وذوبانِ القلوبِ. فإذا هو من عملِ بُنَيّةٍ يافعةٍ في السابعةِ عشرةَ، اسمُها فاطمةُ، تعملُ في الحدادةِ أخذتْها عن أبيها فأمِّها، فيزورُها الشيخُ في ورشتِها بداعي الحاجةِ والشراءِ، فيُصعقُ من حضرتِها، وتأخذُه الحُمّى أياماً كأن لم يهاجرْ في الأرضِ ولم يضربْ رقابَ الظالمينَ.

قالَ آحمدُو: فتركَ الشيخُ الدرسَ والتصانيفَ، وصارَ يتعلّمُ اللحامَ وصقلَ النحاسِ ورَقْمَ الفضّةِ عندَ البنتِ شهوراً، حتى شُغِفَ بها وشُغِفَتْ بهِ، وصارا قلباً واحداً وجسداً متفرقاً.

1885 – يتزوجُ لِلّا فاطمةَ بنتَ حامدٍ ويُنجبان الصبيانَ والبنات. ويعملان بالحدادةِ والزرعِ وبعضِ التجارةِ. وفيها كتبَ الشيخ رسالةَ "رُبُّ التّمرةِ وزيتُ الزيتونِ: كلامٌ في الشجرِ المثمرِ والمعاصرِ والماعونِ" و"الرسالةُ اليمانيّةُ في أول عمَار غدامسَ البهيّةِ".

1890 – في الثامنةِ والعشرينَ يتركُ مالَه وصناعتَه لزوجتِه، وأولادِه الصّغارِ، وبعضِ التلاميذِ، ويستأذنُ لِلّا فاطمةَ يقولُ: أريدُ العلومَ والمجاهداتِ في التخومِ والبلادِ، فإنْ أردتِ كُنّا علَى ذِمّةِ الشارعِ حتى أعودُ، وإن أَبَيْتِ أخذتِ صناعتَكِ

ومالَكِ وأولادَك وفعلتِ ما يتهيّأُ لقلبِك. فتختارُ المرأةُ الرجلَ والأولادَ والصناعةَ جميعاً تقولُ: أرقُبُكَ حتى تأتي بكَ الإبلُ السُّمْر، علَى سَنامِ الصّبر.

1890 – يخرجُ لبرِّ السودانِ عن طريقِ النّوبةِ ويجلسُ بالخرطومِ وقتاً، فيسمعُ من عارفيها ويسمعونَ منه، ويتعلّمُ من فنونِ القومِ وآثارِهم وبعضِ الشعرِ والغناءِ الذي يَتولّهونَ بهِ.

1891 – يكتبُ "إشاراتُ العمومِ وعلاماتُ الهمومِ لمن جاءَ برّ الخُرطوم"

1892 – يقرأُ عبدُ الله التّعايشِي، خليفةُ الإمامِ المجاهدِ محمدٍ المهدِيّ، "إشاراتِ العمومِ" فيحلفُ أن الغدامسيَّ كتبَها بأمرٍ غيبيٍّ من الإمامِ، وبإلهامٍ من مقامِ النُبُوَّةِ الكاملةِ، "كأنَّ الإمامَ خطّها بإصبعِه ودواتِه". ينضمُّ الغدامسيُّ لثورةِ التعايشيّ مقاتلاً ضد علوجِ الانجليزِ وأعوانِهم حتّى يصابَ في صدرِه ويُمناهُ فيخرجُ بهِ بعضُ الأنصارِ إلى أرضِ الحبشةِ.

1892 – في برِّ الحبشةِ يختلطُ بالمسيحيّةِ الشرقيّةِ ويجدُ عندَهم علوماً روحانيّةً ويجدونَ عندَه. ويخطُّ أولَ مسودَّةٍ من محاوراتِه مع أحبارِهم "مواقفُ الصالحينَ من أتباعِ المسيحِ الأمينِ".

1893 – وعندَ نهرِ القاشِ بأرضِ تِغرايَ الإثيوبيّةِ يشهدُ الغدامسيُّ أولَ سِحنةٍ عسكريةٍ طليانيةٍ علَى تخومِ إريتريا داخلةً علَى إثيوبيا بالمدافعِ المجرورةِ، وسيَلتقي نفسَ الوجوهِ الموشّحةِ بالظلاميّةِ نازلةً من المراكبِ الروميّةِ علَى شواطئِ اطرابلس عامَ 1911، غيرَ أنّهُ ساعتَها سيقدَحُهم بالبارودِ.

1893 – يجلسُ في دَيْرِ دَبْرَادَامُو المجاورِ، علَى قمةِ الجبلِ المهيبِ، فيسمعُ من الأختِ مريمَ–جليلةَ بنتِ أصِيفا وساوسَ وتجلّياتٍ وأوهامَ لم تخطُر علَى قلبِه قطُّ،

ولا رآها في كتابٍ عندَ ثقةٍ من الرجالِ. فيصيبُه من ذلكَ حُمّى شديدةٌ يرتعدُ لها جسدُه كلُّه أياماً وليالٍ. فتأخذُه الراهبةُ العِيساويّةُ بالأعشابِ والصلاةِ والمحبّةِ حتّى يُشفَى. فتقولُ له إنَّ هواءَ البحرِ خيرٌ له من هذا الهواءِ البرّي، لأنَّ الغَمْرَ متّصِلٌ باللُّجَّةِ القُدُسِيّةِ.

1894 – يمضي في البحرِ إلى زنجبارَ فيحبُّ أهلَها وملاحةَ بناتِهم فيتزوّجُ منهم بنتاً هيَ سلمَى الحاجُ رحمَان، ثم يخرجُ بها إلى بلادِ مدغشقرَ فيقيمُ فيها ويتاجرُ ويتعلّمُ.

1897 – في الخامسةِ والثلاثينَ يخرجُ بالبحرِ من مدغشقرَ مع أهلِه إلى الهندِ فيظلُّ فيها مسافراً 4 أعوامٍ لا يستقرُّ له حالٌ فيتعلّمُ بعضَ كلامِ القومِ وعلومِهم وطرائقِهم، وفيها يدرسُ الطاوَ والبوذيّةَ وفنونَ النقشِ والزُّخرفةِ الهنديُةِ وشيئاً من إشاراتِ الصينِ التي تاخمتِ الهندَ فاختلطتْ بها.

1898 – يمرُّ بأرضِ راجبوتانا الهنديّةِ فيشهدُ "المجاعةَ الكبيرةَ" التي ترتّبتْ جهاراً علَى سياساتِ الإنجليز في نهبِ البلدِ والهيمنةِ عليه، فيرى مليوناً ومليوناً من الذّراري والأمّهاتِ يموتونَ رويداً لا يجدونَ لقمةً تسدُّ الرمقَ، والأموالُ والقطنُ والذهبُ بيدِ البرّانيّةِ. فينوشُهُ من هذا غضبٌ يكادُ يتفتّتُ له الظلمُ ثم لا يتفتَّتُ.

1899 – يكتبُ "نهرُ الطاويّينَ ولُجَّةُ الشرقيين – من أحوالِ الهندِ إلى مدارجِ الصين" وفيه شرحٌ للمظالمِ والأسواقِ الشرقيةِ والنهبِ والخراجِ الإنجليزيّ ومناهضةٌ طاويّةٌ لهذا كلّه، روحيّةٌ ودنيويّةٌ. قالَ آخمدو: وهذهِ رابطةٌ بين الأسواقِ والأرواحِ لم يعرفها أكثرُ الخلقِ من قبلُ، وهي من نَتْجِ هذا السّفَرِ والنَّظَرِ في أمورِ الخلقِ.

1901 – يخرج براً من الهندِ إلى فارسَ قاصداً العودةَ إلى الديارِ الغدامسيّة فيقيمُ بفارسَ عاماً يدرسُ فيها علومَ أهلِ البيتِ وآثارَهم ومراثيهم، فيتقوّى بها علَى وفاةِ زوجته الزنجيباريّةِ التي قَضَتْ بالحمّى فتوجّعَ لها أشدَّ الوجعِ. يقولُ أخمدو: وفيها كتبَ الشيخُ "مراثي الحضرةِ الزنجباريّة".

1902 – يخرجُ في موكبِ الحجّ من فارسَ إلى الديارِ الحجازيّةِ ويتعلّقُ قلبُه ببغدادَ والبصرة. وفي مكّةَ يكتبُ في عدةِ أيامٍ "ظلُّ السّدرةِ المكيّةِ وقوائمُ العرشِ الحجازيّةِ – رسالةٌ في العشقِ الغالبِ والشوقِ الذي لا بدَّ يغلِبُ".

1903 – يدخلُ مصرَ ويقعدُ في ناحيةٍ على طَمْيِ النيلِ يسمعُ من الفلاحينَ ويتكلّمُ مع الأفنديّةِ ويقرأُ لبعضِ الأئمّةِ من أهلِ البلادِ، ثم يخرجُ إلى الاسكندريّةِ فيكترِي عُشّةً مع بحارةٍ يقولُ: هم يخوضون البحرَ خيراً من خوضِ أكثرِ المتعلّمينَ للعلومِ. وفي المدينةِ العتيقةِ يكتبُ وريقاتٍ وجدتُ في أوّلِها كلاماً عن مصرَ: "بينَ الطميِ واللُّجّةِ قلبُ هذا البلدِ الطيبِ، فمن نهضَ بأهلِ الزرعِ وأهلِ البحرِ غلبَ بهم وغلبوا بهِ".

1904 – في الثانيةِ والأربعين يعودُ لغدامس وقد غابَ عنها 14 عاماً، فيجدُ عيالَه صاروا فتياناً يضربونَ الحديدَ، وزوجتَه بأرضِ الجزائرِ تَشْرِي الخزفَ والكتّانَ وتبيعُ الأقراطَ والأساورَ التي قدحتْها في نارِ الحدادةِ. يقولُ الشيخُ: ذهبنا لعلومِنا ومجاهداتِنا، وذهبتْ فاطمةُ لصنعتِها ومعائشِها، فنرقُبها قافلةً علَى سَنامِ المحبّةِ كمَا راقبَتْنا دهراً علَى سَنامِ الصبرِ.

قالَ أخمدُو: لما رجعتْ لِلّا فاطمةُ لواحةِ غدامس بعدَ عامٍ من تجارتِها بالجزائرِ وجدتِ الشيخَ بورشةِ الحدادةِ يصهرُ الحديدَ وصدرُه سافرٌ يكادُ ينقدحُ بالنارِ.

فرأتْ جروحَه الغائرةَ من ثورةِ الإمامِ بالسودانِ فقالتْ: يا عبدَ الرحمنِ، تجاورتْ في هذا الجسدِ الجروحُ الإماميّةُ بالحضرةِ الزنجباريّةِ فنحنُ نرثي هذهِ ونبوسُ تلكَ. وانحنتْ فقبّلتْ صدرَه وعاتِقَهُ وضَمّتْهُ وبكتْ وبكَى الشيخُ حتّى سمعنا لهما شهقةً يكادُ يهتزُّ لها العرشُ وتَصَدَّعُ الأسماءُ الحسنَى.

1904 – يجدُ عندَ اللِلّا فاطمةَ رسائلَ وأبحاثاً وكثيراً من الدرسِ والعلومِ التي كابدَتْها وجاهدتْ مقاماتِها في عددٍ من السنينِ، فيقعدُ يدرسُها ويُعَلِّقُ عليها ويشرحُها يقولُ: هذه ألواحُ فاطمةَ وكتابُها فلا يفوتُنا أن نستضيءَ به شيئاً كثيراً.

1904 – يُؤسّسُ الطريقةَ البستانيّةَ بغدامس مجاورةً لورشةِ الحدادةِ ويتكاثرُ حولَه التلاميذُ.

1907 – يكتبُ "سبيلُ المحبّينَ وسَقْيُ العارفينَ في حرثِ الأرضِ ونُوّارِ البساتين"

1909 – يُملي علَى أحمدو الخطاطِ وهو فتًى صغيرٌ كتابَ "روضةُ العُمّالِ وخمرةُ الآمالِ – كلامٌ في المحبّةِ والصناعةِ وعملِ اليدِ".

1911 إلى 1924 – في التاسعةِ والأربعينَ ينخرطُ الشيخُ في ملحمةِ الجهادِ الليبي ضدَّ علوجِ الطليانِ الذي قدموا إلى الشطِّ الطرابلسيِّ فيشتركُ في معاركِ الهاني وسيدي بلال والقُرضابيّة وسيدي بوعرقوب وغوط الديس وقصر القواليش.

1911 – الشيخُ يقولُ الشعرَ الشعبيَّ الجهاديَّ يحثُّ به الناسَ وهو أوّلُ ماعُرِفَ عنه من صنعةِ الشّعْرِ أمامَ الخلقِ عامّةً.

1923 – في السابعِ والعشرينَ من ديسمبرَ يصابُ الشيخُ بجروحٍ بالغةٍ في معركةِ وادي دينار ببني وليدَ فيعودُ إلى غدامس محمولاً علَى ظهورِ الإبلِ في مسيرِ شهرٍ

أو يزيدُ.

1924 – وهو في حُمّى جراحِ المعركةِ يكتبُ "المجاهدةُ والمكابدةُ: رسالةٌ في معنَى الإنسانِ"، وهو يظنُّ ظنَّ اليقينِ أنه ميتٌ في عدةِ أيامٍ.

1925 – يتعافَى من جراحِه فيخرجُ إلى تونسَ فيَرى المراكبَ تخوضُ البحرَ إلى مرسيليا، فتغلِبُه شهوةُ العلومَ فإذا هو في اللُّجّةِ ويدخل باريسَ وهو في الثالثةِ والستينَ من العمرِ، فيقعد فيها عاماً وعاماً آخرَ. يعملُ معلماً لبعضِ المسلمينِ والنصارَى المتشوّقينَ في هذه الديارِ، ويؤجِّرُ دليلاً يُدَرّسُه الفلسفاتِ الأوروبيةَ ومبادئَ العلومِ التطبيقيةِ، ويشاهدُ الفنَّ السينمائيَّ وفنونَ الرسمِ والرقصِ والموسيقَى الكلاسيكية. يكتبُ رسالةً طويلةً في الفنونِ والعلومِ المدنيّةِ يُسمّيها "عمرانُ باريس – مقالةٌ في الفنّ والعلومِ الحضريّةِ، ومبادئِ الفلسفةِ المدنيّةِ".

1927 – في الخامسةِ والستينَ يعودُ لغدامس ويستقرُّ بها مع زوجتِه وذُرِّيَّتِهِ وتلاميذِه بقيّةَ عمرِه عدا حجّتِه الثانيةِ والأخيرةِ بعد سنينَ.

1932/1928 – يمُلي علىَ بعضِ تلاميذِه كُتَيِّباتٍ صغيرةً كثيرةً يُسمّيها "الأرائِكُ الغِفاريّة" فيها إشاراتٌ وإلهاماتٌ خارقةٌ لا تصحُّ في كتابٍ يقولُ: "اكتُموها إلا لمن شربَ معَنا حتّى سَكِرَ فلم يعرفْ هل هذا كلامُنا أم كلامُه هُو"، يعني الحقَّ.

1932 – يُجري الماءَ سواقيَ خارجَ البلدةِ ويزيدُ من مقدارِ البساتينِ التي يزرعُها تلاميذُه ويبني ورشَ الحدادةِ والنجارةِ وخياطةَ النعالِ الغدامسيةِ.

1933 – يجعلُ الأستاذةَ بسمةَ بنتِ محمّدٍ الدّرجاويّة نائبَ الطريقةِ وإمامَ المسجدِ الجامعِ، وقد كانت تلميذتَه ومريدةَ علومِه وأحوالِه وهي فتاةٌ يافعةٌ.

1934 – يكتبُ الشيخُ رسائلَ مطوّلةً إلى الحواضرِ الإفريقيّةِ التي عرفَها في أسفارِه يسألُ عن أحوالِها وعن رفاقِه فيها وتلاميذِه ومعلّميهِ، ثم يبدأُ في إرسالِها، في سنواتٍ عدّةٍ، مع القوافلِ التجاريّةِ التي كانت تحطُّ بغدامس وهي الآن منتظمةٌ في شاحناتٍ وسياراتٍ صحراويّةٍ مَكينةٍ تنقلُ الناسَ والبضائعَ في إيلافٍ عجيبٍ.

1936/1935 – يكتبُ الغدامسيُّ نصاً إشكالياً يلتبسُ، لغةً ومعانٍ، علَى التلاميذِ والأساتذةِ العاملينَ في الطريقةِ. فيدسُّهُ الشيخُ بعدَ حينٍ عنهُم يقولُ: هو وسواسٌ نزلَ بقلبي فاتركوني واتركوهُ. قالَ بعضُهم: كانَ اسمُ الورقةِ التي عليها الكلامُ "الكتابَ" وفيها إشاراتٌ خارقةٌ أحسنَ الشيخُ أن جعلَها خبيئةً في ثيابِ الكنايةِ والتشبيهِ وإلا لفتنتِ الناسَ وأرهَقتْهُم.

1938/1937 – يحضرُ إلى غدامس جمعٌ من أهلِ التصوفِ الإفريقيّ الذين درسوا علَى يدِ الشيخِ في أسفارِه أو ثاقفُوه العلومَ. وكانَ الشيخُ راسلَهم أن يأتوهُ. فيجتمعونَ في البلدةِ الطيبةِ لحولينِ كاملينِ يتدارسُون أحوالَ الناسِ والبلادِ، وبعضاً من الذكرِ والحضرةِ والغناءِ. قالَ آخمدو: وفي هذا الاجتماعِ العظيمِ تلقّبَ الشيخُ الغدامسيُّ، في الخامسةِ والسبعينَ من عمرِه، بالخليفةِ. ناداهُ بها تلاميذُ حاضرةِ شنقيطَ أوّلاً، فأعجبتِ العارفين من فاسَ إلى زنجبارَ وجعلُوها إشارةً يختصُّ بها بلخير، فكانَ الشيخُ يتحشّمُ من ذلكَ حتى تحمرَّ وجنتاهُ.

1941/1940 – في الثامنةِ والسبعينَ من عمرِه يخرجُ للحجِّ وفي طريقِ عودتِه يتوقّفُ ببلدةِ سرتَ فيُداوِي والدي الحاجَ عليَّ بنَ إبراهيمَ بنِ منصورٍ، وهو فتًى في الرابعةِ عشرةَ، من مرضٍ أصابَه وحمّى ألَمّتْ بهِ. فيحتفِي أعمامي بالشيخِ الذي يصيرُ معلّمَ البلدةِ الساحليّةِ وإمامَها لسنتينِ تامّتين.

1942 – يجلسُ في وادي جارفَ ببادية سرتَ وسطَ غِمارِ الحربِ الثانيةِ. يقولُ الشيخُ: هذي رحمٌ طيبةٌ تنفعُ للفكرِ والعملِ ويكتبُ "المناهضةُ والإزاءُ – مبحثٌ في هيئةِ الوقوفِ، وتسويةِ الصفوفِ، والأحوالِ المؤدّيةِ إلى الثورةِ".

1942 – يعودُ لغدامسَ وهو في الثمانينِ ويجلسُ بها بقيّةَ أيامِه. يبدأُ في تأليفِ الحديقةِ الغدامسيّة وهو كتابُ "الحديقةُ الزاهرةُ، والروضةُ العاطرةُ، في مُقاماتِ الخلافةِ الباكرةِ"، وأيضاً "الحديقةُ البهيّةُ، والروضةُ السنيّةُ، في إقامةِ الخلافةِ العَلِيّةِ"، وأيضاً "الحديقةُ الدانيةُ، والروضةُ الغانيةُ، في مدارجِ الخلافةِ الآنيةِ"، ويُدرِّسُ علومَها ومعانيها لتلاميذِه ومريدِيه وهو يكتبُها موسماً موسماً ومُحاورةً محاورةً.

1943 – يقصفُ برابرةُ الفرنسيسِ بلدةَ غدامس ويذبحونَ العشراتِ من الذّراري والأمّهاتِ والرّجالِ وفيهم اثنانِ من أبناءِ الشيخِ فيُصِيبُهُ من هذا حزنٌ عظيمٌ فيُملي علَى خطّاطِه الأمينِ أخَمدو "شجرةَ الأحزانِ الغدامسيّة" وهيَ نصٌّ بديعٌ في معنَى الحزنِ والصبرِ والمجاهدةِ.

1948 – يزرعُ الناهبُ البرّاني الكيانَ الحاجزَ في قلبِ الجسدِ العربيّ والشيخُ قد بلغَ من العمرِ ما بلغَ، فيَستأذِنُهُ أصغرُ أولادِه للجهادِ فيَأذنُ له ويستوحشُه حتّى يعودَ الولدُ مكسورَ الخاطرِ بعدَ حولين. يقولُ الشيخُ: هذا مخفرٌ للتخويفِ وتعطيلِ الحالِ، ونحنُ محبوسون في هذي الدكاكينِ التي صنعوها للجبايةِ ووضعوا عليها النواطيرَ، فلا يُغلَبُ المخفرُ إلا بجمعِ الدكاكينِ فإذا هي قلبٌ واحدٌ لا يُنهَبُ ولا يكونُ عليهِ العسَسُ، عسَسُ البرانيّة.

1951 – تَتّحِدُ الولاياتُ الليبيّة الثلاثُ وتنالُ استقلالاً ناقصَ السّيادةِ والمعنَى فيكتبُ الشّيخُ رسالتَهُ الناقدةَ "فجرُ العلومِ لمن رامَ الخلاصَ من الرُّومِ".

1952 – تقومُ ثورةُ يوليو في أرضِ الكنانةِ فيستبشرُ بها خيراً ويكتبُ عن أحوالِها وإرهاصاتِها آخرَ نصٍّ له، عدَا الحديقةِ الغدامسِيّةِ التي سيختِمُها بعد عامينِ، وعنوانُه فيما أوردَ خطاطُه الأمينُ آخَمدو بن سالم "وِرْدُ قضاءِ الحاجاتِ، من غَمْرِ النّيلِ إلى طَمْي دَجْلَةَ والفُراتِ".

1954 – تنقدحُ شرارةُ ثورةُ التحريرِ الجزائريّةِ فيسألُه الناسُ كيفَ يصنعونَ فيحثُّهم الغدامسي إلى الجهادِ وينظّمُ التبرعاتِ والرجالَ.

1954 – ينطلقُ إمامي أحمدُ بن محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدُّرّي، إمامُ الزاويةِ البستانيّةِ بحاضرةِ اطرابلس العليّةِ، وهو فتًى في الثانيةِ عشرةَ مع أبيهِ في رحلةٍ لدعمِ الثورةِ الجزائريّةِ من اطرابلس عبرَ غدامس فيلتقيانِ بالشيخِ عبدِ الرحمنِ الغدامسِيّ ويسمعانِ منه العلومَ الجليلةَ ويُعِينهما في سفرِهما وجهادِهما. ولا يعودُ إمامي يسمعُ عن الغدامسيِّ حتّى آتيهِ أنا بمخطوطِ كتابِ الحديقةِ وهو شيخٌ يُدرسّنا العلومَ في اطرابلس بعد هذا بعقودٍ من الزمنِ.

1954 – يقرأُ الشيخُ عبدُ الرّحمنِ الغدامسِي *الإشاراتِ الغدامسيةَ*، وهيَ خواتمُ مواسمِ الحديقةِ وآخرُ ما أملاهُ من الكتابِ، علَى مسمعِ خطّاطِه آخمدُو في ليلةِ وفاتِه في الرابعِ والعشرينَ من ديسمبرَ 1954 ببلدةِ غدامسَ بين تلاميذِه وزوجتِه اللِّلّا فاطمة وعيالِهما وقد ناهزَ الثانيةَ والتسعينَ، ويُدفن ويُصلّى عليهِ في عصرِ اليومِ التالي تحتَ نخلةٍ باسقةٍ في بستانِه الذي بدأَ حرثَه وزرعَه أوّلَ أيامِ شبابِه.

1959/1954 – ينضمُّ تلاميذُ الشيخِ للجهادِ ضدَّ علوجِ الفرنسيسِ ويُستَشهدُ جُلُّهم في معركةِ ايْسَيّنَ التاريخيةِ عامَ 1959، ومنهمُ الخطّاطُ الأمينُ آخمدُو بن سَالم، ويتفرّقُ بقيّتُهم بين البلدانِ للدرسِ والعلمِ والعملِ.

* * *

1998 – بعد مرور 54 عاماً من وفاةِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ الغدامسيِّ أمرضُ أنا موسَى مرضاً شديداً ببلدةِ سِرْتَ الساحليّةِ. تُعالجني أمّي، رعاها اللهُ، بأوراقِ مخطوطٍ للشيخِ الغدامسيّ عنوانُه "الرسالةُ اليمانيّةُ" كانت وَرِثَتْهُ هيَ عن أبي الذي داوَاهُ شيخُنا وهو طفلٌ ببلدةِ سرتَ سنة 1940، كما سلفَ. أقرأُ الرسالةَ اليمانيّةَ وتُعْلِمُني أمي باسمِ الشيخِ أبي الخيرِ عبدِ الرحمنِ لأولِ مرّةٍ فيغلبني الفضولُ، فتبدأُ رحلتي في البحثِ عنه والتعرّفِ على آثارِه وأنا في الرابعةِ والعشرينَ من عُمري.

1999 – أزورُ بلدةَ غدامِس الصحراويّة فألتقي، في مصادفةٍ إلهاميّةٍ، الأستاذَ بشيرَ بنَ ضوءٍ بنِ خيرِ الدينِ الذي وَرِثَ عن عائلتِه مخطوطَ كتابِ الحديقةِ الغدامسيّة عن الشيخ أبي الخيرِ الغدامسيّ نفسِه ومعها علومٌ وأسرارٌ جليلةٌ.

2008/1999 – آخذُ المخطوطَ وأبدأ في نسخِه وتصويرِه ودراستِه وفكِّ خطِّه وإعرابِه وترقيمِه وأنا أدرسُ جامعيّةَ الاقتصادِ السياسيِّ، ثم عُليَا الفلسفةِ والفقهِ والتصوفِ، ثم دقيقةَ الفنونِ والإعلامِ بالديارِ البريطانيّةِ.

2020/1999 – أعثرُ في أسفاري بالديارِ الإفريقيةِ والتخومِ الأسيويّةِ على بعضِ آثارِ الشيخِ ومخطوطاتِه السالفةِ الذِّكر متفرقةً بين البلدانِ في حالٍ من النقصِ وامّحاءِ الخطِّ وشحوبِ الكاغدِ.

2010/2003 – أنشرُ أجزاءَ متفرّقةً من مخطوط الحديقة الغدامسيّة في طبعاتٍ منزليةٍ صغيرةٍ وغيرِ كاملةٍ. يقرأهُ العارفونَ من أهلِ الطريقةِ والتلاميذُ ويشرحونَهُ ويتكلّمونَ عليهِ، فأضيفُ شروحاتِهم إلى واطئةِ الكتابِ المطبوعِ وأُسَمّيها الشروحَ الليبيّةَ.

2011 – تضيعُ بعضُ الأوراقِ وكثيرٌ من الجهدِ والشروحِ والملاحظاتِ في عامِ النكبةِ الليبيّةِ بعدَ قصفِ حلفِ الشّمالِ للمساكنِ والمدارسِ والناسِ، ويستشهدُ من جماعتِنا 19 شيخاً وأستاذاً وتلميذاً بين مناوشةٍ كاسرةٍ ودعوةٍ للسلمِ حاسرةٍ، منهم بعض أقطابِنا وأغواثِنا في قَنْبَلَةِ الثالثِ عشرَ من شهرِ الماءِ/مايو بأرضِ البْرِيقةِ، فأحمدُ اللهَ أني حفظتُ بعضاً من كلامِهم وتجلّياتِهم وأسرارِهم.

2012 – الطبعةُ المصريّةُ بالقاهرةِ. طبعةٌ شديدةُ النقصِ ومتعجّلةٌ من نسخةٍ رقميّةٍ مُسرّبةٍ خارجَ البلدِ، دفعتُ بها لصديقٍ وأنا في جبالِ بني وليدَ فصحراءِ أركْدوا فأچاديسَ فنيامي.

2015 – طبعةُ الدارِ العربيةِ للدراساتِ والنشرِ ببيروتَ – طبعةٌ ناقصةٌ فوقَ مقدارِ النصفِ ولكنّها مراجعةٌ ومُرتّبةٌ وفيها بعضُ الخيرِ والفهمِ وكثيرٌ من الجهدِ.

2020 – طبعةُ دارِ عرَب اللندنيّة التي بينَ يديكَ. وهيَ الطبعةُ الأولَى التّامةُ، والمراجعةُ مراجعةً دقيقةً، والمشروحةُ بكلامِ العارفينَ، والتي اكتمَلتْ أركانُها وأسميتُها طبعةَ التّسليمِ.

* * *

رحمَ اللهُ الشيخَ أبا الخيرِ، عبدَ الرحمنِ الغدامسيّ، وجعلَهُ نوراً في مِشكاةِ المحبّةِ، ونهراً جارياً في لُجَّةِ العلومِ، وبُستاناً في أرضِ الإنسانيّةِ الكاملةِ. ورَحِمَ شيوخي والتلاميذَ، من ماتَ أو استُشهِدَ منهم، وحفظَ من كان حيًّا أَئِمَّةً لهذا البلدِ المكلومِ.

شُيوخُ مُوسَى

أساتذةُ وأصحابُ المحقِّقِ الشارحِ السَّيدِ
أبي الحارثِ موسَى بنِ إبراهيم،
ومساكنُهم العامرةُ

الإمامُ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ إبراهيمَ بنِ منصورٍ الدرّي
رفيقُ الكادحينَ، وملجأُ المظلومينَ
إمامُ الجماعةِ البستانيّةِ، ومعلمُ الطريقةِ المشاعيةِ
بحاضرةِ اطرابلس البهيّة

شَيخي الفتحُ بنُ عبدِ الجبّارِ المُجتبَى
حضرةُ البكاءِ، وشيخُ الزاويةِ الخضراءِ،
بحاضرةِ بنغازي، ونواحي المرجِ والبيضاءِ

أُستاذتي زِينةُ العالميَن راويةُ بنتُ جَميلٍ النَورانيّ
أستاذةُ المحبةِ والمكابداتِ، في مساجدِ وزوايا العجيلات

سَيّدتي الواجدةُ بالله سمرُ الزمانِ المهديّةُ
سيدةُ المواجدِ والإشاراتِ، في واحاتِ سبها وغات

العَارفةُ بالِله فاتنةُ بنتُ الواجدةِ بالله المهديّةِ
عارفةُ فزّان، وفتنةُ الأبدان، والقائمةُ بالبرهان

مُعلّمي أبو العيال مُغيثٌ بنُ عامرٍ بنِ المُعلَّى
معلمُ المقاماتِ وأسرارِها، في باديةِ سرتَ وما حولَها

أُستاذَتي رقيّةُ بنتُ الحبيبِ الرضيّةُ
قدوةُ العاشقِ والمريد، في جبالِ ترهونة ووديانِ بني وليد

مَولاي تاجُ السرِّ عليٌّ بنُ زهرةِ الحُسنِ
مولَى المعارفِ والحقائقِ في صحراءِ الطوارق

شَيخي الحسنُ بنُ الغريبِ الواحديّ
شيخُ السياحةِ والأسفار، من تمبكتو إلى تاورغاءَ بلادِ الأحرار

مَولاتي زُهرةُ حبيبةُ الله بنتُ العالمَين
مولاةُ العملِ والمجاهدةِ في مساجدِ الأصابعةِ العابدة

السَّالكُ في الطريقِ حسنٌ بنُ رحيلٍ المشريّ
مثالُ التلاميذِ والمريدين في ورفلّةَ بَرِّ الرياحين

أُستاذي نورُ العقولِ قُرْلُسُ بنُ مُرقصَ العامليِّ
أستاذُ العلومِ المعيشيّةِ في حلقاتِ الطريقةِ ومعاهدِ بلدةِ العزيزية

شَيخي أبو القاسمِ سعيدُ العاقبةِ عامرٌ بنُ منصورٍ
شيخُ الغناءِ والبرهانِ، في بساتينِ سلوقَ وزوايا البطنان

العارفةُ باللهِ، مزنةُ الخيرِ،
جولِيُن بنتُ نورِ العقولِ قُرلسَ
العارفةُ بالإشارات، الموغلةُ في المسافات، وإمامةُ برِّ أوباري وغات

حَادي الدّروبِ، ووَلِيُّ القلوبِ
الصّدِّيقُ بن عبدِ الله السّاقي
جليسُ العاشقين، وأنيسُ المحبين، بنواحي الجميل ورقدالين

شَيخي المهمومُ بالخلقِ، المسكونُ بالعالمِ
الحارثُ، بنُ الصادقِ، المتوقّدُ
شيخُ الرؤَى والبشائر، في مساجدِ زليتن وخلَوات ماجِر

أُستاذتي فاطمةُ ريحانةُ القلوبِ بنتُ حالِ الودِّ الفاتحةُ
من عابداتِ غدامسَ ودِرْجَ وسيناونَ والحمادة،
إمامةُ المحبّةِ،
وصاحبةُ اللواءِ والريادة

العاملُ المهدي بن بَرْكة
كادحُ الورشِ والمصانع ،وشِغّيلُ المحاجرِ والمقالِع
آسرُ الضمائرِ وناهبُ الخواطرِ، المسمّى بالجمالِ الساطعِ

أخي زينُ السماحِ، ومقصدُ الأرواحِ
صبحي بنُ مسعود،
رفيقُ الرجالِ، وسليلُ الآمالِ
في بلدةِ الأصابعةِ أرضِ الأبطالِ

الأستاذُ بَابِكِر بنُ الفاتحِ النّوبي،
غوثُ السودان، وعارفُ قرنةَ وأسوان،
الفتحُ الباهرُ، والنيل الغامر،
وإمامُ الزمانِ الظاهر

مولايَ الحسنُ بنُ عبدِ الملِكِ الحضْرميّ
أستاذُ الطريقةِ، وصِنْوُ الحقيقة،
صاحبُ البهاء، وضوءُ السماء،
في حضرَموتَ، وديارِ عدنَ وصنعاء

شيخَتي خديجةُ بنتُ ماءِ العينينِ الشّنقيطيّ
مولاةُ المسرّاتِ، وصانعةُ البهجات،
صاحبةُ العلمِ والسّناء،
وسلطانةُ الوجدِ والرجاء
في نواحي شِنقيطَ والساقيةِ الحمراء

العارفُ بالخلقِ العرْبِي بن مهيدي،
شيخُ المودّةِ والكراماتِ، وأستاذُ التجلّي والفتوحاتِ،
السلطانُ الآسرُ، والمددُ العامرُ
بديارِ عَنّابةَ، ووَهرانَ، والجزائر

السيدُ الأمينُ صلاحُ الدينِ الدُّرّةُ،
قوتُ القلوبِ الصابرةِ، وسندُ المواجهةِ الحاسرةِ
العارفُ العابدُ، وزادُ المجاهد،
في أريحا والجليلِ والناصرة

بركةُ الأرضِ والسماءِ،
نافعُ بن سُكّرَ البهلولُ،
درويشُ بوسليمَ والهضبةِ الخضراء،
وبهلولُ اطرابلسْ والزهراء،
القلبُ العاملُ والحالُ الكاملُ،
ومقامُ العرشِ والأسماء

رفيقا العلومِ وعاصرا الكروم،
شيخي ساسي بن نايلْ، وأستاذتي هنيةُ بنتُ بوبكر،
معلما الطريقةِ وآدابِها العليّة، في ديارِ الزاويةِ البستانيّة

التلميذُ عبدُ الله التّوغولي

القلبُ المهاجرُ والبدنُ الصابرُ

من ديار لومي وأتاكبامي أرض البشَائر

ماءُ السماءِ، وشارةُ الولاءِ

الشيخُ الطاهرُ بنُ الرّضا

بابُ العلومِ الآنيّةِ، ومِشكاةُ الأسرارِ الإماميّةِ

في البصرةِ والنجفِ وكربُلاء

❋❋❋

مَنْ أرادَ الخلافةَ الواجبةَ للإنسانِ دخلَ حديقةَ الغدامسيِّ فَلَقَمَ ثديَ المعارفِ، وكَرَعَ من لبنِ العلومِ، ونهلَ من خمرِ الأسرارِ، حتّى تظهرَ لهُ التخومُ، ويَبِينَ قُدّامَهُ الطريقُ. ثمَّ يُكَلِّمُهُ صاحبُ السِّدْرَةِ، ويصيرُ هو الصّادعَ بالأمرِ، والمحمومَ بالمعَاني، والقائمَ بعرشِ العدل والجمالِ.

اللّا فاطمةُ بنتُ حـامدٍ بْنِ بِلِحْسَنْ، من مخطوطةِ "اعتبارُ المحبّينَ، ورعايةُ العاملينَ، لِمَنْ جلسَ من التلاميذِ إلى الصـادقِ الأمينِ". غـدامِس 1954م


موسى إبراهيم
الحديقةُ الغدامسيّةُ

الحديقةُ الغدامسيَّةُ

مخطوطة صوفية للشيخ بلخير الغدامسي (1862- 1954م) يقدمها المؤلف موسى إبراهيم في سردية تراثية أصيلة استغرقت 21 عاماً من الجهد العلمي والمثابرة الأكاديمية الدقيقة.

الكتاب مغامرة فكرية باهرة، وتجربة إنسانية عميقة، وموقف أصيل من أوجاع الإنسان وأشواقه الكبرى. يرحل الغدامسي من «زمن الغيبة» الذي يتيه فيه الإنسان بين فضاءات القلق، حتى يتجلى له «الحق» ويشير إليه بالطريق، أن يبني لنفسه وللخلق جميعاً حديقة شاملة في 24 موسماً مختلفاً، يكدحها الشيخ حتى يصل إلى «زمن الخلافة» الذي يستوي فيه الإنسان على عرش العشق والعدل والمشاركة الكونية.

إن دار عرب تعتبر الحديقة الغدامسية فتحاً روحياً غامراً، واستشرافاً فكرياً لزمن عربي جديد، وتدشيناً لخلافة الإنسان الذي أعاد اكتشاف ثم بناء علاقته مع نفسه، ومع الله، ومع الكون. فنحن ندعوك، أيها القارئ، لأن تدخل إليها بمحبة صوفية، ومتعة أدبية، ومبارزة فكرية، كي تنهل من خمرها، وتقتات من كرومها، وتسند قلبك من حصادها الحدائقي الغامر.

الناشر



